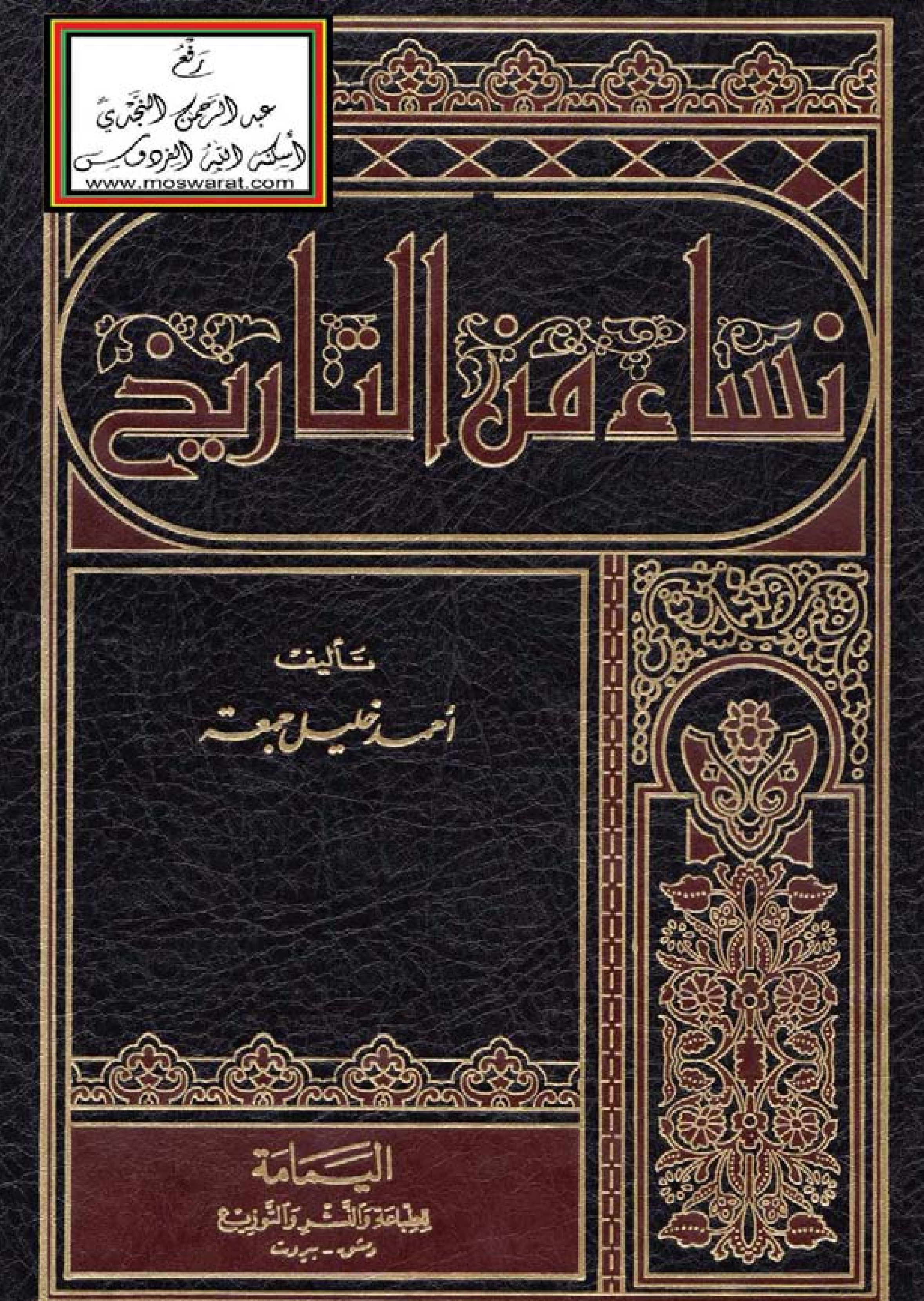


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
نساء من التاريخ
تأليف
أحمد خليل جمعة
اليمامة
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت




نساء من التاريخ

الطبعة الثانية

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م



دمشق - برامكة - جانب الهجرة والجوازات - ص.ب ٣٧٧ - هاتف: ٢١٢٢٠٥٩ - ٢١٢٣٢٤٥

بيروت - برج أبو حيدر - خلف دبوس الأصلي - ص.ب ١١٣/٥٤٨٨ هاتف: ٧٠٢٩٥٩



تأليف

أحمد خليل جمعة

اليمامة

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - بيروت

الإهداء

إلى أُمّ سيّد الأنبياء، آمنة بنت وهب الزّهرية .

إلى كلّ امرأة تودّ أن ترسم السّعادة في هذه الحياة .

إلى الراغبين في سِيَر الصّالحات ،

مُدركين أنّ السّعادة تنبع من الإيمان .

إلى النّاظرين في حقيقة المرأة ، فهي مَجْمع كلّ

فضيلة ، ومنبع كلّ خير .

إلى كلّ هؤلاء، أهدي هذا الكتاب .

أحمد



بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

بقلم
الأستاذ: يوسف علي بديوي

الحمدُ لله وكفى، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا محمد النَّبي المصطفى؛ الذي وفَّى ووفى.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، صَدَق وَعْدَه، ونَصَر عَبْدَه، وأعلى دينه، القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

وأشهد أن محمداً عَبْدُ الله ورسوله، خير نبيٍّ اصطفاه، ورحمة للعالمين أرسله، وهو القائل: «إنَّما النساءُ شقائقُ الرِّجال»(١).

ورضي اللهُ عن الصَّحابة الكرام، ورَحِمَ السَّلَفَ الصَّالح، والعلماء العاملين، ومَنْ تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد:

فقد سَبَق للمؤلِّف الفاضل الأستاذ «أحمد خليل جمعة» أن خطَّ ـ بعون الله تعالى ـ عدَّة مُصنَّفات حول المرأة، مُبْرِزاً شخصيتها، وأثرها في الأسرة

---

(١) رواه أبو داود.

والمجتمع عبر العصور التاريخية، ومن تلكم المصنَّفات:

* نساء من عصر النبوة
* نساء من عصر التابعين
* نساء الأنبياء
* نساء أهل البيت
* نساء من الإسلام
* نساء مبشرات بالجنة.

واليوم يتابعُ مسيرته في الكتابة عن المرأة في التاريخ العربي والإسلامي، فأوضح دَوْرَ المرأة في العصور الخوالي، وأبرز البصمات النِّسَوية في خصالها التي عُرِفَتْ بها، وميزاتها التي لمعت من خلالها.

ويمكن أن نتحدث عن هذا الكتاب، وأهميَّته من خلال نقاط منها:

(١) أنه كتابُ وثائق قاطعة، وشواهد ماثلة، ونقول صحيحة، دون تزيُّد أو انتقاص، ومؤلِّفُه أديبٌ غيور، رَحْب المعرفة، جرَّد نَفْسَه للولوج في أعماق التاريخ، واستخلاص مخبوءاته؛ للظفر بالدُّرر الكامنة في ثنايا ذاكرة الأيام، وسطور الزمان. وقد نجح المؤلِّف ـ أثابه الله ـ في جولاته، فكان بحقٍّ مُتَرْجِماً للشخصيات النسائية التي انتقاها، ونَفَضَ عنها غُبارَ النّسيان، وأزاح أستار الماضي، فكانت الحصيلةُ صيداً وافراً، وسَبْقاً ظافراً، وسياحة في الزمن الغابر بما يفيد، ويغني، ويفي بالمطلوب، ويُحقِّق الهدفَ المنشود.

(٢) في الكتاب عَرْضٌ لفضائل المرأة العربية والإسلامية، وتعدادٌ لمآثرها في الأسرة والمجتمع، من خلال دراسة علمية مُوثَّقة بأصحِّ النُّصوص، ومُستمدة من أوثق المصادر، دَأَبَ المؤلِّفُ ـ نَفَعَ اللهُ به ـ على تحصيلها، وجَمْعها، والبحث عنها هنا وهناك، وأعطاها من خالص وقته، وكبير جهده، وعميق فكره، وذَوْب قلبه، وواسع علمه، حتى نضجت التراجم، فاستوتْ قائمةً في كتابٍ مطبوع، يراه القارىءُ الكريمُ ماثلاً بين يديه.

فنحنُ أمام موسوعةٍ حافلةٍ بشتَّى صُنُوف أدوار المرأة، من حيث: العلم، والفضل، والرِّيادة، والأثر الإيجابيّ، والدَّور الخلاَّق، والمشاركة في الحياة؛ في ضوء الواقع والتاريخ.

(٣) الكتابُ يكشفُ عن دور المرأة عبر العصور، ومدى تفاعلها مع الأحداث في مجالاتها الرَّحبة، فهي صانعةُ الرجال، وأمّ الأبطال، وهي الحكيمة العاقلة، والفاضلة التقية، والنَّاصحة المرشدة، والعابدة القانتة، والخطيبة المصقعة، والبليغة المعبِّرة، والكاتبة الشاعرة... إلى غير ذلك من توجُّهات الشخصيات المترجمة.

(٤) اتَّبع الكاتبُ ـ نَفَعَ اللهُ به ـ منهجَ الاستقراء للنُّصوص التي عَرَض لها، فلم يكتفِ بالسَّرد والاستعراض، بل دلَّل على صِحَّة ما يذهبُ إليه بالنَّصِّ القاطع، والدَّليل السَّاطع، مع الاستقصاء، والقراءة المتأنِّية، والتدبُّر الأمثل للمضامين والأفكار المطروحة، فهو لم يقفْ إزاءها مكتوفَ الأيدي، بل فكَّ رموزَها، وعلَّق عليها، ودَرَس أبعادها، وخَرَج بالنَّافع المفيد، فمنهجُه يعرضُ النَّصَّ ذا الدّلالة مع موضوع البحث؛ بشكلٍ واضحٍ، لا يحتاجُ القارىء من خلاله إلى بذل جهدٍ في الاستنباط، أو إعمال الفِكْر، فالمؤلِّف ـ بارك اللهُ فيه ـ واضحٌ في قراءاته، وعَرْضه، وشواهده.

(٥) إنَّ استعراضَ ثلاث وعشرين شخصية نسائية؛ يكشف عن دور المرأة الواعي، وممارستها للحياة في مختلف مجالاتها، واختصاصاتها، سواء أكان ذلك في مجال النشاط الاجتماعي، أو السياسي، أو المهني، أو التعبدي، أو الأسري... وكان من نتيجة هذه المشاركات وَضْعُ معالم للمرأة العربية والمسلمة، حيث نَمَتْ مداركُها، ووعَتْ مسؤولياتها، وبلغتْ درجةً عاليةً من النضج، والثقافة، والتأثير فيمن حولها.

(٦) الحواشي مفيدة للغاية، ففيها شرحٌ للألفاظ الغريبة، وبعض التعليقات الموضِّحة المُغْنِية، إضافة إلى الفوائد اللغوية، والشَّذرات التاريخية، والنظرات الصَّائبة، والآراء المحكمة، علاوةً على عزو النُّقول إلى مصادرها.

وجاءتْ تعليقاتُ المؤلِّف ـ زاده اللهُ عِلْماً ـ قطعةً من عَقْله الرَّاجح، ونبذةً عن فكره الناضج؛ قولاً شارحاً، أو ترجيحاً ناطقاً، أو تبصُّراً نافذاً، أو رَصْداً رائداً، فَوَضَعَ أمام أعيننا جواهرَ من القول، تنطقُ بالحق والنَّظرة الثاقبة، وهو بذلك يضفي على الكتاب بأدب التعليق: رُوحاً جديدة، وفَهْماً نيِّراً، وإضافات لها وَزْنُها، وأصالتها.

(٧) النَّصُّ مضبوطٌ بالشكل؛ مِمَّا يُسهِّل تناول الكتاب، ويأخذ بيد القارىء إلى جادَّة الصَّواب.

(٨) الشواهد كثيرة ومتنوِّعة، فهي مُستمدَّةٌ من القرآن، والسُّنَّة، وأقوال العلماء، والمؤرِّخين، والحكماء، والمعاصرين، وغير ذلك. وهذا يُشكِّل ثروةً ثقافيةً تُغني الكتاب، وتفي بالأمل المنشود من تدوين صحائف هذا الكتاب.

(٩) بَذَلَ المؤلِّفُ ـ جزاه اللهُ خيراً ـ جهداً خاصَّاً في الاستطرادات التي حَلَّق عبرها، فأدلى دَلْوَه في كثيرٍ من القضايا، كالمدائح النبوية؛ إذ أعطى فكرةً مُهمَّةً ومفيدةً عن تطوُّر هذا الفن الشعري، وأشهر أعلامه.

(١٠) نلاحظ الجِدَّةَ في كتابة بعض التراجم، حيث كُتب عنها للمرة الأولى بهذه التوسعة، وذلك التناول، فللمؤلِّف ـ زاده اللهُ من نِعَمِه ـ فَضْلُ الرِّيادة، كما كان له فَضْلُ السَّبْقَ في كُتُبٍ مَضَتْ، وشخصيات ترجم لها، وجَمَعَ أطرافَ أخبارها بجهده الخاصّ، وخطَّها بيراعه المبدع، فظهرت دُرَّةً في جبين التاريخ، وأضحتْ بدراً منيراً في عالم التراجم[1].

(١١) أسلوبُ المؤلِّف ـ أدام اللهُ عليه مِنَنَه ـ أدبيٌّ، سيَّال، مُتفرِّد، يضمُّ بين ثناياه الألفاظَ الجميلة والجزلة، والتراكيب العربية الدَّالَّة، والجُمَل المنسبكة بانسجامٍ وتلاحم؛ مما يشير إلى تمكُّن الكاتب من ناصية اللغة، ومقدرته على النَّحت والاشتقاق، وتطويع الألفاظ للمعاني، مع الإشراق

---

(١) يُنظر ما كَتَبه المؤلف في ترجمة أنس بنت عبد الكريم زوج ابن حجر العسقلاني، وست الركب، وفاطمة اليشرطية، وغيرهن.

الأدبي، وسحر الكلمة، وموسيقا التعبير، والتحليق في مجال البلاغة والتصوير الفني؛ ممَّا يشدُّ القارىءَ لمتابعة الأحداث؛ عَبْر مسيرة الترجمة في الخطوط العريضة، ودقائق التفصيلات.

(١٢) في كلِّ ترجمةٍ نجدُ عناوين جانبية، تُقسِّم حياة المرأة المترجَم لها إلى فقرات، والهدف من ذلك: توزيع حياة الشخصية إلى فقرات تفصيلية، بدءاً من النشأة والميلاد، وانتهاءً بلحظات الوداع؛ مما يُعطي القارىء استراحاتٍ متتابعة وهو يتلو المقاطعَ الواحد تلو الآخر.

ثم إنَّ العنوانَ الجانبيَّ يُلخِّص الأحداث الواردة في الشرح والتَّفصيل، فهو بمثابة تمهيدٍ ومدخل لكلِّ فقرة.

(١٣) ثم إنَّ هذا الكتابَ دُوِّن في الأصل لِيُقَدَّمَ إلى إحدى الجامعات العربية؛ لنيل شهادة علمية عليا، ولكن حالتْ ظروفُ المؤلِّف الخاصَّة دون تحقيق ذلك.

(١٤) والكتابُ يجمعُ إجاباتٍ صحيحةً لأسئلةٍ كثيرة تنداح في الذهن...

فما قصَّةُ «عين زُبيدة» في مكة المكرَّمة؟

ومَن هي الخطيبةُ البارعة التي وفدتْ على معاوية، وحفظ لها التاريخُ بلاغتها؟

وما أَثَرُ زوجة الحافظ ابن حجر العسقلاني في حياة هذا العالم الكبير؟

ولم طلَّق أبو الأسود الدُّؤلي زوجته؟

ولماذا خَطَبت أم سلمة بنت يعقوب أبا جعفر السَّفَّاح؟

وما قصَّةُ أمِّ البنين مع الحجاج؟

ومَنْ هي المرأةُ صاحبةُ الوصايا العشر لابنتها التي زُفَّت لزوجها؟

ومَنْ صاحبةُ الكلمة التي ما إن أطلقَتْها حتى قُتِل ملكُ الحيرة؟

وما قصَّةُ التيس المزعوم في المشهد النفيسي؟

إلى ما هنالك من أسئلة، تجد ـ عزيزنا القارىء ـ إجاباتٍ عنها في ثنايا هذا الكتاب.

(١٥) والمؤلفُ غنيٌّ عن التعريف، فهو كاتبٌ مشهودٌ له، ومُؤلَّفاتُه متنوِّعة ومطبوعة، والقُرَّاء يُولُونه كلَّ الحبِّ، والتقدير، ويدعون له بالتَّوفيق، والمزيد من العطاء العلمي، والإنتاج الأدبي.

ولقد عرفتُه ذا تفكيرٍ هادىء عميق، وصاحب نظرةٍ نقدية، وشجاعة أدبيَّة، زيادة على الصِّدق في القول، والاستقامة في السلوك، مع الخُلُق النَّبيل، إضافة إلى الحسِّ المرهف، والعقل النَّافذ، والدَّأب في التَّحصيل، والصَّبر على العلم، والتَّحرِّي في كشف ملابسات المسألة، والبحث عن الجذور للوصول إلى الحلول.

وعلى الرغم من الظروف القاسية التي مرَّتْ به، فقد تغلَّب عليها، ونحَّاها جانباً، واستمرَّ يُعطي بجهدٍ دؤوب، ونَفْسٍ سمحة، ومصابرة على التنقيب في أطواء التاريخ، وصفحات المصنَّفات؛ كي يُقدِّم الخير، والنفع، والفائدة للناس.

وختاماً لا يسعني إلا أن أشدَّ على يدي المؤلِّف مُكْبِراً جهدَه، وصَبْرَه، وتأنِّيه في البحث، داعياً اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يُوفِّقه لمزيدٍ من الدراسات القيِّمة، والبحوث المفيدة، وأن ينفعَ بهذا الكتاب النَّفْعَ العميم، وأن يجزيَ مُؤلِّفَه خيراً عمَّا بذل من جهدٍ في: الجمع، والإعداد، والتنسيق، والتأليف، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى صراطٍ مستقيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

دمشق في شوال/١٤١٧ هـ
شباط/١٩٩٧ م

يوسف علي بديوي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمـةُ الكِتاب

الحمدُ للهِ ذي الحكمةِ البالغة، والنّعمة السَّابغة، أنشأنا من نفسٍ واحدة إنشاءً، فجعل منها زوجها تماماً ووفاءً، ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النّساء: ١]، وبعثَ في كلِّ أُمّةٍ رسولاً يهديهم، وإلى سُبُلِ السَّلام يؤديهم، وخصَّنا بالرّحمةِ المُهداة للعالَمين، محمّد خاتم الأنبياء والمرسلينَ.

اللهم ارزقنا الأُلْفةَ التي بها تصلحُ النّفوس والقلوب، وارحمنا واغفرْ لنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَنْ خلَّصَ المرأةَ منَ المنزلةِ الدُّنيا، وكرَّمها فصارت في المكانةِ العُليا، وحضَّ على العصمةِ والإحْصَان، ورغَّبَ في ذاتِ الدِّيْن الحَصَان؛ فصلواتُ اللهِ الطَّيِّبة، وغوادي رحمته الصَّيِّبة، على مَنْ كانَ آخر الأنبياءِ ميلاداً، وأكثرهم يومَ القيامةِ تابعاً وسَواداً، مَنْ كانت بعثَتُه رحمةً للنّساء، ورسالتُه للبشرية جمعاء، وبعد:

إنَّ للنِّساءِ ـ على مدارِ التَّاريخ ـ صفحاتٍ وضيئاتٍ نعتزُّ بها، ونستلهمُ عبيرَ المكارمِ منها، ولعلَّها أحفلُ الصَّفحاتِ بالعِظَات، وأجمعُها للعظائم، وسناءِ الحياةِ؛ ففي تاريخهن الطَّويل العريض، تظهرُ حياة العظمةِ الوادعةِ، والنّفس الأبيّة النَّقيّة، إذ جاذبْنَ الرِّجالَ سياسةَ الأُمَّةِ، وولايةَ الأَمْر، وجدَّ

العَمل، وشؤونَ الحياةِ العمليّةِ والعِلميةِ والأدبيّةِ والفكريّةِ، ناهيك بتكوينِ الرِّجال، وتصريفِ الأحْداث.

وكانتِ النِّساءُ في التَّاريخِ يتحلَّيْنَ بالأخلاقِ الفاضلة، كالجرأةِ الأدبيّةِ، والشَّجاعةِ، والعفافِ، والكرمِ، والنَّجدةِ، والوفاء.

ففي العصر الجاهلي، اشتهرتِ المرأةُ بالجرأةِ الأدبيّة، والصَّراحة، وعلو الهمّة؛ وفي ظلال الإسلام، والعهد الرّاشديّ، والأمويّ، والعباسيّ، وما تلاه مِنْ عصور، ظلتِ المرأةُ تحتفظُ بمكانتِها وسَناءِ منزلتها.

أمّا في الحربِ فقد سجّلتِ النِّساءُ أضوأَ الآثارِ في هذا الميدانِ، وأظهرتْ ضروباً مِنَ الشَّجاعة متعددةَ الأشكالِ والألوانِ؛ وفي التَّاريخ النَّسوي صورٌ لكثيراتٍ اشتهرنَ بمضاءِ العزيمة، وثباتِ الجَنَان في حومةِ الميدان.

ولما أشرقتِ الدُّنيا بنورِ الإسلام، كانَ للنِّساء بصماتٌ واضحاتٌ مباركاتٌ، فأوَّلُ مَنْ أسلمَ امرأةٌ، وهي أُمُّنَا خديجةُ بنتُ خويلد ـ رضوان الله عليها ـ وناهيك بخديجةَ خير مثالٍ تقتدي بها نساءُ التَّاريخ، بل نساء الدُّنيا أَجْمع.

وفي رحابِ الفضائل كانتِ النِّساءُ منَ السَّابقاتِ، فكُنَّ قدوةً في الصَّبر، وفي الذّكاء، والكَرَم، والثَّقافة، والعِلْم، فقد طرقْنَ أبوابَ المعرفة، وتلقينَ العِلْم عن مشاهيرِ العلماء، وتضلعْنَ بالعلوم الفقهيّة والشّرعيّة والأدبيّة، من مثل أُنْس زوج ابن حجر، وأخته ستّ الرّكْب، وعائشة الباعونيّة، وعائشة التّيمورية، وفاطمة اليشرطيّة وغيرهن.

وكان للنّساء نصيبٌ موفورٌ في ميدان الشِّعْر، وفي موسوعتنا هذه تَجدُ نابغاتِ النِّساء ممن أثْريْنَ فنونَ الشِّعر، بأنواع الطَّرائف الأدبيّة من مثل: ليلى بنت مُهلهل، وزُبيدة بنت جعفر، وعائشة بنت يوسُف الباعونيّة، وعائشة التّيمورية، وأُخريات.

واهتمَّتِ النِّساءُ كذلك في الخط العربيّ الذي يُعتبرُ من مفاخرِ العرب، وكانت عائشةُ الباعونية جميلةَ الخطِّ، بارعةً في الآدابِ جميعها.

وقامت نسوةُ العربِ بأعمالٍ جليلةٍ خالدة، فهذه زُبيدة بنت جعفر قد صنعتْ أعمالاً يعجزُ عنها ملايين، وأصحاب الملايين، ولا تخفىٰ أعمالُها في الحرمِ المكيّ، بل في الحرمَيْن الشَّريفين، ودربُ زبيدة مشهورٌ في ديوان العظائم، ويشيرُ إلى كمالِ مروءتها ونُبْلِ أخلاقها، ثم أكملت عملَها فاطمة بنت السُّلطان سُليمان التي حفرت آباراً عديدةً في مكةَ، ثمَّ بحثتْ عن ماء عرفات، وصرفتْ على الأعمالِ الخيريّة هذه نصف مليون دينار.

ولم تقفْ أعمالُ النِّساءِ العربيّات في التَّاريخ عند هذا الحدِّ، بل إنّهنَّ شيّدنَ صروحَ العلم، وأوقَفْنَ عليها أوقافاً كثيرةً، وأكرمْنَ العلماءَ وطلاّبَ العِلْم، ولَهُنّ آثارٌ ما تزال شاهدة لَهُنَّ إلى وقتنا الحاضر.

وهكذا كانتِ المرأةُ مثارَ عاطفةِ الرَّجل، ومعْقدَ أُلْفَتِهِ، ومطلعَ قصيدته، ومصدرَ إلهامه، ومشرقَ وحْيه، وكلّ شيءٍ بين يديه، وذلك طبْعُ العرب، وتلك سُنَّتُهم.

هذا، وسيعيشُ القارىء بين أزاهرِ هذا السِّفْرِ، الذي يغنيه عن السَّفَرِ، يقتطفُ من زَهْرِهِ ما يعطِّرُ وجدانَه، ويستنشقُ من عبيره ما يروِّحُ عن نفسهِ، فهو يرتعُ في وادٍ خصيب، يقرأُ سِيرَ النِّساء علىٰ مدارِ التَّاريخ، في أحوالهنَّ المختلفة، ويغذّي سمعَه بلذيذِ الأخبار:

تَسَاقَطَ فِي الأسماعِ لؤلؤ لَفْظِهِ
تَسَاقُطُ طَلٍّ فوقَ زهْرِ الكَمائِمِ

ففي هذا الكتاب تقرأُ قَصَصَ أُمّهاتِ الأنبياء، ونساءِ الصَّحابة، ونساءِ الفُرسان، ونساءِ الملوك والخلفاء والوزراء، والعُلماء والشُّعراء والقُضاة والزُّهاد، وكذلك تطَّلِع على حياةِ الأديباتِ والشَّاعراتِ والنَّاثراتِ والحاكماتِ والبليغاتِ والحكيماتِ العاقلات والمتصوّفات، وغيرهن ممن لهنّ نصيبٌ في تاريخِ الدُّنيا وتواريخ النِّساء، كما يتعرّفُ القارىءُ حقائقَ تُجْتَلىٰ للمرّةِ الأولى، ويعرفُ صوراً واضحةً تُبْرَزُ أيضاً للمرة الأولى، ويدركُ مَعالمَ صحيحة لكثيرٍ من حياةِ نساءٍ قد اكتنفها الغموضُ أو الإيهام.

وأودُّ أنْ أهمسَ في أذنِ القارىء الكريم، بأنْ يسدَّ الخللَ إنْ وجدَ عيباً في

هذا العمل، فقد كلَّفني هذا البحث عناءً كبيراً، وجهداً مُضْنياً، وسَفَراً بعيداً شاقّاً، وذلك كيما أجمعَ شتات هذه المعلومات التي تباعدتْ في أغوارِ الأسفار، ناهيك بما جمعتُه من معلوماتٍ ومعارفَ من الأفواهِ من خلال الأَسْفار، وقد كان الكتابُ مُعدّاً لنَيْلِ رسالةٍ علميّة[1]، لكنَّ الظُّروفَ حالتْ دون ذلك لأمْرٍ يريدهُ الله عزَّ وجلَّ.

وقبل أنْ أتركَكَ ـ عزيزي القارىء ـ مع نساءِ التَّاريخ، أودُّ أنْ أوجِّهَ دعوةً أدبيّةً ووديّةً إلى أولئك الذين (يلطشُون) الأفكارَ و(يسرقون) الكلمات، فقد وَجَدْتُ مَن استلَّ معظمَ كُتبي بحذافيرها، و(لطشَها) ليرصفها بين دفتي كتاب، بعد أنْ مسخَ العنوان، ووضع اسمه في أعلىٰ الكتاب بخطٍ عريض؛ فليتقِ اللهَ هؤلاء، ولينتهوا عنْ هذه الأشياء، [فاللهُ عَدْلٌ والتَّلاقي غَد]، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعراء: ٢٢٧]؛ ولولا الوشايةُ لذكرتُ أسماءَ هؤلاء الذين يسرقون أعمالَ غيرهم، ولكنّي اكتفيتُ بالتَّنويهِ لعلَّهم يرجعون.

وقد رجعتُ في هذه الموسوعةِ إلى مئاتِ المصادر المختلفة، من كُتُب التَّفسير والحديثِ والتّأريخ والأدبِ والجغرافية والرّحلات وكُتُب اللغة وغير ذلك مما سيلاحظُه القارىء، كما سيدركُ القرّاء ما تجشمتهُ من عَناءٍ حتى يخرجَ الكتاب في هذه الحلّة القشيبة.

ولابدّ لي وأنا على مشارفِ الخاتمة أنْ أوجِّه سحائبَ الشُّكر إلى الأخ الفَاضلِ الأستاذِ عبدِ الرّؤوف قدُّور صاحبِ دارِ اليمـامةِ الغرّاءِ الذي أَوْلىٰ هذا الكتاب جُلَّ عنايته، كما أشكرُ جميعَ مَنْ ساهمَ في إخراجِ هذا السِّفْرِ إلى الوجود ليأخذَ مكانَه ومكانتهَ في عَالَم المعرفة. وتحيّة شكر أُزْجيْها إلى الأديبِ الكبيرِ يُوسُف علي بديوي الذي قرأَ الكتابَ، وأبدى ملاحظاته المهمّة التي ارتقتْ بمستوىٰ الكتاب، إضافة إلى تفضّله بكتابة مقدمة تحليلية

(١) لذلك كنتُ قد كتبتُ مقدمة طويلة عن طريقة هذا البحث، كما كتبتُ فصلاً طويلاً عن المرأة وأحوالها خلال العصور، ولما تعثَّرت مناقشة هذا البحث اختصرت ذلك ودمجته في ثنايا الكتاب.

للكتاب، فجزاه الله خيراً. وتحية حبّ خالصة للأخ أحمد علي سعيد الذي أشرف على التنضيد والإخراج الفني لهذا الكتاب. فله كل الشكر والتقدير، وأرجو الله أن يجزل له الثواب جزاء وفاقاً لصبره على إحياء هذه الأعمال الجليلة.

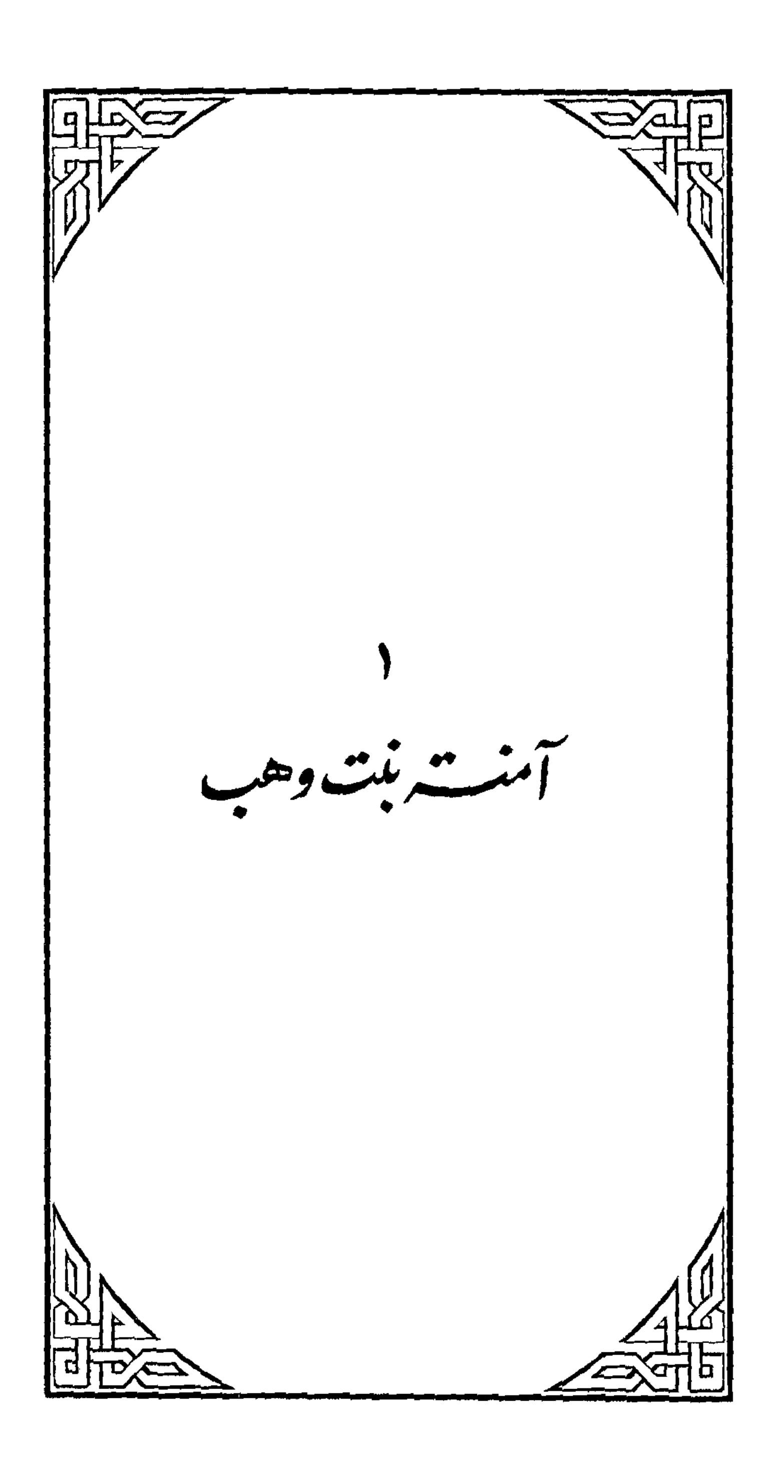
وختاماً، فإنّني أسألُ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ يوفّقنا إلى ما فيه الخيرِ والصَّلاح والسَّداد، وأنْ يجعلَنا مِنَ الذين يستمعون القول فيتّبعون أحْسَنه، وأرجو القارئَ الكريم أنْ يخُصَّني بدعوةٍ خالصةٍ منه بظهرِ الغيب؛ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وكتَبَ:

أحمد بن خليل جُمعة

دمشق ـ حرستا ـ /٩/ ذو الحجة ١٤١٧ هـ

/١٦/ نيسان ١٩٩٧ م



١
آمنة بنت وهب



سليلـةُ الأمجَــاد:

* مِنْ دوحةٍ زكتْ أصْلاً، وطابتْ فَرعاً، وحسُنَتْ منظراً، ونعمتْ زهْراً، نقتطفُ زهرةً نديةً منْ رياضها نعطِّرُ بها كتابنا هذا، ونزيِّنُ بها هذه الصَّفَحات.

* هذه الزَّهْرةُ النَّديَّةُ الميمونة، هي أمُّ رسولِ الله ﷺ؛ آمنةُ بنتُ وهْبِ بنِ عبد مناف بنِ زُهْرةَ، سيّدة نساء بني زُهرة[1].

* ومَنْ كآمنةَ التي حملتْ بالنَّبيِّ ﷺ، فلم تَلِدْ هي ولا أبوه عبد الله بن عبد المطّلب غير الحبيب المصطفىٰ محمّد ﷺ، ففي ذلك إشارةٌ إلىٰ أنَّه ﷺ نسيجُ وحده في العَالَم[2].

* وآمنةُ بنتُ وهبِ الزُّهريّة، منْ قومٍ شهدَتْ لهم الأماثل بالمكانةِ، والسُّؤدد، والشَّرف، والطَّهارة، وظهرتْ مخايلُ أمجادهم في رجالاتهم؛ الذين تسنَّمُوا ذُرا نواحي الحياة في الجاهلية والإسلام.

* كان وهبُ بنُ عبد مناف بن زُهرة في ذِرْوَةِ الشَّرف، والسِّيادة، فهو جدُّ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ، ولوهبٍ هذا يقول الشّاعر مادحاً:

---

(١) بهجةُ المحافل وبغيةُ الأماثل للعامريّ (١/ ٣٧)، والدُّر المنثور في طبقات ربّات الخدور (ص١٦ و١٧)، وأعلام النّساء (١/ ١٨ و١٩)، وعيون الأثر (١/ ٢٣ ـ ٣٩)، وشاعرات العرب (ص٢)، وتفسير القُرطبيّ (١٦/ ٥٦)، والمعارف (ص١٢٩ و١٣١)، والاشتقاق (ص٣٣ و٩٦)، والرّوضة الفيحاء في تواريخ النّساء (ص١٤٤ ـ ١٧٠)، والمغانم المُطابة في معالم طابة (قسم المواضع ص٦)، وكتب السّيرة كلّها، وكثير من المصادر التّاريخية وكتب التراجم.

(٢) انظر: بهجة المحافل وبغية الأماثل للعامريّ (١/ ٣٧)؛ هذا؛ ولا يوجد لآمنةَ بنتِ وهب إخوة، ولو كان لها إخوة لنُقل، وعدّوا أخوالاً للنّبي ﷺ، كما نُقلَ عن أعمامِهِ وعماته وأختانه، وغيرهم.
قال ابن قتيبة ـ رحمه الله ـ: ولا نعلم أنّه كان لآمنةَ أخ، فيكون خالاً للنّبيَ ﷺ، ولكنْ بنو زُهرة يقولون: نحن أخوالُ رسول الله ﷺ لأنَّ آمنةَ منهم. (المعارف ص ١٢٩).

يا وهبُ يا بنَ الماجدين زُهرة سُـدْتَ كِـلاباً كلّهـا بـن مـرّة
بحَسَبٍ زَاكٍ وأُمٍّ حُرّة[1]

* أمّا «زُهرة» الجدُّ الأعلىٰ للسَّيِّدة الزَّكيّة الزَّاكية آمنة أمّ سيّدنا وحبيبنا محمّد ﷺ، فهو الأَخُ الأكبرُ لقصيّ والد عبد منَاف، وقد أقامَ زُهرةُ بمكةَ حياتَه كلَّها لم يفارقْهَا، ولم يرحلْ عنها، وكان أولادُه مع أولادِ قُصيٍّ في كلِّ ما ينوبُ عن قريش، فكانوا يشاركونهم فيما يقومونَ به مِنْ عَمَلٍ، وأوَّلُ حِلْفٍ عَقَدَهُ بنو عبد مناف «حلف المُطيّبين»، فكان بنو زُهرة معهم علىٰ بني عبد الدَّار.

* وكان بنو زُهرة شركاء بني عبد مناف في نصيبهم عند تجزئةِ الكعبة لبنائها؛ قال أميرُ المؤرخين أبو جعفر الطَّبريُّ ـ رحمه الله ـ: ثم إنَّ قريشاً تجزَّأَتِ الكعبة، فكان شقُّ الباب لبني عبدِ مناف زُهرة.

* ولما جاءَ الإسلامُ، كان لبني زُهرة تحتَ أفيائِهِ جهادٌ مأثورٌ، وتبوَّأَتْ رجالاتُهم المكانةَ العُلْيا، لِمَا لَهمْ منَ السَّوابقِ الجليلة، وكذلك لحُسْنِ اقتدائهم برسولِ الله ﷺ، ونَهْلِهِم من مَعِيْنِهِ الثَّـرِّ الصَّافي المبارك.

* ولعلَّه مِنَ المفيد والمثير أنْ نشيرَ إلى أنَّ رجلينِ زُهريَّيْنِ قد بشَّرهم رسـولُ الله ﷺ بالجنَّـة؛ وهمـا: سعد بن أبي وقّـاص، وعبد الرّحمـن بن

---

(١) انظر: نسب قريش لمصعب الزّبيري (ص٢٦١)؛ وأمّ وهْب بن عبد مناف هي جدّة آمنة أمّ رسول الله ﷺ، واسمها: قيلة بنت وَجْز بن غالب المكنىٰ «أبو كبشة»، وأبو كبشة رجلٌ من خزاعة، خَالَفَ قريشاً في عبادةِ الأوثان، وعَبَدَ الشِّعْرىٰ، فلمّا خالفَ النّبيَّ ﷺ قريشاً في دِيْنها، شبَّهُوه بأبي كبشةَ هذا في مخالفته إيّاهم، فقالوا: ابنُ أبي كبشة، وقيل: إنّهم قالوا: نَزَعَهُ أبو كبشة. فالعربُ تظنُّ أنَّ أحَداً لا يعمل شيئاً إلا بِعِرْقٍ ينزعه شبهه؛ لأنَّ أبا كبشة خالفَ قريشاً في عبادة الشِّعرى.
قال مصعب الزّبيري ـ رحمه الله ـ: وكان أبو كبشة سيّداً في خزاعةَ، لم يُعَيِّروا رسولَ الله ﷺ من تقصيرٍ كان فيه، ولكنّهم أرادوا أن يشبّهوه بخلاف أبي كبشة، فيقولون: خالفَ كما خالف أبو كبشة. انظر: (تاريخ القضاعي ص ١٧٤) و(نسب قريش ص٢٦١) بتصرف.

عوف[1] ـ رضي الله عنهما ـ فهما مِنَ العشرة المبشَّرين بالجنَّة، وهؤلاء العشَرة أشهر منْ نجومِ السَّماء، وقد تغنّىٰ شعراءُ العُلماء بنظْمِ أسمائِهم علىٰ مدىٰ الأيّامِ والأعوام، فهذا أبو بكر العَامريّ ـ رحمه الله ـ قد نَظم أسماءهم، وذكر أصولَهم ونوَّهَ إلى قبائلهم، وقد أحْسَن فقال:

أبــو بكــرٍ وطلحــةُ نَجْــلُ تَيْــم ... وفــاروقٌ سعيــدٌ مِــنْ عَــدي
وعثمــانُ التَّقــيُّ كــذا علــيٌّ ... لعبــدِ منــاف ذي الشَّــرف العَلــي
وسعــدٌ ذو الفضــائل وابــنُ عــوفٍ ... لـزهــرةَ وهــو صَــاحِ أخــو قُصــي
ومــنْ أَسَــدٍ زبيــرٌ وابــنُ جــرّا ... حهــم مــن فِهْــرٍ فــاحفـظْ يــا أخــي

وقال غيره في العشَرة المبشَّرين بالجنَّة، وقد جعلَ الزُّهريان في نَسَق:

علــيٌّ والثَّــلاثــةُ وابــنُ عَــوْفٍ ... وسَعْــدٌ منهــمُ وكَــذا سعيــدُ
كــذاك أبــو عُبيــدة فهــو منْهــم ... وطلحــةُ والــزُّبيــر ولا مَــزِيــدُ[2]

---

(١) اقرأ سيرة هذين الفارسين الكريمين في كتابنا «فرسان حول الرسول ﷺ» بجزأيه.

(٢) انظر كتاب: بهجة المحافل للعامريّ؛ وقوله: «والثّلاثة»: أي: أبو بكر، وعمر، وعثمان، عليهم سحابات الرّضوان.

هذا وقد تفنَّنَ العلماء والشُّعراء في نَظم أسماء العَشَرة المبشّرين بالجنَّة، وقد تتبَعتُ ذلك فحصل عندي أشعار كثيرة يمكن أنْ تكون في كتابٍ وحده، ومنْ أمثلةِ ذلك ما قاله عبد القادر المارداني ـ رحمه الله ـ:

قد بشَّر المصطفَى مِنْ صحبه بِرِضا ... ربِّ العبــاد أُنــاســاً فَضْلُهــم غــابــرْ
عتيقُ فاروقُ عثمانُ ابنُ عوف علي ... سعــدٌ سعيــدٌ زبيــرٌ طلحــةٌ عــامِــرْ

وقال المارداني أيضاً:

بجنّـةِ الخُلـدِ خيـرُ الخلـقِ بشَّـرَ مَـنْ ... بـذكْـرِ أسمـائهـم نَظْمـي حـوىٰ شَـرَفـا
سعـدٌ سعيـدٌ زبيـرٌ وابـنُ عـوف أبـو ... عبيـــدةَ طلحـــةُ والأربـــع الخُلفـــا

انظر: (الضوء اللامع ٤/ ٢٧٦)

وقال محمّد بن عبد الله القَيسيّ في المبشّرين بالجنَّة مِنَ العشرة:

وعشـرة خيـرُ صَحْـبٍ بـالجنـان أتـىٰ ... وعْـدُ النّبـيّ لهـم سَـرْداً بـلا خَلَـلِ
عتيـقُ عثمـانُ عـامـرُ طلحـةُ عمرُ الـ ... زبيـرُ سعـدٌ سعيـدٌ ابـنُ عـوفٍ علـي

انظر: (الضوء اللامع ٨/ ١٠٦)

ونظم الحافظُ العراقي ـ رحمه الله ـ العشَرة المبشّرين بالجنّة؛ وقد ذكر العمران =

* في هذه الأسرة القرشيّة الكريمة، نشأتْ آمنةُ بنتُ وهْبٍ ترفلُ في ثياب العزِّ والمجدِ والسُّؤددِ والفخَار، ناهيك بالشَّرفِ الوافي، وقد جَمَعَتْ آمنةُ الشَّرفَ من أطرافه:

فأبوها: وهبُ بنُ عبد مناف، السَّيِّدُ الحسيبُ الشَّريفُ الزَّاكي.

وجدُّها لأبيها: عبدُ مناف بن زُهرة الذي جمعَ أطرافَ المجدِ من جميع نواحيه، وكان اسمه يُقْرنُ باسم ابن عمِّه عبد مناف بن قصي، فيُقال: المنَافان تعظيماً وتكريماً.

* ولم يكن نسب آمنةَ منْ جهة أُمِّها أقل حَسَباً وشرفاً مِنْ نسبِها منْ جهةِ أبيها، فقد كانتْ سلالتُها عريقةً أصيلةً يمنةً ويُسْرةً، ورثَتِ المجدَ كابراً عن كابرٍ:

فأمُّها: برَّةُ بنتُ عبد العزّى بن عثمانَ بنِ عبد الدَّار بن قُصي بن كلاب.

وجدتها لأمّها: أمّ حبيب بنت أسد بن عبد العزّى بن قصي.

* هذا العِقْدُ النَّفيس الذي كانت آمنةُ إحدىٰ فرائده، بل كانتْ واسطته، وليكون رسول الله ﷺ مِنْ أَنْفَسِ النَّاس نَسَباً وحسَباً، وخيرهم وأزكاهم أصلاً، ولله درُّ البُوصِيْري حينما قالَ:

نَسَبٌ تَحْسَبُ العُلا بحُلاه ... قلَّدتْهُ نجومَهَا الجوزاءُ
حبَّذَا عِقْدُ سُؤدُدٍ وفَخَار ... أنتَ فيهِ اليتيمةُ العَصْماءُ

آمنَةُ وصَفاءُ النَّشْأَة:

* في بيتِ بني زُهرة[1] العريق، كانتْ نشأةُ آمنة بنت وهْب، وفي هاتيك البقاع الطَّاهرة درجتْ آمنةُ قربَ البيتِ العتيق، فكانت تخرجُ مع أتْرابها نحو

= وهما: أبو بكر وعمر، فقال:

وأفضلُ أصحابِ النّبي مكانة ... ومنزلة مَنْ بُشِّروا بجنان
سعيدٌ زبيرٌ سعد عثمانُ عامرُ ... عليٌّ ابنُ عوف طلحة العُمَران

(١) «زُهْرة»: بضم الزّاي، وإسكان الهاء؛ وأمّا الزُّهرة التي هي النجم: فبضم الزّاي وفتح الهاء. والزّهرة في الأصل: هي البَياض.

الكعبةِ، وترى الدُّور التي تحيطُ بالحرم، وكانت دُورُ بني زهرةَ وبني هاشم أقربَ بيوتِ أهلِ مكةَ إلى البيت العتيق، فقد كانا أشرفَ حَيَّيْنِ منَ العرب.

* ويبدو أنَّ مرحلةَ طفولةِ آمنة بنت وهب كانت طفولةً بريئةً، فقد كانت تقفُ قربَ الكعبةِ، وترىٰ الطَّائفين، كما كانت ترىٰ بئرَ زمزم الذي يروي الحجيج، وترى كذلك ما حَبَا اللهُ قريشاً من مكانةٍ وعزٍّ، فكانت على الرَّغمِ من حداثةِ سِنِّها تشعرُ بأنَّها منْ أشرفِ بيوت قريش.

ولكنَّ هذه الطِّفلةَ البريئةَ لم تكن تحسُّ في أعماقها ـ وهي تقفُ قربَ الصَّفا والمروةَ ـ بأنَّها أشرفُ مَنْ وطئتْ قدماها الرِّمال التي وطأتها نساءُ عصرها، فمنها سينبعثُ النُّور الذي سيخرجُ منْ مكةَ ليغمرَ وجْهَ الأرضِ كلّها.

* وكانت آمنةُ تدخلُ مع لِدّاتها الحرم في معظمِ الأيّام، فترىٰ مقامَ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ثمَّ ترىٰ بئر زمزم، فتنطلق مع صويحباتها نحوه فيشربْنَ منه، ثمَّ ينطلقْن ليطُفْنَ بالبيتِ العتيق مع الطَّائفين.

* وكانتِ الأصنامُ منصوبةً في الكعبةِ ومِنْ حولها، وكان كثيرٌ منَ النَّاسِ يعبدونها لتقرِّبَهُم إلىٰ اللهِ زُلفىٰ، بينما كانتِ الطِّفلةُ آمنة تنظرُ إليها في رِيْبَةٍ، فقد علمتْ أنَّ جدَّها «أبو كبشة» قد هجرَ هذهِ الأصنام وكَفَرَ بها، وسَخِرَ منْ عبادةِ الأصنام التي لا تملكُ لنفسها نَفْعَاً ولا ضرّاً، وقد سمعتْ آمنةُ من أهلها بدعوةِ أبي كبشة الذي عَبَدَ كوكب الشِّعْرىٰ، وما سنَّهُ للعربِ من عبادةِ الكواكب، وتسفيه أحلام قومه.

* ولعلَّ آمنةَ كانت تحسُّ براحةٍ كُبرىٰ كلّما لاذَتْ بالبيتِ العتيق، وتشعرُ بانشراحٍ يملأُ وجدانها، ونورٍ ينتشرُ في جوانبِ نفسها، وأنَّ قلبهَا الصَّغيرَ قد اتّسعَ ليحتوي الكونَ كلّه، ولم تكنْ تدري بأنَّها ستكون أشهر أمهات الأنبياء علىٰ الإطلاق.

* وتمضي الأيامُ، وتكبرُ آمنةُ، وتتوضَّحُ الأشياءُ في ذهنها أكثر، فكانت تسمعُ ما يتناقله النِّساء منَ الأحْبَارِ والكُهّان علىٰ أنَّه كائنٌ في هذهِ الأُمَّة نَبيّ،

وكانتِ النّسوة يطمعنَ أنْ يكونَ هذا النَّبيُّ منهنَّ، لا سيما وأنّه سيكون منَ العربِ، ومن سُكَّانِ الحرم.

* وكانتْ نسوةٌ من قريش قد عُرِفْنَ بالفِراسَة يَنْظُرْنَ في وجوه فتيانِ قريش، بل إنَّ عدداً منهن قد تفرّسَنَ وقَلَّبْنَ أبصارهُنَ في وَجْهِ عبد الله بن عبد المطّلب والد النَّبيّ ﷺ، واستراحتْ نفوسُهُنَّ إليه، وتوقَّعْنَ أنْ يكون النَّبيُّ ﷺ منه؛ لأنَّ ملامحَ ذلك كانت تنبعثُ من وجههِ الجميل، وجبينه الأَزْهر.

* كان وهبُ والد آمنة ينظرُ إلى ابنته نظرةَ عطْفٍ وحَنَان، ويشعرُ بأنَّ هذه الفتاة لها شَأْنٌ ما؛ ولكنَّه لم يستطعْ أَنْ يفسِّرَ ذلك، إلاّ أنَّ قلبَه، وإحساسَه، وعواطفَه قد أَسَرَتْهَا وحيدته آمنة، فكان يشعرُ بالاطمئنان يسري في حنَاياه، ويداعبُ وجدانه.

أَفْضَــلُ فَتَـاةٍ:

* عندما تعرَّض ابنُ هِشَام ـ رحمه الله ـ في السِّيرة إِلىٰ ذِكْرِ آمنةَ بنتِ وهْب، تفتَّحتْ أزاهرُ قريحته عن وصفِ سيِّدة الزُّهرياتِ بقوله: وكانتْ يومئذ أفضل فتاةٍ في قريش نَسَباً وموضعاً[1].

* وهذه كلمةُ حقٍّ، فلقد درجتْ آمنةُ في بيئةٍ طابَ أصلُها، وزكا فرعُها؛ وتفتَّحتْ أزاهرُ صباها في أسرةٍ لها منْ أصالةِ النَّسب، وذروةِ الحسب، ما تزهو به في مجتمع مكةَ ـ يومذاك ـ، ذلك المجتمع الذي كان يفخرُ بكرمِ الأصول، وطِيْبِ الأعراق، بل إنَّ عراقةَ الأصل كانت منىٰ غاياته، وغايات مُنَاه.

* نشأتْ آمنةُ بنتُ وهْب نشأةً عطرةً؛ فشذا سيرتها الزَّاكية المعطار ينْبَعثُ من بيتها، فتملأُ أسماع مكةَ، وتدلُّ على أدبها الكامل، وتشيرُ إلى طهرها وطهارتها، ممّا جعلها درّةَ قريش، ويتيمة الدَّهر في ذلك الوقت والعَصْر.

* ومرَّتِ الأيام، وتوالتِ الشُّهور، وتعاقبتِ السّنون، وفتاة زُهرة تعيشُ

---

(١) السّيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٥٦).

بين أهلها، ومع لِذَّاتها حياةً تُجلِّلها السَّعادة وتعلوها بسماتُ الأيام، وكانت تشعرُ باطمئنانٍ يغلِّفُ كيانَها لا تدري ما مصدره، ولكنّها حقيقةٌ استقرَّتْ في أعماقها، فبدتْ علائم الرِّضا علىٰ وجهها.

* وذاتَ يوم، دخلتْ آمنةُ خِدْرَها، فإذا بها ترىٰ أبويها يرقُبانها، وينظران إليها باهتمام بالغ، وإذا بها تسمعهما وهما يتناجيان بصوتٍ خافت، ولكنَّ أمَّها برة بنتً عبدِ العزّى كانت عاقلةً لبيبةً، فأقبلتْ نحوها وقالت لها في هدوءٍ واتّزان: يا آمنة سيأخذك أبوك إلى دارِ النَّدوة، فاستعدّي لذلك.

* وطافتِ الأفكارُ برأسِ آمنة، فَدَارُ النَّدوة تعني الحدَّ الفاصلَ بين سِنِّ الطُّفولة، وبين سِنِّ الشَّباب، فقد أضحتْ آمنةُ فتاةً كبيرةً، وتلاشتْ طفولتُها شيئاً فشيئاً، ليحلَّ مكانها سِنّ الشَّباب... هاقد أصبحتْ آمنةُ شابَّةً، وعليها أنْ تَحْتَجِبَ.

* وتأهَّبَتْ آمنةُ للانطلاق إلى دار النَّدوة مع أبيها الذي جاء وأخذها، ثمَّ انطلقَ بها نحو الكعبةِ، وراحا يطوفان بها سَبْعَةَ أشواطٍ، ومن ثمَّ انطلقا إلى دارِ النَّدوة ـ وكانت الدَّارُ لبني عبد الدار بن قصي ـ وكانوا يقومون بمراسم الزَّواج والخِتَان، والفَصْلِ بين النَّاس في قضاياهم.

* وفي الدَّار تقدَّمت آمنةُ ـ ومَنْ هُنَّ في سنِّها ـ وجاء المكلَّفُ بِحَجْبِ فتيات مكة، فشقَّ قميصها، ثمَّ حجب بهِ وجهها، فكان ذلك إيذاناً بأنّها قد حُجِبَتْ، وعادت آمنةُ إلى دُورِ بني زُهرة وقد ضُرِبَ عليها الحجابُ، وَحِيْلَ بينها وبين مرحلةِ الطُّفولة.

* ومنذ ذلك الحين، أضحتْ عيونُ النِّساء ترقُبُ فتاةَ بني زُهرة التي غَدَتْ في مصافِّ النِّساء، وغدتْ إحدىٰ عقيلات بني زُهرة اللواتي يُضربُ بهنَّ المثل في الجَمالِ وكمالِ الأخلاق، ناهيك بالحسَبِ الزَّاكي، والنَّسبِ العريق.

بشَــائِرُ الخَيْرِ:

* تحكي قَصَصُ نساءِ عَصْرِ الجاهليّة قصَّةَ «سَوْدة بنت زهرة» عمّة

وهْب بن عبد مناف؛ بأنّها لما وُلِدَتْ جاءت زرقاء، فتشاءم أبوها لمّا رآها على هذهِ الحال، وأمرَ بوأدِها، فأرسلها إلىٰ الحجون لتُدْفَن هناك، فلمّا حَفَرَ لها الحافرُ، وأرادَ أنْ يدفنها، سمعَ هاتفاً يقول: «لا تَئِدِ الصَّبيّة، وخَلِّها البريّة».

* والتفتَ الرَّجلُ فلم يَرَ شيئاً، فعادَ لدفنها، ثمَّ إنّه سَمعَ الهاتف مرّةً أخرى يقول: «لا تئدِ الصَّبيّة، وخَلِّها البريّة»، فالتفت فلم ير شيئاً ولم يجدْ أثراً لشيءٍ، فعاد ثالثة لدفنها، فسمع الهاتف يسجعُ بسجعٍ آخر في المعنى، وإذ ذاك أقلعَ عن وأْدِها، وعاد إلى أبيها، وأخبره بما سمِعَ، فقال: إنَّ لها لشأناً؛ وتركها، فكانت كاهنة قريش، وكانت ذات فِراسة لا تكادُ تخيب[1].

* كانت سودةُ هذه تجوسُ دُوْرَ قريش وبني زُهرة، وذات يومٍ جاءت إلى دارِ ابن أخيها وهْب، فخفَّ إليها نسوةُ بني زهرة وفتياتها يرحبْنَ بها، ويسمعْنَ أحاديثها العِذَاب، فقد كانت ماهرةً في الكهانةِ، وكانت تخبرهنَّ بأشياءَ لطيفةٍ تُدخلُ بها الإيناسَ إلى قلوبهن العطشىٰ لأحاديثِ الأيّامِ وما غَبَـرَ منها، وربّما توقّعتْ ببعضِ ما سَتُبْديهِ الأيّامُ.

* كانت سودةُ تنظر في النُّجوم، وتلتقي بعضَ الكواهن، حتى غدتْ إحدىٰ شهيرات النِّساء في هذا المضمار[2]، وجاءت بعضُ فراستها موافقةً لما أنبأتْ به نسوة قومها، فقالت عنها قريش: إنَّها تنظرُ بنورِ الله.

---

(١) انظر: بلوغ الأرب للآلوسي (٣/ ٤٣ و٤٤) بتصرف يسير جداً؛ وانظر: السّيرة الحلبيّة (١/ ٧٣ و٧٤)؛ ومنَ الجدير بالذّكْر أنَّ عمرو بن نفيل كان يُحيي المؤودة لأجل الإملاق، يقول للرجلِ إذا أرادَ أن يفعلَ ذلك: لا تفعلْ أنا أكفيك مؤونتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إنْ شئتَ دفعتُها إليك، وإن شئتَ كفيتك مؤونتها.
انظر: (السّيرة الحلبيّة ١/ ٧٣).

(٢) اشتهر بالكهانة في العصر الجاهلي نسوةٌ أخريات منهن: سلمىٰ الهمدانية، وعُفيراء الحميريّة، وفاطمة بنت مرّ الخثعمية، وطريفة، وزَبْراء، وغيرهن كثيرات، وقد ذكر الآلوسي ترجمتهن. انظر (بلوغ الأرب ٣/ ٢٧٥) وما بعدها.

* وأعتدتْ نسوةُ بني زُهرة مَجْلِسَاً لطيفاً لسودةَ الكاهنة ثم تَحَلَّقْنَ حولَها، وتعلّقْنَ بما ستقوله هذه الكاهنة ذاتِ اللون الأزرق والشَّكل الدَّميم، وأصاختِ النّسوة أسماعهن، فراحتْ سودةُ تتفرسُ في وجوه الجالسات منْ حولهَا؛ ثم إنَّها قالت لهنَّ: إنَّ فيكم يا بني زُهرة نذيرة، أو تَلِدُ نذيراً، فاعرضُوا عليَّ بناتِكم[١].

* وعرضتْ أمّهاتُ بني زُهرة بناتهنَّ على سودةَ، فراحت كاهنةُ قريش تتنَّبأُ وتقولُ في كلِّ واحدةٍ منهن قولاً ظهَر بعد حين.

* وسادَ المكان صمتٌ وهدوءٌ يشُوبُه قَلَقٌ ولهفةٌ، فما مِنْ فتاةٍ منَ اللائي عُرِضْن عليها كانتِ النَّذيرةُ، أو التي ستلدُ النَّذير!!!

* وجاءت برَّةُ بنتُ عبد العزّى، فقدَّمتِ ابنتَها آمنة إلى سَودة، وراحتِ الكاهنةُ تطيلُ النَّظر فيها، وتتفرسُ في ملامحها، وانتشرَ في المكان سكونٌ امتصَّ اهتمام كلَّ واحدةٍ ممن كُنَّ في المجلسِ، ورُحْنَ يَرقُبْنَ باهتمام بالغ حركات الكاهنةِ التي بدا في وجهها الاهتمامُ الشَّديدُ بآمنةَ، بل كَتمتْ أنفاسَها برهةً، ونظرت إلى السَّماء نظرةً خاطفةً، ثمَّ إلىٰ وجْهِ آمنة، وأرسلتْ زفرةً عميقةً انبسطتْ على إثْرها أساريرُها، وظهر عليها طمأنينة شدَّتْ أنفاسَ وأنظار النِّسوة الزُّهريات اللواتي كُنَّ جميعاً كالأذنِ الواعية الصَّاغية، ثمَّ قالت في لهجةِ الهدوء: هذه هي التي ستلدُ النَّذير[٢].

* وسرىٰ صوتُ سودةَ عَذْباً ندياً سَاحراً آسِراً رقيقاً رفيقاً، ومسَّ سَمْعَ آمنة ولامَس قلبَها، فأطرقت حياءً، ونغمات الفرحِ تدوي في حناياها.

* ألا ما أُحيلىٰ تلك الهمسَات! بل ما أجمل تلك الأُويقات التي سمعتْ بها تلك الكلمات: هذه هي التي ستلدُ النَّذير!!.

* وراحتْ هذه الكلمات تطوفُ في نَفْسِ آمنة، وتجوب في أغوارها حتى

---

(١) انظر السّيرة الحلبيّة (١/ ٧٤).

(٢) انظر: بلوغ الأرب (٣/ ٤٤) بشيء من التصرف.

استقرَّت في أضالعِ حناياها، وظلَّتْ شيئاً جميلاً لا يُفارق وجدانها، ترىٰ هل يتحقق ما قالته سودَة هذه؟!.

زَوَاجٌ مَيْمُـــون:

* كانَ في بني عبدِ المطَّلب فَتىً يُعَدُّ زَهْرَة فِتْيانِ قُريش، وقمر نجومها الزَّواهِر، وقد أصبحَ مِلءَ الأسْماعِ والأبصار ـ خصوصاً بعد قصّةِ فدائِه بمئةٍ منَ الإبل ـ هذا الفتىٰ الوسيم هو عبدُ الله بنُ عبد المطّلب الهاشميّ القُرشي.

* وهاهو ذا عبد الله قد غَدا شابّاً جميلاً، قويَ البنيان، بهيَّ الطلعة، تلوحُ علائم الحُسْنِ على وجْهِهِ النَّضر، تشهدُ له، لا عليه؛ وكان عبد الله بالإضافةِ إلى ذلك كلّه نسيباً حَسيباً شريفاً أصيلاً، ثابتَ الأصولِ في مَجْدِ العَراقة، متطاولَ الفروعِ في أفقِ السِّيادة، ولا عجب أنْ يغدوَ مَطْمَع الآمالِ، وغايةَ الأماني، وحرزاً للغِيْدِ الحِسَان، منْ شريفاتِ وفضليات قريش، بأن يصرنَ زوجاً لهذا الفتى الكريم النَّبيل؟!

* كان في عبد اللهِ شيئاً غامضاً جميلاً مُثيراً، شدَّ بعض نسوة قريش إليه، لقد كان فيه شيءٌ تتفتَّحُ له الرُّوح قبل أن يحنَّ إليه الجسدُ، إنَّ فيه إشراقاً رائعاً لم يكنْ مثله في شباب قريش، إنَّ فيه سِرّاً لا يَعْرِفُ أحدٌ حقيقةَ كنْهِهِ، لكنَّ كثيراً منَ المشتغلينَ بالكهانةِ توقَّعُوا أنْ يكونَ لهذا الفتى شأنٌ ما.

* وكان لعبدِ المطلب عشرة بنين، ولكنّه كان يحسُّ بمَيْلٍ خاصٍّ نحو ابنهِ عبد الله يختلفُ عن مَيْلِهِ لسائرِ إخوته، وكان عبدُ المطلب لا يدري ما السِّرُّ في مَيْلِهِ هذا لعبدِ الله، وخصوصاً بعد فدائه من قصّةِ الذَّبْح المشهورة، وخلاصتها أنَّ عبد المطلب نَذَرَ نَحْر بعضِ ولده إنْ سهَّلَ اللهُ له حَفْرَ زمزم، فلمَّا تَمَّ له ما أرادَ أسْهَم بين ولده، فخرجَ السَّهْمُ علىٰ عبد الله، فهمَّ عبدُ المطلب بذبحه، ولكنَّ إخوته وقومه أشاروا عليه أنْ يفديَه بالمالِ، فأسهمَ عليه عشرةً من الإبل، فخرج السَّهْمُ علىٰ عبد الله، ثمَّ ما زالوا يزيدون عشراً حتى بلغتِ الإبلُ مئة، عندئذ وقعَ السَّهْمُ على الإبل، وفُديَ عبد الله.

* وبعد هذه الحادثة رأىٰ عبد المطلب أنْ يزوِّجَ عبد الله بِكْراً من كَرائم بيوتات قريش، وفكَّر عبدُ المطلب فيمن تكون قرينةً لابنهِ الأثير الوسيم،

فَهَداهُ تفكيره إلىٰ الحسيبة المُعْرِقةِ في النَّسب، فتاة بني زُهرة آمنة بنت وهب، فهي التي تتفرَّدُ بين نساء قُرِيش وبني زهرة بفضائلَ ومكارمَ لا تُوجد في غيرها.

* ولما قويَ عزمُ عبدِ المطَّلب على ذلك، أرسلَ إلىٰ بني زُهرة يخبرهم برغبتهِ في زواجِ ابنه عبد الله من ابنتهم آمنة، وبلغ الخبرُ وهْبَ بنَ عبد مناف، فرحَّبَ بذلك، وبَعَثَ مَنْ ذَهبَ إلى دُور بني زُهرة بالبشرىٰ وقال: إنَّ عبدَ المطَّلب بنَ هاشم زعيمُ قريش وشريفُها قادمٌ هو وابنه عبد الله منْ أجلِ آمنة.

* وانتشرَ هذا النَّبأُ بين نساءِ بني زُهرة، ففاضتِ القلوبُ بالسرورِ، وأسرعت برَّةُ بنتُ عبد العُزّىٰ لتزفَّ إلى ابنتها آمنة هذا الخبر الكريم السَّارّ، وقالت لها وقد بدتْ علائمُ الفرحِ على وجهها: يا آمنة؛ إنَّ عبدَ المطلبِ سيّد قريش قادمٌ ليزوّجَك عبد الله.

* ويبدو أنَّ آمنةَ قد أطرقتْ حياءً عند سماعها هذا الخبر، - وإنْ أشرقَتْ أساريرُها - وبدأَ قلبُها الطَّاهر يخفقُ بأعذبِ خفقَانٍ في الوجود، وأعظم خفقان يحقّق أحلامَ فتيات قريش اللواتي كنَّ يحلمنَ لو يُزفُّ إليهن ذلك النّبأ الجميل المُفْرِح.

* وأعتقدُ أنَّ آمنةَ عندما سمعتْ منَ الكاهنةِ سودة الزّهرية ما سمعتْ منذ مدّة منَ الزَّمن، أصبحتِ الأمنياتُ تتراقصُ أمام خيالها، وأضحتْ أعزّ أمنيات حياتها أنْ يأتي البشيرُ بأعذبِ نبأ يهفو إليه فؤادها، وتُبْسَطُ له أساريرها، وها هو البشيرُ يأتي فيلقي الحُلَمَ الذي غَدا حقيقةً، ومَنْ هذا البشير؟! كان أُمّها الحبيبة التي حَمَلتْ إليها البُشرىٰ وهي متهللةُ الأسارير. ومَنْ هو الخاطِب؟ إنَّه عبدُ اللهِ بنُ عبد المطّلب زينةُ فتيانِ قريش وزهرةُ شبابهم، إنّه الحسيبُ النَّسيبُ الأصيلُ الشَّريف.

* اللهُ أكبر، ألا ما أحلىٰ هذه البُشرى، وما أجمل تلك اللحظات التي سَمعتْ فيها تلكم الكلمات العِذَاب وهي تنبعثُ منْ فمِ أمّها: يا آمنة إنَّ عبد المطلب سيّد قريش قادمٌ ليزوّجَك عبد الله.

* ها هي آمنةُ تستشعرُ أنَّ الوجودَ كلّه يخفقُ بالفرحِ، وأنَّ جبالَ مكةَ وأوديتها تترنَّمُ بأهازيجِ البهجة، وتشدو بأعذبِ أنغام السُّرور.

* وها هي آمنةُ أيضاً تفيقُ من حلمها، لتحلِّقَ في حُلم آخر، فإذا بها تستشعرُ بأنَّ إشراقات باهرة قد أطلَّتْ على الكونِ فغمرته بأنوارٍ لطيفة تملأُ النُّفوسَ أمْناً ووئاماً ومودّة.

* لقد حلَّقتْ آمنةُ ثانيةً حتى أحسَّت كأنّما تَسْبَحُ في فضاءٍ رَحْبٍ هواءُه الحبورُ والسُّرور، ولكنَّها لمحتْ في تلك اللحظات أنَّ عيني أمّها مصوبتان نحو وجهها المنير، فراحتْ تجاهدُ نفسها لتداري حقيقة مشاعرها؛ إلا أنَّ وجهَها كان مرآةً صادقةً للمشاعر النَّاعمة التي ارتسمتْ عليه، وراحتْ أمُّها ترنو إليها بعينين قد طفرتْ منهما دموعُ الفرحِ، وقد هزَّتْهَا نشوةُ السُّرور هزّاً.

* وقدمَ شيخُ قريش وسيِّدُها عبد المطّلب وفي صحبته ابنُه عبد الله، ودخل دار وهْبٍ في دور بني زُهرة، ومعه عددٌ من بناته ونسوة من بني هاشم، ودخل وهبٌ على ابنته وقد تألَّقَتْ عيناهُ سروراً بهذه المُصاهرة الكريمة، وقال لها: يا بُنية، إنَّ شيخَ بني هاشم قد جاء يطلبك زوجةً لابنه عبد الله.

* وسَرَتْ موجةٌ من الخجلِ جعلتْ آمنة تُسْبِل عينيها أمامَ أبيها وهو يقرأُ عليها نبأَ الفرحةِ التي ملأتْ جوانحها، ولكنَّ وهْباً لم ينتظرْ من آمنةَ ردّاً، فعلاماتُ السُّرور المرتسمة على الوجوه، والكلماتُ التي تنبعثُ من القلوب، وتسيلُ على الشِّفاه، أبلغ تعبير يشيرُ بكلِّ أصابع الودِّ إلى التَّرحيب بهذه المصاهرةِ الرَّائعةِ.

* لقد كانتِ السَّعادة غامرةً، والفرحةُ هائمةً في بحار السُّرور، وكلّ هذه الإشراقات الهامسة لَفَّتْ دارَ وهْبٍ، وغمرت كلَّ مَنْ فيها من رجالٍ ونساء وفتيان وفتيات، بل إنَّ تلكم الإشراقات الآسِرَة قد فاحتْ حتى ملأتْ دُورَ بني زُهرة، ثمَّ دورَ مكة كلّها، ولم يحسّ بالحسرة والألم، إلا قلوب أولئك الفتيات اللواتي كُنَّ يطمعْنَ ويرغَبْنَ في زواجِ عبد الله، وَكدْنَ يمُتْنَ حَسْرَةً إذ

لم يتزوجْنَ عبد الله، وتحطَّمت أحلامهنَّ، وراحت تَذْروها رياحُ الخيبة، وتعصفُ بها أعاصير الحسرات.

* واجتمعَ رجالُ بني هاشم، ورجال بني زُهرة، وجلس عبدُ الله بنُ عبد المطلب متسربلاً بالجمالِ وإشراق الطَّلعة بين أبيه وإخوته ومَنْ حوله مِنْ باقي أقاربه، بينما جلستْ آمنةُ بنت وهْب فتاة بني زهرة في نسوةٍ من قريش، وكانت تتيهُ بجمالها وشرفها ومقامها علىٰ بنات أشرافِ مكةَ وساداتها.

* كان ذلك الجمْعُ يحتفُون ويحتفِلُون بذلك الرّباطِ الوثيقِ الذي سيربطُ بين أَفْضَلِ حيَّيْنِ في العربِ، بَلْ وقريش؛ يربطُ بين بني هاشم وبني زُهرة، بل ويربطُ أيضاً بين أفضل رجلٍ وامرأةٍ سيأتي منهما أعظم نبيّ أُرْسِلَ في الأوَّلين والآخِرين، سيّدنا وحبيبنا محمّد رسول الله ﷺ.

* وكعادةِ العرب في الزَّواج، نهضَ عبدُ المطلب، وألقى خطبةَ الزَّواج، وأخذ يعدِّدُ مناقبَ قريش وبني هاشم، ثمَّ طلب من وهب أنْ يزوِّج عبد الله آمنة، فقام وهْبٌ وعدَّدَ مناقبَ بني زُهرة، ثم أنعمَ بزواجِ عبد الله وابنته آمنة، فقام جميعُ الحضور مهنئين هذا الزَّواج الميمون.

* وطارتِ النِّسوةُ الهاشميات والزُّهريات إلىٰ آمنةَ يقبِّلْنَها ويتمنين لها السُّرور والسَّعادة، ويبدو لي أنَّ سودةَ عمّة وهب كاهنة مكة، لم تكن بمعزلٍ عن هذا الجَمْع الأليف اللطيف، فقد كانت تقفُ وتجيلُ فيهنَّ الطَّرف، وها هي قد وقفتْ تتفرّسُ في وجْهِ آمنةَ، لقد تذكَّرت أنَّها تنبّأتْ لها ذاتَ يوم بأنّها ستلدُ نذيراً، وها هي الآن ترىٰ في وجهها شيئاً مُثيراً يهزُّ وجدانها، وقد عجزتْ هي وكهانتها أنْ تكشفَ اللثامَ عن حقيقتهِ، أو تزيل حُجُبَ الأستارِ عن ماهيته، فهو شيءٌ رائعٌ لم تَرَ في وجوهِ فتيات العربِ مثله، إنّه شيءٌ جميلٌ تهفو إليه الأرواحُ، ولكنَّه يستعصي علىٰ فراسةِ الكهان والكاهنات، والعرَّافين والعرَّافات، والزَّاجرين الطَّير والزَّاجرات.

* كان رجالُ قريش ونساؤها، ورجال بني زُهرة ونساؤها فرحين مستبشرين بزواج آمنة وعبد الله، فآمنةُ أفضل امرأة في قريش نَسَباً

وموضعاً(١)، وهي زَهْرةُ بني زُهرة، وعبد الله فتى قريش وريحانة أبيه.

* وبنىٰ عبدُ اللهِ بنُ عبد المطلب سيِّد فتيان قريش بزوجهِ آمنة بنت وهب سيّدة نساء بني زهرة، فأقامَ عندها ثلاثاً على عادةِ العرب في ذلك، وكانت تلك السُّنَّة عندهم إذا دخلَ على امرأته في أهلها أقامَ عندها ثلاثاً.

* كانت ليلةُ بناء عبد الله بآمنة ليلة لها قَدْرُها، وما مِنْ أحد في مكةَ قدَّر عِظمَ تلك الليلة حقَّ قدرها، فقد كانت بحقٍّ ليلة مباركة متفرِّدة منْ أيَّام الزَّمان، بل لم يَجُدِ الزَّمانُ منْ قبلُ بمثلها، ليلة قُدِّر لها بأنْ تكونَ مبدأ مَنْ سيجعله الله رحمة للعالمين، كانت ليلة طيبة العبير، نديّة الأريج، ملأَ شذاها أرجاء الدَّار، بل أرجاء البسيطة، إذ حملتْ آمنةُ بنور الهدىٰ والرَّحمة المهداة محمد ﷺ.

* ومرَّتِ الأيام الثَّلاثةُ المباركةُ السَّعيدةُ التي أمضاها عبد الله وآمنة في بيت وهْب، ثمَّ إنَّه أخذَها وانطلقا إلىٰ داره قُرب البيت العتيق، وما كانت آمنةُ تدري ـ للوهلة الأولى ـ أنَّها قد حملت بدعوة إبراهيم أبي الأنبياء ـ عليه السَّلام ـ هاتيك الدعوة المباركة التي ظلَّتْ تخفقُ في قلبِ الوجود منذ مئات السّنين، بل من الماضي البعيد، يوم أنْ رفعَ إبراهيمُ وابنه إسماعيلِ القواعدَ من البيتِ؛ يومها دعا إبراهيمُ ـ عليه السَّلام ـ فقال: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٢٨ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩].

* كان عبدُ الله مُذْ بنىٰ بآمنة يستشعر في أعماقه أنَّ شيئاً عظيماً مُثيراً قد حَدَث، ولكنّه لم يدركْ سِرَّه، فقد شعر منذ الليلة الأولى، التي التقىٰ فيها آمنة؛ بأنَّها ليلةٌ رائعة لم يرَ أجملَ منها طوال حياته.

* وجلسَ عبدُ الله قربَ البيتِ العتيق، ينظر إلىٰ الكعبة وقد أرخىٰ الليل

(١) «نسباً»: من جهة الأب؛ «موضعاً»: من جهة الأم.

سدوله علىٰ الدُّنيا، إلا أنَّ القمرَ كان يتوسّط السَّماء، ويرسلُ أشعته إلى جبال مكةَ وأرضها، وقد انسكبَ ضوءه على البيتِ العتيق فغمره بنورٍ لطيف.

* كان عبدُ الله ينظر إلى القمرِ نظرةً تختلفُ عمّا قبل، إنّه طالما سرىٰ في الليالي العديدة، وطالما أحسَّ سِحْرَ القمر وتذوّقَ جماله، ولكنَّه الآن يرىٰ القمر في تلك الليلةِ شيئاً آخر، كأنَّه كان أكثر تألُّقاً ممّا كان، وكأنَّ أشعتَه الفضيّة عواطفُ حانية ساحرة مفعمة بخيوط المحبّةِ، تحتوي الوجود كلَّه بين لحمتها وسُداها، وقد هبَّ نسيمُ الليلِ رخاءً، كأنّما يحملُ بشرىٰ ورحمة للنّاس كافّة.

* إنَّ أريجَ تلك الليلة لا يزالُ طيّباً في أعماقهِ، وإنَّه لفي دهشةٍ منْ أمْرِهِ، أَفَاحَ الطِّيْبُ منْ أرجاءِ الدُّنيا حقّاً، أم انبعثَ من نفسهِ؟! فقد أحسَّ برائحة المسك الأذفر منذ تلك الليلة المباركةَ التي بنىٰ فيها بآمنة، ورأىٰ الدنيا تتلألأ بالبهجة والإشراق، ورأى الوجودَ باسماً من حوله، لكنّه لا يدري مَا سِرّ ذلك.

أَحْــلامٌ وآمَــالٌ:

* كان فتى قريش عبد الله بن عبد المطلب يعيشُ علىٰ سُنَّةِ آبائه الأماجدِ تاجراً سَفَّاراً، يذهبُ مع تجّار قريش في رحلاتهم التِّجاريةِ إلىٰ أسواقِ العربِ[1]؛ وإلى متَاجرِ اليمن والشَّام.

---

(١) ذكر الآلوسيُّ وغيرهُ كثيراً مِنْ أسواقِ العَرب في ذلك العَصْر، وذكر مواقيتها وأماكنها، ومن تلكم الأسواق التي ذكرها:
١ ـ سُوق عكاظ: وهي منْ أعظمِ أسواق العرب؛ وعُكاظ: واد بين نَخْلَةَ والطَّائف، وهو أقرب إلى الطَّائف، وكانت سُوق عكاظ تُقَام أيام موسم الحجّ، وتحضرها كلُّ القبائل، وبها كانت مفاخرةُ العرب، وحالاتهم، ومهادنتهم.
٢ ـ سُوق مجنّة: موضعٌ قربَ مكة، تقومُ سوقها قرب أيام الحج، ويحضرها كثيرٌ منْ قبائل العرب.
٣ ـ سُوق ذي المجاز: كانت بناحية عرفة إلى جانبها. =

* لم يكنْ عبدُ اللهِ واسعَ الثَّراءِ، كثيرَ المالِ كأصحابِ المُضَاربات، وكأولئك المُرابين من سَفَاسِف تجّار قريش، ولكنّه لم يكنْ كذلك فقيراً معدماً مُمْلقاً يقعدهُ الفَقْرُ عن أسبابِ الكسب الطَّيِّب، والعَملِ للحياة منْ أشرفِ طرائقها، ولا سيما بعد زواجه آمنة بنت وهب، فقد أصبحَ مسؤولاً عن بيتٍ فيه زوجته التي وجَبَ عليه أنْ يعولَها، ويقوم على واجباتها، وقد شعر بهذا شعوراً مَلَكَ عليه أحاسيسه حتى إنّه لم يمهله ـ في أشهر الرِّوايات وأغلبها ـ أنْ يقيمَ إلى جانبِ زوجته بعد أنْ بنى بها أكثر من أيّام معدودات، ثمَّ أذَّنَ مؤذِّنُ العِيْرِ بالرَّحيل إلى الشَّام للتِّجارَةِ، فأخذَ عبدُ الله يعدُّ العِدَّة لذلك.

* كان عبدُ المطَّلب قد وَعَدَ فَتَاهُ وفلذَة كبده عبد الله بأنْ يبعثه إلى الشَّام تاجراً مع قوافلِ قريش، فراحَ عبدُ الله يرىٰ نفسه بعينِ خياله في قافلةِ قريش وهي تسري إلى بلادِ الشَّام، وتمرُّ في أرضِ يثربَ ذات النَّخْل والبَساتين، وتخيَّلَ أرضها الجميلةَ ذات السُّندس الخُضْر، وسرىٰ خيالُه بعيداً إلى أسواقُ الحلي، وحَلمَ بأنَّه سيشتري لآمنةَ حليّاً، ثمَّ يعودُ وقد كَسبَ مالاً حلالاً منْ تجارته، وإذ ذلك انتبه عبدُ الله من أحلامه العِذاب وقد أشرقَ وجهه بالابتسام.

* ودخلَ عبد الله على زوجه آمنة فألفاها تتألّقُ بالبِشْرِ، وتُقْبِلُ عليه مُرحِّبَةً به كأنّما قد عادَ من سَفَرٍ طويلٍ بعيد، وراحَ الزَّوجان يتناجيان، فيحسُّ كلُّ واحدٍ منهما أنَّ شيئاً ما قَدْ شَدَّ كلاًّ منهما إلىٰ الآخر، وإن لم يمض على زواجهما أكثر من بضعةِ أيّام، وأنَّ رباطاً روحيّاً يخترقُ كلَّ الحواجزِ، وكلّ السُّدود التي تقوم عادةً بين نَفْسَيْن وإنْ عاشا تحت سَقْفٍ واحد بضْع سنين.

= ٤ ـ ومن الأسواق الشَّهيرة: سُوق هَجَر، وسوق عمان، وسوق سحار، وسوق الشّحر، وسوق صنعاء، وسوق المشقر، وغير ذلك.
انظر (بلوغ الأرب ١/ ٢٦٥) و(تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٧٠) مع الجمع والتصرف والاختصار.

* كانت آمنةُ راضيةً كلَّ الرِّضا، سعيدةً كلّ السَّعادة، تحسُّ كأنّما قد احتوتِ الوجودَ كلّه بين جوانحها، وأنَّ فيضاً روحيّاً ينبعثُ من أغوارِ نفسها، فإذا بها تشعرُ أنَّها تعيشُ في دُنيا جديدة تنبضُ رقّةً وأمْناً وسَلاماً.

* كان عبدُ الله يفكِّرُ في هدوءٍ؛ إنَّه خارجٌ في رحلةِ الصَّيْفِ إلى الشَّام، وإنّه سعيدٌ بهذه الرِّحلة، فسيزورُ المدينة في إيابه، وسيشتري لآمنة حَليلتِهِ حِلْيَةً من ذَهَبِ المدينة.

* كانتِ الأفكارُ تتوافدُ على رأسِ عبد الله، وتزحُمُ برهةً ثم تتلاشىٰ، إنَّه سيضربُ في الآفاقِ، ويخرجُ في عِيْرِ قريش إلى الشَّام، وسيكسب من التِّجارة، وإذ ذاك يقْرنُ بين الغنى والشَّرف، ويصبح سيِّداً منْ سَادات بني هاشم وقريش، فيطعم المحتاج والقانِع[1] والمعترّ[2]، ويغيثُ الملهوف، ويعينُ على نوائبِ الدَّهْر.

* وتهلّلَ وجهُ عبدِ الله بالبِشْر لما تذكَّر أنَّ أباه قد عَهدَ إليه أنْ يَمْتارَ منَ المدينة تمراً، وتذكَّر أنَّ أباه ما فعلَ ذلك إلا ليشعره أنَّه قد صار رجُلاً يمكن أنْ تعتمدَ عليه قبيلته في بعضِ أمورها، وربما يأتي اليوم الذي يصبحُ فيه عميد قريش وعماد مكة، وصاحب الكلمة المسموعة فيها.

* وفاضت نفسُ عبد الله بالسُّرور مرَّةً أخرى، واستشعر أنَّه دخل الحياةَ من أرحبِ أبوابها وأوسع مصراعيها، فهل للحياةِ بابٌ أوسع من بابِ التِّجارة؟! إنّه سيطوفُ بالدنيا، وسيدلفُ إلى بقاع عِدّة، وسيعقدُ صداقاتٍ هنا وهناك كما عَمِلَ آباؤه وأجدادُه هذا من قَبْلُ، وفوق كلِّ هذا وذاك أحسَّ عبدُ الله أنَّ أيام سعادةٍ قد أقبلتْ تجرِّرُ إليه أذيالَ الهناء، وأنَّه سيغدو شيئاً مذكوراً في مكةَ أمِّ القرى، بل في طولِ البلاد وعرضها، أليستِ التّجارةُ مفتاح ذلك كلِّه؟!!

---

(١) «القانع»: السَّائل؛ قال تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦].
(٢) «المعترّ»: الفقير والمتعرض للمعروف من غير أنْ يسأل. (القاموس المحيط ص٥٦٣) طبعة مؤسسة الرسالة.

* وفطنتْ آمنةُ لشرودِ عبد الله وهو بجانبها، فسألته: مالك يابن العمّ؟!
وآبَ عبدُ الله من رحلةِ أحلامه السَّريعة وهو في بيتهِ، وأمامَ زوجتهِ الأثيرة الحبيبة، فرأىٰ وجهها الكريم وقد ارتسمتْ عليه ابتسامةٌ مشرقةٌ، فأحسَّ كأنَّ الوجودَ كلَّه قد تهلَّلَ بالفرحِ والبشْرِ.

* وأقبل عبدُ الله يحدِّثُ آمنةَ عن آماله، وأحلامه، وسؤدده الذي سيبنيه ويشيّده، وسيكْسُوهُ بالمجدِ والفَضَائِل، وكانت آمنةُ تصغي إليه وهي منشرحةُ الصَّدر، ناعمةُ البال، تطوفُ بها سكينةٌ وأمْنٌ، وإنْ كانت تعلمُ أنَّ زوجَها مفارقُها بعد سُويعات في رحلة تجارة إلى الشَّام.

* وعاد الزَّوجانِ الأليفان إلى المُناجاة، فالسَّاعات تزحفُ نحوهما لتقول: لقد حانت ساعةُ الودَاع، وأَزِفَ الرَّحيل، وراح عبدُ الله يرنو إلى وجهِ آمنةَ الذي كان يتألّقُ بالنُّور، وأخذَ يرنُو إليها في حبٍّ وإعجاب ودهش، ففي عينيها هيامٌ، وعلىٰ شفتيها ابتسامةٌ هادئةٌ معبّرة، إنَّ وجهها اللطيفَ لم يعرفِ الفَزَعَ، وفؤادَها لنْ يرتجفَ خَوفاً منْ وحدتها، فلنْ يكونَ معها في الدار الصَّغيرة المتواضعةِ إلا جاريته الحبشية بَركة[1] التي كانت في عمْرِ زوجته آمنة.

* نعم لقد كانت آمنةُ ثابتةَ الفُؤادِ، مرفوعةَ الجبين، فهي تعرفُ حقيقة دورها في مجتمع يعيش بالتِّجارة، وعلى التّجارة، وبين أعطافِ التّجارة، يطوفُ رجاله بالآفاق، ويجوسون مشارقَ الأرض ومغاربها، ثمّ يعودون إلى الزَّوجة التي تنتظرُ أوبةَ زوجها بفارغِ الصَّبر، وإذ ذاك تُـنْسيه متاعب الرحلة، ووعثاء السَّفر، ووحشة الطَّريق.

* وفطنَ عبدُ اللهِ إلى مشاعِر زوجته كي لا تبدو أمامه منهارةً، كانت آمنة تتجلّدُ لتبدو هادئةً، ولا عجبَ في ذلك، فقد كانت من أشرفِ حيّ في قريش

(١) اقرأ سيرة بركة «أم أيمن» في كتابنا «نساء من عصر النبوة» (١/ ٣٣ ـ ٤٣) فسيرتها إمتاعٌ للأسماع، وإرواءٌ للغليل، وبلوغٌ للأرب في معرفةِ أحوال هذه الصَّحابية الجليلة رضي الله عنها.

ومنْ سَرَوات النِّساء، ومنْ فضلياتهن.

وَدَاعُ الحَبِيْب:

* حانتْ ساعةُ الرَّحيل، وخرجَ عبدُ الله من بيته[1]، وقد ارتفعَ القمر في السَّماء بدراً ينيرُ السَّبيل، فسار بضع خطوات، ثمَّ وقفَ والتفتَ نحو بيته، وألقىٰ نظرةً طويلةً علىٰ داره المتواضعة، فانقبضَ صدرُه، وطافتْ به موجةٌ منَ الأسى، واستشعر وحشة لم يحسّها من قَبْلُ، إنَّه يحبُّ آمنة، وإنَّه ليؤلمُ نفسه أنْ يفارقها في أيّامِ زواجه المعدودة، ولكنَّ عبدَ الله ما كان يظنُّ أنَّ فراقَ آمنة يُنْزِلُ به مثل هٰذا الحزن الذي انتشرَ بين جوانحه، ثمَّ تابعَ عبدُ الله المسيرَ نحو الكعبة ليسعىٰ قبل الرَّحيل.

* وبعد ذلك ذهبَ عبدُ الله إلىٰ حيثُ العِيْر، فإذا بالمكانِ يموجُ بسادات مكةَ وعبيدِها ورجالِها ونسائِها، وجاءَ عبد المطلب يحفُّ به أبناؤه كالقمر، وهم من حوله كالنجوم الزواهر، فَخَفَّ إليه عبد الله وارتمى في أحضانه وقبَّله، ثم ابتعد عن أبيه، فانقبض صدر عبد المطلب، فقد أحسَّ كأنما انتُزِعَ عبد الله منه انتزاعاً، وسبقَتْه دموعه إلى وجنتَيْه؛ ألا ما أقسىٰ أُويقات الفِراق، وسُويعات الودَاع!!!؛ أَلاَ ما أَقْسَاها!

* وسادَ المكانُ سُكُونٌ رهيبٌ، ثمَّ خرجتِ القافلةُ، وخرجَ فيها عبدُ الله، خرجَ عبدُ الله مُوَدَّعَاً منْ أبيه الشَّيخ الأسيف، وزوجته الحبيبة ـ على جدَّة عَهْدِه بها ـ، خرجَ عبدُ الله مُودَّعاً من إخوتِه وأخواتِه وأتْرابِه وعشيرتِه، وهم يرقُبون عودته، وعيونُهم تموجُ بدموع الفِراق، ولكنَّ إرادةَ اللهِ التي تعلو بحكمتها علىٰ مدارِكِ العقولِ، أَبَتْ عَلىٰ عبد الله أنْ يرجعَ من سَفَرِهِ هذا ليشهد آمنة الزَّوجة الكريمة، وقد تنفَّسَ حَمْلُها عن أكرمِ مولودٍ يشهد الحياة أوّل ما يشهدها يتيماً.

* وسرتِ القافلةُ القرشية في الليلِ نحو الشَّام وهي تسير على بساطِ

---

(١) هذه الوقفة تذكرني هاهنا بقول الصمة القشيري:

تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعتُ من الإصغاء ليتاً وأخدعا

الأرض الذي يموجُ بأنوارِ القَمر الفضيّة السِّحريّة، وانطلقتِ القافلةُ وبعدتْ عن الوادي المقدّس، وبعدتِ القلوبُ عن الكعبة، وإنْ ظَلَّ البيتُ العتيقُ مشرقاً في سُويداء القُلوب، مضيئاً جنباتِ أرواحٍ تعلَّقَتْ به، وشُغِفَتْ به حبّاً، وجَعَلَتْ آخِرَ عهدها تطْوَافَها وطوافها به.

* وراح حادي العِيْس يغنّي بصوتٍ ساحر يموجُ بالشَّجن، ويصورّ حنينه إلىٰ الوطنِ، وإلىٰ البيتِ العتيق، وإلى الحُجون، وإلى الصفا، وإلى هاتيك البقاع الطاهرة، وإلى ما في مكة أيضاً من أحِبَّة وأصحاب وأتراب.

* كان صوتُ الحادي يمتزجُ بوجدان الرّكب، فإذا بمشاعِرَ ناعمةٍ تتسلّلُ إلى أفئدةِ فتيان القَافلة، وإذا بالرّكبان يشاركونَ الحادي في أهازيجه، هنالك تحـرّكـتْ لـواعـجُ الشَّـوقِ فـي نَفْـس فتـى قـريـش وزهـرتهـا عبـد الله بـن عبد المطلب، فقفزتِ الدُّموعُ من عينيه، فقد لاحتْ له زوجه آمنة تملأُ وجدانه، والنُّورُ يشعُّ من جبينها الزَّاهِرِ، فتدخُلُ في قلبه نسماتُ الرَّأفةِ، وهمسَات الرّحمة والحبّ والأمن.

* إنَّه منذ هاتيك اللحظات التي ودَّع فيها ذويه وآمنة خاصّة، يحسُّ كأنَّما خلَّفَ قلبه هنالك، فلمْ يَنْـثَـنِ طيفُها اللطيفُ عنه في لَيْلِهِ أو في نَهَاره، أو حِلِّه وترحاله؛ إنّها في خيالِهِ، فلا تغيبُ صورتها منْ وجدانه، بل إنّها في سُويداء فؤاده الذي أصبحَ فَارغاً بعد رحيله عنها، إنّها أمامه، وعن يمينِه، وعن شماله، وحيثما اتّجه وقلَّبَ وجهَه يحسُّ بأنَّ حديثَها العذبَ الرّقيقَ يمسُّ أذنَيْه مَسَّاً رقيقاً رفيقاً فيحيي فيه أجْمَل الذّكْريات، وأعْطَر الأُويقات التي قَضَاها هنالك قُربَ البيتِ العتيق.

* وعاد عبدُ الله بذكرياته ليعيشَ بوجدانه في مَسْقطِ رأسه، في أمِّ القُرى، ويطوفُ بالكعبةِ، ويلقي نظرات الحبِّ على البيت العتيق، ثم يُهْرعُ إلى داره الحبيبة يناجي الحبيبة آمنة، ويبتسمُ في وجْه جاريته الحبشية ويُوصيها بسيدتها خَيراً، وهكذا كانتِ الذِّكرياتُ تداعبه وهي مفعمةٌ بنشوة الأحلام، وإنْ كان يطوي البيد طيّاً مع عِير قريش، ويسعىٰ في أرضِ الله يضربُ في مناكبها طلباً للرِّزق، والتماساً لجمعِ المال والثَّروة.

* وفي الشَّام باع التُّجار القرشيون ما كانَ معهم من سِلَع، وحقّقُوا أرباحاً أثلجتْ صدورهم، وأقبلوا على شِراء سِلَع من هناك ليأخذوها إلى مكةَ، ومرَّتْ مواسمُ السُّوق والتِّجارة مفعمةً بالبهجةِ والعمل، وكانت أيامها ولياليها تنبضُ بالحياةِ والحركة.

* وأذَّن مؤذِّنُ القافلة أنْ حانت العودةُ إلىٰ أمّ القِرى، فتجهَّزَتْ عيرُ قريش للعودة، وأعدَّ الرِّجالُ رحالهم وما يلزمهم، ثمّ استووا على ظُهور مطاياهم، وانطلقتِ القافلةُ وقد استقبلتْ مكة، فإذا القلوبُ قد هامتْ بقربِ اللقاء، بعد عودتهم النّاجحة في هذه الرّحلة التّجارية الميمونة الموفّقة.

* وسَرتِ القافلةُ في الكونِ الرَّحْب، وانصرمتْ أيامٌ وليالٍ وهم يقطعون الفَلوات، وأحسَّ عبدُ الله بوهنٍ يدبُّ في جسمه، فلم يحفلْ به كثيراً، وظنَّ أنَّ ذلك مردّه إلىٰ وعْثَاء السَّفر، وأنَّ التَّعَبَ قد دَبَّ في أوصالِهِ، وأنَّ هذا الإرهاقَ لن يلبثَ أنْ يزولَ إذا ما استراحَ وأعطىٰ جسمه حقّه منَ الرَّاحةِ والهدوء.

* وفي إحدى المنازل حطَّ رجالُ القافلة رحالِهم، وشدوا الخيام للرّاحة، ودخلَ عبد الله خيمته، وما أن أَسْلَم جنبه للرقاد حتى راحَ في سُبات عميق، وغطَّ في نومه، وقد ذبل جسمه ولونه.

* وحانَ الرحيلُ، فدلفَ رجلٌ إلى خيمةِ عبد الله ليوقظه، فوقفَ ينظرُ إلىٰ وجههِ الجميلِ الذي ذبلَ وعلاه الاصفرارُ، فوقفَ وقد أخذه القَلَقُ من حَالَةِ عبد الله، فناداهُ بصوتٍ هادىء: عبد الله، عبد الله، قُمْ فقد حَان الرَّحيلُ.

* ويبدو أنَّ عبدَ الله لم تبلغْ أذنيه مناداةُ الرَّجلِ، فمدَّ الرَّجل يَدَهُ وراح يهزُّه وهو يناديه: عبد الله، عبد الله، همَّ النَّاس بالرحيل.

* وفتح عبدُ الله عينَيْن ذابلتين، ونظر إلى الرَّجل وأراد أنْ ينهضَ فعجز، فقال له الرجل: ما بك يا عبدالله.

فقال عبد الله في صوتٍ خافت: إنّي سقيمٌ مُتْعَبٌ.

* فجاء رجالٌ من قومه وحملوه ووضعوه في هَوْدَجٍ على ظَهْر بعيرٍ، وهم

يظنّون أنَّ وعكةً قد أَلَمّتْ به، وسرعان ما تزول قبل وصولهم إلىٰ المدينة.
ولكنَّ عبدَ الله لم يفارقْه المرضُ على الرغم من وصول القافلة إلىٰ المدينة بعد بضعة أيّام، بل إنَّ أمره أخذ يسوءُ يوماً بعد يوم، وقد حارَ فيه أطبّاء القوم وعرّافوهم.

ونُمي الخبرُ إلى بني النَّجّار أخوالِ عبدِ الله بأنَّه مريضٌ، فخفُّوا لنقلهِ إلى دُورهم كي يأخذَ قِسْطاً منَ الرَّاحة، ثمَّ يداوونه مما ألمَّ به، وأخذَ رجالُ قريش حاجاتِهم من أسواقِ المدينة، وجاء يومُ الرَّحيل ليأخذوه معهم إلى مكةَ، ولكنَّ بني النَّجار أَبَوا أنْ يغادرَ عبد الله فراشه، ولمّا ينهضْ من مرضه، أو يُكْتَبَ له الشِّفاء.

* ولما رأىٰ رجالُ القافلة أن لا بدَّ من مقام عبد الله في أخوالهِ بني النَّجار، ساروا نحو مكةَ وقد علاهم الوجومُ والذّهول مما عراهم؛ كيف وماذا يقولون لعبد المطلب زعيم قريش؟!

الخَبَرُ الأَلِيْمُ:

* هاهي قافلةُ قريش تدنو منَ الحرمِ، كان الليلُ قد نشَر سِربالَه الأسودَ على مكةَ، وغابتْ نجومُ السَّماء تأخذُ مضاجعها، وهجعَ الكونُ، وانتشر السُّكون، إلا نسوة كُنَّ ساهرات، لم تعرفْ عيونُهنَّ النَّوم، ولم يعرفِ النومُ ـ على الرغم من سلطانِه وسيطرتِه ـ إلى عيونهنَّ سبيلاً، فقد سمعن موعد عودةِ قافلة قُريش من بلاد الشَّام، ودنت ساعة التَّلاق، بعد طول الفراق.

* وأخذتِ القافلةُ طريقها داخل مكةَ، واقتربت منَ الحرم، وحطَّ الرجالُ رحالهم، وانتشرَ الخبرُ في مكةَ: أنْ قَدِمتْ عيرُ قريش منَ الشَّام، فتمزّقَ ذلك السُّكون، وعادتِ الحركةُ إلى الحرم.

* وهنالك بالقربِ من الحرمِ راحتْ آمنةُ بنتُ وهب ترقُبُ القادمين خافقةَ القلبِ، وبقربها جارية زوجها بركة الحبشيّة تتحدث إليها، ولكنَّ آمنة كانت غائبةً بروحها عنها، فقد سَبَقَها خيالُها إلىٰ لقاءِ عبد الله زوجها، وها هي تتخيّلُ عبد الله وهو ينزلُ عن راحلته يتألّق وجهه بالنّور، ويُشْرِقُ بالابتسام، ثم يسيرُ كالقمر المنير يحفُّ به إخوته كالنُّجوم يسعَونَ إلىٰ الحرم

كيما يطوفُوا بالبيتِ سَبْعاً، ثمَّ يأتي إلى بيتهِ وتخفُّ لاستقباله.

* ويبدو لي أنَّ آمنة قد أرختْ لخيالها العَنان، وشعرتْ بارتياحٍ لأحلامِ اليقظةِ التي سَلْسَلَتْ أحداثها في نفسها.

* كان خيالُها في تلك اللحظات خصْباً، يمدُّها بكثيرٍ من الصُّور المِمْراح، فأرْخَتْ له العَنان أكثرَ وأكثر، وغابت أكثر عمّن حولَها في دنيا أخرىٰ، دنيا مشرقة تخفق بالأملِ الذي أقامته في وجدانها ومشاعرها، فقد تذكرت في معرض خيالاتها أنَّ عبد الله قد وعدها بِعِقْدٍ نفيسٍ يأتي به هديّة لها في أوبتهِ منْ رحلته الشَّامية هذه.

* واستفاقت آمنةُ من أحلامها على صوتٍ يقول: أقبلت عيرُ قريش، أقبل تجّارُ قريش. ورنَتْ آمنةُ بنظرها نحو القافلةِ التي أضاءتِ المشاعلُ كلَّ جوانبها، واستحالَ المكانُ علامةً بارزةً وسْطَ الظَّلام الحالك.

* وخفقَ قلبُ آمنةَ بين أضَالعها، ودق دقاتٍ عالية، وسَرَتْ في جسمها عواطفُ شتّى متموّجَةٌ، وتسابقَ رجالُ مكة لاستقبالِ العائدين؛ وخرج عبدُ المطّلب وأولادُهِ لاستقبالِ عبد الله ريحانة الألبّا وزهرة الحياة الدّنيا، وماجَ القادمون بالمستقبلين، وارتفعَ صوتُ عبد المطلب ينادي: عبد الله، عبد الله، أينَ عبد الله؟! ولكنَّ فتى قريش اليافع الوسيم الغضّ لم يكنْ بين جموعِ العائِدين، وأقبلَ زعيمُ القافلة على عبد المطلب، فلمّا رآهُ قال له: أين عبَد الله؟

* وذهبت نفسُ الرّجل شعاعاً، ولكنَّه تصنَّع الهدوء وقال في نبرة حُزْنٍ: لقد خلَّفْنَاهُ عند أخواله بني النّجار مُدْنفاً[1].

* وشعر عبدُ المطلب بأنَّ يداً قويّة تهصر[2] قلبه، وتذكّر زوجةَ ابنه آمنة

---

(١) «مدنفاً»: مريضاً؛ يُقال: أدنفه المرض، فهو مُدْنِفٌ ومُدْنَفٌ. (القاموس المحيط ص١٠٤٨) مادة (دنف).

(٢) «هصر»: الهصر: الجذب، والإمالة، والكَسْر، والدفع، والإدناء. (القاموس المحيط ص٦٤١) مادة (هصر).

بنت وهب، فكادتْ تنهارُ عزيمته، فماذا يقول لها؟!

* حقّاً إنّها لمهمّة ثقيلةُ الوطأةِ على النَّفس والقَلْب، أيقولُ لآمنة التي تنتظرُ عبد الله وهي مفعمة بالسّرور: إنَّ فتاها مريضٌ مدنفٌ هنالك في المدينة عند أخواله بني النّجار؟!

* لَكِ اللهُ يا آمنة! لقد خلا كلُّ حبيبٍ بأهله، وزوجُكِ مريضٌ في مكانٍ بعيد؟! ترىٰ أيعودُ عبدُ الله ليخلوَ بأهله؟!

* وعاد عبدُ المطلب وبنوه إلى دارِ عبد الله، وإلى دارِ آمنة، وقلوبهم تتجاذبها مشاعر شتَّى منَ الرَّحمةِ والحزن والإشفاقِ والشَّوقِ لعبد الله، ولما رأتهم آمنةُ وعبد الله ليس بينهم اشتدَّ وجيبُ قلبها، وتدفقتْ مشاعرُ متباينة إلى نفسها، ولفَّها خوفٌ شديدٌ خصوصاً لما رأت عبدَ المطلب باسرَ الوجهِ، وبنوه تعلُو وجوههم موجةٌ من الحزنِ، فارتسمتْ على وجهها علامات الذُّهول والرّعب، ولمحَ عبدُ المطلب ذلك في محياها وقال لها: لا تخافي يا آمنة، إنَّ عبدَ الله بخيرٍ.

قالت آمنة: أينَ عبد الله؟

قال: هو بخيرٍ عند أخواله في المدينة.

قالت: ولِمَ لمْ يَعُدْ مع العَائدين؟!

قال: إنّه مريضٌ هناك.

* وسادَ المكان سكونٌ ثقيلٌ، وخيَّم القَلَقُ والأسىٰ على دار عبد الله، لما حَصَلَ له في هذه الرِّحلة.

* وأرادَ عبدُ المطلب أنْ يمزِّقَ هذا السُّكون البغيض، ويغرسَ مكانه الطُّمأنينة، بل ويدخلَ الطُّمأنينة إلىٰ قلبِ آمنة فقال لها: سأرسلُ أخَاهُ الحارثَ إلى المدينةِ كيما يعود بزوجِك عبد الله بعد إبْلاله[1].

* وفي صبيحةِ تلك الليلة، كان الحارثُ بن عبد المطلب يسيرُ نحو

---

(١) «إبلاله»: البِلُّ: الشفاء. (القاموس المحيط ص١٢٥١) مادة (بلَلَ).

المدينة مُوَدَّعاً منْ أبيه وأهله وذويه، وألسنتُهم تلهجُ بالدّعاء كي يُشْفَىٰ عبد الله منْ مرضه.

* وما أن وصلَ الحارثُ المدينة حتّى علمَ أنَّ أخاه عبد الله قد مات غريباً، وقُبِرَ في دارِ النَّابغة أحد بني عدي بن النّجار، وصار الفتى منَ الغابرين.

لَوْعَــةُ الفِرَاقِ وَرثَـاءُ الحبيْبِ:

* عادَ الحارثُ بنُ عبد المطلب كسيرَ النَّفس، مهيضَ الجناحِ، حزينَ القلبِ على فَقْدِ أخيه، وانطلقَ إلى مكةَ يحملُ إليها أسوأَ خبرٍ يسمعهُ عبد المطلب في حياته.

* وحطَّتْ ناقةُ الحارثِ بفناءِ الكعبة، ونزلَ عن راحلته، وذهبَ إلى حيثُ يجلس عبد المطلب وأبناؤه، وأعلمه بموتِ الغائب الذي لا يؤوب، فأثار النّبأُ الموجعُ الأحزانَ في نفس الوالد الشَّيخِ المفجوعِ في فَقْدِ أحبّ أولاده إليه، وألْصَقِهم بنفسه.

* ووصلَ الخبرُ الأليمُ آمنةَ، فأثار الأسىٰ والحسرة في نفسها، وفجَّر الحزنُ في داخلها عُيوناً، فقد كانت تحلُم بأوبةِ الزَّوجِ الحبيب الغالي، وتشتاقُ إليه اشتياقَ الظَّمآن في اليوم الصَّائفِ القائظ إلَى الشَّراب العذب الحلوِ البادر، وتَبَدَّدَ ما كانت تعلّل به نفسها، وما كانت ترقبه منْ سعادةٍ وهناء في كَنَفِ الزَّوج الفتى الوسيم، ذلك الذي كان مَشْغَلَةَ المجتمعِ القُرشي والعربي حيناً منَ الزَّمان، فما مثله مِنْ فتى، وما مثله مِنْ زوج.

* وانطلق جَمْعُ بني هاشم إلىٰ بيتِ آمنة ليواسُوها في أفدحِ نكبة نزلت بهم، بل تنزلُ بامرأةٍ، وما أنْ دخلوا عليها حتى راحتِ الدُّموع تنهار من عينيها، فانتبذتْ منهم مكاناً قصيّاً، وراحتْ ترثي الزَّوجَ الحبيبَ وتقول:

عَفَـا جَـانِـبُ البَطْحـاءِ مـنْ آلِ هـاشـم
وجَـاوَرَ لحـداً خَـارِجـاً فـي الغَمَـائِـمِ[1]

---

(١) «الغمائم»: الأغطية، والمراد بها هنا: الأكفان التي لُفَّ بها.

دَعَتْــهُ المَنَــايــا دَعْــوَةً فــأَجَــابَهَــا
وَمَـا تَـركَـتْ فـي النَّـاسِ مثل ابـنِ هـاشـمِ

عَشِيَّـــةَ رَاحُـــوا يَحْمِلُـــونَ سَـــرِيْـــرَهُ
تَعَــاوَره أصحــابُــه فــي التَّــزاحُــمِ

فــإنْ تَــكُ غَــالَتْــهُ المنُــون وَرَيْبُهـا
فَقَــد كــانَ معْطَــاءً كثِيــرَ التَّــراحُــمِ[1]

* وهكذا ماتَ عبدُ الله بنِ عبد المطلب في هذه الرحلة، وهو عائدٌ منَ الشَّام مارّاً بأخوالِ أبيه عبد المطلب بني عدي بن النّجار، ودُفِن عبد الله أبو رسول الله ﷺ بيثربَ مدينة الأسْرار والأنْوار، ومأوىٰ المهاجرين والأنصار، ومهبط الوحي ومنزل الأحْرار، ومثوى الكَمَلَةَ الأبرار.

* نعم ماتَ عبدُ الله بن عبد المطلب، وخلّى مكانَه في مكةَ لكنَّ قلبَ آمنةَ لم يَخْلُ منْه، ولقيتْ آمنةُ ما لقيتْ من عناءِ الفرقةِ وفداحةِ المصاب، ولكنْ ما العمل إذا كان الموتُ هو الذي حجزه في المدينة، وقدَّر اللهُ أنْ تكونَ منيته هنالك؟!

* نعم ماتَ عبدُ الله هناك في بقعةٍ بعيدة.. بعيدة.. ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، مات ولم يكنْ هو ولا غيره يعرف أنّه سيموت:

مَشَيْنَــاهــا خُطــىً كُتِبَــتْ علينــا ... ومَــنْ كُتِبَــتْ عليــه خُطَــىً مَشَــاهَــا
ومَــــنْ كَــــانَـــتْ منيّتُـــه بـــأرضٍ ... فَلَيْـس يَمُـوتُ فـي أرضٍ سِـوَاهـا

* تلكم ـ أحبّائي القُراء ـ حكمةُ اللهِ خالقِ الأرضِ والسَّماء، وخالقِ كلّ شيء ومقدِّرُ الأشياء، ماتَ عبدُ الله غريباً بعيداً عن مدارج صباه، ليأتي النَّبيّ ﷺ إلىٰ هذا الكون يتيماً حتى لا يقول: أبي، أبي، وإنّما ليقول: ربّي، ربّي، وصدق الله إذ يقول: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضّحى: ٦].

---

(١) انظر: المواهب اللدنية للقسطلاني (١/ ١٢٣ و١٢٤) طبعة المكتب الإسلامي عام (١٤١٢هـ).

آمِنَـةُ والبشْرَيَـاتُ بالحَمْـل المُبَارَكِ :

* حَزِنَتْ آمنةُ بنتُ وهب على عبدِ الله بنِ عبد المطلب حُزْناً شديداً كادَ يُودي بها إلىٰ الهلاك، فقد أحبَّتْ زوجها، وراحتْ ترسمُ الأحلامَ الحِسَان المجنَّحةَ التي تعيشُها معه، وتحلِّقُ في أجوائِها بصحبته، وما كادتْ تستهلُّ حياة الزَّوجيّةِ الهانئة حتى كان أمْرُ الله، فاختطفه الموتُ، وماتَ في أرضٍ غريبة بعيدة دون أنْ تراه.

ولكنَّ شيئاً واحداً كان يخفِّفُ من حُزنِ آمنة، ويستلُّ بعضَ كآبتها، إذ كانت قد حَمَلت مِنْ عبدِ الله بسيّد هذه الأُمّة، وقد ادّخرها القَدَرُ لأعْظَم أمومةٍ في التَّاريخ، وتوالت عليها الرُّؤى والبشْريات بجلالِ قَدْر هذا الجنين، فرأتْ فيما يرى النَّائم حين حَمَلَتْ به أنَّه خرجَ منها نورٌ أضاءَ الأرض، وبَدَتْ منه قصورُ بصرى من أرض الشَّام.

* روىٰ أبو نُعيم ـ رحمه الله ـ في «الدَّلائل»، وابنُ سَعْد ـ رحمه الله ـ في «الطَّبقات»، أنَّ آمنةَ قالت: رأيتُ كأنَّه خَرجَ منّي شهابٌ أضاءتْ له الأرض، حتى رأيتُ قصورَ الشَّام.

* ولم تكن هذه الرُّؤيا أو مثيلاتها لتخفى تأويلاتها على السَّيِّدة الحصيفة الأريبة آمنة بنتُ وهب، وهي مَنْ هيَ ذكاء وفطْنة، فقد فَهِمَت أنَّ مَنْ حَمَلتْ به سيملأُ الأرضَ نوراً وضياء، وهدىً ورحمةً، وسيكون له شأْنٌ وأيّ شأن! وذِكْرٌ وأي ذِكْر!.

* هذا ولم تكنْ آمنةُ وحْدَها هي التي رأتِ الرُّؤى والبشارات، ومقدّمات المولود السَّعيد، وإنّما حدثَتِ الرؤيا لجدّه عبد المطلب، يَحسُنُ بنا أنْ نوردها هاهنا لما لها من أهميّة في هذا المجال.

* روىٰ أبو نُعيم ـ رحمه الله ـ بسنده قال:

قال عبدُ المطلب: بينا أنا نائمٌ في الحِجْر، إذ رأيتُ رؤيا هالَتْني، ففزعتُ منها فَزَعاً شديداً، فأتيتُ كاهنةَ قريش فقلتُ لها: إنّي رأيتُ الليلةَ كأنَّ شجرةً نَبَتَتْ، قد نالتْ رأسها السَّماء، وضربتْ بأغصانها المشرقَ والمغرب،

وما رأيتُ نوراً أزْهَر منها، أعظم من نورِ الشّمس سبعين ضعفاً، ورأيتُ العربَ والعجم لها ساجدين، وهي تزداد كلَّ ساعة عظماً ونوراً وارتفاعاً، ساعةً تخفىٰ، وساعةً تظهر.

* ورأيتُ رهْطاً من قريش قد تعلّقُوا بأغصانها، ورأيتُ قوماً من قريش يريدون قَطْعَها، فإذا دنوا منها أخذهم شاب لم أرَ قطّ أحْسَنَ منه وجهاً، ولا أطْيبَ منه ريحاً، فيكسر أظهرهم، ويقلع أعينهم، فرفعتُ يدي لأتناول منها نصيباً فلم أنلْ، فقلتُ: لمن النَّصيب؟! فقال: النَّصيبُ لهؤلاء الذين تعلّقُوا بها وسبقوك.

* فانتبهتُ مذعوراً، فرأيتُ وجْه الكاهنة قد تغيّرَ، ثمَّ قالت: لئن صدقتْ رؤياك ليخرجنَّ منْ صلبِك رجلٌ يملكُ المشرق والمغرب، وتدينُ له الناس.

* فقال عبد المطلب لأبي طَالب: لعلك أنْ تكونَ هو المولود، فكان أبو طالب يحدِّث بهذا الحديث والنّبي ﷺ قد خَرج[1]، ويقول: كانتِ الشَّجرة ـ والله ـ أبا القاسم الأمين، فيقال له: ألا تُؤمن؟!

فيقول: السُّبّة والعَار[2].

* وتقدَّمتْ أشهرُ الحَمْلِ بالسَّيِّدةِ الشَّريفةِ آمنةِ بنتِ وهب الزُّهرية، وهي ترقُبُ الوليد الذي لم تَجِدْ في حَمْله أَلماً ولا وهناً؛ وترسمُ كُتُب السِّيرة، ومصادر التّأريخ، وغيرها من المصادر ميلادَ الحبيبِ المصطفى محمّد ﷺ والحمل به في صورةٍ فطريّة طبيعيّة، لأنَّ محمّداً ﷺ إنسانٌ قد حَمَلَتْ به أمُّه كما تحملُ سائِر الأمّهات ولدانَهنَّ زَمَاناً وحالةً.

* ذكر القَسْطلانيُّ ـ رحمه الله ـ في كتابه النَّفيسِ «المواهب اللدنيّة»: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بقي في بطْنِ أُمِّهِ تسْعَة أشهرٍ كُمّلاً، لا تشكو وجَعاً ولا مَغصَاً، ولا ما يعرِض لذواتِ الحمل منَ النِّساء.

---

(١) «قد خرج»: أي قد بُعث.

(٢) «السُّبَّةُ والعار»: أي: أخشىٰ العار؛ أو يمنعني. و«السُّبة»: العار، ومَنْ يكثر الناس سَبَّه.

* كانت آمنةُ تقولُ أثناء حملها: واللهِ ما رأيتُ من حَمْلٍ هو أخفُّ منه، ولا أعظمُ بركةً منه.

* قال ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ في كتابه: «الطَّبقات الكُبرى»: إنَّ آمنةَ بنتَ وهْب لما حَمَلتْ برسولِ الله ﷺ كانت تقول: ما شعرتُ أنّي حملتُ به، ولا وجدتُ له ثقْلاً كما تجدُ النّساء، إلاّ أنّي قد أنكرتُ رَفْعَ حَيْضَتي، وربما كانت ترفعُني وتعود.

* وقالت آمنةُ أيضاً: لقد علقتُ به، فما وجدتُ له مشقَّةً حتى وضعتُه.

* وقد هتفَ بآمنة هاتفٌ حينما كانت حاملاً بمحمدٍ ﷺ قائلاً: إنّك قد حملتِ بسيِّد هذهِ الأمّة، فإذا وقع على الأرض فقولي: أعيذُه بالواحدِ، من شرِّ كلِّ حاسد، وسميه محمداً.

آمنةُ ومولدُ المُصْطَفى ﷺ:

* بلغَ الكتابُ أَجَلَه، فبعدَ تسعة أشهر، أذنَ اللهُ للنّور أنْ يَسْطَعَ، وأن يظهرَ إلىٰ الوجودِ، وللنَّسَمة المباركة أنْ تخرجَ إلى الكونِ لتؤديَ أسمى وأعظم رسالة عرفَتْها الدُّنيا في عمرها الطَّويل.

* ففي ليلةٍ طابَ هؤاؤُها، وصافحتْ نسماتُها الوجود، والقمر يوشك أنْ يكونَ بَدْراً، واليوم الإثنين، وقد مضتْ من شهرِ ربيع الأوّل[1] اثنتا عشرة ليلة، وكان العام عام الفِيْل، في زمنِ كسرىٰ أنو شروان؛ لم يكنْ في دارِ عبد الله بن عبد المطلب قرب الصَّفا سوى آمنةَ بنتِ وهب، وجاريتها بركة

---

(١) فيا شهراً ما أشرفَه وأوفرَ حرمة لياليه، كأنّها لآلىءُ في العقود، ويا وجهاً ما أشرفه مِنْ مولود، فسبحانَ مَنْ جَعَل مولده للقلوب ربيعاً، وحسنه بديعاً.

يَقُـــولُ لِسَـــانُ الحَـــالِ منْـــهُ ... وقـــولُ الحـــقِّ يعْـــذُبُ للسميـــعِ

فـوجهِـي والـزَّمـانُ وشَهْـرُ وضْعـي ... ربيـــعٌ فـــي ربيـــعٍ فـــي ربيـــعِ

ولله درُّ الآخر إذ قال:

لهـذا الشَّهـرِ فـي الإسْـلامِ فَضْـلُ ... ومَنْقَبَـــةٌ تَفُـــوقُ علـــىٰ الشُّهـــورِ

ربيـــعٌ فـــي ربيـــعٍ فـــي ربيـــعِ ... ونـــورٌ فـــوق نـــورٍ فـــوقَ نـــورِ

الحبشيّة، وكانت تلكم الليلة ليلةً هادئةً خاشعةً، وكان نورُ القمرِ الفضّي ينسكبُ علىٰ الكون، ويتسلّلُ إلىٰ غرفةِ آمنة رائعاً رقيقاً، كأنَّ يداً حانيةً لطيفةً تمسُّ الكون مسّاً رفيقاً فتحرِّك مشاعر الرِّقة والحنَان، وملأت روح آمنة روائح أطْيب منَ المسكِ لم تدرِ ما مبعثها، وسرتْ في الغرفةِ نسماتٌ من الرحمة لامَسَتْ وجْهَ آمنة التي كانت هادئةً ساكنة، وإنْ كانت تهمُّ أنْ تَضَع حَمْلَها.

* ورأتِ الجاريةُ الحبشيّةُ هذا الموقفَ، فاستشعرتْ رهبةً ملكتْ كلَّ ذَرّةٍ فيها، وخشيتْ أنْ تتلقّىٰ وحدها مولودَ آمنة، فانسلَّتْ منَ الدَّارِ مهرولةً نحو قابلة قريش، وسرعان ما عادتْ وبصحبتها الشَّفَّاء بنت عوف[1] أمّ عبد الرحمن بن عوف، ليستقبلا معاً ذلك اليتيم الذي ستضعُه آمنة.

* ودنتِ الشَّفَّاءُ منْ آمنةَ، وكانت قابلةَ الحبيبِ المصطفى ﷺ، فحضرتْ مولده، وتشرّفت به.

* وطافَ بآمنة نُعاسٌ، فسمعتْ هاتفاً يهتفُ بها أنْ تسميَ مولودها محمّداً، وأفاقت من نُعاسِها، فأحسَّت كأنّما ذلك الاسم قد استقرَّ في فؤادها.

* وولدَ الحبيبُ الأعظمُ محمّد ﷺ، واستقبلته الشَّفَّاءُ على يديها. ولنستمعْ إلى تلكَ الحادثةِ المباركة وهي ترويها الشَّفاء نفسها فتقول: لما ولدت آمنة محمّداً ﷺ وقع على يديَّ، فاستهلَّ، فسمعتْ قائلاً يقول: رحمك ربُّك[2]؛ فأضاءَ لي ما بين المشرقِ والمغرب حتى نظرتُ إلى بعضِ قصور الشَّام، ثم ألبستُه وأضجعته، فلم أنشبْ أنْ غشيتني ظلمة ورعبٌ وقشعريرة، ثم أُسْفِرَ عن يميني، فسمعتُ قائلاً يقول: أين ذهبتَ به؟

---

(١) اقرأ سيرة الشّفاء بنت عوف في كتابنا «نساء من عصر النّبوة» (٢/ ١١٥ ـ ١٢١) فسيرتها شفاءٌ للنفوس بإذن الله.

(٢) وإلى هذا أشار البوصيري ـ رحمه الله ـ في همزيته:

شمَّتَتْه الأملاكُ إذ وضعتُه ... وشفَتْنا بقولها الشَّفَّاء

قال: إلى المشرق ولن يعود أبداً.

فلم يزل الحديثُ مِنّي على بال حتى ابتعث اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ رسوله فكنت في أوّلِ النَّاس إسلاماً[1].

* وحُمِلَ المولودُ، ووضِعَ في جوارِ أُمّه آمنة، كان وجهُه قد تألَّقَ نُوراً تهفو إليه الأفئدة، وتتفتَّحُ له النَّفس، ونظرتْ إليه آمنة بقلبٍ خافقٍ يتدفَّقُ منه الحنَان، فخُيِّل إليها أنَّ الوجود قد أشرقَ بالنُّور، وفاضت مشاعر الحبِّ فَضَمَّتْهُ إليها في رقّةٍ، ومالتْ عليها وقبَّلَتْه، وكان هذا الوليدُ رؤياها من قَبْلُ قد جَعَلَهَا الله حقّاً، فلقد رأتْ حين ولدته كأنَّ نوراً سَطعَ منها أضاء لها قصور الشَّام، فكان هذا المولود المبارك ذلك النّور:

أَنْتَ مِصْباحُ كلِّ فَضْلٍ فما تَصْـ ... ـدرُ إلاّ عــن ضــوئِـكَ الأَضْــواءُ
لَـمْ تَـزَلْ فـي ضَمَـائِـرِ الكَـونِ تُخْـ ... ـتـارُ لــكَ الأُمَّهــاتُ والآبــاءُ

* وترقرقَتْ في مآقيها الدُّموعُ، وطافَ بذهنها طائفٌ حَرَّكَ الأسىٰ في وجدانها؛ أنَّ ابنها الحبيبَ قد وُلِدَ يتيماً، آهٍ، ليتَ أباهُ عبدُ اللهِ كان هنا ليسعد بابنه الجميلِ الحبيبِ النَّسيبِ ذي العنصرِ الطَّيِّب، والحسبِ الزَّاكي، ذي الأصْلِ الثَّابت، والمجدِ المتطاولِ في سَمَواتِ المكارم:

أَبَـانَ مَـوْلِـدُهُ عَـنْ طِيْـبِ عُنْصِـرِه ... يَـا طِيْـبَ مُبْتَـدأً منْـهُ ومُخْتَتَـمِ
كالشَّمْسِ تظْهَرُ للعينَيْن من بعدٍ ... صغيـرة وتكـلّ الطَّـرف مـنْ أَمَـمِ

* ولم تسترسلْ آمنة في ذِكْرياتها وأحزانها، بل حانتْ منها التفاتة إلى وليدها، فإذا بإشراقةِ وجهه الجميل تُبدِّدُ كلَّ ما همَّ بأنْ يتوضعَ في جوفها منْ حزنٍ، وإذا بها تتذكّرُ ذلك الهاتفَ الذي هتَفَ بها قائلاً يومَ حملتْ به: «إنّكِ حملتِ بسيِّد هذه الأمّة»؛ وإذا بالنُّور يعودُ ليغمرَ قلب آمنة، ويغمر وجْهَ الأرض وكلّ شيء.

* وهكذا نَعِمَتِ الأمُّ الصَّابرة ـ التي ترمَّلَتْ في شبابها ـ بهذا المولود

---

(١) انظر: دلائل النبوة لأبي نعيم الأصفهاني (١/ ١٦٩ و١٧٠)، والمواهب اللدنية للقسطلاني (١/ ١٢٩ و١٣٠).

الجميل، ذي الجبين الأزْهَر المُشْرق، الذي ملأَ البيتَ مِنْ حولها نُوراً وسُروراً، ورأتْ فيه السَّلوىٰ عن الحبيبِ الغالي الذي تركَه لها وديعةً في ضمير الغيب، ثمَّ مات ولم يرَ هذا الوليد الذي يملأُ العيونَ جمَالاً وبهاءً، والقلوب محبّة وأُنْساً، ولكنَّ آمنة نالت بولادة هذا النَّبي العظيم ما لم تَنَلْه النِّساء:

فَهنيْئـاً بِـهِ لآمنـةَ الفَضْـ ـلِ الـذي شرفَـتْ بـه حَـوّاءُ
يـومَ نـالـتْ بـوضعِـهِ ابنـة وهـ ـب منْ فخَارٍ مالم تَـنَلْه النِّساءُ
وأَتَـتْ قـومَهَـا بـأفْضـل ممّـا حَمَلَـتْ قَبْـل مـريـم العَـذْرَاءُ

* وتنفَّسَ صبحُ تلك الليلةِ العَطِرةِ الزَّاهيةِ الهادئةِ الميمونةِ المباركةِ، فأرسلتْ آمنةُ إلى عبد المطلب تبشِّرهُ بغلام، وتبشّره بميلادِ الحفيدِ ابن الحبيب، وطار الجدُّ إلى بيتِ ابنه فرحاً ضاحكاً مستبشراً مسروراً، وضمَّ الحفيدَ إلى صدره ضمّاتٍ خَفقَ لها قلبُه، ومسحتْ من لوعةِ الحزن على الحبيبِ المغيَّب في ثرىٰ المدينة.

* وانطلقَ عبد المطلب يحملُ الحفيدَ الحبيبَ إلى الكعبةِ، هنالك قامَ يدعو الله ويشكرهُ علىٰ ما أنعمَ عليه، وأعطاهُ، ثمّ إنَّه أنشأ يقول:

الحمـدُ للهِ الـذي أَعْطَـانـي هـذا الغُـلام الطَّيِّـب الأَرْدَانِ
قد سَادَ في المَهْدِ على الغِلْمَانِ أعيـذُه بـالبيـتِ ذي الأَرْكَـانِ
حتّـى يكُـون بلْغَـة الفِتْيـان حتـى أراه بـالـغَ البُنْيـانِ
أعيـذُه مـنْ كـلّ ذي شَنَـآن مـنْ حـاسِـد مضطـرب العَنَـانِ[1]

ثمَّ إنَّ عبدَ المطلبِ سمّاه «محمّداً»، ولم يكن هذا الاسمُ شَائعاً عنْد العَرب، ولا تَسمَّىٰ به إلا عددٌ لا يتجاوزُ في العدِّ أصابع اليَدِ، ولكنَّ الله ـ عز وجلَّ ـ أَلْهَمَ جدَّه ذلك إنفاذاً لأمْره، وتحقيقاً لما قَدَّرَهُ، وذكرهُ في الكُتُبِ السَّماويّة التي بشّرتْ به، وبشّرَ به الأنبياءُ منْ قَبْلُ:

مَـا مَضَـتْ فَتْـرةٌ مـنَ الـرُّسـل إلاَّ بشَّـرتْ قَـوْمَهـا بِـكَ الأَنْبِيـاءُ

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (١/ ٦٤)، وأنساب الأشراف (١/ ٨١).

* وذكرَ البيهقيُّ ـ رحمه الله ـ أَنَّ عبدَ المطلب سُئِلَ عن سببِ تسميته محمّداً قال: أردتُ أنْ يحمدَهُ اللهُ في السَّماء، وخَلْقه في الأرض.

* ولعلَّ السَّيّدة آمنة قد أَخْبرتْ عبد المطلب بما رأتْ في منامها، فاتَّفقَ ما رأتْ وما رأى، ورجعَ عبدُ المطلب إلىٰ دار آمنةَ وهو يضمُّ الوليدَ إلى صدره، ووضعه في حضْنِ آمنة، ولا تكاد تسعه نفْسُه من شدَّة السُّرور والانشراح، وسرعان ما غصَّتِ الدَّارُ بنساءِ بني زهرة، ونساء بني هاشم للاحتفالِ بالمولود السَّعيد:

تَجَلَّىٰ مَوْلِدُ الهادي وعَمَّتْ ... بَشَائِرُهُ البَوادي والقِصَابَا

وَأَسْدتْ لِلْبَرِيّة بنْتُ وهْبٍ ... يَداً بيْضَاءَ طوَّقَتِ الرِّقابَا

لَقَد ولَدَتْهُ وَهّاجاً مُنِيْراً ... كما تَلِدُ السَّمَوات الشِّهَابَا

فَقَامَ علىٰ سَمَاءِ البيْتِ نُوراً ... يُضيءُ جِبَالَ مَكّةَ والنِّقابا

* وفي غُضونِ ذلك المولِدِ الميمون، طارت «ثُويبة الأسلميّة» جارية أبي لهب عبد العزّى بن عبد المطلب[1] تبشّر سيّدها بمولِد محمّد ﷺ، فامتلأ فرحاً وبهجةً، وأعتقها وقال: اذهبي فأنت حرّة.

* وتجلَّتْ أوّلُ بركةٍ للمولود السَّعيد، ولمّا يَمْضِ علىٰ مولده غير ساعات، فقد دخلتْ ثُويبة دارَ أبي لهب جاريةً مملوكةً تحمل البُشرى، فخرجتْ منَ الدارِ وقد أصبحت حرّة أعتقَها أبو لهب[2]، فكأنَّ هذا إيذاناً

---

(١) اقرأ سيرة هذا الفاجر في كتابنا «المبشّرون بالنار» (٢/ ٦ ـ ٤٣) تجدْ صَبْرَ الحبيبِ المصطفى ﷺ ووقوفَه الحازمَ مع هؤلاء الأشرار الفجّار.

(٢) على الرغم مِنْ أنَّ أبا لهب مِنْ أكابرِ المجرمين، ومن المبشَّرين بالنَّار، فقد لَمَسَتْه نفحةٌ مباركةٌ بسببِ عتْقِهِ لجاريته ثُويبة؛ فقد روي أنَّ العباسَ بنَ عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ رأىٰ أخاه أبا لهب بعد موته بِسَنَةٍ، وذلك بعد غزاةِ بَدْر، فسأله عن حاله؛ فأجابَ أبو لهب: في النَّار إلاّ أنَّ العذاب يخفَّفُ عنّي كلَّ ليلةِ إثنين بما أمصُّه من بين أصبعي هاتين: السَّبَّابة والإبهام، وذلك أني أعتقتُ ثُويبة حينما أخبرتني بولادة محمد. (الاشتقاق ص١٠٢) بتصرّف.

وقد نظم بعضهم هذه القصّة فقال: =

وتنبيهاً للدُّنيا بأنَّ هذا المولود جاءَ ليحرِّرَ بني الإنسان منْ استعبادِ أخيه الإنسان:

وُلِدَ اليَتيمُ لِيُنْقِذَ الأَيْتامَ مِنْ ... بُؤْسِ الحياة إذا رَمىٰ الحدثَان
وُلِدَ المُنشّأُ نشْأةً أميّةً ... فَسَمَا بنورِ كتابه العِرفَان
وُلِدَ ابنُ عبدِ الله أَعْظمُ مُصْلِحٍ ... وأجلُّ مَنْ دانتْ له التِّيجان

* لقد كانَ مولدهُ ﷺ إيذاناً لإشراقِ الهدىٰ، وظهور الحقِّ، وإحقاق الحقّ . . .

لمّا أرادَ اللهُ جَلَّ جلالُه ... أنْ يُخْرجَ الدُّنيا مِنْ العثَراتِ
أهْدَاكَ ربُّك للورىٰ يا سيِّدي ... فَيْضاً مِنَ الخَيراتِ والنَّفَحات

* هذا وقد سَعدتِ الدُّنيا بأَسْرِها بمولدِ هذا النَّبي الكريم ﷺ؛ أليس هو الذي وصفه ربّه بأنّه ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]؟!!

* لقد كان مولدهُ ﷺ إيذاناً بانبلاجِ النّور إلى الدُّنيا، وتلاشي الشِّرك . . .

سعدتْ بمولِدِ أَحْمَدَ الأَزْمَانُ ... وتعطَّرتْ بِعَبِيْرِهِ الأكْوَانُ
وَالشِّركُ أُنْذِرَ بالنِّهايةِ عندما ... وُلِدَ البَشِيرُ وأشرقَ الإيْمانُ
وَلَدتْهُ آمنَةُ النَّقيةُ مُشْرِقاً ... باهي المحيّا صَاغَهُ المنَّانُ
تتلألأُ الأنوارُ في قَسَماتِهِ ... وأتمَّ حُسْنَ صِفَاتِهِ الرّحمنُ
وبَدَتْ لمولدِهِ الكريمِ بشَائرٌ ... قدسيّةٌ وتزلْزَلَ الإيْوانُ

* ولقد أَحْسَنَ أبو محمّد عبدُ اللهِ بنُ أبي زكريا الشّقراطيسي حيث قال:

ضَاءَتْ لمولدِهِ الآفاقُ واتَّصلتْ ... بشرى الهواتف في الإشراق والطَّفلِ[1]
وصَرْحُ كِسْرىٰ تَدَاعىٰ مِنْ قَواعِدِهِ ... وانقضَّ منكَسرَ الأَرْجَاءِ ذا مَيَلِ
ونَارُ فَارِسَ لم تُوقَدْ وما خَمَدتْ ... مُذْ ألفِ عامٍ ونَهْرُ القَومِ لم يَسِلِ

= إذا كان هذا كافِراً قد جَاءَ ذمُّه ... وتبتْ يداه في الجحيم مخلّدا
أتىٰ أنَّه في يوم الإثنين دائماً ... يخفّفُ عنه للسُّرور بأحمدا
فما الظَّنُّ بالعبد الّذي كان عمره ... بأحمد مسروراً وماتَ موحّدا

(١) «الطّفَل»، يقال: طفلت الشمس للغروب: أي: دنت منه.

خَــرّتْ لمبعثــهِ الأوثَــانُ وانْبَعَثَــتْ ثَواقِبُ الشُّهبِ ترمي الجِنَّ بالشُّعَلِ[1]

* هذا ومكانُ ولادةِ الحبيبِ المُصطفى ﷺ معروفٌ بمكةَ مشهور، تقلَّبتْ عليه الأحداثُ عَبْر الأيّام، وفي هذه الأوقاتِ ستُقَام مكانَهُ مدرسةٌ لتحفيظِ القُرآن الكريم ـ كما ذكر المسؤولون عن الحرم المكي الشّريف ـ؛ ولا شكَّ بأنَّ هذا المكان كان جُزءاً من دار جدّه عبد المطلب، انتقلتْ إليها آمنة وهي حاملٌ به ﷺ، وفي اليوم السَّابع عقَّ عنه جدّه، ونَحَر الذَّبائح، وأقام الولائم شُكراً لله، واحتفاءً وفرحاً بالوليد؛ الذي رأىٰ في حياته حياةً موصولةً لابنه الغالي عبد الله.

* وقد شَارك البيتُ الهاشِميُّ في الغِبْطة بالوليدِ السَّعيد، ودبّتِ الحياة في البيوت الهاشميّة، حيث كان أعمامُه ﷺ وأقرباؤه فرحين مستبشرين؛ ولله درُّ العبّاس بن عبد المطلب عمّ النبي ﷺ حينما امتدحَ الحبيب المصطفى بقوله:

وأنْــتَ لمّـا وُلِـدْتَ أَشْـرقَـتِ الأر ضُ وضَــاءَتْ بنــورِكَ الأُفُــقُ
فنحنُ في ذَلك الضِّياء وفي النُّـ ـــور وسبــلِ الــرَّشَــاد نَخْتَــرِقُ

أمّا الشَّاعر المشهور أحمد شوقي، فقد عارضَ همزية البُوصيري بهمزيةٍ رائعة ـ حقّاً ـ اقْتَادَ فيها سحابَ البلاغة والبيَان، وجاوزَ مقْدارَ بُلَغَاءِ العَصْر الحديث وفصاحتهم، فجادتْ قريحته بهذه الهمزيّة التي تطاوِلُ أعنانَ سماءِ البلاغة بغَارِبها، بل وتسدُّ مَهبَّ ريح الشِّعرِ من كلّ وجهةٍ لمن أراد أنْ يحلِّقَ مع الشِّعر في هذا المضمار، فكأنَّ هذه القصيدة قد قُدَّتْ من سَرابيلِ البلاغة، لما حوتْهُ من جَمالٍ في البِنَاء، وطلاوةٍ في الأسلوبِ، وحلاوةٍ في النَّغَماتِ، ورشاقةٍ في هَمَسات الكلماتِ، ولا بأس أنْ نقتطفَ بعضَ أزاهِرها من مطلعها، كي نتذوّقَ جمالَها؛ ونرتشفَ رحيقَ عباراتِها العِذَاب، قالَ شوقي:

وُلِـدَ الهُـدىٰ فَـالكَـائِنَـاتُ ضِيَـاءُ وفَــمُ الــزَّمَــانِ تَبسُّــمٌ وثَنــاءُ

---

(١) انظر: المواهب اللدنية (١/ ١٣٢).

الـرُّوحُ وَالمـلأُ المـلائِـكُ حـولَـه للـــدِّيْـــنِ والــدُّنيـــا بـــهِ بُشَــرَاءُ
والعَرشُ يَزْهو والحظيرةُ تزدهي والمُنْتَهـــىٰ والسِّـــدْرَةُ العَصْمـــاءُ
بـكَ بشَّـرَ اللهُ السَّمـاءَ فـزيِّنَـتْ وتَضَـوعَـتْ مِسْكـاً بـكَ الغبـراءُ
يَـومٌ يتِيْـهُ علـىٰ الـزَّمَـانِ صَبَـاحُـهُ ومَسَـــاؤُه بمُحمَّـــدٍ وضَّـــاءُ
والآيُ تَتْـرىٰ والخَـــوارِقُ جَمَّـــةٌ جِبْـــريـــلُ روَّاحٌ بهـــا غـــدَّاءُ

* وتنفَّسَ محمدٌ ﷺ نسيمَ الحياةِ يتيماً، فَقَدَ أباه قبل أنْ يشهدَ الوجود طلعته، فقد ماتَ عبدُ الله بن عبد المطلب ورسولُ الله ﷺ جنينٌ في بطنِ أمّه، وقد تركَ له خَمْسَاً مِنَ الإبل، وقطعةً من الغنم، وجاريةً هي حاضنتُه أمّ أيمن بركة الحبشيّة، وكان لله حكمةٌ في ذلك لا يُدْرَكُ غورها، فقد كان محمّدٌ ﷺ خاتمَ الأنبياءِ والمرسلين، وصُنِعَ علىٰ عينِ الله، وكان السّراج المنير...

فضَـــلَ النَّبيّيـــن الـــرَّسُـــولُ مُحَمـــدٌ
شَـــرَفـــاً يـــزيـــدُ وَزَادَهُـــم تَعْظِيْمـــا
يكْفِيْـــهِ أَنَّ اللهَ جَـــلَّ جَـــلالُـــه
آوىٰ فقَـــــال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾[1]
درٌّ يتيـــمٌ فـــي الفَخَـــارِ وَإِنَّمَـــا
خَيْـــرُ الـــلآلـــي أنْ يكـــونَ يتيمـــا
ولَقَـــدْ سَمـــا الـــرُّسـلُ الكِـرامُ فكلُّهُـــمْ
قَـــد سَلَّمُـــوا لجـــلالـــهِ تَسليمـــا
واللهُ قـــد صلّـــىٰ عليـــهِ كَـــرَامَـــةً
﴿صَلُّوا۟ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسۡلِيمًا﴾[2]

أمُّ اليَتِيْم وَرِحْلَـةُ رَضَاعِـهِ ﷺ:

* كانَ لموتِ عبد الله بن عبد المطلب أثرٌ منَ الحزنِ الفادح، والألم

(١) اقتباس من سورة «الضحى» آية: [٦].
(٢) اقتباس من سورة «الأحزاب» آية: [٥٦].

الممضّ على نَفْس الشّيخ عبد المطلب الذي أفنتِ السّنون جَلَدَه وناءَ بأثقالها، واشتعل رأسه شيباً، واشتغل تفكيرهُ بمتاعبها، لكنَّه لما أنْ بُشِّر بميلاد حفيده محمّدٍ ﷺ صُبَّ به صبابتَه بأبيه منْ قَبْلِهِ، وحظي محمّدٌ ﷺ عند جدّه حظوةً لمن تكنْ لأحدٍ من ولده، فأخذَهُ منْ مهدِه بين يديه، وطافَ به حولَ الكعبةِ يباركُه ويدعو له، ويستعذبُ النَّظر إليه في حنَانِ الأبوّةِ الثّاكلة، ومن ثمَّ ردَّهُ إلى آمنةَ كي تقرَّ عينُها بهذا الوليدِ الفريدِ السَّعيد.

* وأخذَ عبدُ المطلب يطلبُ لحفيده المراضعَ في نساءِ البوادي، على عادةِ سكّان المُدن والقُرى منَ العرب، في استرضاع أولادهم في البادية اتّقاءً لوخامةِ المدن، وانتجاعاً لجوِ البادية صحة، وطلباً للفصاحة والسّلامة من اللحنِ، والبراءة من الهُجْنَة والعُجْمَة.

* وكانت المرضعاتُ يَرِدْنَ مكةَ في المواسم، تَطَلُّباً للرُّضَّع الذين يؤمّلنَ فيهم المال وسعةً من العَطاء؛ وكان في قبائلِ العرب بيوتٌ عُرِفَتْ بخصب الدَّرِّ، ونقاءِ الجو، وصفاءِ الطَّبيعة، وفَصَاحة اللهجةِ، ونصاعَةِ البَيان، ونقاءِ المربى؛ منْهم بنو سَعْد بن بكر القبيلة المعروفة بفصاحتها وتعرّبها.

* ولما وَرَدَ نساؤُها مكةَ عُرِضَ عليهن فيمن عُرِضَ من الرُّضَّع محمّد بن عبد الله ﷺ، فأقبلنَ علىٰ غيره، وأعرضنَ عنه، لأنَّهنَّ قد عَلِمْنَ أنَّه يتيمٌ، وكنَّ يرتجينَ وسيْعَ العَطايا، وغامرَ المِنَحِ من آباءِ الأطفال.

* وكان في نسْوَةِ بني سعَد السَّيِّدةُ حليمةُ بنت عبد الله بن الحارث، ويبدو أنّها كانتْ مِنْ أرقِّهِنَّ حالاً، فلم يرغبْ فيها آباء الأطفالِ وذووهم، وأصابَ صُويحباتها طلبتهن منَ الرُّضع المكيّين، وبقي الحبيبُ المصطفى محمّدٌ ﷺ بغير مرضع، وبقيتْ حليمة من غير رضيْع، وعُرِضَ عليها فجعلت تقولُ: يتيمٌ ولا مال له، وما عَسَت أمّه أنْ تَفْعَل[1].

---

(١) لك ـ عزيزي القارىء ـ أنْ تتصورَ حالَ آمنة بنْت وهبٍ عندما تسمعُ مثل هذه العبارات؛ يبدو لي أنَّ ذلك كان يُؤلمها، ويهدهد مشَاعرها، فكل النسوةِ السَّعْديات قد أخَذْنَ ما يبغينه، وكُنَّ يجفَلْنَ من ابنها لأنّه يتيم، كأنَّ اليتْمَ عندهن بلاءٌ =

* ولكنَّ السَّعادةَ كانت قد كُتِبَتْ لهذه السَّعدية، ولقد سبقَتْها العنايةُ الإلهيّةُ إلى مكةَ لتحظىٰ بهذا المولودِ المبارك الذي قد سبقته العنايةُ الإلهيّةُ إلى ديار بني سَعْد، فكان ﷺ هو بشيرُ الخير واليُمْن، وحُسْنُ الطَّالع، وتمامُ السَّعادةِ علىٰ حليمة[1] وعلى بني سَعْد جميعهم، فقد أجمعَ رواةُ السِّيرة أنَّ بادية بني سعد كانت تُعاني ـ إذ ذاك ـ سَنَة مجدبة قد جفَّ فيها الضّرعُ،

= يستوجبُ الإعراضَ والفرارَ، وزَادَ مِنْ أَسَاها أنَّ أصواتَ أولئك النّسوة كان يَرِنُّ في أعماقها: يتيم، يتيم، يتيم، يـ.. تـ.. يـ.. م.. فتمزّق نياط قلبها، ولكن اللهَ مُقدِّرُ الأشياءِ هو الذي اختارَ ذلك ليكون هذا اليتيم قد صُنع على عينه، فآواه وهَداه وأغناه.
صحيح أنَّ آمنة كانت تتألّم وتتألّم، ولكنَّ تلك الآلام كانت آمالاً عِظَاماً عند آمنة حينما علمتْ أنَّ حليمةَ من خِيْرةِ المراضع في نساء البوادي.

(١) روتْ حليمةُ السَّعديةُ ـ رضي الله عنها ـ جانباً من حظِّها في سعادتِها بإرضاع الحبيبِ المصطفى ﷺ فقالت ما مفاده:
استقبلني عبد المطلب عندما كنتُ أبحثُ عن رضيعٍ بمكةَ، فقال لي: مَنْ أنتِ؟
قلتَ: امرأة من بني سعدٍ جئتُ ألتمسُ رضيعاً.
فقال لي: ما اسمك؟!!
قلتُ: حليمة بنت عبد الله بن الحارث السَّعدي.
فتبسَّم عبد المطلب ضاحكاً مَسْروراً وقال لي: بخٍ بخٍ؛ سَعْدٌ وحُلْمٌ، هما خصْلَتان فيهما خيرُ الدهْرِ، وعزُّ الأبد. (السّيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٦٢ و١٦٣) بشيء من التصرّف.
ثم إنَّ عبدَ المطلب أدخَلَ حليمة السَّعدية بيتَ آمنة بنت وهب، فأخذتْ محمّداً ﷺ لترضعه. وتحكي بعضُ الرّوايات أنّها لما دخلت على النبي ﷺ مع جدّه عبد المطلب، سمع جدّه هاتفاً ينشد ويقول:

إنَّ ابـنَ آمنَـةَ الأميـنَ محمّـداً ... خيْـرُ الأنَـام وخيْـرةُ الأخْيَـارِ
مـا إنْ لـهُ غَيْـر الحليمـة مُـرضـعٌ ... نعْـمَ الأمينـةُ هِـيْ علـىٰ الأبـرارِ
مـأمـونـة مِـنْ كـلِّ عَيْـب فـاحـشٍ ... ونقيـة الأثـواب والأوزار
لا تسلمنـه إلـىٰ سـواهـا إنّـه ... أمْـرٌ وحكـمٌ جـاءَ مـن جبّـارِ

ويبدو لي أن هذا الخبر مصنوع، ويُشتمُ منه رائحة الوضع.

ويبس الزَّرعُ، فما هو إلا أنْ صارَ الحبيبُ المصطفى محمّد ﷺ في منزلِ حليمة، واستكان إلى حِجْرها وثديها، حتى عادتْ منازلها ممرعة خُضْراً، فكانت أغنامُها من قَبْلُ خِماصاً، وغدت الآن تروحُ منها عائدة إلى الدَّار بِطاناً شِبَاعاً ممتلئة الضَّرع؛ ولله درُّ البُوصيري إذْ يقولُ في همزيته الرَّائعةِ:

وَإِذَا سَخَّرَ اللهُ أُنَاساً ... لِسَعْيدٍ فإِنَّهم سُعَدَاءُ

* وهلْ هناكَ أَسْعد في هذا الوجودِ منْ رسولِ الله ﷺ؟! وما أجملَ ما نظمه الشَّيخ يُوسُف بن إسماعيل النَّبهاني ـ رحمه الله ـ في هذا المجالِ فقال:

وأرضعَتْه ذاتُ حظٍّ وَافِرِ ... حَلِيْمَة مِنْ غُررِ العَشَائِرِ
كانَ لَديْهَا القُوتُ غيرَ يَاسِرِ ... فأَصْبَحتْ أيْسَرَ أهلِ الحاضرِ
سَعْيدة قد سَعِدَتْ منْ سَعْدِ[1]

* وهنا أودُّ أنْ نتركَ الرّواية التَّاريخية على لسان السَّيِّدة حليمة السَّعدية، كيما تؤنسنا بحديثها، وذلك بما اتّفق عليه الرُّواة، أو قريب من ذلك.

* روىٰ ابنُ إسحاق ـ ر حمه الله ـ بسندِه عن جعفر بنِ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: حُدِّثْتُ عنْ حليمةَ بنتِ الحارث أنَّها قالت:

قدمتُ مكةَ في نسوةٍ من بني سَعْدٍ نلتمسُ بها الرُّضَعاء، في سَنَةٍ شهباء[2]، فقدمتُ على أتانٍ لها قَمْراء[3]، كانت أذمّتْ[4] بالركب، ومعي صبيٌّ لنا،

---

(١) انظر: حجَّة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين، ليوسف النبهاني (١/ ٢٥٢).

(٢) «سنة شهباء»: لا خضرة فيها؛ أو لا مَطَر بها. والمراد: أنها جدباء لندرة الخصب فيها، فهي أرض ذات جدب وقحط.

(٣) «أتان قمراء»: «الأَتان»: الحِمارة، و«قمراء»: هو من القمرة: لون إلىٰ الخضرة، أو بياض تَشُوبه كدرة.
«والقُمرة»: بالضم، يُقال: حمار أقمر، وأتان قمراء. (القاموس المحيط ص٥٩٨) مادة «قمر».

(٤) «أذمّتْ بالركب»: حبستهم لإعيائها، وانقطاع سيرها؛ قال ابن منظور في =

وشارفٌ[1] لنا واللهِ ما تَبِضُّ[2] بقطرة، وما ننامُ ليلتنا أجْمَع من صَبِيِّنا ذاك، ما نجدُ في ثديي ما يغنيه، ولا في شارفنا ما يغذيه، ولكنّا كُنّا نرجو الغيث والفَرج.

فخرجتُ على أَتاني تلك، فلقد أَذمّتْ بالرّكْب، حتى شقَّ ذلكَ عليهم ضَعْفاً وعجْفاً، فقدمنا مكةَ، فواللهِ ما علمتُ منّا امرأة إلا وقد عُرِضَ عليها رسولُ الله ﷺ فتأباهُ، إذا قيل إنّه يتيمٌ تركناه، قُلْنا: ماذا عسىٰ أنْ تصنعَ إلينا أُمّه؟! إنّما نرجو المعروفَ من أبي الولد، فأمّا أمّه فماذا عسىٰ أنْ تصنعَ إلينا، فواللهِ ما بقي منْ صواحبي امرأةٌ إلا أخذتْ رضيعاً غيري. فلمّا لم نَجِدْ غيره، وأجمعنا الانطلاق قلتُ لزوجي الحارث بن عبد العزى: والله إنّي لأكْرَهُ أنْ أرجعَ من بين صواحبي ليس معي رضيعٌ، لأَنْطلقَنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنه؟

فقال: لا عليك أنْ تفعلي، فعسى أنْ يجعلَ اللهُ لنا فيه بركة.

فذهبتُ فأخذتُه، فواللهِ ما أخذتُه إلاّ أنّي لم أَجِدْ غيره، فما هو إلا أنَّ أخذتُه، فجئْتُ به رحْلي، فأقبلَ عليه ثدياي بما شاء منْ لَبَنٍ فشَرب حتّى روي، وشَرب أخوه (ولدها) حتى رُوي، وقام صاحبي إلى شَارفنا تلك، فإذا بها لحافل[3]، فحلبَ ما شربَ وشربتُ حتى روينا. فبتنا بخير ليلة، فقال صاحبي[4] حين أَصْبَحنا: يا حليمة، واللهِ إنّي لأَرَاكِ قَد أَخَذْتِ نسمةً مباركة، أَلَمْ تَرَيْ ما بتْـنَا به الليلة منَ الخيرِ والبركةِ حينَ أَخَذْنَاهُ؟! فلم يزلِ اللهُ تعالى يزيدنا خيراً.

ثمَّ خرجنا راجعين إلىٰ بلادنا، فواللهِ لقطعتْ أتاني بالركبِ حتى ما يتعلّق

= «اللسان»: وفي حديث حليمة السّعدية: فخرجت على أتاني تلك، فلقد أذمت بالركب، أي: حبستهم لانقطاع سيرها.

(١) «الشّارف»: النّاقة المُسِنّة الهرمة، والشّارف: يُطلق على الذكر والأنثى، والمراد هنا: الأنثى.

(٢) «تبضّ»: هو من قولهم: بضَّ الماء يبضُّ؛ إذا سال قليلاً.

(٣) «لحافل»: أي: امتلأ ضرعها باللبن.

(٤) «صاحبي»: تعني زوجها الحارث بن عبد العزى.

بها حِمارٌ، حتى إنَّ صواحبي ليقُلْن: ويلك يا بنت أبي ذُؤيب، هذه أتانك التي خرجت علينا معنا؟! فأقول: نعم، واللهِ إنّها لهي.

فقلن: واللهِ، إنَّ لها لشأناً.

وقدمنا أرضَ بني سَعْد، وما أعلمُ أيضاً منْ أرضِ الله أجدبَ منها، فإنْ كانت غنمي لتسرح، ثم تروحُ شِباعاً لبناً، فنحلبُ ما شئنا[1]، وما حوالينا أحدٌ تبضُّ له شاة بقطرة لبن، وإنَّ أغنامَهم لتروحُ جياعاً، حتى إنّهم ليقولون لرعاتهم: ويحكم انظروا حيثُ تسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحوا معهم، فيسرحون مع غَنمِي حيثُ تسرح، فتروحُ أغنامهم جِياعاً ما فيها قطرة لبن، وتروحُ أغنامي شِباعاً لبناً، نحلبُ ما شئنا.

فلم يزلْ اللهُ يُريْنا البركةَ نتعرفها حتى بلغَ سنتَيْن، فكان يشبُّ شباباً لا يَشبُّهُ الغلْمَان، فوالله ما بلغ السَّنتَين حتى كان غُلاماً جَفْراً[2]، فقدمْنا به على أُمّه، ونحنُ أضَنُّ شيءٍ به مما رأينا فيه من البركة[3].

---

(١) أشار البُوصيري ـ رحمه الله ـ إلى قصّة رَضَاعِه ﷺ وإلى كثرة خَصْب العيش في منازلِ حليمة السَّعدية، فقال في همزيته الرائعة:

وَبَـدتْ فـي رضَـاعِـهِ مُعْجِـزَاتٌ ... ليْـسَ فيهـا عـنِ العُيـون خَفَـاءُ
إِذْ أتَتْـه ليتْمِـهِ مـرضعـاتٌ قُلْـنَ ... مـا فـي اليتيـم عنّـا غَنَـاءُ
فـأتتْـه مـن آلِ سعـدٍ فتـاةٌ ... قـد أَبَتْهـا لفقـرهـا الـرُّضعـاء
أرضعتـه لبـانهـا فَسَقَتْهـا ... وبنيهـا ألبـانهـنّ الشّـاءُ
أَخْصَبَ العيشُ عندها بعد مَحْلٍ ... إذ غـدا للنبـي منهـا غـذاءُ

(السيرة الحلبية ١/ ١٤٩ و١٥٠).

(٢) «جفراً»: الجفْرُ: الذي استغنى عن الرضاع، وقوي على الأكل؛ وقد سَاقَ ابن منظور ـ رحمه الله ـ في «اللسان» هذا الحديث، فقال: وفي حديث حليمة ظِئْر النبي ﷺ قال: كان يشبُّ في اليوم شباب الصبي في الشهر، فبلغ ستاً وهو جفر؛ ثم قال: والجفر: الصَّبي إذا انتفخ لحمه وأكل وصارت له كرش. ويُلاحظ أنه في رواية ابن منظور مخالفة لرواية ابن إسحاق في تقدير الزمن.

(٣) انظر: السّيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٦٣ و١٦٣)، وانظر: دلائل النبوة للأصبهاني (١/ ١٩٨)، والبداية والنهاية (٣/ ٢٥٥)؛ وقد روى هذه القصّة من أعلياء العلماء=

حَليمَـةُ تَرجُو آمِنَـة:

* هو ذا محمّد ﷺ قد أمضىٰ عامَه الثَّاني في أرض بني سعد، فكان يُقَلِّب وجهه في الكونِ، يُمْعِن في آياته آناءَ الليلِ وأطرافَ النَّهار، وقد أحبَّه النَّاسُ، وتفتَّحتْ له القُلوب، وبَشَّتْ له الوجوهُ، وألقىٰ اللهُ محبَّته في نَفْس كلِّ مَنْ يَراهُ.

* وفي ليلةٍ من ليالي بني سَعْد، هَبطَ علىٰ دار حليمة حزنٌ ثقيل، فقد فَصَلَتْ حليمةُ محمّداً ﷺ، وفي غضونِ الأيّام القادمةِ، ستنطلقُ به مع زوجها إلى مكة، كي تعيده إلىٰ أحضانِ أمّه آمنة بنت وهب.

* ويبدو لي أنَّه قد خيَّم وجومٌ علىٰ جميع أفراد الأسرة السَّعدية، فقد نزل هذا الطِّفْل المبارك في سُويداء قلوبهم، وأحبّوه حُبّاً عظيماً مَلَك عليهم مشَاعرهم، وتمنّوا لو يبقى عندهم.

* آنَ وقْتُ الرَّحيل، وركبت حليمةُ السَّعدية أتانهَا القمراء، ثمّ حملته عليها، وتوجَّهت تلقاءَ مكة وبجوارها زوجها الحارث وهو مطرقٌ، يودُّ لو يعودُ بالطِّفْلِ الذي لَمسَ معه البركة منَ اللحظاتِ الأولى التي حَلَّ فيها بديارهم، بل عندما أخذوه منْ أُمِّهِ آمنة لرضاعه.

* وبلغَ الرّكبُ مكةَ المكرمة، فذهبتْ حليمةُ، ومحمّدٌ ﷺ في يدها، والحارثُ إلىٰ جوارِها لتطوفَ بالبيت العتيق، وتتمسَّحُ بالأركانِ مع مَنْ هو ماسِح، ولما قَضَتْ طوافها، سارت إلى الصَّفا حيثُ دُور بني هاشم، ووقف جميعهم أمامَ دارِ آمنة بنت وهب، وطرقتْ حليمةُ البابَ، فما لبث أنْ انفرجَ عن بركة الحبشية، فلمّا رأتْ محمداً ﷺ أشرقَ وجهُها بالبِشْر، وأخذته من حليمة، وراحتْ تقبّله وهي في غاية السُّرور.

* وأسرعتْ بركةُ إلى حيث كانت آمنة، وهي تحملُ ابنها وتهتفُ في

= والمحدّثين منهم: ابن إسحاق، وابن راهويه، وأبو يعلىٰ الموصلي، والطبراني، والبيهقي، وأبو نعيم، وغيرهم كثير كثير.

فرح: جاء محمّد. . . جاء محمد. . . جاء محمد.

* وصافح صوتُ بركةَ سَمْعَ آمنة، فَسَرتِ البُشْرى فيها تتمشى في مفاصلها، وأحسَّتْ بنَشْوةِ الفرحِ تملأُ كيانها، وسارعت إلى حيثُ كانت بركة ومحمّد ﷺ، وراح قلبها يخفقُ سروراً، وما أنْ رأته حتى حسبتْ أنَّها قد ملكتْ زينة الدّنيا وبهجتها، وأنَّ أهازيجَ النشوةِ قد ملأت كلَّ ما حولها، بل قد ملأتِ الكونَ كلَّه.

* وأخذتْ آمنةُ محمّداً ﷺ من بركة في رفْقٍ، وضمَّته إلى صَدْرِها، وراحت تقبّله وقد تهلَّل وجهُها البريء بالفرحِ، ولفَّ الحبيبُ الصَّغير محمّدٌ ﷺ ذِراعيه الطَّاهرتين حولَ عنقِ أمّه آمنة وهو سعيدٌ، واستسلم لنفحاتِ الأمومة التي غمرته بها، نعم لقد استسلمَ للعواطفِ النَّبيلة التي تصدرُ عن أمّه التي آبَ إليها بعد غيابِ سَنَتَيْن منَ الزَّمن.

* لقد كانتْ حليمةُ تحبُّه، وكثيراً ما كانت تفيضُ عليه بحنانها، وتضمُّه إلى صدرها، لكنَّ ما يشعرُ به الآن لمختلفٌ جِدّاً عما كان عليه في أرضِ بني سَعْد، فقد كانت مشَاعر آمنة تتدفَّقُ من قَلبِها العامِرِ بحبِّ وحيدها الذي تكتحلُ العيون برؤياه، وتنشرحُ الصُّدور بلقياه.

* كانت آمنةُ سعيدةً راضيةً بعودةِ ابنها الذي قدمَ من البيداء ليملأَ نفسها أَملاً وأُنْساً وطيْباً، وليؤنسَ وحدتها، ويغرسَ السَّعادة في قلبها.

* وذهبتْ آمنةُ إلى حيثُ كانتْ حليمةُ، وراحتُ تشكرها على حُسْنِ رعايتها وعنايتها بابنها الحبيب، فاغرورقتْ عينا حليمة بدموعِ الفرحِ، وكانت شديدةَ الحرصِ على أن تعودَ، وأنْ يعودَ محمّدٌ ﷺ معها إلىٰ دارها، فقد مَلأَ حبّه فؤادها، واستولىٰ علىٰ مشاعرها.

* وطفقتْ حليمةُ ترجو آمنة أنْ تُرسِلَ معها ابنها كي يشتدّ عُوده، وقالت لها: لو تركتِ محمّداً عندي حتى يغلُظ، فإنّي أخشىٰ عليه وباءَ مكة.

* وما زالتْ حليمةُ بآمنةَ حتّى أجابَتْها إلىٰ طلبتها، وقالت: خذيه يا حليمة ما دمْتِ حريصةً على ذلك.

* وطار فؤادُ حليمة السَّعدية فرحاً بموافقةِ آمنة، ثم إنَّ حليمةَ تجهَّزت للعودةِ، وحَمَلتْ محمّداً ﷺ وعادتْ إلى مضارب بني سَعْد، وآمنة ترنو إلى وحيدها خافقةَ القلبِ، دامعة العين، ولكنَّ صحة ابنها أغلىٰ من كلِّ شيء.

* رجعت حليمةُ بمحمد ﷺ إلى أرضِ بني سعد، وقلبُها يتراقَصُ طَرباً بين جوانحها، وكان زوجُها الحارثُ لا يقلُّ سعادةً عنها لما كان يرىٰ من بركتِه ﷺ، فقد صارَ التَّوفيقُ قرينَهم مُذْ ذهبوا إلىٰ مكةَ يلتمسون الرُّضعاء قَبْل سَنَتَيْن، وعادوا به إلىٰ أرضهم، فللّه درُّها منْ بركةٍ كثرتْ بها مواشي حليمة ونَمَتْ، وارتفعَ قَدْرُها به وسَمَتْ، ولم تزلْ حليمةُ تتعرف الخيرَ والسَّعادة، وتفوز منه بالحسنى وزيادة.

لَقَـد بَلغَـتْ بـالهـاشِمـي حَليمـةٌ   مقَاماً عَلا في ذرْوةِ العزِّ والمجدِ
وزادتْ مواشِيها وأخْصَبت ربْعُها   وقد عمَّ هذا السَّعد كلَّ بني سَعْدِ

* وفرحَ أهلُ بيتِ حليمة بعودةِ محمّد ﷺ إلى أرضهم التي ازيَّنت بالخضرة واكتستْ بالجمال، مُذْ حلَّ فيها هذا المُبارك الكريم، ولعلَّ الشَّيماء بنتَ الحارث وابنة حليمة كانت من أشدِّ النَّاس سعادةً بعودة أخيها منَ الرّضاعة محمّد ﷺ، فكانت تضمّه إلى صَدْرِها الذي كان يخفِقُ بالحبِّ والحنَان له، وكثيراً ما كانت تداعبه وتناغيه وترقِّصُه وتقول:

هَـذَا أَخٌ لـي لَـم تلِـدْه أُمّـي   وَلَيْـسَ مِـنْ نَسْـلِ أَبـي وعَمّـي
فَـدَيْتُـه مِـنْ مُخْـولٍ مُعِمِّـي   فـأَنْمِـه اللّهـمَّ فِيْمـا تنْمِـي[1]

* ولم تكن الشَّيماء تكتفي بمثلِ هذا التّرقيص، وإنّما كانت تحمله إذا ما اشتدَّ حرُّ الظَّهيرة، وطالَ الطَّريقُ إلى المرعىٰ، وأحياناً تتركه يدرجُ هنا وهناك، ثمّ تُتْبعه قلْبَها وبصرها، فإذا ما ابتعد قليلاً، أدركته وضمّته إلى صَدْرِها، وأجلَسَتْه في الظِّلِّ، ومن ثَمَّ تداعبه وتقول:

يَـا ربَّنَـا أبْـقِ أَخـي مُحمَّـدا   حتّـى أَرَاهُ يَـافِعـاً وأَمْـرَدا

---

(١) «معمّي»: كريم الأخوال والأعمام، والياء هنا لضرورة الشعر.
«أنمه»: نمىٰ من باب: رمىٰ، كثر، وزاد، ويتعدى بالهمزة والتضعيف.

ثُـــــمَّ أرَاهُ سَيِّـــــداً مُسَـــــوّدا وأكْبِـتْ أَعَـادِيْـهِ مَعَـاً والحُسَّـدا
وأعْطِهِ عِزّاً يَدُومُ أَبدا

* وكانَ أبو عُروة الأزدي إذا أنْشَد هذا التَّرقيص قال: ما أحسنَ ما أجابَ اللهُ دعاءها[1].

* ولعل حليمةَ السَّعديةَ ـ رضي الله عنها ـ كانت ترىٰ ما تفعله ابنتها الشّيماء منْ ترقيصِ محمّد ﷺ، فكانت هي الأُخرى تداعبه، وترقّصُه، وتُناغيه كما تفعل الأمّهات مع أبنائهن، ومما قالته حليمةُ في هذا المضمار الجميل:

يَـــا رَبِّ إذْ أَعْطَيْتَـــه فـــأَبْقِـــهِ وأَعْلِـــهِ إلـــىٰ العُـــلا وَرَقِّـــهِ
وادحَضْ أباطيْلَ العِدَا بحقِّهِ[2]

* وهكذا عاشَ محمّد ﷺ في بني سَعْد بضعة أعوام بعيداً عن أمّه آمنة بنت وهب، إلى أنْ كانت حادثة شقّ الصّدر الأشْرف، وإذ ذاك أعادته حليمةُ السَّعدية إلى مكةَ، إلى أمّه آمنة بنت وهب، ولكنْ كيفَ كان ذلك؟!

ما أقْـدَمَـكِ بـهِ يا حليْمَـة؟!

* عاشَ الحبيبُ المصطفى محمّد ﷺ في بادية بني سعد، حيث كان يعيشُ هنالك بين أحضَانِ طبيعة آسرة ساحرةٍ، يستنشقُ عبيرها، ويتأمّل الكونَ الواسعَ، إلى أنْ كانت حادثة شقّ الصّدر الأشْرف، وسُرعان ما أصبح فؤادُ حليمة فارغاً، وخافت عليه خوفاً شَديداً، فاحتملَتْه وعادت به مع زوجها كي تردّه إلى أمّه كي تقرَّ عينها به منْ قَبْل أنْ يحدثَ له مكروه ـ كما زعمت وظنَّتْ ـ.

* كانت حليمةُ وزوجها يحملان محمّداً ﷺ وهما في طريقهما إلى مكةَ، وكانتِ الأفكار تصولُ وتجولُ في ذهن حليمة، وتساوِرها الهموم، ماذا

---

(١) انظر كتابنا: «نساء من عَصْر النبوة» (٢/ ١٢٧)، واقرأ فيه بالتّفصيل سيرة حليمة والشّيماء، ففي سيرتهما فوائد قيمة جليلة بإذن الله.
(٢) انظر: أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ٩٥).

ستقول للسَّيِّدة آمنة عمّا حدث لابنها؟! لقد كانت حليمةُ حريصةً على استصحابِ محمد ﷺ معها إلىٰ باديتها، وهي تعيدُه الآن قَبْل أن ينقضيَ الأجل!!..

* إنَّ ما حدثَ لمحمّدٍ ﷺ لا تستطيع أنْ تفسِّرَه، إلا أنَّها تَعْقِلُه، ولا تكاد أحداثه تبرحُ ذاكرتها.

* وفي رحلةِ العودةِ إلى مكةَ، وصَل الرّكبُ اللطيفُ، ثم اتّجه نحو الصَّفا، ووقعت عينا محمّد ﷺ على دار أمّه فعرفها، وراح يعدو نحوها في سرور، وقد سالت عواطفه بالحنان إلىٰ أمّه آمنة، وسَرَتْ نسماتُ الشوق إليها، وأسرع حتى طرقَ الباب، وإذا بأمِّ أيمنَ بركة الحبشيّة تفتح الباب، فمالَتْ عليه تُقَبّله وقلبُها يرفرفُ بالرّحمةِ والحنَان.

* وانطلقَ محمّدٌ ﷺ يجري إلى حيثُ كانت أمّه آمنة التي سمعتْ صوته، فانسكبَ ندياً في وجدانها كأنّه رحيقُ الحياةِ، وهُرعتْ إليه وقد بسطتْ له ذراعيها، فارتمىٰ في أحضانِها وهو سعيدٌ غاية السَّعادة، ولفَّ ذراعيه حول عنقها، وراحتْ تقبله في حبٍّ وتأثّرٍ، وكادتِ الدُّموع تطفرُ من عينيها، لولا أنْ رأت بركةَ وحليمةَ وهما قادمتان نحوها.

* وذهبت آمنةُ كي تستقبلَ حليمة التي بدتْ عليها علاماتُ الاضطرابِ، والتي كانت حريصة كلَّ الحرصِ على أنْ يمكثَ محمّد ﷺ عندها حيناً من الدَّهْر، ورحّبت آمنة بمقدم حليمة، وأخذتْ تستفسرُ عن سَبَبِ قدومها قبل الأوان.

* وأخذت حليمةُ تروي سببَ ذلك كما جاء في السِّيرة لابن إسحاق ـ رحمه الله ـ، حيثُ تحدَّث عن الرّضاع، ثم أردفَ ذلك بقصة شقّ الصَّدر الأشرف، وسبب إرجاع محمّد ﷺ إلى أمّه فقال:

* قالت حليمة: فواللهِ، إنّه ـ لبعد مقدمنا بشهريْن أو ثلاثة[1] ـ معَ أخيه

(١) هذا القول شَكٌّ منَ الراوي، والصَّحيح أنَّ شقَّ الصَّدر كان في السَّنة الرّابعة، وأن رجوعهما كان بعد الشَّقِّ في أوّل السَّنة الخامسة.

منَ الرَّضاعة لفي بَهْمٍ[1] لنا خلف بيوتنا، جاء أخوهُ يشتدُّ[2]، فقال: ذاك أخي القرشي قد جاءه رجُلان عليهما ثياب بيْضٌ، فأَضْجَعاه، وشقّا بطنه!!

فخرجتُ أنا وأبوه ـ يعني من الرَّضاعة ـ نشتدُّ نحوه، فوجدناه قائماً مُنْتَقِعاً لونه[3]، فاعتنقته، واعتنقه أبوه، وقال: أي بني ما شأنُك؟! قال: «جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني، وشقّا بطني، ثم استخرجا منه شيئاً لا أدري ما هو، فطرحَاه، ثمّ ردّاه كما كان»!!

* قالت حليمةُ: فرجعناه معنا، فقال أبوه: يا حليمةُ لقد خشيتُ أن يكون ابني قد أُصِيبَ، فانطلقي بنا نردّه إلى أهله قبل أنْ يظهر به ما نتخوف عليه.

قالت: فاحتملناه، فقدمنا به على أمّه.

فقالت: ما أقدمت به يا ظئر[4] وقد كنتِ حريصةً عليه وعلى مكْثه عندك؟

فقلت: قد بلغَ اللهُ بابني، وقضيتُ الذي عليّ، وتخوفتُ الأحداث عليه، فأديته إليك كما تحبّين.

قالت: ما هذا شأْنُك فاصدقيني خبرك.

قالت: فلم تدعْني حتى أخبرتُها ـ أي: بحادثة شقّ الصَّدر الشّريف ـ.

قالت: أفتخوفتِ عليه الشَّيطان؟!

قلت: نعم.

قالت: كلا والله ما للشَّيطان عليه منْ سَبيل، وإنَّ لبنيَّ لشَأْناً، أفلا أخبرك خبره؟

قلتُ: بلىٰ.

قالت: رأيتُ حين حَملتُ به، أنَّه خرج مني نورٌ أضاء لي قصور بُصْرى من

(١) «بَهْمُ»: جمع بهيمة: والبهيمة: أولاد الضأن والمعز (القاموس المحيط ص١٣٩٨) مادة (بهم)

(٢) «يشتدُّ»: يجري ويسعى.

(٣) «منتقعاً لونه»: أي: متغير اللون.

(٤) «الظئر»: المرضعة الحانية على مَنْ ترضعه. ويُقال في المثل: ظئرٌ رؤوم خيرٌ من أمٍّ سؤوم.

أرض الشَّام، ثم حملتُ به، فوالله ما رأيتُ من حَمْلٍ قطّ كان أخفّ عليّ، ولا أيْسَر منه، ووقع حين ولدته، وإنّه لواضعٌ يديه بالأرضِ، رافعٌ رأسه إلىٰ السَّماء، دَعِيْهِ عَنْكِ، وانطلقي راشدة[1].

* وهذه القصّة ثابتة في كُتب الصَّحيح والسُّنن والمسانيد والسّيرة وغيرها؛ فقد روىٰ مسلم في صحيحه بسنده عن أنسِ بنِ مالك ـ رضي الله عنه ـ: «أنَّ رسولَ الله ﷺ أتاهُ جبريل وهو يلعبُ مع الغِلْمان، فأخذه فصرعَه، فشقَّ عن قلبه، فاستخرجَ القلب، فاستخرجَ منه علقة فقال: هذا حظُّ الشَّيطان منك، ثمّ غسله في طَسْتٍ من ذهب بماءِ زمزم، ثم لأَمَهُ، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلماء يَسْعَون إلى أمّه ـ يعني ظئره ـ فقالوا: إنَّ محمداً قد قُتِل، فاستقبلوه وهو منتقعُ اللون.

قال أنس: وقد كنتُ أرىٰ أثر ذلك المخيط في صَدره»[2].

* إنَّ قصَّة شقِّ الصَّدر حادثٌ كوني، ومعجزةٌ عجيبة، وقعتْ لنبيّنا محمد ﷺ، وجاءتنا بها الرِّوايات الصَّحيحة الثَّابتة[3]، ولا يردُّ هذهالرِّوايات إنكارُ المنكرين لشقّ الصّدر، ولا يضعفُ منْ شأْنها، ولا يقلّلُ من أهميتها تشكيكُ المستشرقين، ولا المستغربين، ولا المتعالميْن، ولا المتعاقلين؛ فالحبيبُ المصطفىٰ ﷺ لم يتخذْ من هذه الحادثة آية للتّحدي، أو البرهان

---

(١) انظر: صحيح مسلم (١/ ١٠١ و١٠٢) مصورة دار الفكر.

(٢) ورد ذلك بالأحاديث الثابتة الصحيحة من رواية الشيخين: البخاري ومسلم؛ وغيرهما.

(٣) انظر: السيرة النبوية (١/ ١٦٤ و١٦٥).

وما أجمل ما رصفَ البوصيري همزيته، إذ استفاد من هذه الرواية فقال:

يومَ نالتْ بوضعه ابنةُ وهـ	ـبٍ منْ فخارٍ ما لم تَنَلْه النِّساء
وأتتْ قومها بأفضل ممّا	حملتْ به قبلُ مريم العذراء
شمتته الأملاك إذ وضعته	وشفتنا بقولها الشَّفَاء
رافعاً رأسه وفي ذلك الرَّفْـ	ـع إلى كلِّ سؤددٍ إيماء
رامقاً طرفه السّماء ومرمى	عين مَنْ شأنه العلو العلاء

على صِدْق رسالته كغيرها منَ المعجزات الكونية، والخوارق العجيبة قبل البعثَة أو بعدها. إنَّ معجزته العظمى الخالدة التي حملَتْ بين طواياها وحنَاياها التحدي بها، إنّما هي القرآنُ الكريم، والذّكْرُ الحكيم.

* إنَّ عظمةَ النَّبيِّ محمّدٍ ﷺ تتمثّلُ في نبوّته ورسالته، لا في عبقريّته وبطولته، فهو بالنُّبوّة، وهو بالرّسالةِ قد سَما علىٰ العبقريّاتِ والبُطولاتِ، وشريعتُه الغرّاءُ قد خَتَمَ اللهُ بها الشَّرائعَ السَّابقةَ، وجعلها جامعةً لجميع ما جاءت به الشَّرائعُ المتقدمةُ من خيرٍ وإصلاحٍ وتهذيب، فهو ﷺ الجامعُ لما تفرّق في جميعِ الأنبياء والمُرسلين منَ الفَضائل والمحامد، وفي شريعته تنطوي شرائعُهم، فهي خاتمةُ الشَّرائع، وهو خاتمُ النَّبيين، وإمامُ المرسلين ﷺ.

في أحْضَان آمِنَـةَ:

* إنَّ يُتْمَ محمّدٍ ﷺ ـ هو في حقيقته ـ نعمةٌ عُظمى، في طَيِّ نعمةٍ مهذَبةٍ لم يكن أَحَدٌ يدركُ غورها، فقد تولّى اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ أمْرَ الحبيبِ الأعظم محمّد ﷺ منذُ اللحظة الأولىٰ التي حظَي فيها الوجودُ بإشراقِ طلعته الميمونة، فقد نَشَّأَهُ تنشِئةً جَمَعَ له فيها خصائصَ الفطرة الإنسانية في أعلى مراتبها، وأرفع درجاتها، فلم يَكلْهُ إلى أبٍ يكفله ويربّيه، إذ للأبوّة أثرُهَا علىٰ حياة الطُّفوليّة وتوجيهها في رحلةِ الحياة، ومن ثمَّ كان فَقْدُ محمدٍ ﷺ أباه ـ قبل أنْ يتنسَّم نسيمَ الحياة ـ نعمةً من أَجَلِّ نعَمِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فهو لم يشهدْ أباه، ولم يُشاهده، ولم يعرفْ عنه وعن شمائِله وحياتِه ومعيشته، إلا ما قَد حدَّثته به أمُّه آمنة عنه في طفولته وهي حزينةُ الفؤاد، كسيرةُ القلب، مهيضةُ أجنحةِ العواطفِ لفراقِ ذلك الزَّوج الحاني، والأَب الكريم.

* إنَّ محمّداً ﷺ يومَ أَنْ حدَّثَتْه آمنةُ هذا الحديث، وتصوَّر منه صورةَ أبيه، كان قد أخذَ في حياته سَمْتاً وهَدْياً لا تغيِّرهُ الأحاديثُ، ولا تؤثِّرُ فيه القَصَصُ عمَّن كانَ، وما كانَ، وأيّ أثر للماضي الذي ذهبَ ولن يعودَ؟!

* وُلدَ محمّدٌ ﷺ يتيماً، ولم يستشعرْ عَطْفَ الأبوّة الذي يلمسه الطِّفْل،

فترسمُ على فمه بسمةً صادقةً؛ إلا أنَّ محمّداً ﷺ قد ارتسمتْ على فمهِ بسمةٌ صادقةٌ، وطافتْ بعينيه نظرةٌ صافيةٌ صفاءَ الفِطْرة، ونظرتْ إليه آمنةُ بنتُ وهْب لمّا وُلِدَ ـ وكانت قريبةَ عَهْد بفراق زوجها الحبيب عبد الله ـ فجدَّدَ نَظرُها إليه في نَفْسها حُزناً مبرّحاً، فرأتْ على ثَغْره الشَّريف ابتسامةً متوهِّجَةً، وفي عينيه تطلُّعٌ إلى السَّماء، ولعلَّ خيالَها الخصيبَ المصوِّر قد أسعفها، فأراها في وجْهِ وليدها المحبوب ذكريات والده الحبيب، فثارتْ في نفسها عاطفةُ الأمومةِ الحانيةِ، فضمَّتْ وليدَها إلى صَدْرها، واختلطتْ عليها الأحاسيسُ، واستنارَ وجهُها، وحَنَّ ثديُها فأرضعتْ ابنَها، فكان لبنُها أوَّلَ غذاءٍ غُذِّيَ به، ونَمَتْ عليه خلايَاهُ، ومن ثَم تناولَتْهُ ثُويْبَةُ أمُّ مَسْروح جارية عمِّه أبي لهب، فألقمته ثديّها فرضعَ منه، وظلَّ بين أمِّه وظِئْرِه الأولىٰ مُدَيْدة حتى أَهَلَّ علىٰ أهلِ مكةَ موسمُ المراضع، فقدم النّسوةُ السَّعدياتُ يطلبنَ الرُّضَّعَ، وفيهن حليمةُ بنتُ الحارث، فكان محمّدٌ ﷺ نصيبَها، وكانت هي مِنْ حظِّهِ، وحملتْهُ وارتحلتْ به إلى باديتها، وكان الصَّدر الذي يضمُّه الآن ليس صَدْرَ آمنة بنت وهب أمّه، ولكنّه صدرُ حليمة ظئره، وهنالك فرقٌ كبيرٌ بينَ العاطفَتَيْن: عاطفة الأمومةِ الوالدةِ؛ وعاطفة الأمومةِ المرضعةِ، فحُرِمَ حنانَ أُمِّه بعد أنْ مضىٰ القَدَر فحرمَهُ عاطفة أبيه.

* إنَّ ذلك لونٌ منْ اليُتْم الجديد، قَضَتْ به العاداتُ المتوارَثَةُ فيما بينَ العرب، فقد نشأَ محمّدٌ ﷺ بعيداً عن بلَدِهِ وقومِهِ، وبلدهِ حاضرة البلادِ العربيّةِ، وقومُه أهلُ شرفٍ وسيادةٍ، وللمدنيَّةِ آثارٌ اللّيْنِ والدَّعَةِ، وللشّرفِ والسِّيادة آثارُهُما علىٰ الأخلاقِ والسُّلوك.

* نشأَ ﷺ في باديةٍ بين قوم منَ العرب عُرِفُوا بصفَاء البيان، وفَصَاحةِ اللسن، يعيشونَ في باديةٍ تصهرها الشَّمْسُ إذا أسْفَرتْ، وتتلألأُ في سماء لياليها النجومُ الزَّواهرُ، ويضيئُها القمرُ المنيرُ، ويسبِّحُ في أرجائها الرعدُ، ويلمعُ في آفاقها البرقُ، وتطبعها الحياةُ بطابعٍ قاس؛ وتنتشرُ على أديمها خيامٌ متفرقةٌ يأوي إليها النَّاسُ إذا هجعَ الليلُ وهجم السُّكونُ، وفي النَّهار

يسرحون بأنعامِهم ويرتادون لها المراعي، وذلك هو كلُّ ما يشْغَلُ أهل هذه البيئة، وفيما سواها فراغ.

* إنَّ تلكَ البيئةَ تدعو إلى التَّأمُّل والتَّفكُّرِ، وتقليبِ النَّظَرِ في ملكوتِ اللهِ تعالىٰ ومظاهِرِ الوجود، وقد تأثّر محمَّدٌ ﷺ بجلال الطَّبيعةِ، وجمالِ الكونِ وهو طفلٌ لم يجاوزِ الخامسةَ من عمره.

* ورجعَ محمّدٌ ﷺ من باديةِ بني سعد وهو في سنِّ الطُّفولة، رجعَ ورأىٰ لدَّاتِهِ منَ الأطفالِ وهم يرتمون في أحضان آبائِهم، فيضمّونهم إلىٰ صدورهم فيملأُه الحزنُ ألا يرىٰ له أباً بين هؤلاء الآباء، إذاً فليذهبْ إلى أُمِّهِ ليسكنَ إلى ضَمَّةِ صَدْرِها، وحنانِ قلبها، وهنالك بين هَمَساتِ الحنانِ، ودقَّاتِ القَلْب الرّحيمِ، كانت تحدِّثُه عن أبيهِ وأسرتهِ وقومِه وبلدِه.

* وفي تلك الفترة، وبَعْدَ عودةِ محمّدٍ ﷺ منَ الباديةِ، يعيشُ بين أُمِّهِ وجدِّهِ عبدِ المطّلب الذي كان يقولُ لأولاده ومَنْ حَولَه عن محمّد ﷺ: دعُوا ابني فوالله إنَّ له لشَأْناً.

* ويعرفُ محمّدٌ ﷺ أنَّه يتيمٌ، وأنَّ أباهُ ليس في غيبةٍ لها أَوْبَة، ولكنَّه مضىٰ إلى حيثُ لا يعود، ويخرجُ محمد ﷺ إلى حيثُ فراشِ جدِّه عبد المطلب في ظلّ الكعبة، فيلقىٰ أعمامه جالِسِيْنَ حولَه، فيأخذُه جدُّه ويجلسُه معه، ويمسحُ رأْسَه وظَهْرَه بيدِه، ويظهرُ له رِقَّةً وحُبّاً لم يكونا لأَحَدٍ منْ بعدِه، فقد كان يتوسَّمُ فيه كلَّ خَيرٍ، وكان يَجِدُ فيه عوضاً عن أحبِّ أبنائه إليه.

* ويظلُّ محمّدٌ ﷺ إلى جانِبِ أمّه آمنةَ بنتِ وهب، فكانت تفيضُ عليه نسائِمَ حنانِها، ورقائقَ قُبُلاتِها، فقد أضحى كلَّ شيء في حياتِها، إذ ليس هناك ما يشْغَلُها أو يلهيها عنه، فهو ﷺ دُنيا أملها، وأَمَلُ دنياها، وزهرةُ حياتها، تتنسَّمُ من أزَاهِره رحيقَ الوجود، وتكادُ تحلِّقُ في فضاءٍ ليس له حدود، فقد كان ينبعثُ منه ﷺ أريجٌ أطيبُ منَ المسكِ، وأزكىٰ من كلِّ عطْرٍ في الدنيا. تُرى، ماذا بعد هذا الحبّ عند آمنة؟!

آمِنَــةُ والرِّحْلَةُ الأَخِيْرَةُ:

* كانت آمنةُ تنتظرُ محمّداً ﷺ عندما يؤوبُ من مجلسِ جدّه بفناءِ الكعبة، وكان حينما يرجعُ إليها تحدِّثُه وتداعبُه؛ وفِيْمَ كان الحديثُ بين آمنةَ وابنها الحبيب؟! لا شكَّ أنَّها كانت تحدِّثُه عن أبيهِ الرَّاحل، وعن مآثِرِه، وعن وفاتِه غريباً في المدينة، وكانت آمنةُ تحدِّث ابنها، وتنظرُ إليه وفي عينيها أطيافُ الذّكْريات، وبوادرُ العَبرات، ويلمحُ محمّدٌ ﷺ وجْهَ أُمِّه البريء تكسوهُ مسْحَةٌ من الحُزْنِ الصَّامِت، وتلتقي عيناهُ الشَّريفتان بعينيها، فلا تتمالكُ مشاعرها، وإذ ذاك تضمُّه إلى صَدْرها الحنون، وتنسىٰ أحزانها، وتُقْبِلُ عليه في ابتسامةٍ دافئةٍ حالمةٍ، تعبِّرُ من خلالها عنْ آمالِها وأحلامها، وتخبِرُهُ عن حنينها إلى زيارةِ أقاربِه في المدينةِ، في ذلك البلدِ الذي يحتوي جَدَثَ أبيهِ عبد الله بن عبد المطلب.

* ويبدو أنَّ محمّداً ﷺ قد رأىٰ رغبةَ أمِّه في زيارةِ المدينةِ، ورأت آمنةُ أنَّ محمّداً قد بلغَ ستّ سنواتٍ، وبه قوّةٌ على احتمالِ السَّفَرِ، فأعدّتْ عُدَّةَ السَّفر وحَمَلَتْهُ ومعه حاضنتُه أمُّ أيمن التي أورثَها له أبوهُ.

* خرجت آمنةُ من مكةَ، ثمَّ يممتْ وجهها تلقاءَ المدينةِ بعد أن ألقتْ نظرةً عابرةً على أمِّ القُرىٰ، كانت تلك النَّظرةُ هي الأخيرةُ، ولكنَّها لم تكنْ تَعلَمُ بأنَّها الرِّحلةُ الأخيرةُ إلىٰ الدَّارِ الآخرةِ.

* وسَرَتِ القافلةُ في الكونِ الواسع، وانسابتْ بين النَّخيل في الواحةِ الخَضْراء، وتابعتِ القافلةُ المسيرَ حتى وصلتِ المدينةَ، فأزَارَتْه أخوالَ جدِّهِ عبد المطلب، وكان المقامُ في دار النَّابغة من بني النَّجارِ، ومكثوا عندهم شَهْراً، وزاروا الحبيبَ الثَّاوي في قَبْره هناك.

* ولما قضوا من المدينة كلَّ حاجةٍ، رحلُوا عائدينَ إلى مكةَ، ولما كانوا على نحو ثلاثة وعشرين ميلاً من المدينةِ، وقد بلغُوا قريةَ الأبواء[1]، مرضتْ

---

(١) «الأبواءُ»: قريةٌ بين مكةَ والمدينةِ، والأبواء: وَادٍ من أودية الحجاز، به آبارٌ كثيرة، ومزارعُ عامرة، والمكانُ المزروعُ منه اليوم يسمّى «الخُريبة» تصغير الخربة. =

آمنةُ بنتُ وهْب، وذبلتْ ذبولَ الموتِ، وطفرتِ الدموعُ من عينيها وهي ترىٰ محمّداً ﷺ قد أضحىٰ وحيداً، وأخذَ محمَّد ﷺ يحدّقُ النَّظر في وجْهِ أمِّه التي أخذتْ تودِّعُ الدُّنيا، ونظرتْ إلى وجههِ البريءِ الجميلِ وقالت:

بـارَكَ فيْـكَ اللهُ مـنْ غُـلام … يـابنَ الـذي مـنْ حَـومةِ الحِمَـام

نَجـا بِعَـونِ الملـكِ العَـلاّم … فُودِي غداةَ الضَّرب بالسِّهام[1]

* روىٰ أبو نُعيم عن طريقِ الزّهري عن أسماء بنتِ رهم عن أمِّها قالت: شهدتُ آمنَةَ أمَّ النّبي ﷺ في علّتها التي ماتت فيها، ومحمّد ﷺ غلام يفع عند رأسها، فنظرتْ إلى وجهه ثمّ قالت: كلُّ حي ميت، وكلُّ جديد بالٍ، وكلّ كثير يفنى، وأنا ميتة وذِكْري باقٍ، وقد تركتُ خيراً، وولدت طهراً[2].

* ثم فاضتْ روحُها إلى بارئها، وتلاشىٰ الصوتُ الدَّافىءُ بين رمالِ الصَّحراء، واختفى إلى أنْ يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها[3]. وبكاها محمّدٌ ﷺ

= من الجدير بالذّكر أنَّ أوّلَ الغزواتِ النَّبوية كانت غزوةُ الأبواءِ بعد اثني عشر شهراً من مقدَم النَّبي ﷺ المدينة.
وهناك قبرٌ في الأبواء يُطلق عليه اسم: قبر آمنة؛ والأبواء: لا تزال معروفة إلى اليوم.

(١) انظر: المواهب اللدنية (١/ ١٦٩)، وشاعرات العرب (ص٢)؛ والخبر يبدو ضعيفاً مهلهلاً.

(٢) المواهب اللدنية (١/ ١٦٩ و١٧٠).

(٣) قيل: إنَّ بعضهم رثى آمنة بأبيات منها:

نبْكـي الفتَـاةَ البـرّةَ الأمينـه … ذات الجمـالِ العَفَّـةِ الـرّزينـه

زوجـةَ عبـد الله والقـرينـه … أمَّ نبـيّ اللهِ ذي السّكينـه

لـو فُـوديـتْ لفـوديـتْ ثمينـه … وللمنـايـا شَفْـرةٌ سنينـه

لا تبـقِ ظعّـانـاً ولا ظعينـه … إلا أتـتْ وقطعـت وَتِيْنَـه

يبدو لي أنَّ رائحةَ الوضعِ تشيعُ من هذه الأبيات، لأنَّ فيها معاني إسلامية، وعبارات لم تكن تعرفُها العرب في الجاهلية، بل لم تكن معروفة إلا بعد نزولِ الوحي، وهي لا تخفىٰ على القارىء الفَطن. بل هل كان الذين رثوا آمنة يعلمون الغيب؟! ويعلمون أنّها أمّ نبي؟! من الجدير بالذكر ـ عزيزي القارىء ـ أنَّ بعض الأخباريين، =

بكاءً شديداً، فلقد أحسَّ بحقيقةِ اليُتم[1] في تلكِ اللحظاتِ المؤلمةِ، وفي تلك البقعةِ البعيدة عن أمّ القرى.

* وفي الأبواءِ دُفِنَتْ آمنةُ، دفنَها هناك ابنُها الحبيب وحاضنته أمُّ أيمن، وعادا على بعيريهما إلى مكةَ؛ عاد الرَّكْبُ ومحمّدٌ ﷺ يذرفُ الدَّمْعَ سخيّاً سخيناً على فراقِ أمِّه الرَّؤوم؛ أمِّه الحنون التي كان يَجِدُ في كنفها الحبَّ، والحنانَ، والسَّلوى، والعزاء عن فَقْد الأب، وهكذا شاء اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ للنَّبي ﷺ أن يكونَ المصطفى في كَهفِهِ الحصين، يُصْنَعُ على عينه، ليكونَ رحمةً للعالمين.

* وظلتْ ذكرياتُ الطُّفولةِ ماثلةً في ذهْنِ النَّبي ﷺ لا تمحوها الأيامُ، فعندما هاجرَ ﷺ إلىٰ المدينة، ونظرَ إلى دار بني النّجار قال: «هنا نزلتْ بي أمّي»[2].

* وبقيتْ كلماتُ آمنة عند وفاتها ترِنُّ في أذنِ الجوزاء، وفي أذن الوجودِ، وظلت كلماتُها نوراً في جبين الدَّهْر، فلقد قالت: «وقد تركتُ خيراً وولدتُ طهْراً».

* نعم يا آمنة الرّضا، لقد تركتِ خيراً، وولدتِ طُهراً، وكفَاكِ ذكْراً وشرفاً أنَّكِ أمُّ حبيبنا ونبينا وسيّدنا محمّدٍ رسولِ ربِّ العالمين، وكفاكِ فخراً أنّك أمّ محمد أطْهَر المطهّرين، وسيّد المرسلين، وحسبك عزّاً أنَّ ربنا ـ عزَّ وجلَّ ـ أرسلَ ابنك رحمةً مهداةً للعالمين، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

* * *

= وكتّاب السّيرة قد نسبُوا هذه الأبيات إلى الجن، فتأمّل؛ ومع ذلك وهذا فالجن لا يعلمون الغيب؟!

(١) ولله درُّ ابن نباتة حيث قال:

وَدَعَاهُ في الذّكرِ اليتيم وإنّما أسْنَى الجواهرِ ما يُقَال يتيمُ

(٢) انظر: شرح المواهب اللدنية (١/ ١٦٧ و١٦٨).



٢

أمامة بنت الحارث



نَفْحَـةٌ من مَكَـارِمِ المـرْأَة:

* كانتِ المرأةُ العربيّة في العَصْرِ الجاهليّ مثالَ الزَّوجةِ الصَّالحة، تحفظُ شرفَ الرَّجل، وتحمي مالَه، وتعينُه علىٰ أمورِ الحياة، وامتازتِ المرأةُ العربيّة بحرصها الشَّديد علىٰ إبقاءِ مهَادِ الزَّوج وثيراً للجسدِ، مريحاً للنَّفْس، كانت لا تُسْمِعْه ما يكره، ولا تدع عينه تقعُ على مُسْتكره.

* منْ هنا كان رجالُ العرب يعزُّونَ المرأةَ ولا يهينونها، وأعطوا النِّساء ما لهنَّ من حُقوق، ولم ينسوا أنَّ المرأةَ الحَصَانَ كالرَّجلِ تغرسُ صالحَ الأعمال في نفوس أبنائها، وفي نفوسِ مَنْ حَولهَا مِنْ زوجٍ، أو أخٍ، أو قريبٍ، أو حتّى منَ العشيرةِ، وربما كانتِ المرأةُ هي مصدرُ الفضيلة، ومأوى الشّورى في إطفاءِ الفتن المُسْتَعِرة، والحروب الطَّويلة.

* نعم كانت كثيراتٌ من نساءِ العرب ذوات فَضَائلِ مشهورة، ومواقفُ كريمة مشهودة، ناهيكَ بما لهنّ من كلماتٍ جعلتهن يَقْتَعِدْن سُدَّة المجدِ في صعَابِ الأمور، ومهمّات الأحداث.

* من ذلك فكرة إحداهن لإطْفَاءِ نار الحرب التي ظلَّتْ مستعرةً نحواً مِنْ أربعينَ سنة بين عبس وذبيان، ولم يفكّر في إطفاءِ نارها إلا امرأةٌ، ولم تتمكنْ هذه المرأةُ من إطفائها إلا بما كانَ لها من المكَانَة، وحسْنِ الرأي، وجمال الأُحدوثة.

* رُويَ أنَّ بُهَيْسَةُ[1] بنتَ أوس بنِ حارثة بن لام الطَّائي، لما زوَّجها

---

(١) بُهيسة بنت أوس إحدى ربّات الحصافَة والبَلاغَة والعقل والرأي والفضل في العصر الجاهلي، وقد قدم الحارث بن عوف سيّد العرب مع غلامه وخطبها من أَبيها، فأنعَمَ عليه، وأصلحتْ أمّها شَأْنَها، وضُربتْ قبة فنزلَ بها الحارث. فلما هُيِّئَتْ بهيسةُ، وأُدخلتْ عليه، لبثَ الحارثُ هنيهة، ثم خرجَ، فقال له غلامه: أفرغتَ منْ شأنك؟ قال: لا واللهِ، لما مددتُ يدي إليها قالت: مَهْ، أعند أبي وأمّي وإخوتي هذا والله ما لا يكون.
فأمَرَ الحارثُ بالرحلة، فرحلا بها، وسارا ما شاء اللهُ، وقال الحارثُ لغلامه: تقدّمْ، فتقدمَ الغلام، وأرادها الحارثُ فقالت له: أكَما يُفْعَلُ بالأَمَةِ الجليبة، أو=

أبوها من الحارثِ بن عوف المري، وأرادَ أنْ يدخل عليها، قالت له: يابنَ الكرامِ، أتتفرّغُ للنِّساء، والعربُ يقتلُ بعضُها بعضاً؟! ـ تعني عَبْس وذبيانَ ـ.

فقال لها: ماذا تقولين؟

قالت: اخرج إلى هؤلاءِ القوم، فأصلحْ بينهم ثمّ ارجع إليَّ. فخرجَ وعرضَ الأَمْر لهرم بنِ سِنَان، فاستحسنَ ذلك، وقاما بهذا الأمْر، فمشيا بالصّلح، ودفعا الدِّيات منْ أموالهما[1]؛ وخمدت نارُ الحربِ التي أكلتِ

= السّبية الأخيذة، لا واللهِ، حتى تأتي قومك وتنحر الجزر، وتذبح الغنم، وتدعو العرب، وتعمل ما يُعمل لمثلي.

وسأله الغلام: أفرغتَ.

فقال الحارث: لا واللهِ، وذكر له ما قالته بُهيسة.

فقال له الغلامُ: واللهِ إنّي لأرىٰ همّةً وعقْلاً، وأرجو أن تكونَ المرأةُ منجبة.

ثمَّ رحلا، حتى جاءَا بلادهما، فأحضرَ الحارثُ الإبل والغنم، ثم دخلَ عليها وخرجَ إلى غلامه؛ فقال له غلامه: أفرغتَ؟

قال الحارث: لا، فقد قالت لي: لقد ذكرتَ لي منَ الشَّرف ما لا أراه فيك.

فقلتُ لها: فماذا يكون، وماذا أفعل يا بنتَ أوس؟!

قالت: اخرجْ إلى هؤلاءِ القوم، فأصلح بينهم، ثم ارجع إلى أهلك فلنْ يفوتك.

وخرجَ الحارثُ وغلامه، وهرمُ بنُ سنان، وأتوا القومَ المتحاربين، ومشوا فيما بينهم بالصُّلح، فاصطلحوا، ودفعوا الدّيات، ثم رجعَ الحارث، فدخل بها، فولدت له بنين وبنات. وبهذا أثبتتْ أنّها من ذوات العقل والفضل وحسن الأحدوثة.

انظر (سرح العيون ص١٥٩ ـ ١٦١)، و(أعلام النساء ١/ ١٥٥ ـ ١٥٧) مع الجمع والتصرف اليسير.

(١) لما نظم زُهير بن أبي سلمى الشّاعر الجاهلي الشّهير معلقته، سَبَحَ به خاطرُه إلى جمالِ الخُلُق، وروعة السُّلوك، وحبّ الخير، والتّضحية في سبيل الأمْن والاستقرارِ، وشرعَ يتحدَّث عن الحارث بنِ عوف وهرم بن سنان السَّاعيَيْن في السَّلام، والدَّاعييْن إلى الإخاءِ والصَّفاء، إذ تحمّلا ديّات القَتْلى، وأصلحا ما أفسدَ، وجمعا الشّمل، فأقسمَ بالبيتِ الحرام بأنّهما نعم السِّيدان في جميعِ الأحوالِ، =

النَّاس حيناً منَ الدّهْرِ كان شيئاً مذكوراً.

* ومنْ خلالِ رحلتي مع المرأةِ في مختلف العُصور، كنتُ أجيلُ الطَّرفَ في سِيَرِ أعلام نُبلاء نساءِ العَربِ في العصر الجاهليّ، فوقفتُ أمامَ امرأة تستحقُّ الاحترام لأنَّها من فَواضلِ نساءِ العربِ، وممن عُرفْنَ بالتَّعقُّل والحكمةِ وفَصْلِ الخطاب، وسَدادِ الرَّأي، وكمالِ التَّربية على رحيقِ الأخْلاق الكريمةِ، هذه الفاضلة هي: أمامةُ بنتُ الحارث[1]، فهل أتاك نبأ حديثها؟ وهل أتتك أخبارُ حكمتها، وأنباءُ كلماتها العِذَاب في دُنيا نصائحِ الأمّهات لبناتِهنّ وأبناء جِنْسهنّ؟!

أمٌّ عَاقِلَةٌ حَكِيْمَــةٌ:

* ما أجملَ أنْ يعرفَ النَّاسُ هذهِ المرأة، وما أجملَ أنْ تتعرّفَ الأمّهاتُ ـ في عَصْرنا ـ قصَّة وصيّتها لابنتها في أجمل يومٍ من حياتِها كي يقتدينَ بها، ويتخذْنَها أسوةً لهنَّ في تربيةِ بناتِهن على منابتِ الفضيلة، ومروجِ الأخلاقِ العظيمة، حتى يكُنَّ زوجاتٍ ناجحاتٍ في حياتِهنَّ، يُقدِّمْنَ المفيدَ للمجتمعاتِ ولأولادهنَّ ومَنْ حولهن، ويكنَّ عنْصُراً مباركاً في مجتمعٍ يتحلَّقُ حولَ مائدةِ الفضيلةِ، ويَنْشُد السَّعادة في كلِّ مقوماتها.

= وأنّهما في أعلىٰ الدَّرجات بينَ العرب، وقد سجَّل مآثرهما في معلقته التي يقولُ فيها:

فأقسمتُ بالبيتِ الذي طافَ حَوْلَه ... رجالٌ بنَوْهُ من قُريش وجُرهُمِ
يميناً لنعمَ السَّيِّدان وُجِدتُما ... على كلّ حالٍ منْ سحيلٍ ومبْرمِ
تداركتُما عَبْساً وذُبيان بَعْدمَا ... تفَانوا ودقّوا بينهم عطرَ منشمِ
وقد قُلتما إنْ ندرك السِّلمَ واسعاً ... بمالٍ ومعروفٍ منَ القولِ نسْلَمِ
فأصبحتُما منها على خيرِ موطنٍ ... بعيديْن فيها من عقوقٍ ومأثمِ
عظيمَيْن في عُليا مَعدٍّ هديتما ... ومن يستبحْ كنزاً من المجدِ يعظمِ

(١) محاضرات الأدباء (٢/ ٢١٢)، والبيان والتبيين (٢/ ٧)، ومجمع الأمثال (٢/ ١٩٢)، وبلوغ الأرب (٢/ ١٧)، والعقد الفريد (٦/ ١١٠)، وقصص العرب (٢٠/ ٧٨)، وأعلام النساء (١/ ٧٤) وغيرها كثير من كتب الأدب والتراث.

* يمكنني الآن أنْ أدعوَ القارىء الكريم إلىٰ هذا المقام الفريد، فأي بليغٍ لاتأخذُه الدَّهْشَة وهو يطالعُ كلماتِ هذه المرأةِ الفاضلة، وهذه السَّيدةِ ذاتِ الطَّلعةِ المهيبةِ، والكلمةِ السَّديدةِ المتألّقةِ في سماءِ السَّعادة الزَّوجيّة، إنّها مزايا فريدةٌ، وأي مزايا هذه التي جُمِعَتْ في أمامةَ بنتِ الحارث؟!

ومَـزَايـا كـالـزَّهـرِ نَفْحـاً وطيْبـاً وكَـزَهْـرِ السَّمـا بهـاءً ونُـورا

* هذه المزايا ليستْ غريبةً عن نساءِ العربِ في العصر الجاهلي، بل هي معهودةٌ في كثيرٍ من النّسوة اللاتي حَفِظَ التَّاريخُ مقامهنَّ، واحتفظَ ببدائعِ بدائِهِ أقوالهنّ، ورسمَ صُوراً صادقةً لحياتهنَّ، كما وعَىٰ أسماءَ طائفةٍ كبيرةٍ منهنَّ اشتهرنَ بالحكمةِ، والبلاغةِ، والموعظةِ، والفكرة الوقّادةِ، والشَّجاعةِ وغيرِ ذلك من مكارمَ[1].

* وأمامةُ بنتُ الحارث واحدةٌ من شهيراتِ نساءِ العرب ممن عُرِفْنَ بأدبِ الحكمةِ[2]، وجمالِ الفضيلةِ، وحدّة الذّكاء، ارتقتْ بمدارِكها فوقَ كثيرٍ من

---

(١) هنالك نسوةٌ من نساءِ العصر الجاهلي قد اشتهرنَ بالحكمة، وحدّة الذكاء، وقوّة العقل، وسدادِ الرأي، ومنهن: هند بنتُ الخُس الإيادية، وأختُها جمعة، وصُحْر بنت لقمان، وخصيلة بنتُ عامر بن الظّرب العدواني، وحذام بنت الرّيان، وهي التي قيل فيها البيت المشهور:

إذا قَـالَـتْ حَـذَامِ فصـدّقُـوهـا فـإنَّ القـولَ مـا قـالـتْ حَـذَام

(تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٥٨)

(٢) «الحكمةُ»: هي قولٌ رائعٌ يتضمّنُ حُكْماً صحيحاً مُسَلَّماً به. والحكمةُ عبارةٌ قصيرةٌ بليغةٌ تؤدّي المعنى المقصود؛ وقد تكونُ الحكمةُ شِعْراً، وتكونُ نَثْراً، لكنّها في النَّثر أكثر دوراناً.

والحكمة ثمرة ناضجة من ثمرات الاختبار الطويل، والتجربة الصادقة، والعقل الراجح، والرأي السديد، وممن اشتهر بالحكمة من رجالِ العرب في الجاهلية: أكثمُ بنُ صيفي التّميمي، وعامر بنُ الظّرب العدواني، وهما من المعمرين، وكانتِ العربُ تحتكم إليهما.

هذا وكتبُ الأمثال في العادة تذكر المثَل وقائِلَه، وتشرحُ السَّبب الذي قيل من أجله، ومن أشهر تلكم الكتب: «مجمع الأمثال» للميداني.. =

مدارك الرِّجال، وكان لسلامةِ ذوقها أثرهُ الواضحُ في توجيهِ ابنتها لحياةٍ سعيدةٍ في بيت مَلِكٍ من أعاظم ملوكِ بني كندة في عَصْر ما قبل الإسلام، وذلك في وصايا تُعَدُّ من عُيون الوصايا في عالَم نساءِ التَّاريخ.

منْ أَخْبارِ أُمَامَةَ وابنَتِهَا:

* كانت أمامةُ ابنةُ الحارث منْ فاضلاتِ نساءِ العربِ، بل من فَواضِل نساءِ عَصْرها، فهي من ربّات الفَصَاحة والأدبِ والبلاغةِ، والرّأي والعقلِ والتّجرِبة، وحُسْنِ الأُحدوثة، وكانت زوجاً لعوفِ بنِ محلِّم بن ذهْلِ الشَّيباني[1]، وقد عُرفتْ بموافَقَتِها له، وإكرامِه، والوقوفِ على أوامِره وتنفيذها، وتحقيقِ كُلِّ السُّبُل التي تؤدّي إلىٰ السَّعادة، وتبني صرحَ الأسرة على أساسٍ سليم.

* وولدتْ أمامةُ لعوفٍ بنتاً، فاستاءَ عوفُ وظلَّ وجههُ مُسودّاً وهو كظيمٌ، وأخذ يتوارىٰ منَ القومِ من سوءِ ما بُشِّرَ به، واختمرتْ في ذهنِه فكرةُ الوأدِ، وأخذَ يعدُّ العدّة لذلك.

* ولمّا أرادَ عوفٌ أنْ يَئِدَ[2] ابنته، جاءَه أحَدُ أشراف قومه ويُدعى

---

(١) عوفُ بنُ محلِّم بن ذهل الشّيباني، أحدُ أشرافِ العرب في الجاهلية، كان سيّداً مطاعاً في قومه، قوياً في عصبيّته، طلبَ منه ملكُ الحيرة عمرو بنُ هند رجلاً كان قد أجارَهُ فمنَعَه، فقال عمرو بن هند: «لا حُرَّ بوادي عَوف»، أي: لا سيّد فيه يناوئه، فسارتْ هذه الكلمة مثلاً.
وقد ضُرِب المثلُ بوفاءِ عوفِ بن محلم فقيل: «أوفى من عوف بن محلّم»، وكانت تضرب له قبة في سوق عكاظ لمكانته من العَرب، ويبدو أنّ وفاتَه كانت نحو سنة / ٤٥/ قبل الهجرة (مجمع الأمثال ٢/ ١٢٤ و٢٢٢) بتصرف.

(٢) لم يكُنْ بعضُ الذين يئدون بناتهم يأتونَ هذا العمل الفظيعَ تغيظاً من هذه النّسمات البريئة، أو احتقاراً لجنْس المرأة، كما يلوح للوهلة الأولىٰ، بل كان يسوقُهم إلى ذلك فَسَادٌ في الخيال، وضَعْفٌ عظيمٌ في الطَّبيعةِ، وإنَّ الخيالَ الفاسدَ ليزين المنكر حتى يظنّه صاحبه من المعروف.
وكان بعضُ الذين يئدون بناتِهم توسوسُ لهم شياطينُ الخواطر بأنَّ الفتاةَ ربما وقعتْ في يَدِ مَنْ لا يرعىٰ لَهُ ولَها حرمة. =

«عمرو» فاستوهبها منه، وقال له: يا سيّد شَيبان اتركْها لعلَّها تَلِدُ أُنَاسَاً، فسمّيت أمّ أناس[1]، فتزوّجهَا فيما بعد مَلِك كندة فولدتْ له، ويُعرف ابنها بابن أمّ أناس[2]، أو أمّ إياس.

* نشأتْ أمُّ إياس في حضْنِ أمٍّ نبيلة ترعاها وتغذيّها بكلِّ ألوانِ الأَدبِ والمَعْرِفةِ، وتروي المصادرُ أنَّ أمَّ إياس هذه، كانت واحدةً من جميلاتِ عَصْرها، وطار صيتُ جمالها في الآفاقِ، كما مشتْ بسيرة أدبها ووفرة عقلها الرُّكْبان، حتى بلغَ صيتُها هذا عمرو بن حجر[3] ملك كندة، فأحبَّ أنْ يصاهرَ عوف بن محلم الشّيباني؛ ويحظى بهذه الجوهرة الفَريدة التي مالها من ثانٍ.

أُمَامَــةُ وخطْبَــةُ ابْـنَتِهَا:

* بعد أنْ بلغَ عمرو بن حجر[4] ملك كندة جمالَ أمّ إياس ابنة عوف بن محلّم الشّيباني ـ وكانت ذات جمالٍ وكمالٍ وقوّة عَقْل كما أسلفنا ـ، وبلغه كذلك مكانة أمّها في عالَم فضْليَات النِّساء وعقلائهن، فأخذَ يفكِّر في طريقةٍ تقرِّب له صورة أمّ إياس ليكون على بصيرة منْ أمره.

* وكان في كندةَ امرأةٌ ذات رأيٍ، وعَقْلٍ، وفصاحةٍ، وبيانٍ، ولسان

= وكان منهم فقراء يزيّن لهم خيالُهم الفاسد أنَّ فتاتهم إذا ظلَّتْ في ميدانِ الحياة، فربما نالها ضَيْمٌ من فقرهم، وربّما عجزوا عن أنْ يكرموهن بنفقةٍ تساويهن بأترابهن من ذوي قرباهن أو جوارهن، فيرونَ مواراتهن في التّراب خيراً لهنَّ من بقائِهنَّ دون الأتراب.
لذلك كان بعضُ العرب يفضّلُ القَبْر عن الصّهر؛ قال عبدُ الله بنُ طاهر:

لكـلِّ أبـي بنْـتٍ يُـراعـي شُـؤونهـا ... ثـلاثَـةُ أَصْهَـار إذا حُـمِـدَ الصِّهْـرُ
فَبَعْــلٌ يُــراعيهــا وخــدْرٌ يكنّهــا ... وقبــرٌ يُــوارِيْهَــا وأَفْضَلُهــا القَبْــرُ

(١) ورد في بعض المصادر «أم إياس» بدلاً من أمّ أناس.
(٢) انظر: الكامل في التاريخ (١/ ٥٠٧) بشي من التّصرّف.
(٣) هو جدّ امرىء القيس الشّاعر الجاهلي المشهور.
(٤) وقيل اسمه: الحارث بن عمرو.

وأدب، وفضْل، تُسمّى «عصام»، فدعاها الملك عمرو، وأمرها أنْ تذهبَ لتنظرَ إلى أمِّ إياس، وتمتحنَ ما بلغه عنها، وأوصاها قائلاً: يا عصام، اذهبي إلى بيتِ عوفِ بن محلم حتى تعلمي لي علْمَ ابنته أمّ إياس. فأخذت عصامُ أهبتَها للرَّحيل، ومضَتْ حتى انتهتْ إلىٰ والدتها أمامةَ بنتِ الحارث، فأعلمتها بما قَدِمتْ له، وما أتتْ منْ أجْلِهِ.

* رحَّبتْ أمامةُ بمقْدَمِ عصام الكنديّة، ثمّ أرسلتْ إلى ابنتها أمِّ إياس وقالت لها: أي بنية، هذه خالتُك أتتْ إليك لتنظر إلى بعضِ شأنْك، فلا تستري عنها شيئاً أرادت النَّظر إليه من وجْهٍ وخَلْقٍ، وناطقيها فيما استنطقَتْكِ فيه.

* فدخلتْ عصامُ علىٰ أمِّ إياس، فنظرتْ إلىٰ ما لم تَرَ عينيها مثله قطّ بهجةً وحُسْناً وجَمالاً وبهاءً ورقّةً، فإذا هي أكملُ النَّاس عقلاً، وأفصحهُم لساناً، وأقومُهم بياناً.

* وخرجتْ عصامُ من عند أمّ إيّاس وهي تقول: «تَرَكَ الخِداعَ مَنْ كشَفَ القِنَاع» فذهَبَتْ مثَلاً.

* ثمّ إنّها أَقْبَلَتْ إلى ملِكِ كندة فقال لها: «ما وراءك يا عصام»؟ فأرسلَها مثَلاً.

قالت: «صرّح المخضُّ عن الزُّبد»[١] فذهبتْ مثلاً.

قال: أخبريني عمّا عاينت.

قالت: أخبرك صدْقاً وحقّاً أيّها الملكُ الهمام.

* وأخذتْ عصامُ تحدِّثُ الملك بما شاهدت منْ كمالِ عَقْل أمامَة بنتِ الحارث، وجمال ابنتها أمّ إياس، فكان مما قالته:

* رأيتُ جَبْهة كالمرآةِ الصَّقيلة، يزينُها شَعْرٌ حالكٌ كأذنابِ الخيلِ المضفُورة، إذا أرسلَتْه خِلْتَه السَّلاسلَ، وإنْ مشَّطته قُلتَ عنه قيد كَرْم جلاه

---

(١) مثل يُضرب للأمر إذا انكشف وتبيّن. و«مُخض اللبن»: أُخذ زبده؛ و«التصريح»: التبيين.

الوَابل[1]؛ ومع ذلك حَاجِبَان كأنَّهما خُطّا بقلمٍ، أو سُوِّدا بحَمَم[2]، قد تقوّسَا على مثلِ عينِ العبهرة[3]، التي لم يَرُعْها قانِصٌ، ولم يذْعِرْهَا قَسْوَرَة، بينهما أنْفٌ كحدِّ السَّيفِ المصقول، لم يخنسْ[4] به قصر، ولم يمعن به طولٌ، حُفَّتْ به وجْنَتَان كالأرجوان[5]، في بياضٍ محضٍ كالجُمان[6]، شُقَّ فيه فمٌ كالخاتمِ لذيذ المبتسم، فيه ثنايا غُرّ، وأسنانٌ تُعَدُّ كالدّرِ[7]، يتقلّبُ فيه لسانٌ ذو فصاحةٍ وبيان، يزينُ به عقْلٌ وافرٌ، وجوابٌ حاضر... وتحت ذاك عُنُقٌ كإبريقِ الفضّة[8]... إلىٰ أنْ قالت: فأمّا ما سوى ذلك فتركتُ أنْ

---

(١) «الوابل»: المطر الشَّديد، وفي القرآن الكريم: ﴿ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾ [البقرة: ٢٦٤] أي: مطر شديد عظيم القطر.

(٢) «حمم»: الفحم (القاموس المحيط ص١٤١٨) مادة (حمم).

(٣) «العبهرة»: الجامعة للحسن في الجسم والخُلق، والرقيقة البشرة النّاصعة البياض والسّمينة الممتلئة الجسم.

(٤) «يخنس»: يتأخر.

(٥) «الأرجوان»: صبغ أحمر.

(٦) «الجمان»: اللؤلؤ، واحدتها جمانة.

(٧) إنَّ العرب هم عمالقةُ البلاغة في فنِّ الوصف، وخاصة في وصف الحسْنِ والجمال، وقد أبدعوا في شعرهم بهذا الفنّ، كقولِ دوقلة المنبجي في القصيدة المسماة «اليتيمة» والتي نقتطف منها هذه الأبيات:

ويَـزِيْـنُ فُـوديْهـا إذا حَسَـرتْ ... صـافـي الغَـدائـرِ فـاحـمٌ جَعْـدُ
فـالـوجـهُ مثـلَ الصّبـح مُبْيَـض ... والفـرعُ مثـلَ الليـلِ مسـودُ
وجبينُهـا صَلْـتٌ وحَـاجِبُهـا ... شخـتُ المخـطِ أزجُّ ممتـدُ
وكـأنّهـا وسْنَـى إذا نَظَـرتْ ... أو مـدنـفٌ لمـا يَفِـقْ بعـدُ

(٨) مما يزينُ بحثنا ما وردَ عند ابن عبد ربّه قال: سُئل أعرابي عن النِّساء، وكان ذا تجربةٍ وعلْمٍ بهنّ فقال: أفْضَلُ النّساء أطولُهن إذا قامت، وأعظمُهن إذا قعدت، وأصدقُهن إذا قالت، التي إذا غضبتْ حلمتْ، وإذا ضحكتْ تبسّمت، وإذا صنعتْ شيئاً جوّدت، التي تطيعُ زوجها، وتلزم بيتها، العزيزة في قومها، الذّليلة في نفسها، الودودُ الولودُ، وكل أمرها محمود.

(العقد الفريد ٦/ ١٠٧).

أصفَه غير أنَّه أحسنُ ما وصَفَه واصفٌ بنظمٍ أو نَثْرٍ[١].

كَيفَ خَطَبَ المَلِك ابنَـةَ أُمَامَـةَ؟

* عندما سمعَ عمرو بنُ حجر ما جاءتْ به عصامُ من وصف لأمّ إياس بنت عوف الشَّيبانية، وقعتْ في نفسه موقعاً لطيفاً، ورغب في ودِّها[٢]، وأزمعَ على أنْ يخطبَ هذه الدُّرة اليتيمة، والجوهرة الفريدة في عقْد نساء بني شيبان، وارتحل إلى عوفِ بن محلّم، وخطب[٣] ابنته أمّ إياس.

* ورحَّبَ عوفُ بنُ محلّم بهذا الملك الخطير، وأحسنَ وفادته، هنالك تقدَّم الملك وخطبَ أمّ إياس بنت عوف، فقال عوفٌ بكلّ سُرور: نَعم أيّها الملك، قد زوّجناكها، ولكنْ أشترطُ عليك!

قال الملك عمرو: وما شرطك يا عوف؟

قال عوف: أزوجها على أنْ أسمّيَ بنيها الذّكور، وأزوّجَ بناتها.

فأجابَه الملكُ في أناةٍ وروية: أو غيرَ هذا يابن مُحلّم؟!

قال عوف: هذا ما أشترط.

---

(١) انظر: مجمع الأمثال (٢/ ١٩٢)، والعقد الفريد (٦/ ١١٠ و١١١)، وبلوغ الأرب (٢/ ١٧ و١٨) بشيء من التصرف.

(٢) ولله درّ مَنْ قال:

كـأنمـا الشَّمـسُ إذا مَـا بَـدَتْ ... تلـكَ التـي قَلْبـي لهـا يضْـرب

تلـكَ سُليمـاي إذا مـا بـدتْ ... ومَـنْ أنـا فـي ودِّهـا أرغـب

(٣) كان أسلوبُ الزَّواجِ الصَّحيح عند العربِ في عَصْرِ الجاهلية، يدلُّ على احترامِ المرأةِ العربيةِ، ومعرفةِ مكانتها، فكان إذا رغب أحدُهم الزَّواج، ذهبَ هو أو أشراف قومه إلى والدِ الفتاةِ، فيخطب أمامَ المجتمعين مَنْ وُكِّلَ بذلك من ذوي الشّرف والحسب والفصاحةِ والبيَان، ومن خُطَبِ النكاح قولهم: «باسمك اللهم ذكرت فلانة، وفلان بها مشغوف، باسمك اللهم لك ما سألت ولنا ما أعطيت».
وكان والدُ الفتاة يقصر في الإجابة بالقبول أو الرفض، ويحدد المهر، وشروط العقد؛ وكان والدُ الفتاة أو والدتها غالباً ما يستشيران ابنتهما قبل إجابة الخاطب، وكان للفتاة حقّ الرفض.

فقال الملكُ في تَعقُّل وهدوء: يابن الكرام، إنَّ ما ذكرتَه هو مِنْ حقّنا، أمّا بنونا فنُسمّيهم بأسمائِنا، وأسماء آبائنا، وعمومتنا؛ وأمّا بناتنا فينكحنَ أكفاؤهن منَ الملوك، ولكنّي أجعل صَدَاقَها عقاراً في كندة، وأمنحها حاجات قومها، فلا تُردُّ لأحدٍ منهم حاجة، ولا تقفُ في وجهه عثرة.

فقال عوف: أنصفتَ أيها الملك الهمام، وقَبِلَ عوف ذلك وأنكحه ابنته أمّ إياس، وأوصاه أنْ يحسنَ عشرتها ويكرمها، فإنّها قطعةٌ من كبده[1].

وصَايا أُمَامَـة العَشْر لابنَتِهَـا:

* يمكننا الآن أنْ نقولَ باختصار: ليستْ وصايا أمامة بنت الحارثِ لابنتها أمِّ إياس مجرّد مواعظَ وتوجيهات وتحذيرات منَ الزّوج أو الزَّواج، وإنّما هي حِكَمٌ وفرائدُ يمكنُ أنْ تُصَاغَ في عقْدٍ نفيس، يصلحُ لأنْ تزدانَ به كلُّ فتاةٍ تودُّ حياةَ السَّعادة في ظلالِ الحياةِ الزَّوجيّةِ، وفي ظلالِ رجلٍ ينْشُد المودَّة والنَّجاح والوفاء.

* لقد بلغتْ نساءُ القوم قِدْماً مبلغاً عظيماً في الحكمةِ والأدب والبيان، وقد أُوتينَ منْ جوامعِ الكلمِ وبيان القول ما يعجزُ عن الإتيان بمثله فحولُ الفُصحاءِ، وبلغاءُ الفَحولِ، ناهيك بوفرةِ عقلهنَ، وسدادِ رأيهن في إدارة

(١) لعله مما تَحسُنُ روايته، وتُستجادُ حكايته، وتُسْتَملحُ كتابته في هذا المجال، ما جاء عن العرب الأقحاح، الذين وردوا مناهلَ الأخلاق، وعبّوا منها، ونفحوا الأيامَ بأوراقٍ قد خُطَّ فيها أدبهم الوضاء، وحديثهم المغناج المعطاء، وأقوالهم التي تزينُ جبينَ الدَّهر بعقود منيفة، بما ورد عنهم من حكم لطيفة.
فقد ورد أنَّ صعصعةَ بنَ معاويةَ قد خطبَ إلى عامر بن الظَّرب حكيمِ العرب ابنته عمرة ـ وهي أم عامر بن صعصعة ـ فقال: يا صعصعةُ؛ إنّك أتيتني تشتري مني كبدي، فارحمْ ولدي قبلتك أو رددتك، والحسيبُ كفءُ الحسيب، والزوجُ الصّالح أبٌ بعد أبٍ؛ وقد أنكحتُك خشية ألا أجد مثلك، أفرُّ من السِّرِّ إلى العلانية؛ يا معشر عَدْوان، خرجتْ بين أظهركم كريمتكم من غير رهبة، وأقسم لولا قسم الحظوظ على قدر الجدود، ما ترك الأول للآخر ما يعيش به.
(العقد الفريد ٧/ ٧٧) بتحقيق: محمد سعيد العريان.

بيوتهن مما جعلهن مصدرَ إشعاعٍ حضَاري واجتماعي، تقتدي به نساءُ التّاريخ علىٰ مدارِ التَّاريخ.

* نعم لقد كانت ضيفتُنا امرأةً من طرازٍ فريد، وحبّذا وجودُ مئاتٍ بل ألوف مثلها في هذا الزَّمن وكلّ زمان، كي ترفرفَ السَّعادةُ الزَّوجيةُ بجناحيها على كلِّ البيوت، لأنّها كانت تقدّسُ الحياةَ الزَّوجية، وتغرسُ في نَفْسِ ابنتها هذا الإجلال، وهذا الاحترام، لتكون مطْوَاعاً للرجل، مِعْواناً له، ونستطيعُ أنْ نلمسَ نظرةَ هذهِ المرأة للزَّواج والزَّوجِ في وصيّتها، بل وصاياها العَشْر لابنتها أمّ إياس في ليلةِ زفافها، تلكمُ الوصَايا التي قدّمَتْ لها أمامةُ بمقدمةٍ تضيءُ لها بها دَرْبَ الزَّوجية، وتمهّدُ لها فيها حكمة الزَّواج حيث قالت لها بعد أنْ خَلَتْ بها:

* أي بُنَيّة! إنَّ الوصيةَ[١] لو تُرِكَتْ لفَضْلِ أدبٍ، لَتركْتُ ذلكَ لكِ، لكنَّها تذكرةٌ للعاقِلِ، وتوعيةٌ للغافِلِ، ولو أنَّ امرأةً استغنتْ عن الزَّوج لغنى أبويها، وشدّة حاجتها إليها، كنتِ أغنىٰ النّاسِ عنه، ولكنَّ النِّساءَ لَلرجالِ خُلِقْنَ، ولهنَّ خُلِقَ الرِّجال.

* أي بُنية! إنّك فارقْتِ الجو الذي منه خرجتِ، وخلفت العشّ الذي فيه دَرَجْتِ، إلى وكْرٍ لم تعرفيه، وقرينٍ لم تألفيْهِ، فأصبحَ بملكه عليك رقيباً ومليكاً، فكوني له أَمَةً يكنْ لك عَبْداً وشيكاً.

---

(١) «الوصيةُ»: الوصيةُ بمعنى: النُّصح، والإرشاد، والتّوجيه، وهي قولٌ بليغٌ مؤثّرٌ، يتضمنُ حثّاً علىٰ سلوكٍ طيّب نافعٍ، حبّاً فيمن توجَّه إليه الوصيّة، ورغبة في رفعة شأنه وجَلْبِ الخير له. وعادة تكون الوصية منْ أولياءِ الأمور، وخصوصاً الأب والأم لأبنائهما عند المناسبات، وعند حلول الشّدائد، أو حدوث الأزمات، أو الإحساس بدنو الفراق.
والوصيةُ نتيجة الخبرة الطّويلة، والملاحظة الدّقيقة، والعقل الواعي، والتفكير السَّليم، ويدفع إليها المودة الصَّادقة، والحبّ العميق. هذا وكتُبُ المصادر تزدان بكثيرٍ من الوصايا الجميلة التي تزينُ جيْدَ الأيّام، لما تحمله من معانٍ عِظَام، وفوائد جِسَام، تصلح للخاص والعام.

* ولما انتهتْ أمامةُ من هذه المقدّمة النَّفيسة، قالت لأمِّ إياس بلسانِ النُّصح، والإرشاد، والحبِّ، والعِلْم:

* يا بنية! احملي عني عشْر خصال تكنْ لكِ ذخراً، واحفظيها له تكن لك ذِكْراً.

أمّا الأُولى والثَّانيةُ: فالصُّحبةُ بالقَناعةِ، والمعاشرةُ بحسنِ السَّمْعِ والطَّاعةِ.

وأمّا الثَّالثةُ والرَّابعةُ: فالتَّعهُّدُ لمواضعِ عينيه، والتَّفقدُ لموقع أنْفِهِ، فلا تقعُ عينه منكِ على قبيحٍ، ولا يشم منكَ إلا أطيبَ ريحٍ، والكحلُ أحسنُ الحُسْنِ، والماءُ أطيبُ الطِّيْبِ المفقود.

أمّا الخامسةُ والسَّادسةُ: فالتَّعهُّدُ لوقتِ طعامهِ، والهدوءُ عندَ منامهِ، فإنَّ حرارةَ الجوعِ ملهبةٌ، وتنغيصُ النَّوم مغضبةٌ.

وأمّا السَّابعة والثَّامنةُ: فالاحتراسُ ببيتِهِ ومالِهِ، والإرعاءِ علىٰ نفْسهِ وحشَمِهِ وعياله، وملاكُ الأمْر في المال حسنُ التَّقدير، والإرعاء علىٰ العِيَالِ والحشَم جميل حسن التَّقدير.

وأمّا التَّاسعةُ والعَاشرةُ: فلا تعصي لهُ أمْراً، ولا تفْشِي له سِرّاً، فإنّكِ إنْ خالفتِ أمْره أوغرتِ صدره، وإنْ أفشيتِ سِرَّه لم تأمني غَدْره، ثمّ اتقي مع ذلك الفرحَ بين يديه إنْ كان تَرِحَاً، والكآبةَ عنده إنْ كانَ فَرِحاً، فإنَّ الخصلة الأولىٰ من التَّقْصير، والثَّانية منَ التّكديرِ، وكوني أشدَّ ما تكونين له موافقةً، يكن أطول ما تكونين له مرافقة، واعلمي أنّكِ لا تَصِلِيْنَ إلىٰ ما تحبّين حتى تُؤثري رضاه على رضاكِ، وهواه على هواك فيما أحببتِ وكرهتِ، واللهُ يخيرُ لكِ[1].

---

(١) انظر المصادر التالية مع الجمع بينها والتصرّف اليسير: مجمع الأمثال للميداني (٢/ ١٩٢)، والعقد الفريد (٦/ ١١٠ و١١١)، وقصص العرب (٢/ ٧٨ و٧٩)، ومحاضرات الأدباء: (٢/ ٢١٢)، وبلوغ الأرب (٢/ ١٩)، وغيرها كثير من المصادر المتنوعة.

أَضْواءٌ عَلىٰ مُقَدّمَـةِ وصَايا أُمَامَـةَ:

* لا شكَّ بأنَّ كلماتِ أمامة عقْدٌ مَنْظُومٌ، تزدانُ به المجالسُ، وتتحلّىٰ به أفواهُ مَنْ يَنْشُدُ السَّعادة منَ النِّساء، ولا ريب بأنَّ أمامة بنت الحارث قد خَبِرت الحياة وتجربة الزَّوجية، فصاغَتْ تجاربها بتلكم الوصايا النَّبيلة التي وعَتْها لنا أُذنُ الأيام الواعية، وحفظتها لنا كُتُب العرب ومجالسهم.

* لذلك أحببتُ أنْ ألقيَ بعضَ الأضواءِ الكاشفةِ **على** فقْراتِ هذه المرأةِ الفاضلةِ كي تترسَّخَ صورتها أكثرَ في الأذهان، وتُحْفَظَ وصاياها في قلوبِ الحِسان، بل وتُطَبَّقُ هذه الوصايا النِّساءُ في كلِّ عَصْرٍ وزَمَانٍ، لكونها صدرت عن أمّ حكيمة معروفة بالفصاحة وسَدادِ الرّأي، وروائع التَّربية، وحسن التَّبعُّل لزوجها.

* فمّما يدلُّ على ذكائها أنَّها اختارتْ مكانَ الوصيّة، إذِ انْفَردت بابنتها كيما يكونَ الحديثُ صريحاً لا مجاملةَ فيه ولا مواربة، ولا تأثير فيه لأحدٍ منْ أقاربها أو أترابها، كما هو معهودٌ في سائرِ الأَعْراسِ.

* واختارتْ أمامةُ زَمَنَ الوصيّة أيضاً، فكان قُبَيل أنْ تُحْمَل إلىٰ زوجها ملك كندة، وذلك لكي تبقىٰ آثارُ وصيّتها ماثلةً في ذهنِ ابنتها، وإذ ذاكَ لا تحيدُ ولا تريمُ عما قالته أمّها قُبَيْل وداعها وانطلاقها إلى عشِّ الزَّوجيّة.

* وإذا أمعنَّا النَّظر في مقدمةِ الوصية ألفينا تعقُّلَ هذه الأمِّ الواعيةِ الكريمةِ، إذ خاطبت ابنتها بلفظٍ يُدخلِ الأنْسَ إلى نَفْسها، وهو استخدامُ لفظ: «بُنَيْة»، والتَّصغيرُ وسيلةٌ منْ وسائل التَّحبّب إلىٰ النَّفس.

* وبعد هذه الكلمة المغناج اللطيفة، أبانَتْ لها الأُم بأنَّ الوصية مهمّة، وأنَّ جميعَ النِّساءِ بحاجة إليها، بل جميع النَّاس على اختلافِ ألوانِهم ومشاربهم ومنابتهم وأحوالِهم، حتى مع الذين أحْسَنَ أهلوهم تأديبهم وتربيتهم علىٰ صالح الأعمال، وكريم الخِلال، وأبانتِ الأم أنَّ الوصيةَ هذه تأتي من باب الذّكرى؛ فالذّكرىٰ تنفعُ، وكلُّ ذلك منْ بابِ الاستعانة بأهل العقل والحكمة والحياء، وإنَّه ما خابَ من استشار، ولا ندمَ من استخار أهلَ

العقلِ والحكمة، والأخلاّء من أهلِ الحزم والفطنة[1].

* وتأتي أمامةُ بعد هذا لتغرسَ في نَفْسِ ابنتها أهمية الزوجِ في حياةِ الزَّوجية، ومكانته في نفسها، وإن كانتِ الزَّوجةُ منَ الثَّراء والمكانةِ، وعرّجت أمامةُ على الفطرة الإلهيّة، وحسنِ استخدامها في حياةِ التَّبعُّل، وأبانتْ بأنَّ اللهَ قد جعَلَ من الحكمةِ في مخلوقاته أنْ خلقَ النِّساء للرجال ليكُنَّ سَكناً وأُنْساً لهم، وخلقَ كذلك الرِّجال للنساء ليكونوا لهنَّ عوناً على تقلّبات الأيّام.

* وطرحت أمامةُ حكمةً مهمّة جدّاً، وأوقفت ابنتها على حقيقة ظاهرة، وهي مفارقتُها البيتَ الذي دَرجَتْ فيه وعاشت صباها تحت أفيائِهِ، ومن ثمَّ انتقالُها إلىٰ البيتِ الذي سيكونُ مآلها ووكْرها، وهذا البيتُ مغايرٌ لبيتها الأوَّل بمن فيه وما فيه.

* ثمَّ بعد ذلك كلِّه أخذتِ الأمُّ تمهّدُ لابنتها السَّبيلَ القويمَ الوضيءَ للحياةِ الزَّوجية، وامتلاكِ ناصيةِ الزَّوج، ورسمت لها الخُطُواتِ الصَّحيحةَ في انقيادِ الزَّوج لها إذا ما سارت على النَّهج الآتي: فقد أمرتها أنْ تكونَ كالأَمَةِ المِطْواع عند سيّدها الشّجاع، وإذ ذاك يكون هذا الزّوجُ رهْنَ إشارتها مهما عَلَتْ مرتبته، ومَهْما عظُمَتْ شوكته، وتناهتْ خبرته، وفاحت شهرتُه، وامتدَّ سلطانُه، وكثر أعوانُه وخلاّنه وأخدانه وإخوانه.

وِقْفـاتٌ عَطِرَاتٌ مَعَ وصَايَـا أُمَامَـةَ:

* عندما أرادتْ أمامةُ بنتُ الحارث أنْ تهديَ وصَاياها الخالدة لابنتها أمِّ إياس قَبْل أن تُهدىٰ إلىٰ زوجها، وضَعتْ نصبَ عينيها عِقْداً فَريداً من خصائِصِ الغُررِ الواضحةِ في الحكمةِ، ودعَتْها إلىٰ حفْظِها وتطبيقها لَيلاً ونَهاراً، وسِرّاً وجهَاراً، وبكرةً وعشيّاً؛ وها نحنُ مرسلو القولَ في هذه

---

(١) ويحضرني قولُ الشّاعر في هذه المناسبة:

إذا مـا كنـتَ متّخـذاً خَليْـلاً ... فـلا تَثِقـنَّ بكـلّ أخـي إخـاء

فـإنْ خُيّـرتَ بينهـم فـالصـقْ ... بـأهـلِ العقـلِ منهـم والحيـاء

الخصائِصِ كيما نتعرفَ أسرارَ هذه الوصايا، وخفاياها، وكيفية الاستفادةِ والإفادةِ منها.

جَـاء في الوصيـّةِ الأُولى والثّانيـة:

* أنْ تخضعَ أمّ إياس خُضوعاً مناسباً لما يريدُ زوجها، وذلك عنْ قناعةٍ نابعةٍ من ذاتها، ومن قرارةِ نفسِها وحنايا فؤادها، وتنفيذ أوامره وعدم عصيانه، أو التّمرّد على أوامره.

* نَعَمْ لقد كانتِ المرأةُ في الجاهليّة تحترمُ الحياةَ الزّوجيّة، وكان يسرُّها أنْ ترىٰ زوجها سيّداً عزيزَ الجانبِ، ويؤلمها أن يذلَّ أو يُهانَ، فإنَّ عِزَّها مستمدٌّ من عزّه، وذُلُّها منوطٌ بمهانته.

* إنَّ بناتِنا وأخواتِنا في مَسيْسِ الحاجةِ إلى تَعَلُّم تلكم الخصْلَة المفيدة، وخصوصاً الفَتَيات اللواتي سيقدمْنَ على دخولِ الحياةِ الزَّوجية، فإنَّ أجملَ هدية يقدمنها للأزواجِ الحذرُ من الدُّخولِ في منازعاتٍ منذُ بداية حياتهن الزَّوجية، لأنَّ المُنافَساتِ والإعراضَ عن رغبَاتِ الأَزْواج المعقولة من أسبابِ تصدُّع بناء الزَّوجية الجديد، وإخلال بقاعدته الأولى، وأسسِ مقوماته، وأسرارِ بقائه دائماً ما دامتْ حياة الزَّوجَيْن قائمةً.

وفي الوصيـّةِ الثّالثـةِ والرَّابعـةِ:

* نشمُّ في هذهِ الوصيّة عبيرَ نسائِم الحياةِ السَّليمة التي تقومُ على الاعتناء بمحيطِ الزَّوجةِ، والعنايةِ التَّامّة بأمور النَّظافة والطَّهارةِ، فقد أكّدتْ أمامةُ على ابنتها أن تكونَ شديدةَ الحرصِ على بيتِ الزَّوجيّة من حيثُ الاهتمام بنظافتهِ صباحَ مساء، وترتيبه وتجميله، لأن البيتَ النَّظيفَ الذي قوامه التَّرتيب والطَّهارة والتَّنظيم يُدْخِلُ الطُّمأنينةَ والسَّعادة إلى نَفْس الزَّوج، وتجعله يعشقُ بيته، ولا يكاد يخرجُ منه حتّى يشتاقَ إلى العودةِ ليعيشَ فيه.

* وثمّة وصية مهمّة تزفُّها أمامةُ لابنتها وهي محور حياة المرأةِ مع زوجها، فقد أوحتْ لها أنْ تكونَ طيِّبة النَّشْر، نظيفة في ملابِسها، طاهرةً في جسمها، تحسنُ اختيارَ الطِّيْبِ والعِطْرِ عند مقابلةِ زوجها لتُدخِل السّرور

والمسرّات إلىٰ قلبه، فإنَّ الرجالَ يحبُّون زينةَ[1] المرأةِ بعدما يقضون عناءَ يومهم خارج بيوتهم.

* إنَّ من أسبابِ تقويضِ عروشِ الزَّوجيّة في كُلِّ زمانٍ عدمَ الاهتمام بالنَّظافة بنوعيها: نظافة المنزل؛ ونظافة الجسم، بل إنَّ كثيراتٍ منَ النِّساء المتزوّجات في عصرنا الحاضرِ، وحاضرِ عَصْرِنا يقابلن أزواجهن بملابسَ لا تليقُ باستقباله، إذ تستقبلُ الزَّوجةُ زوجَها بملابسِ المطبخ، وفيهِ ما فيهِ من روائحَ لا تُرضي بل تنفِّرُ أحياناً، وتهملُ نظافة منزلها، بل إن الأمْرَ لَيصِلُ ببعضهنَّ إلى الإهمالِ، وعدم الاكتراثِ بنظافة جسمها، ولعلّها لا تضعُ الطِّيْب وروائح العِطْر إلا عندما تودُّ أن تخرجَ من منزلها إلى بعضِ المناسباتِ أو الأعراس، أمّا الزّوجُ فهو محرومٌ منَ الزّينة أو منْ رائحةِ العطْرِ داخل منزله، وبالتّالي تفقدُ الحياة الزّوجية بريقَها[2]، وتصبحُ عَشْواء، ومن ثمّ

(١) عَرَفَتِ المرأةُ في عَصْر الجاهليّة بعضَ أساليب الزّينة: كالتخضّب بالحنّاءِ، والتكحّلِ بالإثمد، والتطيّبِ، واستعمالِ السّواك، والوشمِ، وهو نوعٌ منَ الزينة، وكانتِ الزينةُ مستحبّةً للمرأةِ إنْ كانت لزوجها، بل تُطالَب المرأة بذلك، فهذا طرفةُ بنُ العبد يصفُ يدَ فتاته، وقد ازدان وزيّنَه الوشم:

لِخَولةَ أطلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ ... تلوحُ كَباقِي الوشْم في ظَاهِرِ اليَدِ

والمرأةُ العربيةُ في الجاهلية لم تَعرفْ شيئاً يرضي زوجَها في زينَتها إلا فعلته، ولم تعرف شيئاً يضايقه إلا تركته.

ونحنُ إذ نرى أنَّ للعرب الحظَّ الأوفرَ منَ الشَّغف بالحُسن والاستحسان، وهذا يزيد من قدرهم في اعتقادنا، ونرى أنَّهم كانُوا في عهدهم ذلك من أرقىٰ الأجيال الرّاقية لبعدهم عن الزّخرف، وعدم تعلّقهم بكل أسبابِ الحضارة، فالحُسْنُ لا يُشترىٰ ولا يباع، وإنّما هو فطرةُ إلهيةٌ، وقد أشار المتنبي الشّاعر المشهور إلى هذه القضية فقال:

حُسْنِ الحضارة مجلوبٌ بتطرية ... وفي البَداوَة حُسْنٌ غيرُ مَجْلُوب

لذلك حظيتْ نساءُ القومِ قدماً عند أزواجهن في عدمِ التّبذل، وفي شِعْرِ القُدامى أدلّة كثيرةٌ على ذلك.

(٢) جاءَ في وصايا العرب إلى بناتِهم ما يشيرُ إلى فهمهم أصولَ الحياة، ومعرفتهم محاسنَ السَّعادة، من ذلك وصية عبد الله بن جعفر ـ رضي الله عنه ـ ابنته قائلاً: =

يسودُها الظَّلام، فقلّة الكَلامِ، فكثرة الخصامِ، فالفِرَاق إلى الأبد.

وفي الوصيّـة الخامِسَـةِ والسَّادسَـةِ:

* تطلعُ أمامةُ في وصيّتها هذه على ابنتِها بفائدتَيْنِ مهمّتين هما عصبُ الحياةِ اليوميّة لكلّ بيتٍ؛ الأولى: الحاجةُ للطَّعام؛ والثّانية: الحاجةُ للرَّاحَةِ. فإذا ما عرفَتِ المرأةُ مزاجَ زوجها في تناولِهِ طعامَه، وما يرغبُه، وما يعافُه، وحرصتْ على الوقتِ الذي يشتهي فيه الطَّعام، فذلك المنَى المطلوب الهانىء، وإذا هيّأت له فرصةً ليأخذَ قِسْطاً منَ الرَّاحَةِ، ويخلدَ إلى النّومِ، فذلك أيضاً يغرسُ الرَّاحة في هذا البيتِ، وكيف لا، والطَّعامُ والنّومُ من حاجاتِ النَّاس اليوميّة؟! بل لا حياة من دون هاتَيْن النَّاحِيتَيْن.

* إنَّ المرأةَ التي تَودُّ أنْ ترفرفَ السَّعادةُ على بيتها، تستطيعُ إرضاءَ زوجها بقليلِ عنَاء منها، فما إعدادُ الطَّعامِ إلا منْ مهامّها اليوميّة، ثمّ توفير الجو الملائم لراحته لا يحتاج منها إلا بعضَ التّدبير البسيط، وبذلك تكسبُ ودَّ زوجِها، وتأخذُ بمجامعِ قلبه ونفسه، وتجعله مُطمئناً إلىٰ عنايتها به.

أمّا الوصيّـةُ السَّابعـةُ والثَّامِنَـةُ:

* في هذهِ الوصيةِ تأكيدٌ من أمامةَ لابنتها لكي تُحْسِنَ التّصرّفَ بمال زوجها، وتنثرَ زَهْر الودِّ والمحبّة في عيالِه، وفي رعيتهِ وحشمهِ.

* فالمرأةُ ذاتُ مسؤوليّة خطيرةٍ في رعايةِ المال أمامَ اللهِ، وأمامَ الزَّوج، وذلك في حُسْنِ تصرّفها في إنفاقِ المالِ، وفي الطَّلبات التي تُوائم حياتها وصلاحها وصلاح الأسْرَةِ في عمل المعروفِ[1]، وذلك بما يتناسبُ ويناسبُ معيشته بما لا يشقُّ عليه ويرهقه ماليّاً واجتماعياً، وهذا يسبّبُ

= إياكِ والغيرة، فإنّها مفتاح الطلاق، وإياك وكثرة العتْب، فإنه يورث البغضاء، وعليك بالكُحل، فإنّه أزْينُ الزّينة، وأطيبُ الطِّيبِ الماء.

(١) ولله درُّ القائل:

فمـا المـالُ والأخـلاقُ إلا معـارة   فمـا استطعـت مـنْ معـروفِهـا فتـزوَّدِ

التَّنغيص في الحياة إذا لم تتداركه المرأةُ بحسنِ فطنتها، وكمالِ دُرْبتها، وكرامةِ أصلها.

* ثم إنَّ أمامةَ تثيرُ في نَفْسِ ابنتها أنْ تحرصَ علىٰ رعايةِ حشَمِهِ، وسلوكِ سبيلِ الهُدوء والأناةِ والحِلْم، وما أجملَ قول شاعرهم حاتم الطَّائي:

تحلَّمْ عَنِ الأَدنينَ واسْتَبْقِ ودَّهُم ولنَ تَسْتَطِيعَ الحِلْمَ حتى تَحلّما

* ومع رعايةِ الحشم تأخذُ أمامة بِيَدِ ابنتها إلىٰ تربيةِ الأولادِ علىٰ مكارمِ الأخلاقِ، ومحاسنِ الفضَائلِ، فإنَّ الولدَ مرآةُ الأهلِ، فإن فعلتْ ذلكَ حظيتْ بالسَّعادة، وذللتْ لها قُطوفُ الهناءِ في محيطِ أسرةِ الزَّوج.

الوصيّـةُ الأَخيْرةُ، وهي التَّاسِعَـةُ والعـاشرةُ:

* في هذهِ الوصيّة زبدةُ القَول، وسنام الوِفاق، وذِرْوة السَّعادة الزَّوجية، إذ حثَّتْ أمامةُ ابنتَها أمَّ إياس علىٰ موافقةِ زوجها موافقةً تامّةً، لأنَّ معارضةَ الزَّوجِ وعصيانه يسبب غضبه عليها، ويُبعد قلبه عن مودّتها، وقد لا تُحمد عاقبةَ عصيان الزَّوجة لزوجها، حيث إنَّ كرامةَ الزَّوجِ منوطةٌ بطاعةِ الزَّوجة، وإذ ذاك يكون بناء صرح الحياة الزّوجيّة على أساسٍ قويم.

* قال نبيُّ اللهِ سُليمانُ بنُ داود ـ عليهما السَّلام ـ: إنَّما تستحقُّ المدحَ المرأةُ الموافقة[1]؛ وقال أيضاً: المرأةُ العاقلةُ تبني بيتها، والسَّفيهةُ تهدمه[2].

* ومن أسرارِ وصايا أمامة القيّمة، والتي توثِّقُ عُرىٰ المحبّة بين الزَّوجَيْن: محافظةُ الزَّوجةِ على أسرارِ زوجها، وعدم نقلها أخباره للآخرين، وإن كانُوا منَ الأقارب، فإنَّ المحافظةَ علىٰ الأسرارِ والحفاظِ عليها، وخَزْن اللّسان دليلٌ علىٰ استمرارِ عُرىٰ المودّة بين الزَّوجين، والمرأةُ التي لا تستطيعُ أنْ تحفَظَ سِرَّ زوجها لا خيرَ فيها، وخصوصاً إذا أفشتِ السِّرَّ

(١) انظر: العقد الفريد (٦/ ٨٢ و٨٣).
(٢) المصدر السابق.

إلى أهلها[1]، وقد لا تأمنُ غَضَب زوجها، وقد توغرُ صَدْره عليها؛ وكذلك المرء الذي لا يستطيع أنْ يخزنَ لسانه، لن يستطيعَ أنْ يحفظَ سواه، كما قال الشَّاعر الجاهلي:

إِذَا المــرءُ لــم يخــزُنْ عَلَيْــهِ لسَــانــه
فليــسَ علــى شَــيءٍ سِــواهُ بخَــزَّانِ

* وقد عبَّر قيسُ بنُ الحطيم الشَّاعر الجاهلي الشَّهير عن خاصيّة حفْظ السِّرِّ، وحضَّ على كتمان الأسْرار فقال:

إذا جَـاوَزَ الاثنيـن سِـرٌّ فـإنَّـه ... بنَشْـرٍ وتكثيـرِ الحـديـثِ قميـنُ
وإنَّ ضَيَّـعَ الإخـوانُ سِـرّاً فـإنّنـي ... كتـومٌ لأسـرارِ العشيـر أميـنُ
يكـونُ لـه عنـدي إذا مـا ضمنْتُـه ... مَقَـرٌّ بسـوداءِ الفُـؤاد كفيـنُ

* إنَّ من حُسْنِ المعاشرة، وحُسْنِ تصرّف الزَّوجة وموافقتها لزوجها: الإقلالُ منَ الثَّرثرة، وعدمَ البوحِ بالأسرار، وقد امتدحَ العربُ هذه الصِّفة بهم وبنسائِهم، قالَ الأعشى:

---

(١) إنَّ بعضَ الزَّوجاتِ قد يقعْنَ في بدايةِ حياتهن الزَّوجية في شَرَكٍ رهيبٍ، وحُفَرٍ عميقة، وأخطاءٍ ذميمة، فلا تستطيعُ إحداهن أن تحفظَ شيئاً مما تسمعه من زوجها، بل تشيعه فوراً، وتنقلُه مباشرةً إلى أهلها على جميعِ الموجات، فقد تلجأ إلى الهاتِفِ، وتسارعُ لإيصالِ الخبر وإفشاءِ السِّرِ دون إبطاءٍ أو إهمال، وقد تهمل منَ الأمور ما يجعل بيتَها قاعاً صفصفاً، وهذا التّصرّف غير اللائق قد يكون من أسباب بثّ المشكلات في الحياةِ اليومية بين الزَّوجين، نظراً لتدخل أهل أحدهما في حياتهما، نتيجة نقل كلّ صغيرة وكبيرة إلى الأهل، وعدم صيانة الأسرار. هذا وإنّ كثيراً من حوادثِ الطَّلاق أو الخلاف في وقتنا الحاضر يرجعُ إلى ذلك، فالمرأة العاقلة هي التي تصون سِرّ زوجها لتكفل حياة السَّعادة.
وقديماً عاب الحطيئة الشَّاعر المخضرم المعروف المرأة التي لا تحفظ السِّرَّ، وهجاها هجاء سَاخراً، وعيّرها بهذه الخصلة الذَّميمة فقال:

تَنَحـيْ فـاجْلِسـي منّـي بَعيـداً ... أراحَ اللهُ منْـكِ العَـالمينـا
أَغِـربـالاً إذا استُـودعـتِ سـرّاً ... وكـانـونـاً علـىٰ المتحـدثينـا
حيـاتُـك مـا علمـتُ حيـاةَ سُـوء ... ومـوتُـك قـد يسـرُّ الصَّـالحينـا

لا سِـرّهُـنَّ لَـدينـا ضَـائِـعٌ مَـذِقٌ وكـاتِمـاتٌ إذا استُـودعْـنَ أَسْـرارا

وقال أيضاً:

لَيْسَت كمَنْ يكْرهُ الجِيْران طَلْعَتَها ولا تَـراهـا لِسـرِّ الجـارِ تَخْتَتِـلُ

* وتبدو أمامةُ وهي في شَوطِها الأخير منَ الوصايا لابنتها، تسعىٰ بين معنيَيْن لطيفَيْن، إلا أنّهما في غاية الأهميّة، وفي غاية سَبْر أغوار النَّفس ومعرفةِ أسرارها، فكأنّها طبيبةٌ اختصاصيةٌ بالنّفوس وأمراضها، فقد لفتَتْ نظرَ ابنتها ـ أمّ إياس ـ إلىٰ مظهر نفسي في غايةِ الدِّقة، إذ تحذّرها من إظهارِ المشاعر المغايرة لمشاعر زوجها، لما يسبّبُ ذلك من ضيقٍ وتذمُّرٍ في نَفْس الزَّوج، ويعكسُ عدمَ المشاركةِ في مشاعرهِ مقاصد الحياة فتَسوء الحياةُ الزّوجيّة.

* والحقيقةُ فهذه لفتةٌ رائعةٌ من هذه الأمّ الحكيمة التي خَبرتِ الدَّاءَ فعرفتِ الدَّواء، لذا فيجبُ على كلِّ زوجةٍ أنْ تنتبه إلىٰ هذه النَّاحية الطَّيّبة التي تساعدُ وتعضدُ الحياة الزَّوجية، وتشدُّ أزرَها، وتجعلُها متماسكة كالبنيانِ المرصوص، وخصوصاً عندما تُؤْثِرُ الزَّوجة رضاءَ زوجها علىٰ رضاها، وهواهُ علىٰ هواها(١)، وعند إذْ ترنُو إلىٰ ما تحبُّ، وتُكْتَبُ لها السَّعادة، واللهُ ـ قبل وبعد ـ هو الموفق.

* وبعد ـ عزيزي القَارىء ـ فهذه أمامةُ بنتُ الحارث إحدىٰ نِسَاء العرب الفاضلاتِ اللواتي نُظمْنَ في عِقْدِ نساءِ التَّاريخ، فقد كانت وصاياها نِعْمَ رفيق لمن سَلك طريق التّوفيق، ويمكن أنْ نجملَ وصاياها بقول القائل:

فَمَـــنْ تخلَّـــقَ بـــالآداب ظَـــلَّ بِهَـــا رئيـــسَ قَـــوم إذَا مَـــا فَـــارَقَ الـــرُّؤسَـــا

* وعندما قرأَ الكمالُ المقدسيُّ وصايا أمَامةَ لابنتها قال: للهِ ما أَحْسَنَها

---

(١) ويكونُ ذلك بحسنِ المعاشرة، واللين في المعاملةِ، والرفقِ واللطفِ بالزّوجِ، قال النَّابغة الذّبياني:

فـالـرفـقُ يمْـنٌ والأنـاةُ سَعَـادةٌ فتـأَنَّ فـي رفْـقٍ تَنَـلْ نجـاحَـا

(سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٤٥ ـ ٤٥١).

من وصيّة جامعةٍ لكلِّ أسباب الهناء والرَّخاء، والسَّعادة بين الزَّوجين، لو عَملا بها ما حصلَ خلاف علىٰ وجْهِ الأرض أصلاً.

* أخيراً، هل تعمل النِّساء بوصايا أُمامة؟! وهل تقتدي نساؤنا بفواضلِ نساء التَّاريخ ليكُنَّ ممن يحفظهنَّ التَّاريخ، وتخلدهن ذاكرةُ الأيّام؟.

* * *



٣

أمّ البنين بنت عبد العزيز


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



في رحَــابِ الطُّهْرِ والصَّــلاحِ:

* إذا ذُكِرتِ الفضلياتُ منَ النِّساءِ في قصورِ الخلفاء، فضيفتُنا واحدةٌ ممّن عُرِفْنَ بالطُّهر والصَّلاح والفضْلِ، فقد كانتْ صالحةً كريمةً تحبُّ الخيرات.

* كانت ميمونةَ النَّقيبةِ، حسنةَ الرَّأي، رائقة الحديثِ، جيدةَ المُذاكرة، نديةَ الكفِّ، رضية النَّفسِ، كريمةَ الأعراقِ، نزيهةَ الأخلاقِ، جمعتْ إلى شرفِ المحتد كمالَ العِلْم، وجمالَ العبادة.

* وهي إلى جانبِ ذلك كُلِّه، كان يكتنفُها عددٌ منَ الخلفاءِ الذين حكمُوا الدّنيا في عصرهم، وفتحوا معظمَ البلدان.

فعمّها: عبدُ الملك بنُ مروان الخليفة الأموي الشّهير الذي عدَّه أبو الزِّناد[1] أحدَ فقهاءِ الإسلام، حيث عدَّه في الفقْه في طبقةِ سعيد بن المسيّب التّابعي الشّهير. وقال عنه نافِع[2]: لقد رأيتُ أهلَ المدينة، وما بها من شاب أشدّ تشميراً، ولا أفْقَه، ولا أنْسَك، ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك. وَلِيَ الخلافة منْ صلبه أربعة هم: الوليد، سُليمان، هشام، يزيد.

* وأبوهاَ: عبدُ العزيزِ بن مروان، كان منْ خيارِ الأُمراء، وكان كريماً، جَواداً، ممدحاً، ولي مصر عشرين سنَة، روىٰ عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ وروى كذلك عن غيره. وهو والد عمرَ بنِ عبد العزيز الخليفة

---

(١) أبو الزّناد: عبدُ الله بن ذكوان، إمامٌ، حافظ، كان فقيهاً أحدَ علماءِ المدينة، لقي عبد الله بن جعفر وأنساً ـ رضي الله عنهما ـ مات في رمضان سنة (١٣١ هـ) وعمره (٦٦ سنة) ـ رحمه الله ـ.
(سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٤٥ ـ ٤٥١).

(٢) نافع: مولى عبد الله بن عمر بن الخطّاب، الإمامُ الثّبتُ المفتي، عالمُ المدينة المنوّرة في عصره، كان من جلّة التّابعين، توفي سنة (١١٧هـ). (سير أعلام النبلاء ٥/ ٩٥ ـ ١٠١).

المشهور، فقد ورَدَ أنَّ عبدَ العزيز قد بعثَ ابنه عمراً من مصرَ إلى المدينة فتفقّه حتى بلغَ رتبة الاجتهاد، وقد اكتسى عمر أخلاقَ أبيه، وزادَ عليه أموراً كثيرة جعلتْه من نُبلاء الأعلام وأعلام النّبلاء.

* وأخوها: الخليفةُ العادِل، أميرُ المؤمنين، أبو حفص عمرُ بنُ عبد العزيز بن مروان الأمويّ، وعمر هذا كالقَمر، فهل يخفى القمر؟! فعمر هو الإمامُ الحافظُ، العلامةُ المجتهدُ، الزّاهدُ العابدُ، السَّيّد أميرُ المؤمنين حقّاً، ومن أولياءِ الله المتّقين؛ وجدّه لأُمِّهِ عاصمُ بنُ عمر بن الخطّاب، ففي عمر بن عبد العزيز نفحة عُمرية، بل نفحاتٌ عمرية ندية مندّاة برحيق عَطِرٍ زكي زاكي الأريج، كان فاضلاً حليماً رقيقَ الطَّبع، حَفِظَ القرآن الكريم في صغره، ومناقبُه شهيرةٌ، وحسنُ سيرته الحسناء، وأوصافه الجميلة قد ملأتِ الوجودَ شهرةً. توفي يوم الجمعة لخمسٍ بقين من رجب سنة (١٠١ هـ) بدير سمعان من أرض حمص الشَّام.

* وزوجةُ أخيها عمر، هي ابنة عمّها فاطمةُ بنتُ عبد الملك، إحدىٰ فرائد الدهر علماً وأدباً وشرفاً وديناً، وصيانةً وشهرةً، فقد كانت رايات المجد ترفرفُ من فوقها، وتخفقُ أرديةُ المكارم أمامَها وعن يمينها وشمالها، فقد كان اثنا عشر رجلاً من محارمها خلفاء؛ وهم: أبوها عبد الملك، وجدّها مروان، وزوجها عمر، وإخوتها الوليد وسُليمان وهشام ويزيد، وكذلك أبناء إخوتها كانوا خُلفاء؛ وقد سجَّلَتْ فاطمةُ هذه آثاراً رائعةً في تاريخ النِّساء عبْر تاريخهن الوضيء.

* أمّا زوجها: فهو الوليدُ بن عبد الملك، فهل أتاك نبأ الوليد؟ كان نَقْش خاتمه: أُومِنُ بالله مِخلصاً، وكان آخر ما تكلم به: سبحانَ الله، والحمدُ لله ولا إله إلا الله[1].

* بنىٰ الجامعَ الأموي فلم يكنْ له في الدُّنيا نظير، وبنى صخرة بيت

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٩/ ١٦٢)، ونهاية الأرب (٢١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٨).

المقدس عَقَد عليها القبّة، وبنى مسجد النّبيّ ﷺ ووسّعه[1].

* كان كثيرَ التّلاوة للقُرآن العظيم، يختمُ في ثلاثٍ، وكان يختمُ في رمضانَ سَبْعَ عشْرةَ ختمة، وطابَ حالُه في دنياه، ورُزِقَ سعادةً عظيمةً مع جانبِ الدِّين، فبنى جامعَ دمشق، وافتتح الهند، والتّرك، والأندلس، وتصدّق كثيراً[2]، توفي في جمادى الآخرة سنة (٩٦ هـ).

* وأمّا ضيفةُ رحلتنا فهي أمُّ البنين بنتُ عبد العزيز بن مروان الأمويّة القرشيّة[3]، أختُ عمر بن عبد العزيز، وزوجُ الوليد بن عبد الملك، وإحدىٰ فقيهات النّساء في القَرن الهجري الأوّل، بل إحدىٰ العابداتِ الحافظاتِ العَالِماتِ المحدّثاتِ الطّاهراتِ الفصيحاتِ الحكيماتِ ذواتِ الرّأي والحزمِ والجودِ والسّخاءِ، ومع وُجُود هذه الصِّفات الحميدة المُثلى، فقد حاولَ بعضَ العابثين أن يسيءَ إلى سيرتها ـ كما سنرى بإذن الله ـ.

* كان مولدُ أمّ البنين في المدينةِ المنوّرة، وكان مولدُها على الأغلب

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٦٥).

(٢) قال إبراهيم بن أبي عبلة: كان الوليد يختم القُرآن في رمضان سبع عشرة ختمة.
وقال أيضاً: رحم اللهُ الوليد، وأين مثل الوليد؟ فتح الهند والسِّند والأندلس وغيرها، وبنى مسجد النبي ﷺ ووسعه، وبنى مسجد دمشق، وكان يعطيني قطع الفضة أقسمها على قراء بيت المقدس.

(٣) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٤٨٠ وما بعدها)، وانظر: نسب قريش (ص١٦٥ و١٦٨)، ومروج الذهب (٣/ ١٩٤ ـ ١٩٦)، ووفيات الأعيان (٢/ ٤٤ ـ ٤٦) و(٤/ ١٠٨)، وأعلام النساء (١/ ١٥٠ ـ ١٥٤)، والفَرجَ بعد الشدة (٤/ ٢٨٢ ـ ٢٨٥)، والأخبار الموفقيات (ص٤٧٦ ـ ٤٧٩)، وتهذيب تاريخ ابن عساكر (٧/ ٢٩٨)، والروضة الفيحاء (ص٢٦١ و٢٦٢)، وبلاغات النساء (ص١٢٤ و١٢٥)، والشعراء والشعراء (١/ ٥١٠)، والأغاني (٦/ ٢٠٩ ـ ٢٤١). وزهر الآداب (١/ ٢٤٤ و٢٤٥) بتحقيق علي محمد البجاوي، والعقد الفريد (٥/ ٣٦ و١٥٩ و٢٢٧) و(٧/ ١٣٤) بتحقيق محمد سعيد العريان، وصفة الصفوة (٤/ ٢٩٨ ـ ٤٠٠) وصفة جزيرة العرب للهمذاني (ص٣٢٣ ـ ٣٢٥)، ونوادر المخطوطات (٢/ ٢٧٣)، وغيرها كثير جداً.

بُعَيد منتصفِ القرن الهجري الأوّل بقليل، ولا نعرفُ بالتّحديد من هي أمّها، إلا أنَّ أغلبَ الذين ترجموا لها من القدامى بقولهم: أمّ البنين أختُ عمر بن عبد العزيز، وأغلب الظّن عندي أنَّ أمَّ البنين هذه تنضحُ بنفحةٍ عُمَرية، وكانت أيضاً على سيرةِ أخيها عمر في الصَّلاح والخيرات.

* وكانَ لأُمِّ البنين عدّة إخوة، وهم: عمر، عاصم، أبو بكر، محمّد، الأصبغ، وسُهيل؛ ولها عدّة أخوات بنات، وهُن: أم محمّد، وأمّ سُهيل، وأمّ عثمان، وأمّ الحكم، وهؤلاء من أمّهات شتّى[1]. ومن الجديرِ بالذّكر أنَّه لم يحلِّق في سماءِ الشّهرة من أولادِ عبد العزيز بن مروان غير أمّ البنين[2] وعمر ـ رحمهما الله ـ.

* ومن جوانبِ سيرة أمّ البنين أنّها تزوّجتْ ابنَ عمها الوليد بن عبد الملك، فقد حجَّ الوليد مرّةً، وزارَ المدينةَ المنورة، فبلغه جمالُ أمّ البنين، وأدبُها، وعلمُها، فَخَطَبها من عمّه، وتزوّجها ونقلَها معه إلى الشَّام، وهي أمّ أولاده: عبد العزيز، ومحمّد، وعائشة[3].

العَابـدَةُ العَالِمَـةُ الفَقيْهَـةُ:

* على مائدةِ العلمُ تغذّت أمُّ البنين بنت عبد العزيز، ودرجت على منابتِ الثَّقافة الإسلامية، فقرأتِ القُرآنِ الكريم وهي في سنِّ الزَّهْر، وحفظت شيئاً جمّاً منَ الأحاديث النّبوية وهي في عمر الوَرْدِ، وروتْه عن أهله، وهذا ليس

---

(١) البدايةُ والنهايةُ (٩/ ٥٨).

(٢) لِمَ كان العربُ يسمون بناتهم أمّ البنين؟!
يكون الذكور فخراً للأمهات، وقوة لهنّ، ويُقال للمرأةِ التي تلدُ الأولاد الكرماء الأشراف: منجبة، ومنجاب، ولم تكنِ العربُ تَعُدُّ منجبةً مَنْ لها أقل من ثلاثة بنين أشراف، وتعرف بـ (أم البنين) كذلك. ومن الصَّحابيات النّجيبات المنجبات: أمّ الفضل زوج العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنها وعنه ـ وأسماءُ بنت عميس ـ رضي الله عنها ـ وللمزيد من أخبار هؤلاء اقرأ كتابنا «نساء من عصر النبوة» في جزأيه، ففيه أشياء طيبة مباركة بإذن الله.

(٣) نسب قريش (ص١٦٥)، وتاريخ دمشق (تراجم النساء ٤٨٠).

بغريبٍ، لأنَّ المدينة المنورة كانت عَصْر ذاك مؤئلَ العِلْم والعُلماء ومجمع الرُّواة والفُضلاء، ومركزَ كلّ فضيلة، وعاصمةَ الفقْهِ والرّوايةِ والتَّفْسيرِ والأدب وجميع العلوم؛ وقد نشأتْ في عَصْر أمّ البنين طبقةٌ ممتازةٌ من النّساء اللواتي أَثْرْنَ إعجاب علماء الدّنيا في عَصْرهن وباقي العصور، وأَثَّرْنَ في العِلْمِ وأثْرَيْن المعرفة، وتركْنَ آثاراً مباركة في عالم الرّواية المباركة لأحاديثِ المُصْطفَى ﷺ.

* ولقد أتقنتْ أمُّ البنين ـ رحمها الله ـ معارفَ عصرها، فقد أخذتْ أصولَ العِلْم عن جِلّة العُلماء وأكابر التّابعين، ومن ثم تصدّت للحديثِ والرّواية عندما انتقلتْ إلى الشَّام مع زوجها الوليد، وهناك راحت تنقلُ ما حفظته لأكابر عُلماء الشَّام، وتخرَّج في مدرستها عددٌ من علماء العصر آنذاك.

* وقد شهد لأمّ البنين بالعِلْم والرواية الإمامُ الحافظُ، العَلَمُ، الثَّبْتُ، أبو زُرعة عبد الرحمن بن عمرو النّضري الدمشقي محدّث الشّام في زمانه والمُتوفى سنة (٢٨١ هـ)، وذكر في طبقاتِه جماعةً من النّسوة اللواتي حَدثن بالشّام، وذكر منهن أمّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان الأمويّة، وهي فيمن حدَّث بالشّام منَ النِّساء اللواتي كُنَّ يتقن الرِّواية ونَقْل الحديث النبوي الشَّريف، وقال: أمُّ البنين ابنةُ عبد العزيز بن مروان، وروى عنها ابنُ أبي عبلة[1].

---

(١) إبراهيمُ بنُ أبي عبلة، واسم أبي عبلة: شِمرُ بن يقظان بن عبد الله الشّامي التّابعي، كنيته: أبو إسماعيل، منْ رجالِ الحديث الثّقات، روى عن عددٍ من الصَّحابة وجلة التّابعين، كان ثقةً، صدوقاً، فصيحاً، فاضلاً، ونقل ابنُ حجر عن ابن عبد البر في «التمهيد» أنَّ ابنَ أبي عبلة كان ثقة فاضلاً، له أدبٌ ومعرفةٌ، وكان يقولُ الشّعر الحسن. ووثّقه علي بنُ المديني فقال: كان أحدَ الثّقات.

وقال أكابرُ أهل الحديث من مثل: يحيى بن معين، ويعقوب بن سفيان، والنّسائي: كان ابنُ أبي عبلة ثقةً، كما أثنى عليه إمامُ المحدثين وأميرهم البخاري، وأثنى عليه الدارقطني والذّهلي وضمرة بن ربيعة وغيرهم من جلة العلماء. توفي ابن أبي عبلة سنة (١٥٢هـ) ـ رحمه الله ـ. (تهذيب التهذيب ١/ ١٦٢ و١٦٣) طبعة دار الفكر الأولى.

* وأثنىَ على أمِّ البنين، وشهدَ لها بمعرفةِ الحديث الإمامُ الحافظُ الكبيرُ أبو نَصْر علي بن هبة اللهِ بنِ ماكولا النَّسَّابة صاحب التَّصانيف، المولود في شعبان سنة (٤٢١ هـ) والمتوفى في سنةِ (٤٨٧ هـ) حيثُ ذكرها في كتابه الشّهير «الإكْمَال»[١] فيمن حدَّث ورُوِي عَنْه فقال: أمُّ البنين[٢] بنتُ عبد العزيز بن مروان أختُ عمر بن عبد العزيز، روى عنها إبراهيم بن أبي عَبْلة[٣].

* وتفصحُ سيرةُ أمِّ البنين عن أنَّها قد تفقّهتْ، وعرفتِ الحلالَ والحرام، واغتنمتْ أوقاتها في اقتناصِ دُرر العِلْم، وشواردِ الفقْه، وزَهْر الآداب، وحُلَى المعارف والأخبار.

---

(١) قال ابنُ خلكان ـ رحمه الله ـ: للأميرِ أبي نصر بن ماكولا كتابَ الإكمال، وهو في غايةِ الإفادة في رفع الالتباس، والضّبط، والتَّقييد، وعليه اعتمدَ المحدثون وأرباب هذا الشّأن، فإنّه لم يُوضع مثله ـ أي: في المؤتلف والمختلف ومشتبه النّسب ـ وهو في غاية الإحسان، وما يحتاج الأمير المذكور مع هذا الكتاب إلى فضيلة أخرى، ففيه دلالة كبيرةٌ على كثرةِ اطلاعه وضبطه وإتقانه (وفيات الأعيان ٣/ ٣٠٥).

(٢) ذكر ابنُ ماكولا ـ رحمه الله ـ عدداً من النّساء، وكلُّ واحدة منهن اسمها «أمّ البنين» وهنّ ستُّ نساء:
أمُّ البنين بنتُ حزام بن خالد، تزوجّها علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فولدت له العبّاس وإخوته: عثمان، وجعفراً، وعبد الله.
وأمَّ البنين بنتُ الصَّعب بن منقذ، روت عن أبيها، وروت عن سلامة بنت عمرو القيسية.
وأمُّ البنين بنتُ عبد العزيز بن مروان أخت عمر بن عبد العزيز، روى عنها إبراهيم بن أبي عبلة.
وأمُّ البنين ابنةُ عياض الأسلمية، روت عنها قسيمة بنت عياض.
وأمُّ البنين بنتُ عيينة بن حصن الفزاري، زوجة عثمان ـ رضي الله عنه ـ.
وأمُّ البنين بنتُ عمرو ذي الحبرين بن ربيعة. (الإكمال ١/ ٥١٨ و٥١٩).

(٣) انظر: الإكمال (١/ ٥١٨) طبعة دار الكُتب العلمية عام (١٤١١هـ).

* هذا ولم تُغْرِها السُّرُرُ المرفوعة، ولا النَّمارقُ المصفوفة، ولا الزَّرابيُّ المبثوثة في قصرِ زوجها الوليد بن عبد الملك، وإنّما كانت تُغْرِها العبادةُ والوقوفُ بين يدي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فكانت كثيرةَ الصَّلاة، تستغرقُ كثيراً في مناجاةِ اللهِ تعالى، وتستشعر عظمته، فكانت إذا ما قامتْ إلى الصَّلاة تلاشتِ الصُّورُ كلُّها من ذهنها، وتلاشىٰ عندها كلّ ما حَولها، ومَنْ عندها، فلا تَعُدْ تنتبهُ إلى أحَدٍ، لأنَّ لَذَّةَ المُناجاة عندها لا تُدانيها لذّة.

* حدَّثَ سعيد بنُ مسلمة بن هشامِ الأمويّ قال: كانت أمُّ البنين ابنة عبد العزيز بن مروان تبعثُ إلى نسائها فيجتمعن ويتحدثن عندها، وهي قائمةٌ تصلّي، ثم تنصرفُ إليهن فتقول: أحبُّ حديثكن، فإذا قمتُ في صلاتي، لهوتُ عنكن ونسيتكن[1].

* وكانت أمُّ البنين ـ رحمها الله ـ منَ الذّاكرينَ اللهَ كثيراً والذّاكرات، تستحضر مهابةَ الله، وتستشعرُ عظمته في نفسها دائماً، وتتعاهدُ كتابَهُ الكريم في العشي والإبكار، وتتحلّى بسماعِه وقراءتِه، وحفظِه ودراسته، ومراجعتِهِ ومذاكرتهِ، حتى غَدتْ ممن عُرِفْنَ بالورع والخوفِ من الله، فكان إذا مرَّتْ بها آيةٌ أو سمعتْ آيةً شعرتْ بالخشية تَسْري في حَنايا قَلْبها المُفْعَم بذكْر الله، لذلك كانت كثيراً ما تردد قولتها المَشهورة: ما تحلّى المتحلّون بشيءٍ أحسن عليهم من عِظَمِ مهابة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في صدورهم[2].

* ولعلَّ العبادةَ قد أثَّرتْ في أمِّ البنين إلى حدٍّ بعيد، فأثْرَتْ سيرتَها بمواقفَ رائعةٍ، فواحةٍ بالنَّدى والفَضْل، فكانت تسمعُ وترىٰ فتوحَ البُلدان والأمصار على يَدِ زوجها، فعَظُم الجِهادُ في عينها، وعظُمت مكانتَه في قلبِها، فإذا بها تدلي دلوها في إعزازِ المجاهدين ومساعدتهم بكلّ سبيل، وتجعل أموالَها في سبيلِ الله لتحظىٰ بجزءٍ من شرفِ الجهاد، فكانت تنفقُ علىٰ المجاهدين، وعلىٰ المُرابطين في سبيلِ الله، فكانت في كلِّ أسبوع

---

(١) انظر: صفة الصفوة (٤/ ٢٩٩).

(٢) صفة الصفوة (٤/ ٣٠٠).

تشتري فَرَساً وتعطيه فارساً كيما يجاهدُ في سبيل الله ـ عزَّ وجلَّ [1]ـ لتكونَ كلمةُ الله هي العليا، وكلمةُ الذين كفروا السُّفْلى.

* وتضيفُ أمُّ البنين إلىٰ رصيدها في مجالِ العبادة والتّقرب إلى اللهِ إعتاق الرّقاب، ولئن كانت تساهمُ في الجهاد، فقد كانت تعتقُ في كلِّ جُمُعةٍ رقبة، وتُعطي مَنْ أعتقَتْه شيئاً من مالها ليكون حُرّاً يقدِّمُ المفيدَ لما فيه خير لنفسه وللمجتمع الإسلاميّ.

وَرَعَهُا وقصّتُهَا مَعَ مُحمّد بن يُوسُفَ الثَّقَفِي:

* بلغتْ أمُّ البنين ـ رحمها الله ـ مرتبةً عاليةً في مجالِ الوَرَعِ، ومراقبةِ النَّفس، والخوفِ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والتَّقوى في الأمور كلِّها، فقد كانت تنظرُ إلى وُلاةِ الأمصار نظرةً فاحصةً، وتتسقّطُ أخبارهم ممّن كانوا يَفِدُون علىٰ دارِ الخلافة في دمشقَ الشّام، لذلك كان لها بعضُ الآراءِ الكاشفةِ لأحوالِ الرّجال، فكانت تتحرّى ما يقدّمونه منْ هدايا يبتغون بها عرضَ الحياة الدُّنيا وزخرفها المائِل، أو رضا زوجها الوليد بن عبد الملك ـ وإنْ ظلمُوا وساموا النّاس سُوءَ العذاب ـ ولذا فإنّها كانت ترفضُ بشدّةٍ وحزمٍ كلَّ هدية تأتيها من مكان فيه مجال للظّنِّ، أو من مالٍ أُخِذَ بسيفِ الحياء، أو اغتُصِبَ من قِبَلِ الولاة والأُمراء.

* ولأُمِّ البنين قصّةٌ رائعةٌ في هذا المجال تشيرُ إلى عِظَمِ وَرَعِها، ونُبْلِ زهدها، وتدلُّ على عُلوّ همتها، كما تؤكّدُ على طيبِ عِرقها، وحسنِ منبتها، وكمال تحريها للحلالِ والبعد عن الحرام.

* وهذه القصّة حَدَثَتْ مع محمّد بنِ يوسف الثّقفي أخي الحجّاج بن يوسف؛ فقد كان محمّد بنُ يوسف هذا والياً على اليمن، وكانت سيرتُه غيرَ محمودة في النّاس. وقد وصَفَه أحدُ أهل اليمن عندما كان في أداءِ فريضة الحجّ، فاستدعاه الحجّاجُ بمكةَ وسأله: كيف خَلَّفْتَ محمّد بنَ يوسف؟! يعني: أخاه! ـ وكان عامِله على اليمن ـ.

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٢٩٩).

فقال الرّجل: خلفتُه عظيماً جسيماً خرّاجاً ولاّجاً.

قال الحجاجُ: ليسَ عن هذا سألْتُك، كيف خلّفْتَ سيرته في النّاس؟

قال اليمني: خلفتُه ظلوماً، غشُوماً، عاصياً للخالق مُطيعاً للمخلوق[1]!.

* أمّا قصّة أمِّ البنين مع محمّد بنِ يوسف الثّقفي، فقد أوردها أميرُ المؤرخين محمّد بن جرير الطّبري في تأريخه النّفيس[2]، وأشارَ إلى ورعِ أمّ البنين وتحرّيها أخبار محمّد بن يوسف وظلمه فقال ما مفاده: حجَّ الوليدُ بن عبد الملك في إحدىٰ سِني خلافته، وحجَّ في تلك السَّنَة منَ اليمنِ محمد بن يوسف الثّقفي؛ وكان محمّد بن يُوسف قد عَلِم بحجّ الوليد، فحمل معه من طرائفِ اليمن وتحفها أشياءَ كثيرة، وقدّمها هدايا للخليفةِ الوليد بنِ عبد الملك.

* ولما فرغَ النَّاسُ من مناسكِ الحجّ جاءَ الولاةُ والأمراء، وسلموا علىٰ الوليد، وكان محمّد بنُ يوسف ممن قدم للسَّلام وتقديم الهدايا، وعلمت أمُّ البنين بذلك، فقالت لزوجها الوليد: يا أميرَ المؤمنين! أودُّ لو تجعل لي هدية محمّد بن يوسف الثّقفي، فإني أحبُّ هدايا اليمن.

فقال الوليد: حبّاً وكرامة يا بنة العمّ! ثم أمَرَ بأنْ تُساق الهدية إلى زوجهِ أمِّ البنين، وجعلَ لها حرية التَّصرف فيها. وانطلقتْ رسُل أمّ البنين إلىٰ محمد بنِ يوسف كي يأتوا بالهدية، ولكنَّ محمدَ بنَ يوسف أبىٰ ذلك، وقال لهم: لن أرسلَها حتى ينظرَ فيها أميرُ المؤمنين، ويرىٰ رأيه فيها ـ وكانت هدايا كثيرة ـ.

وأخبر الرُّسلُ أمَّ البنين بمقولةِ محمّد بنِ يوسف، فدخلت علىٰ زوجها وقالت له: يا أمير المؤمنين، لقد أمرتَ بهدايا محمد بن يوسف أن تُساقَ إليَّ، وإنّي أصدقك القول بأنّه لا حاجة لي بهداياه.

---

(١) انظر: العقد الفريد (٤/ ٧) بتحقيق: محمد سعيد العريان، بتصرف يسير جداً.

(٢) أي: كتابه: «تاريخ الأمم والملوك» المشهور: بتاريخ الطبري.

فقال الوليد متعجباً: وَلِمَ يا أمّ البنين، أَلَمْ تطلبي ذلك؟!

قالت: يا أميرَ المؤمنين قد بلغني أنَّ محمد بنَ يوسف قد غصبَها النَّاس في اليمن، وقد كلَّفهم ما لا يطيقون، وظلَمهم وأرغمهم عَمَلها، ومَنْ خالفه أنزلَ به أليمَ العقاب.

* وحمل محمّد بنُ يوسف الهدايا إلى الوليدِ لينظرها، فطلبه الوليدُ وقال له: يابن يوسف، قد بلغني أنَّك أصبْتَ الهدايا غصباً وظلماً.

قال: معاذَ الله! يا أمير المؤمنين ما أصبتُها إلا من طيِّب.

فأمَر الوليد، فاستُحْلِف محمد بنُ يوسف بين الرّكنِ والمقام خمسين يميناً بالله أنَّه ما غصبَ أحدٌ شيئاً منها، ولا ظلم أحداً، وأنَّه ما أصابها إلا منْ طيّب، ومن حلال. فحلفَ محمد بن يوسف بين الرُّكن والمقام؛ وعند ذلك قَبلَ الوليدُ الهدية، ومن ثم دفعها إلى أمّ البنين، ولكنَّ محمد بنَ يوسف لم تَطُلْ به الحياةُ بعدها، فماتَ في رجب سنة (٩١ هـ) أصابه داءٌ شديدٌ تقطَّع منه(١).

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٤/ ٣٠) بتصرف، طبعة دار الكتب العلمية الثانية (١٤٠٨هـ).

ومن المفيد هنا أن نشيرَ إلى أنَّ الحجاجَ بنَ يوسف قد ماتَ ابنه صباح يوم الجمعة من سنة (٩١هـ) ولما كان بالعشي أتاه بريدٌ من اليمن بوفاة أخيه محمد، ففرحَ أهلُ العراق وقالوا: انقطعَ ظهرُ الحجّاج وهيْضَ جناحه، فخرج فصَعِدَ المنبر، ثم خطبَ النَّاس خطبة منها قوله: أيّها النّاس محمّدان في يوم واحد! أمَا واللهِ ما كنتُ أحبُّ أنهما معي في الحياة الدنيا لما أرجو من ثَواب الله لهما في الآخرة... ثم تمثّل بهذين البيتين:

عَزَائي نبيُّ الله مِنْ كلِّ ميّتٍ ... وحَسْبي ثواب اللهِ منْ كُلِّ هالِك

إذا مَا لقيتُ اللهَ عنّي راضياً ... فإنَّ سرورَ النفسِ فيما هنالك

ثم نزل، وأذِنَ للنّاس فدخلوا عليه يعزّونه، ودخل الفرزدقُ، فقال له الحجاج: يا فرزدق، أما رثيتَ محمداً ومحمداً؟ قال: نعم أيها الأمير، وأنشده:

إنَّ الرَّزيةَ لا رزيّةَ مثلها ... فقْدانُ مثلِ محمدٍ ومحمدِ

مَلِكان قد خلتِ المنابرُ منهما ... أخذَ الحِمامُ عليهما بالمرصدِ=

قصَّتُـهَا مَعَ الحَجَّـاجِ بن يُـوسُفَ:

* يبدو أنَّ أمَّ البنين ـ رحمها الله ـ كانت لا ترتاحُ إلىٰ أبناء يوسُف الثَّقفي، فقد رأينا موقفها مع ابنِهِ محمّد بن يوسف، والآن سنتعرّف قصّتها مع أخيهِ الحجّاج الذي حجَّتْه بقوّة حجّتِها، واستطالتْ عليه ببلاغتها وبيانها.

* إنَّ الذي يقرأُ سيرةَ هذه الفاضلة، يطّلِعُ على ألوانٍ وضيئةٍ من بلاغتها التي تسْحَرُ الألباب، كما يتعرّفُ بعضَ جوانِب الفصاحةِ وفَصْل الخطاب، فهي امرأةٌ من نوعٍ فريد تمتلكُ ناصيةَ البيان، وغرّةَ البلاغةِ، وقوةَ الإقناع، وجمالَ الحجة، ولا غرابةَ في هذا، فأمُّ البنين إحدىٰ النِّساء اللواتي تذوّقْنَ اللغة وعرفْن طعمها، فأُثِرَتْ عنهن كلمات رائعات ظلّتْ تقرعُ أبوابَ البلاغةِ على مرِّ الأيّام.

* ولعلَّ قصَّتَها مع الحجّاج بنِ يوسف، وما تفوهتْ به من بليغِ الكلام، وما قرعته بالحجّة، لدليلٌ علىٰ ذلك، ودليلٌ على فضلِهَا، ومضاءِ عزيمتها، وثباتِ قلبها، فهل أتاك خبرُ ذلك؟

* المصادرُ العديدة وافَتْنا بالقصّة كاملة على أتمّ الوجوه، وأبانتْ جوانبَ وضيئة في حياة أمِّ البنين، وكشَفتِ النِّقاب عن فضائِلها ومكارمها، من ذلك احترامها الشّديد للصَّحابة والصَّحابيات، ومعرفة أقدارهم، كما سيظهرُ ذلك في معرفتها قَدْرَ الصَّحابية الجليلة أسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق وابنها

= وأنشده كذلك أبيات أخرىٰ، فقال له: أحسنتَ، وأمر له بصلة.
انظر: (العقد الفريد ٥/ ٢٨١)، و(وفيات الأعيان ٢/ ٥٤)، و(مرآة الجنان ١/ ١٩٥).
ومما يُستجاد ذِكْرهُ في هذا المقام أنَّ الحجاج كان إذا سمعَ أحداً ينوحُ في دارٍ، أمر بهدمها، فلما ماتَ ابنه وأخوه، حنَّ إلى النوح، وكان يعجبه أنْ يسمعه، وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

هل ابْنكِ إلاّ ابنٌ منَ النّاسِ فاصْبِري ... فلـنْ يُـرجـعَ المـوتـىٰ حنيـنُ المـآتـمِ

وكان يتمثل بهذا البيت أيضاً وهو:

فإِنْ تَحتَسِبْ تُؤجَرْ وإنْ تبكهِ تكُنْ ... كبـاكيـةٍ لـم يُحْـيِ مَيْتـاً بكـاؤهـا

عبد الله بن الزُّبير ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

* تقولُ القِصّة: وفدَ الحجّاجُ بنُ يوسف على الوليد بنِ عبد الملك في مقرِّ خلافته بالشَّام، فوجده في بعضِ نُزهِهِ، فاستقبله، فلمَّا رآه الحجاجُ نزلَ عن فرسه، وتقدّمَ فقبل يده، وجعلَ يمشي بجانبهِ، وعليه درعٌ وكنانةٌ وقوسٌ عربية؛ فقال الوليدُ للحجّاج: اركبْ أبا محمّد.

فأجابه الحجاجُ في نبرةِ الخضوع: يا أمير المؤمنين، دعني أستكثرُ من الجهادِ وفي خدمتك، فإنَّ عبدَ الله بنَ الزُّبير، وعبد الرحمن بن الأشعث قد شغَلاني عنك.

فأقسم الوليدُ وعزم عليه حتى امتطىٰ صهوة الجوادِ، وركبَ حتى وصلا دار الوليد بن عبد الملك.

* ودخل الوليدُ داره، ونزعَ ثيابه، ثمَّ تَغَلَّلَ في غِلالة[1]، ثم إنَّه أذن للحجاج بالدخولِ عليه، فدخلَ الحجاجُ علىٰ الوليد وهو في حاله تلك، وطابَ لَه الحديث، فأطالَ الجلوس عند الوليد، ونُمي الخبرُ إلى أمِّ البنين أنَّ رجلاً عند زوجها الوليد، وهو في عدّةِ الحرب بيده رمحٌ، وعلى رأسه بَيْضَةٌ، وعلى وجهه مِغْفَرٌ، يتوشّحُ سيفاً صقيلاً، وخلفَ ظهره كنانة قد غصَّتْ بالنّبال والسّهام، فأوجستْ خيفةً في نفسها مِنْ هذا الرجل، فبعثتْ جاريتها إلى الوليدِ تسأله: مَنْ هذا الأعرابي الجَلْف المستلئم[2] في السّلاح عندك، وأنتَ في غِلالة غررٌ؟!

* وجاءتِ الجاريةُ الوليدَ على استحياء وحَذَرٍ، فسارتْه بما أمرتها به أمّ البنين، فأخبرها أنَّ جليسه إنَّما هو الحجاج، وأمرها أن تخبرَ أمّ البنين بألا

---

(١) «الغِلالة»: شعار يُلبَسُ تحت الثوب لأنه يُتغلل فيها، أي: يُدخل (لسان العرب مادة غلل) و(مختار الصحاح).

(٢) «المستلئم»: استلأم الرجل؛ إذا لبس ما عنده من عدة السلاح، كالرمح والسيف وأدوات الحرب.

تخافَ ولا تضطربَ، ولتطمئن، فأبلغتِ الجاريةُ أمَّ البنين الخبرَ، فراعها ذلك.

* ولحظَ الحجّاجُ أنَّ الوليدَ قد قالَ للجاريةِ شيئاً، وعرف الوليد مقصده فقال له: أتدري ما هذا أبا محمد؟!

قال: لا واللهِ يا أمير المؤمنين.

فقال الوليد: إنَّ ابنةَ عمي أمّ البنين بنت عبد العزيز قد بعثتْ تقول لي: ما مجالستُك هذا الأعرابي الغارق في سلاحِه، وأنتَ في غِلالة، ألا تخشىٰ غَدْرةً منه؟!! فأرسلتُ إليها، وأخبرتها بأنَّه الحجّاجُ بنُ يوسف.

* وصمتَ الوليدُ هنيهات، فإذا بالجاريةِ نفسها تعود مسرعةً لتنقلَ للوليد مشاعر أمّ البنين، وتقول له: يا أميرَ المؤمنين، والله ما أحبُّ أن يخلوَ بك وقد قَتَل الخلق، وأهل الطَّاعة والحقّ، والله لأنْ يخلو بكَ مَلَكُ الموتِ، أحبّ إلي من أن يخلو بك الحجاجُ بنُ يوسف!!

* وذُعِرَ الحجاج بنُ يوسف ذُعراً شديداً لرأي أمِّ البنين فيه، ومقالتها عنه، لكنَّه أظهرَ الجلد، وتوجَّه إلى الوليدِ، وحذَّره بصفة النَّاصحِ الأمينِ منَ النِّساء، فقال له: يا أمير المؤمنين، دعْ عنك مفاكهة النِّساء بزخرف القول، فإنّما المرأةُ ريحانةٌ، وليست بقهرمانة[1]، فلا تطلعهن على سرِّك، ولا على مكايدة عدوك، فإنَّ رأيهن إلى أَفَن[2]، وعزمهن إلى وهَن[3]، ولا تملك الواحدةُ منهن منَ الأمور ما يجاوزُ نفسها، ولا تطمعها أنْ تشفعَ عندك لغيرها، ولا تُطلِ الجلوسَ معهن، فإنَّ ذلك أوفر لعقلك، وأبْيَن لفضْلِك.

* ولما انتهىٰ الحجّاجُ من مقالته، استأذن الوليد فأذنَ له، فنهضَ وخرجَ

---

(١) «القهرمان»: هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحتَ يده، والقائم بأمور الرّجل، وهي لفظة فارسية.

(٢) «أَفَن»: يُقال: أفن الناقة يأفنها: حلبها في غير حينها، فيفسدها ذلك. والمأفون: الضّعيف الرأي والعقل.

(٣) «وهْنٌ»: ضعف.

إلى معسكره، ودخل الوليدُ على زوجه أمّ البنين، فحدّثها برأي الحجّاج في جماعة النّسوة، ومقالته فيهن، وخبرته إياهن.

* فأَسَرَّتْ أمّ البنين ذلك في نَفْسها، ولم تُبْدِ شيئاً لزوجها، ثمّ إنّها تقدّمت منَ الوليدِ بأدبٍ واستحياء وقالت له: يا أمير المؤمنين، أتسمح أنْ أطلبَ منك شيئاً؟!

قال الوليد: وما هو يا أمّ البنين؟

قالت: يا أميرَ المؤمنين، أحبُّ أنْ تأمرَ الحجاجَ بنَ يُوسف بالتّسليم عليّ في الغَد.

قال: أفعل إنْ شَاء اللهُ تعالىٰ يا بنة العم.

* وفي اليومِ التَّالي، قدمَ الحجّاج مبكراً على الوليدِ، فاستأذن عليه، فأذن له، فلما استقرَّ به الجلوس قال له الوليد: يا أبا محمّد، صِرْ إلى أمِّ المؤمنين، فسلّمْ عليها.

فقال الحجاجُ وقد علاهُ الوجوم: اعفني منْ ذلك يا أميرَ المؤمنين إنْ شئتَ.

قال الوليد: ويحك لا بدَّ من ذلك، ولتَفْعَلَن.

* ولما وجدَ الحجاجُ أنَّه لا مفرَّ من ذلك، ولا بد منه، قال: سمعاً وطاعة يا أميرَ المؤمنين؛ ثمَّ مضىٰ الحجّاجُ إليها وقد سُقِط في يده، فهو يدرك مَنْ هي أمّ البنين، ويدرك مكانتها في المدينة المنوّرة، وفي دمشقَ الشّام، وهو يعلم رأيها من قبلُ في أخيه محمّد بن يوسف، وما صار إليهِ، ولكنّه خفي عليه ما ستقولُ له الآن، بل ما سيسفرُ عنه هذا اللقاء.

* وعلمتْ أمُّ البنين بقدومهِ، فأمرتْ بحجبه طويلاً، ووقفَ في ذِلّةٍ أمامَ مقصورتها يضربُ أخماساً بأسداس، وبعد مدّةٍ طويلةٍ أمرتِ الخادمَ بالإذن له، فدخل، فتركته قائماً على قدميه، ولم تأذن له في الجلوسِ، وإنّما

ابتدرته قائلة من وراء سترتها: إيهِ[1] يا حجاج، أنتَ الممتنُّ على أمير المؤمنين بقتلِ عبدِ الله بنِ الزبير ابنَ حَواري رسول الله ﷺ، الصَّوام القوّام، المستغرقِ السَّاعاتِ في الطَّاعاتِ، ذي المناقبِ الشّهيرةِ الكَثيرة؟َ! وابنِ أسماءَ ذاتِ النِّطاقين؟[2] وأوّل مولودٍ وُلِدَ بالمدينةِ المنوّرة من المسلمين بعد الهجرة؟!! يا حجاج وأنتَ الممتنُّ على أميرِ المؤمنين بقَتْل عبد الرحمن بن محمّد بن الأشعث؟!.

* ثمَّ إنَّ أمَ البنين قرَّعتِ الحجّاجَ، وذكرتْ بعضَ فظائعِهِ، وجرائمه، وأبانَتْ له قُبْحَ منظرِهِ، وسوءَ مخبرِهِ، وشراشة خلقه، ثم أتْبَعَتْ ذلك بقولها: ويحك يابن يُوسف، أَما واللهِ لولا أنَّ اللهَ عَلِمَ أنَّك شَرُّ خَلْقِهِ، وأهونُ خليقته ما ابتلاك برمي الكعبة بحجارةِ المنجنيق، وقتل التَّقي النَّقي ابن ذاتِ النطّاقين؛ فأمّا ابن الأشعث فَقَدْ وَاللهِ وَالىٰ عليكَ الهزائم[3] حتى لُذْتَ بأميرِ المؤمنين عبد الملك بن مروان، فأغاثك بأهل الشَّام، وأنتَ في أضيقِ ما يكون منْ أمرِك، وأوهنِ من بيتِ العنكبوت، فأظلتك رماحُهم، وحجبتك عن الأخطار سيوفُهم، ونصرتك عزيمتُهم، وقهر الأعداءَ كفاحُهم!.

* وأمّا نَهْيُك أمير المؤمنين عن مفاكهةِ النِّساءِ، فلطالما نَفَضَ نساءُ أمير المؤمنين المِسْك من غدائرهن، والحَلْيَ من أيديهن وأرجلهن، وبِعْنَه في الأسواقِ حتى أخرج في أعطيات أهل الشَّام إليك، ولولا ذلك لكنتَ أذلَّ منَ البَقَّةِ.

---

(١) «إيهِ»: اسمُ فعلِ أمْرٍ، ومعناهُ: الاستزادة من حديث معهود، وإذا نَوَّنْته كان للاستزادة من حديث ما. وقد جاء في قول الشاعر:
وقَفْنا فقلنا إيهِ عن أُمِّ سالمٍ ... وما بالُ تكليم الديار البَلاقعِ
(٢) اقرأ سيرة أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنها ـ في كتابنا «نساء مبشرات بالجنة» طبعة ثالثة، ففي سيرتها إمتاع للأسماع، ونزهة للقلوب العطشى إلى المعرفة، وفائدة كبيرة إن شاء الله.
(٣) قيل: كان بين الحجاج وابن الأشعث أربع وثمانون موقعة، ثلاث وثمانون على الحجاج، وواحدة كانت للحجاج.

* ويحك يا حجاج! إن ما أشرتَ به علىٰ أمير المؤمنين من ترك لذّاته، والامتناع عن بلوغ أوطارِه من نسائه، فإنَّه غيرُ قابلٍ منك ذلك، ولا مُصْغٍ إلى نصيحتك، فإنْ كانتِ النّساء يلدن مثلك كما ولدت أمّك، فما أحقّه بالأخذ عنك، والقبول منك، ولا مصغٍ إلىٰ نصيحتك. فوجمَ الحجّاج، وفَغَرَ فاهُ، ولم يُحِرْ جواباً.

* ثم إنَّ أمَّ البنينَ تابعتْ تقريعها الحجاجَ وقالت تعيّره بفراره من امرأة: قاتلَ اللهُ الشَّاعر وقد نظرَ إليك، وسِنَانُ غزالة الحروريّة[1] . .

---

(١) غزالةُ الحرورية: امرأة أبي الضّحاك شبيب بن يزيد بن نعيم الشّيباني الخارجي، بطل الخوارج وقائدهم في عهد عبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف الثقفي.
ولدت غزالة هذه في مدينةِ الموصل، وهي من شَهيرات النّساء، وكانت من الشَّجاعة والفروسية بالموضعِ العظيم، وكانت من الذين دوخوا البلاد، وملؤوا بالرعب قلوبَ العباد، خرجتْ مع زوجها شبيب سنة (٧٦ هـ) على عبد الملك بن مروان أيام ولاية الحجّاج على العراق، فكانت تقاتلُ في الحروب بنفسها، حتى ملأت الأفواه خبراً، والأرض عبراً، وحتى إن الحجاج نفسه قد هرب منها في بعض الوقائع، ولاذ بالفرار، فعيره حطان بن عمران بذلك في قوله: «أسد علي وفي الحروب نعامة» الأبيات . . .
وبلغت غزالةُ من الجسارة وقوة القلب ما خلع قلب الحجاج وغيره منها، فقد كانت قد أقسمت ونذرت أن تدخل مسجد الكوفة فتصلي فيه ركعتين، تقرأ في الأولى: سورة «البقرة»، وفي الثانية: سورة «آل عمران» فأتت الجامع في سبعين رجلاً، فصلّت فيه الغداة، ووفّت بنذرها، فقيل فيها:

وفّتْ غزالةُ نَذْرَها ... يا ربّ لا تَغْفِر لها

وتدلُّ أخبارُ غزالة أنَّها قد هزمت للحجاج بن يوسف الثقفي خمسةَ جيوش خضَارم، حتى أضحت أرض العراق وما حولَها ترتجف إذا ما ذُكِرتْ غزالة، وفي ذلك يقول أيمن بن خُريم:

أقامَتْ غَزالةُ سوقَ الضّراب ... لأهلِ العراقَيْنِ شهراً قميطا
سَمتْ للعراقينِ في جَمْعِها ... فلاقىٰ العراقانِ منها بطيطا

ومن الجدير بالذكر أنَّ حَماةَ غزالة ـ أي: أمّ زوجها شبيب ـ واسمها جَهيزة، كانت=

بين كتفيك حيث يقول:

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفي الحُروبِ نَعامَةٌ ... فَتْخاءَ تَنْفِرُ مِنْ صَفيرِ الصَّافِرِ
هلاّ بَرزْتَ إلىٰ غَزالَةَ في الوغىٰ ... أمْ كانَ قَلْبُكَ في جَنَاحَي طَائِرِ
صَدَعَتْ غَزَالَةُ قَلْبَهُ بِفَوارسٍ ... تَركَتْ نَواظِرهُ كأَمْسِ الدَّابرِ

* ثم إنَّ أمَّ البنين قالت لجواريها: أخرجوه عنّي، فأخرجُوه مقبوحاً لا يعرفُ الطَّريق لدهشته، ولما ناله منْ أمِّ البنين، فدخل علىٰ الوليدِ من فورِه فقال له الوليد: يا أبا محمّد! ما كنتَ فيه؟ فقال الحجاجُ وهو يلتقط أنفاسه: واللهِ يا أمير المؤمنين ما سكتتْ أمّ البنين حتى كان بطنُ الأرض أحبَّ إليَّ من ظهْرها، وما ظَنَنْتُ أنَّ امرأة تبلغُ بلاغتها، وتحسن فصاحتها، وتدلي حجتها. فضحك الوليدُ حتى استلقى، وفحصَ برجليه الأرض ثمّ قال: يا حجاج، إنّها ابنة عبد العزيز بن مروان[1].

وعاد الحجاجُ من حيثُ أتى، عاد إلى العراقِ وهو لا ينسى ذلك الدَّرسَ القاسي الذي لقنته له أمّ البنين، حتى مات في سنة (٩٥ هـ)[2].

= امرأة شجاعة تشهد الحروب، وتخوض غمارها، وقد قُتِلتْ جهيزة مع غزالة سنة (٧٧هـ).
قُتلتْ غزالة خدعة في موقعة الكوفة بين شبيب زوجها، وبين الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان قد قتلها خالد بن عتاب الرياحي. هذا وأخبار غزالة منثورة مشهورة في كتب الأدب والأخبار والتراجم والتأريخ وغيرها.

(١) عن وفيات الأعيان (٢/ ٤٤ و٤٥)، ومروج الذهب (٣/ ١٦٧ ـ ١٦٩) مع الجمع والتصرف. وانظر: الأخبار الموفقيات (من ٤٧٦ ـ ٤٧٩)، والعقد الفريد (٥/ ٤٣)، وعيون الأخبار (١/ ١٦٩)، والنجوم الزاهرة (١/ ١٩٦)، وبلاغات النساء (ص١٢٤ و١٢٥)، وقصص العرب (٢/ ١٤٥ و١٤٦)، وأعلام النساء (١/ ١٥٠ ـ ١٥٢) وغيرها.

(٢) قال ابنُ العماد في «الشّذرات» في مفتتح سنة (٩٥هـ) نقلاً عن اليافعي في «مرآة الجنان»: فيها أراحَ اللهُ العباد والبلاد بموتِ الحجاج بن يوسف الثّقفي، في ليلةٍ مباركةٍ على الأمّة، ليلة سبع وعشرين من رمضان. وكان شجاعاً مقداماً مهيباً مفوهاً =

سَخَاؤُهَا وأَقْوَالُهَا في الجُودِ:

* السَّخاءُ سجيّةٌ أصيلةٌ بنفسٍ أمِّ البنين ـ رحمها الله ـ فقد كانت حكيمةً تضعُ العطاءَ في مواضعه، تتوخّىٰ بذلك مرضاة اللهِ ورضوانه، وهي طيّبةُ النَّفس، راضيةُ القلب، مؤمّلةُ الثّواب في الآخرة.

* وليس ذا ببعيد عن أمِّ البنين، فأبوها عبد العزيز بن مروان من خيارِ الأمراء، وكان كريماً جَواداً ممدّحاً، ومن كلامه في الجود والسَّخاء قوله: عجباً لمؤمنٍ يؤمنُ ويوقنُ أنَّ اللهَ يرزقه ويخلفُ عليه، كيف يحبسُ مالاً عن عظيم أجر، وحسن ثناء[1].

* من هذه الأخلاقِ الفاضلة، والمكارمِ النَّبيلةِ، استقتْ أمُّ البنين فضائلها، وعززتها بمحبّتها لفضيلةِ الجود والإنفاق في سبيلِ الله حتى غدا السَّخاء عادتها:

لَهَا سَحَائِبُ جُودٍ في أَنَامِلِهَا ... أمْطَارُها الفِضْةُ البيضَاءُ والذَّهبُ

* كما غدا فِعْل الخير من أخلاقها:

تَعَوَّدْ فِعَالَ الخَيْرِ جَمْعَاً فَكُلُّ مَا ... تَعـودَّهُ الإنسـانُ صَـارَ لـه خُلقَـا

= فصيحاً سفّاكاً... وله مقحمات عظائم، وأخبار مهولة. (مرآة الجنان ١/ ١٩٢). و(شذرات الذهب ١/ ٣٧٧).
أمّا الإمامُ الذّهبي ـ رحمه الله ـ فَلَهُ رأيٌ جميلٌ في الحجاج، يشيرُ إلى مدىٰ تبحرّ الذّهبي في العِلْمِ ومعرفةِ الرّجال، بل ويشير إلى المكانةِ العلمية التي يتمتع بها الذّهبي حينما يحكم على الرّجال. قال الذّهبي عن الحجاجِ: وله حسناتٌ مغمورةٌ في بحرِ ذنوبه، وأمرهُ إلى الله. (سير أعلام النّبلاء ٤/ ٣٤٣).
وقال فيه ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ: كان فصيحاً بليغاً فقيهاً، وكان يزعم أنَّ طاعةَ الخليفةِ فرضٌ على النَّاس في كلِّ ما يروحه، ويجادل عن ذلك. (تهذيب التهذيب ٢/ ١٨٦ ـ ١٨٩) واقرأْ رأي ابن حجر وآراء العلماء فيه في الترجمة نفسها.
وعندما استعرض ابن كثير ـ رحمه الله ـ ترجمة الحجاج قال فيه: كان حريصاً على الجهادِ، وفتحِ البلاد، وكان يعطي على القرآن كثيراً. (البداية والنهاية ٩/ ١٣٩).

(١) انظر: البداية والنهاية (٩/ ٨٥).

* وكذلك أصبحَ فعلُ الخيرِ ديدنَها، وهدفَ نفسها الكريمة التي هذّبتها وربّتها علىٰ مكارم الأخلاق:

ومَا النَّفْسُ إلاّ حيثُ يَجْعلُها الفتىٰ　　فَإِنْ أُطْمِعَتْ تَاقَتْ وإلاّ تَسَلَّتِ

* ولذلك فقد أُثِرتْ عنها هذه العبارة الطّيّبة الكريمة: جُعِلَ لكلِّ قوم نَهَمَةٌ في شيءٍ، وجعلت نهمتي في البذْلِ والإعطاء، واللهِ لَلصِّلة والمواساةُ أحبَّ إليَّ من الطَّعام الطَّيِّب علىٰ الجوع، ومن الشَّراب البارد على الظَّمأ[1].

* وقد حُبِّبَ الإنفاق إلىٰ أمّ البنين، والتّحدث بنعم الله عليها، فكانت ترىٰ هذه الأشياء بعين الرِّضا، لكي تنفقَ ما يأتيها في الطُّرقِ التي تؤدّي إلى مرضاةِ اللهِ تعالى؛ لذلك كانت ترى أنَّ النِّعم أحسن شيءٍ؛ فقد قيل لها: يا أمّ البنين، ما أحسن شيءٍ رأيتِهِ؟

فأجابتْ بكلماتٍ منداّةٍ بعبير الشّكر: نِعَمُ اللهِ مقبلةٌ عَليَّ[2].

* وكانت أمُّ البنين تكرهُ البخلَ والبخلاء، وتبتعدُ عن سُبُلِ البخل بكلّ الوسائلِ، حتى لو كان البخلُ لباساً لطرحته؛ قال إبراهيم بن أبي عَبْلة: سمعتُ أمَّ البنين أختَ عمر بن عبد العزيز تقول: أفٍّ للبخل! واللهِ لو كان طريقاً ما سلكتُه، ولو كان ثوباً طريفاً ما لبستُه[3].

* إنَّ هذا النَّفَسَ اللطيفَ ـ كراهية البُخْل والبُخلاء ـ قد ورثته أمّ البنين عن أبيها أيضاً، فقد كان هو الآخر يكرهُ البخلاء ويذمّهم. ومن رقيقِ أقواله في هذا المجال ما أُثِر عنه قوله: لو لم يدخلْ على البخلاءِ في بخلهم إلا سوء ظنّهم باللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ لكان عظيماً[4].

---

(١) انظر: صفة الصفوة (٤/ ٢٩٨)، و«النهمة»: الشهوة والرغبة.

(٢) انظر: بهجة المجالس (١/ ١١٩)، والبصائر والذخائر (١/ ٢٢٠) طبعة دار صادر ببيروت، وتحقيق وداد القاضي.

(٣) صفة الصفوة (٤/ ٢٩٨).

(٤) إنَّ البخلَ أو الشّحَّ خلُقٌ ذميم منَ الأخلاقِ التي لا يرضاها المسلمُ، والشّح يتولّدُ من سوءِ الظَّن وضعف النَّفس، ويمدّه وعد الشّيطان حتى يصيره إلى شدّة الحرصِ=

* ومن هنا كانت أمُّ البنين ترى أنَّ السَّخاء من مفاتيح الجنَّة، فكانت تقولُ: البخلُ كلُّ البخلِ مَنْ بَخِلَ علىٰ نفسه بالجنّة[1].

* ويبدو أنَّ أمَّ البنين عرفتْ آثارَ الجود، فعزَفَتْ نفْسُها عن إمساكِ المال، فلم تكن الدَّراهم تستقرُّ في كفِّها إلا عابراتُ سبيلٍ، وكانت تجودُ بها للنّاسِ وأهلِ الحاجة. لذلك ظل ذكْرها عطراً بين النَّاس، وأخبارها مندّاة برحيق الجود والسّخاء.

اصْطِنَاعُهَا للمَعْروفِ وجَبْرُها عَثَرَاتِ الكِرَام:

* قالَ رسولُ الله ﷺ: «كلُّ معروفٍ صَدقة»[2]. وأخرج مسلمٌ بسنده عن أبي ذرّ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لا تحقرن منَ المعروفِ شيئاً ولو أنْ تلقىٰ أخَاك بوجهٍ طَلْق»[3].

* وعلى حبِّ المعروفِ واصطناع الخيراتِ عمّرتْ أمُّ البنين أعمالها، وزيّنتْ سيرتها، فقد كانت تكثرُ من اصطناع كلّ عَمَلٍ يدعو إلى خيرٍ، فكانت تحسنُ إلىٰ النَّاسِ، وإلى مَنْ تدعوهن منَ النِّساء، حتى ظفرتْ بمحبتهنّ، ولهجْنَ بالثَّناء عليها.

* ذكر أبو الفَرج ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ أنّها كانت تدعو النّساء وتكسوهُنَّ الثِّيابَ الحسنَة، وتعطيهن الدَّنانير وتقولُ لهن: الكسوةُ لَكُنَّ، والدّنانير اقسمْنَها بين فقرائِكُنَّ[4].

= على الشّيء، فيتولد المنع للبذل والجزع لفقد المال وإنفاقه.

(١) انظر: المحاسن والمساوىء للبيهقي (ص١٨٦).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٠٢١)، ومسلم برقم (٠٠٥)، وأخرجه كذلك التّرمذي برقم (١٩٧٠)، وابن حبّان برقم (٣٣٧٩).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢٦)، والتّرمذي برقم (١٨٣٣)، وابن حبّان برقم (٥٢٣)، وقال ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: ما رأيت رجلاً أوليته معروفاً إلا أضاء ما بينه وبيني. ولا رأيتُ رجلاً فرط إليه مني شيء إلا أظلم ما بيني وبينه.

(٤) صفة الصفوة (٤/ ٢٩٨).

* ومن خلالِ هذا التَّصرّف الحكيم كانت توجِّه النِّساء إلى اصطناع الخيرِ والمعروفِ، ولهذا كانت تكثرُ من قولها: وهل يُنالُ الخيرُ إلا باصطناعه؟.

* ومن أقوالها الشَّهيرة في هذا المجال قولها: ما حَسَدتُ أحداً قطّ على شيءٍ إلا أنْ يكونَ ذا معروف، فإنّي أحبُّ أنْ أشركَه في ذلك[1]. ولله درُّ مَنْ قال:

يَـدُ المعْرُوفِ غُنْـمٌ حَيْـثُ كَـانَـتْ ... تحمَّلَهَـــا شَكُـــورٌ أوْ كَفُـــورُ

فَفِـي شكْـرِ الشّكُـورِ لهَـا جَـزاءٌ ... وعنـــدَ اللهِ مَـــا كَفَـــرَ الكَفُـــورُ

* إنَّ صاحبَ المعروفِ لا يقعُ فيما يكره، ولا يمسّه مكروه، فإذا وقع وجدَ متكأً، لأنَّ «صَنَائع المعروف تقي ميتة السُّوء»[2].

* ولهذا كانتْ أمُّ البنين ـ رحمها الله ـ تسارعُ إلىٰ الخيراتِ، وتتزوّدُ من إكثارِ اصطناع المعروف، وتجعله في أهلِ الأحسابِ والأعراقِ ليكونَ أعظم:

فَمَـــا هَـــذِهِ الأيّـــامُ إلاّ مُعَـــارَة ... فَما اسْطَعْتَ مِنْ مَعْروفهَا فتَزَوَّدِ

فَـإنَّــكَ لا تَـــدْري بـــأَيّـــةِ بَلْـــدةٍ ... تموتُ ولا ما يُحْدِثُ اللهُ في غَدِ

* إنَّ خيرَ أيّام المرءِ ما أغاثَ فيه المضطر، وارتهنَ فيه الشّكر، وجذَبَ إليه الحرّ، وذلك باصطناعهِ المعروف، وكانت أمُّ البنين كذلك تعينُ على المعروفِ، وتنجدُ الملهوف، وتجبرُ عثَرات الكرام، فمن جُملة أخبارها في ذلك ما وردَ أنَّ الثُّريا بنتَ عليّ[3]، لما ماتَ زوجها سُهيل بن عبد الرحمن

---

(١) صفة الصفوة (٤/ ٢٩٩)، وقال عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ: في كل شيء سرف إلا في إتيان مكرمة، أو اصطناع معروف، أو إظهار مروءة. (الآداب الشرعية ١/ ٣٢٨).

(٢) حديث شريف.

(٣) الثُّريا بنتُ عليّ بنِ عبد الله بن الحارث بن أميّة الأصغر، كانت موصوفةً بالجمالِ، تزوّجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزّهريّ، فنقلها إلى مصرَ، وفيها وفي زوجها يقولُ عمر بن أبي ربيعة المخزومي المتوفى سنة (٩٣هـ)، وضربَ لهما المثل بالنّجمتين، ـ وكان يكثرُ من ذكرها في شعره ـ:

أيّهـــا المُنكِـــحُ الثُّـــريـــا سُهَيْـــلاً ... عمْـــرَكَ اللهُ كيـــفَ يلتقيـــانِ=

ـ أو طلّقها ـ خرجتْ تقصدُ الوليدَ بنَ عبدِ الملك، وهو خليفةٌ بدمشقَ في دَيْنٍ كان عليها كيما يعينَها علىٰ قضائِهِ، فدخلتْ على زوجه أمِّ البنين ابنة عبدِ العزيز وعرّفَتْها مقصدها، وبينما هي كذلك، إذ دخلَ الوليدُ على أمِّ البنين، فقال الوليدُ: مَنْ هذه عندك؟ قالت: يا أمير المؤمنين هذه الثُّريا بنتُ علي جاءتني كي أطلبَ إليك في قضاءِ دَيْنٍ قد أَثْقَل كاهِلَها.

* ورحَّبَ الوليدُ بالثّريا، وأقبلَ عليها وقال: أترويـنَ من شِعْر عمر بن أبي ربيعة شيئاً؟

قالتِ الثُّريا: نعم يا أمير المؤمنين، أمّا إنّه ـ رحمه الله ـ كانَ عفيفاً، عفيفَ الشِّعر، أروي له أبياتاً منها:

وَحِسَاناً جَوارِياً خَفِراتٍ حَافِظَاتٍ عِنْدَ الهوَىٰ الأَحْسَابا

فقال الوليد: لله درّك يا بنة علي.

* ثم إنَّ أمَّ البنين أمرتْ بقضاءِ حوائج الثّريا، فانصرفت شاكرةً هذا المعروف لها ولزوجها الوليد[1].

= هيَ شاميّةٌ إذا ما استقلَّتْ وسُهَيلٌ إذا استقلَّ يماني

وقوله: «استقلَّ»: أي: ارتفع؛ وقد ورّى عن الثريا بنجم السّماء، وورّىٰ عن الرجل بنجم السَّماء لإظهارِ إنكاره التقائهما بالزّواج، وقد مثَّل للبعدِ بين الزَّوجين، بالبعد بين النّجمين، لأنَّ الثّريا كانت فائقةَ الجمال، وسهيلاً كان قبيحَ المنظر.

ومن الجدير بالذكر هنا، أنَّ البيتَ الأوّل من شواهدِ كُتُب النَّحو، وذلك في قوله: «عمركَ اللهُ»، وهو لفظٌ قد وَرَدَ كثيراً في قَسَم العرب وتأكيداتها في شِعرهم ونثرهم، وأصله دعاء بطولِ العمر.

وللنّحاة في هذا البيتِ تخريجات عدة منها: أسأل اللهَ عَمْرَكَ؛ ويعرب: «عمرك»: مفعول به ثان لفعل محذوف تقديره أسأل، ولفظ الجلالة: مفعول به.

هذا؛ ونعود إلى الثّريا، إذ أخبارها كثيرة ترددت في كُتُب الأدب وما ماثَلها. انظر مثلاً: (زهر الآداب ١/ ٢٤٤ و٢٤٥) بتحقيق: محمد علي البجاوي، و(الدر المنثور ص ١١٧ ـ ١٢١)، و(نسب قريش ص١٥١ و٢٦٩)، وكتاب الأغاني في مواطن متفرقة، ونهاية الأرب أيضاً.

(١) شذرات الذهب (١/ ٣٦٥ ـ ٣٦٧) والدر المنثور (ص١١٧ ـ ١٢١) مع الجمع =

* وهكذا قلّدتْ أمّ البنين الثُّريا هذا المعروفَ الذي وعَتْه لنا أذن تاريخ أمّ البنين الواعية، وسجّلهُ لنا تاريخها الوضيء على ثنايا الوَرْدِ، وعبقات الزَّهْر، وأنداء النَّسيم العطر، كيما تقتدي بمآثرها نسوة العرب ونساء الدّنيا على مرِّ الدَّهر.

* ولأمّ البنين أخبارٌ وضيئة في اصطناعِ المعروف قبل أن يليَ زوجها الخلافة، ومنْ روائعِ بدائع أخبارها في اصطناع المعروف، ما ذكرته المصادر بأنَّها كانت سَبب حَقْنِ دم عُبيد الله بن قيس الرّقيات، من سطوةِ عمّها عبد الملك بن مروان، الذي كان يجلّها، ويكرمُها، ويعرفُ قَدْرها، ومكانتها، ويحفظُ جاهَها، ويقضي حوائجها، إذ هي زوجُ ابنه الأثير الوليد ـ ولي عهده ـ، وابنة أخيه الرَّفيق الشَّفيق عبد العزيز بن مروان، ثم إنَّ أمَّ البنين نفسَها كانت ذات أدبٍ زاهرٍ، ورأيٍ صائب، وحكمةٍ رشيدة، وخصالٍ حسَان، وكانت تحترمُ عمّها عبد الملك وتكبره وتجله.

* أمّا كيفَ اصطنعتِ المعروفَ مع الشَّاعر المعروف عُبيد الله بن قيس الرّقيات، فقد جاءَ مُفَصَّلاً في المصَادر، وخاصة كتُب الأدب منها، وكُتب التّأريخ، فقد ذكروا أنَّ عُبيد الله بن قيس الرقيات الشَّاعر الأمويّ المتوفى نحو سنة (٨٥ هـ)، كان منقطعاً إلى مُصعَب بن الزّبير بنِ العوّام يمدحه، ويثني عليه، ويذكره بكلِّ مَحْمَدةٍ وفضيلة، ومن بدائع قوله في مصعب قصيدته الهمزية المشهورة التي منها:

إنَّمـا مُصْعـبٌ شهـابٌ مِـنَ اللـ ـهِ تَجلَّـتْ عَـنْ وجْهِـه الظَّلمـاءُ
مُلكُـه مُلْـكُ رحمـةٍ ليـس فيـهِ جَبَـروتٌ يُخْشَـىٰ ولا كِبْـريـاءُ
يتَّقـي اللهَ فـي الأُمـورِ وقـد أَفْـ ـلَـحَ مَـنْ كـانَ همَّـه الاتّقـاءُ[1]

* وقد خرجَ عُبيد الله مع مصعب بن الزّبير على عبد الملك بن مروان، فلما قُتِلَ مصعب طلبه عبد الملك، فهرَب عُبيد الله والتجأَ إلىٰ مَعْدِنِ الخير

= والاختصار، وانظر: أعلام النساء (١/ ١٨٤).
(١) انظر: سمط اللآلي (١/ ٢٩٤).

والجود والكرم، إلى الجواد بن الجواد، عبد الله بن جعفر[1] بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ كيما يكون وساطةً بينه وبين عبد الملك، وليشفَعَ له عنده.

* واستقبله عبدُ الله بن جعفر ـ رضي الله عنهما ـ ولم يشأْ أنْ يغريه بالمواعيدِ الباطلةِ، وإنّما أبانَ له حقيقةَ جُرمهِ، وقال له: ويحك يا بن قيس، ما أجدَّهُم في طلبِك، وما أحرصهم على الظَّفر بك، فقد ملأَ شِعْرك الأسماعَ في غريمهم مصعب بن الزّبير، وشغل النَّاس بطلاوتهِ وجماله، وأثره في النّفوس؛ ولكنّي أكتبُ إلى النّجيبة الأريبة أمّ البنين ابنة عبد العزيز بن مروان، فعبد الملك أرق شيءٍ عليها، ولعلَّ الله يُحدثُ بعد ذلك أمراً.

* وأخذَ عبدُ الله بن جعفر قرطاساً، وكتبَ إلى أمّ البنين وهي بدمشقَ، فسألها التَّشَفُّع إلىٰ عمّها عبد الملك لعُبيد الله بن قيس الرّقيات، فإنّه قد لاذ بنا، ودللناه عليك.

* ولما وصلها الكتابُ، قرأته، وأحبَّت أنْ تقضيَ حاجة أميرِ الأجوادِ عبد الله بن جعفر، وتمضي وساطته لابن قيس الرّقيات، فقامتْ واستأذنتْ ودخلتْ على عمّها عبد الملك، وألقتِ السَّلام، فأشارَ إليها بالجلوس، ثمَّ أقبلَ عليها هاشّاً وسألها: هل لكِ من حاجة يا أمّ البنين؟!

(١) عبدُ الله بن جعفر بن أبي طالب الهاشميّ القرشيّ الصّحابي، وهو آخر مَنْ رأىٰ النّبيَّ ﷺ من بني هاشم، وُلد بَأرضِ الحبشة لما هاجر أبواه إليها، وأمّه أسماء بنت عميس إحدى نجيبات ومنجبات الصّحابيات ـ رضي الله عنهن ـ، وهو أوّل مَنْ وُلدَ بالحبشةِ منَ المسلمين، وكان كريماً يُسمّى: بحر الجود، ولم يكن في المسلمين أجودَ منه، وله في السَّخاء أخبارٌ كريمة طويلةٌ رائعة، وقيل: إنَّ أجوادَ المسلمين عشرة؛ منهم: عبد الله بن جعفر، وعبيد الله بن عباس، وطلحة بن عبد الله بن خلف المشهور بلقب طلحة الطّلحات الخزاعي. وكان للشّعراء مدائح كثيرة في عبد الله بن جعفر، وكان أحد الأمراء في جيش ابن عمه علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يوم صفين، وتوفي عبد الله بالمدينة سنة (٨٠هـ) رضي الله عنه وأرضاه. (الإصابة ٦/ ٣٨ ـ ٤١) ترجمة رقم (٤٥٨٢) تحقيق: طه محمد الزيني.

قالت أمُّ البنين بأدبٍ واستحياء: نعم يا أميرَ المؤمنين، نعم يا عماه، إنَّ لي حاجةً أودُّ قضاءَها.

فقال عبدُ الملك ـ وكان لماحاً ذكياً ـ: قد قضيتُ لكِ كلَّ حاجةٍ، إلا واحدة، وهي عُبيد الله بن قيسِ الرّقيات.

قالت في هدوء: يا أمير المؤمنين، لا تستثْنِينَّ عليَّ.

فنفحَ عبد الملك بيده، فأصابَ وجنتها، وغضبَ، فوضعت أمُّ البنين يدَها على خدِّها، وتأثّرتْ أشدَّ الأثَر، ثمّ إنّها لم تتكلمْ كلمةً واحدةً، وأطرقتْ برأسِها إلىٰ الأرضِ، وتساقطت دمعاتٌ من عينيها.

* وتأثر عبدُ الملك لما حَدَث، فقال لها: ارفعي يدكَ عن وجهك يا أمّ البنين، قد قضيتُ لكِ حاجاتك كلّها، وإنْ كانت فيهن شفاعة ابن قيس الرقيات.

* فوضعتْ يدها عن خدِّها وقالت: حاجتي ـ يا أمير المؤمنين ـ أن تؤمِّن ابنَ قيس الرقيات، فقد كتبَ إلى عبد اللهِ بنِ جعفر يسألني أنْ أسألَك ذلك لعِلْمِه بحلمِك وسَعَةِ صدرك.

فقال عبد الملك: حبّاً وكرامة يا أمّ البنين، هو آمِنٌ، ووهبتُ لك دمه.

* وسرعانَ ما زفَّتْ أمُّ البنين هذا الخبر إلى بَحْرِ الجودِ عبد الله بن جعفر الذي أبلغَ ابنَ قيس الرّقيات بالأمانِ، وعفو عبد الملك، ووساطة أمّ البنين في موضوعهِ، فشكرَ لابنِ جعفرِ(١) وساطته، وشكر كذلك لأمّ البنينَ صَنيعَها، إذ أنقذته من موتٍ محقّق، وأُبْدِلَ بعد الخوفِ أمْناً وطمأنينة، ووفدَ

---

(١) مدحَ ابنُ قيس الرّقيات عبد الله بن جعفر فقال:

تقَدَّتْ بي الشّهباءُ نحوَ ابن جعفرٍ ... سواءٌ علَيْها لَيْلُها ونَهارُهَا
والله لولا أنْ تزورَ ابنَ جَعْفَرٍ ... لكان قليلاً في دمشْقَ قَرارُهَا
أتيناكَ نثْني بالذي أَنْتَ أَهْلُهُ ... عليكَ كما أثنى على الروض جارها

انظر: (سمط اللآلي ١/ ٢٩٥) و(الشعر والشعراء ص٣٦٢) طبعة دار الكتب العلمية.

على عبدِ الملك وامتدحه بقصيدة مشهورة منها:

يـأْتَلِـقُ التَّـاجُ فَـوقَ مَفْـرِقِـهِ   علـىٰ جَبيـنٍ كـأَنَّـه الـذَّهَـبُ

كما مدحَهُ بقوله:

أنـتَ ابـنُ عـائشـةَ[1] التـي   فَضَلـت أرومَ نِسَـائِهـا
لـم تلتفـتْ لِلـدَاتِهـا   ومضـتْ علـىٰ غلـوائِهـا
وَلَـدتْ أغَـرَّ مُبـاركـاً   كـالشَّمـسِ وسْـطَ سمـائِهـا[2]

* وهكذا كانت أيادي أُمِّ البنين البيض ومعروفُها قد طوقت ابن قيس الرقيات وغيره، فكم من راغبٍ وراهبٍ وبائسٍ قد اصطنعتْ معهم كلَّ معروف، وأغدقَتْ عليهم من عطائِها، وكم من رجلٍ قد شفعتْ له، وقُبِلتْ شفاعتها إعظاماً لها، فهي جابرةُ عثراتِ الكرام، و:

كَـمْ راغبيـنَ وراهِبيْـن وبُـؤَّسٍ   عُصِمُـوا بقُـرْبِ جَنَـابِهـا إعْظَـامَـا
بِجَنَـابِ ظَـاهِـرةِ الثَّنـا مَحْمـودةٍ   لا يُستَطَـاعُ كـلامُهـا إعْظَـامَـا
يـا ربّ متِّعْنَـا بطُـولِ بقَـائِهـا   واجْبُـرْ بهـا الأَرْمَـالَ والأَيْتَـامـا

* لذلك كان النَّاسُ يلهجون بالثَّناء عليها، ويذكرون نجدتها واصطناعها المعروف مع كلِّ أحدٍ، ولله درُّ القائل:

وَمَا تَخْفَىٰ الصَّنيْعَةُ حَيْثُ كَانَتْ   ولا الشُّكْرُ الصَّحِيْحُ مـنَ السَّقيـمِ

* وكأنّي بالشَّاعر قد عنى أمَّ البنين وأمثالها بقوله:

أُولئِـكَ قَـوْمٌ إنْ بَنُـوا أَحْسَنُـوا البنَـا
وإنْ عَـاهَـدُوا أَوفَـوا وإنْ عَقَـدُوا شَـدُّوا

---

(١) أم عبد الملك هي: عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية.
(٢) انظر: الفرج بعد الشدة للتنوخي (٤/ ٢٨٢ ـ ٢٨٥)، وسمط اللآلي (١/ ٢٩٥ و٢٩٦) مع الجمع والتصرف.

وإنْ كـانـتِ النَّعْمـاءُ فيهـم جَـزُوا بهـا
وإنْ أَنْعَمُـوا لا كَـدَّرُوهـا ولا كَـدُّوا
وإنْ قَـالَ مـولاهُـم عَلـىٰ حَمْـلِ حَـادِثٍ
مـنَ الأَمْـرِ رُدُّوا فَضْـلَ أحَـلامِكـم رَدُّوا

* لقد كان حبُّ اصطناعِ المعروفِ سجيةً من سجايا أمِّ البنين، فهي تودُّ قضاءَ حاجةَ كلّ مَنْ لاذَ بها، فقد كان شعارها ودثارها: اصنع المعروفَ إلى كلّ أحدٍ، فإنْ كانَ منْ أَهْله، فقد وضعْتَه في موضعهِ، وإن لمَ يكنْ من أهله، كُنْتَ أنتَ منْ أهله[1].

وما أجمل قول مَنْ قال:

ولـمْ أَرَ كـالمَعْـرُوفِ أمَّـا مَـذَاقُـه فحُلْـوٌ وأمَّـا وجْهُـهُ فَجَمِيْـلُ

* ويبدو لي أنَّ أمَّ البنين ـ رحمها الله ـ قد قرأتْ قولَ النَّبيّ ﷺ في قضاءِ الحوائج واصطناع المعروف: «إنَّ لله عباداً اختصَّهم بقضاءِ حوائِج النَّاس، حبَّبهم في الخيرِ، وحبَّب الخيرَ إليهم، إنّهم الآمنون من عذابِ اللهِ يوم القيامة»، فأحبَّتْ أمّ البنين أنْ تكونَ من هؤلاءِ الذين اختصّهم اللهُ بقضاءِ الحوائج، ومنَ الآمنين يومَ الفَزَعِ الأكبر، فهذا هو مُنَاها، وتلك هي السَّعادة الحقيقية عندها:

وأَسْعَدُ النَّاسِ في دُنياكمو رجُلٌ تُقْضَىٰ عَلى يدِهِ للنَّاسِ حَاجَاتُ

هَلْ صَحِيْـحٌ مَا يُـنْسَبُ إلـىٰ أمِّ البَنِيـنَ؟!

* قد علمنا وعرفْنا فيما مضىٰ منَ الصَّفحاتِ جوانب من شخصية هذه المرأةِ المعطاء، وعرفنا أنّها فيمن حدَّثَ من النِّساء، كما تعرَّفْنا أصالتَها ومنابتها وحبّها لكتابِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ومسارعتها لتشييد المكارم، وبناء صُروح الفضائل، فهل يُعقل أن تُحِبَّ صُعلوكاً منْ صعاليك الشّعراء وهي زوج أميرِ المؤمنين يأتيه خراجُ ثلاثة أرباعِ الأرض في وقته؟

---

(١) الآداب الشرعية (١/ ٣٢٧).

* بل، هل يُعقل أنْ تُظْهِرَ محاسِنَها ومفاتِنهَا ووجهَها، وتتعرَّضَ للشُّعراء كيما يتغزّلُوا بها لتحظىٰ بالشُّهرة حَسْبَ ما زعموا؟

* إنَّ بَعْضاً منَ المصادر ـ على جلالة قَدْرها وأصالَتِها ـ قد ذكرت ترجمة أمّ البنين، وقرنتْ معها قصَّة الحبِّ العنيف مع وضّاح اليمن[1]، وصنعتْ من ذلك قصّةً أشبه بما وردَ في بعضِ قَصَص «ألف ليلة وليلة» ذلك الكتاب الشّعبي الشّهير الخطير.

* هذا وقد غابَ عن بالِ الذين نَسجُوا هذه القصّة وحاكوها في مصانِعهم الهزيلة، أنَّ مثل هذه القصَّة لا تثبتُ عن أمِّ البنين ولا عن امرأة أقلّ منها بمئات الدَّرجات[2]، فلقد كانت ـ رحمها الله ـ من أحضِّ النّساء علىٰ مكارم الأخلاق، وعلى ارتداءِ ثياب العَفَافِ وصيانة النَّفْس، بل قرأنا كيف كانت تستغرقُ السَّاعات الطّوال مع اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ وهي قائمةٌ تصلي النَّوافِلَ، فما بالك بالفُروض؟!

* لقد كانت أمُّ البنين تعلم عِلْمَ اليقين أنَّ مَنْ ابتغىٰ المكارم، اجتنبَ المحارم[3]، فهل يعقل أنْ تقدمَ علىٰ أعظم الحرمات، وترتكبَ أَفْظَع

---

(١) «وضاح اليمن»: اسمهُ عبد الله بن إسماعيل بن عبد كلال، المعروف بوضاح اليمن.

(٢) في عصر أمّ البنين لم تَقْبَلْ جاريةٌ من الجواري أنْ ينظر إليها الرّجال مجرَّدَ نظرة، فقد وَرَدَ أنَّه نظر رَجلان إلى جاريةٍ حسناء في بعض طُرق مكة، فمالا إليها، واستسقياها، فسقتهما، فجعلا يشربانه ولا يسيغانه، فعرفتْ ما بهما، فجعلت تقول:

هما استَسْقَيا مَاءً علىٰ غير ظَمأةٍ ... ليسْتَمْتِعا باللحظِ مِمَّنْ سَقَاهُما

فعجبا من ذلك، فدفعا الإناء إليها، فمرت وهي تقول:

وكنْتَ متىٰ أرسلتَ طرْفَكَ رَائِداً ... لقلبكَ يوماً أتعبتْكَ المناظِرُ

رأيتَ الذي لا كلّه أنتَ قادِرٌ ... عليه ولا عَنْ بعضه أنتَ صابرُ

(الآداب الشرعية ٣/ ١٢٤).

(٣) ويحضرني في هذا الموقف قول الزّبير بن عبد المطلب:

وأجْتَنِبُ الكبائِرَ حيثُ كانَتْ ... وأتْرُكُ ما هويتُ لما خشيتُ

الجرائم، وهي الخيانةُ الزَّوجية؟ وخيانةُ مَنْ؟! خيانةُ أميرِ المؤمنين وحاكمِ الدّنيا في عصره!!!.

وهي مَنْ؟! أختُ عمر بن عبد العزيز، وهما فيهما نفحةٌ عُمريّة تعودُ إلىٰ الفَاروق عمر بن الخطاب؟!

وفي أي عَصْر؟! في خير القُرون، القرن الهجري الأوّل؟!! خير القرون بشَهادة الحبيب الأعظم سيّدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ.

* إنَّ هذا ليس بغريبٍ أنْ تُتَّهمَ أمُّ البنين، فلقد رَمىٰ المنافقون والمرجفُون ـ مِنْ قَبْلُ ـ أمّنا الصِّديقة عائشة[١] بنت أبي بكر الصّديق ـ رضي الله عنهما ـ، ونزل القُرآن العظيمُ كاشفاً أحوالَهم، ومظهراً كرامةَ عائشة وبراءتها.

* ولم تكن عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ، أو أمّ البنين هما الوحيدتان في هذا الميدان، وإنّما رميتْ بعد ذلك زُبيدة[٢] بنت جعفر زوج الرَّشيد بقَصصٍ غريبة، وهي منْ أكرمِ نساءِ عَصْرها أصلاً وجوداً ومعروفاً وصيانة وديْناً. وكذلك العبّاسة[٣] بنتَ المهدي أختُ الرّشيد لم تَفْلَتْ هي الأخرىٰ من براثنِ الحاقدين وأهل الأهواء، وبعض الذين يَجْهلُون مقدار ومكانة المرأة عَصْر ذاك.

* لذلك رأيْنَا ـ ونحنُ نستعرض حياةَ وسيرةَ أمِّ البنين ـ أنْ نوردَ قصّةَ وضّاحِ اليمن، بل قَصَصَ وضّاح اليمن المزعومةِ، كيما نستوعبَ الصّورة

---

(١) اقرأ سيرة أمّنا عائشة الصّديقة ابنة الصّديق في كتابنا «نساء أهل البيت في ضوء القرآنِ والحديثِ» طبعة دار اليمامة بدمشق (ص١٠٣ ـ ١٦٦)، ففيه خير كثير، وبركة بإذن الله تعالى.

(٢) اقرأ سيرة زُبيدة ـ رحمها الله ـ في هذه الموسوعة، ولا حظْ أعمالها الخيريّة التي صنعتها على طريق الحجاجِ، تلك الأعمال التي تعجز عنها فحول الرجال، بل تقصر عنها همم ذوي الجد والنهى والاجتهاد.

(٣) سنلتقي العباسة بنت المهدي في كتاب آخر إن شاء الله، وبعنوان آخر مع ثلة من فضليات النِّساء، من بنات وأخوات الخلفاء.

كاملةً، ومن ثمّ نكشفُ ـ بعون الله ـ زيوفَ تلكم القَصَصِ الواهيّة، ونجلي الحقيقة من أجْلِ الحقيقة والحقِّ، ومن أجلِ الأمانة العلميّة، بل ومن أجْلِ إبراز صُوَرِ النِّساء العربيّات الحرائر اللواتي ضمَّخْنَ جِيْدَ الدَّهْر بأريجِ أخبارهن الحِسَان، وكُنَّ القدوة المُثْلىٰ لغيرهن منَ النِّساء علىٰ مَرِّ الأيّامَ والأزمان.

* تقولُ بعضُ كُتُبِ الأخبار والمصَادر ـ مع الجمع بينها ـ والتّصرف اليسير: إنَّ أمَّ البنين بنتَ عبد العزيز بن مروان كانت تهوىٰ وضَّاحَ اليمن الشَّاعرَ، وكان جميلاً، ولذا فقد لُقِّبَ بوضّاحِ اليمن لجماله، نَشَأَ هو وأمّ البنين صغيريْن فأحبَّها وأحبَّتْه، فكان لا يصبرُ عنها، حتى إذا بلغتْ حُجِبَتْ عنه، فطالَ بهما البلاء، فحجَّ الوليدُ بنُ عبد الملك، وزارَ المدينةَ فبلغه جمالُ أمّ البنين، وأدبها، فتزوّجها ونقلَها معه إلى الشَّام.

* وبرّحَ الحبُّ قَلْبَ وضّاح اليمن فتبعها إلى الشَّام، وجعل يطيفُ بقصرِ الوليد بن عبد الملك في كلِّ يومٍ لا يجدُ حيلةً، حتى رأىٰ يوماً جاريةً، فلم يزلْ بها حتى أَنِسَتْ به، فقال لها: هل تعرفينَ أمَّ البنين؟

فقالت: إنَّكَ تسألُ عَنْ مولاتي.

فقال لها: إنّها لابنة عمّي، وإنّها لتُسَرُّ بموضعي لو أَخْبَرِتِها.

قالت الجارية: فإنّي سأخبرُهَا خبرَك.

فمضتِ الجاريةُ، وأبلغتْ أمَّ البنين عنه، فأقبلتْ أمُّ البنين على الجاريةِ متلهِّفَةً وقالت لها: ويلك أَوَ حَيٌّ هو؟!

قالت: نعم يا مولاتي وهو قريبٌ من ها هنا!

قالت: قولي له: كُنْ مكانك حتى يأتيك رسولي، فلن أدعَ الاحتيالَ لك.

* ومكثتْ أمُّ البنين حيناً من الدَّهر لم يكنْ شيئاً مذكوراً، فاحتالتْ لوضّاح اليمن بحيلةٍ لطيفةٍ، إذ صنعتْ صُندوقاً خشبياً، فأدخلَتْه فيه، ثمَّ دخلَ القَصْر على هذه الصُّورة، فكان يُقيم عندها.

* ومكثَ وضّاحُ اليمن عندها حيناً داخل الصُّندوق الخشبي، حتى إذا

أمِنَتْ واطمأنتْ أخرجَتْه، فقعَدَ معها، وإذا ما خافتْ عينَ رقيبٍ، أو واشٍ، أو عذولٍ، وارتْهُ في ذلك الصّندوق ـ السّحري ـ ثمّ أقْفَلت عليهِ، وكأنَّ شيئاً لم يكنْ، وبراءة الأطفالِ في عينيها وعينيه!!

* قالتِ الأخبارُ: وأُهْدِي ذاتَ يوم للوليدِ بنِ عبد الملك زوجها جوهرٌ له قيمةٌ وقَدْرٌ، فأعْجَبَهُ واستحسنَهُ، فدعا خادماً له، وبعثَ بالجوهرِ معه إلىٰ أمِّ البنينِ وقال: قُلْ لها: إنَّ هذا الجوهرَ أعجبني، فآثرتُك به.

* فذهبَ الخادمُ ودخلَ من غيرِ استئذان، وعلىٰ غيرِ استحياء، ووضّاح عندها، فأدخلته الصّندوق وهو يرىٰ، ثمّ أقفلتْ عليه، فأدّىٰ إليها الخادمُ رسالةَ الوليدِ، ودفع إليها الجوهر، ثمَّ إنَّ الخادمَ قال لأمِّ البنين: يا مولاتي، هِبي لي مِنْ هذا الجوهر حَجَراً.

فقالت له: ويلك لا أُمَّ لكَ، وما تصنع أنتَ بهذا؟ لا يابن اللخناء ولا كرامة!!

* فخرجَ الخادمُ يجرِّرُ أذيال القَهْر والخيبة وهو حنقٌ على أمِّ البنين، وأَسرَّ ما رآهُ في نَفْسه، ولم يُبْدِ لها شيئاً، ومضىٰ، وأفرغَ ما بنفسه أمامَ الوليد، وحكىٰ له ما رآه، وما سَمِعَه، وما خَبِره وعاينه، ووصفَ له الصّندوق الذي رأىٰ وضّاح اليمن وقد دخَلَه.

فقال له الوليدُ: كذبتَ يابن اللخناء، كذبتَ لا أمُّ لك، وأمَر به فوجئَتْ عنقُه.

* ثم إنَّ الوليدَ نهضَ مسرعاً ولبسَ نعليه، ودخل على أمِّ البنين وهي جالسةٌ في ذلك البيت تمشطُ رأْسَها، وقد وصفَ له الخادمُ الصّندوق الذي أدخلتْ فيه وضّاحاً، وفيه صناديقُ أخرى؛ فجلس الوليدُ فوقَ الصّندوق المُدَّعَىٰ عليه، ثم قال لها: يا أمَّ البنين، لم حُبِّبَ إليك هذا البيت منْ بينِ بيوتك، فلِمَ تختارينَه؟!

قالتْ: يا أمير المؤمنين، أجلسُ فيه وأختاره، لأنَّه يجمعُ حوائجي كلّها، فأنا أتناولُها منه كما أريدُ منْ قرب.

فقال لها: يا أمّ البنين، هِبي لي صُندوقاً من صناديقك هذه.

قالت: يا أمير المؤمنين، هي وأنَا لكَ.

فقال: ما أريدها كلّها، وإنّما أريدُ واحِداً منها.

فقالت له: خُذْ أيّها شئتَ.

قال: أريدُ هذا الذي جَلستِ عليه.

قالت: يا أمير المؤمنين، إنَّ فيه شيئاً منْ أمورِ النّساء، وفيه أشياء أحتاجُ إليها، وغيره أحبُّ إليك منه.

فقال: ما أريدُ سواه.

قالت: خذْهُ يا أمير المؤمنين، هو لك.

* فدعا الوليدُ بالخدم، وأمرهم بحمل الصّندوق حتى انتهىٰ به إلى مجلس فوضعه فيه، ثم دَعا عَبيداً له عُجْماً، وأمرهم بحفرِ بئرٍ في ذلك المجلس، فحفروا عميْقاً حتى بلغُوا الماء، ثمّ دعا بالصّندوق، فوضعه علىٰ شفير البئر، ودنا منه وقال: يا صاحبَ الصّندوق، يا أيها الصّندوق، إنّه قد بلغَنَا عنك شيءٌ، إن كان حقّاً فقد دفنَّاك، ودفنَّا ذِكْرَك إلىٰ آخرِ الدَّهر، وإن كانَ باطلاً، فإنّما دفنّا الخشبَ، وما أهونَ ذلك، وما علينا في دفْنِ صُندوق مِنْ حَرَجٍ، ثمَّ أمرَ بالصّندوق فقُذِفَ به في البِئْرِ، وأَمر بالخادم النّمام فقُذِفَ في ذلكَ المكان، ثمّ هيْلَ عليهما التُّراب، وسُويتِ الأرض، ثمّ ما رؤي لوضّاح أثرٌ في الدّنيا بعد ذلك اليوم، ولا أبصرتْ أمُّ البنين أثراً في وجْهِ الوليد حتى فرَّقَ الموت بينهما.

* وزادت بعضُ الأخبار بأنَّ أمَّ البنين كانت تُوجَدُ في ذلك المكان تبكي، إلى أنْ وجدتْ فيه يوماً مكبوبةً على وجهها ميتة[1].

---

(١) انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٤٥ و٤٦)، ونوادر المخطوطات (٢/ ٢٧٣)، ومصارع العشاق (٢/ ١٩٢ و١٩٣)، وصفة جزيرة العرب للهمذاني (ص٣٢٤ و٣٢٥) مع الجمع والتصرف بينهما. وانظر الأغاني (٦/ ٢٢٤ ـ ٢٢٦) وانظر كتاب: ذمّ الهوى=

* وزادَ بعضُهم قوله: لما قَتَلُ الوليدُ وضَّاحَ اليمن، حجَّتْ بعد ذلك أمّ البنين محتجبةً لا تكلم أحَداً، وشخصتْ كذلك[1].

* هذه هي القصّة المزعومة التي شغلتِ النّاسَ وملأتِ الدنيا، وهي واهيةٌ من عدّة وجوه، ولا يمكن أنْ تُعْقَل أبداً، ومن ذلك خلوة أمّ البنين بوضّاح؛ ثم هل يُعْقَل أنَّ الوليد يجلسُ على صندوقٍ فيه ما فيه من ظنونٍ ولا يعرفُ ما بداخله؟! بل كيف حفرَ في مجلسه بئراً عميقة حتى خرجَ الماءُ، ثم دفَنَ الصّندوق دون أنْ يرىٰ ما بداخله، أو دون أنْ يتحدَّث أو يتكلّم مَنْ بِدَاخِلِهِ؟! وهل الوليد بلغَ حدّاً لا يكلِّم فيه زوجته عن عشيقها؟

* إنّ ظاهرةَ الوضع واضحةٌ في هذه القصّة وهي تريدُ أنْ تشيرَ إلى أنَّ أمَّ البنين امرأةٌ فاسدةٌ، وأنَّ الوليدَ ديوثٌ لا يأْبَه لعِرْضِهِ إذا نَالَه أحَدٌ، ناهيك بأنَّ هذه القصة مستوحاةٌ من قَصَص الفُرس في سَابِق الأزمان، أضفْ إلى ذلك كلِّه أنَّ الذي وضَع هذه القصَّة فيه نَفَس شُعُوبي، ومما يؤيد رأينا ما وَرَدَ أنَّه قد وقَعَ بين رجُلٍ من زنادقة الشُّعوبية، وبين رجلٍ من ولَدِ الوليد، وتسابّا وأغلظَ، كلُّ واحدٍ منهما علىٰ الآخر، وذلك في دولة بني العبّاس، فوضع الشّعوبي عليهم كتاباً زعم فيه أنَّ أمَّ البنين قد عَشِقَتْ وضّاحاً، فكانت تُدخله في صندوقٍ عندها، فوقفَ على ذلك خادم الوليد، فأنهاه إليه، وأراهُ الصُّندوقَ، فأخذه فدفنه[2].

* ومن القَصص المصنُوعةِ الموضوعةِ التي صيغت نَثْراً وشعراً، هذه القصّة التي مفادها أنَّ وضاحَ اليمن قد وفَدَ على الوليد بن عبد الملك، ومدحه بقصائد كثيرة منها:

وأَلْقَى ابنُ مَرْوَانَ الذَي قَد هَزَّهُ ... عِـرْقُ المكـارمِ والنَّـدىٰ فـأَقَلَّـهُ

= لابن الجوزي (ص ٣٧٣ ـ ٣٧٦) وقد ساق هذه القصّة بروايتين متقاربتَين. ويبدو أنّ هذه المصادر ترجع إلى رواية واحدة هي رواية الأغاني.

(١) الأغاني (٦/ ٢١): وهذا يعني أن أمَّ البنين كانت تحجُّ من قبل غير محتجبة، وتكلم الغادي والرائح؟! فتأمل!

(٢) انظر: صفة جزيرة العرب للهمذاني (ص٣٢٤).

فَعَلَىٰ ابن مروانَ السَّلامُ من امرئٍ   أَمْسَىٰ يَذُوقُ مِنَ الرَّقادِ أَقلَّهُ

* وكان وضّاح قد شبَّب بأمِّ البنين بنتِ عبد العزيز امرأة الوليد، وهي أمُّ ابنه عبد العزيز بن الوليد والشّرف فيهم، فبلغَ ذلك الوليدُ تشبيبَه بها، فأمر بطلبه، فأُتِيَ به، فأَمَر بقَتْله؛ فقال له ابنه عبد العزيز: لا تفعلْ يا أمير المؤمنين، فتحقِّقَ قوله، ولكنِ افعلْ به كما فعلَ معاوية بأبي دهبل[1]، فإنّه لما شبَّب بابنته، شَكاهُ يزيد، وسأله أن يقتلَه، فقال: إذاً، تحقّق قوله، ولكنْ تبرُّهُ وتحسنُ إليه، فيستحي ويكفّ ويكذب نفسه؛ فلم يقبلْ منه، ودفَنَه حيّاً[2].

* ومن القَصَص المصنوعةِ التي تشوِّهُ سُمْعَةَ أُمِّ البنين ما ذكره أبو الفرج الأصبهاني ـ ومعظم البلاء منه ـ أنَّ أمَّ البنين قد مَرِضَتْ، ووضّاح مقيمٌ بدمشقَ، وكان نازلاً عليها، فقال في علّتها:

حتّامَ نكتمُ حُزْنَنَا حتّامَا   وعلامَ نَسْتَبقي الدّموعَ عَلامَا

إنَّ الذي بي قَدْ تَفاقَم واعْتَلىٰ   ونَمَا وزَادَ وأورثَ الأَسْقَامَا

قَدْ أصبحتْ أمُّ البنينِ مريضةً   نَخْشَى ونشفِقُ أنْ يكونَ حِمَامَا[3]

---

(١) أبو دهبل: اسمه وَهْب بن زمعةَ بن أسد، من أشرافِ بني جُمح بن لؤي بن غالب، من قريش، كان أحد الشّعراء العشّاق المشهورين، له ديوان شعر من رواية الزّبير بن بكار، توفي سنة (٦٣هـ).

(٢) انظر: صفة جزيرة العرب (من ٣٢٣ و٣٢٤) بتصرف يسير جداً. وفي تصوّري أَرادَ واضعُ هذه القصّة أنَ يرمي أربعةَ عصافير بوقتٍ واحدٍ: معاوية ـ رضي الله عنه ـ وابنته، والوليد وزوجه. فالأوّل صحابي جليل القدر، وهل يُعقل أن تكون ابنته ممن يُتَغزل بها وهي تابعية كبيرةُ القَدْر؟
والثّاني مَلِكُ ثلاثةِ أرباعِ الأرض، وفتح البلدان، وكان تلاّء للقُرآن، وزوجه كذلك.
ونلاحظ أنَّ الأوّل ينصحُ ابنه يزيد ويأمره بالحلم والتّحلم.
والثّاني: ينصح أباه الوليد، إلا أنَّ الوليد لم يقبلْ النّصح، وقد وَأَدَ وضّاحاً وهو حيٌّ؟! فتأمل!!

(٣) انظر: الأغاني (٦/ ٢٢٦)، ووفيات الأعيان (٢/ ٤٥)، وتهذيب تاريخ دمشق=

* ومنَ القَصَصِ العجيبةِ التي طَابَ للواضعِيْن نَسْجُها هذه القصّة التي تقول: استأذنتْ أمُّ البنين زوجَها الوليدَ بنَ عبد الملك في الحجِّ، فأذن لها، وكَتَبَ الوليدُ يتوعّدُ الشُّعراء جميعاً بألا يذكرها أحدٌ منهم، أو يذكر أحداً ممّن معها. فقدمتْ مكةَ وتراءت للنّاس، وتصدَّى لها أهل الغَزَل والشُّعراء، ووقعتْ عينُها على وضّاح اليمن، فهويته، وأنفذتْ إلى كُثَيّر عزَّة، وإلىٰ وضّاحِ اليمن أنْ شَبِّبا بي، فَكَرِهَ ذلك كُثّير عزّة، وشبَّب بجاريتها غاضرة، وذلكَ في قوله:

شَجا أَظْعَان غَاضِرةَ الغَوادي بغَيْرِ مَشُورةٍ عَرضَاً فُؤادي

وأمّا وضّاحُ اليمن، فإنَّه صرَّح، فبلغَ ذلك الوليد فقتله.

* وقيل: إنَّه مدحَ الوليد، فوعدته أمّ البنين أنْ تساعِدَه وتعينَه على رفده، فقدمَ على الوليد وأنشده:

صَبَا قَلْبِي ومَالَ إليْكِ مَيْلا وأرّقَنِي خَيَالُك يا أُثَيْلا[1]
يَمَانيّة تلمُّ بِنَا فتبْدي دقيْقَ مَحَاسنٍ وتكنُّ غَيْلا

وهي أبياتٌ مشهورةٌ، فأحسنَ الوليد رفْده، ثم نُمِيَ إليهِ أنَّه يشبِّبُ بأمِّ البنين، فجفَاه، وحَجَبه، ودبَّر في قتْلِه، واختلسه ودفَنه في داره[2].

* ومنَ القَصصِ المصنوعةِ والموضوعةِ هذه القصّة التي غابَ عن واضِعها التّاريخ الصّحيح للخلفاء، وإنّما وضَعها دون أنْ يلتفتَ إلى زمانٍ أو إلى مكان، فهذا لا يهمُّ؛ إنّما يهمُّ أنْ تنطليَ القصةُ على مَنْ لا يعرفُ أصولَ التّاريخ.

= (٧/ ٢٩٩)، وإن ظاهر الصنعة تبدو تماماً في هذه الأبيات، وأنها قيلت بعد أكثر من قرن من الزمن من عصر أمّ البنين.

(١) «أثيلا»: ترخيم أثيلة، وهو اسم امرأة.

(٢) انظر: أعلام النساء (١/ ١٥٢ و١٥٣) نقلاً عن الأغاني (٦/ ٢١٩)؛ ومن الملاحظ أن قصص الغرام هذه كلها وُضِعَتْ في حج أم البنين، ثم لاحظْ أنها تدعو الشّعراء كي يتغزلوا بها، وتحضُّ وضاحاً بذلك، فهل يستقيم ذلك؟! لا شك بأن هذه فرية كبيرة.

* تقولُ القصة: بلغَ الوليدُ بنُ عبد الملك تشبيبَ وضّاحٍ بأمِّ البنين، فهَمَّ بقتله، فسأله عبد العزيز ابنه فيه وقال له: إنْ قتلته فَضَحْتَني وحقَّقْت قوله، وتوهّم النّاس أنْ بَيْنَه وبين أمّي ريبة. فأمْسَك عنه على غيظٍ وحَنَق حتى بلغَ الوليد أنّه تعدى أمّ البنين إلى أخته فاطمةَ بنتِ عبد الملك، وكانت زوجة عمر بن عبد العزيز، وقال فيها:

بنْـتُ الخَليفَـةِ والخليفـةُ جـدُّهَـا أخـتُ الخليفـةِ والخليفـةُ بَعْلُهـا
فَـرِحَـتْ قـوابُلهـا بهَـا وتَبـاشَـرتْ وكَـذاكَ كَـانُـوا فـي المَسـرَّة أَهْلُهـا

فأحْنَق واشتدَّ غيظُه وقال: أَمَا لهذا الكلبِ مُزْدَجرٌ عن نسائِنا وأخَواتِنا، ولا لَه عنّا مذهبٌ؟! ثمّ دعا به فأُحْضِر، وأَمَر ببئرٍ فحُفِرتْ ودفَنَه فيها حيّاً[1].

* وهذه القصّة ظاهرة الخطأ من وجوهٍ كثيرة، منها: أنَّ زوجَ فاطمة بنت عبد الملك لم يكنْ خليفةً حينما صُنِعَتْ هذه الأبيات، وإنّما كان أميراً على المدينةِ المنورةِ من سنة (٨٦ هـ إلى سنة ٩٣ هـ) حيث ولاّهُ الوليد نفسه على المدينة، لما له منْ منزلةٍ عندهم، ولخؤولته في آلِ الخطاب؛ ثمَّ إنَّ واضعَ هذه القصّة نفسه يقول: إنَّ الوليد قد دفَنَ وضّاح اليمن حيّاً، والوليدُ توفي سنة (٩٦ هـ)، وعمر بن العزيز كان خليفة من سنة (٩٩هـ إلى ١٠١هـ) فكيف يصحُّ ذلك؟! ثم هل أعاد الوليد سُنَّةَ الوأْدِ وبعثَها من جديد بعد مضي قرنٍ منَ الزَّمن على اندثارها؟ إلا أنَّه في هذه المرّة يئِدُ الشُّعراء الذين يتغزّلون بالنِّساء؟ وكان بعضُ العرب قِدْماً ـ في الجاهليّة ـ يئدونَ البنات إذا ما بُشِّر أحدُهم بالأنثى.

* ومن الأخبارِ والقَصَص الشَّهيرة التي تُحكى عن أمِّ البنين قصّة دخول عزّة صاحبة كُثير بن عبد الرحمن الشّاعر المشهور، فقد رُوي أنَّ عزَّة قد دخلتْ على أمِّ البنين، فقالت لها أمُّ البنين: رأيت قول كثير فيك:

قَضَى كلُّ ذي دَيْنٍ فَوفَّىٰ غَريمه وعـزَّةُ مَمْطـولٌ مُعَنّـىً غـريمُهـا

فما هذا الدَّيْن يا عزّة؟

---

(١) الأغاني (٦/ ٢٢٧).

قالت: كنت وعدته قُبْلة، فتحرّجْتُ منها.

فقالت أمَّ البنين: أنجزيها، وإثمها عليَّ.

قال الرّاوي: فتندمتْ أمُّ البنين على قولها هذا، وأعتقتْ عند ذلك رقاباً، فقد أعتقتْ لكلمتها هذه أربعينَ أو سبعين رقبة، وكانت إذا ذكرتْها بكَتْ وقالت: ليتني خرِستُ ولم أتكلّم بها[1].

* ويكفي أنْ تُردَّ هذه الرّواية، بأنَّ عزَّةَ قد تحرجت وتأثّمت وهي امرأةٌ لم تشتهر لولا شِعْرُ كُثّير، وهي عزّة بنت جميل بن حفص الغِفاريّة الضّمرية التي هامَ بها كثيّر الشّاعر المشهور؛ وأمّا أمُّ البنين ـ رحمها الله ـ فلهَا مكانةٌ عُظْمَى في عالَم التّقيّات، والعالمات، والقَانتات، فهل تُقْدم علىٰ الأَمْر بمعصية فظيعة كهذه؟!

* لقد وصلتنا كثيرٌ منَ الصُّور الشَّائهة عن فضلياتِ النّساء في صَدْرِ الإسلام، أرادَ واضعوها أنْ ينالوا من عفّتهن وصلاحهن ليفسدوا غيرهن ممن أتىٰ بعدهن، ولله درُّ القائل[2]:

وأَفْسدُوا بِلسَانِ الحِقْد حاضِرَنا ... وَزَوَّرُوا بِيَراعِ البُغْضِ مَاضِيْنا

---

(١) انظر: الشّعر والشّعراء (١/ ٥١٠)، وشذرات الذهب (٢/ ٣٦ و٣٧)، وعيون الأخبار (٤/ ٩٢)، ومرآة الجنان (١/ ٢٢٢)، وصفة الصفوة (٤/ ٢٩٩ و٣٠٠)، وأعلام النساء (١/ ١٥٣)، ووفيات الأعيان (٤/ ١٠٩)، والأغاني (٩/ ٢٥)، والبصائر والذخائر (٧/ ٤٤ و٤٥)، وذمّ الهوى (ص٢٢٥)، والدرّ المنثور لزينب فواز (ص٣٤٣) ومن العجيب أن زينب فواز لم تترجم لأمّ البنين، بل ترجمت لمن هي أدنى منها وأقل شهرة، ولم تورد سوى هذا الخبر في ثنايا ترجمتها لعزة صاحبة كثير. وقد نَسبَ السّراج صاحب كتاب «مصارع العشاق» أن هذه القصة قد حدثت بين عزة وسكينة بنت الحسين بن علي، وفي هذا مصيبة أشد وأكبر وأنكى. انظر (مصارع العشاق ٢/ ٨٤).

(٢) هو صديقنا سليمان محمد محمد غزال من مواليد غزة (١٩٣٨م) وشعره سلس يفيض عذوبة، ورقة، وجزالة. وله قصائد جميلة في مختلف المناسبات، وقد جمعها في ديوان وهو مطبوع بعنوان «همسات الفؤاد».

* لقد كان مجتمع القرن الهجري الأوّل هو القدوة، والناس ما زالوا قريبين منْ أنوارِ الهدي النّبوي، وجميعِ العادات والتّقاليد لا تخرجُ عن الأخلاقِ والفضائلِ الإسلامية.

* إنَّ التّغيّرات في السّلوك والعَادات والأخلاقِ لا تزول في عَشْر سنين، أو ربع قَرْنٍ، بل نصف قرن، فكيف نرىٰ تغيّر الحرّة القرشية الدّيِّنَة الصَّيِّنة أمّ البنين[1] وغيرها من فواضِل النِّساء، وتركها الآداب الفاضلة، وجَرْيها وراء الشّهوات والعشْق والغرام والغزل؟!

* لقد كانت أمُّ البنين وغيرها من نساءِ عَصْر التّابعين، وبنات الصّحابة، وبنات العلماء، ومَنْ نشأن في ذلك العَصْر المثل الأعلىٰ في العِلْم والأدب والفَضْل والسُّلوك[2].

---

(١) مرّةً أخرى أدعو القارىء الكريم ليطلع على كتابنا «نساء من عَصْر التابعين» بجزأيه، ليجد مصداق ما ذكرناه، وليلاحظ كيف كان لهنّ ذلك الدور العظيم في رواية العلم ونقل الأحاديث إلى السّلف، وإلى كبار علماء الدنيا في عصرهن.

(٢) من المعروف أنَّ النساء الحرائر كنّ يستغربن أعمال الخنا والزّنى في الجاهلية، فكيف المسلمات العفيفات، القرشيات الطاهرات؟!
أمّا اللواتي كنّ يقمن بالبغاءِ في الجاهلية، فَلَسْنَ من قريش، ولا هن من صميمها، بل كُنَّ من الإماء السّواقط، ويدلُّ على ذلك قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [النور: ٣٣]، لأن الفتيات في عرف القرآن الكريم لا تُطلق إلا على الإماء، يدلُّ عليه قول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ [النساء: ٢٥]، ولو وُجد بغيٌّ بين حرائر العرب لما خصَّ النهي عن البغاءِ بالإماء، فتخصيص النّهي بالإماء يدل على أنَّ البغاء لم يكن بين حرائرِ العرب، وأن أنفةَ العرب عن بغاء الحرائر قد أغنى عن نزول النهي عنه.
وقد استبعد ابن خلدون مَنْ هي دون أمِّ البنين في المنزلة العلمية، ولكنّهما مشتركتان في طيب عرق النَّسب، فقال: ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين قصّة العباسة أخت الرشيد مع جعفر بن يحيى وأنها سبب نكبة البرامكة. ثم يقول: وهيهات ذلك من منصب العبّاسة في دينها وأبويها وجلالها، وإنّها بنت عبد الله بن=

* إنَّ مَنْ يتصدّى لقراءة الأخبار القديمة عن كرائم النِّساء وفضلائهن، عليه أنْ يتصدّى لتمييز الخبيث منَ الطَّيِّب، وأن يجلوَ الحقيقة لأهل الحقِّ ليعرفوها، فليس يعقل أن يكونَ مجتمع نساء القرن الهجري الأوّل مجتمعاً خلعتْ فيه المرأةُ الحرّةُ الحسيبةُ النَّسيبةُ، والأديبةُ الأريبةُ، والحافظةُ العالمةُ، قناعَ الحياءِ، وجالستِ الشّعراء، ونادمتِ الخُلعاء والمجّان، وعشقتْ أخابثَ النَّاس لحلاوة شعرهم ولطيف كلامهم؟!

* إنَّ الذين صاغوا تلكم القَصَص، وصنعوا تلكم الأخبار، واخترعوا حكايات خرافية، وادّعوا أنّهم أخذوها منْ روايات موثُوقة، ومصادر وثيقة، فدعواهم واهية، فيها تعميم ولا تستندُ إلى دليلٍ علمي صحيح، بل إنَّ كلَّ ما جاؤوا به من رواياتٍ منقوضٌ منْ أساسِهِ، فاعتمادهم على كتُب الأدب بعامّة، وعلى كتاب الأغاني للأصبهاني[1] بخاصّة، ليس حجّة.

* صحيح أنَّ الأصبهاني قد ساقَ معظم أخباره بالإسنادِ عن رجالٍ ذَكَرَهم، والرّواية بالإسناد تلقي في روع القارىء الثِّقة، لذلك اطمأن بعضُ الباحثين إلى روايات الأغاني وأخبارِ الأصبهاني، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا، ضلُّوا في

= عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده، والعباسة بنت المهدي بن أبي جعفر المنصور ابن محمد السجاد ابن علي بن عبد الله بن عباس، ابنة خليفة، وأخت خليفة، محفوفة بالملك العزيز، والخلافة النبوية، وصحبة الرسول وعمومته، قريبة العهد من بداوة العروبة، وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش، فأين يُطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها، أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فُقد من بيتها؟! (مقدمة ابن خلدون ص١٥) بتصرف. أقول: إن أم البنين جدها صحابي وهو مروان بن الحكم.

(١) نقل ابن كثير ـ رحمه الله ـ عن أبي الفرج بن الجوزي قوله عن الأصبهاني: ومثله لا يُوثَقُ به، فإنّه يُصَرّح في كتبه بما يوجبُ العِشْق، ويهون شرب الخمر، وربما حكىٰ ذلك عن نفسه، ومَنْ تأمّل كتابه الأغاني رأى فيه كل قبيح ومنكر. (البداية والنهاية ١١/ ٢٦٣).
وذكر ابن حجر عنه بأنّه كان أكذب النّاس. (لسان الميزان ٤/ ٢٢٣).
وقال أيضاً: كذّاب، مارق، من الغلاة. (لسان الميزان ١/ ٣٧٣).

حقَائقِ التّاريخ، وأضلّوا من بعدهم في حقائق الرّجال والنّساء وأخلاقهم.

* ولكي نزفَّ الحقيقة إلىٰ أحباب الفضائل وعشّاق المكارم، ونقيمَ لها من الصِّدق مركباً، نسوقُ هنا كلام الدكتور زكي مبارك عندما تحدّث في كتابه «النّثر الفني في القرن الرّابع الهجري» عن الأصبهاني وكتابه فقال: أريدُ أنْ أنصَّ على ناحيتَيْن في الأصبهاني وكتابه، لم أجدْ من تَـنَبَّه لهما منَ الباحثين، ولهاتين النّاحيتين أهميةٌ عظيمةٌ في فَهْم الحياةِ الأدبيّة، وسيكون لهما أَثَرٌ عظيمٌ في دعوة المؤلفين إلى الاحتياطِ حين يرجعون إلى كتابِ الأغاني، يتلمسون الشّواهد في الأدب والتّاريخ.

النّاحية الأولى: خاصة بالأصبهاني، تلك النّاحية هي خُلقُه الشّخصي، فقد كان الأصبهاني مُسْرفاً أشنعَ الإسراف في اللذات والشّهوات، وقد كان لهذا الجانبِ من تكوينه الخلقي أثرٌ ظاهرٌ في كتابه، فإنَّ كتابَ الأغاني أَحْفَلُ كتابٍ بأخبار الخلاعةِ والمجون، وهو حينَ يعرضُ للكتّاب والشّعراء يهتمُّ بسرد الجوانب الضَّعيفة من أخلاقهم الشّخصية، ويهملُ الجوانب الجدّية إهمالاً يدلُّ على أنّه كان قليل العنايةِ بتدوين أخبار الجدّ والرّزانة والتّجمل والاعتدال.

وهذه النّاحية من الأصبهاني قد أفسدت كثيراً من آراءِ المؤلّفين الذين اعتمدوا عليه. إنّ إكثار الأصبهاني منْ تتبع سقطات الشّعراء، وتلمس هَفَوات الكتاب، جعل في كتابه جواً مشْبَعاً بأوزارِ الإثم والغواية، وأذاعَ في النّاسِ فكرةً خاطئةٍ هي اقتران العبقرية بالنّزقِ والطّيش، والخروج على ما أَلِفَت الجماهير من رعاية العرف والدِّيْن.

أمّا النّاحية الثّانية: فهي خاصة بكتاب الأغاني، تلك النّاحية هي نَظْم ذلك الكتاب، ففي مقدمته عباراتٌ صريحة في الدلالة على أنَّ مؤلفه قَصَر اهتمامه، أو كاد على إمتاع النّفوس والقلوب والأذْواق، فهو كتابُ أدبٍ لا كتاب تاريخ، وأريدُ بذلك أنَّ المؤلف أرادَ أنْ يقدِّمَ لأهلِ عصره أكبر مجموعةٍ تُغذّى بها الأندية، ومجامع السَّمر، ومواطن اللهو، ومغاني الشّراب، وإنّه ليحدثنا في المقدمة بأنّه أتىٰ في كلِّ فصلٍ من كتابه بِفِقَر جدّ

وهزلٍ، وآثار وأخبارٍ، وسِيَرِ أشعارٍ متصلة بأيام العرب المشْهُورة، وأخبارها المأثورة، وقَصَصِ الملوك في الجاهليّة، والخُلفاء في الإسلام، ولهذا النّحو في التّأليف قيمةٌ عظيمةٌ جدّاً، إذا فَهِمه القارىء علىٰ وجهه الصَّحيح، فهو دليلٌ على خصوبةِ التَّصورِّ والخيال، وبرهان على أنّ كُتَّاب اللغةِ العربيةِ لم يُحْرمُوا منَ القَصَص الشَّائق الخلاّب، ولكنَّ الخَطَرَ كل الخطرِ، أنْ يطمئنَ الباحثون إلى أنَّ لرواية الأغاني قيمة تاريخية، وأنْ يبنوا على أساسها ما يشاؤون من حقائق التّاريخ[1].

* ويمكننا الآن أنْ نقول بدورنا: يجب أنْ ننتبهَ إلىٰ روايات الأغاني وأخباره، وروايات غيره من كُتُب الأَدَب، ونعرضها علىٰ الميزان الذي نَهَجه أهل الحقّ في أحكامهم، حتى تتوضّح صورة أيّ امرأة ذكرها الأصبهاني، أو ترجمة أي رجلٍ أو شاعرٍ ممن أوردهم، لكي نكونَ على بصيرةٍ ونورٍ من الأمر.

* كما نودُّ أنْ نشيرَ إشارةً أخرى إلى أنَّ كثيراً من المجالسِ الأدبيّة التي كانت تُعْقَدُ في بيوتِ الأدباءِ، وفي مجالسِ بعض الأمراء بعد القَرنِ الهجري الثّالث، كانت تشوبُها كثيرٌ من الأخبارِ الموضوعة لتتزيّن تلكم المجالس، ولإثراءِ التّاريخ بغرائبِ الأخبار ـ كما زعموا ـ ولهذا نجدُ أنَّ كثيراً منَ القَصَص مختلفة لا تتّفقُ وحقائق التّاريخ، بل نجدُ في القصّة نفسها تناقضاتٍ كثيرة، لا ينظمها خَيْطٌ واحد، ومن هنا كانت تلكمُ المجالس عرية عن الصَّواب، يهذي فيها بعض المتحذلقين عن فلان وفلانة، ويهذي بالقيلِ والقال، ليُقال عنه أخباري، ولله دَرُّ مَنْ قال:

لِقَـــاءُ النَّــــاسِ لَيْـــسَ يُفيْـــدُ شيئـــاً
سِـــوىٰ الهَـــذَيَـــانِ مـــنْ قِيْـــلٍ وقَـــالِ

فـــأقْلِـــلْ مـــنْ لقـــاءِ النَّـــاسِ إلا
لأَخْـــذِ العِلْـــمِ أو إصْـــلاحِ حَـــالِ

---

(١) النثر الفني في القرن الرابع الهجري (ص٢٨٨ ـ ٢٩٠).

مـعَ فَاضِـلاتِ الخَـالِدَات:

* لقد كانتْ أمُّ البنين ـ رحمها الله ـ من أكثر النِّساءِ في زمانها عبادةً وصلاةً وصلاحاً، وحجّتْ مِراراً تبتغي مرضاة اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ، وكانت في حياتِها مثالاً ميموناً للمرأةِ الذَّاكرة العابدةِ الموصولةِ القلب بالله تعالىٰ، اتخذتِ الذّكْرَ أُنْساً لوحدتها، وغذاءً لروحها، وشفاءً لقلبها، وزاداً لمعادها، ولله دَرُّ القائل:

اتَّخِـــذِ اللهَ مُـــؤْنِســـاً ودَعِ النَّـــاسَ جَـــانِبـــا
وتَشَـــاغَـــلْ بِـــذِكْـــرِهِ إنَّ فـــي ذِكْـــرِهِ الشِّفَـــا[1]

* أمّا في محاسنِ الجودِ والسَّخاء، فلها أخبارٌ حِسَان، ولها المستجادُ من فعلات الأجْواد، وقد مَرَّ بعضها معنا.

* وخلاصة القول: إنَّ أمَّ البنين كانت ذِرْوَةَ كلّ فضيلة، وكلّ مكرمة، وقل أنْ يجودَ الزّمان بمثلها.

* وعاشت أمُّ البنين خلافة زوجها الوليد، وبموته في سنة (٩٦ هـ) لم نعد نَسْمع عنها شيئاً يذكر[2]، وأغلبُ الظَّنِّ أنها توفيتْ في بدايةِ القرنِ الثّاني الهجري في مدينةِ دمشق، بعد أنْ ظلّتْ مشتغلةً بالعباداتِ والصَّدقاتِ وأعمال البِرّ والخيراتِ وجَبْر العثَرات.

* أمّا دارُها فقد كانت بدمشقَ قرب طاحونة الثَّقفيين المعروفة في زمنِ

---

(١) طبقات الحنابلة (٢/ ١٥٥).
(٢) هناك خَبَرٌ أورده ابن عساكر ـ رحمه الله ـ يُشْتمُّ منه أنها قد لزمتْ أخاها عمر بن عبد العزيز، حيث أورد ابن عساكر بسنده عن إبراهيم بن أبي عبلة، قال:
دخلتُ على أمّ البنين وهي تعالج قدراً لها، فقلت: ما هذا؟
فقالت: شيءٌ اشتهاه أمير المؤمنين، فأنا أعالجه.
قال ابن عساكر: لعلها كانت تطبخ لأخيها عمر، والله أعلم.
(تاريخ مدينة دمشق تراجم النساء ص٤٨١).

ابن عساكر[1] بطاحونة القلعة. وكانت لها دار أخرى خارج باب الفراديس على يسرةِ المار إلى المقبرة[2].

* تلكم ـ أحبّائي ـ هي أمُّ البنين بنت عبد العزيز التي خلدت في عالم فضليات النِّساء، وكانت منَ اللائي عَمَرن المحامد في ميادينِ الفضائل، وأرجو أنْ أكونَ قد وفَّيْتُ حقَّها، وعرضتُ سيرتها عرضاً حسَناً صحيحاً يتناسبُ مع مقدارها وشأنها.

* وتبقى أمُّ البنينِ خالدةً مع الخالداتِ في تاريخِ النِّساء، وتواريخِ الفضلياتِ اللاتي حفظَ الدهْرُ مقامهن، فلقد رأينا صوراً من صفحاتِ حياتها، وكلّها وضيئة مباركة على الرغمِ مما نسب إليها بهتاناً وزوراً وهوى.

* فرحمَ الله أمّ البنين، وأخاها عمر بن عبد العزيز، وأجْزلَ مثوبتها، وأسكنها عليين، وغَفَرَ لنا ولها؛ اللهم وفّقنا للصَّواب وقولِ الحقِّ، ومعرفة الحقّ، والسَّير على طريقِ الحقّ، وآخر دعوانا أن الحمدُ للهِ ربّ العالمين.

* * *

(١) توفي ابن عساكر في رجب سنة (٥٧١هـ) ودُفنَ بدمشق في باب الصغير.
(٢) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٤٨٠)، وأعلام النّساء (١/ ١٥٣ و١٥٤).



٤

أمّ جعفر بن يحيى



امْـرأةٌ مِنَ العَصْرِ الـذَّهَـبِي:

* هذه امرأةٌ من نساءِ العصر العبَّاسي الأوَّل، ذلك العصر الذي أطلقَ عليه المؤرِّخُون: العَصْر الذّهبيّ، لما شَهد من نهضةٍ علميّةٍ وعمرانيّة واقتصاديّة عمَّتْ جميعَ الأقاليمِ التي تبسطُ عليها الخلافةُ سجافَها من الشَّرقِ إلى الغربِ، ومن الشّمال إلى الجنوبِ.

* وهذه المرأةُ شهدتْ أحداثاً متموجة في حياتِها، فقد عاشتْ حيناً منَ الدَّهْرِ في ثيابِ الملوك، يَقِفُ عند رأسها مئاتُ الوصيفاتِ والمملوكاتِ ينتظرْنَ إشارتها، ويسارعنَ إلى قضاءِ أوامرها؛ ثم دالتْ تلكمُ الأيامُ فعاشتْ شطْرَ حياتها الآخر ترجو نوالَ النَّاس، ولا يأْبَهُ لها أحدٌ، حتى إنَّ التَّأَريخَ قد نسيَ أو تناسىٰ مكانَتَها.

* ولعلَّ الوقتَ قد حانَ لمعرفةِ هويّةِ هذه المرأة؛ إذن فلنقرأ بطاقةَ تعريفها، فهي أمُّ جعفر بن يحيى البرمكيّ، وتدعىٰ فاطمةُ بنتُ محمّد بن الحُسين بن قحطبة[1]، إحدىٰ نساء الوزراء، وإحدى أمّهات أشْهَر الوزَراء في العَصْر العبّاسي، وإحدىٰ النّسوة البرمكيّات اللواتي لمَعَت أسماؤُهن في قصورِ الخُلفاء.

* ولا نعلمُ كثيراً عن مراحلِ نشْأَتِها، وعن بدايةِ تربيتها، والجو الذي نشأتْ فيهِ في مقْتَبَلِ حياتها، إلا أنَّ مجملَ الأخبارِ التي وصلتْنَا عنها تشيرُ إلى رجاحةِ عقلها، ونفاذِ رأيها، وصفاءِ نظرتها، وقوّة عارضتها، فقد نضَّرتْ جوانبَ التَّاريخ النَّسوي بموقفٍ ندي، وكلامٍ رقيقٍ يشيرُ إلى ما انحسرَ عنه عقلها من نثْرٍ جميلٍ، وإلىٰ ذلك الشِّعْر الجَميل الذي تختزنُه ذاكرتُها في المواقفِ الصَّعبة.

---

(١) انظر العقد الفريد (٥/ ٦٢ ـ ٦٥)، ومروج الذّهب للمسعودي (٣/ ٣٩٥)، ووفيات الأعيان (١/ ٣٤١) وأعلام النّساء (١/ ١٩٦ ـ ١٩٩)، وغيرها من الكتب المتنوعة من مثل: تاريخ الطبري، والوزراء والكتاب للجهشياري، وصبح الأعشى للقلقشندي وغيرها كثير. وقيل: اسمها: «عتّابة».

* وحينما نتأَمَّلُ موقفَها مع هارونَ الرّشيد ـ بعد مَقْتل ابنها جعفر بن يحيى ـ ندرك أنَّ كلامَها وكلماتِها كانت قِطَعاً من قلبِها ومشاعرِها وعقلِها وفهمِها.

* ولما رحْتُ أدرسُ كلامَها مع الرّشيد ألفيتُ أنَّ أمَّ جعفر هذه واحدةٌ من فصيحاتِ نساءِ العصرِ العبّاسي، وبليغاتِ نساء الوزراءِ اللواتي حفظَ الدّهر مقالاتهن، واعترفَ بمقاماتهن، وسجّلَ آثارهن، وبدائعهن.

* لقد استمدتْ وحيَ البلاغةِ، وسحرَ البراعةِ، وهمسَ البيانِ من صبيبِ قلبها، وخطراتِ سرائرها، على الرغمِ من صعوبة الموقف الذي كانت تَقِفه بين يدي الخليفة هارون الرشيد مَلِكِ ثلاثة أرباع الأرضِ يوم ذاك.

* وعلىٰ الرّغمِ مِن أنَّ ابنيها جعفر بن يحيى، والفَضْل بن يحيى كانا من خواصّ الرّشيدِ؛ إلا أنَّ أمَّ جعفر كانت قد أرضعتْ هارون الرّشيد مع الفضلِ؛ ويبدو أنّها قد نهلتْ من ينابيعِ الثّقافة ومواردِ العلم عصر ذاك، وعُرِفَتْ بجودةِ القريحةِ، وصفاءِ الذّهن، وبلاغةِ المقال، وقد شهدَ لها بهذا أهل الفنّ في هذا المجالِ.

* وقد عُرفتْ أمُّ جعفر أيضاً بحضورِ البديهة، وسلامةِ الأدب، وجمالِ الكلام، فقد قيل لها يوماً عن ولديها:

يا أمّ جعفر! بعضُ النّاس يفضِّلُ جَعْفراً على الفضلِ، وبعضهم يفضِّلُ الفضلَ على جعفر.

فقالت: مازلنا نعرفُ الفَضْل للفضلِ[1].

* وهذه الإجابةُ ـ كما تلاحظ ـ تدلُّ على تمكّنِها من زمامِ الفصاحةِ، وناصيةِ البلاغة، ورأس البيان.

* وعندما أذنَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ ببلاءِ البرامكةِ، وزوالِ دولتهم، وقَتْلِ جعفر البرمكي، ظلّتْ أمُّ جعفر متّزنةً، تحتفظُ بهدوئِها، ورباطةِ جأشها،

---

(١) انظر: أعلام النساء (١/ ١٩٩).

وتنثالُ على لسانِها روائعُ العباراتِ، وبدائعُ الألفاظ.

* أمّا سببُ نكبةِ البَرامكة، فذلك شيءٌ ذكرته كُتُبُ التّاريخ وفي مقدمتها: تاريخُ الطّبري، وكاملُ ابنِ الأثير، وبدايةُ ونهاية ابن كثير، والمصادرُ الأدبيّة وكتبُ التّراجم وغيرُها من كتبِ المعارف المتنوّعة.

* وبعد أنْ نكبَ الرشيدُ البرامكة، استصفىٰ أموالَهم، وأخذ ضياعَهم، ومتاعَهم، فوجدَ لهم ممّا حباهم به اثني عشر ألف ألف، ووجدَ من سائرِ أموالهم ثلاثين ألف ألف، وستمئة وستة وسبعين ألفاً.

* وأمّا غيرُ الأموالِ من الضّياع والغلاّت، والأواني فشيءٌ لا يُوصَفُ أقلّه، ولا يُعرفُ أيسرُه، فَضْلاً عن جميعه، إلاّ مَنْ أحصىٰ الأَعْمال، وعرفَ منتهىٰ الآجال[1].

دُخُولُهَا عَلىٰ الرَّشِيْدِ:

* روىٰ سهلُ بنُ هارون[2] قصَّة أم جعفر فقال: كانت أمّ جعفر بن يحيى قد أرضعتْ هارون الرّشيد مع ابنها جعفر بن يحيىٰ، لأنَّه كان رُبِّي في حجرِها، وغُذِّي بِرسلها[3].

---

(١) انظر: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٢/ ٣٩٧) طبعة دار ابن كثير المحقّقة.

(٢) سَهْلُ بنُ هارون بن راهبون، يُكنى أبا عمرو، من أهل نيسابور، نزلَ البصرة فنُسبَ إليها، ويُقال: إنّه كان شعوبياً يبغضُ العرب. انفردَ سهل في زمانه بالبلاغة والحكمةِ، وله يدٌ في النّظم والشّعر، كان كاتباً للمأمون على خزانةِ الحكمةِ وخازناً لها، صنَّفَ كتاباً في مدح البخلِ، ثم أهداهُ للحسن بنِ سهل واستماحه، فكتبَ إليه الحسن: قد مدحتَ ما ذمّه اللهُ، وحسّنت ما قبحه الله. ولم يعطه شيئاً. وكان سهلُ بن هارون من أبخلِ الناس، وله في البخل وغيره نوادرُ حسنة، أوردَ الجاحظُ شيئاً منها. وله كلماتٌ في غايةِ البلاغة، من مثل قوله: حقٌّ على كلّ ذي مقالة أن يبدأ بحمدِ الله قبل استفتاحها، كما بدىء بالنعمة قبل استحقاقَها. وله نظم جميل أيضاً. مات سنة (٢١٥ هـ).

(٣) «غذي برسلها»: غُذي بلبنها. والصَّحيح أن الذي أرضعته هو الفضل بن يحيى الذي ولد قبل الرشيد بسبعة أيام (الكامل ١/ ١٠٦).

* فنشأَ هارون الرّشيد، وقد حَفِظ لها عنايتها به، فكان يشاورُها في بعضِ أموره مُظهراً لإكرامِها والتبرّك برأيها.

* وكانَ هارونُ الرشيد قد آلىٰ وهو في كفالتِها ألا يحجبها عنه، ولا استشفعَتْه لأحدٍ إلا شفَّعَها فيه.

* وكانت أمُّ جعفر قد آلتْ عليه ألا دخلتْ علىٰ هارون إلا مأذوناً لها، ولا شفعتْ لأحدٍ لغرضٍ دنيا، أو مقترف ذنباً.

* قال سهل بنُ هارون متحدّثاً عن أعمال أمّ جعفر بن يحيى: فكم منْ أسيرٍ فكّتْ، ومُبْهمٍ عنده فَتَحَتْ، ومُسْتَغْلَقٍ منه فرَّجَتْ.

* ولما فَتَكَ هارونُ الرشيد بابنها جعفر بن يحيى في سنةِ (١٨٧ هـ)، قذفَ أيضاً زوجَها يحيىٰ بن خالد البرمكي، وبقية الأسرة البرمكيّة في غياهبِ السِّجن بعد إيقاعهِ بالبرامكة، احتجبَ الرشيدُ بعد قدومه من الرَّقة[١]، فطلبتِ الإذنَ عليه من دار البانوقة[٢] بنت المهدي، ومتَّتْ

---

(١) «الرَّقة»: هي البلد المشهور الآن على شاطىء الفراتِ. (وفيات الأعيان ٦/ ٢٢٧)، والرّافقة: هي الرّقة القديمة، وتجاور الرقة الجديدة، ويقال لهما الرقتان، تغليباً لأحدِ الاسمين على الآخر، كما قيل: العُمران، والقمران، وغير ذلك. و«الرقّة»: كل أرض إلى جنب وادٍ، ينبسط الماء عليها أيام المدّ ثم ينضب (القاموس المحيط ص ١١٤٥).

(٢) «البانوقة بنتُ المهدي»: سمّاها ابنُ الأثير في «كامله»: «الياقوتة». قال ابنُ الأثير ـ رحمه الله ـ: البانوقةُ بنتُ المهدي، كان المهديُّ معجباً بها لا يطيقُ الصَّبر عنها، حتى إنّه كان يلبسها لبسةَ الغلمان، ويركبها معه، فلما ماتتْ وجَدَ عليها، وأمَر ألا يحجبَ عنه أحد، فدخلَ النّاس يعزّونه، وأجمعوا على أنّهم لم يسمعوا تعزيةً أبلغ ولا أوجزَ من تعزيةِ شبيب بن شيبة، فإنه قال:
يا أمير المؤمنين! ما عند اللهِ خيرٌ لها منْكَ، وثوابُ الله خيرٌ لك منها، وأنّا أسألُ الله ألا يحزنك، ولا يفتنك، وأن يعطيَك على ما رزئتَ أجراً، ويعقبك صبراً، ولا يجهد لك بلاء، ولا ينزع منك نعمة، وأحقّ ما صُبِرَ عليه، مالا سبيل إلى ردّه. (الكامل ٦/ ٨٧).

بوسائِلها[1] إليه، فلم يأذن لها الرشيد، ولا أمر بشيءٍ فيها.

* فلما طال ذلك بها خرجت أم جعفر كاشفة وجهها، واضعة لثامها، حافية في مشيتها، حتى صارت بباب قصر الرشيد. فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب، وقد رأى أم جعفر على تلك الحال، فقال الرشيد: ظئر[2] أمير المؤمنين بالباب في حالة تقلب شماتة الحاسد إلى حنين الوالد، وشفقة أم الواحد!..

فقال الرشيد: ويحك يا عبد الملك! أوَ ساعية؟

قال عبد الملك: نعم أعز الله أمير المؤمنين حافية!

قال الرشيد: إذاً، أدخلها يا عبد الملك، فربَّ كَبدٍ كريم غذتها، وربَّ كربةِ حليمٍ فرّجَتْها، وعورةِ شريفٍ سترَتْهَا!

قال سهل بنُ هارون: فما شككتُ يومئذ في النّجاة بطُلْبَتِها، وإسعافِها بحاجتِها، لما سمعتُ من كلامِ هارون الرشيد، وحرصِه على دخولها عليه، ومثولها بين يديه.

حِوارُهَا معَ الرّشيْد:

* أذنَ هارونُ الرشيد لأُمِّ جعفر بن يحيى بالدُّخول عليه، فدخلتْ، فلمّا نظرَ الرشيدُ إليها داخلةً حافيةً، قامَ هو الآخرُ حافياً حتى تلقّاها بين عُمُدِ المجلس، وأكبَّ على تقبيلِ رأسها، ثم أجلسَها معه.

* ولما اطمأنّت في مجلسها التفتتْ إلىٰ هارونَ الرشيد والأسىٰ يرتسمُ على محيّاها، والحزنُ يموج فوقَ جبينها؛ وقالت: يا أميرَ المؤمنين، أيعدو

---

(١) «متَّتْ»: التوسل بقرابة.
«بوسائلها»: جمع وسيلة؛ ومعناها: المنزلة عند الملك، والدرجة، والقربة.

(٢) «ظِئْرُ»: الظِّئر: بالكسر، العاطفة على ولد غيرها، المرضعة له في النّاس، وغيرهم، للذكر والأنثى، وجمعها: أظؤر، وآظار، وظؤور. (القاموس المحيط ص ٥٥٥).

علينا الزّمانُ، ويجفونا خوفاً لك الأعوانُ، ويحردُك[1] عنّا البهتانُ، ويوسوسُ لك الشَّيطان؟!

* ثم إنَّ أمَّ جعفر أخذتْ تُذكِّرُ الرشيدَ بحنوِّها عليه، وتربيتها له فقالت: يا أمير المؤمنين، أيكونُ هذا وقد ربّيتُك في حجري، وأخذتُ برضاعي لك الأمانَ من دهري، ومن عدوّي؟!.

فقال لها الرشيدُ في هدوءِ المطمئن: وما ذلك يا أم الرشيد؟!

* يقولُ سهلُ بن هارون راوي هذه القصّة: فواللهِ لقد آيسني أميرُ المؤمنين هارون من رأفته بأمِّ جعفر بتركه كنيتها آخراً، ما أطمعني مِنْ برِّه بِها أوّلاً[2].

* عندئذ قالتْ أمُّ جعفر في شيءٍ من الأمَل: ظئْرُك[3] يحيىٰ، وأبوك بَعْدَ أبيك، ولا أَصِفُه بأكثرَ مما عرفَه به أميرُ المؤمنين من نصيحتِه له، وإشفاقِه عليه!

فقال لها هارونُ في حَزْم قد شِيْبَ[4] بلين: يا أم الرشيد، أَمْرٌ سبقَ، وقضاءٌ حُمَّ، وغضبٌ نزلَ ونفذَ. قالتْ أمُّ جعفر بشيءٍ من الخضوع: يا أمير المؤمنين؛ ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]؛ قال الرشيدُ: صدقتِ! فهذا أمْرٌ ممّا لم يَمْحُه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

* وهنا قالتْ أمُّ جعفر بشيءٍ من التّهيّبِ: الغيبُ محجوبٌ عنِ النّبيّين، فكيف عَنْك يا أمير المؤمنين؟!!

قال سهل بنُ هارون:

---

(١) «يحردك»: يمنعك ويغضبك.

(٢) يقصد سهلُ بن هارون: أنَّ تَرْكَ الرشيدِ نداءها بأمّ جعفر آيَسَهُ مما طمعَ فيه من العفو عن أهلها وذويها.

(٣) «ظئرك»: تقصد زوج مرضعتك، وهو زوجها يحيى بن خالد المطروح في سجن الرشيد.

(٤) «شِيب»: خُلِطَ ومُزِج.

ولما سمعَ منها الرشيد ذلك، أطرقَ مليّاً، ثمّ إنَّه رفعَ رأسه وتمثّل بقولِ أبي ذُؤيب الهذلي[1]:

وَإِذَا المِنيَــــةُ أنْشَبَـــتْ أظْفَـــارَهَـــا
ألفَيْـــتَ كُـــلَّ تَميْمَـــةٍ لا تَـنْفَـــعُ

وعندئذ قالتْ أمُّ جعفر بغير رويّة: ما أنا ليحيى بتميمةٍ يا أميرَ المؤمنين، وقد قالَ الأوّل:

وَإذا افتقَـرْتَ إلـىٰ الـذَّخَـائِـر لـم تَجِـدْ
ذُخْـــراً يكـــونُ كصــالــحِ الأَعْمَـــالِ[2]

ثمَّ إنّها أردفتْ إنشادها بقولها: وإنَّ هذا يا أمير المؤمنين بعد قولِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في القُرآن العظيم: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

قال سَهْلُ بنُ هارون: فأطرقَ هارونُ الرشيد مليّاً، ثمّ قال: يا أمّ الرشيد، أقول:

إذا انصَـرفَـتْ نَفْسي عـنِ الشَّـيءِ لـم تَكَـدْ
إليـــهِ بِـــوَجْـــهٍ آخِـــرَ الـــدَّهْـــرِ تقْبَـــلُ

---

(١) «أبو ذؤيب الهذلي»: خُويلد بن خالد الهذلي شاعر مخضرم، وبيته هذا من قصيدةٍ له شهيرة في عالَم الرثاء، حيث يرثي بها بنيه، وكان قد هلكَ له خمس بنين في عام واحد، أصابهم الطّاعون، وكانوا هاجروا معه إلى مصرَ، وهلك أبو ذؤيب في طريقِ مصر سنة (٢٧ هـ). ومن أبيات القصيدة هذا البيت المشهور:

وتجلّـــدي للشَّـــامِتيـــنَ أُريهـــمُ ... أنّـي لـريـبِ الـدَّهـر لا أتضعضـعُ

(ديوان الهذليين ١/ ٤).

(٢) هذا البيتُ للأخطل وهو غياث بن غوث التّغلبي شاعر بني أمية، ماتَ سنة (٩٠ هـ)، ويُحكى أنّ الخليل بن أحمد ـ رحمه الله ـ كان ينشد هذا البيت كثيراً، وهذا البيت في ديوان الأخطل (ص١٥٨).

فأجابت أمُّ جعفر: يا أمير المؤمنين وأنا أقول:

سَتَقْطَعُ في الدُّنيا إذا ما قَطَعْتَنِي
يَمِيْنُك فانْظُرْ أيّ كفٍّ تبدِّلُ

قال هارون: رضيتُ.

قالتْ أمُّ جعفر وقد برقَ في وجهها بصيصٌ منْ أملِ العفو: فهَبْهُ لي يا أمير المؤمنين، أو هَبْهُ لله تعالى، فقد قالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ تركَ شيئاً لله لم يوجده الله فَقْده».

وهنا أكبَّ هارونُ الرشيد مليّاً يتفكّر في قولها، ثمّ رفع رأسه، وقرأ قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤].

قالتْ أمُّ جعفر على الفورِ: يا أمير المؤمنين؛ قال تعالى أيضاً: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤، ٥]، واذكرْ يا أمير المؤمنين أليّتَك[1]: ما استشفعتُ إلا شفَّعْتني.

فقال: واذكري يا أمّ الرشيدِ أليّتك ألا شفعتِ لمقترفِ ذَنْباً.

* قال سهلُ بنُ هارون راوي القصّة:

فلمّا رأتْ أمُّ جعفر أنَّ الرشيد قد صرّح بمنعها، ولا ذَعَنَ لمطلبها، أخرجتْ حُقَّةً من زمرّدة خضراءَ، ثمّ وضعَتْها بين يديه؛ فنظرَ إليها الرشيدُ وقال: ما هذا؟

* فتقدمتْ أمُّ جعفر، وفتحتْ عنه قُفْلاً من ذَهب، فأخرجتْ منه ذوائبَه وثناياه وقميصَه، وقد غمستْ جميعَ ذلك في المِسْكِ والطِّيْبِ والغاليةِ، وقالت: يا أمير المؤمنين، أستشفعُ إليك، وأستعينُ باللهِ عليك، وبما صارَ معي من كريمِ جسدِك، وطيِّبِ جوارحك ليحيىٰ بن خالد عبدك.

* قال سهل بنُ هارون: فلمّا رأىٰ الرّشيد ذلك، أخذه، فلثَمه، ثمَّ إنَّه

---

(١) «أليتك»: الألية: اليمين.

استعبر، وبكىٰ بكاءً شديداً، وبكىٰ أهلُ المجلسِ، وفي تلك الأثناءِ، وهاتيكم اللحظات المتموّجة بالعواطفِ، مضى البشيرُ إلى يحيىٰ بن خالد، وهو لا يظنُّ إلا أنَّ البكاءَ رحمةٌ له، ورجوعٌ عنه، وسيعفو الرشيد عنه، ويخرجُه من غياهبِ السجن، وضيقِ الحَبْس.

* ولما أفاق الرشيدُ من بكائِه، أخذَ تلك الأشياء وردّها في الحُقَّةِ[1]، وقال لها: لحسَناً ما حفظتِ الوديعة!.

قالت: وأنتَ أهلٌ للمكافأةِ يا أمير المؤمنين.

* قال سهلُ: فسكتَ هارونُ الرشيد، ثمَّ أقفل الحقّة ودفعها إليه، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

قال أمُّ جعفر: واللهُ يقول: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] ويقول أيضاً: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١].

قال: وما ذاك يا أمّ الرشيد؟

قالت: ما أقسمتَ لي به ألاّ تحجبَني ولا تجبهَني ولا تمهَنني.

قال: أحبُّ يا أمَّ الرشيد أنْ نشتريه محكَّمة فيه.

فقالت: أنصفتَ يا أمير المؤمنين، وقد فعلتُ غير مستقيلة لك، ولا راجعة عنك.

قال: بكم يا أمّ الرشيد؟

قالت: برضاك عمَّن لا يُسْخِطُك.

قال: يا أمّ الرشيد، أَمَا لي عليك من الحقّ مثل الذي لهم؟

قالت: بلىٰ يا أمير المؤمنين، أنتَ أعزُّ عليَّ، وهمُ أحبُّ إليَّ.

قال: فتحكَّمي في تمنيةٍ بغيرهم.

---

(١) «الحقّة»: بالضم: وعاء من خشب، وجمعها: حُقّ، وحقوق، وحُقَق، وأحقاق، وحِقاق (القاموس المحيط ص١١٣٠).

قالت: بلى، قد وهبتكه، وجعلتك في حلٍّ منه، وقامتْ عنه، وبقيَ الرشيدُ مبهوتاً ما يحيرُ لفظة.

* قال سهل بنُ هارون: وخرجتْ أمُّ جعفر البرمكي عن الرشيدِ، فلم تَعُدْ إليه، ولا واللهِ ما رأيتُ عبرةً، ولا سمعتُ لها أنَّةً[١].

اسْتِشْفَاعُ زَوْجِ أُمِّ جَعْفَرَ:

* كان يحيىٰ بنُ خالد بن برمك زوجُ فاطمة أمّ جعفر في سجنِ الرشيد، وقد بلغه أنَّ زوجَهَ فاطمة أمّ جعفر قد دخلتْ على الرشيدِ واستعطفته، فلم يردَّ عليها، وفكّرَ يحيىٰ وهو في السِّجن أنْ يكتبَ رسالةً إلى هارونَ الرشيدِ يصوِّرُ بها حال زوجته وحاله، ويستعطفه، فلعلّه يلينُ ويخرجُه من السّجن.

* وكتبَ يحيى بن خالد وهو في السِّجن رسالةً طويلةً جاء فيها: لأميرِ المؤمنين، وخليفةِ المهديّين، وإمامِ المسلمين، وخليفة ربِّ العالَمين: منْ عَبْدٍ أسلمته ذنوبُه، وأوبقَتْهُ[٢] عيوبُهَ، وخَذَلَهُ شقيقُه، ورفضه صديقُه، وزلَّ به الزَّمانُ، وأناخَ عليه الحِدْثان[٣]، فصار إلى الضّيق بعد السَّعَة، فعالج البؤسَ بعد الدَّعَة[٤]، وافترشَ السُّخطَ بعد الرّضا، واكتحلَ السُّهاد[٥] بعد الهجود[٦]، ساعتُه شهرٌ، وليلتُه دهْرٌ، وقد عاين الموت، وشارفَ الفوت، جزعاً لموجدَتِك يا أمير المؤمنين، وأسفاً علىٰ ما فات من قربك، لا على شيء من المواهب، لأنَّ الأهل والمال إنّما كانا لك وبك، وكانا في يديّ عارية، والعارية مردودة؛ وأمّا ما أصَبْتَ به ولدي ـ جَعْفَرَ ـ فبذنبه، ولا أخشىٰ عليك الخطأ في أمْرِه، ولا أنْ تكونَ تجاوزت به فوق حدّه.

---

(١) انظر: العقد الفريد (٥/ ٦٢ ـ ٦٥) بيسير تصرّف.

(٢) «أوبقته»: حَبَسَتْه، و«أوبَقَه»: حَبَسه أو أهلكه. (القاموس المحيط ص١١٩٧).

(٣) «الحِدْثان»: نوائب الدهر، قال الزّركلي ـ رحمه الله ـ من مطلع قصيدة رائعة له:

لله للحِدْثَان كيف تكيدُ ... بردىٰ يغيضُ وقاسيون يميدُ

(٤) «الدَّعة»: سعة العيش.

(٥) «السّهاد»: الأرق.

(٦) «الهجود»: النوم.

* تفكَّرْ في أمري، ـ جعلني اللهُ فداك ـ، وليَمِلْ هواكَ بالعفو عن ذنب إنْ كان فمِنْ مثلي الزّلل، ومن مثلك الإقالة[1]، وإنما أعتذرُ إليك بإقرار ما يجبُ به الإقرار حتى ترضى، فإذا رضيتَ رجوتُ إن شاء الله أنْ يتبيَّن لكَ من أمري، وبراءة ساحَتي ما لا يتعاظمُك بعده ذنبٌ أنْ تغفِرَهُ، مدَّ اللهُ لي في عمرك، وجعل يومي قَبْلَ يومك.

* ثمَّ إنَّ يحيىٰ البرمكي ذيَّلَ رسالته بأبياتِ استعطافٍ بلغت (٤١ بيتاً)، ذكرَ له خلالها زوجه فاطمة أمّ جعفر، وحالها التي صارتْ إليها، ومن تلكم الأبيات:

قُــــلْ للخليْفَــــةِ ذي الصَّنيْـ ... ـعــةِ والعَطَــايــا الفَــاشِيَــةْ
وَابْــنِ الخَــلائــفِ مِــنْ قُــريـ ... ـشٍ والمُلُـــوكِ الهــــادِيَـــةْ
إنَّ البَـــرامكَــــةَ الـــــذيـ ... ـــنَ رُمُــوا لَــدَيْـكَ بـداهيـة
صُفْـــرُ الـــوُجُـــوهِ عليهـــمُ ... خِلَـــعُ المــذَلَّـــةِ بَـــادِيَــةْ
فَكَـــأَنّهـــمْ مِمَّـــا بِهـــمْ ... أَعْجـــازُ نَخْـــلٍ خَـــاوِيَـــةْ
عمَّتْهـــمُ لــــكَ سَخْطـــةٌ ... لـــم تُبْـــقِ مِنْهُـــم بـــاقِيَـــةْ
أَضْحَـــوا وَجُـــلُّ مُنَـــاهُـــمُ ... منـــكَ الـــرِّضَـــا والعَـــافِيَـــةْ
يَكْفيـــكَ مـــا أَبْصَـــرْتَ مِـــنْ ... ذُلّـــــي وَذُلِّ مَكَـــــانِيَـــــهْ
أَخليْفَـــةُ الـــرّحمٰـــنِ إنَّـ ... ـــكَ لـــو رَأيـــتَ بَنَــاتِيَــهْ
وبُكــــاءَ فَـــاطِمَـــةَ[2] الكئيـ ... ـبــةِ والمَــدَامِــعُ جَــارِيَــةْ
ومَقَـــالَهـــا بِتَـــوَجُّـــع ... يـــا سَـــوْأَتـــي وشَقَـــائِيَـــهْ
مَـــنْ لـــي وقَـــدْ غَضِـــبَ الـــزَّمَـــا ... نُ علـــىٰ جَميْـــعِ رجـــالِيَـــهْ
وعَـــدِمْـــتُ طِيْـــبَ معيشَتـــي ... وتغيّـــرتْ حَـــالاتِيَـــهْ
يَـــالَهْـــفَ نَفْســـي لَهْفَهَـــا ... مـــا للـــزّمَـــانِ ومَـــالِيَـــهْ
يـــا عَطْفَـــةَ المَلِـــكِ الـــرِّضَـــا ... عُـــودِي عَلَيْنَـــا ثَـــانِيَـــةْ

(١) «الإقالة»: الصفح والعفو.

(٢) «فاطمة»: هي أم جعفر البرمكي زوج يحيى بن خالد.

فلم يكنْ ليحيىٰ البرمكي منْ هارون الرشيد جواب[1] .

* ويروىٰ أنَّ الرشيدَ لما قَرأَ الأبيات السَّابقة، وقَّع تحت ذلك الشّعر يقول:

أجـــرىٰ القضـــاءُ عليكـــمُ ... مـــا جئتمـــوهُ عَـــلانيـــةْ
مِـــنْ تَـــرْكِ نُصْـــح إمـــامكـــم ... عنـــد الأمُـــورِ البَـــاديـــةْ
يـــا آل بـــرمـــك إنّمـــا ... كُنْتـــم ملـــوكـــاً عـــادِيَـــةْ
فكَفـــرتـــمُ وعصيتُـــمُ ... وجَحـــدتُـــمُ نعمـــائِيـــهْ
فسُلِبْتُمـــوهـــا هكـــذا ... وكَـــذا تُـــردُّ العَـــاريـــةْ
هـــذي عقـــوبـــةُ مَـــنْ عَصَـــا ... مَعْبُـــودَه وعصـــانيـــهْ

وكتبَ تحتَ الشِّعر: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢][2] .

أَتـعْرِفُ هَـذه؟!

* لا نعرفُ على وجهِ التّحديد أينَ ذهبت فاطمةُ أمّ جعفر بن يحيى، وفي أي بلدٍ عاشت بعد أنْ خرجتْ من عند هارون الرشيد بعد حوارها معه ـ كما رأينا ـ.

* ولكنَّ بعضَ الأخبارِ تشيرُ إلى أنّها ظلت تعيشُ بقيَّة حياتها في شدّةٍ وضيقٍ، ويبدو أنّها عاشتْ فيما بعد بالكوفةِ، أو الرَّقّةِ.

---

(١) عن العقد الفريد لابن عبد ربه (٥/ ٦٨ و٦٩)، ونهاية الأرب للنويري (٢٢/ ١٤٤ ـ ١٤٧) مع الجمع والاختصار اليسير والتصرف.

(٢) انظر: نهاية الأرب في فنون الأدب (٢٢/ ١٤٧ و١٤٨). ويروى أنَّ الرشيد قد وقّع في أسفلِ الرسالة: عِظَمُ ذنبك أماتَ خواطرَ العفو عنك.
ورُوي أنَّ يحيى البرمكي كتبَ للرشيد رسالةً أخرى جاء فيها: إن كانَ الذنبُ يا أمير المؤمنين خاصاً، فلا تعمُّ بالعقوبة، فإنّ لي سلامةَ البريء، ومودةَ الولي. فوقّع الرشيد عليها ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١] انظر (الوزراء والكتاب للجهشياري ص٢٥٣).

* أوردتِ المصادرُ المتنوّعة أنَّه منْ أعجبِ ما يُؤرِّخ من تقلّباتِ الدّنيا بأهلها، ما حكاهُ محمّدُ بنُ عبدِ الرحمن الهاشميّ صاحبُ صلاةِ الكوفة قال:

* دخلتُ على أمّي في يومِ عيدِ النَّحر ـ الأضحى ـ فألفيتُ عندها امرأة بَرْزَة جَلْدة، في أثوابٍ رثّةٍ، وهيئةٍ كئيبةٍ؛ فقالت لي أمّي: أتعرفُ هذه المرأة؟

قلتُ: لا يا أمّي.

فقالت: هذه أمُّ جعفر بن يحيى البرمكيّة!

فأقبلتُ عليها بوجهي، وسلّمتُ، ورحّبْتُ بها، وأكرمتُها، وتحادثْنَا زمَاناً، ثمّ إنّي قلتُ لها: ما أعجبَ ما رأيتِ؟ حدثينا عن بعضِ أموركم.

فقالت: أذكرُ لك جملةً فيها عبرةٌ، لقد أتىٰ عليَّ يا بُني عِيْدٌ مثل هذا العيد، وكان علىٰ رأسي أربعمئة جارية ووصيفة، وأنا أزعمُ أنَّ ابني جعفرَ عاقٌّ لي[1]. ولقد أتىٰ عليَّ يا بني هذا العيدُ، وما مناي منَ الدّنيا إلا جلْدُ شاتَيْن أفترشُ أحدهما، وألتحفُ الآخر.

قال محمّد بن عبد الرحمن: فدفعتُ إليها خمسمئة درهم، فكادت تموتُ فرحاً بها، ولم تزلْ تختلفُ إلينا حتى فرّق الموتُ بيننا[2].

* وبعد، فهذهِ شَذَراتٌ من سيرةِ امرأة من وزراءِ العَصْر العبّاسي، ومن

---

(١) في الحقيقةِ هذا قولٌ يشيرُ إلى ما كانت عليه هذه المرأة من ترفٍ وسرفٍ، فإذا كانَ على رأسِها أربعمئة جارية، وتعدُّ ابنها من جملةِ العققَة، فكم تريد أمّ جعفر من الجواري حتى لا تعدّ ابنها عاقاً لها، ويكون من جملة البَرَرة؟!! حقاً إنَّ هذا لشيءٌ عجيبٌ!! وصدق ربّنا إذ يقول:
﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

(٢) عن وفيات الأعيان (١/ ٣٤١)، ومروج الذهب (٣/ ٣٩٢)، والوافي بالوفيات (١١/ ١٦٤) مع الجمع والتصرف اليسير. وفي وفاة أمّ جعفر هذه قيل: توفيتْ أمُّ جعفر بالرَّقة، فاشتُرِيَ لها عشْرة أجرية عند وادي القَناطِر على شاطئِ الفرات ودُفنت فيها، وبني عليها قبّة عرفت: بقبّة البرمكية. (أعلام النّساء ١/ ١٩٩).

نساءِ الإسلام اللواتي تركْنَ أثراً بارزاً في تاريخ النّساء في دنيا التّاريخ[1].

* * *

(١) ذكر الجاحظُ أنَّ جعفر بن يحيى وزير هارون الرشيد كان من أرفقِ النَاس برياضة القول، وأعرفهم بفنون الكلام، وكان إذا عقّب رسالة، أو وقّع كتاباً، فإليه مباءةُ البلاغةِ، ونهايةُ الإيجاز، حتى لقد يتدافع الكُتّاب على بابه فيشترون من حجّابه كلَّ توقيع بدينار.
كل ذلك ورثه جعفر عن أمِّه، لا عن أبيه.



٥

أمّ سلمة بنت يعقوب



مِنْ حَـازِمَـاتِ النِّسَـاءِ:

* كان للمرأ في أدوارِ الخلافةِ رأيٌ ماثلٌ، وصوتٌ مسموعٌ، وفي بعضِ الأحيان كانت لها يَدٌ مدبّرةٌ قويّة، وبطشٌ شديدٌ، ورأيٌ حازمٌ، وفي بعضها الآخر كانت منْ صانعاتِ الرِّجال في المواقفِ التي تدلُّ علىٰ كرامتها، وتشيرُ إلىٰ عقْلِها الكبير، وأفقِها الواسع، ونظرتها الثّاقبة.

* وأجدني أمامَ امرأةٍ من نساءِ الإسلام، ومنْ نساءِ الخلفاء قد جَمَعَتْ تلكم الصِّفات؛ امرأة عاقلة حازمة عاصرت الدولتَيْن: الأمويّة؛ والعباسيّة، وكانتْ بذكائها زوجاً لأبي العبّاس السَّفاح، رأسِ الدّولة العباسيّة، وأوّل خلفائها، وباني مجدها وصرحها.

* وفي سببِ اقترانها بأبي العبّاس السَّفَّاح موقفٌ حازمٌ رائعٌ يجعلنا نقفُ وقفةَ احترام لهذه المرأةِ التي طرقتْ أبوابَ المكارمِ من ذراها، واقتعدتْ سدّة الفضَائل طيلةَ حياتها، وتسنّمتْ لواءَ الشّهرة في دنيا نساء التّاريخ، في عصر ليسَ من السَّهل فيه أن تكونَ المرأة منْ صانعاتِ التّاريخ في منازلِ الخُلفاء.

* فهذا أبو العبّاسِ السَّفَّاح، ثائرُ بني العبّاس الهاشميين، ومَنْ ورِثَ بني أميّة، كان في بدايةِ أمْرِه ـ على الرغمِ من عراقةِ مجده، وسمو فضائله، ووفرِ فضله ـ فقيراً لا مالَ له، ومن الصَّعب أنْ ينجحَ بثورتهِ إلا بالمال، ولكنْ من أينَ المال؟ هنالك قيَّضَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ لأبي العبّاس امرأة ملأتْ يَده مالاً، وقلبَه عزماً، ونفسَه إقداماً، وطريقَه وضحاً ونوراً، وحياته أَلَقاً وعبيراً وأنداءً وصفاءً ورقيّاً، تلكم هي زوجه: أمّ سلمةَ بنت يعقوب بن سلمة بن عبد الله القرشيّة المخزومية(١)، المرأةُ التي رسمتْها خطوطُ التَّاريخ بعبيرِ الحروفِ،

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٥٢٤ ـ ٥٢٩)، ومروج الذهب (٢/ ٢١٥)، وثمراتُ الأوراق (٢/ ٢٩٢)، والمحبّر (ص٤٤٥)، ونسب قريش (ص٣٣٠)، والدر المنثور (ص٥٨ و٥٩)، وأعلام النساء (٢/ ٢٣٥ ـ ٢٣٩)، ومصادر أخرى كثيرة متنوعة.

وأريجِ الكلمات، فقد ذُكِرَ أنّها امرأةٌ حازمةٌ بصيرةٌ بتدبيرِ الأمور، وعواقبِ الأحداث، وجمالِ الأحدوثة، ولطائفِ الأحاديث؛ وأمُّها هي هندُ بنتُ عبد الله بن جبّار بن سلمى[1].

* كانت أمُّ سلمةَ بنت يعقوب قبل أنْ تصيرَ إلى أبي العبّاس السَّفَّاح زوجاً لعبدِ العزيز بن الوليد بن عبد الملك، وكانت منْ أعْرفِ النَّاس بِسِرِّ بني أميّة وخبيئة أمورهم، وأحوالهم، فلمّا ماتَ زوجها، اجتمعَ لديها تُراث زوجها وأبيها، وكلاهما كان غنياً موفورَ الغنىٰ، ثم خَلَفَ عليها مسلمة بن هشام بن عبد الملك، فهلكَ عنها أيضاً.

* وأصبحتْ أمُّ سلمةَ أَيِّماً، ولكنَّ اللهَ - عزَّ وجلَّ - قد آتاها ما آتاها منْ رجاحةِ العَقْل، وحبَاهَا ما حَباها من كمالِ الرّأي، وأعطاها حُسْنَ النَّظر في الأمورِ، فكان ذلك كلّه أوْفَرَ لها منْ مالها، وأكملَ وأشملَ، ناهيك بأنّها كانت ذاتَ أدبٍ وجمالٍ، وكمالِ سيرة وأحدوثة.

أُمُّ سَلَمَـةَ تَـخْطُبَ أبَـا العَبَّـاس:

* تروي أخبارُ أمِّ سلمةَ بنت يعقوب بأنَّها أرسلتْ مولاتها إلى أبي العبّاس تخطبه، إذ توسّمت فيه معاني النّجابةِ، ومعالي الأمورِ.

* حدثت هذه الخطبة عندما خرجتْ ذاتَ مرّة إلى الباديةِ، وبينما هي جالسةٌ مع جواريها وحشمِها، إذ مر بها أبو العبّاس عبدُ الله بنُ محمّد بن عليّ بنِ عبد الله بن العبّاس، وهو يومئذ عَزْبٌ، وكان جميلاً وسيماً، ذا طلعةٍ وبهَاءٍ، فسألتْ عنه، فقيل لها: هذا أبو العبّاس بن محمّد العبّاسي، فأرسلت إليه مولاةً لها تعرضُ عليه أنْ يتزوّجها.

* فجاءته الجاريةُ تمشي على استحياءٍ، وأبلغتْهُ سلامَ سيّدتها أمّ سلمة، وأدّتْ إليهِ رسالتها ورغبتها فيه.

فقال أبو العبّاس للجاريةِ: يا هذه، أبلغي سيّدتك السّلام، وأخبريها

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٥٢٥).

برغبتي فيها، وقولي لها: لو كان عندي من المالِ ما أرضاه لكِ فَعَلتُ.

* هنالك بعثتْ أمُّ سلمةَ بنتُ يعقوب مع مولاتها سبعمئة دينار، وقالتْ لها: قولي لأبي العبَّاس: هذه سبعمئةُ دينار أبعثُ بها إليك، فأتَتْهُ الجارية، وعرضتْ عليه ذلك، فأنعمَ لها بالإجابة؛ فدفعتْ إليهِ المال، فأقبل إلىٰ أخيها، فخطبها إليه، فزوّجه إيّاها، فأرسلَ بصداقها خمسمئة دينار، وأهدىٰ إليها مئتَي دينار[1].

* وسارع أبو العبّاس إلىٰ الزَّوجةِ المواتية بمالها، وكان ما لقيه من نفَاذِ رأيها، وإحكام تدبيرها أتمَّ وأوفىٰ؛ فلم يكنْ يصدرُ إلا عن رأيها ومشورتها، وبها عرفَ مواطنَ الدَّاء من أعدائه، وإليها كانت إفاءتُه في خلافتهِ، وقد حظيتْ عنده، وحَلَفَ ألا يتزوَّج عليها، ولا يتّخِذَ جارية؛ وقد ولدت أمُّ سلمة هذه للسَّفاح: محمّداً، وريطة.

* كان أبو العبّاس السَّفَّاح جميلَ العشرة، جواداً بالمال، يحبُّ مسامرةَ الرّجال، ومنادمةَ العلماء، وكان كثيراً ما يقول: العجبُ لمن يتركُ أنْ يزدادَ علماً، ويختارَ أنْ يزدادَ جهلاً!! فقال له أبو بكر الهذلي: ما تأويلُ هذا الكلام يا أميرَ المؤمنين؟ قال: يتركُ مجالسة مثلك ومثل أصحابك، ويدخلُ إلى امرأةٍ وجارية، فلا يزال يسمعُ سخفاً ويرىٰ نَقْصاً.

فقال له الهذلي: لذلك فضَّلكم اللهُ على العالمين، وجعل منكم خاتم النَّبيين.

* وخطبَ أبو العبّاس السَّفَّاح قائماً، وكانت بنو أمية تخطبُ قعوداً، فضجَّ النَّاس وقالوا: أحييتَ السُّنَّة يابن عمّ رسول الله ﷺ.

* وكان أبو العبّاس السَّفَّاح في أموره هذه يصدر عن رأي زوجه أمّ سلمة بنت يعقوب، فاستطاع أنْ يضَعَ أساساً ثابتاً لأركان دولته.

* ولعلَّ من أثمنِ ما وصلَ إلى أبي العبَّاس السَّفَّاح من ميراثِ بني أميّة؛

---

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٥٢٦) بتصرف.

بردة رسولِ الله ﷺ وقضيبه، وكان مروانُ بنُ محمّد ـ آخرَ خلفاء بني أمية ـ حين أُحيطَ به في مصرَ، قد دفعهما إلىٰ خادمٍ له، وأمره أنْ يدفنهما في بعضِ تلك الرّمال.

* وعندما أُخِذَ الخادمُ مع مَنْ أخِذَ منَ الأسرىٰ قال: إنْ قتلتموني ضَاعَ ميراثُ النَّبيِّ ﷺ. وعند ذلك أمّنُوه على أنْ يسلمَ لهم ذلك. وكان للبُردة والقضيب شأْنٌ وأي شَأْنٍ عند جميع الخُلفَاء منْ بعده.

هَلْ بقَـيَ السَّفَّـاحُ وَفيـاً لأُمّ سَلَمَـةَ؟

* أتتِ الخلافةُ أبا العباس السَّفَّاح منقادةً تجرِّرُ أذيالها، وكانت زوجُه أمّ سلمةَ بنت يعقوب المخزومية تجرّر أذيال الدّمقْسِ والحريرِ في قصوره. وكان أبو العبّاس وفيّاً لزوجهِ المعطاء، فلم يكنْ يفكِّرُ في الدّنوِ منَ النّساء غيرها، ولم يفكّر في امرأةٍ حرّة ولا أَمَةٍ ولا جارية وفاءً لها بما وعدها، وبما قطعَ على نَفْسه من عَهْدٍ ألا يتزوّج غيرها مهما تبدلتِ الأيَّامُ، وتوالتِ الأعوامُ.. ولكنَّ الدَّهْرَ ذو غِيَر، فماذا كان؟!

* أخرجَ ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ بسنده عن شبيب بنِ شيبة قال: دخل خالد بنُ صفوان التّميمي[1] ذات يوم على أبي العبّاس السَّفَّاح وليس عنده أحدٌ فقال: يا أميرَ المؤمنين! إنّي واللهِ ما زلتُ منذ قلدك الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خلافتَه، أطلبُ أنْ أصيرَ إلى مثلِ هذا الموقفِ في الخلوة، فإنْ رأىٰ أميرُ المؤمنين أن يأمرَ بإمساكِ البابِ حتى أفرغَ فَعَل.

* قال: فأمرَ أبو العبّاس الحاجبَ بأنْ يمنعَ الدّخول عليه، ففعل. فقال له خالد بنُ صفوان: يا أميرَ المؤمنين! إنّي فكّرتُ في أمرِك، وأَجَلْتُ الفِكْرَ

---

(١) خالدُ بنُ صفوان الأهتمي التّميمي من الخطباء المشهورين في العوام والمتقدمين في الخواصّ، كان من سُمَّار أبي العبّاس السّفاح، ومن ذوي المنزلَة عنده، وكان لفصاحته أقدر النّاس على مدحِ الشيء وذمّه. وله أقوالٌ رائعة منها: إنّي لأفرح بإفادتي المُتعلِّم، أكثرَ من فرحي باستفادتي منَ المُعلّم. وأخباره كثيرة متناثرة ومنثورة في كتب الأدب والأسمار.

فيك، فلم أرَ أحداً له مثل ما قلّدك أقلّ اتساعاً في الاستمتاع بالنّساء منك، ولا أضيقَ فيهن عيشاً، إنّك قد ملّكْتَ نفسَك امرأة من نساءِ العالمين، واقتصرتَ عليها! إنْ مرضتْ مَرِضتَ، وإن غابتْ غبتَ، وحرمتَ نفسك يا أمير المؤمنين التّلذُّذ باستطرافِ الجواري، وبمعرفةِ اختلاف أحوالهن، والتّلذذ بما يُشْتَهىٰ منهن.

* إنَّ منهن يا أميرَ المؤمنين الطَّويلة التي تُشْتَهىٰ لجسمها، والبيضاء التي تُحَبُّ للونها، والسَّمراء اللعساء[1]، والصَّفراء العجزاء، ومولّدات المدينة والطَّائف واليَمامة، ذوات الألسنِ العذبة، والجوابِ الحاضر، وبنات سائر الملوك، وما يُشْتَهىٰ من نظَافتِهن، وحُسْنِ أُنْسهنّ.

* وجعلَ خالد بنُ صفوان يجيدُ في وصف النِّساء، ويجدُّ في الإطنابِ بحلاوةِ لفظه، وجودةِ وصفه لسائرِ ما يصفُ من نساء، ومن ثمَّ شوّقه إليهنّ، ورغَّبه فيهن.

* فلما فرغَ خالدُ من كلامه، قال له أبو العبّاس: ويحك يا خالد! واللهِ ما سلَكَ مسامعي كلامٌ قطّ أحْسَنَ من هذا، فأَعِدْ عليَّ كلامك، فقد وقع منّي موقعاً حَسَناً، فأخذ خالد بنُ صفوان يعيدُ عليه كلامه بأحسن مما ابتدأه، وزوّقَه ونمّقه وحسَّنه، وزادَ فيه تحسيناً وتجويداً في ذكْرِ محاسنِ الجواري، وصُنُوف النّساء، ولما انتهىٰ قال أبو العّباس: أحسنتَ، انصرف الآن.

أُمُّ سَلَمـةَ تَـكْشِـفُ سِـرّاً:

* تركَ خالدُ بنُ صفوانَ أثراً بارِزاً في نَفْس أبي العبّاس، ممّا جعله يغرقُ في التّفكير ممّا سمعَ منه.

* وبقي أبو العبّاس متفكّراً مفكّراً فيما سمعَ من ابن صفوان، يُقلِّب أمره، ويجمعُ ويطرحُ، ويقرّبُ ويبعد، وبينما هو على تلك الحالِ واجماً

(١) «السّمراء اللعساء»: التي في شفتيها سُمرة وسواد. وذُكر عن الأصمعي أنّه قال: اللعس: السّواد الخالص. ويقال: ليل ألعس.

مطرقاً، إذ دخلتْ عليه أمّ سلمة، فلمّا رأته مفكّراً متغيّراً مغموماً، ارتاعتْ لذلك وأرعبَها أمْرُه، وكعادتها في زَرْعِ الطُّمأنينة والحزمِ بنفسه سألته: إنّي لأنكرك يا أميرَ المؤمنين، فهل حدثَ أمْرٌ تكرهه، أو أتاكَ خَبَرٌ ارتَعْتَ له؟!

فقال أبو العبّاس: لا، لم يكنْ منْ ذلكَ شيءٌ، والحمد لله.

* ثمَّ إنَّ أمَّ سلمة ابنة يعقوب أخذتْ تُدخِلُ السُّرور إلى قلبه، ومن ثمَّ لم تزلْ به تستخبره، وهو ينزوي عنها، إلىٰ أنْ أَخبرها بمقالةِ خالد بن صفوان آنفاً.

فقالت أمُّ سلمة بشيءٍ منَ الغَضَب: فما قُلْتَ لابنِ صَفْوان يا أمير المؤمنين، وجعلتْ تشْتُمُه وتنتقصُه.

فقال أبو العبّاس لها: سبحانَ الله، ينصحُني[1] وتشتمينه وتتكلّمين في حقِّه، ولم يَقُلْ إلا خيراً!!.

* فلم تتكلّم أمُّ سلمةَ بكلمة، وإنّما خرجتْ من مجلسه وهي مغضبةٌ، يغلِّفُ الحزنُ قلبَها، والأسىٰ صدرها، وقد مُلِئت نفسُها غيظاً وحنقاً علىٰ خالد بنِ صفوان التّميمي ـ وربما على بني تميم[2] ـ، ثمّ إنَّ أم سلمة اتّخذتْ في نفسها قراراً أن تكافىء ابن صفوان مكافأةً لن ينساها ما دام حيّاً.

* وعند ذلك دعتْ بجماعةٍ من مواليها وغلمانها من العَجَم، فأمرتهم أنْ

---

(١) «ينصحني»: هذه العبارة مخالفة للفصاحة، والكلام الفصيح السائر: ينصح لي؛ قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]؛ ويقال: نصحت لكم، ونصحتُ فلاناً. وأصل النُّصح: الإخلاص؛ والمناصحة: المخالصة. ويُقال: هذا شيء ناصح: أي: خالص.

(٢) ولعل أمَّ سلمة قد تذكرت أيضاً هجاء الطّرمّاح بن حكيم للفرزدق وبني تميم من قصيدته الشّهيرة التي منها:

أرىٰ الليلَ يجلوهُ النّهار ولا أرىٰ ... خلالَ المخازي عن تَميمٍ تجلَّتِ
تَميمٌ بطُرْقِ اللؤم أهدى منَ القطا ... ولو سلكتْ سُبلَ المكارمِ ضلَّتِ
ولو أن بُرغوثاً على ظهر قملةٍ ... يكرُّ على صَفّي تميمٍ لولّتِ
ذَبَحنا فسمَّينا فتمَّ ذبيحنا ... وما ذبحتْ يوماً تميمٌ فسمّتِ

يذهبوا إلى بيت خالد بنِ صفوان ويضربونه، كما أمرتهم ألا يشفقوا عليه، وألا يتركوا منه عضواً إلا ويناله العقاب بالضَّرب الأليم.

* وسنتركُ الحديثَ الآن لخالد بنِ صفوان كيما يحدثنا عن عقوبة وانتقام أمّ سلمة منه.

* قال خالدُ بنُ صفوان: فخرجت من مجلسِ أبي العبّاس إلىٰ الدّار مسروراً بما ألقيتُ إلى أميرِ المؤمنين، وبما رأيته منه من السُّرور، وإعجابه بما حدثته عن محاسنِ الجواري، ولم أشكّ في أنَّ صِلَته وجائزته ستأتيني فور وصولي إلىٰ منزلي.

* وبينما أنا واقفٌ مع بعضِ أصحابي على بابِ داري، إذ أقبل أولئك الغلمان والموالي، فلمّا رأَيتهم قد أقبلُوا نحوي، أيقَنتُ بالجائزةِ والصِّلَةِ، فوقفوا ثمّ سألوا عنّي، فقلتُ لهم: ها أنا ذا خالد بن صفوان! فسبقَ إليَّ أحدهم بخشبةٍ غليظةٍ، فلما أهوى بها إليَّ، وثبتُ فابتعدتُ عنها، وتعادىٰ عليَّ الباقون، فأسرعتُ ودخلتُ منزلي، وأغلقتُ البابَ عليَّ واستخفيتُ في منزلي بضعةَ أيّام علىٰ تلك الحالِ، لا أخرج من منزلي، ووقعَ في قلبي وخاطري أني أُتيتُ ودُهيتُ من قِبَلِ أمّ سلمة زوج أبي العبّاس، وقد قصَّ عليها القَصَص الذي كان بيننا، وأنّها قد كشفت السِّرّ.

صَدَقْتَ واللهِ يَا عَمَّاهُ:

* ظلَّ خالدُ بن صفوان أيّاماً وهو خائفٌ يترقّبُ منْ أنْ يتسوَّر عليه أولئك الغِلاظ الشِّداد، ومن ثمَّ يشبعونه ضرباً ولكماً؛ وكلّما تحركَ شيءٌ يظنُّ خالد أنّ أولئك قد قدموا، وصادف أنِ افتقدَه السَّفّاح، ولم يَعُدْ يغشىٰ مجلسه كما كان يغشاهُ بالأمسِ، فطلبه وألحَّ في طلبه إلحاحاً شديداً، فلم يجدْه.

* يقول خالد بنُ صفوان بعد أن ظلَّ بضعة أيّام على تلك الحال منَ الخوفِ والذّعر والهلع: فلم أشعرْ ذات يوم إلا بقومٍ قد هجموا عليَّ وقالوا: ويحك يابن صفوان، أجبْ أميرَ المؤمنين أبا العبّاسِ، فإنّه يطلبك منذ أيّام.

* فسبَقَ إلى قلبي أنَّه الهلاك، وأيقنتُ بالموت، فقلتُ: إنّا لله وإنا إليه

راجعون، لم أرَ دَمَ شيخٍ أضيع منْ دمي. ثمّ ركبتُ إلى دارِ أمير المؤمنين وليس عليَّ لحمٌ ولا دمٌ من شدّة الرّهب والرّعب، فلما وصلتُ إلى الدّار، لم ألبثْ إلا قليلاً حتى أذن لي بالدّخول، وأومأ إليَّ بالجلوسِ، فوجدتُه خالياً، فرجعَ إليَّ عَقْلي، وهدأتْ نفسي، وسكَنَ قلبي، وارتاحتْ جوارحي.

* قال خالدُ بنُ صفوان: فنظرتُ في المجلس، فإذا خَلْف ظهري بيتٌ عليه ستور رقاق قد أُرخيَتْ، وإذا حركةٌ خفيفةٌ من خلفِها. ثمَّ إنَّ أبا العبّاس ابتدرني بالحديث وقال: يا خالد، إنّي لم أركَ منذ ثلاث أو أكثر!

قلتُ: يا أمير المؤمنين، لقد كنتُ عليلاً أكابدُ مرضاً ألمَّ بي، وسكنَ بين أضالعي.

قال أبو العبّاس بشيءٍ من اللطف: ويحك يا خالد، إنّك قد وصفْتَ لأميرِ المؤمنين في آخرِ دخلةٍ دخلتَها عليَّ من أمور النّساء صفة لم يخرقْ مسامعي كلامٌ قطّ أحسنَ منه، وأحبُّ أن تعيدَه عليَّ الآن.

* قلتُ: ـ وقد سمعتُ حسّاً خلف السِّتر ـ نعم يا أمير المؤمنين لقد أعلمتك أنَّ العربَ إنّما اشتقّت اسمَ الضّرتَيْن من الضّرِ، وأنَّ أحدهم لم يكن عنده من النِّساء أكثر من واحدة إلا كان في ضرّ وجَهْد وتنغيص.

قال أبو العباس: ويحك يا خالد، لم يكن هذا في الحديثِ الذي حدّثْتَ به!!

قلتُ: بلى يا أمير المؤمنين.

قال: فأُنْسيتُ إذاً، وما أنسانيه إلا الشّيطان أنْ أذكره، فأتممِ الحديث.

قلتُ: يا أمير المؤمنين لقد أخبرتُك أنَّ الثّلاث من النِّساء كأثافي القدر يغلي عليهن، فيحرقْنَه ويتْلِفْنَه، ويهلكنَه وينْسِفْنَه.

قال أبو العبّاس بشيءٍ من الانزعاج: برئتُ من قرابتي من رسولِ الله ﷺ إنْ كنتُ سمعتُ منك هذا الحديث أو شيئاً منه، ولا مرَّ في حديثك مما تقول جملة واحدة.

قال خالد: فقلتُ: وأخبرتك يا أمير المؤمنين أن الأربع من النِّساء شرٌّ مجموعٌ لصاحبه، يُشْبِنَهُ، ويهرِمْنَه، ويحقرنه، ويسقمْنَه، ويقتسمنه حيّاً وميتاً.

قال أبو العبّاس: ويلك، لا والله، ما سمعتُ هذا منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت.

قلت: بلى واللهِ يا أمير المؤمنين.

قال: أفتكذّبني ويحك؟!

قلت: وتريدُ أنْ تقتلني يا أميرَ المؤمنين؟

قال أبو العبَّاس: امْضِ في حديثِكَ إذاً!

قلتُ: وأخبرتُكَ يا أميرَ المؤمنين أنَّ أبكارَ الجواري والإماء رجالٌ إلا أنهنَّ ليست لهنّ خَصى.

قال خالد بنُ صفوان: فتعجَّب أبو العبّاس من قولي، وسمعتُ ضحكاً من خلف السّتر، فتابَعْتُ حديثي وقلتُ له: نعم يا أمير المؤمنين، وأخبرتُك أيضاً فيما أخبرتُك أنَّ بني مخزوم هم ريحانةُ قريش، وأنتَ عندك ريحانة منَ الرَّياحين، وأنّك تطمحُ بعينيك إلى النّساء وإلى الجواري.

قال خالد: فقيل لي من وراء السّتر: صدقتَ واللهِ يا عماه، وبهذا حدَّثْتَ أميرَ المؤمنين، ولكنّه غيَّرَ حديثك، ونطقَ عن لسانك ما نطقَ.

فقال له أبو العبّاس: مالك قاتَلك اللهُ وأخزاكَ، وفعلَ بك وفعل.

قال خالد: فانْسَللْتُ، وتركتُ المجلسَ وخرجتُ وقد أيقنتُ بالحياةِ، ولما وصلتُ منزلي لم أشعرْ إلا برسلِ أمّ سلمة بنت يعقوب قد صاروا إليَّ، وقد بعثتْ معهم عشرةِ آلاف درهم، وغلام، وثياب، ودابّة للرّكوب[1].

---

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٥٢٨ و٥٢٩)، وثمرات الأوراق (ص٤١١ و٤١٢)، والدر المنثور (ص٥٨ و٥٩).

* ويبدو أنَّ أبا العبَّاس قد ظلَّ وفيّاً لأمِّ سلمةَ وفاءً منقطعَ النَّظير؛ فقد ذكر الثَّعالبيّ ـ رحمه الله ـ قصَّةً تشيرُ إلى مكانة أمّ سلمةَ في نفسِ أبي العبّاس فقال: كان أبو العبّاس السَّفَّاح يوماً مشرفاً على صحنِ داره ينظرها، ومعه امرأتُه أمّ سلمة، فعبثتْ بخاتمها، فسقطَ من يدها إلى الدَّار، فألقى السَّفّاح أيضاً خاتمه، فقالت: يا أمير المؤمنين، ما أردت بهذا؟

قال: خشيتُ أن يستوحشَ خاتمك فآنستهُ بخاتمي غَيْرةً عليه لانفراده[1].

أمُّ سَلَمَةَ والأَيَّامُ الأَخَيْرَة:

* ظلتْ أمُّ سلمة عند أبي العبّاس السَّفاح إلى أنْ توفاه[2] الله وهي مالكةٌ قلبه آسرةٌ جوارحه.

* ولما توفي السَّفّاح تزوّجت عبد الله بن الحميد المخزوميّ، فمالت إليهِ كلّ الميل، فأعطتْهُ عطاءً جزيلاً، ممّا جعله موسراً غنياً يعطي الشّعراء على مدائحهم، فيجزلُ لهم العطاء.

* ولكنَّ أمَّ سلمة اتهمته بجاريةٍ لها، فاحتجبتْ عنه، ولم تَعُدْ إليه حتى وافاها الأجل. ومنَ الجدير بالذّكر أنَّ أمَّ سلمةَ تُنْسب لها صحراء أمِّ سلمة.

* ويبدو أنَّ الحياةَ قد امتدتْ بأمِّ سلمةَ بنتِ يعقوب إلى خلافةِ أبي جعفر المنصور، ولا نعلم زمانَ ولا مكان وفاتها، حيث لم تُفْصِح المصادرُ صراحة عن ذلك.

* وبعد ـ عزيزي القارىء ـ، فهذه أمّ سلمة ابنة يعقوب المخزوميّة السَّيّدة الجليلة ذات العقل الرّاجحِ، والرّأي النّافذِ، عاشتْ حميدةً في خلافة السَّفّاح، وكانت من أعلام نساءِ الخلفاء، وماتتْ بعد أنْ تركتْ ذِكْراً حميداً في العالم النّسوي، وفي دنيا نساءِ الخلفاء في عَصْر الإسلام، عصر السَّناء والبَهاء.

* * *

(١) انظر كتاب: اللطائف والظرائف لأبي منصور الثعالبي (ص٣٧).
(٢) مات السَّفَّاح بالأنبار شاباً سنة (١٣٦هـ) وعمره (٣٢ عاماً).



٦

أم عوف امرأة أبي الأسود

إحْـدَى فَصِيْحَـاتِ نِسَـاءِ العُـلَمـاءِ:

* إذا كان الرّجالُ مَعْقِدَ الفضائلِ، ومعدنَ العلوم والحكم ومجمعَ الخيرات والفضائل، فإنَّ نساءَ العربِ في الإسلام لم يدعْنَ لرجالهنَّ خلّةً يستأثرون بها دونهنَّ، ولم يتركنَ طريقاً من طرقِ العظائم، ولا مشْرَفاً من مشارفِ المكارم، إلا وكنَّ من السَّابقات إليه، فقد أَثْرَتِ المرأةُ العربيّةُ في العَصْر الإسلاميَ تاريخَنَا الوضيءَ في الفضائلِ بجميعِ ألوانها وأنواعها وأَشكالها.

* لقد برزتِ المرأةُ إلى ميادين القتال أحياناً، وحلَّقت في سماءِ الفروسيّة، وطاولتِ الثّريا في الشَّجاعة، وهمست في أذنِ الجوزاء تحكي له مآثرها، وبرّزتِ المرأةُ في ميادينِ العِلْم والفِقْه، وأبدعت في رحابِ الأَدب والفنّ والمعرفةِ، ورفرفتْ فوقَ سمواتِ البلاغة والفصَاحة والبيان، ولم تدعْ مكرمةً إلا أدلتْ دلوَها فيها، وأبانتْ عن مكانتها وفضلِها.

* ولم تَقِفِ المرأةُ المسلمةُ لتزاحمَ الرّجال في مواطنِ الفضيلة، ولكنّها كانتِ العضدَ الأقوىٰ في الوصولِ إلى الكمال. ولقد حفلتْ مجالسُ الخلفاءِ، وقصورُ الأمراءِ بمواقفَ رائعةٍ ناصعة لامعةٍ للمرأة التي أَثْرت الدّنيا بفرائدِ أقوالها، وجمالِ بيانها، وكمالِ أدبها، ووفرةِ معرفتها، وسموِّ غايتها.
وسنعيشُ اليوم مع امرأةٍ من نسوةِ العَصْر الأمويّ، ومن نساءِ العُلماء، قد ذُللتْ لها قطوفُ البلاغةِ تذليلاً، وكان أدبُها عليها دليلاً، فكانت من كبريات فصيحاتِ عصرها، وأديباتِ دهْرها.

* هذه المرأةُ لا نعرف اسمها، وإنّما اشتهرت بكنيتها، فهي أمُّ عوف امرأة أبي الأسود الدّؤلي، تلك التي وقفت أمامَ أميرِ المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ، وخاطبتْهُ بأفصح بيان، وأبْيَن فصاحة، دون وَجَلٍ أو تردّد في الكلام، واستطاعت أنْ تنثرَ من أَزاهرِ بلاغتها، وورِدِ فصاحتها، وجمال حججها أمامَ الفُصحاء في مجلس معاوية ـ رضي الله عنه ـ، ففي أي مدرسة درجتْ أمّ عوف هذه، وأي مَعْهد تخرَّجَت؟!![1]

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (تراجم النساء ص٥٥٥ ـ ٥٥٩)، وبلاغات النساء=

* لا شكَّ أنَّ أمَّ عوفٍ قد درجت في مجتمع لم تعرفِ العجمةُ إليه سبيلاً، بل كانت مغارسُ الحكمةِ تحيطُ بها من كلّ جانب، لا سيما وأنَّ زوجَها أبا الأسود الدّؤلي أحدُ أذكياءِ الدّنيا في مختلفِ العُلوم والمعارف.

* فأبو الأسود الدّؤلي ـ أو الدِّيْلي ـ واسمه: ظالمُ بنُ عمرو كان قاضي البصرة في العَهْدِ الأمويّ وأخريات العَصْر الرّاشدي، وكان أحدَ فقهاءِ البصرة وعلمائِهم وفصحائِهم ونصحائِهم؛ روىٰ عن عددٍ من أكابر الصَّحابة؛ منهم: عليُّ بنُ أبي طالب، والزُّبيرُ بنُ العوام، وعبدُ الله بن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ كما روىٰ عن غيرهم، ورویٰ عنه كبار الثّقات وأعلياء العُلماء الرّواة.

* وأبو الأسود الدّؤلي هو أوَّلُ مَنْ تكلَّم بالنَّحوِ[1]، وكان له شَأْنٌ كبيرٌ في المجتمع الإسلاميّ في عصره، وكان من أكبرِ النَّاس عند معاويةَ بنِ أبي سفيانَ ـ رضي الله عنهما ـ، وأقربهم مجلساً، وكان لا ينطقُ إلا بعقل، ولا يتكلَّمُ إلا بعد فَهْم. قال ابنُ خلكان ـ رحمه الله ـ: كان منْ أكمل الرِّجال رأياً، وأسدهم عقْلاً[2].

= لطيفور (ص٥٣ ـ ٥٥)، وشرح مقامات الحريري للشُريشي (٢/ ١٦٤ و١٦٥)، وأعلام النساء (٣/ ٣٧٦ ـ ٣٧٩) وغيرها كثير.

(١) ذكر ابنُ خلكان ـ رحمه الله ـ طرفاً من معرفة أبي الأسود ببدايات النّحو فقال: دخلَ بيته يوماً، فقال له بعضُ بناته: يا أبتِ، ما أحسنُ السّماء؟؛ فقال: يا بُنية، نجومُها.
فقالت: إني لم أَردْ أي شيءٍ منها أحسن، إنّما تعجبتُ من حُسْنِها.
فقال: إذاً فقولي: ما أحسنَ السّماء! وحينئذ وضعَ علم النحو. (وفيات الأعيان ٢/ ٥٣٧).
وذكر ابنُ نباتة المصري ـ رحمه الله ـ خبراً آخر في سبب وضع أبي الأسود علم النّحو فقال: دخلَ أبو الأسود على ابنتهِ بالبصرة، فقالت: يا أبتِ ما أشدُّ الحرّ! فقال: شهر آذار. فقالت: يا أبتِ إنّما أخبرتُك ولم أسألك. وكان مرادها التّعجب. (سرحُ العُيون في شرحِ رسالةِ ابن زيدون ص٢٧٦). وهناك أقوالٌ أخرى أوردها ابن نباته في سَرح العِيون فانظرها إن شئت.

(٢) وفيات الأعيان (٢/ ٥٣٥).

* قال أبو عثمان الجاحظ: أبو الأسود مقدَّمٌ في طبقات النّاس؛ كان معدوداً في الفقهاءِ، والشّعراءِ[1]، والمُحدّثينَ، والأشرافِ، والفرسانِ، والأمراءِ، والزّهادِ، والنّحاةِ، والحاضري الجواب، والشّيعةِ[2]، والبخلاءِ[3]، والأشراف[4].

---

(١) لأبي الأسود شعر جميلٌ وردَ في كثيرٍ من المصارد وكُتُب التّراجم والطّبقات وكتب الأدب، ومن روائع شعره قوله المشهور:

يا أيُّها الرّجلُ المعلّمُ غيرَهُ … هلاّ لنفسِك كانَ ذَا التّعليمُ
تصفُ الدّواء لذي السّقام وذي الضّنى … كيما يصحّ به وأنتَ سقيمُ
وأراكَ تصلحُ بالرّشادِ عقولَنا … أبداً وأنتَ منَ الرشاد عديمُ
لا تَنْه عن خُلقٍ وتأتي مثله … عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ
ابدأ بنفسك فانهها عن غيّها … فإذا انتهتَ عنه فأنت حكيمُ
فهُناك يُسمع ما تقول ويقتدى … بالعلم منك وينفع التعليمُ

(٢) كان أبو الأسود ـ رحمه الله ـ عالماً شاعراً، ذا رأي، وكان شديدَ التشيّع، فمن أخباره ما حدّث أبو عمرو قال: كان أبو الأسود نازلاً في بني قُشَير، وكانوا يخالفونه في المذهب، لأنَّ أبا الأسود كان شيعيّاً، فكانوا يسرحونه بالليل، فإذا أصبحَ شكا ذلك، فشكاهم مرّة، فقالوا: نحنُ ما نرميك، ولكنَّ اللهَ يرميك؛ فقال: كذبتم، لو كان اللهُ يرميني ما أخطأني. (سرح العيون ص٢٧٧ و٢٧٨).
وقال لهم يوماً: يا بني قُشَير، ما أحبّ إليّ طولَ بقاءٍ منكم، قالوا: ولم ذاك؟
قال: لأنكم إذا ركبتم أمراً علمتُ أنه غيٌّ فاجتنبتُه، وإذا اجتنبتم أمْراً علمتُ أنّه رشْدٌ فاتّبعته.
ومن نظمه في رثاءِ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ومحاجّة بني قُشير قوله:

يقولُ الأرذلونَ بنو قُشَير … طوالَ الدَّهْر لا تنسىٰ عليّا
بنو عمٍّ النّبي وأقربُوهُ … أحبُّ النَّاس كلّهم إليّا
أحبّهمُ كحبِّ الله حتّى … أجيء إذا بُعِثْتُ علىٰ هَوَيّا
فإن يك حبُّهم رشداً أُصِبْهُ … ولستُ بمخطىء إن كان غيّا

(ديوانه ص٣٢).

(٣) البيان والتبيين (١/ ٣٢٤)، ومعجم الأدباء (١٢/ ٣٤)، وبغية الوعاة (٢/ ٢٢).

(٤) قال رجلٌ لأبي الأسود: أنتَ واللهِ ظَرْف عِلْمٍ وحلْمٍ؛ غير أنّك بخيلٌ.
فقال: وما خيرُ ظرفٍ لا يمسك ما فيه!

* ويمكننا أنْ نقولَ: إنَّ أبا الأسود أحد نوادرِ الأذكياء، وممن صدرتْ عنه البلاغة، وأُثرتْ عنه الحكمة، وحُفِظَت عنه كلماتٌ ذهبتْ مذهبَ الأمثال[1]؛ ونظم جميل سار حكمةً بين الأجيال.

* إذاً، لقد اغترفتْ أمُّ عوفٍ من زوجها أبي الأسود معظمَ هذه المعارف الشَّريفة، فكانت واحدةً من نوادرِ فصيحات النّساء اللواتي حفظَ لها التَّاريخُ موقفَها، واحتفظَ ببلاغتها، وأقرَّ لها بالفصاحة والبيان.

فَصَاحَتُهَا في شَكْوىٰ زَوْجِهَا:

* تروي المصادرُ المتنوعةُ أنَّ أبا الأسودَ الدّؤلي كان كبيرَ القَدْر عند معاوية ـ رضوان الله عليه ـ، وكان معاويةُ يقرِّب مجلسه، ويقرُّ بعلمه، ويدْنيْهِ من مجلسهِ عندما يَفِدُ عليه زائراً، وكان يسأله عن أشياءَ كثيرة، فيجيبُ عنها بعلم ودِراية وفَهْم.

* وصادفَ مرَّة أنْ خاصمت أمّ عوف زوجها، فقرّرت أنْ تدخلَ علىٰ معاويةَ بنِ أبي سفيان في مجلسه، وتشكو أبا الأسود، فلعلَّها تَصِلُ إلى حقِّها.

* وبينما كان أبو الأسود ذاتَ يوم عند معاوية، وعنده وجوه القوم، وأشراف العرب، وفصحاء الأقاليم، إذ دخلت عليه امرأةٌ برزة ـ ظاهرة الوجه ـ فقالت: السَّلام عليكم ورحمة الله يا أمير المؤمنين!

فقال معاوية: وعليكِ السّلام ورحمة الله وبركاته يا أَمَةَ الله.

* فتكلّمت أمُّ عوف بكلامٍ يرشحُ بالفصاحةِ، والبيانِ والإيجازِ، ويشيرُ إلى رباطةِ الجأش، وحسنِ الطّلب، وجمالِ العرض، ورشاقةِ المعنى فقالت:

---

(١) كان لأبي الأسود بالبصرة دارٌ، وله جارٌ يتأذّى منه في كلّ وقت، فباع الدار، فقيل له: بعتَ دارك. فقال: بل بعتُ جاري ـ وكان جار سوء ـ، فأرسلها مثلاً. (وفيات الأعيان ٢/ ٥٣٧)، و(شذرات الذهب ١/ ٣٩٧) طبعة دار ابن كثير المحققة.

* أصلحَ اللهُ أميرَ المؤمنين، وأَمْتَع به؛ إنَّ الله جَعَلَك خليفةً في البلاد، ورقيباً علىٰ العباد، فيُستَسْقى بكَ المطر؛ ويُستنبَتُ بكَ الشَّجر، وتؤلَّفُ بك الأهواء، ويُؤمَّن بكَ الخائف، ويروّعُ بك الجانف[1]، فأنتَ الخليفةُ المصطفى[2]؛ والإمامُ المرتضى.

* وإنّي أسألُ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ لكَ النِّعمة من غيرِ تقصير، والبركةَ من غير تَقْتِير، والعافيةَ من غيرِ تغذير[3].

* لقد ألجأني[4] إليك يا أميرَ المؤمنين أمْرٌ ضاقَ عليَّ فيه المنهجُ[5]، وتفاقمَ عليَّ فيه المخرجُ، من أمْرٍ كرهتُ عاره، لما خشيتُ إظهاره؛ فليكشفْ عنّي أميرُ المؤمنين، ولينصفني منَ الخصمِ، وليكنْ ذلك على يديه، وإنّي أعوذُ بساحتك من العارِ الوبيل[6]، والأمْرِ الجليل، الذي يشتدُّ علىٰ الحرائرِ ذوات البعول الأجائرِ[7].

* كان معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ يصغي لما يسيل به بيانُ هذه المرأةِ من سحْرِ القول، وساحِرِ العبارة، وبديعِ الأسلوب، ونصاعةِ الكلام، فقال لها: مَنْ هذا الذي تَصِفِيْنَ من أمرِهِ المنْكَر، ومن فعله المشهر؟ وما أمْرُكِ؟!

قالت: أَمْرُ طلاقٍ جاءَني من بَعْلٍ عَادٍ، لا تأخذُه منَ الله مخافةَ، وهو في مجلسك.

فقال معاوية ـ رضي الله عنه ـ: ومَنْ بعلُك يا أمَةَ الله؟!

---

(١) «الجنف»: الميل عن الحق خطأ وجهلاً، قال تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٢].

(٢) «المصطفى»: المختار.

(٣) «تغذير»: تخليط.

(٤) «ألجأني»: اضطرني.

(٥) «المنهج»: الطريق الواضح.

(٦) «الوبيل»: الشّديد؛ قال تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٦] أي: إهلاكاً شديداً.

(٧) «الأجائر»: لعلها جمع جائر، والجائر: المائل عن الحقّ، المنحرف عنه، الظالم.

قالت بجرأةٍ: هو أبو الأسود ظالم بنُ عمرو، وهو ظالمٌ لي، ـ وأشارت إلى مجلسه ومكانه ـ.

منْ أَسْبَابِ طَلاقِهَا وَفِرَاقِهَا:

* سادَ مجلسُ معاوية ـ رضي الله عنه ـ لحظات صمتٍ، وكلُّ واحدٍ أخذَ ينظرُ إلى الآخرِ نظراتٍ متموّجة يريدُ أنْ يستوضحَ الأمْر، ويستجلي الحقيقة، وهنا التفتَ معاويةُ إلى أبي الأسود الدّؤلي الذي زانَه الهدوء والوقار وقال له: حقّاً ما تقول هذه المرأةُ يا أبا الأسود؟!

فأجابَ أبو الأسود في هدوء العُلماء: نعم يا أميرَ المؤمنين، إنّها لتقولُ منَ الحقِّ بعضاً، وليس يستطيعُ عليها أحَدٌ نقضاً.

قال معاويةُ: إذاً فما الخبرُ، وما جليةُ الأمْرِ؟!

قال أبو الأسود: أمّا ما ذكرتْ من أمْرِ طلاقها وفراقها فهو حقّ، وأنا مخبرٌ أمير المؤمنين عنه بالصِّدق.

* وصمتَ أبو الأسود هنيهةً، ثمَّ بدأَ حديثه ثانية فقال: واللهِ يا أمير المؤمنين، ما طلقتُها لريبةٍ ظهرت، ولا من هفوةٍ خطرت، ولكنّي كرهتُ شمائلها، فقطعتُ حبائلها.

* وأحبَّ معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ أن يستوضحَ عن الخلالِ التي كرهها أبو الأسود في امرأتِه أمّ عوف، فقال لأبي الأسود: وأي شمائلها وصفاتها كرهتَ يا أبا الأسود؟!

فقال أبو الأسود: يا أمير المؤمنين، إنّك مهيّجُها عليَّ بكلامٍ عنيد، ولسان حديدٍ شديدٍ.

قال معاويةُ ـ وأحبَّ أن يسمعَ ذلك منهما معاً ـ: لا بدَّ لك من مجاوبتها، فارددْ عليها قولَها عند محاورتها.

* وهنا أخذَ أبو الأسود الدّؤلي يذكرُ مساوىء أمّ عوف زوجته، ويرصفُ مثالبَها، ويصفُ حقيقتَها فقال: هي يا أمير المؤمنين كثيرةُ الصَّخب؛ دائمةُ

الذَّرب[1]، مهينةٌ للأهل؛ مؤذيةٌ للبعل[2]، إنْ ذكرتُ خيراً دفنَتْه، وإن ذكرتُ شرّاً أذاعَتْه، تخبرُ بالباطل؛ وتطيرُ مع الهازل، لا تنكلُ عن عتْبٍ؛ ولا يزال زوجها معها في تعب.

* وهنا قالت أمّ عوفٍ بشيء من الجرأة بعد أنْ أَلْقَتْ نظرةً حادّةً على زوجها أبي الأسود: أما والله لولا حضورُ أمير المؤمنين، ومَنْ حضَرَهُ من المسلمين، لردّدتُ عليك بوادر[3] كلامك، ببوادر يُردع بها كلّ سهامك، وإنْ كان لا يَحْسُنُ بالمرأة الحرّة أنْ تَشْتُمَ بعلاً، ولا أنْ تظهرَ لأحدٍ جهلاً! . . ثم صمتتْ عن الكلام، ونظرت في وجوهِ القوم، ثمَّ نظرت إلى وجْهِ معاوية لعلّه يطلبُ منها أنْ تدليَ دلوهَا لتأتي بحجّتها.

---

(١) «الذّرب»: بذاءة اللسان، و«الذِّربة»: بالكسر: سليطة اللسان.

(٢) كان أبو الأسود يصفُ زوجه بأنّها تجد عوناً من جاراتها، وتقوى عليه بهنَّ، حتى عندما تكون غير محقّة في طلبها، فتشكو إلى الجاراتِ ما تجد من بخله وسوء عشرته؛ وفي ذلك يقول:

فتَشْكُو إلى جاراتها وبناتِها ... إذا لم تجدْ ذنباً عليَّ تجنَّتِ

(ديوانه ص٦٣ طبعة بغداد ١٩٦٤).

وقد عُرِفَ عن أبي الأسود البخل الشّديد، وعُرِف عنه الاقتصاد في النّفقة، وهو يعترفُ بحسن التّدبير، وعدم التّبذير، إلا أنّه لا يعترفُ بأنّه بخيل على جارهِ، ولا يَودُّ أن يُوصف بهذه الصّفة، ويصرُّ على نفي التّهمة عنه فيقول:

وإنَّ امرأً نُبِّئْتُهُ مِنْ صديقنا ... يسائلُ هَلْ أسقي مِنَ اللبنِ الجارا

وإنّي لأسْقي الجارَ في قَعْرِ بيتهِ ... وأشربُ مالا إثْمَ فيه ولا عارا

(ديوان أبي الأسود ص١٠٥).

وأورد ابنُ العماد الحنبلي قصّة عن أبي الأسود أنَّه سمع رجلاً يقول: مَنْ يعشّي الجائع؟ فعشّاه، وكان السَّائل لجوجاً. ثم ذهب السّائل ليخرج بعد العشاء؛ فقال له أبو الأسود: هيهات! على ألا تؤذي المسلمين الليلة؛ ثم إنَّ أبا الأسود وضعَ رجْل السَّائل في القيد حتى أصبح، ثمّ أطلقه. (شذرات الذهب ١/ ٣٩٧) بتصرف يسير.

(٣) «بوادر»: جمع «بادرة»: وهي ما يبدر من الحدة والغضب في قول أو فعل.

أُمُّ عَوفٍ تُـذيـعُ مثَـالِبَ زَوْجِهَـا:

* سمعَ معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ منْ أمِّ عوف ما سمعَ من فصاحتِها ولسنِها، وعرفَ مكانتها في عالم البلاغة، وميدان الإعجاز، فأحبَّ أنْ يسمعَ من دُررِ كلامها في هذه المحاجة ليزين به المجالس، ويعرف كيف تدافع عن نفسها وتدفعُ خصمها، وتدلي دلْوهَا في بابِ الحجّة كيما تأتيَ بما يدفعُ زوجهَا من فَيْصَلِ القول، ولطيفِ العبارة، وقوة اللفظِ، وكمالِ البيان، لذلك توجّه معاوية إلىٰ أمّ عوف وقال لها: عزمتُ عليك لما أجَبْتِ أبا الأسود.

فقالت أمُّ عوف ـ وقد ردَّتِ الصَّاع صاعَيْن علىٰ زوجها ـ: حبّاً وكرامة يا أميرَ المؤمنين، إنَّه واللهِ سؤولٌ جهولٌ، مِلْحَاحٌ بخيلٌ[1]، إنْ قال فَشَرُّ قائلٍ، وإن سكتَ فذو غوائل؛ ليثٌ حيث يأْمَن، ثعلبٌ حين يخاف، شحيحٌ حين يُضاف، إنْ ذُكِر الجود عنده انقمع[2] لما يعرف منْ لؤمِ آبائه؛ وقصر رشائه[3]، ضيفُه جائع؛ وجارُه ضائع، لا يحمي ذماراً؛ ولا يضرمُ ناراً؛

---

(١) إنَّ البخلَ صفةٌ قبيحة من أذمّ الخلائق، وأنكرِ الطرائق، نهى عنه الشّرع، وقضى بقبحه العقل؛ وحقيقة البخل: منع الحقوق الواجبة، وتقتير النّفقات المستحقّة، وفي العرف والعادة: هو خَزْن المال ومنع المسترفدين من فضوله. والبخيل لا يزال مسلوبَ الهيبةِ، مفقودَ الرهبة، ثقيلاً على النفوس، بغيضاً إلى القلوب، ترمقُه الأبصار بالاحتقار، وبقلةِ الوقار، والبخل يغطي الفضائل، ويظهر الرذائل، واسمعْ قول القائل:

ويظْهرُ عيبَ المرءِ في النّاس بخلُه ... ويستُره عنهم جميعاً سَخاؤُه
تغط بأثواب السَّخاء فإنّني ... أرى كلَّ عيبٍ والسّخاء غطاؤه

وقال بعضُ الحكماء: البخل جلباتُ المسكنة؛ وقال غيره: لا يدخل البخل مسكناً إلا أعقبه الحسرة. وقال غيره: البخيلُ ليس له الخليل.

(٢) «انقمع»: انقهر، وذلّ.

(٣) «الرّشاء»: الحبل، وأرادت هنا أمّ عوف: أن أبا الأسود لن يتوصلَ إلى عظائم الأمور، وأسباب المجد لهوانه.

ولا يرعىٰ جواراً، أهونُ الناسِ عنده مَنْ أكرمه؛ وأكرمهم عليه مَنْ أهانه.

* ولما سمعَ معاويةُ ـ رضوان الله عليه ـ منطقَ أمّ عوف اهتزّ طرباً لحسنِ ترسلها وأدبها وقال: سبحان الله لما تأتي به هذه المرأة من السَّجع، وما رأيتُ أعجبَ من أمرها.

فقال أبو الأسود لمعاوية: أصلحَ اللهُ أميرَ المؤمنين، إنّها مطلَّقة، ومَنْ أكثر كلاماً منْ مطلقة؟! فالتفتَ معاوية إليها وقال لها: إذا كان رَواحاً فتعالي أفْصِل بينك وبينه بالقضاء.

اللهُمَّ اكْفِنِي شَرَّهَا:

* انصرفتْ أمُّ عوفٍ من مجلس أميرِ المؤمنين معاوية بن أبي سفيان على أن تعودَ إليه في العشي، بينما ظلَّ أبو الأسود مشدوهاً لما كان يسمعُ من كلامها الذي جارتْ عليه به في بعض المواقفِ، وأبانتْ خِلالَه، وذمّتْ خصاله.

* ولما كان العشي جاءت أمّ عوف، ومعها ابنها قد احتضَنَتْهُ، فألفَتْ معاوية يخطبُ، والجلوس يسمعون، فلمّا رآها أبو الأسود، توسّل إلى اللهِ قائلاً: اللهم اكفني شرّها.

* والتقطتْ أذنا أمّ عوف توسُّلَ ودعاءَ أبي الأسود، فقالت له في بساطةٍ: قد كفاكَ اللهُ شرّي يا أبا الأسود، وأرجو الله أنْ يعيذَك من شرِّ نفسك.

فقال أبو الأسود لها ـ وأشارَ إلى ابنه الذي تحمله ـ: ناوليني هذا الصَّبي لأحملَه.

فقالت له بشدّة وحزمٍ: ما جعلك الله أحقّ بحملِ هذا الصَّبي منّي ولن أعطيكه.

* ولم يتمالكْ أبو الأسود نفسه، فوثَب فانتزعَه منها وحمله. وهنا تدخّل معاوية ـ رضي الله عنه ـ في الأمْر، وخاطب أبا الأسود قائلاً: مهلاً يا أبا الأسود! لا تعجل المرأة أنْ تنطق بحجّتها.

فقال أبو الأسود: يا أمير المؤمنين، لقد حملته قبلَ أنْ تحمله، ووضعتُه قبل أن تضعَه.

فردّتْ أمُّ عوف بأبلغ حجّة وقالت: صدقَ واللهِ يا أمير المؤمنين فيما قال، لقد حَمَله خِفّاً، وحملتُه ثقلاً، ووضعَه شهوة، ووضعتُه كرهاً، وقد كان حجري حِواءَه، وبطني وعاءه، وثديي سقاءه.

* وتعجَّبَ معاوية ـ رضوان الله عليه ـ من سرعةِ بديهة أم عوف، ومن حسنِ ردّها على زوجها بحجّة دامغة؛ ثم قال: ما رأيتُ أعجب من هذه المرأة؛ ثمَّ التفتَ إلى أبي الأسود وقال له: إنّها قد غلبتك في الكلام بحسنِ حجّتها.

وساد الصَّمتُ ذاك المجلس الأنيق؛ ولكنْ ماذا حدثَ بعد ذلك؟!

أُمُّ عوفٍ والشِّعْرُ:

* مزَّقَ سكونَ الصمتِ الذي خيَّمَ على مجلس معاوية ـ رضي الله عنه ـ صوتُ أبي الأسود الذي قال: يا أمير المؤمنين، إنَّ أمَّ عوفٍ هذه تقول منَ الشّعر أبياتاً، وإنّها تجيده، وتحسنه فاسمعْ منها ذلك إنْ شئتَ.

قال معاوية: إنَّ كلامها لفي غاية البيان، ثمّ إن معاوية أشارَ على أبي الأسود بأنْ ينظمَ شعراً فقال له: تكلّفْ أنت أبياتاً فلعلَّك تقهرها بالشِّعر؛ واستجابَ أبو الأسود لرغبةِ معاوية، فلعلّه يتغلّبُ على أمِّ عوف، فأنشأ يقول مصوِّراً حاله وحالته مع أمِّ عوف:

مَرحَباً بالتي تجُورُ عَلَيْنا ... ثمّ سَهْلاً بحامِلٍ مَحْمُولِ
أَغْلقتْ بابَها عليَّ وقالتْ ... إنَّ شرَّ النّساءِ ذات البعولِ[1]
شَغلتْ قلبها عليَّ فراغاً ... هل سمعتُم بفارغٍ مشغولِ

* وبعد أنْ فرغَ أبو الأسود من نظمه، أشارَ معاوية إلى أمّ عوف أن تردَّ

(١) ورد هذا الشطر في بلاغات النساء: إن خير النساء ذات البعول.

علىٰ أبي الأسود بما تقدرُ عليه منَ القول، فأجابته بنفس الرّوي وأنشأت تقول:

ليْسَ مَنْ قالَ بالصَّوابِ وبالـ ـحقِّ كَمَنْ حَادَ عن منار السَّبيلِ
كانَ حِجْري حواءَه حين يضحي ثمّ ثديي سقاءَه بالأصيلِ
لستُ أبغي بواحدي يابنَ حَرْب بدلاً ما رأيته والجليلِ

* ولما سمعَ معاوية ـ رضي الله عنه ـ كلامَ أمّ عوف، وما قالته وأنشدته في الوقتِ والحال، تحرّكت بداخلهِ لواعجُ الشّعر، فأدلىٰ دلوه في هذا المضمار، وأنشأ يقول:

لَيْس مَنْ قد غَذَاه طفلاً صَغيراً وسقاهُ منْ ثديه بالخذولِ
هي أولىٰ بهِ وأقربُ رحماً مِنْ أبيه وفي قَضَاء الرّسول[1]
أمُّه بما حَنَتْ عليه وأولىٰ من أبيه بذا الغلام الأصيل[2]

* ثمَّ إنَّ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ قضىٰ لامرأةِ أبي الأسود، وحكم لها، فاحتملتْ ابنها، وانصرفتْ شاكرةً فعلَه، حامدةً أَصْلَه.

وَدَاعَاً أُمّ عَوف:

* تلكم رحلةٌ طيّبةُ النَّشر مع أمّ عوف، وقد رأينا خلالها كيف أوتيتْ هذه المرأة من فصاحةِ الكلم، وجُمِعَت لها باقات من أشتاتِ الحكم، فنبذتْ بحجّتها زوجها، وحكم لها معاويةُ عليه، فكانت قريرةَ العين، رضيةَ القلب، منشرحةَ النَّفس.

* وبخروج أمّ عوف من مجلسِ معاوية يغلقُ التَّاريخ وراءها صفحةَ حياتها، فلا نعلمُ لها خبراً، ولا أينَ ومتى توفيت؛ ولكنَّ بلاغتَها ما تزال

---

(١) ورد هذا الشطر في بلاغات النساء: من أبيه بالوحي والتنزيل.

(٢) انظر: بلاغات النساء (ص٥٤ و٥٥)، وشرح مقامات الحريري للشريشي (٢/ ١٦٥)، بتصرف، ويبدو لي أنَّ هذه القصّة وأمثالها من القَصَص التي حاكها القُصّاص وزادوا فيها وأغربوا، والله أعلم بالصواب والحقيقة.

تلمعُ في جنحِ الليالي، تروي ذكريات أمّ عوف في حياتها مع أبي الأسود الدؤلي.

* أمّا أبو الأسود فقد توفي سنة (٦٩ هـ) وله خمسٌ وثمانون سنة، ترك خلالها أعْطَر الأثرِ في دنيا الفِكْر والعلْمِ والأدب والمعرفةِ.

* رحمَ اللهُ أبا الأسود، وأمَّ عوف، وأجزلَ لهما المثوبة، وجعلهما في مستقرِّ رحمته.

* * *



٧

أُمّ كلثوم بنت عُقبة

مِنْ سَوابِـقَ المـؤْمِـنَـاتِ:

* في بيئةٍ تتنازعُها الأهواءُ، وفي عَصْرٍ تفترسُ الفضيلةَ فيه الجاهليةُ العمياءُ، نشأتْ أمّ كلثوم بنت عقبة بنِ أبي معيط الأمويّة القرشيّة المكيّة[1]، إحدى النّسوة القرشيّات اللواتي حُزْنَ ذِرْوَةَ الفضْلِ، وسنامَ المكارمِ، على الرّغم من الأحداثِ الجِسَام التي كانت تلمُّ بالمجتمعِ المكيّ عند مطْلَعِ فَجْرِ الدَّعْوة إلىٰ دوحةِ الإيمان، وعزِّ الإسلام، ونورِ اليقين الذي كان يدعو إليه محمّد رسول الله ﷺ في أمّ القرى.

* كان أبوها عقبة بن أبي معيط منْ أكابرِ المجرمين، ومن أعلامِ فجّار الكفّار، ومن أعداءِ رسولِ الله ﷺ، وأحد أعداء الحقّ والحقيقة، أَحَبّ أنْ يطفىءَ نورَ الله بما يملك، ولكنَّ اللهَ متمُّ نورِه ولو كَرِهَ عقبةُ وأمثالُه من أجلافِ قريش، ومَنْ شايعهم منَ المشركين والكافرين.

* أفرط عقبةُ بنُ أبي معيط ـ أخزاه الله ـ في عداوته لرسولِ الله ﷺ إلى حَدٍّ جَعَلهُ أحدَ الأشقياء المحرومين ومن المبشّرين بالنّار[2] وبئس القرار، وفي السُّطور التّالية سأقدم بعض الصّور من عداوةِ هذا الخبيث الرّعديد للنّبي الكريم ﷺ.

* وردَ في كتُبِ الصَّحيح والسِّيرة والتَّراجم والتّأْريخ وغيرها؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان ذات يوم يصلّي عند الكعبة، وصناديد قريش جلوسٌ. فقال بعضُهم: مَنْ ينطلقُ إلىٰ سَلا[3] جزورِ بني فلان، فيأتي به فيضعه علىٰ ظهرِ

---

(١) انظر ترجمتها في: الاستيعاب (٤/٤٦٥)، ونسب قريش (ص١٤٥ و٢٦٦)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٦٥)، والإصابة (٤/٤٦٧)، وسير أعلام النبلاء (٢/٢٧٦)، والدرّ المنثور (ص٦٢ و٦٣)، وأعلام النساء (٤/٢٥٥)، وغيرها كثير جداً من المصادر المتنوعة من مثل كتب التفسير والسيرة وغير ذلك.

(٢) للمزيد من أخبار المبشّرين بالنار ومواقفهم المخزية، اقرأ كتابنا «المبشّرون بالنار» في جزأيه؛ تجد عظمة الحبيب المصطفى ﷺ.

(٣) «سلا»: السلا: هو الذي يخرج منه ولد الناقة، كالمشيمة لمولد المرأة، ويكون به قذر ودماء.

محمّد وهو ساجدٌ؟! فذهبَ أشقىٰ القوم عقبةُ بنُ أبي معيط، فجاء به، ووضعه على ظهْرِ رسولِ الله ﷺ، وهم يَتضاحكُون، ويميلُ بعضُهم على بعض، فلم يزَلْ ﷺ ساجداً، حتى جاءت فاطمةُ الزَّهراء[1] وهي فتاةٌ صغيرة، فأخذته عن ظهرِه، ثمَّ أقبلتْ عليهم، فسَبَّتهم ووبّختْهم، فدعا عليهم رسولُ الله ﷺ قائلاً:

«اللهمّ عليك بهذا الملأ منْ قريش، اللهمّ عليك بعتبةَ بنِ ربيعة، اللهم عليك بشيبةَ بنِ ربيعة، اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، اللهم عليك بعقبةَ بن أبي مُعيط، اللهم عليك بأمية بن خلف». وقد استجابَ الله الدّعاء فقتلوا جميعاً يوم بدر[2].

* وتحدثنا المصادرُ الحديثيّةُ وغيرها من كُتُب السّيرة عن صورةٍ أخرىٰ من صُورِ وحشية المجرم عقبة بن أبي معيط التي تُظْهِر مدىٰ إغراقه في الكفْر والفُسوق والعصيان؛ فبينما النّبي ﷺ في حِجْرِ الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبَه في عنقِه، فخنقه خَنْقاً شديداً، فأقبل أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه، حتى أخذَ بمنكبِ عقبة، ودفعه عن النّبي ﷺ، وقال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨][3].

---

(١) اقرأ سيرة «فاطمة الزهراء» في كتابنا: «نساء أهل البيت» (ص٥٢٩ ـ ٦٠٤) فسيرتها إمتاع للأسماع والكتاب مطبوع بدار اليمامة الغراء بدمشق أكثر من مرّة.

(٢) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٨٢ و٨٣)، وتاريخ الإسلام للذهبي (السيرة النبوية ص٢١٦ و٢١٧)، وللحديث أصل في الصَّحيحين فقد أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٢٧)، و(٥/ ٥٧) ومسلم في الجهاد (١٠٨)، وأحمد (١/ ٤١٧)، وابن خزيمة في صحيحه (٧٨٥) وغيرهم.

وقال رسول الله ﷺ: «أشدّ الناس بلاء الأنبياء»، وما أجمل البوصيري في همزيته إذ قال:

لا تَخَلْ جانبَ النبي مضاماً … حين مسَّتْه منهم الأسواءُ

كُل أمْرٍ نابَ النّبيين فالشِّـ … ـدةُ محمودةٌ والرّخَاءُ

(٣) فتح الباري (٧/ ٢٠٣) حديث رقم (٣٨٥٦)، وانظر الفتح أيضاً (٧/ ٢٦) حديث=

* وفي مرةٍ ثالثةٍ جاء عقبةُ هذا، والنَّبيُّ ﷺ يصلّي عند الكعبة، فوضعَ رجله على عُنُقِ رسول الله ﷺ، حتى كادتْ عيناه تندران[1].

* يُضاف إلى ذلك كُلِّه أنَّ عقبة لم يجدْ طريقاً يشوشُ فيهِ على رسولِ الله ﷺ، ويؤذي أصحابه المسلمين إلا سلكه إلى آخره وعاثَ فيه فساداً وعناداً[2].

* أمّا ابنتُه أمّ كلثوم فقد كانت على غيرِ ما يهوىٰ عقبة، فقد كانت من السَّابقات الأُوَّل إلىٰ ساحةِ الإسلام، والتّصديق برسالةِ النّبي محمّد ﷺ، وحظيتْ بشرفِ الصُّحبة النّبوية، فحازت قصبَ السَّبْق في مضمارِ الإيمان، وفي مضمار السَّابقين والسَّابقات الذين امتدحهم اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١٢].

* وفي مضمار السَّوابق كانت أمّ كلثوم بنتُ عقبة منهن، فقد صلّتِ القبلتَيْن، وبايعت رسولَ اللهِ ﷺ بمكةَ قبل هجرته إلى المدينةِ المنورةِ،

= رقم (٣٦٧٨)، وكذلك (٨/ ٤١٦) حديث رقم (٤٨١٥)، وانظر: دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٧٤ و٢٧٥)، وتاريخ الطبري (١/ ٥٤٨)، وتاريخ الإسلام للذهبي (السّيرة النبوية ص١٢٥)، والكامل في التاريخ (٢/ ٧٩)، والبداية والنّهاية (٣/ ٤٦)، وصفة الصّفوة (١/ ٩٩)، وانظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٣٠٨)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٦٩)، وتفسير الخازن (٦/ ٩٣ و٩٤)، وغيرها كثير.

(١) انظر: السّيرة الحلبية (١/ ٤٧٢)، و«تندران»: نَدَر الشّيءُ ندوراً: سَقَطَ من جوفِ شيء، أو من بين أشياء فظَهَر، وتندران معناها هنا: تخرجان من شدة الضغط أو تسقطان.

(٢) كان عقبةُ بنُ أبي مُعيط يتمادى في الغي والفجور، والأذى، وكان يسانده في الأذى «أبو لهب» فكان هذان المجرمان يؤذيان النبي ﷺ، فقد روتْ عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «كنتُ بين شرّ جارَيْن، بين أبي لهب، وعقبة بن أبي معيط، إن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابي حتى إنهم ليأتون ببعض ما يطرحون من الأذى فيطرحونه على بابي» قالت عائشة: فيخرج رسول الله ﷺ فيقول: «يا بني عبد مناف أي جوار هذا»؟! ثم يلقيه في الطريق. (الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢٠١)، وكنز العمال برقم (٤٩٠٠).

وسلكتْ طريقَ الهدايةِ، فكانت منَ الخالداتِ السَّعيدات اللواتي نَعِمْن بنعيمِ الإسلام، على الرّغم من معرفتها بمواقف أبيها العدائية للرسولِ الكريم ﷺ، ولأصحابه الغُرّ الميامين.

* وأمّا والدةُ أمّ كلثوم فهي أروىٰ بنتُ كُريز بن ربيعة العبشميّة، من نساءِ الإسلام اللائي انضويْنَ تحت رايةِ الإيمان، وصدقن رسالةَ النّبيّ ﷺ. أسلمتْ أروىٰ وبايعتْ رسولَ اللهِ ﷺ، وهاجرتْ إلىٰ المدينةِ المنوّرة، وهي من الصَّحابيات المعمَّرات، فقد عاشت حتى بلغتِ التّسعين، وتوفيتْ بالمدينة، ودُفنتْ في خلافةِ ابنها عثمان بن عفان رضي الله عنه[1].

* ومن بيئةِ أمّ كلثوم ـ رضي الله عنها ـ يظهر لنا عثمان بن عفان ـ عليه سحائب الرّضوان ـ، وعثمانُ ذو النّورين أخو أمّ كلثوم لأمِّها أروىٰ بنت كريز، وهو أحد العشَرة المشهود لهم بالجنّة، وأحد السَّابقين الأوّلين إلى الإسلام، إذ أَسلم قديماً قبلَ دخول رسول الله ﷺ دارَ الأرقم بن أبي الأرقم، وهاجر إلى الحبشةِ الهجرتَيْن، وسُمّي ذا النُّورين لجَمْعِه بين بنتَي رسول الله ﷺ، ومناقبهُ ومحاسنهُ كثيرةٌ شهيرةٌ رضي الله عنه وأرضاه.

* وفي واحةِ الأُنْس والإيناسِ كانت أمُّ كلثوم تأنسُ بأخيها عثمان، وأمّها أروىٰ، وتبغضُ أعمالَ أبيها الشّنيعة التي أودت به إلى النّار، حيثُ وقعَ في الأَسر يومَ بدر، فأمرَ النّبي ﷺ بقَتْله، فقُتِل كافراً جزاءً بما قدَّمتْ يداه. وأعتقدُ أنَّ أمَّ كلثوم لمّا علمتْ بمقتلِ أبيها كافراً لم تحزَن ولم تذرفْ دمعةً واحدةً عليه، إذ علمتْ أنَّ الدِّينَ حقٌّ، وأنَّ النّبي ﷺ على الحقِّ، وكانت تعلمُ عِلْمَ اليقين أنَّ أباها سارَ على طريقِ الضَّلال، وكان شديدَ العداوةِ لله ولرسولِهِ وللمؤمنين، لذلك لما قُتِلَ أبوها عقبة لم تأخذْها العزّة بالإثمِ، وإنّما ظلَّتْ وفيةً لدِيْنها، مخلصةً للرسول، صادقةً في بيعتها، مطمئنةَ النَّفس لإسلامِها الذي انشرحَ له صدرها، واطمأن لتعاليمه فؤادها، وزادت صِلَتُها

---

(١) انظر: الإصابة (٤/ ٢٢٢ و٢٢٣).

وثوقاً باللهِ تعالى، الذي أخرجهَا منْ ظلماتِ الجاهلية إلى نور الحقّ، وطريقِ الهداية والنُّور.

أُوْلىٰ المُهَــاجِرَاتِ:

* في رحلةِ الهجرةِ إلى المدينةِ المنوّرة، كانَ المسلمون والمسلمات يخرجون مهاجرين إلىٰ المدينة المنوّرة جماعات أحياناً، وأحياناً كانت تظْهَرُ بعض الهجرات الفردية كهجرة: عمر بن الخطاب، وأبي سلمة بن عبد الأسد[1] ـ رضي الله عنهما ـ.

* وهاجر كثيرٌ من نساءِ الإسلام في صحبةِ أزواجهن أو أقربائهن، بينما مُنِعتْ أمّ كلثوم بنت عقبة منَ الهجرة إلى المدينة، كي تلحقَ ركْبَ المؤمنين، ومواكبَ المهاجرين هنالك، وتعبدَ اللهَ دون أنْ تلقىٰ أذىٰ المشركين. مُنعتْ أمّ كلثوم من الهجرة، فظلت مقيمة وعيناها تفيضُ من الدَّمع حزناً لعدم تمكّنها من الهجرة.

* ومكثتْ أمّ كلثوم في مكةَ المكرمةِ بضْع سنين، وهي صابرةٌ تتحمّل الشَّدائد في سبيلِ الله، وفي سبيلِ رسولِ الله ﷺ، وكانت ترجو اللهَ أنْ يأتي بالفرجِ من عنده، أو يقضي اللهُ أمْراً كان مفعولاً.

* وتشيرُ المصادر الموثوقة إلى أنَّ أمّ كلثوم بنْتَ عقبة ـ رضي الله عنها ـ قد مكثتْ في مكةَ المكرمةِ إلى سنة سَبْعٍ من الهجرة، ومن ثمَّ هاجرتْ إلى المدينة في زمن صُلْح الحديبية.

---

(١) أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال المخزوميّ، صحابي أسلم قبل دخولِ رسولِ الله ﷺ دار الأرقم، وهاجر إلى الحبشة الهجرتين، ومعه امرأته أم سلمة. قال أبو أمامة بنُ سهل بن حنيف: أولُ مَنْ قدم علينا المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ للهجرة أبو سلمة. شهدَ أبو سلمة بدراً وجُرح بأحد، فمكثَ شهراً يداوي جراحه، ثم بعثه رسول الله ﷺ في سرية، فلما قدم انتقضَ جرحه، ثم توفي فحضره رسول الله ﷺ عند وفاته، وأغمضه بيده الشريفة، توفي سنة ثلاث من الهجرة. (فرسان حول الرسول، الجزء الثاني).

* لقد ترامتِ الأنباءُ إلى سَمْعِ أمّ كلثوم بأنَّ رسولَ الله ﷺ وأصحابَه منَ المسلمين في الحديبية يستعدّون لأداءَ العمرة في مكةَ، وعند ذلك هزَّها الشّوق إلىٰ الخروج للمدينة المنوّرة كي تلحقَ بأخواتها المسلمات هناك؛ ولكنَّ رسولَ الله ﷺ تركَ الحديبية وعادَ إلى المدينةِ بعد أنْ عَقَدَ معاهدةً[1]

---

(١) هذه المعاهدة تتألفُ مِن سبعةِ شروط مهمّة؛ أذكُرها هنا لتعلّقها بسيرةِ أمّ كلثوم بنت عقبة؛ وهي:

١ ـ الشَّرط الأوّل: وضْعُ الحرب عن النَّاس عشْر سنين، يأمنُ فيها النّاس، ويكفُّ بعضُهم عن بعض.

٢ ـ الشَّرط الثّاني: مَنْ أتى رسول الله ﷺ من قريش بغير إذن وليّه ردَّه عليهم.

٣ ـ الشَّرط الثَّالث: مَنْ أتى قريشاً ممن معَ رسول الله ﷺ لم يردوه عليه.

٤ ـ الشَّرط الرَّابع: أنْ بيننا ـ أي: المؤمنين والمشركين ـ عيبة مكفوفة ـ أي: صدراً نقياً من الغِلّ والخداع والغش مطوياً على الوفاء والأمانة.

٥ ـ الشَّرط الخَامس: أنّه لا إسلال ولا إغلال ـ أي: لا سلَّ للسّيوف للقتال، ولا خيانة وسوء تدبير بالمكر ـ.

٦ ـ الشَّرط السّادس: مَنْ أحبَّ أنْ يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

٧ ـ الشّرط السّابع: أنْ يرجعَ محمد عن قريش عَامَهُ هذا، فلا يدخل مكة، ولا يطوف بالبيت، وإذا كان عام قابل خرجت قريش عن مكة وأخلتها فدخلها محمد ﷺ بأصحابه، فأقام بها ثلاثاً ليس معه إلا سلاح الراكب، السيوف في قُرُبها.

قال ابنُ قيم الجوزيّة ـ رحمه الله ـ في «زاد المعاد»: من الحِكم التي تضمنَتْها هذه الهدنة أنّها كانت مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعزَّ الله به رسولَه وجنده، ودخل النّاس في دِيْن اللهِ أفواجاً.

ومنها: أنَّ هذه المعاهدة والهدنة كانت من أعظمِ الفتوح، فإنَّ النّاس أمِنَ بعضهم بعضاً، واختلط المسلمون بالكفّار، ونادوهم بالدعوة، وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرةً آمنين، وظهر مَنْ كان مختفياً بالإسلام، ودخلَ فيه في مدّة الهدنة مَنْ شاء الله أنْ يدخلَ، ولهذا سمّاه الله فتحاً مبيناً. وهذا يدلُّ على أنَّ خيرَ شروط هذه المعاهدة وأبركها هو الشرط الأوّل، لأنه أمَّنَ الناس، وفتح أمام دعوة الإسلام الطريق إلى القلوب والآفاق. وبذلك كانت هذه الهدنة هي الفتح المبين الذي بشّر الله به عباده المؤمنين، وامتن الله على رسوله الأمين محمد ﷺ.

مع أهلِ مكة.

* وأخذتْ أمّ كلثوم تعدُّ العدّة كيما تهاجرَ إلىٰ المدينةِ مهما كان الأمْرُ وكانتِ الظُّروف، وراحتْ ترقبُ فرصةً كي تخرجَ من بين قومها وهم لا يشعرون.

* ذكر محمد بنُ سَعد ـ رحمه الله ـ في «طبقاته» مكرمةً لطيفةً لأمّ كلثوم بنت عقبة ـ رضي الله عنها ـ فقال: ولم نعلمْ قرشيةً خرجت من بين أبويها مسلمةً مهاجرة إلىٰ اللهِ ورسوله إلا أمّ كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها[1].

أمُّ كُلْثُوم وقصّةُ هِجْرَتِهَا:

* في ديوانه «مَجْد الإسلام» قال أحمد محرم ـ رحمه الله ـ متحدثاً عن أم كلثوم:

أجيْبِي أمَّ كُلثوم أجيبي	تَرامتْ دعوة الدّاعي المهيبِ
لَمَكّةُ إذ يُضَامُ الدِّين فيها	أحقّ بكلِّ أفّاك مُريبِ
خُذي قَصْدَ السَّبيل إلى ديارٍ	محبَّبةِ المسَالك والدُّروبِ
حِمَى الإسلام يمنع كلَّ عادٍ	وغِيلُ الحقّ يدفعُ كلَّ ذيبِ
رعاكِ اللهُ فانطلقي وسيري	ولا تَهِني علىٰ طولِ الدَّؤوبِ
رويدك إنَّ عينَ اللهِ ترعىٰ	خُطَاكِ فَلَنْ يسوءك أنْ تؤوبي[2]

إنَّ قصَّةَ هجرةِ أمّ كلثوم بنت عقبة من القَصَصِ الطَّريفة ذات العبرة والعِظَة في حياةِ الصَّحابيات، إذ خرجت مهاجرة إلى الله ورسوله بعد أن عزمت على ذلك، وتحيَّنَتِ الفرصة الملائمة لذلك، ولكن كيفَ تخلّصت أمّ كلثوم من أعين الرّقباء، واستطاعت أنْ تهاجر؟! لا شكَّ بأنَّ هناك قِصَّةً رائعة تشيرُ إلى فطنتها وذكائها. أمّا قصّة هجرتها فترويها لنا أمّ كلثوم نفسها فتقول:

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٢٣٠).

(٢) ديوان مجد الإسلام (ص٢٨٨) طبعة مكتبة الفلاح بالكويت عام (١٤٠٢ هـ) الطبعة الأولى.

* كنتُ بمكةَ المكرمةِ أخرجُ إلى باديةٍ لنا قريبة فيها أهلي، وكنتُ أقيمُ بالبادية الثّلاث والأربع، ومنْ ثمَّ أرجعُ إليهم، فكانوا لا ينكرون ذهَابي للبادية، ولا يدخل الشّك إلىٰ نفوسهم في شيءٍ من أمري، إلى أَنِ استقرَّ في نفسي المسير والهجرة إلى المدينة، واللحاق بالمؤمنين.

* وفي ذاتِ يوم من الأيّام، خرجتُ من مكة كأنّي أريدُ البادية وأهلي، وعند ذلك رجعَ من كان يتبْعُني ويراقبني وقد اطمأنَّ إلى أنَّ انصرافي سيكونُ إلىٰ البادية وأهلي؛ بينما كنتُ أرسم طريقَ الهجرةِ إلىٰ المدينةِ المنوّرة كي ألحقَ بجماعة المؤمنين المهاجرين من أصحابِ رسولِ الله ﷺ.

* وبينما أنا في طريقي، إذا برجلٍ من قبيلةِ خُزاعة، تبدو عليه علائم الشّهامة، وإشارات المروءة، وقد رآني وحيدةً في تلكم الفلاة، فقال لي: أين تريدين يا أخت العرب؟! وقبل أنْ أجيبَه عن سؤاله، قلتُ له بحزمٍ: ما مسألتك؟ ومَنْ أنتَ يا هذا؟!

قال الرَّجلُ في هدوءٍ: إنّي رجلٌ من خزاعةَ يا أخت العرب.

* ولما ذكر الرَّجلُ قبيلةَ خزاعة، تمشَّتِ الطُّمأنينةُ في نفسي، وسرتْ نسماتُ الاطمئنانِ إلى قلبي، حيثُ إنَّ خزاعةَ كانت في عَهْدِ رسولِ الله ﷺ وفي عَقْدِهِ، وساعة إذ قلتُ له: إنّني امرأةٌ من قريش، وإنّي أريدُ أنْ ألحقَ برسولِ الله ﷺ بالمدينة، ولا عِلْم لي بالطَّريق إليها إذ لم أسلكْهَا قَبْلَ اليوم.

فقال الرجلُ في مروءةٍ وشهامة: يا هذه، إذاً أنا صاحبك حتى أوردك المدينة.

* وانطلقَ الرجلُ الخزاعي، ثمّ جاءني ببعير فركبته[١]، وسار معي حتى قدمنا المدينةَ، وكان خيرَ صاحبٍ شَهْم في تلك الطّريق، فجزاهُ اللهُ خَيْرَ الجزاء؛ فقد كان يقودُ بي البعير، ولا واللهِ ما كان يكلّمني بكلمةٍ قطّ، فكان إذا أناخَ البعير تنحّىٰ عنّي، فإذا نزلتُ جاءَ إلىٰ البعير فقيّده بالشَّجرة، وتنحّىٰ

(١) وقيل: إنّها هاجرت ماشيةً على قدميها.

إلى ظلِّ الشَّجرةِ، حتى إذا كان الرَّواحِ جهَّزَ البعير فقرّبه وولّىٰ عنّي، فإذا ركبتُ واستويتُ على ظهر البعير، أخذَ برأسه، فلم يلتفتْ وراءه حتى أنْزِل، فلم يزلْ كذلك علىٰ هذه الحال الكريمة حتى قدمنا المدينة.

* ولما وصلتُ المدينةَ، لم أدخلْ على أخي عثمانَ بن عفان، وإنّما قصدتُ نَبْعَ ومنْبَعَ الأنوارِ، فدخلتُ على أمِّ سلمة أمّ المؤمنين وأنا متنقِّبة، فما عرفتني حتى انتسبتُ وكشفتُ النِّقاب، وعندها التزمتْني وقالت لي: يا أمّ كلثوم، هاجرتِ إلى اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ وإلى رسولِ الله ﷺ؟

قلتُ: نعم، وأنا أخافُ أنْ يردَّني رسولُ الله ﷺ إلى قومي، كما ردَّ أبا جندل[1] وأبا بصير، وحالُ الرّجالِ ليس كحالِ النّساء، والقوم مصبحي، قد طالت غيبتي اليوم عنهم خمسة أيام منذ فارقتهم، وهم يتحيَّنون قدْر ما كنتُ أغيبُ، ثمّ يطلبوني، فإنْ لم يجدوني رحلُوا.

* وبعد سُويعة دخلَ رسولُ الله ﷺ على زوجه أمِّ سلمة، فأعْلَمَتْهُ بأمري، وقصَّتْ عليه خبري، فرحَّبَ بي وسهَّلَ؛ فقلتُ: يا رسول الله، إنّي فررتُ إليك بدِيْني، فامنعني ولا تردّني إلى الكفّارِ يفتنوني ويعذّبوني، ولا صَبْر لي علىٰ العذاب، إنّما أنا امرأةٌ وضَعْفُ النِّساء إلىٰ ما تعرف، وقد رأيتُك رَددتَ رجليْن حتى امتنع أحدهما.

فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ قد نقضَ العَهْدَ في النِّساء».

* وكان أخَوَاي عمارة والوليد قد لحقاني إلىٰ المدينةِ ليردّاني إلى مكةَ، فمنعني اللهُ منهما بالإسلام، وخرج رسولُ اللهِ ﷺ من عندِ أمّ سلمةَ، وقد أنزلَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ آيةَ الامتحانِ فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ

(١) اقرأ سيرة هذين الصّحابيين في الإصابة وأسد الغابة والاستيعاب وغير ذلك من كتب السيرة.

﴿بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الممتحنة: ١٠ ـ ١١][١].

امتِحَـانُ النِّسَـاءِ المُـؤْمنَـاتِ:

* لقد نزلَ القرآنُ الكريمُ واضحاً موضحاً مفصّلاً مبيّناً الحكمَ الإلهيَّ في هذه القضيةِ، قضيةِ امتحان المؤمنات عند الهجرة، وعدم ردّهن إلىٰ الكفّار إذا ثبتَ إيمانهن، وعند ذلك امتحنَ النبي ﷺ أمّ كلثوم بنت عقبة ومَنْ بعدها مِنَ النّساءِ المهاجرات إلىٰ اللهِ ورسوله.

* ولرُبَّ سائل يسألُ: كيف كان امتحانُ رسول الله ﷺ لأمّ كلثوم بنت عقبة وللنّساء؟! وكيف كانت صيغةُ الامتحان؟!

* إنَّ الجوابَ عن هذا السُّؤال، يرويه عبدُ الله بنُ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ فيما أخرجه ابنُ جرير عنه قال: أنْ تُقْسِم باللهِ ما خرجتُ التماس دُنيا، ولا عشْقاً لرجلٍ، وبالله ما خرجتُ إلا حبّاً لله ولرسوله.

* فإذا قالتْ ذلك اكتُفِيَ به في إيمانها، وحَرُمَ إرجاعها إلىٰ المشركين، وذلك أنَّ المرأةَ لا يُؤْمَنُ عليها الفتنة.

* وحلفت أمّ كلثوم بأنَّ هجرتها كانت إلىٰ اللهِ ورسوله، وبذلك قطعتْ كلّ أملٍ يداعبُ خيالَ أخويها «عمارة» و«الوليد»[٢] في ردّها إلىٰ أهلها، فعاد

---

(١) عن مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨٥)، وتفسير الخازن (٧/ ٧٨)، وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص٤٠٠) مع الجمع والتصرف. وانظر: نسب قريش (ص١٤٥ و٢٢٦)، وصفة الصفوة (٢/ ٣٠)، وتفسير الآلوسي (٢٨/ ٧٦)، وغيرها كثير من المصادر الحديثية والتفسيرية وكتب السّيرة والتراجم.

(٢) قال المفسّرون: كان صلحُ الحديبية الذي جرى بين رسول الله ﷺ وكفّار مكة قد تضمَّن أنَّ مَنْ أتى أهلَ مكة من المسلمين لم يُردَّ إليهم، ومَنْ أتى المسلمين من أهل مكة ـ يعني المسلمين ـ رُدَّ إليهم، فجاءت أمُّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط مهاجرة إلى رسول الله ﷺ، فخرج في أثرها أخواها «عمارة» و«الوليد» فقالوا للنبي ﷺ: =

أخواها عمارة والوليد إلى مكةَ، وأخبرا قريشاً بذلك، فرضوا أنْ تُحْبَسَ النّساء.

* وبهذا رصَّعتْ أمّ كلثوم بنتُ عقبة جبينَ سيرتها بجواهرِ المواقف النَّفيسة التي تشيرُ إلى قوّة إيمانها، وكمال عقلها؛ يُضافُ إلى ذلك كلِّه أنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ قد شهد لها بالإيمان، وسماها مؤمنة، وكفاها بهذه المكرمة فضلاً وشرفاً.

* وبايعَ رسولُ اللهِ ﷺ جماعةَ النّساء علىٰ الشّروط المذكورة في سورة الممتحنة[1]، قال أبو حيّان ـ رحمه الله ـ: كانت بيعةُ النّساءِ في ثاني يوم الفتح على جَبَل الصَّفا، بعدما فرغَ من بيعةِ الرّجال، وكان رسولُ اللهِ ﷺ على الصَّفا، وعمر بن الخطاب أسفل منه، يبايعهن بأمْره، ويبلغهنَّ عنه، وما مسَّتْ يَدُهُ الشّريفة ﷺ يَدَ امرأةٍ أجنبية قطّ. قالت أسماءُ بنتُ السَّكَن: كنتُ في النّسوةِ المبايعات، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، ابْسُطْ يدك نبايعك، فقال لي عليه الصَّلاة والسَّلام: «إنّي لا أصافحُ النِّساء، لكنْ آخذُ عليهن ما أخذ اللهُ عليهن».

* وهكذا أثبتتْ أمّ كلثوم بنت عقبة ـ رضي الله عنها ـ أنَّها هاجرت لله ورسوله، وبايعتْ علىٰ ما بايعَ عليه النّساء، وبقيتْ في المدينة، وكانت أوّلَ مهاجرةٍ إلى المدينة على هذه الشّاكلة، وحماها الله تعالى وحفظها من كيدِ أخَوَيْها وكيدِ المشركين، وقد أجاد أحمد محرّم ـ يرحمه الله ـ رسْمَ هذه

= رُدّها علينا بالشرط؛ فقال ﷺ: «كان الشرط في الرجال لا في النّساء»، فأنزل الله الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ ... ﴾ [الممتحنة: ١٠]، قال ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كانت المرأة تُستحلف أنها ما هاجرت بغضاً لزوجها، ولا طمعاً في الدنيا، وأنها ما خرجت إلا حبّاً لله ورسوله، ورغبة في دين الإسلام.

(تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٥٦).

(١) الآية (١٠ و١١)، وانظر تفسير أبي حيان لهاتين الآيتين.

الواقعة شِعراً في ديوانه اللطيف «مجد الإسلام» فقال من قصيدة طويلة نقتطف منها:

أرىٰ أَخَويْكِ في أمْرٍ مريج ... وهَمٌّ منْ مصابِهما مذيبِ[1]
يلفُّ حشَاهما حزنٌ عجيبٌ ... لروعةِ ذلك الحدَثِ الرهيبِ
هنا كانتْ فأينَ مَضَتْ وأنّىٰ ... تعاودُ خِدْرها بَعْدَ المغيبِ
أتذهبُ أختُنا لا نحنُ ندري ... ولا هو عندهُ عِلْمُ اللبيبِ
كَفىٰ يا بنْتَ عقبةَ ما لَقيْنا ... منَ الأحداثِ بعدك والخطوبِ

* ومن هذه القَصيدة قوله:

قِفي يا أمّ كُلثوم فهذا ... مَحَطُّ الرَّحْلِ للنَّائي الغريبِ
حَلَلْتِ بفضْلِ ربِّك خيرَ دارٍ ... بطيْبةَ فانعِمي نَفْساً وطيبي
تلقَّاكِ النبيُّ فأي بشْرٍ ... رعَتْ عيناك في الكرمِ الخصيبِ
يُرحِّب ما يرحبُ ثمّ يضفي ... عليك حنان ذي النَّسبِ القريبِ
عمارةُ والوليدُ ولا خَفَاءٌ ... علىٰ فرطِ التّجهم والشّحوبِ
أهابا بالرّسولِ أعِدْ إلينا ... وديعتنا فما بك من نكوبِ[2]
سجيّتكَ الوفاءُ وما علمْنَا ... عليك الدَّهْر من خُلُق معيبِ
برأيكِ فاقْضِ واردُدْهَا علينا ... فإنَّكَ أنتَ ذو الرّأي المصيبِ
فصاحتْ إنّني امرأةٌ ومالي ... علىٰ المكروه من عزم صليبِ[3]
بربّك يا محمّد لا تدعني ... فريسة كلّ جبّار رهيبِ
يعذبني لأتركَ دِيْنَ ربّي ... إلىٰ دِيْنِ المآثم والذّنوبِ
أتى التّنزيلُ يصدُع كلَّ شَكٍّ ... ويجلو ما استكنَّ منَ الغيوبِ
إذا جاءَ النّساءُ مهاجرات ... يُرِدْنَ اللهَ ديّان الشّعوبِ
بقينَ مع النَّبي وإنْ تمادَتْ ... لجاجة كلّ عِرِّيض شغوبِ[4]

---

(١) «أمر مريج»: مختلط أو ملتبس.

(٢) «نكوب»: الميل والعدول.

(٣) «صليب»: شديد.

(٤) انظر: مجد الإسلام (ص٢٨٩ ـ ٢٩١) و«عِرّيض»: الذي يتعرض للناس بالشَّر.

مَقَـامُهَـا وَزَوَاجُهَـا في المَدِيْـنَـةِ:

* كانت أمّ كلثوم منَ السَّعيدات بالإيمان، وكانت ممن نَعِمْنَ بنورِ اليقين في المدينة المنورة في جوار الرّسول الكريم ﷺ، ولما قدمتْ أمُّ كلثوم المدينةَ كانتْ ما تزال عاتِقاً[1]، فأقامتْ حيناً منَ الدَّهْر بلا زوج، وتقـدّمْ لخطبتها عددٌ منَ الصَّحابة الكرام وهم: الزُّبيرُ بن العوام[2]، وزيدُ بن حارثة[3]، وعبدُ الرحمن بنُ عوف[4]، وعمرو بن العاص[5] ـ رضوان الله عليهم ـ، وإذ ذاك شاورتْ أخاها لأمِّها عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ، فأشار عليها أنْ تذهبَ إلىٰ رسولِ الله ﷺ فهو أعلمُ بصالحها ومصلحتها.

* وانطلقتْ أمُّ كلثوم إلىٰ رسولِ الله ﷺ وقصَّتْ عليه قصَّةَ الخطبة، فأشار عليها بالحِبِّ زيد بن حارثة وقال لها: «تزوّجي زيد بن حارثة فإنّه خيرٌ لكِ».

* ولم يُثِرْ هذا الزَّواج عاصفةَ الفخر والتَّفاخر في نفوسِ المؤمنين، فقد سبقَ أنْ زوَّجَ رسولُ اللهِ ﷺ زيدَ بنَ حارثة من ابنة عمّته زينبَ بنت جحش[6] الشَّريفة الحسيبة النَّسيبة، لقد قضىٰ الإسلامُ الحنيفُ علىٰ عادة استهجانِ زواجِ الحرّة منَ المولىٰ، وغرس في النُّفوس المؤمنةِ غراساً طيّبةً عنوانُها أنَّ

---

(١) «عاتقاً»: العاتق: الجارية التي لم تتزوج. (القاموس المحيط ص١١٧١).
(٢) اقرأ سيرته في كتابنا «فرسان حول الرسول ﷺ» (١ / ٣٢٩).
(٣) المصدر السابق (١/ ٣٥٧).
(٤) المصدر السابق (٢/ ١٣٥).
(٥) المصدر السابق (٢/ ٣٣٧).
(٦) اقرأ سيرة أم المؤمنين زينب بنت جحش في كتابنا «نساء أهل البيت» (ص٢٧١ ـ ٣١٤) طبعة دار اليمامة الثانية.

النَّاسَ سواسية، وأنَّه لا فَضْل لعربي علىٰ أعجمي إلا بالتّقوى، وحَسْبُ جماعةِ المؤمنين قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

* كان زواجُ أمّ كلثوم بنت عقبة من زيد بنِ حارثة زواجاً موفّقاً ميموناً، وقد أكرمهما اللهُ بالذّرية الطَّيِّبة، فولدت له زيداً ورقية؛ ولكنَّ زيداً لم يمكثْ معها طويلاً، حيثُ لقي اللهَ شهيداً في سريةِ مُؤْتَةَ، وقضى نَحْبَه في بلاد الشَّام.

* ولما انقضتْ عِدَّتُها تزوَّجها الزُّبير بن العوّام الأسديّ، حواري رسول الله ﷺ، فولدت له ابنة يُقال لها زينب[1]؛ ويبدو أنّه كانت في الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ بعض الشِّدّة على النِّساء، فسألته أمّ كلثوم أنْ يطلقها، فاستجابَ لرغبتها وطلّقها.

* ومكثتْ أمُّ كلثوم مدّة حتى انقضتْ عدّتها، فتزوّجها عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ، وعاشت في كنفِهِ عيشةً راضيةً، وولدتْ له إبراهيمَ وحُميداً؛ ومنَ الجدير بالذِّكر أنَّ ابنَي أمّ كلثوم كانا منْ سادةِ العُلماء، ومن أكابرِ النُّجباء، فقد كانَ ابنها حُميد بن عبد الرحمن منَ العلماء الفقهاء الذين لهم روايات كثيرة، ذكَرهُ ابنُ العماد الحنبلي في «شذراته» فقال: كان عالماً فاضلاً مشهوراً، توفي سنة (٩٥ هـ) رحمه الله[2].

* ومكثتْ أمُّ كلثوم بنت عقبة عند عبد الرحمن بن عوف إلى أنْ توفي عنها سنة (١٨ هـ)، فتزوّجها عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ فماتتْ عنده[3].

---

(١) انظر: نسب قريش (ص١٤٥)، والاستيعاب (٤/ ٤٦٦).
(٢) شذراتُ الذهب (١/ ٣٨٦ و٣٨٧) طبعة دار ابن كثير المحققة.
(٣) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٦٥ و٣٦٦)، وتهذيب التهذيب (١٢/ ٤٧٧)، والإصابة (٤/ ٤٦٧).

عِلْمُهَا وَرِوَايَتُهَا لِلْحَدِيثِ:

* في رحابِ المدينةِ المنوّرة راحتْ أمُّ كلثوم ـ رضي الله عنها ـ تنهلُ منَ العِلْمِ شيئاً كثيراً جعلَها واحدةً ممن وعيْنَ الفِقْه، وروين الحديثَ النّبوي الشّريف وحفظنه، ونقلْنَه إلى طلاّبِ العِلْم وشُداة الحديث النّبوي الذين يأتونَ المدينةَ منْ كلِّ فجٍ عميقٍ يطلبونَ العِلْم منْ أصحابِ رسولِ الله ﷺ.

* وكانتِ الصَّحابيةُ أمّ كلثوم منَ النّسوة اللاتي كُنَّ يكتبْنَ ويقرأن، في الوقت الذي لم يكنْ فيه كثيرٌ منَ الرِّجال لا يجيدُ الكتابةَ أو القراءة، وهذه مكرمةٌ لطيفةٌ عزّزت مقدرة أمّ كلثوم علىٰ الحفظِ والتّثبُّت لما تسمع.

* روتْ أمّ كلثوم عن النّبي ﷺ عشرةَ أحاديث، وحديثُها في الصَّحيحَيْن والسُّنن الثّلاثة سوىٰ ابن ماجه، وقد أخرج لها من أحاديثها في الصَّحيحين حديثٌ واحدٌ مُتّفَقٌ عليه.

* روىٰ عن أمّ كلثوم ولداها: حُميد وإبراهيم ابنا عبد الرحمن بن عوف؛ وروىٰ عنها كذلك حُميد بن نافع وغيره[1].

* أخرج مسلم في صحيحهِ بسنده عن حُميد بن عبد الرحمن بن عوف أنَّ أمَّه أمّ كلثوم بنت عقبة بنت أبي معيط رضي الله عنها، ـ وكانتْ من المُهاجراتِ الأُوَلِ اللاتي بايَعْنَ النَّبيَّ ﷺ ـ أخبرتْه أنّها سمعتْ رسول الله ﷺ وهو يقولُ: «ليس الكذّاب الذي يصلحُ بينَ النَّاس ويقول خيراً وينمي خيراً»[2].

* وظلّتْ أمّ كلثوم بنت عقبة ـ رضي الله عنها ـ ترفدُ النّاس بالعِلْمِ والرّواية إلى أنْ لقيتْ ربَّها في خلافةِ عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنها ـ.

* تلكم هي أمّ كلثوم ابنة عقبة إحدى الصَّحابيات اللواتي شهد اللهُ لهنَّ بالإيمان، وكُتِبْن في سجلِّ الخالدات، فرضي الله عنْها وأرضاها.

* * *

(١) الاستيعاب (٤/ ٤٦٦).
(٢) صحيح مسلم (٨/ ٢٨).



٨

أُنْس بنت عبد الكريم



هَلْ نَعْرِفُ نِسَاءَ العُلَمَاءِ؟!

* كثيرٌ منَ النّاس لا يعرفُ شيئاً عن حياةِ نساء العُلماء، بل كثيرٌ من عشّاق الثَّقافة لا يلتفتُ إلى هذه النّاحية المهمّة في تاريخ النّساء اللواتي عشْنَ في كنفِ العُلماء، وكان لهنَّ أثرٌ طيِّبٌ في حياةِ العُلماء، وفي مسيرة حياتِهم العلميّة.

* فهل خطَرَ في بالِ أحدٍ أنْ يُفْرِد لهؤلاءِ النّسوة كتاباً تحت عنوان «نساء العُلماء»؟! أعتقدُ أنَّ بعضَ محبِّي العِلْم قد تناول بعضَ حياة نساءِ العُلماء، ولكنْ لم يتحدثْ إلا عنِ الشَّهيراتِ منهنَّ، بل تناولَ بعضُهم الحديثَ عن أمّهاتِ العُلماء من خلالِ قَصَص قصيرةٍ يتحدّث من خلالها عن حياةِ العالِم الذي يترجم له، كأثرِ حياةِ أمّ الشّافعي، أو أمّ أبي حنيفة، أو أمّ أحد العُلماء المشهورين في تاريخنا الوضيء الميمون.

* إنَّ كثيراً من نساءِ العلماء تركنَ آثاراً حساناً في التّاريخ النّسوي، بل والتّاريخ العلمي والأدبي والحضَاري؛ ومن هؤلاء النّسوة مثلاً: زوجُ الإمامُ أحمد بن حنبل، وزوج الإمام أبي الفرج ابن الجوزي، وغيرهما من عمالقةِ عُلماء الدّنيا في مختلفِ الأزمنةِ والأعصار.

* ففي رحلةِ الحياةِ مع نساءِ التّاريخ الإسلامي، ومع نساء العُلماء أحببتُ ترجمةَ حياة هذه المرأة التي نأنَسُ بسيرتها اليوم، وعلى هذه الصَّفحات، ليزدانَ كتابنا بها وبأمثالِها ممن كُنَّ قدوةً رائعةً للنّساء بعدهُنَّ في كلِّ زمانٍ ومكان، وفي كل عَصْر وأوَان.

* وهذهِ المرأةُ زوجة كريمة من كرائمِ زوجات العُلماء، وهي امرأةٌ نبيلةٌ من نساءِ القرن التّاسع الهجري، تلك المرأةُ التي كانت سيّدة بيتِ حفّاظ عصْرِه، وأميرِ المؤمنين في الحديث، مَنْ وصفه العلامة بُرهان الدِّين بن خضْر بقولِه: حافظُ العَصْرِ على الإطلاق، وخاتمة عُلماء السُّنَّةِ إلى يومِ التّلاق.

* وعَلَمُ الأعلامِ هذا نعته السُّيوطي بقوله: شيخُ الإسلام، وإمامُ الحفّاظ

في زمانه، وحافظُ الدّيار المصرية، بل حافظُ الدّنيا مطلقاً.

* وقال عنه شمسُ الدّين القايابي: المحاسنُ التي تفرَّقَتْ في النّاس، اجتمعتْ في ابنِ حجر.

* إذاً فصاحبُ هذه المحاسن، هو الحافظُ ابن حجر العَسْقَلاني[1]، صاحبُ التّصانيفِ المشهورةِ، والكتبِ النّافعةِ المنثورة؛ التي طبَّقَتْ شهرتها وشهرته المعمورة.

* وأمّا المرأةُ التي ستكون ضيفةَ هذه الموسوعة فهي واحدةٌ من نساءِ العُلماء اللواتي لم تَسْطَعْ سيرَهُنَّ في التّاريخ، بل لمْ تلمعْ أسماؤهن في سماءِ الشّهرة، ناهيك بأنَّ التَّأْريخ النّسوي لم يُلْقِ لها بالاً، ولكنَّ تاريخَ نساءِ العُلماء لم يهملْ محاسنَ أعمالِها، ولم ينْسَ ذِكْر أخبارِها، وإنْ كانت أخبارها أقربُ إلى النُّدرة منَ الشّهرة.

* ولما رحْتُ أدرسُ أثرَ النِّساء في حياةِ العلماء، وحياةِ الحُفَّاظ، استوقفتني سيرةُ الحافظ ابن حجر العسقلاني. ومَنْ منا لا يعرفُ ابن حجر؟!

* وتابعتُ البحثَ والدرس في حياةِ امرأةِ إمام العُلماء، فإذا بي أمامَ واحدةٍ يجبُ أنْ نعرفَ صفحاتٍ من حياتها، ويجبُ أنْ نتعرَّفَ سيرتَها وأخبارَها وحياتَها في بيتِ هذا العالم المِفَنّ الفذّ.

* إنَّ هذه المرأة لم تكنْ من شَهيراتِ النِّساء في عالَم الشّهرة، ودنيا المشَاهير، وإنّما عاشت في رحابِ أشهرِ عُلماء الدّنيا في عَصْرِه ومِصْرِه.

* وأعتقدُ أنَّ هذه المرأة لم يَسْمَعْ بها كثيرٌ منَ النّاس وأهلُ الاطلاع، في حين أنَّ سيرةَ زوجها تمتِعُ الأسماع، وتملأُ الآذان، ولا تخفىٰ على كثيرٍ منَ النَّاس وخاصَّةً: أهل العِلْم، وأهل الحديث، وأهل المعرفة.

---

(١) انظر ترجمته في: الضّوء اللامع لأهل القرن التاسع للسّخاوي (٢/ ٣٦ ـ ٤٠)، ترجمة رقم (١٠٤)، وطبقات الحفاظ للسيوطي (ص٥٤٧ و٥٤٨) ترجمة رقم (١١٩٢)، وكثير من الكتب التي لا تحصى.

والآن يمكنني أنْ أقدِّمَ بطاقةَ هذهِ المرأةِ، لنقرأَ هُويّتها ونعرفَ اسمها؛ إنّها أُنْسُ بنتُ عبد الكريم بنِ أحمَد بنِ عبد العزيز ناظر الجيش، المصريّة القاهريّة[1].

* تدلُّ الأخبارُ التي وصلتنا عن أُنْسٍ أنّها وُلدَتْ في بحر القرن الثَّامن الهجري، وحدّد أهلُ العلْمِ والأخبار مولدها فقالوا إنّها وُلدتْ في سنة (٧٨٠ هـ)[2] في أرضِ الكنانة: مصر.

* نشأتْ أُنْسُ بنت عبد الكريم في أسرةٍ تحفُّها غُرَرُ الشَّرف من كلِّ جانب، إذ إنَّ أسرتَها من كبرياتِ الأُسَرِ التي ورثتِ المكارمَ كابراً عن كابر؛ فقد كانت أسرتُها من الأسرِ المعروفة بالرّئاسةِ في القرن الثَّامن الهجري، كما أنَّ أفرادَ أسرتها معرفون بأنّهم من العُلماء، ومن أعلام الفقه والأدبِ، يُضاف إلى ذلك كلّه أنّهم كانوا أصحابَ حشمةٍ وخيراتٍ وإحسانٍ إلىٰ النَّاس.

* فأبوها مشهورٌ في عالَم مشاهيرِ عصره، حيث يُعرفُ بابنِ عبد العزيز اللخمي النَّستراوي الأصل، القاهري.

* وأمّها سارة بنتُ ناصر الدّين محمّد بن أنس، إحدىٰ كرائم نساءِ عصرها أدباً ودِيْناً وصيانةً ومكانةً؛ كانتْ جليلةَ القَدْرِ، مبجّلةً، أثْنى عليها غيرُ واحدٍ من أكابرِ العلماء، وعلماءُ الأكابر، توفيتْ سنة (٨٢١ هـ)[3].

* في هذه البيئةِ الكريمةِ المِعْطاءِ المِعْطارِ كانت نشأةُ ضيفتِنا أُنْسِ بنتِ عبدِ الكريم، حيثُ رُبِّيَتْ علىٰ مدارجِ العِلْم والأدبِ والشَّرف، فغدت واحدة من فواضل نساء مصرها في أعمال الخيرِ والمبرّات، بالإضافةِ إلى أنّها كانت رئيسةً في قومها يُرجَعُ إليها في كثيرٍ من شؤونِ الحياة، وفي كثيرٍ من

---

(١) انظر: الضّوء اللامع للسّخاوي (١٢/ ١٠ و١١)، وأعلام النّساء (١/ ٩٧).
(٢) الضّوء اللامع (١٢/ ١١).
(٣) الضوء اللامع (١٢/ ٥٢) بتصرف.

المشاورات، فقد حبَاها اللهُ منَ العَقْل الوافرِ، وحُسْنِ النّظرِ في الأمور، ما فاقَتْ به نساء القوم عصر ذاك.

* ولما شبّتْ أُنْس عن الطَّوقِ، وبلغتْ مبلغَ النّساء، تزوَّجها الحافظُ ابنُ حجر العَسْقلاني، وذلك بإشارةِ محمّد بنِ عليّ القطّان المصريّ الشّافعي[1]، وكان وصيّاً على ابن حجر، وكان ابنُ القطّان يَعْرِفُ أسرةَ أُنْس بنت عبد الكريم ومكانتَها في المجتمع عصر إذ، كما كان يسمعُ عن أُنْس هذه كثيراً من الفضَائل، ممّا جعله يختارها لربيبِهِ وتلميذِه ابنِ حجر، وكان زواجُها في شَهْرِ شعبان سنة (٧٩٨ هـ)، وكان عمرُ ابن حجرٍ آنذاك خمسَاً وعشرين سنة، بينما كانت زَوْجُهُ أُنْسٌ في ميعةِ الصِّبا لا تتعدى ربيعها الثّامن عشر.

تِلْمِيْذَةُ إمَام الحُفَّاظِ، وتلميْذةُ العُلماءِ:

* دخلتْ أُنْس ابنة عبد الكريم بيت الزَّوجية، فوجدتْ أمامها علماً من أعلام الدنيا، وعالماً منْ أفرادِ الدّهر، وطوداً في المعارف والعُلوم والفقهِ والآداب وجلّ أنواعِ المعرفةِ، فكأنّه مكتبةٌ جامعةٌ متحركة تسعىٰ على قدمَيْن، فجعلت تقتبسُ من معارفِه ما استطاعتْ إلىٰ ذلك سبيلاً.

* ووجدَ الحافظُ ابنُ حجر عند زوجه حبّاً شديداً للعِلْم، وشغفاً للمعرفةِ، ورغبةً للتّلقي، فأخذَ يعتني بها، ويذللُ لها صعابَ المسائل، ويمهّدُ لها سُبلَ العِلم، فأسمعها الحديثَ المسلسل من شيخهِ عبد الرحيم بن الحُسين المشهور بلقبه الحافظ زين الدِّيْنِ العراقي المتوفى

---

(١) «ابن القطّان»: شمسُ الدّيْن محمّد بنُ علي بن محمد بن عمر المصري الشّافعي المعروف بابن القطّان، كان أبوه قطّاناً كذلك، واشتغل هذا بالعِلْم، ومَهَر به، وسكنَ مصر، ودرّسَ، وأفتى، وصنّفَ. قال ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ: قرأتُ عليه وأجاز لي، ولم يحصل له سماعٌ في الحديث على قدر سِنّه، وكان ماهراً في القراءات، والعربية والحساب، ونابَ عن الحكم بأخرة، فتهالكَ على ذلك إلى أنْ ماتَ. توفي في أواخر شوال سنة (٨١٣ هـ) رحمه الله. (شذرات الذّهب ١٥٥/٩).

سنة (٨٠٦ هـ)[١]؛ وكذلك أسمعها الحديثَ المسلسل من شيخهِ محمّد بن محمد بن عبد اللطيف المشهور بالشَّرف ابن الكويك الرّبعي الشّافعي المتوفىٰ سنة (٨٢١ هـ).

* ونبغتْ أنسُ ابنة عبد الكريم في علْم الحديثِ ومعرفته، حتى غَدَتْ من المحدّثات الفاضلات في عصرٍ افتقرَ إلىٰ المحدّثات العَالِماتِ.

* ولم يقَفِ الحافظُ ابنُ حجر عند هذا الحدِّ من التَّعليم، بل استطاعَ أن يُحَصِّلَ لزوجهِ العالمة أُنْس جملةً من الإجازات العلميّة باستدعاءاتِ عددٍ من حفّاظ العصر، وعددٍ من المُسْنِدِين، وممن أجازَ لها: أبو الخير بن الحافظ العلائي، وأبو هريرة عبد الرحمن بن الحافظ الذّهبي، وخَلْقٌ من مختلفِ العَواصم الإسلاميّة من المصريين والشّاميين والمكيّين واليمنيّين[٢].

قَدْ صِرْتِ شَيْخَة:

* من المعلوم أنَّ الإسلامَ الحنيفَ قد حرصَ على تعليمِ المرأةِ حرصاً شديداً، وذلك بما تكونُ به عنصرَ صلاحٍ وإصلاحٍ في مجتمعٍ إسلاميّ متطوّر إلىٰ الكمالِ، متقدم إلى القوّة والمجدِ، آمنٍ مطمئنٍ سعيدٍ، فأذنَ باشتراكها في المجامعِ الإسلاميّة العامّة الكبرىٰ منها والصّغرى، فرغبَ بأنْ تحضرَ صلاة الجماعة، وحثَّها على حضورِ مجالس العِلْم والتَّعليم والتَّعلُّم، وخاطبَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ النِّساء في القُرآنِ الكريم بمثل ما خاطبَ به الرّجال، حرصاً على تعليمهنّ وتعريفهنّ أمورَ دِيْنهنَّ، ونظرة إلىٰ واقعِ الحياةِ تبدي لنا أهميّة صلاحِ المرأةِ علْماً وخُلُقاً وسُلوكاً داخل الأسرةِ، ثمّ في المجتمع الكبير، فبمقدارِ صلاحِ المرأةِ في الأسرة يكونُ غالباً صلاح الذّرية فيها، وذلك لأنَّ المرأةَ تستطيعُ أنْ تكونَ ذات أثرٍ فعَّال مرشدٍ في تكوينِ أخلاقِ الأطْفَال الصِّغار وطبائِعهم وعاداتِهم.

* ولما كان للمرأة هذا الأثر كلّه في التَّربية والتَّعليم داخل أسرتها أو

---

(١) الضوء اللامع (١٢/ ١١).

(٢) الضّوء اللامع (١٢/ ١١) بشيء من التصرّف.

خارجها، كان لا بدَّ منَ العناية بتكوينها تكويناً راقياً، وجَعْلها قدوةً صالحةً وأسوةً حسنةً، وذلك لا يتمُّ إلا بتعليمها، وتربيتها تربيةً إسلاميةً حسنةً، لتعطي الفائدةَ لمن حولها.

* ومن الجديرِ بالذّكر أنَّ النِّساءَ المسلمات قد كُنَّ في السَّابق متلهّفاتٍ لمعرفةِ أمورِ دينهن، مشغوفات لتلقّي العِلْم من أهلِ العلم، ساعيات إلى تعلّم الموعظة، بعيدات عن الرّيبة وأسباب الفتنة، وكانت ضيفتُنا أُنْس بنت عبد الكريم من هؤلاء النّساء اللواتي عرفنَ طريقَ النّور، وتعلَّقْنَ بأسبابِ العلم.

* هذا؛ وقد كان إعجابُ ابن حجر ـ رحمه الله ـ بزوجهِ أُنْس بنت عبد الكريم ينمو يوماً بعدَ يوم، فقد غدتْ معارفها تنمو يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام حتى أضحت واحدةً من المحدّثات العالمات الفاضلات في عَصْرها.

* ومن الجديرِ بالذّكر أنَّ زوجَها الحافظَ ابن حجر كان قد تتلمذَ على مئاتِ العلماء، وفيهم أكثرُ منْ خمسينَ امرأة اشتهرنَ بمختلفِ المعارفِ والعلوم، فكان منهن الفقيهاتُ، والمحدّثاتُ، والقارئاتُ، والأديباتُ، والشّواعِرُ، وغير ذلك ممن ملكْنَ نواصي العِلْم والبيان والمعرفة، لذلك ليس بعجيبٍ أنْ تكونَ زوجه أُنْس بنت عبد الكريم واحدةً من عالماتِ دهرها اللائي قَصَدَهُنَّ طلاّبُ العِلْم من كلّ فجٍّ عميق، ممّا جعل زوجها يقول لها: قد صِرْتِ شيخة يا أُنْس.

* وبهذا قد علا صيتُ أُنْس ابنة عبد الكريم في أفقِ المعرفة، وسطعَ نجمُها في سماءِ العِلْم، فقصدها الأفاضل والأماثِلُ وشداةُ العِلْم للقراءة عليها، وقد بلغتْ منَ التمكّنِ في العلْمِ والإقراءِ مبلغاً ميموناً، فقد حدَّثَتْ بحضورِ زوجها الحافظ ابن حجر، وهوَ البحرُ الحبرُ العَلَم في العِلْم والعمل[1].

---

(١) المصدر السَّابق؛ وما ظنّك بامرأةٍ تأخذ في علم الحديث بحضور جهبذ العصرِ، ونابغة الدهرِ ابن حجر؟؟! إنَّ هذا ليشيرُ بحقّ إلى تمكنها من هذا العِلْم الشّريف.

مِنْ تَلامِذَتِهَـا :

* تشيرُ أخبارُ أُنْس بنت عبد الكريم إلى أنَّه قد قرأَ عليها أكابر الفُضَلاء من أهل العلْم، وتتلمذ علىٰ يدها جلّة من أعلياءِ أهل الفَضْل، فكان يقرأُ عليها العلامة ابنُ خضْر صحيحَ البخاري في رجب وشعبان من كلِّ سنة، ومن بعده سبطها ـ يوسُف بن شاهين الكركي المتوفى سنة ٨٩٩ هـ ـ وكانت في يوم خَتْمِ صحيح البخاري تحتفلُ بأنواعِ الحلوىٰ والفاكهة وغيرها، وكان الكبارُ والصِّغارُ وأهلُ محلّتها يُهْرعُون لحضور هذا الاحتفال البهيجِ في يومِ الختم ـ وهو قُبيل شهر رمضان ـ وذلك بحضورِ زوجها الحافظ ابن حجر(١).

* هذا؛ وقد كان الحافظُ السَّخاوي المتوفىٰ سنة (٩٠٢ هـ)؛ ـ وهو من أكابرِ العلماء، ومؤرِّخ حجّة، وعلاّمةٌ في الحديثِ ورجاله، والتّفسير والفقْه واللغة والأدب، انتهىٰ إليه عِلْمُ الجرحِ والتعديل، وكان يروي صحيح البخاري عن أزْيَد من مئةٍ وعشرين نفساً ـ، كان هذا العلاّمة قد خرّج لأُنْس امرأةِ شيخِه الحافظ ابن حجر أربعين حديثاً عن أربعين شيخاً، قراءة عليها بحضور زوجها ابن حجر، وهذا يدلُّ على تبحّرها في هذا الفنّ، كما يشيرُ إلى تمكنها من الرّواية حيث إنّها تتحدثُ أمامَ أعاظمِ علماء الحديث في دُنيا الحديث في عصرها.

* هذا؛ وقد أشارَ السّخاوي ـ رحمه الله ـ إلى تلقّيه العِلْم عن أستاذهِ وزوجِ أستاذِه أُنْس بنت عبد الكريم فقال: وخرّجتُ لها أربعينَ حديثاً عن أربعينَ شيخاً، قرأتُها عليها بحضوره ـ أي: ابن حجر ـ أيضاً، وحملْتُ عنها أشياء(٢).

* وتدلُّ أخبار هذه العالمةِ الفاضلة أنّها كانت شغوفة بالعلمِ شَغَفاً كبيراً، فقد قرأَ عليها الفُضَلاء كي يتثبّتُوا من حفظهم، فكانت تُسَرُّ من ذلك سُروراً بالغاً، فكانت تحتفلُ بذلك، وتفيضُ على جماعةِ طلاب العلْمِ بالعطاء،

---

(١) انظر الحافظ ابن حجر (ص٤٠ و٤٧ و٤٨) بشيء من التصرف.

(٢) الضوء اللامع (١٢/ ١١).

وتكرمهم في أغلب الأحيان، وهذا نوعٌ منْ أنواعِ التّرغيب في العِلْمِ واقتناص دُررِه من بحارِ العُلماء والفقهاء.

زَهْرٌ مِنْ رِيَاضِ أَخْبارِهَا:

* من أعظمِ إعمار البيوت وجودُ الأولاد، ولعلَّ استمرارَ المودات بين الأزواج وجود الذّريّة التي تزينُ الحياة الدّنيا، وهذه الزّينة كانت موجودةً في حياةِ أُنْس بنت عبد الكريم التي كانت ودوداً ولوداً.

* وتروي أخبار ضيفتنا أنّها أنجبتْ للحافظ ابن حجر[1] خَمْسَ بنات خلال (١٥ سنة)، كانت أُوْلاهُنَّ وِلاَدَةً في سنة (٨٠٢ هـ)، وأُخْراهُنَّ في سنة (٨١٧ هـ).

* وأحصىٰ الذين ترجموا حياة ابن حجر بأنَّ بناته من زوجه أُنْس هُنَّ خمسٌ، وأسماؤهن هي: زين خاتون، فرحة، غالية، رابعة، وفاطمة.

* وكان الحافظُ ابن حجر يكرمُ زوجَه أُنْساً إكراماً شديداً، لما كانت عليه أخلاقُها العظيمة، وشمائلها الكريمة، فقد حظيت معه بحِجّة، حيث استصحبها إلى أداءِ فريضةِ الحجِّ في سنةِ (٨١٥ هـ) ومن ثَمَّ عادت معه إلى مصرَ.

* وبعد مضيّ قرابة عَقْدَيْنِ منَ الزَّمن اشتاقت أنس إلى الحجِّ، فأذن لها في سنة (٨٣٤ هـ) أن تؤديَ الحجَّ، فحجَّتْ بمفردها، وجاورتْ ومعها سبطُها يُوسُف بن شاهين، وكان صغيراً لا يتجاوزُ ست سنين.

* وتشيرُ الأخبارُ التي وصلَتْنا عن أُنْس أنّها كانت شديدةَ الاحترام والتّوقير لزوجها، عظيمةَ الرغبةِ فيه، تودّه وتكبره؛ وكان هو الآخر يبادلُها الاحترامَ نفْسَه، وكان لا يصبرُ على فراقها، وفراقِ أولاده، وحفدتِه، ويظْهَرُ لنا شعوره هذا جليّاً حين رحلته إلى الحجّ، وطلَبِهِ العِلْمَ في بلادِ الحجاز،

---

(١) تزوجَ ابنُ حجر زوجات أخريات غير زوجه أُنْس بنت عبد الكريم، وأنجبتْ له إحداهن بنتاً سمّاها آمنة، وولدت له أخرى ولداً سمّاه محمداً، وكان مولده سنة (٨١٥ هـ).

اسمعْ إليه يقولُ من قصيدةٍ يعبّرُ فيها عن اشتياقه لزوجهِ وأولاده وحفدته جاءَ في مطلعها:

مَـنْ لـدِيَـارٍ عـن مَقيلـي شَـاسِعَـه وأمْـسِ كـانـتْ لمقَـالـي سَـامِعَـه
أدْعُـو فـلا يجيْبُنـي إلا الصّـدىٰ رَجْـعُ الخِطَـابِ لا يُفيـدُ سَـامِعَـه

* ثم يذكر منزله وأولادَه وزوجَه فيقول:

وَمنـزِلاً كـانَ لِطَـرفـي مَنْـزَهـاً بـه فُليـذاتُ حشَـايَ هـالِعَـه
محمّـدٌ وأحمـدُ ابـنُ أخْتِـه وأمُّـهُ وأختُهـا ورابِعَـه
أربعـةٌ أصْـلٌ وفـرعٌ خـامـسٌ أفَـدّيـه بـزَهْـرةٍ تُـزَفُّ يـانِعَـه
وأمُّهـمُ جـامعـةُ الشَّمـلِ لهـم كـأنَّ روحـي بعـدهـم فـي جـامِعَـه
يَـرتـاحُ قلبـي عنـدِ ذِكْـرَاهـمُ تهتـزُّ خضْـراً لغُيـوثٍ هـامِعَـه

* لقد حُقَّ لهذهِ المرأةِ العالمةِ الفاضلة أنْ تنالَ من زوجها كلَّ الاحترام والإجلال والتّقدير، فقد ضربت أعلىٰ الأمثلة في الاصطبار على المصائب، والرّضا بقضاءِ الله والتّسليم لأمره، فلم يضبطْ لها هفوة، ولا سقطة، ولا زلّة على الرغم من أنّها فقدت بناتها كلهنّ يتساقطن بين يديها الواحدة تلو الأخرى، ويذوينَ كما يذوي القضيبُ من الرَّند، وهنَّ في ميعةِ الصّبا، فتصبّرتْ واحتسبتْ ذلك عند العليم الخبير. فقد ماتتْ كبرىٰ بناتها زين خاتون بالطّاعون وهي حامل في سنة (٨٣٣ هـ)، وقبل ذلك بأعوام عديدة فَقَدَتْ ابنتيها غالية ورابعة بالطّاعون أيضاً، وذلك في ربيع الأوَّل سنة (٨١٩ هـ). أمّا ابنتاها فرحة وفاطمة فقد توعكت كلّ واحدة منهما وماتت؛ وما ظنّك بامرأة تفقدُ كلَّ أولادها، وفلذات كبدها، ولا تزدادُ بذلك إلا إيماناً وتسليماً؟!!

* لقد أعطتْ أُنْسُ بنت عبد الكريم ـ في عصرِها وبعده ـ نموذجاً رائعاً لكلّ بنات حواء في الصَّبرِ والتَّسليمِ، والإيمانِ بالله الذي بيدهِ مقاليدُ السَّمواتِ والأرض.

* ومما يُضافُ إلى رصيدِ أُنْس الإيماني أنَّها قد وقفتْ أملاكَها وأموالَها على سبْطها وعلى ذريّته، ووهبتْ جُزءاً من مالِها لأعمالِ الخير، وتصدَّقت

ببعضِ مالِها على أصحاب الحاجاتِ، وعلى النّسوة العجائزِ اللاتي كُنَّ يدخلْنَ عليها، وعلىٰ أهلها الأقربين.

* ومن جواهرِ أخبارها: أنَّها كانت صافيةَ النَّفسِ، موصولةَ القلبِ باللهِ على أساسٍ صحيحٍ، وكانت ذات دعوةٍ مستجابةٍ، وقد ورد أنَّها رأتْ ليلةَ القدْرِ، فزادَ ذلك من قَدْرِها.

* وفي شَهْرِ جمادى من سنةِ (٨٥٢ هـ) لازمَ المرضُ زوجها الحافظَ ابنَ حجر، وثقُلَ عليه، وتغيَّر مزاجه، وأصبحَ ضعيفَ الحركةِ، فكانت أُنْس لا تبخلُ في تمريضهِ، إلى أنْ وافاهُ الأجلُ ليلة السبت في الثّامن والعشرين من ذي الحجة سنة (٨٥٢ هـ)، فكان وقْعُ المصيبةِ عظيماً بوفاته، إذ فَقَدتْ الرّكنَ الأساسيَّ في حياتِها بعد أنْ فَقَدَتْ أولادَها.

* ولم يكن وقْعُ المصيبةِ أليماً على زوجه أُنْسٍ وحدها، وإنّما على مصرَ كلّها، بل الدّنيا؛ فقد شيّعَتْه القَاهرة باكيةً حزينةً في موكبٍ مهيب، ولما وصلتْ جنازتُه المصلّى، أمطرتِ السَّماءُ على نَعْشهِ ـ ولم يكن زمانَ مطر ـ كما أوردَ السّيوطي ذلك حيث قال: حدثني الشّهابُ المنصوري ـ شاعِرُ العصرِ ـ أنَّه قد حضَرَ جنازتَه، فأمطرتِ السَّماءُ على نعشهِ، وقد قربَ إلىٰ المصلَّى، ولم يكن زمانَ مَطَرٍ، قال: فأنشدتُ في ذلك الوقت:

قَدْ بكَتِ السُّحْبَ علىٰ قاضي القُضَاة بالمَطَر
وانهدمَ الرُّكنَ الذي كانَ مَشيداً منْ حَجَر[1]

أُنْس في ذَاكِرَة الزَّمَنِ:

* ظلّت السَّيِّدةُ أُنْس بنت عبد الكريم وفيّةً لزوجها وشيخها ابن حجر، ولم تتزوَّج غيره؛ وعاشتْ بعده قرابة (١٥ سنة) قضَتْها في العِلْم، والعبادة، والصَّلاح، وعَمَلِ الخيرات.

* وامتدت الحياةُ بضيفةِ حلقتنا حتى اقتربت من التّسعين، وهي لا تفترُ

(١) انظر: طبقات الحفّاظ للسّيوطي (ص٥٤٨) طبعة مصر بتحقيق: علي محمد عمر.

عن ذِكْر الله، وعن العِلْم، والإقراءِ، والمدارسة، والعطفِ على أهل العِلْم ورعايتهم.

* وفي شهر ربيع الأوّل من سنةِ (٨٦٧ هـ)، حانَ اللقاءُ مع الخالقِ، فوافاها الأجلُ في مصرَ، وعمرها (٨٧ سنة)، وقد شيَّع جنازتَها عددٌ منَ العُلماء وشُدَاة المعرفة وطلاب الحديثِ، وذلك وفاءً لها، وتقديراً لعِلْمِها وفضْلِها وبرّها، ولمكانةِ زوجها ابن حجر العسقلاني، وقد صُلِّيَ عليها بجامعِ المارداني، ودُفِنَتْ بتربة[١] سلفها بالقربِ من الجامع عند أولادها.

* تلكم هي أُنْسُ ابنةُ عبد الكريم زوج أميرِ العُلماء ابن حجر، فما أجمل بنا ونحن نودّع سيرتها أنْ نذكرَ ما أثنى به عليها الحافظ السّخاوي حيث أثنىٰ وأنْصَف وأجادَ بكلمةٍ جامعة قال فيها: كانت رئيسةً، ديّنةً، كريمةً، راغبةً في الخيرِ، مجابة الدّعاء[٢].

* رحم الله أُنْسَ بنتَ عبد الكريم، وأوسعَ لها في الجنانَ منزلاً، فقد كانت بحقّ مثالَ الزّوجةِ القدوةِ الوفيّةِ، والعالمةِ العاملةِ الفاضلةِ، والمرأةِ الكريمةِ المطواع لزوجها، المعينةِ له في عِلْمه وعَمَلِهِ، فهل تقتدي بها النّساء؟ وهل تخلفها بشيءٍ مما آتاها اللهُ من فَضَائلِ المكارمِ، ومكارمِ الفَضَائل؟!

* * *

(١) إنَّ أهلَ القاهرةِ كانوا يعنون بالتُّربة والمقابر عنايةً فائقةً تلفتُ الأنظار، وقد عبَّر الرَّحالة المغربي ابنُ بطوطة عندما عَبَر القاهرة وتحدَّث عن تربتهم فقال: وهم ـ يعني أهل القاهرة ـ يبنون بالقَرافة ـ التّربة ـ القِباب الحسنة، ويجعلون عليها الحِيْطان، فتكون كالدُّور، ويبنون بها البيوت، ويرتّبون القرّاء، يقرؤون ليلاً ونهاراً بالأصوات الحِسَان، ومنهم مَنْ يبني الزّاوية والمدرسة إلى جانبِ التّربة، ويخرجون في كلّ ليلةِ جمعة إلى المبيتِ بها بأولادهم ونسائهم، ويطوفون على الأسواقِ بصنوف المآكل. (رحلة ابن بطوطة ص٣٩).

(٢) الضوء اللامع (١٢/ ١١).



٩

بكارة الهلالية



مَنْ هذهِ الخطيْبَـةُ البَليغَـةُ؟

* هذه واحدةٌ منَ الوافداتِ علىٰ معاويةَ بنِ أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ، حفظَ لها التَّاريخ بلاغتها، وعرفَ مقدارها في عالمَ الخطابَةِ والوفادة.

* ولا شكَّ في أنَّ الوافدين علىٰ الملوك والأمراء هم أمراءُ الكلام وملوكُه، فقد كان ينتجُ عن تلك الوفود مشاهد حَفْلٍ ومقامات فَضْل، إذ يُتَخيّر لها الكلام اختياراً من بناتِ الأفكار، وتُستجزلُ المعاني من ديوانِ الألفاظ لتكون ذا وقع مؤثّر في النّفوس.

* وكان لا بدَّ للوافدِ ـ أو الوافدة ـ عن قومه أنْ يكونَ عميدهم الذي عن رأيه يصدرون، فهو واحدٌ يعدلُ قبيلة، ولسان يُعرب عن ألسنة، وما ظنّك بوافدٍ ـ أو وافدةٍ ـ يتكلّم بين يدي خليفة العَصْر والأوان معاوية بن أبي سفيان عليه سحائب الرضوان؟ فهو يتحفَّظُ مَنْ أمامه مرّة، ويوطد لقومهِ مرّة أخرى، أتراهُ مدخراً نتيجةً منْ نتائج الحكمةِ، أو مستبقياً شيئاً من غرائبِ الفطنة؟! أمْ تظنُّ أنَّ قومَه قدّموه لفَصْلِ هذه الخُطّة إلا وهو عندهم في غايةِ الحذلقة واللَّسن، ومجمع الشّعر والخطابة؟! وما أجمل قولَ القائل:

وَمَا الشِّعرُ إلا حِكْمَةٌ منْ مؤلِّفٍ بمنْطِـقِ حـقٍّ أو بمنطـقِ بـاطـلِ

* وفي هذه الصَّفحات نتعرَّفُ بلاغةَ امرأةٍ من بين نساءِ صَدْرِ الإسلام الخالدات، اللواتي نطربُ لسَماع أخبارهنّ، ونشمُّ عبيرَ أحاديثهن العِذاب في مختلفِ المعارف، ولعلّها من أحلىٰ الصَّفحات التي تجمعُ العظةَ إلى جانبِ المعرفة، والحكمة إلى جانب الشّعرِ، وتجمعُ الفضيلةَ إلى جانبِ العِلْم والحِلْمِ والصَّبر وكلّ الفضائل.

* وامرأة هذه الصّفحات ـ وهي إحدىٰ الوافدات[1] على معاوية ـ تمثّل

(١) الوافداتُ على معاوية ـ رضي الله عنه ـ نسوةٌ معدودات، ذكرتهنَّ بعضُ المصادر القديمة من مثل: بلاغات النّساء، والعقد الفريد، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر وغيرها كثير. ومن مشاهير هؤلاء الوافدات: سودة بنت عمارة بن الأشتر =

حياةَ العظمة الوادعة، والنّفس الأبيّة، والسّريرة النّقية، والعلم والفصَاحة والبيان.

* وثبَ بها حبُّها لعلي بن أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ وثبةً جعلتْها منَ الخالدات في دنيا الخلود، وكان أثرها كريماً في عالَمِ بلاغةِ الخطاب وخطابِ البلاغة، وفي دنيا الشّعر الحماسي، وفي روضِ الفَصَاحة واللسن.

* ومن الجميلِ في سيرة هذه المرأة، أنَّ المصادرَ لم تحفلْ بنسبها كاملاً، وإنّما وعَتْ اسمها فقَط، واسم قبيلتها، وأجملتْ ذلك قولها؛ ودعَتْها: بكارة الهلاليّة[1].

* ويمكن لنا أنْ نستخلصَ من أخبار بكارة بأنّها من نساءِ العرب الموصوفات بالشّجاعة والجرأةِ والإقدام، والفصاحة في الشّعر والنَّثْر، والقوّة والجزالة في الخطابةِ، كانت في يوم صِفِّين من نُصَراء عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ.

* ولما استعرتِ الحربُ بينَ الفريقين، واشتجرتِ الأسنّة، وتشابكتِ الأبطالُ، ونفذتِ السّيوفُ إلى الصُّدور، كانت بكارةُ الهلاليّة تهتفُ تحتَ ظلال السُّيوف، وتخطبُ خُطباً تثير الحماسة في النّفوسِ، وترتجلُ مقالات ملتهبة، تحضُّ فيها القوم على أنْ يخوضوا غمارَ الحربِ، يَشْروا ويبيعوا دون خوفٍ أو وجلٍ، في حين مَلَكَ الرَّوعُ القلوبَ، وعقدَ الهولُ الألسنة، وحارتِ النواظرُ في المحاجر، وبلغتِ القلوب الحناجر، لكنَّ بكارةَ الهلاليّة

= الهمدانية، والزّرقاء بنت عدي بن غالب الهمدانية، وأم سِنان بنت خيثمة بن خرشة المذحجية، وعكرشة بنت الأطرش بن رواحة، ودارمية الحجونية، وأمّ الخير بنت حريش بن سراقة البارقية، وأروى بنت الحارث بن عبد المطلب القرشية، وضيفة حلقتنا، وكان له معهن لقاءات تُعتبر من عيون الآداب الإسلامية العربية.

(١) بلاغاتُ النّساء (ص٣٩ و٤٠)، والعقدُ الفريد (٢/ ١٠٤ و١٠٥)، والدرّ المنثور (ص٩٩ و١٠٠)، وشاعرات العرب (ص٣٥ و٣٦)، وأعلام النساء (١/ ١٣٧ ـ ١٣٩)، ولطائف الأخبار للتنوخي (ص٤٧ و٤٨)، طبعة دار عالم الكتب بالرياض بالسعودية.

ـ علىٰ الرغم من هذا كلّه ـ تخطب وتنشدُ الشّعر الحماسي، وتشيدُ بمعالي المكارم، فأي امرأة كانت بكارة هذه؟ وأي نَفْسٍ كانت بين جوانحها؟ كل هذه الشّجاعة، وكلّ هذا الإقدام مبعثه حبّ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

* كان لعلي بن أبي طالب، وزوجهِ فاطمَة الزّهراء وأولاده ـ رضي الله عنهم ـ مكانة عظيمة في نفوس أصحابه ومعاصريه، أمّا أسبابُ محبّته، فلأنَّه من أهلِ البيت المباركِ الذين أذهبَ اللهُ عنهم الرِّجسَ وطهّرهم تطهيراً.

* وكانتْ بكارةُ الهلاليّة ـ ونصراء عليّ منَ النّساء ـ ممن ناصَرْنَ عليّاً حيّاً وميتاً، وناصرنَ أهْلَ البيتِ وذلك لما حباهمُ من فضائل لا تُوجد في غيرهم، وكان لسان حالهم ينشدُ مفصحاً عن أحوالهم:

فَــلا تَعْــدِلْ بــأهــلِ البيــتِ خَلْقــاً
فــأَهْــلُ البيــتِ هــمْ أَهْــلُ السِّيــادة

فبُغْضُهــــمُ مــــنَ الإنْســـانِ كفْــرٌ
حَقيقـــــيٌّ وحبُّهــــــمُ عِبَــــــادَة

مَكَانَــةُ أهْــلِ البَـيْتِ وَصِفَاتُــهُم:

* لا بُدَّ لنا ونحنِ نترجمُ لبكارةَ الهلالية أنْ نتحدّثَ عن مكارم وَصِفَاتِ أهل البيتِ النّبوي الطّاهر، ولعلَّه من الفائدةِ الكبرىٰ هنا أنْ نقتطفَ من زَهْر رياضِ العُلوم والآداب بعضَ النّفائس التي وشّحتِ الكتب التّراثية على مرِّ الأزمان.

* فقد وصفَ أحدُ أبناء علي بن أبي طالب أهلَ البيت النبوي الطَّاهر فقال في معرضِ حديثه عنهم: أهلُ الفضلِ والإحسان، وتلاوة القُرآن، ونبعةُ الإيمان، وصُوّامُ شهْرِ رمضان، ولهم كلامٌ يُعرض في حَلْي، وينقشُ في فصِّ الزَّمان، ويحفظُ على وجه الدَّهر، ويفضحُ قلائد الدّر، ويُخجلُ نورَ الشّمسِ والبدر، وَلمَ لا يطؤون ذيولَ البلاغة، ويجرّون فضولَ البراعة، وأبوهم الرّسول وأمّهم البتول، وكلّهم غُذي بدرّ الحكم، وربّي في حجر العلم؟!

* وأهل البيتِ كما قال مُسلم بن بلال العبدي في وصفهم: أولئك قومٌ

بنورِ الخلافة يشرقون، وبلسانِ النّبوة ينطقون، وفيهم يقول القائل:

لو كانَ يُوجَدُ عَرْفَ مَجْدٍ قَبْلَهُم　　لوجَدْته منهم علىٰ أَمْيَالِ[1]

إنْ جئْتَهم أبْصَرْتَ بين بيوتِهم　　كَرَماً يقيْكَ مَواقِفَ التّسْآلِ

نُورُ النُّبوَّةِ والمكَارِمِ فيهمُ　　مُتَوقِّدٌ في الشِّيْبِ والأَطْفَالِ[2]

* وتوارثَ النَّاسُ حبَّ أهلِ البيت وامتداحهم علىٰ مر العصور والأزمانِ، وتسابقَ الشّعراء والمحبّون في امتداحهم ومديحهم، ومن لطائفِ ما قيل في حبِّهم ومدحهم ووصفهم قول ابن الوردي:

ومَالي إلاّ حبّ آلِ محمّد　　فكمْ جمعُوا فَضْلاً وكم فَضلُوا جَمْعا

محبَّتُهم ترياقُ زلاتي التي　　تخيَّلَ لي منْ سِحرها أنَّها تسعىٰ

* وقال آخر يصِفُ محاسنهم، ويدعو إلى حبّهم:

همُ القومُ مَنْ أصْفَاهمُ الودّ مُخْلِصاً

تمسَّكَ في أُخْراهُ بالسَّبَبِ الأَقْوىٰ

هُمُ القَومُ فَاقُوا العَالَمِيْنَ مَنَاقِباً

محاسِنُهم تُحْكَىٰ وآياتُهم تُروَىٰ

مُوالاتُهُمْ فَرْضٌ وحبُّهم هُدىً

وطَاعَتُهُم وُدٌّ وودّهُمُ تَقْوىٰ

* ولقد بالغَ بعضُهم في هذا الحبّ، وركبَ في شعرِه مركبَ الغلو والإغراق، فقال:

محبَّتُكم يا آلَ بيتِ محمّدِ　　على كلِّ نُفْسٍ من جميع الورىٰ فَرضُ

ولولا الذي أنْتُم بنونَ لبنْتِهِ　　لما أمطرتْ سُحْبٌ ولاَ أنبتتْ أرضُ

* ومثل هذا كثيرٌ في مصادرنا، ولكنّي أحببتُ الإشارة لذلك للمتعةِ والفائدة، وإدخال السّرور علىٰ النفوس.

---

(١) «العَرْفُ»: بفتح العين وسكون الراء: الريح، ومنه قول الشاعر:

لولا اشتعالُ النّارِ فيما جاورت　　ما كان يُعرفُ طيب عَرْف العود

(٢) «الشِّيْبُ»: جمع أشْيب، والمقصود به هنا الكبير في السن الذي اشتعل رأسه شيباً.

كَلِمَـاتُ بكَـارَةَ أَمَـامَ مُعَـاوِيَـةَ:

* بعد أنْ صارَ الأمْرُ لمعاويةَ بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ أتته الوفودُ من كلّ حَدبٍ وصوب تجرّرُ أذيال البَلاغةِ وتعرضها في مجلسه؛ وكان من جملة الوافدين عليه امرأةٌ من بني هلال، قد قوّسَتِ الأيامُ ظهرها، وأثّرتْ فيها عوامل الدّهر، فاشتعلَ رأْسُها شيباً، وبلغتْ من الكِبَرِ مبلغاً جَعَلَهَا قليلةَ الحيلة ضعيفةَ البصر، تتوكأُ على عصا لها، هذه المرأةُ المُسنّة هي بكارةُ الهلالية التي كانت من نُصرَاء علي ـ رضي الله عنه ـ يومَ صفين.

* ففي إحدىٰ زياراتِ معاوية ـ رضي الله عنه ـ للمدينةِ المنورة بعد أنْ قضىٰ مناسكَ حجّه، طلبتْ بكارةُ الدُّخولَ عليه، فماذا كانتِ النتيجةُ؟! وقد صنعتْ ما صنعتْ مِنْ قَبْلُ؟!

* الإمامُ عامر الشَّعبي[1] ـ رحمه الله ـ يحدّثنا من ذاكرته وحفظهِ عمّا حدثَ في ذلك المجلس الأنيقِ اللطيفِ فيقول: استأذنت بكارةُ الهلاليّةُ على معاويةَ بنِ أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ، فأذنَ لها بالدّخول عليه ـ وهو يومئذ بالمدينة ـ.

* ودخلتْ عليه بكارةُ وهو في مجلسه، وكانت امرأةً قد أسنَّتْ، ورقّ جلدُها، ودَقّ[2] عظمُها، واشتعلَ رأسُها شيباً، واشْتَغل لسانُها بالذّكْر؛

---

(١) «الشَّعبي»: عامرُ بن عبد الله بن شراحيل، أبو عمرو، وُلِد لست سنين من خلافة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ؛ سمعَ من علي بن أبي طالب والحسن والحسين وجماعة من الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، وهو كوفي، وبه يُضربُ المثل في الحفظِ، فيقال: أحفظُ منَ الشّعبي.
قال الزّهري ـ رحمه الله ـ: العُلماء أربعةٌ: سعيدُ بنُ المسيب بالمدينة؛ وعامر الشعبي بالكوفة، والحسنُ البصري بالبصرة، ومكحول بالشّام.
وكان الشّعبي فقيهاً، عالماً، حافظاً، أديباً، راوياً للشّعر، أثنى عليه العُلماء، مات في سنة (١٠٤ هـ) وعمره (٨٢ سنة) رحمه الله. (شرح مقامات الحريري للشَريشي ٢/ ١٨٠ ـ ١٨٢).

(٢) «دق»: نحف.

وأثَّرَتْ في مناكبها الأيامُ، فضعفَ بصرُها، فلا تكادُ تبصرُ ما حولَها، وتلاشتْ قواها، وكان معها خادمان لها وهي ترتعشُ بينهما، وقد أمسكتْ بيدها عكازاً تستندُ إليه أيضاً؛ ولما دنَتْ من معاويةَ قالت: السَّلام عليكَ ـ يا أمير المؤمنين ـ ورحمةُ اللهِ وبركاته.

وردَّ عليها معاويةُ قائلاً: وعليكِ السَّلام ورحمةُ اللهِ وبركاته يا أختَ الكرام الأخيار. ثمَّ إنَّه أمَرهَا بالجلوس كي تلتقطَ أنفاسها المتلاحقة، وتستريحَ منَ المسير، وبعد إذ سألَها في أَنَاةٍ وهدوء: كيف أنتِ يا خالة؟! وكيف كان مسيرُكِ، وما أخباركِ؟!

قالت بكارةُ: بخيرٍ وفضْلٍ منَ الله، والحمدُ لله ربِّ العالمين يا أميرَ المؤمنين؟! فقد أنعمَ علينا وأكرمنا.

فقال معاوية ـ وقد أحبَّ أنْ يسمعَ فصاحتها ـ: لقد غيّرك الدَّهْر يا خالة، ونالتْ منك الأيامُ والأعوامُ.

فأجابتْ بكارةُ بلفظٍ وجيز، ومعنى حلو لطيف، ينمُّ عن بلاغتها، ويهدي إلىٰ بيانها وفصاحتها؛ ويدلُّ على عقلها فقالت: هو ذو غِيَر، مَنْ عاشَ كَبَر، ومَنْ ماتَ قُبِر.

* وأُعْجِبَ معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ بكلماتِ بكارة الهلاليّة التي تنمُّ عن حكمةٍ لطيفة وأدبٍ جمّ؛ فصمتَ قليلاً، ثمَّ راحَ يجيلُ الطَّرف في وجوهِ الحاضرين، وكان في مجلسهِ ثلةٌ من سَادات العرب ووجوههم، وأعلام المسلمين، وقوّاد الفُتوحات، منهم: عمرو بنُ العاص، ومروانُ بنُ الحكم، وبعضُ وجوهِ بني أميّة وساداتُ قريش.

أَنَا قَائِلَةٌ مَا قَالُوا:

* كانَ مجلسُ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ يحفُّ بأعلامِ الفصحاءِ، وفصحاءِ الأعلام، وفرسانِ الكلام، وكلُّهم قد أعجبَ بهذه العجوز التي تنمُّ كلماتها عن لطيفِ الفصاحة، وفصيح البيان، ورجاحةِ العَقْل، وأحبَّ بعضُ مَنْ كان في ذاك المجلس أن يلفتَ نظر معاوية إلىٰ شاعريتها وإلى حماسِها يوم أنْ

كانت تحرّضُ النَّاسَ على القِتال، وتدعوهم إلىٰ الصَّبر والجلاد في يوم صفين، فابتدر عمرو بنُ العاص ـ رضي الله عنه ـ الحديثَ مع معاوية وقالَ له: يا أميرَ المؤمنين، ألا تعرفُ هذه المرأةَ الماثلة أمامك، بل ألا تذكرها وتذكر شِعْرهَا وكلامَها؟!

قال معاوية: وماذا قالتْ؟

قال عمرو: يا أميرَ المؤمنين هي التي كانت تعينُ علينا يوم صفّين، وتخطبُ في الجنود، وتؤججُ فيها نيران الحماسةِ، وهي ـ والله ـ القائلة يومذاك تحرضُ أحدَ الفُرسان، ولعلَّه أخوها زيد، وتخاطبه بهذا الشّعر:

يــا زيْــدُ دونَــكَ فــاسْتَثِـرْ مِــنْ دَارِنــا
سَيفــاً حُسَــامــاً فــي التُّــراب دفِيْنــا
قَــدْ كُنْــتُ أذخَــرُهُ ليــوم كــريهــةٍ
فَــاليــوم أبْــرزَهُ الــزَّمــان مَصُــونــا

* كانت بكارةُ تسمعُ ما كان عمرو يعيدُه منْ نظمِها وشعرِها، وقد ارتسمتْ على وجهها أماراتُ الرِّضا والسّرور، ولما انتهى عمرو منْ إنشادِه، قامَ مروان بنُ الحكم، وقال: وهي ـ والله ـ القائلة يومَ صفّين تعرّضُ بك، وبغيرِك منْ أصحابك، فمن قولها يومها:

أتــرىٰ ابــنَ هنــدٍ[1] للخــلافــةِ مَــالِكــاً
هيهــــاتَ ذاكَ ومــــا أَرَادَ بَعِيْـــــدُ
منَّتْــكَ نَفْسُــك فــي الخــلاءِ ضــلالــةً
أغــــراكَ عمــــروٌ للشَّقَــــا وسعيــــدُ
فــارجــعْ بــأنْكَــدِ طَــائــرٍ بنحــوسِهــا
لاقَــــتْ عليّــــاً أَسْعــــدٌ وسُعــــودُ

* ولما انتهى مروانُ من إنشاده، ظلت أمارات الرضا مرتسمة على وجه

---

(١) «ابن هند»: معاوية، وأمّه هندُ بنتُ عتبة أسلمت وبايعت فهيَ من عداد الصّحابيات ـ رضي الله عنهن جميعاً ـ.

بكارة، بل توضعت علامات الاطمئنان في نفسها، لأن كلماتها وأشعارها ما زالت محفورة في أذهان كبار القوم.

* وساد المجلسُ بعضَ الهدوء، فقام أحدُ الجلوس[1] ليذكر ما أنشدته بكارةُ منْ شِعرٍ يوم صفّين، فاتّجه نحو معاوية وقال بصوتٍ عال: يا أمير المؤمنين، وهي القائلة أيضاً يوم صفين:

قـــد كنـــتُ آمُـــلُ أنْ أمـــوتَ ولا أرىٰ
فـــوقَ المنـــابـــر مـــن أميّـــة خـــاطبـــا

فـــاللهُ أخَّـــر مـــدّتـــي فتطـــاولـــتْ
حتّـــى رأيـــتُ مـــنَ الـــزَّمـــان عجـــائبـــا

فـــي كـــلِّ يـــومٍ لا يـــزالُ خطيبُهـــم
بيـــنَ الجميـــع لآلِ أحمـــدَ عـــائبـــا[2]

* وبعد أن فرغَ الرّجلُ من إنشَاده، سادَ صمتٌ خيمَ علىٰ المجلس، فسكتَ القومُ أجمعون، ونظرَ بعضهم في وجوهِ بعض، بينما مزّقَ ذلك السّكون والسّكوت صوت بكارة الهلالية التي وقفتْ وهي ترتعشُ بين خادميها وقالت بصوتٍ مسموع: لقد تناولني أصحابك منْ كلّ جانب يا أمير المؤمنين، وإنَّ ما قالوا قد أعشىٰ بصري، وقصَّر حجّتي، وأنا واللهِ قائلة ما قالوا، لا أدفعُ ذلك بتكذيب، فامضِ لشأنك، فلا خيرَ في العيش بعد أمير

---

(١) تشيرُ بعضُ المصادر إلى أنْ سعيدَ بنَ العاص هو الذي قامَ وأَنشد، وهذا لا يتوافقُ ولا يتّفقُ مع سيرته، لأنَّ سعيدَ بنَ العاص ممن اعتزلَ الفتنة ولم يشهدها.
والحقيقة، ففي النّفس شيءٌ من هذه القصّة وأشباهها، إذ تفشو فيها رائحةُ الصَّنعة والتكلّف. ومما يقوّي الشّك في النفس، أنَّ أحداث القصّة ووقائع التَّاريخ لا تنسجُم معها، فسعيد لم يدخل في الفتنة، ومعاوية لا يحتاج لمن يذكّره ويؤلبه على امرأة عجوز قد أكلت منها السنون ـ إن كان وجودها حقيقة ـ وهناك أشياء أخرى يكتشفها القارىء الفطن ولا حاجة لذكرها.

(٢) وهـذه الأبيات تشيع في أرجائها رائحة الوضع والتكلّف والصنعة الممجوجة، ناهيك بأن الذي وضعها تشيع فيه رائحة الكراهية لبني أمية.

المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ وما خفيَ عليك مني أكثر.

فقال معاوية وهو يضحكُ: يا خالة ليس يمنعنا ذلك من بِرِّك، وإنّه لا يضعك شيء، فاذكري حاجتك كيما تُقْضَىٰ. قالت بكارةُ: جزاكَ الله خيراً يا أمير المؤمنين، ثمَّ إنَّها ذكرتْ حوائجها وأمورها. فقضىٰ معاوية ما طلبَتْه، وأمرَ بردّها إلى بلادها ردّاً جميلاً على أحسنِ حال، وأنْعَمِ بال.

* ويسكتُ التَّاريخُ بعد هذا الموقف، فلم يذكرْ لنا أخبارَ هذه المرأةِ الهلالية البليغة الجريئة، ومنذ أنْ خرجت من ذلك المجلس أرخىٰ الدَّهر ستاره على هذهِ المرأة التي عطرتِ الأسماعَ بحسنِ نثرها وشعرها[1].

* تلكم هي بكارة الهلالية التي نظمتْها المصادرُ في نساءِ التّاريخ، وجعلتها من بليغات النّساء.

* * *

---

(١) عن العقد الفريد (٢/ ١٠٤ و١٠٥)، وأعلام النساء (١/ ١٣٧ ـ ١٣٩) مع الجمع والتصرف.
وانظر: الدر المنثور (ص٩٩ و١٠٠)، وبلاغات النساء (ص٣٩ و٤٠)، وشاعرات العرب (ص٣٥ و٣٦) وغيرها كثير من المصادر المتنوعة.



١٠
الخيزران بنت عطاء

مِنَ الرِّقِ إلىٰ عَالَمِ الشَّهِيرَاتِ:

* ارتقتْ منَ الرِّقِ إلىٰ المُلْكِ، وحظيتْ بالمكانةِ العُليا في قُصور خلفاء بني العبّاس في القرنِ الهجري الثّاني.

* اشتراها الخليفةُ المهدي بن المنصور العبّاسي بمئةِ ألف درهم، فحظيتْ عنده حظوةً كاملةً، إذ حظيتْ بالعتقِ في سنة (١٥٩ هـ)، ومن ثمَّ تزوَّجها، وكانت ذات جمالٍ وبهَاءٍ، وكَمالٍ وأدَبٍ وشِعْر.

* وهذه المرأةُ المحظوظةُ ذات مَنْبتٍ عربي أصيل، يعودُ جذرها وأصلُها إلى بلادِ اليمن، فهي يمانيةُ الأصل جُرَشيّة[١]، ثمَّ أضحتْ من جواري المهدي العبّاسي.

* ذكر الأخباريون أنَّها كانت من حازماتِ النِّساء، وكانت من النَّابهاتِ الفطناتِ العَالماتِ، فقد أخذتِ الفِقْه عن الإمامِ الأوزاعيّ ـ رحمه الله ـ، فغدتْ من فقيهاتِ نسوة عصرها، ومن شَهيرَات النِّساء في دنيا مشَاهير النِّساء.

* وهذه المرأةُ اقتعدت ذِرْوةُ الشُّهرة حيناً منَ الدّهرِ، فهي مولاةُ الخليفة المهدي، ثمّ هي زوجُهُ، وأمُّ ولديه الهادي والرّشيد، فهي زوج خليفة وأمُّ خليفتَين من أشهرِ خُلفاء بني العبّاس؛ تُرىٰ مَنْ تكونُ هذه المرأة؟

* إنّها الخيزرانُ بنتُ عطاء[٢] التي تركت في التّاريخ النّسوي دوياً إلىٰ أنْ

---

(١) «جُرَش»: مدينة باليمن، وهي غيرُ «جَرَش» من أرضِ البلقاء ـ الأردن اليوم ـ والتي من فتوح شُرحبيل بنُ حسنة ـ رضي الله عنه ـ. انظر (معجم البلدان ٢/ ١٢٦ و١٢٧). ومن الجدير بالذكر أنَّ هذه المدينة قد خربت الآن، ولا تزالُ أطلالها قائمةً في أعلى وادي بيشة.

(٢) تاريخ بغداد (١٤/ ٤٣٠ ـ ٤٣٢)، وتاريخ الطبري (انظر الفهارس ٦/ ٩٣)، والبداية والنهاية (١٠/ ١٦٣)، وتاريخ القضاعي (ص٤١١ و٤١٢ و٤١٤)، والكامل في التاريخ (٦/ ٤٠ و٨٨ و٩٩ و١٠٢ و١٠٦ و١٠٨ و١١٩)، وشذرات الذهب (٢/ ٣٣٠)، وشفاء الغرام للفاسي (١/ ٣٢٢ و٣٦٢ و٤٣١ و٤٣٢ و٤٤٠ و٤٤٦)، وأعلام النساء (١/ ٣٩٥ و٤٠١)، والقاموس المحيط (ص٤٩١) طبعة مؤسسة =

ماتت، وشغلتِ النّاسَ حيناً من الدَّهرِ في أعمالِها وآثارِها وأخبارِها.

* وسنشهدُ في الصَّفحات التَّاليات شذرات من أخبارِها وآثارها في تواريخِ نساء الإسلام، وفي تواريخِ نساء الخلفاء، وأمَّهاتِ الخلفاء.

أمُّ خَليفتَين:

* استحظىٰ المهدي بالخيزران، وقدّمَها على جميع نسائه، لما حبَاها اللهُ من الأدبِ واللطفِ والظّرف، وقد أخذتْ من قَلْبه مساحةً كبرى، ووقعتْ من نفسه منزلةً عظمى.

* وفي قَصر أمير المؤمنين المهدي حظيتِ الخيزرانُ بنتُ عطاء بالشّهرة التي رفعتْها إلى مقامِ الخالداتِ؛ فقد ولدت للمهدي خليفتَين وَليا الخلافةَ، ومقاليد أمورِ النّاس في مرحلةِ فتوّة الدّولة العباسيّة وشبابها.

* قال ابنُ كثير في «تاريخه»، وابنُ العماد في «شذراته»: لم تلد امرأةٌ خليفتَين غير ثلاث نسوةٍ وهُنّ:

* ولاّدةُ بنتُ العبَّاس العبسيّة؛ تزوَّجها عبدُ الملك بن مروان، فولدتْ له الوليد وسُليمان، وكلاهما وليَ الخلافة بعد أبيه.

* والثّانيةُ: شافهرُ بنتُ فيروزَ بنِ يزدجرد، تزوّجها الوليدُ بن عبد الملك فولدت له ولَدْين، وكلاهما وليَ الخلافة.

* والثَّالثةُ: الخيزرانُ، اشتراها المهدي، ثمّ أعتقها، فولدتْ له الهادي والرّشيد، ووليَا الخلافة[1].

= الرسالة، وغير ذلك من مصادر.

قال الفيروز أبادي: «الخيزُران»: بضم الزّاي: شجر هندي وهو عروقٌ ممتدة في الأرض، والقصب، وكلّ عود لدْنٍ، والرماح.

(١) انظر: البداية والنّهاية (١٠/ ١٦٣)، وشذرات الذّهب (٢/ ٣٣٠)، وذكر ابنُ العماد ـ رحمه الله ـ أنَّه يلحق بهؤلاء النّسوة امرأة أخرى، وهي: خاتون جارية ملْكشاه، فإنّه ولدت محمّداً وسنجراً، وكلاهما ولي السَّلطنة. (شذرات الذّهب ٢/ ٣٣٠).

* وفي ولادةِ الخيزران موسَى وهارون[1] يقول الشّاعر:

لَيْسَ في النَّاس مثْلُ موسىٰ وهَا رونَ هَجانانِ أنْجبا لِهجَانِ
ما استثَرْنَا عِرْقَ الخلافةِ حتّى أورقَ العودُ في بني الخيزُرانِ

الخيْزُرَانُ وَعُيُونُ السَّعَادَةِ:

* قال الشَّاعر:

وَإِذَا السَّعَادةُ لاحَظَتْكَ عُيونُها
نَمْ فالمخاوِفُ كلُّهنَّ أمَانُ

* إذا كانتِ السَّعادةُ قد ذُلِّلت قطوفُها لامرأةٍ من نساءِ الخلفاء، فإنَّ الخَيزُرانَ بنتَ عطاء ممن ذُللت لها قطوف السّعادة تذليلاً، فقد رزقت من سعادةِ الدنيا ما لا يُوصف، ولا يمكن أنْ يُحْصَرَ ذلك في سطور، أو تحتويه خزائن الصّدور.

* ولما عُرِضتِ الخَيزُرانُ علىٰ المهدي ليشتريها أعجبته، فاستنطقَها فوجدها

---

(١) منَ الجدير بالذكر أنَّ الخيزُران قد أنجبتْ ابنها مُوسى سنة (١٤٤ هـ)، وتولى العهد وعمره (١٦ سنة)، وأنجبتْ ابنها هارون لثلاث بقين من شهر ذي الحجَة سنة (١٤٥ هـ).

ويذكرُ المؤرّخُون وأهلُ الأخبار أنْ الخيزُران كانت تربطها بنساءِ الأمراءِ والوزراء روابط متينة قوية، ومن أقوى هذه الرّوابط تلك الرّابطة التي كانت بينها وبين الأسرة البرمكية، أسرة يحيى بن خالد البرمكي، حيث إنَّ نساء يحيى البرمكي قد تمكنَّ منَ التّسللِ إلى قلب الخيزُران، وحيازة رضَاها، ومجالستها ومسامرتها، وبالتّالي نِلْنَ ثقتها، لذلك دفعت الخيزُران ابنها هارون إلى فاطمة بنت محمد بن الحسن بنِ قحطبة أمّ جعفر البرمكي، ـ اقرأ سيرة أمّ جعفر البرمكي في هذا الكتاب ـ.

وبهذهِ الرَّضاعة صار يحيى بنُ خالد البرمكي أباً للرشيد في الرضاعةِ، وصارت نساؤه له أمّهات، ويبدو أنَّ الصِّلة قد زادت كثيراً، والصَّحبة قد قويت واشتدَّ عودها بين الخيزُران وبين العائلة البرمكية، وهذه الصّحبة والصّلة قد دفعتْ بهم إلى أعالي المجد مدة طويلة من الزّمن، حيث طار صيتهم وكثرة أخبارهم، إلى أنْ تمكنَ هارونُ الرشيد منهم، فأوقع بهم وبعثرهم ونكبهم.

من فصيحات النّساء، وممن خصَّهُنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بسرعةِ البديهة، وفَصْل الخطاب، وحَوَتْ أيضاً كمالَ الأخلاق، وحسنَ التّهذيب، وسموَ الأدب. لذلك استحسنَ المهديُّ إجابتها لما سألها[1]، فحظيت عنده جدّاً، وكانت لها المكانة الأولىٰ بين نساء قصره[2]، حتى إنَّ المهدي لم يكن يصبرُ علىٰ فراقها.

* وأدرك كثيرونَ منزلةَ الخيزُران عند زوجها المهدي، فكانوا يقصدونها لتتوسّط لهم لدىٰ المهدي لقضاءِ حوائجهم، وكان المهدي يستجيبُ لطلبها، لما لها من منزلةٍ عنده، وأصبح قصرُها قبلةَ الأنظار، ومقصدَ النَّاس ذوي الحاجات.

* تحدَّث محمد بنُ جرير الطَّبري ـ رحمه الله ـ عن منزلةِ الخيزُران عند المهدي فقال: وكانتِ الخيزُران في أوّل خلافةِ موسى ـ الهادي ـ تفتاتُ عليه في أمورِه، وتسلك به مسلكَ أبيه من قبلهِ في الاستبدادِ بالأمْرِ والنَّهي[3].

مِنْ طَرَائِفِ أَخْبَارِهَا:

* بلغتِ الخيزُرانُ ذروة الشّهرة في عصرها، وكانت شخصيتُها قد تركتْ بصماتها في أغوارِ المهدي الذي أُغرمَ بها غراماً شديداً، فإذا ما غابتْ راسَلها وبثّها أشواقَه، وترجمَ لها عواطفَه أحياناً في نظْمٍ رقيقٍ.

* ومن طرائفِ ذلك ما وَرَدَ أنَّ الخيزُران قد حجّت مرّةً في حياةِ المهدي،

---

(١) يُذكر أنَّه لما عُرضتِ الخيزرانُ على الخليفة المهدي ليشتريها، أعجبتْه، إلاّ دقةً في ساقيها، فقال لها: يا جارية، إنّك لعلى غاية المنى والجمال لولا دقةُ ساقيك وخموشهما ـ خدوش وآثار جروح ـ فقالت: يا أمير المؤمنين؛ إنّك أحوج ما تكون إليهما، لا تراهما. فاستحسنَ جوابها فاشتراها. (البداية والنّهاية ١٠/ ١٥٨).

(٢) حظيتِ الخيزُران بمنزلة عُليا عند المهدي، مما لفتَ إليها أنظارَ نساءِ قَصْر المهدي، مما جعل زوجةَ المهدي الأولى «ريطة بنت أبي العبّاس السَّفَّاح» تتقربُ إليها وتهديها بعض جواريها كيما تحظى بعطفِ المهدي لما تجده من ميلهِ نحوها. هذا وقد كانتِ الخيزرانُ جاريةً، فأعتقَها المهدي وتزوّجها، وولدت له موسى الهادي، وهارون الرشيد، وابنة اسمها البانوقة.

(٣) انظر: تاريخ الطبري (٦/ ٤٢١) طبعة مصر.

فكتبَ إليها وهي بمكةَ المكرمة ـ يستوحشُ لها، ويتشوّقُ إليها ـ بهذا الشِّعْر:

نحنُ في غايةِ السُّرورِ ولَكنْ ... ليس إلاّ بكم يتمُّ السُّرورُ
عَيبُ ما نحنُ فيه يا أهْلَ ودّي ... أنّكم غُيَّبٌ ونحنُ حضورُ
فأجدُّوا في السَّير بَلْ إنْ قدرتُم ... أنْ تَطيرُوا معَ الرِّياح فَطيرُوا

* فلما وصَلتِ الخيزُرانُ الأبياتَ قرأتْها، فأجابته، أو أمرتْ مَنْ أجابه على نفس الرّوي والوزنِ، فكُتِب للمهدي:

قَدْ أَتانَا الذي وصَفْتَ منَ الشَّو ... قِ فكِدْنَا وما قَدَرْنَا نَطيرُ
ليتَ أنَّ الرِّياحَ كُنّ يُؤدينَ ... إليكم ما قَدْ يكنُّ الضّميرُ
لم أزلْ صَبَّةً فإنْ كنتَ بعدي ... في سرورٍ فدامَ ذاكَ السُّرورُ

* وقد ذكَرَ ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ في «البداية والنّهاية»[(١)]، أنَّ الخيزُران قد روتِ الحديثَ النّبويَّ الشَّريفَ عن طريقِ مولاها المهدي عن أبيهِ عن جدّه عن ابنِ عبّاس عن النّبيّ ﷺ قال: «مَن اتقىٰ الله وقاهُ الله كلَّ شيء»[(٢)].

* وللخيزُران بعضُ الأخبار الطّريفة مع زوجها المهدي، فقد حدَّثَ الواقدي قال: دخلتُ علىٰ المهدي يوماً، فحدثْتُه بأحاديثَ، فكتبها عنّي، ثمَّ قامَ فدخلَ بيوت نسائِه، ثم خرج وهو ممتلىءٌ غيظاً، فقلتُ: ما لك يا أمير المؤمنين؟

فقال المهدي: دخلتُ على الخيزُران، فقامتْ إليَّ، ومزّقتْ ثوبي، وقالت: ما رأيتُ منك خيراً، وإنّي واللهِ يا واقدي، إنّما اشتريتُها من نخّاس، وقد نالتْ عندي ما نالت، وقد بايعتُ لولديها بإمْرَةِ المؤمنين مِنْ بعدي!.

فقلتُ: يا أمير المؤمنين، إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «إنّهنّ يغلبْنَ الكرام ويغلبهنُّ اللئام».

وقال ﷺ: «خيرُكم خيرُكم لأهْلهِ، وأنا خيرُكم لأهلي، وقد خُلِقَتِ المرأةُ منْ ضِلَع أعوج إنْ قوّمته كَسَرْتَه». وحدثْتُه في هذا الباب بكلامٍ

---

(١) البداية والنهاية (١٠/ ١٦٣).

(٢) انظر: تاريخ بغداد (١٤/ ٤٣١).

حضَرني، فأَمَر لي بألفَي دينار، فلمّا وافيتُ المنزلَ، إذا رسولُ الخيزُران قد لحقني بألفي دينار إلا عشرة دنانير، وإذا معه أثواب أُخَر، وبعثتْ تشكرني وتثني عَليَّ معروفاً[1].

* ومن الأخبار المُسْتَطْرفة التي حدثتْ للمهدي مع الخيزُران ما جاء عند ابن خلكان قال: قال المهدي للخيزُران: أريدُ أنْ أتزوّج، وكانت بكتاب، فقالت له: لا يحلّ لك أنْ تتزوّجَ عليّ.

قال: بلىٰ.

قالت له: بيني وبينك مَنْ شِئْتَ.

قال: أترضينَ سُفيان الثّوري؟

قالت: نعم، فوجَّه إلىٰ سفيان فقال: إنَّ أمَّ الرّشيد تزعم أنّه لا يحلُّ لي أنْ أتزوجَ عليها وقد قال اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ ثمّ سكتَ، فقال له سفيان: أتمّ الآية؛ يريدُ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النّساء: ٣]، وأنتَ لا تعدل، فأمرَ له المهدي بعشرةِ آلاف درهم، فأبى أنْ يقبلَها.

الخَيْزُرَانُ في خِلافَةِ الهَادِي:

* لما توفيَ المهدي في شهْر محرم من أوّل سنةِ (١٦٩ هـ)، كان ابنُه موسىٰ الهادي قد وليَ العهد من بعده، وكان المهديُّ قد عزم قبل موته على تقديم أخيهِ هارون الرّشيد عليه في ولاية العهد، ولكنَّ ذلك لم يتّفقْ، فماتَ المهدي وولي الهادي الخلافة.

* ويبدو أنَّ الخيزُران كانت تميلُ هي الأخرى إلى ابنها هارون، لذلك لما وليَ الهادي الخلافة، عزمَ علىٰ خلع أخيه هارون منَ الخلافة وولاية العَهْدِ لابنه جعفر بن الهادي، فلمْ يظهرهاَ هارون منازعة، بل أجابَ، ولكنَّ

---

(١) تاريخ بغداد (١٤/ ٤٣١)، والبداية والنهاية (١٠/ ١٥٣).

أمَّهما الخيزُران قد أبتْ ذلك، لأنَّها كانت تميلُ إلىٰ ابنها هارونَ أكثر من موسىٰ الهادي[1].

* هذا؛ وقد كان موسىٰ الهادي قد منعَ أمَّه الخيزُران من التّصرّفِ في الخلافة وشؤون النّاس، بعد أنْ كانت قد استحوذتْ عليه في أوّل ولايته، وانقلبتِ الدُّول إلى بابها، والأُمراء والقواد إلى جنابها، وعند ذلك أقَسم موسى الهادي بأغلظِ الأَيْمان، لئن عادَ أميرٌ إلى بابها ليضربنَّ عنقَه، ولا يقبل منه شفاعةً، فامتنعتْ من الكلامِ في ذلك، وحلفتْ لا تكلمه أبداً؛ وانتقلتْ عنه إلىٰ منزلٍ آخر.

* أوردَ أبو جعفر محمد بن جرير الطَّبري ـ رحمه الله ـ طَرَفاً من أخبارِ الخيزُران وتسلُّطِها فقال: ذكر يحيىٰ بنُ الحسن أنَّ الهادي نابذَ أمَّه ونافرها، لما صارتْ إليهِ الخلافة، فصارت خَالِصة[2] إليه يوماً، فقالت: إنَّ أمَّك تَسْتكْسِيْكَ. فأمرَ لها بخزانةٍ مملوءة كسوة.

قال: ووُجِدَ للخيزُران في منزلها من قراقرِ الوشي ثمانية عشر ألف قَرْقر.

قال: وكانتِ الخيزُران في أوَّلِ خلافةِ موسى تفتاتُ عليه في أمورِه، وتسلكُ به مَسْلكَ أبيه من قبله في الاستبدادِ بالأمْرِ والنَّهي، فأرسل إليها ألا تخرجي من خَفَرِ الكفاية إلى بذاذةِ التّبذّل، فإنّه ليس من قَدْر النّساء الاعتراض في أمْرِ المُلْكِ، وعليكِ بصَلاتِك وتسبيحكِ وتبتُّلكِ؛ ولكِ بعد هذا طاعة مثلك فيما يجبُ لك[3].

* ومنَ الجديرِ بالذِّكْر أنَّه كانت للخيزُران صولاتٌ وجولاتٌ، بل ونفوذُ

---

(١) وصفَ الرّواة والمؤرخون الهادي فقالوا: كان طويلاً، جسيماً، أفوه، شجاعاً، بطلاً، فكان يَثِبُ على الدّابة وعليه درعان، أديباً، جواداً، صعبَ المرام، غيوراً، ومن أجْلِ غيرته منع أمّه الخيزُران منَ التّدخل في شؤونِ الحكم وأقصاها. انظر: (تاريخ الطبري ٨/ ٢١٤)، و(البداية والنهاية ١٠/ ١٥٩)، و(تاريخ القضاعي ص٤١٢ و٤١٣) وغيرها.

(٢) اسم جارية من جواري الخيزُران.

(٣) انظر: تاريخ الطبري (٤/ ٦٠٤) طبعة دار الكتب العلمية (١٤٠٨ هـ).

سلطان في مستهلِّ خلافة ولدها موسى الهادي، وقد استبدتْ بادئَ الأمْرِ بالأمور كلِّها، حتى لقد شاركته في شؤونِ الدَّولة، وفي إدارتها أحياناً.

* وكان الهادي في بدايةِ الأمْر كثيرَ الطاعةِ لأمّه، شديدَ الولاء لها، مجيباً لها فيما تطلبُ من حوائجِ النَّاس، فكانت المواكبُ لا تخلو منْ بابها، وأصحابُ الحاجات يقصدون بيتها زرافاتٍ ووحداناً، وكلٌّ تُقضىٰ حوائجُه وحاجاتُه، وفي هذا الشّأن يقولُ أبو المُعافىٰ يمتدحُ الخيزُران:

يَـا خَيـزُرانَ هَنَّـاكِ ثـمَّ هنّـاكِ إنَّ العِبَـادَ يسـوسُهُـم ابْنَـاكِ[1]

* وظلَّتْ جماعاتُ النَّاسِ وأصحابُ الحاجاتِ يقصدونَها حتى انقضتْ أربعةُ أشهرٍ من خلافةِ ولدها الهادي الذي ضاقَ صدرُه، وعيْلَ صبْرُه، لما رأىٰ من طمعِ النّاس فيها، ووقوفهم على بابها صباحَ مساءَ، ولكنْ لكلِّ أجَلٍ كتاب، ولكلِ بدايةٍ نهاية.

* وذات يوم سألتِ الخيزُران ابنها الهادي أنْ يولّي خاله الغطريف اليمنَ، فوعدها الهادي بذلك، وماطَلَها، وبعد أيام كتبتْ له رقعةً تنتجزُ فيها وعده، وهنا بلغ السَّيلُ الزُّبى[2]، والأمر المنتهى، وضاقَ الهادي ذرعاً بهذهِ المطالبِ المتعدّدة، فوجّه إليها برسولها يقولُ لها: خيِّريه بين ولايةِ اليمن، وبين طلاقِ ابنته أو مقَامي عليها، ولا أوليه اليمن، فأيّهما اختارَ أفعلُه.

* ورجعَ الرسولُ إلى الخيزُرانِ، ولم يكن فَهِمَ ما قال له الهادي، فأخبرها بغيره، ثمَّ خرجَ الرّسُول إلى الهادي وقال له: تقول لك أمُّك: ولايةُ اليمن. فغضبَ، وطلَّقَ ابنته، ثمَّ ولاه اليمن.

* ودخلَ الرسولُ، فأعلمه بذلك، فارتفعَ الصيّاحُ من داره، فقال الهادي مستغرباً: ما هذا الصّياح الذي أسمع؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنّه من دارِ ابنةِ خالك الغطريف.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٤/ ٦١٤).

(٢) هذا مثل مشهور يُضرب لما جاوز الحد. انظر (مجمع الأمثال ١/ ١٣٢)، وفصل المقال للبكري (ص٤٧٢) وفيه: قد بلغ الماء الزبى.

* قال الهادي: أَوَلَمْ تَخْتَرْ هيَ ذلك؟

قالوا: لا، ولكنَّ الرسولَ لم يفهمْ ما قلتَ له، وأدّىٰ عنك غير ذلك، وقد عجِلتَ بطلاقها.

* فندمَ الهادي على ذلك نَدماً شديداً، ودعا صَالحاً صاحبَ المصلّى وقال له: أقمْ علىٰ رأس كلِّ رجلٍ بحضرتي من النُّدماء رجلاً بسيفٍ، فمن لم يُطلِّق امرأته منهم، فلتضربْ عنقه. ففعلَ ذلك، ولم يبقَ في حضرته أحدٌ إلا وقد طلَّقَ امرأته[1].

* لم تتعلمِ الخيزُرانُ من هذا الدّرس القاسي الذي حدثَ مع ابنها الهادي، وإنّما ضمنتْ حاجة لرجل ووعدته بقضائِها وإنجازها. فقد كانت تستبدُّ بالأمور دونَ ابنها الهادي، وتسلكُ به مسلكَ زوجها المهدي الذي لم يكنْ يردُّ لها طلباً.

أَمَا لَكِ مغْزَل يشْغَلُكِ؟

* ذكر ابنُ الأثير ـ رحمه الله ـ في «الكامل»: أنَّ الخيزُران قد كلّمتْ يوماً ابنَها الهادي في أمْرٍ لم يجدْ إلى إجابتها سبيلاً، فاحتجَّ عليها بحجّةٍ، فقالت له: لا بدّ من إجابتي إليه؛ قال: لا أفعل.

فقالت الخيزُران: فإنّني قد ضمنتُ هذه الحاجة لعبد الله بنِ مالك، ووعدَتُهُ بقضائها.

* هنالك غضبَ الهادي غضَباً شديداً، وقال: ويلٌ لابنِ مالك، قد علمتُ أنَّه صاحبها، واللهِ لا قضيتُها لكِ.

فقالت الخيزُران وقد استبدَّ بها الغضبُ هي الأخرى: إذاً واللهِ لا أسألك حاجةً أبداً.

---

(١) عن تاريخ الطبري (٤/٦١٣)، وأعلام النساء (١/٣٦٩) مع الجمع والتصرف اليسير.

* وهنا عثرَ الهادي على ضالّتهِ التي ينشدُها منذ زمنٍ فقال: لا أبالي إذاً واللهِ يا أمّاه.

* واستولىٰ الغضبُ على الخيزُران، فقامت وهي مغضبةٌ، فقال لها في حزم: مكانَك فاسمعي كلامي واستوعبيه: واللهِ ـ وإلا أنا نفيٌ من قرابتي منْ رسولِ الله ﷺ ـ لئن بلغني أنّه وقفَ ببابك أحدٌ من قوّادي، وخاصّتي، لأضربنَّ عنقه، ولأقبضنَّ ماله، فَمَنْ شاءَ ذلك فليلزمْ ما أقول.

ثمَّ قال لها: ما هذه المواكبُ التي تغدو وتروحُ إلى بابِكِ في كلِّ يوم؟! أَمَا لكِ مغزلٌ يشغلك؟ أو مصحفٌ يذكّرك؟! أو بيتٌ يصونَك؟! إياك! وإياك، ثمّ إياك! لا تفتحي بابَك لمسلم ولا ذِمّي.

فانصرفتِ الخيزُران وهي لا تعقلُ، فلم تنطقْ عنده بعدها بشيءٍ، ولم يُسمعْ أنّها تدخلتْ في أمْرٍ، بل لم تنطقْ عنده بحلوةٍ ولا مرّةٍ بعدها[1].

* ثم إنَّ الهادي جمعَ أصحابه وقواده وأمراءَه وخاصّته وقال لهم: أيّما خير، أنا أمْ أنتم؟

قالوا: بل أنتَ يا أمير المؤمنين خيرنا!

قال: فأيّما خيرٌ، أمّي أمْ أمّهاتكم؟

قالوا: بل أمُّك خيرٌ يا أمير المؤمنين!

قال: فأيّكم يحبُّ أنْ يتحدَّثَ الرِّجالُ بخبر أُمّه، فيُقال: فعلت أمّ فُلان، وصنعتْ أمُّ فُلان، وقالت أمُّ فُلان كذا وكذا؟!!!

قالوا: لا نحبُّ ذلك، ولا أحدٌ منّا يوافقُ على ذلك.

قال: فما بالكم تأتون أمّي فتتحدثون بحديثها؟!

فلمّا سمعوا ذلك انقطعوا عنها البتة، فشقَّ ذلك عليها، فاعتزلته، وحلفتْ ألا تكلّمه، فما دخلتْ عليه حتى حضرته الوفاة[2].

---

(١) انظر تاريخ الطبري (٤/ ٦٠٤) بتصرف يسير.

(٢) انظر: الكامل (٦/ ١٠٠) بشيء من التصرف؛ وانظر: تاريخ الطبري (٤/ ٦٠٥)، =

* وتحكي بعضُ الرّوايات: أنَّ موسىٰ الهادي أحبَّ أنْ يتخلّصَ من أمِّه الخيزُران، فبعثَ لها بأرزٍ قيل إنّه مسمومٌ وقال: قد استطبتُها، فكُلي منها. فأوجسَ بعضُ مَنْ حولها خيفةً وقال لها: أمْسِكي حتى تنظري؛ فجاؤوا بكلبٍ فأطعموه، فسقطَ لحمه لتوّه؛ فأرسلَ إليها: كيف رأيتِ الأرز؟

قالت: وجدتُه طيّباً.

قال: ما أكلتِ منها، ولو أكلتِ منها لاسترحتُ منك، متَى أفلح خليفةٌ له أمّ؟[1].

الخَيْـزُرَانُ وَمَـوْتُ ابْنِهَـا الهَـادِي:

* علىٰ الرّغمِ ممّا حدثَ بين الهادي وأمّه الخيزُران من أحداثٍ، واختلافٍ في وجهات النَّظر، ظلَّ الهادي بارّاً بها، يتنسّمُ أخبارها، ويتفقّدُ أحوالَها. فبعد أنْ حسمَ أموره، عادت حياته السّياسية إلى الهدوءِ، إذْ كان ينظرُ في أمورِ النّاس بنفسه.

* أوردَ ابنُ الأثير في «كامله» هذا الأمر فقال: خرجَ الهادي يوماً إلى عيادةِ أمّه، وكانت مريضةً، فقال له عمر بنُ الربيع: يا أمير المؤمنين! ألا أدلّك علىٰ ما هو أنفعُ لكَ من هذا؟!

قال الهادي: بلىٰ، فما هو يا عمر؟

فقال: تنظرُ في المظالمِ وأمورِ النّاس، فإنّك لم تنظرْ فيها منذ ثلاث.

قال الهادي له: أحسنتَ واللهِ يابن الرّبيع.

* ثم إنَّ الهادي رجعَ إلى دارِ المظالم، وأذنَ للنّاس، ونظرَ في شؤونهم، وقضىٰ حوائجهم؛ ثمّ إنَّه أرسل رسولاً إلى أمِّه الخيزُران يتعرفُ أخبارَها، ويسألُ عن مرضها وما يصلحُها، ويعتذرُ إليها من تخلُّفِهِ[2].

= ومروج الذهب (٤/ ١٨٦)، والبصائر والذخائر (٦/ ٤٨ و٤٩).

(١) انظر: تاريخ الطبري (٤/ ٦٠٥) بتصرف يسير جداً، ويبدو لي أن هذه الرواية غير معقولة فكأنّها مصنوعة.

(٢) عن الكامل لابن الأثير (٦/ ١٠٢)، وتاريخ الطبري (٤/ ٦١٠) مع الجمع=

* ولكنَّ الهادي لم تَطُلْ حياتُه ولا خلافته، ومرضَ مرضاً شديداً، فقالت خالصة[1] جارية الخيزُران لها: قومي إلىٰ ابنك أيّتها الحرّة، فليسَ هذا وقتُ تعتُّب ولا تغضب.

* ويبدو أنَّ الخيزرَان قد لانَ قلبُها، وامتثلتْ لقولِ خالصة فقامتْ وزارتْ ابنها الهادي، ثمَّ إنَّ الهادي ماتَ سنة (١٧٠ هـ)، فلما ماتَ قالتِ الخيزُران: قد كنّا نتحدثُ أنَّه يموتُ في هذه الليلة خليفة، ويملُك خليفة، ويُولد خليفة، فماتَ الهادي، ووليّ الرّشيد، وولدَ المأمون. وكانتِ الخيزُران قد أخذتِ العِلْمَ عن الأوزاعي، وكان يُقال: إنَّها سمعتْ ذلك من الأوزاعي قبل ذلك بمدّة، وقد سرَّها ذلك جدّاً.

* ويُقال: إنّ الخيزران سمَّتْ ولدَها الهادي خوفاً منه على ابنها الرّشيد، ولأنَّه كان قد أبعدها وأقْصَاها[2].

* وقيل: لما ماتَ الهادي جاء يحيىٰ بنُ خالد البرمكي إلى الرَّشيد، وهو نائمٌ في فراشِهِ، فقال له: قُمْ يا أمير المؤمنين. فقال: كم تروعني إعجاباً منك بخلافتي، فكيف يكونُ حالي مع الهادي إنْ بلغَه هذا؟!

* فأعلمه بموتِهِ، وأعطاهُ خاتمه؛ فبينما هو يكلّمه إذ أتاه رسولٌ آخر يبشّره بمولود، فسمّاه عبد الله وهو المأمون، ولبس ثيابه وخرجَ، فصلّى

= والتصرف اليسير.

(١) «خالصة»: جاريةُ الخيزرانِ، وكان لها صِلَةٌ بالمنصور والمهدي والهادي. ولخالصةَ آثارٌ عظيمة في المدينتين الكريمتين: مكة والمدينة، وفي الطريقِ إليهما؛ فكانت أوّل مَنْ أحدثَ سقايات في المسجد النبوي كما ذكر السّمهودي (وفاء الوفا ١/ ٦٨٧)؛ وقد ملكتْ دُوراً مجاورةً له (وفاء الوفا ١/ ٦٢٧).
ولخالصة سقايةٌ بين عرفة ومزدلفة، وقد نثلتْ بئراً كانت في الجاهليةِ تقعُ على المسيل الذي يفرغ بين مأزمي عرفة ونمرة، ويفيضُ على مسجد إبراهيم في شعب السّقيا على يمين المقبل من عرفة إلى مزدلفة (تاريخ مكة للأزرقي ٢/ ٢٢٩)، وكان لها دار مجاورة للمولد النبوي بمكة (تاريخ مكة ٢/ ١٨٨).

(٢) عن الكامل (٦/ ٩٩)، والبداية والنهاية (١٠/ ١٥٨ و١٥٩) مع الجمع بينهما.

علىٰ الهادي بعيساباذ من الجانبِ الشّرقي من بغداد[1].

* هذا؛ وقد وليَ هارون الرّشيد الخلافَة، واستوزَ يحيى بن خالد وقال له: قد قلدتك أمْرَ الرَّعية، وخلعتْ ذلك من عنقي، وجعلته في عنقك، فَولِّ مَنْ رأيتَ، واعزلْ مَنْ رأيتَ، واستعملْ مَنْ رأيتَ.

* وفي ذلك قال إبراهيمُ الموصلي[2] مادحاً ومنوّهاً إلىٰ ذلك:

أَلَمْ تَرَ أنَّ الشَّمسَ كانتْ سقيمةً ... فلمّا ولي هارون أشرقَ نُورُها
بيُمنِ أمينِ اللهِ هارونَ ذي النّدى ... فهارونُ واليها ويحيىٰ وزيرها[3]

* ثمَّ إنَّ هارونَ الرشيد، أمرَ وزيره يحيىٰ بن خالد ألا يقطع أمراً إلا بمشاورة والدته الخيزُران، فكانت هي المشاورةُ في الأمور كلّها، فتبرمُ في حزم، وتحلُّ في لينِ، وتمضي في حكمة، وتحكم في أناة وروية، وكان الوزير يحيىٰ يصدر عن رأيها في كلّ ما تقوم به، ولا يحيدُ قيْدَ أنملة، عَمَلاً بأمْر ولدها الرشيد، وحرصاً على كسبِ رضاها، وحفظاً لمكانتها[4]، وكانت تحبُّ عملَ المعروف، وقضاءَ الحوائج، وعمَل المبرّات[5].

---

(١) الكامل (٦/ ١٠٧)، والبداية والنهاية (١٠/ ١٦٠)، و«عيساباذ»: ضاحية من ضواحي بغداد.

(٢) انظر ترجمته في وفيات الأعيان (١/ ٤٢ و٤٣).

(٣) مروج الذهب (٣/ ٣٢٧).

(٤) عن البداية والنهاية (١٠/ ١٦٠ و١٦١) بشيءٍ من التصرف، هذا وكان النّاس على اختلافِ طبقاتهم وألوانهم وأعمالهم يعرفون مقدار توقير الرّشيد لأمّه الخيزران. فقد روي أنّه قد رأى في بعض رحلاته رجلاً يحمل حزمة من أعواد الخيزران، فسأل أحد مرافقيه: ماذا يحمل هذا الرجل؟ فأجابَ على الفور: إنّه يحمل أعواد الرّماح يا أمير المؤمنين. فسُرَّ الرّشيد من جوابه وسرعة بديهته، إذ تفادى أنْ يذكر اسم والدته في هذا الموقف.

(٥) كانت الخيزران تكثرُ من عملِ الخيرات، وعملِ المعروف مع الناس، ولها أعمالٌ ميمونة في هذا المجال ـ كما سيمرُّ معنا إن شاء الله ـ، وكانت سخيةً كريمةً، وكأني بالشّاعر قد عناها وأمثالها من الأجواد الأسخياء بقوله:

لهُ في ذوي المعروفِ نُعْمى كأنَّها ... مواقعُ ماءِ المزنِ في البلدِ القَفْرِ=

أَدَبُ الخَـيْزُرَانِ وظَرْفُهَـا :

* كانتِ الخيزُرانُ ابنة عطاء ـ بالإضافةِ إلى نفوذها السّياسي، وإلى مكانتها في خلافةِ زوجها المهدي، وولديها الهادي والرشيد ـ ذاتَ أدبٍ وعلْمٍ وظرفٍ وفكاهة.

* فقد تلقتِ العلْمَ والفقهَ عن الإمامِ عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعيّ العالم الفاضل المشهور المتوفىٰ سنة (١٥٧ هـ)، والذي سادَ أهل زمانه في الفقْهِ والحديثِ والمغازي، وغير ذلك من علوم الإسلام، بالإضافةِ إلى فصاحتهِ وحلاوةِ عبارته وأدبه ومعارفه المتنوّعة.

* ومما يدلُّ على أدبِ الخيزُران أنَّ زوجَها المهدي عزمَ مرّةً على شرب دواء فبعثتْ إليه جام بللورٍ فيه شرابٌ قد اختارته له، وأرسلتْ كذلك جاريةً بكْراً، بارعةَ الجمالِ، ثم كتبتْ إلىٰ المهدي تقول:

إذا خَـرجَ الإمـامُ مـنَ الـدَّواءِ ... وأَعْقَـب بـالسَّـلامـةِ والشّفـاءِ
وأَصْلَـح حـالَـه مـنْ بعـد شُـربٍ ... بهـذا الجـام مـنْ هـذا الطِّـلاء
فينعـمُ للتـي قَـدْ أنْفَـذَتْـهُ ... إليـه بـزَوْرَةٍ بعـد العشَـاءِ

* فسُرَّ المهديُ بذلك، ووقعتِ الجاريةُ منه أعظمَ موقعٍ، وزارَ الخيزران، وأقامَ عندها يومين.

* ومما يشيرُ إلى بلاغتِها وفصاحتِها وفطنتِها أنَّ زوجَها المهدي شَكا لها يوماً ابنها موسى الهادي فقال: إنَّ ابنك يتيهُ أنْ يسألني حوائجه.

قالت: يا أمير المؤمنين! ألم تكنْ أنتَ في حياةِ أبيك المنصور لا تَبْتَديهِ بحوائجك وتحبُّ أنْ يبتدئك هو؟!

قال: بلى.

قالت: كذلك موسىٰ الهادي ابنك يحبُّ منك ذلك.

= إذا مـا أتـاهُ السَّـائلـون تـوقَّـدتْ ... عليـه مصـابيـحُ الطَّـلاقـةِ والبشْـرِ

قال المهدي: لا ولكنَّ التَّيه يمنعه أنْ يسألَ حوائجه.

فقالتِ الخيزرانُ: يا أمير المؤمنين! فمن أي ناحية أتاه التّيه، أَمِنْ قبلي أمْ من قبلك؟!

مِنْ أَخْبارِهَا مَعَ أَبي دُلاَمَةَ:

* كان الشَّاعِرُ الفَكِهُ «أبو دلامة» واسمهُ: زند بنُ الجون أحد الشُّعراء الظُّرفاءِ، وأحدَ ظرفاء الشّعراء، وكان أصلُه منَ الكوفةِ، وأقامَ ببغداد، وحظيَ عند المنصور ثمَّ المهدي، ومن ثمَّ الخيزران.

* فقد كان أبو دلامة خفيفَ الظِّل، له بعضُ المواقفِ اللطيفة مع الخيزُران ومع المهدي. من ذلك ما رُوي أنَّه دخلَ على المهدي فقال: يا أمير المؤمنين، ماتتْ أمُّ دلامة، وبقيتْ ليس أحد يعاطيني.

فقال المهدي: أعطوه ألفَ درهم يشتري بها أَمَةً تعاطيه.

وفي رواية: أنَّ أبا دلامة دسَّ أمّ دلامةَ علىٰ الخيزُران لتخبرها بوفاته، ودخلَ هو علىٰ المهدي يبكي، فقال له المهدي: مالك؟

قال: ماتتْ أمّ دلامة، ثم طفقَ ينشدُ ويقول:

وكُنّا كَزوجٍ مِنْ قَطَا في مَفَازةٍ
لَدىٰ خَفْضِ عَيْشٍ نَاعمٍ مؤنقٍ رَغْدِ
فأَفْردَني ريبُ الزَّمانِ بصِرْفهِ
ولم أرَ شيئاً قَطّ أوحش مِنْ فردِ

* فأمرَ له المهدي بثيابٍ وطيبٍ ودنانير، فأخذها وخرج؛ ودخلت أمُّ دلامة علىٰ الخيزُران، وأعلمتها أنَّ أبا دلامة قد مات، فأعطتْها مثل ذلك، وخرجتْ.

* ودخل المهدي على الخيزُران وهو حزينٌ، فقالت له: ما بال أمير المؤمنين مهموماً.

قال: ماتتْ أمّ دلامة.

فقالت الخيزُران: إن أمَّ دلامة قالت لي آنفاً: ماتَ أبو دلامة.

فقال المهدي: قاتلَ اللهُ أبا دلامة وأمَّ دلامة، قد خدعَانا واللهِ. وضحكَ المهدي والخيزُران من فعلتهما، وعجبًا من حيلتهما[1].

* ومنَ الأخبار الطَّريفة الظَّريفة التي حدثتْ للخيزُران مع أبي دلامة، ما ذكره أبو الفرج الأصبهاني في كتابه «الأغَاني» قال: حجَّتِ الخيزُران، فلمّا خرجتْ واستقبلتْ طريقَ الحجّ، صاحَ بها أبو دلامة.

فقالت: سَلُوه ما أمْرُه؟

فقالوا له: ما أمْرُك؟

فقال: أدنوني من محملها.

قالت: أدْنُوه، فأُدْني.

فقال: أيتها السَّيّدة، إنّي شيخٌ كبيرٌ، وأجْرُك فيَّ عظيمٌ، وجزيلٌ.

قالت: فَمَهْ ـ أي: ما تريد ـ؟!

قال: تهبَين لي جاريةً منْ جواريك تؤنسني، وترفقُ بي، وتريحني من عجوزٍ عندي، قد أكلتْ رِفْدي، وأطالت كدّي، وقد عافَ جلدي جلدها، وتمنيتُ بُعْدها، وتشوّقْتُ فَقْدها.

فضحكتِ الخيزُران وقالت: سوف آمرُ لك بما سألتَ ـ إن شاء الله ـ.

* وحجّتِ الخيزُران، فلما رجعتْ تلقّاها وذكّرها، وخرجَ معها إلى بغدادَ، فأقام مدّة، ثم دخلَ على أمِّ عُبيدة حاضنة موسىٰ الهادي وهارون الرّشيد، فدفع إليها رقعةً قد كتبها إلى الخيزُران، فيها هذه القصيدة اللطيفة:

أبْلغــي سيّــدتــي بـــا ... للهِ يـــا أمّ عُبيــــده
أنّهـــا أرشـــدَهـــا اللـ ... ــه وإنْ كـــانــتْ رشيــده
وعـــدتْنـــي قَبْـــل أنْ تخـ ... ـــرجَ للحـــجّ وليـــده

(1) الأغاني (١٠/ ٣٠٥) بتصرف؛ وانظر: وفيات الأعيان (٢/ ٣٢٦).

فتـــــــأنيـــــــتُ وأرسلـ ـــــتُ بعشـــريـــن قصيـــده
كلّمـــــا أخلقـــــنَ أخلفـ ـــتُ لهـــا أخـــرىٰ جـــديـــده
ليـــس فـــي بيتـــي لتمهيـ ــــد فـــراشٍ مـــنْ قعيـــده
غيـــــر عجفـــــاءَ عجـــوز ســاقُهـــا مثـــلُ القـــديـــده
وجهُهـــا أقبـــحُ مـــن حُـــو تٍ طـــريّ فـــي عصيـــده
مـــا حيـــاةٌ مـــعَ أنثـــىٰ مثـــل عِـــرْس بسعيـــده

* فلما قُرِئت عليها الأبيات، ضحكتْ واستعادتها منه لقوله: حُوت طري في عصيدة. وجعلت تضحكُ، ثمَّ دعت بجارية لها من جواريها فائِقة وقالت لها: خُذي كلّ مالك في قصري، ففعلت، ثم دعت بأحد الخدم وقالت له: سلِّمها إلى أبي دلامة، وقل له أن يحسن صحبتها[1].

مِنْ أَخْبـارِ إحْسَانِهَـا ومُروءَتِهَـا:

* منَ الأخبارِ العطرةِ الكريمةِ التي تُضاف إلىٰ ضيفتِنا الخيزُران بنت عطاء، ما وردَ عن مروءتها وأريحيتها وإكرامها لمن ذلّ، وإقالتها لمن عثَر، كما تُبيّن ما كان من منزلةٍ سامقةٍ باسقةٍ عند زوجها المهدي، واستجابته لمطالِبها ورجائِها، وهذه الرّواية ـ التي سنعرفها ـ تعطينا صورة لحياة النِّساء في قَصْر المهدي، وفي قصورِ الخلفاء، فقد روتِ المصادرُ الوثيقةُ خبراً رفعُها إلى سُدّة الفَضْلِ، ويضعُها في ذِرْوَة المكارم.

* تقولُ المصادر[2]: دخلتْ مُرَيَّةُ[3] امرأة مروان بن محمد الأموية على الخيزُران بنتِ عطاء في دارها المعروفة بدارِ الخيزُران، وعندها أمّهات أولادِ الخُلفاء، وغيرهنّ من بناتِ هاشم، وهيَ على بساطٍ أرمني، وهنّ على

---

(١) الأغاني (١٠/ ٣١٠)، وشرح مقامات الحريري للشريشي (٢/ ١٧٧ و١٧٨).

(٢) انظر مثلاً: مروج الذهب (٣/ ٣٢٣ و٣٢٤)، وكتاب المكافأة لأحمد بن يوسف الكاتب (ص٩٥ و٩٦)، وانظر: تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، وثمرات الأوراق لابن حجة الحموي على هامش المستطرف، مع الجمع والتصرف بينها.

(٣) «مُرّية»: يقال: اسمها «مزينة»، أو «مزنة».

نمارقَ أرمنيّةٍ، وزينب بنتُ علي الهاشميّة أعلاهُنَّ مرتبةً.

* فبينما هي على تلك الحال، إذ دخلَ خادمٌ لها فقال: بالبابِ امرأةٌ ذات حُسْنٍ وجمال، في أثوابٍ رثّة، تأبىٰ أنْ تخبرَ باسمها، وشأنُها غيركُنَّ، وترومُ الدُّخول عليكن.

* وكان المهديُ قد تقدَّمَ إلى زوجهِ الخيزُران بأنْ تلزمَ زينبَ بنت سليمان الهاشميّة وقال لها: اقتبسي من آدابها، وخذي من أخلاقِها، فإنّها عجوزٌ قد أدركتْ أوائلنا.

* فقالت الخيزُران للخادم: ائذن لها؛ فدخلتِ امرأةٌ ذات بهاءٍ وجمال في أثوابٍ رثّة. فتكلّمتْ فأوضحتْ من فصاحةٍ وبيان، فقلن لها: مَن أنتِ؟

قالت: أنا مُرّيةُ امرأةُ مروان بن محمد، وقد أصابنَي الدَّهرُ إلى ما ترينَنِي، ووالله ما الأثوابُ الرّثة التي عليَّ إلا عارية، وإنّكم لما غلبتمونا علىٰ هذا الأمْرِ، وصار لكم دوننا، لم نأمنْ مخالطةَ العامّة على ما نحنُ فيه منَ الضَّررِ على بادرة إلينا، تزيلُ موضعَ الشّرف، فقصدناكم لنكونَ في حجابِكم على أيةِ حالةٍ كانت تأتي دعوة مَنْ له الدّعوة.

* فاغرورقتْ عينا الخيزُران، وخافتْ زينبُ بنتُ سُليمان بن علي الهاشميّة أن تأخذَ الخيزُران رقّةً ورأفةً بالمرأة، فقطعتْ على مرّيةِ الكلام وقالت: يا أمّ أميرِ المؤمنين، اتقي اللهَ أنْ يدخلك رقّة لهذهِ الملعونة. ثمّ التفتت إلىٰ مرية وقالت لها: لا خفّفَ اللهُ عنك يا مريّة، أتذكرينَ يوم دخلتُ عليكِ في حَرَّانَ[1] وأنتِ على هذا البِساط بعينهِ، وأنا أسألُك وأتضرّعُ إليك في استيهابِ جثّة إبراهيم الإمام من مروانَ، فانتهرتيْني، ثمّ أمرَتِ بإخراجي من دارِك بغَلظةٍ، فلجأتُ إلىٰ مروانَ فوجدتُه أكثرَ رحمةً منك، وأرعىٰ للحقِّ، وخيّرني بين أنْ يدفُنَه، أو يسلمني جثّته، فاخترتُ تَسليمه إليَّ، وأمرَ لي بجهازٍ فقبلتُه منه.

---

(١) «حرّان»: بلدة على طريق الموصل والشّام، كانت مقرّ مروان بن محمّد آخر خلفاء بني أمية.

* فالتفتتْ مريةُ إلى زينبَ ابنةِ سليمان وقالت لها: كأنّك يا بنت سليمان حَمِدتِ لي عاقبةَ أمري في قطيعةِ رحمي، فأردتِ أنْ تزيّني قطيعةَ الرّحم لأمّ أميرِ المؤمنين. ثمّ إنّها التفتتْ إلى الخيزُران وقالت لها: يا أمّ أمير المؤمنين، لقد صدقتْ زينبُ فيما ذكرت عنّي، وذلك الفِعْلُ منّي أحلّني هذا المحلّ، والسّعيد مَنِ اتَّعظَ بغيره، ثمّ ولت باكيةً.

* وعندئذ تساقطتِ الرحمةُ على قلبِ الخيزُران، وغشيتها الرّأفة، ولم ترضَ عمّا دار بين مريّةَ وزينبَ بنتِ سليمان، فغمزَتْ بعضَ جواريها، فعدلت بمريّة إلى بعضِ المقاصير، وأمرتْ بتغييرِ حالها، والإحسانِ إليها، فلمّا دخلَ المهدي عليها، وقد انصرفت زينبُ بنت سُليمان الهاشميّة، وكان من شأنِهِ الاجتماع مع خواص حرمه في كلّ عشيّة، قصَّتِ الخيزُرانُ عليه قصّتها، وما أمرت به من تغييّر حالها، فدعا بالجاريةِ التي ردّتها، فقال لها: لما رَدَدْتِها إلىٰ المقصورة ما الذي سمعتيها تقول؟!

قالت الجارية: لحقتُها وهي تبكي في خروجها مؤتسية وهي تقرأُ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النّحل: ١١٢].

* ثمَّ إنَّ المهدي قال للخيزُران وهو مسرورٌ بصنيعها الذي يدلُّ علىٰ السَّماحةِ والمروءةِ والنّدىٰ والنَّجدة والشّهامة:

والله، والله، لو لم تفعلي بها ما فعلتِ، ما كلمتُك أبداً.

* وبعد إذ بكىٰ المهديُّ بكاءً شديداً، وتوجَّه إلى السَّماء ورفعَ يديه، ودعا ربّه فقال: اللهم إنّي أعوذُ بكَ من زوالِ النّعمة.

* وأنكرَ المهديُّ ما فعلته زينب بنت سليمان الهاشميّة، وقال: لولا أنّها أكبرُ نسائنا لحلفتُ ألا أكلّمها أبداً.

* ثم بعثَ المهديُّ إلى مرّية ـ في غرفتها التي خُصِّصتْ لها ـ بعضَ الجواري، وقال للجارية: اقرئي عليها السَّلام، وقولي لها: يا بنتَ عم! إنَّ

أخواتِك قد اجتمعنَ عندي، ولولا أنّي ابنُ عمّك لجئناك.

* فلمّا سمعتْ مريةُ رسالةَ المهدي، علمتْ مراده، وقد حضرتْ زينبُ بنتُ سليمان بن عليّ، ثم تفاوضوا أخبارَ أسلافهم وأيّام النَّاس، والدَّولة وتنقّلها، فما تركتْ مريةُ لأحدٍ في المجلسِ كلاماً.

فقال لها المهدي: يا بنت عمّ، واللهِ لولا أنّي لا أحبُّ أن أجعلَ لقوم أنتِ منهم في أمرنا شيئاً لتزوجْتُك، ولكنْ لا شيء أصون لك من حجابي، وكونك مع أخواتك في قصري لكِ مالهنَّ، وعليكِ ما عليهنِ، إلى أنْ يأتيك أَمْرُ مَنْ له الأمر، فيما حَكَمَ به على الخَلْقِ.

* ثمَّ إنَّ المهديَ أقطعها مثلَ ما لهنّ من الأَقْطاع، وأخدمَها وأجازَ لها. فأقامتْ في قصره حتى أيّام الرشيدِ، وتوفيتْ في خلافتهِ، لا يفرّقُ بينها وبين نساءِ بني هاشم، فلما ماتتْ جزعَ عليها الرّشيد والخدمُ جزعاً شديداً.

* وبهذا التّصرّف الكريم الوضيء أبانتِ الخيزُران عن طيبِ عنصرها، وكرمِ أخلاقها، وكمالِ مروءتها[١].

الخَيْـزُرَانُ ونَـائِبُ البَصْـرَةِ:

* كان محمَّد بنُ سُليمان بن علي من رجالات قريش وشجعانهم، وقد جمعَ له المنصور بين البَصْرة والكوفة، وزوّجه المهدي ابنته العبّاسة، وكان له من الأموال شيءٌ كثير، كان دَخْلُهُ في كلّ يوم مئة ألف، وكان له خاتمٌ من ياقوت أحمرَ لم يُرَ مثله، وقد وفدَ على هارون الرّشيد، فهناه بالخلافة، فأكرمه وعظّمه، وزاده في عَملِهِ شيئاً كثيراً.

* وكان محمّد بنُ سُليمان هذا يعرف مكانة الخيزُران في نفسِ الرشيد، وكان يدركُ مكانتَها في جسْمِ الدّولة العباسية، لذلك كان يتْحِفُها بالهدايا.

---

(١) انظر: المستجاد من فعلات الأجواد للتّنوخي (ص٢١ ـ ٢٥) بتصرف. أقول: إنَّ هذه الرِّواية تصوّر عطفَ الخيزُران على أعدائِها، وتصفُ كرم أخلاقها ونبلَ عواطفها، كما تثْبتُ ما كان عليه المهدي من تسامح وشعور إنساني، فقد أبدى عطفاً وحدباً على هذه المرأة التي تنتسبُ إلى أعدائه من بني أمية!

* ومن طريفِ ما أورده الحافظُ ابنُ كثير في «البداية والنّهاية» أنَّ محمَّد بنَ سُليمان قد أهدىٰ الخيزُران مئة وصيفة مع كلّ واحدة جام من فضّة مملوءاً مسكاً.

* فكتبتْ إليه الخيزُران: إنْ كان ما بعثته ثمناً عن ظنِّنا فيك، فظنُّنا فيك أكثرَ مما بعثتَ، وقد بخستنا في الثَّمن، وإنْ كنتَ تريدُ زيادةَ المودّة، فقد اتّهمتني في المودّة. وردّتْ ذلك عليه[1].

مِنْ آثَارِهَا في مَكَّـةَ وَالمدِيْنَـةِ:

* عشنا مع الخيزُران في نَوَاحٍ متعدّدة، وقد لمسنا أدبَها وظرفَها، وإحسانَها ومروءتها، وجدّها وهزلها، وما شابه ذلك. وسنعيشُ الآن مع جانب مهمّ من جوانبِ مكانة هذه المرأة التي عطّرت تاريخ النِّساء بأعمالِها ومبراتِها.

* فقد كانتِ الخيزُران صاحبةَ جُود وخيرات، ولها أعمالٌ كريمةٌ وضيئةٌ مباركة، ولها باعٌ رحْبَة في المبرّاتِ والمعروفِ والإصلاحِ والاستصلاح.

* ذكرَ أهلُ الأخبار أنَّ الخيزُران كانت ذات أموالٍ طائلة، وكان غلُّ ضياعها في كلِّ سنة مليوناً وستين ألفاً، ولذلك اشترتِ الدَّارَ المشهورة بها في مكة، والمعروفة بدار الخيزُران فزادتها في المسجدِ الحرام[2].

* وقد ذكرَ الفَاسي ـ رحمه الله ـ في كتابه «شِفَاء الغَرام» المواضعَ التي بمكة والتي قيل: إنَّ الدُّعاء فيها مستجابٌ فقال: يُستجابُ الدُّعاءُ في دارِ الخيزُران عند المجتبى بين العشَانين[3]؛ وهذه الدَّارُ المشهورةُ بالخيزُران

---

(١) البداية والنهاية (١٠/ ١٦٣ و١٦٤).

(٢) انظر: البداية والنهاية (١٠/ ١٦٤).

(٣) انظر: شفاء الغرام (١/ ٣٢٢)، وقال أهل الأخبار: عندما بُويع هارونُ الرشيد بالخلافة، سار إلى الحجّ، وأخذ معه أمّه الخيزُران، فتصدّقت بالحرمين، واشترت دوراً بالصَّفا، وألحقته بالحرم الشّريف، ويعرف الآن بدار الخيزران. انظر كتاب (الرّوضة الفيحاء في تواريخ النّساء ص٢٥٦).

بمكةَ عند جبلِ الصَّفا، والصَّفا هو مبدأُ السَّعي.

* وتعرَّضَ الفاسيُّ أيضاً إلى ذكْرِ الدُّور المباركةِ بمكةَ المشرفةِ فقال: ومنها دارُ الأرقم المخزوميّ[1]، وهي الدّارُ المعروفة بدارِ الخيزُران[2] عند الصَّفا، والمقصود بالزّيادة منها هو المسجد الذي فيها، وهو مشهورٌ، وذكرَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان مختبئاً فيه، وفيه أسلمَ عمرُ بنُ الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ.

* ولعلَّ هذا الموضعَ أفضلُ الأماكنِ بمكةَ بعد دارِ خديجة بنت خويلد، لكثرةِ مكْثِ النّبي ﷺ فيه يدعو النَّاس للإسلام مستخفياً، وإقامته ﷺ بهذا الموضعِ دون إقامته بدارِ خديجة، ولذلك كانت أفضلَ من هذا الموضعِ.

* وطولُ هذا المسجد ثمانيةُ أذرعٍ إلا قيراطين، وعرضُه سبعة أذرع وثلث، وفيه مكتوبٌ:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [النّور: ٣٦]؛ هذا مختبأُ رسولِ الله ﷺ دار الخيزُران، وفيه مبتدأُ الإسلام[3].

* وللخيزُران ـ رحمها الله ـ آثارٌ كريمةٌ أيضاً في المدينة المنوّرة، ما تزالُ إلى يومنا هذا، وخصوصاً في المسجد النّبوي الشّريف.

* ذكر أبو إسحاق الحربيّ ـ رحمه الله ـ المتوفىٰ في ذي الحجة سنة (٢٨٥ هـ) في كتابه «المنَاسك» هذه المفخرة المباركة للخيزُران، حيث أخرجَ بسنده عن محمّد بن إسماعيلَ قال: ولم يكنِ المسجدُ النّبوي

---

(١) اقرأ سيرة الصَّحابي الجليل الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي في كتابنا «فرسان حول الرسول ﷺ» الجزء الأول.

(٢) للخيزران آثارٌ ميمونة في مكة المكرمةِ، فقد عمّرتْ دارَ الأرقم بن أبي الأرقم ـ رضي الله عنه ـ تلك الدّار المشهورة التي كان يجتَمعُ فيها المسلمون مع الحبيب المصطفى ﷺ، وذلك في بدءِ الدَّعوة الإسلامية، وفيها أسلم عمر ـ رضي الله عنه ـ وأصبحتِ الدارُ تُعرف بدارِ الخيزران، ولا تزال الدّارُ معروفةً، وقد جُعلت إلى عهد قريب مدرسةً للحديث.

(٣) انظر: شفاء الغرام (١/ ٤٤٠) بتصرف يسير.

الشّريف ـ يُسْتَرُ زمانَ بني أميّة؛ قال: ثمّ قدمتِ الخيزُران أمّ موسى وهارون في سنةِ سبعين ومئة ـ من الهجرة ـ فأمرتْ بمسجدِ النّبي ﷺ فَخُلِّقَ[1]، وولي ذلك من تخليقه جارية يقال لها: مؤنسة، فقامَ إليها إبراهيم بنُ الفضل بن عبد الله بن سليمان، مولى هشام بن إسماعيل المخزوميّ، فقال لها: هل لكم أنْ تسبقوا مَنْ بعدكم بما لم يفعله من قبلكم؟

قالت: وما ذلك؟

قال: تخلقون القبر كلّه.

ففعلتْ، وإنّما كان يُخَلَّق منه ثُلثاه أو أقلّ، والأسطوان التي هي عَلَمٌ عند مصلى النبي ﷺ، فخلّقوهما إلى حدٍّ ما هما عليه اليوم[2].

* هذا وللخيزُران أعمالٌ أخرى كريمة في بغدادَ وغيرها، تكفَّل أهل الأخبار بإيرادها.

خَالِدَةٌ في ذَاكِرَةِ الزَّمَان:

* عاشتِ الخيزُرانُ في كنفِ ثلاثةٍ من أكابرِ خُلفاء بني العبّاس في عاصمتهم بغداد، وكان لها من الآثارِ الحسان ما يجعلها في مقدّمة فضْليات نساءِ الخُلفاء، وأمّهات الخلفاء.

* وظلّتِ الخيزُرانُ تندّي التّاريخ بعاطرِ أعمالها، إلى أنْ كانت خلافة ابنها الرّشيد، حيث أصابَها مرضٌ عُضَال لم يمهلْهَا طويلاً، وكانت أشرفتْ على الخمسين، وإذ ذاك وافاها الأجلُ ببغدادَ ليلة الجمعة لثلاثٍ بقين من جمادى الآخرة من سنة (١٧٣ هـ).

* وخرج ابنُها هارون الرّشيد في جنازتها، وعليه جبّة وطيلسان أزرق، قد شدَّ وسْطَه بحزام، وهو حاملٌ سريرها حافياً، يمشي في الطّين، حتى أتى مقابرَ قريش، فدعا بماء، فغسل رجليه، ولبس خُفّاً، وصلىٰ عليها، ونزل

---

(١) لعل معناها التقطيع والتقسيم؛ أو من الخلوق: التَّطييب.

(٢) انظر: كتاب المناسك للحربي (ص٣٧٢).

قبرها، وتصدَّق بمالٍ كثيرٍ لم يُسْبَقْ أنْ تَصَدَّقَ أحدٌ بمثله.

* ولما خرجَ الرشيدُ من قَبْرِ أُمّه الخيزُران[1] أتُي بسريرٍ فجلسَ عليه، واستدعىٰ الفضل بن الرّبيع، فولّاه الخاتم والنّفقات، وقال له: إنّي كنتُ أهمُّ أنْ أوليك فتمنعني أمّي فأطيعها[2].

* وأنْشَد الرّشيد قول متمّم بن نُويرة حين دفنَ أمّه الخيزُران:

وكُنَّا كَنَدمَانَيْ جَذِيمَةَ بُرهَةً ... مِنَ الدَّهرِ حتّى قِيْلَ لَن يتّصَدعا
فَلّما تفرّقَنا كَأَنّي ومَالكاً ... لطُولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلةً معا[3]

* وبهذا طُويت صفحةُ واحدةٍ من نساءِ وأمّهاتِ الخلفاءِ، ومن نساءِ التّاريخ الإسلامي، ولكنَّ طيبَ نَشْرِها له أريجٌ في تاريخِ المرأةِ العربيةِ على مرِّ العُصور.

* * *

(١) «قَبْرُ الخيزُران»: موضعٌ بالجانب الشّرقي من بغدادَ، وتسمى مقبرة الخيزُران، لأنّها مدفونةٌ بها، وهذه المقبرة من أقدم المقابر التي بالجانب الشرقي، وقد دُفِنَ في هذه المقبرة عدد كبيرٌ من ساداتِ العلَماء في مختلفِ العصور، أذكرُ منهم: محمّد بن إسحاق بن يسار صاحب السّير والمغازي، وغيره من أهل العلم والفضل.

(٢) تاريخ الطبري (٤/ ٦٢٣) بتصرف يسير.

(٣) هذان البيتان لمتمّم بن نُويرة اليربوعي، وهما من قصيدة مشهورة جداً مطلعها:

لَعَمْري وما دهري بتأبينِ هالِكٍ ... ولا جزع ممّا أصابَ فأوْجَعَا

وهي قصيدةٌ طويلةٌ بلغت (٥١ بيتاً) وآخر بيت فيها قوله:

فلا يَهْنِىءِ الواشينَ مَقْتَلُ مالكٍ ... فقد آبَ شَانيْهِ إياباً فودّعا

وناظمُ القصيدة هو متمم بنُ نويرة بن جمرة اليربوعي، وهو صحابي، وله في أخيه مالك قصائد يرثيه فيها، وهي من غُرر الشّعر، ومما رثىٰ به أخاه مالكاً قوله:

أَرقتُ ونامَ الأَخْلياءُ وهاجَني ... معَ الليلِ همٌّ في الفؤادِ وجيعُ
وهيَّج لي حزناً تذكُّر مالكٍ ... فمَا نمتُ إلا والفؤادُ مروعُ

هذا؛ وقد تمثلَ بأبيات متمم الأولى عددٌ من العظماء في مواقف متعددة. وللمزيد من أخار متّمم راجع المفضليات (ص٤٨ ـ ٥٤ و٦٣٢ ـ ٢٧٣).



١١

رابعة العدوية



في رحَابِ الزَّاهِديْنَ والنُّسَّاكِ:

* رابعةُ بنتُ إسماعيل العدويّة(1) امرأةٌ ملأَ صيتُها الدُّنيا، وشغلَ النَّاس في عَصْرها وما بعده، فقد نُسِجَتْ حولَها وحولَ سيرتها أقاصيصُ وأحداثٌ غريبةٌ وعجيبةٌ، ومعظمُ تلك الأقاصيص تدورُ حول كرامِاتها وتصوّفها وزهدِها وعبادتِها.

* وعندما طَفِقْتُ أطالعُ سيرةَ رابعةَ العدويّة، والعصر الذي عاشت فيه ـ وهو القرنُ الثَّاني الهجري ـ، أحببتُ أنْ أتحدَّثَ عن الزُّهدِ والزُّهادِ والنسّاكِ في ذلك العصر، كيما تتوضَّحَ معالم شخصيةِ هذه المرأة التي دوَّنَتْ بدائعَ السُّطور في صفحاتِ الزّهد، ورسمتْ حُلْوَ الصِّفات في النُّسك على سجلِّ التّاريخ النّسوي في عَصْرها.

* ويبدو أنَّ أكثرَ الزُّهَّادِ قد عاشُوا في البصرةِ وبغداد، وقد تداعىٰ النُّساك والزّهاد وبعضُ الشُّعراءِ إلىٰ الحياة البسيطةِ، وإلى الزُّهد في الدّنيا الفانية؛ وسنضربُ على ذلك مثلاً من شعْرِ أبي العتاهية الذي ينْضَحُ ديوانه بألوانِ شتّى منْ أدبِ الزُّهد، والعمل علىٰ الكفَافِ والاستعداد ليومِ المعاد، وفي دعوةٍ إلىٰ الزُّهد يقول:

رغيفُ خُبزٍ يَابِسٍ … تأكُلُه في زَاويه
وكُوزُ مَاءٍ بَاردٍ … تَشْربُه منْ صَافيه
وغُرفةٌ ضيّقةٌ … نفُسك فيها خَاليه
أو مسجدٌ بمعزلٍ … عن الورىٰ في ناحيه
تدرسُ فيه دفتراً … مُسْتَنداً بساريه

---

(1) صفةُ الصفوة (٤/ ٢٧ ـ ٣١)، ووفيات الأعيان (٢/ ٢٨٥ ـ ٢٨٨)، والبداية والنهاية (١٠/ ١٨٦)، وسير أعلام النبلاء (٨/ ٢١٥ ـ ٢١٧)، ومرآة الجنان (٢٨١ ـ ٢٨٣)، وطبقات الأولياء (ص٣٥ و٤٠٨)، ومصارع العشاق (١/ ٢٠٧ و٢٧٥)، وشرح مقامات الحريري للشريشي (٢/ ١٧٠ و١٧١)، وجامع كرامات الأولياء (٢/ ٧١)، والدر المنثور (ص٢٠٢ و٢٠٣)، والطبقات الكبرى للمناوي المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية (ص٣ ـ ٦) وغيرها كثير جداً.

* ويُعْتَقَدُ أنَّ طبيعةَ العصرِ الذي عاشت فيه رابعة العدوية، قد دفعتْ كثيراً من المسْتُورين والمستورات إلىٰ الابتعاد عن مخالطةِ النّاس نوعاً ما، وركبوا في ذلك مركباً خَشناً، فاستوحشوا منَ الدّنيا، وانقطعوا عنِ النّاس، وتجافتْ جنوبُهم عنِ المضاجعِ، وتناءت قلوبُهم عن المطامعِ.

* واختطَّ هؤلاء النُّسَّاك لأنفُسِهم طريقاً، فلبسُوا الخشنَ الشَّائك، وأكلوا اليابس، وأنِسُوا بالظُّلمة الحالكةِ، واستسهلوا الصّلبَ العسيرَ، واقتحموا الصِّعاب إلىٰ مداها.

* وكانت الزَّاهداتُ منَ النِّساء أشدَّ اندفاعاً في الزُّهد، وانقطاعاً إلىٰ العبادة، وامتناعاً عن طيِّباتِ الحياة من زهادِ الرّجال، فلا تراهُنَّ إلا صائماتٍ قائماتٍ، باكياتٍ والهاتٍ، وخليقٌ باندفاعِ المتبرّجاتِ المتبذلاتِ أنْ يقابله اندفاعُ المتنسكاتِ المتبتّلات.

* وكانت بعضُ العواصم الإسلامية كالشَّام تحفُل بالزّهاد والنُّسَّاك، ولكنَّ العراقَ ونواحيها كانت أحْفَل بلادِ الله بالخيِّراتِ الصَّالحات اللواتي نَهَجْنَ طريقَ الزُّهد عن فرط علْم، ورسوخِ عقيدة، لا عن حماقةٍ وجهالةٍ، كما تجد في كثير ممن عُرِفْنَ بالنُّسك والزُّهد والتّصوّف(١) من البلاد الأخرى.

* ويأتي في رأسِ هؤلاء النَّاسكات، ضيفةُ ترجمتنا رابعة بنت إسماعيل العدويّة البصريّة، التي كانت مضربَ المثَل في تدلُّهِ القَلْب، واحتراقِ الكَبد حُبّاً لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وإيثاراً لمرضاتِه، وسنعيشُ في الصَّفحات التّالية مع

---

(١) نشأ في نهاية القرن الهجري الأوّل، وبدايةِ القرن الثاني رجال ربانيون أتقياء، عزفت نفوسهم عن زخرف الدنيا، فانصرفوا إلى العبادة والزهد لمزاج خاص بهم، أو حيلة دفعتهم فتماشوا معها، أو لسبب من الأسباب التي تعرض للبشر من إحقاقٍ في طلبِ مجدٍ أو مال أو ما شابَه ذلك.
ومنهم مَنْ فُتِنَ به النّاس فاتبعوه لما رأوا من جميل تمسّكه، وحُسْن سمته، وبعده عن سفساف أمور هذا العالم، وكان هذا الرعيل من أوائل المتصوفة في الإسلام.

صُوَرٍ مِنْ زهدِها وعبادتها، ونَفَثَاتِها في ألوانِ المعارفِ، فقد حفظَ لها التّاريخُ تلكم الشُّهرة الطّويلة العريضة التي ملأتِ الأسْمَاعَ، وأطربتْ أصحابَ الطّرق الصّوفية، فلعلّها من أوائل المتصوفين والمتصوّفات ممن تركوا بصماتٍ واضحةً في عالم التَّصوّف والمتصوفين.

نَشْأتُهَا وَبِدايةُ حَيَاتِهَا:

* تشيرُ المصادرُ التي حدثتنا عن رابعةَ العدويةِ أنّها وُلدَتْ ونشأَتْ في البصرةِ، ويُنْتسبُ أبوها بالولاء إلى آلِ عتيك، وآل عتيك بطنٌ من بطونِ قيس، ومن آل عتيك هؤلاء: بنو عدوة، وهي لهذا تدعىٰ رابعة العدوية؛ وقد سمّاها أبو عثمان الجاحظ: رابعة القيسيّة، ونَسَبَها إلى قَيْس.

* أمَّا كُنيةُ رابعة العدوية فهي أمُّ الخير[١]، وتكنى أيضاً أمّ عمرو[٢]، وقد وُلدتْ ونشأتْ في أسرةٍ فقيرةٍ لم تلدْ ذكوراً، وسميتْ رابعة لكونها وُلدت بعد ثلاث بنات لأبيها فهي رابعتُهم.

* ويعتقد أنَّ مولدَ رابعة كان في مطْلَع القَرنِ الهجري الثّاني، وعندما نقرأُ في بعضِ المصادر عن مولدها نجدُ أنَّ رابعةَ قد أحيطتْ بهالةٍ من الإعجابِ والتَّقدير منذ أنْ وجَدَتْ ريحَ الحياة، بل نُسِجتْ حولَ ولادتها حكاياتٌ جعلتْ حياتَها مقرونةً بالمكرماتِ والخوارق من ساعةِ ولادتها، فقد ذكَر فريد الدِّين العطَّار ـ وهو شاعرٌ من شعراء الفُرس المتصوفين ـ في كتابهِ «تذكرة الأولياء» أنَّ رابعةَ قد وُلدت في بيتٍ فقيرٍ، لم يكنْ فيه ما يسدُّ الرَّمْقَ، بل لم يكنْ فيه نُقْطَة من السَّمْن، ولا قطعة قماشٍ لتُلَفَّ بها رابعة، وقد انتحبتْ أمُّها ساعةَ ولادتها طويلاً، وألَحَّتْ على الأَب كي يخرجَ طلباً للمساعدة، فرضخَ للأمْرِ الواقع، وراحَ يدقُّ أبوابَ جيرانه، لكنّهم لم يفتحوا له، فعاد إلى بيته مهموماً باكياً، وانكبَّ على الصَّلاة يُفَرِّج بها كربه وما نزلَ به من همّ وغمّ، وظلَّ في صلاته حتى أخذه النُّعاس، فنام.

---

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٢٨٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٤١).

* وفي تلك اللحظات من إغفاءته رأىٰ في منامه النَّبيَّ الكريمَ ﷺ يقول له: لا تحزنْ يا هذا، إنَّ وليدتَك سيّدةٌ جليلةُ القَدْرِ، وإنَّ سبعينَ ألفاً من أمّتي ليرجونَ شفاعتها!!

* ثمَّ أمره أنْ يذهبَ في الصَّباحِ إلى عيسىٰ زاذان أميرِ البصرة لكي يخبره بزيارة النَّبي ﷺ له في المنام، ويذكر له على رقعةٍ يقدّمها إليه عن لسانه ﷺ، وفيها يقول له: إنَّك كنتِ تصلّي كلَّ ليلة مئة ركعة، وفي ليلةِ الجمعة أربعمئة، لكنّك في الجمعة الأخيرة نسيتَ، ألا فلتدفعْ إلىٰ صاحب هذه الرّقعة أربعمئة دينار كفّارة عن هذا النّسيان.

* وفي الصَّباح ذهب والدُ رابعة إلى الأمير، وأعطى أحدَ حرسِ القصر الرّقعة ليقدمها إلى الأمير، فلمّا قرأها أمر على الفورِ بإعطائه أربعمئة دينار، وطلبَ أنْ يأتوه به ليراهُ، ثم إنَّه راجعَ نفسه في الحالِ وقال: لا بل أنا أذهبُ إليه بنفسي، وأتمسَّحُ بلحيتي علىٰ أعتابه، وأسعىٰ لأحصلَ على كلِّ ما تشتهيه هذه البنت الجليلة!!.

* إنَّ روايةَ فريدِ الدِّين العطَّار هذه، والتي يعتمدُ عليها محبو الحكاياتِ والخوارق للدلالةِ على كرامة رابعة منذ ولادتها، هي تصوّراتٌ وأوهامٌ، بل صُنِعتْ في مصانِعِ الاختراعِ والتّزوير حولَ شخصيّة رابعة العدوية، ناهيك بأنّها بعيدةٌ عن الحقيقةِ، وهي متناقضةٌ مع بعضها، ولا يخفىٰ على القارىء الفَطِن ذلك.

* والحقيقةُ، أننا لا نعلم عِلْمَ اليقين عن بدايةِ نشأْةِ رابعة، إذ الأقوالُ متضاربةٌ متناقضةٌ في هذا المجالِ، ولا يمكن للباحث أنْ ينظمها في سلْكٍ واحد.

* ولعلَّ من أبرزِ تلك الأقوال ما وردَ عنها بأنّها كانت تعيشُ في بدايتها حياةً عابثةً، وأنَّها كانت فاسدةَ الخُلُقِ في شبابِها، ومُطْلِقةُ العنَان لشهواتها، ثمّ إنَّها تَابَتْ وأنابتْ إلىٰ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وعادتْ عودةً جارفةً ملكتْ أحاسيسها، وسيطرتْ على عقلها ووجدانها، فلم يَعُدْ يشغلها من أمورِ الدنيا شيءٌ، ولم يعد يلفت نظرها زخرف الدنيا أو نعيمها الفاني، وإنّما أضحىٰ

همُّها أنْ تتقرَّبَ إلى بارئها بقيامِ الليل، ووصْلِ طاعة النَّهار بالليل، والعزوفِ عن ملاذ الدنيا وعن نعيمها، حتى أفضىٰ بها ذلك إلى التّصوّف، أو الإغراق في التصوّف.

* ويبدو أنَّ رابعةَ قد سلكتْ في الزُّهد والعبادة مسْلكاً لفَتَ إليها أنظارَ الزُّهَّاد والعارفين في عصرها[1]، وكذلك العلماء والمتعبّدين والرّبانيين[2] من أمثال: الحسن البصري، وسفيان الثّوري، ورياح بن عمرو القيسي الصُّوفي.

* كما أنَّ كثيراً منَ النّسوة اللواتي عاصرنها سلكْنَ طريقتَها في العبادة والصَّلاح والصَّلاة والتهجُّد، حتى ارتقين سُدَّة النُّسْكِ، وأصبحن من ربّات الصَّلاح[3].

---

(١) تلكم هي رابعةُ العدوية التي أجلَّها الرّجال الزّهاد، وقدّروها حين رأوها في أندادهم، بل وجدوها في الزّهد والتصبوف أفضل منهم، وما كان لرجلٍ أن يجلَّ امرأة إلا من بعد أنْ يستيقن من فضلها ورجاحتها، وهذه سُنّةُ الرّجال في كل عَصْر ومصر. ويمكننا أنْ نقولَ الآن: إنَّ رابعة كانت قدوة العارفين، ورائدة المتصوّفين في عصرها، بل ظلَّتْ قدوة لمن أرادَ أن يقتديَ بها فيمن جاء بعدها. ولقد قلدها نساءٌ عاصرنها، ونساء جئْنَ بعدها، وسِرْنَ على نهجها، وتمرسن بالصّوفية، وعشْنَ متقشّفات زاهدات، وكانت لهن أحاديث وأشعارٌ وحِكَمٌ في العبادة والموعظة والزّهادة.

(٢) «الرَّبانيون»: يُقال: رجلٌ ربي، وربّاني، متألّه، أي: متعبّد. قال السُّهيلي في «الرّوض الأنف»: إنَّ الرَّبانيّين الذين يربّون النّاس بصغار العِلْم قبل كباره. وقيل: نسبوا إلى علم الرّبّ والفقه فيما أنزله، وزيدت الألف والنّون لتفخيم الاسم.

(٣) إنَّ النسوة اللاتي سلكْنَ طريقَ رابعة لم يكُنَّ قليلات، لكنهن لم يحتملن صَبْرها، ولا أُوتين مثل بصيرتها، وما تعمقن بالعبادة، وغلون في المجاهدة، كما فعلت رابعةُ، بل ما وسعت عقولهن سبيل الاتصالِ باللهِ والاستغراق في أسرار الحقّ. أمّا رابعة فقد كانت حجّةَ النّساء فيما آتى الله بعضهن مثلما يُؤتى الرّجال من علمٍ ورجاحة وإيمانٍ وتقوى، فقد كانت رابعةُ أحدوثةً للناس في الموعظةِ البالغة، والمجاهدة الخالصة، والمعرفةِ الثّاقبة، والبصيرة النافذة، والصَّفاء الروحي، والصّدق في الدِّين.

* ومند أنْ شبَّتْ رابعة عن الطَّوق، طار صيتُها في البلدان، بل حدثَ خطبٌ كبير في حياتها ـ وهو الزُّهد والعِشْقُ الإلهي!! ـ هذا الخطبُ هزَّ النَّفوس، وحيَّر العقولَ، وأرّقَ الباحثين، فقد شمَّر المتصوفُون عن أكمامِهم ليخطُّوا أحوالَ هذه المرأة التي رآها بعضُهم من عالَم الملائكةِ الأبرار، بينما رآها غيرهم من عالَم الشَّياطين الأشْرار، في حين وجَدَها آخرون جامعةً بين الضّدين، ومؤلّفةً بين النّقيضين؛ كما زعم بعضُهم أنّها نبراسُ المتصوّفين والمتصوّفات، وأنّها منارُ سبيلِ أهل الصَّفاء والنَّقاء.

* ويَحْسُنُ بنا في هذا المقام أنْ نشيرَ إلى كلمة الصُّوفي التي تنازَع النَّاس فيها، وكلٌّ يدّعي ما يدّعي فيها من أصْلٍ ومصدر، فقد ذهبَ بعضُهم إلى أنَّها من الصَّفاء، ونقاء السَّريرة وإخلاص الأمْر كلّه للهِ تعالى، وفي تحقيقِ هذا المعنى يقولُ أبو الفتح البُسْتي[1] ـ رحمه الله ـ:

تنازَعَ النَّاسُ في الصُّوفيِّ واخْتَلَفُوا فيـه فَظَنُّـوهُ مشْتقـاً مـنَ الصُّـوفِ
وَلَسْتُ أنْحَلُ هذا الاسمَ غَيْرَ فتىً صَافىٰ فَصُوفي حتى لُقِّبَ الصُّوفي

* ونقل القُشيري عن أحدهم رأيه في التَّصوف، وأنَّه اتباع ما جاء في القُرآن والسُّنة فقال:

ليسَ التَّصوّف لبْس الصُّوفِ ترقعُه ولا بكـاؤُك إنْ غَنَّـى المغنُّـونـا
ولا صيـاح ولا رقـص ولا طـرب ولا اضطراب كأَنْ قَدْ صِرْتَ مجنونا
بـلِ التَّصـوّفُ أنْ تصفـو بـلا كَـدَرٍ وتَتْبَـع الحـقَّ والقـرآنَ والـدِّيْنَـا

---

(١) «أبو الفتح البُستي»: عليّ بنُ محمّد الكاتب البُستي الشّاعر المشهور، صاحب الطريقةِ الأنيقةِ في التجنيسِ الأنيسِ البديع التأسيس؛ فمن ألفاظه البديعة قوله: مَنْ أصلحَ فاسده أرغم حاسدَه؛ مَنْ أطاع غضبه أضَاعَ أدبه؛ عادات السّادات ساداتُ العادات؛ من سعادة جَدِّك وقوفك عند حدّك، الرشوة رشاء الحاجات، أجهل الناس من كان للإخوان مذلاً، وعلى السّلطان مُدلاً؛ الفهم شعاع العقل؛ المنيّة تضحك من الأمنية؛ حدّ العفاف الرضا بالكفاف، ما لخرق الرقيع ترقيع، وله شعر نادر جميل في التجنيس وغيره، توفي سنة (٤٠٠ هـ) ـ رحمه الله تعالى ـ. (وفيات الأعيان ٣/ ٣٧٦ ـ ٣٧٨).

وأنْ تُـــرىٰ خـــاشعـــاً لله مكتئِبـــاً   علىٰ ذنوبك طولَ الدَّهْرِ محزونا

* وعرَّفَ الجُنيد ـ وهو أحدُ أقطاب الصّوفية ـ ماهيَّة التَّصوّف عندما سأله أحدهم عنها فقال: التّصوفُ أنْ تكونَ مع الله تعالىٰ بلا علاقة.

* وقال عن المتصوّفين: هم أهلُ بيتٍ واحد لا يدخل فيه غيرهم؛ والصُّوفي كالأرض يُطرح فيها كلّ قبيح، ولا تخرج منها إلا كلّ مليح.

* وقال الجُنيد عن التّصوف أيضاً: التّصوُّف ذِكْرٌ مع اجتماع، ووجْدٌ مع استماع، وعَمَلٌ مع اتّباع.

* وقال سهل بنُ عبد الله التُّسْتُري عن الصّوفي: إنَّ الصُّوفيَّ مَنْ صَفَا منَ الكدرِ، وامتلأَ من الفِكر، وانقطعَ إلىٰ اللهِ عن البشَر، واستوىٰ عنده الذَّهب والمدر.

* وهناك آراء وأقوالٌ كثيرةٌ في هذا المجالِ، ملأتْ كتبَ التّصوّف ولا مجال لذكْرِها في هذا المقام.

طَرِيْقَتُهَا في العِبَادَةِ والمُنَاجَاةِ:

* في مجال الزّهد والنُّسكِ والعبادةِ ضربتْ رابعةُ مثلاً شروداً بذلك، فقد ذُكِرَ أنَّها قد اتخذتْ لنفسها صومعةً اعتكفتْ فيها، تعبدُ اللهَ بالقيام والصِّيام.

* وعلى الرغم من تواصلِ صيامِها وقيامِها، وتتابعِ زفراتها، وتدفقِ عبراتها، كانت تستقلُّ ذلك كلَّه في جنْبِ الله وتشعرُ بالتَّقْصير، فكانت إذا ما الليلُ عَسْعَس تقومُ وتناجي مولاها وخالقها إلى أنْ يَتَنَفَّسَ الصُّبحُ، ويتبسَّمَ الفجرُ، ولسانُها لا يفتر عن الدّعاء والابتهالِ، حتى بلغت من النّسك والفضلِ والزهدِ منزلةً شريفةً، وكانت منوّرة البصيرة، مطهّرة السّريرة.

* وكانت رابعةُ ترقبُ كلَّ شيءٍ بعينِ اليقظة، وكانت ورعةً أشدَّ الورع في كلّ شيءٍ، قالت لأبيها يوماً: يا أبي، لستُ أجعلُكَ في حلّ من حرامٍ تطعمنيه؛ فقال لها أبوها: يا رابعة! أرأيتِ إنْ لم أجدْ إلا حراماً؟!

فقالت رابعةُ بلسان الورعِ والخوف منَ الله عزَّ وجلَّ: يا أبي، نصبرُ في

الدّنيا على الجوعِ، خيرٌ من أنْ نصبرَ في الآخرةِ علىٰ النَّار[1].

* أمّا عبادتُها، فقد كانت شيئاً آخرَ في حُسْن الصِّلة والاتصال بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ؛ فمن خلالِ حديث خادمتها عبدة بنت أبي شوال، نستشفُّ طريقةَ نسكها وعبادتها، تقولُ عبدة ـ وكانت أشبه النّاس بها في صلاحها وكانت من خيرِ إماء الله ـ: كانت رابعةُ تصلّي الليلَ كلّه[2]، فإذا طلعَ الفجرُ، هجعتْ في مصلاّها هجعةً خفيفةً، حتى يسْفِرَ الفجرُ، فكنتُ أسمعها تقول إذا وثبتْ من مرقدها ذلك وهي فزعة: يا نفسُ كم تنامينَ، وإلى كم تقومين؟! يوشكُ أنْ تنامي نومةً لا تقومين منها إلا لصرخةِ يوم النُّشور[3].

قالت عبدة: فكان هذا دأْبُها أمدَ دهرِها حتى ماتَتْ.

* وكانت مناجاتُها مع بارئها في كلّ ليلة، إذ تناجِي ربَّها طلباً للتّقرب منه، وطلباً لمرضاته، فكانت إذ جنَّ عليها الليلُ صَعِدتْ سطْحَ منزلها ثمَّ نادت ربّها قائلة: إلهي، هدأتِ الأصواتُ، وسكنتِ الحركاتُ، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه، وقد خلوتُ بك أيها المحبوب، فاجعل خلوتي منك في هذه الليلةِ عتقي من النّار[4].

* أما الشَّيخ شُعيب الحُريْفيش صاحب كتاب «الرُّوض الفائق في المواعظ والرّقائق» فقد طابَ له أنْ يوشَي كتابَه بصُوَر نثرية عن عبادة ومناجاة رابعة العدوية فيقول: حُكيَ عن رابعةَ العدويّةِ ـ رحمها الله ـ أنّها كانت إذا صلَّتِ العشاء، قامتْ على سطحٍ لها، وشدَّتْ عليها درعَها وخمارَها ثمّ قالت: إلهي، أنارتِ النجومُ، ونامتِ العُيون، وغلَّقتِ الملوكُ أبوابَها،

---

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٢٨٥) بتصرف يسير.

(٢) ذكرت بعضُ الكتب عن رابعةَ أنّها كانت تصلّي في الليلة الواحدة ألف ركعة. ولا شك أنَّ في هذا مبالغة ظاهرة!!

(٣) وكأني ببعضِ شعراء الزّهد قد استهوته هذه القصّة فنظم هذين البيتين فقال:

طُوبى لمَنْ سهرتْ بالليلِ عَينَاهُ ... وباتَ في قَلَقٍ منْ حُبِّ مولاهُ

وقامَ يرعى نجومَ الليلِ منفرداً ... شوقاً إليه وعينُ اللهِ ترعاهُ

(٤) وفيات الأعيان (٢/ ٢٨٥ و٢٨٦).

وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك.

* ثم تقبل على صلاتها، فإذا كان وقتُ السَّحر، وطلعَ الفجرُ قالت: إنَّ هذا الليل قد أدْبَر، وهذا النّهار قد أسْفَر، فوعزّتك هذا دأبي ما أحييتني وأعنْتَني، وعزّتك لو طردتني من بابك، ما برحتُ عنه لما وقع في قلبي من محبّتك:

يــا سُــروري ومُنْيَتــي وعمَــادي وأنيســي وعــدّتــي ومُــرادي[1]

* وكانت رابعةُ إذا دخلتْ في صَلاتها اتّصلت بربِّها، ونسيتِ الوجودَ مِنَ حولها، ولم تَعُدْ تحْفَلُ بمخلوق.

* روي أنَّ سُفيانَ الثَّوري ـ رحمه الله ـ قد دخلَ عليها وهي قائمةٌ تصلّي، فلمْ تعرجْ عليه، ودخل جعفر، وكان يخدمُها، فقال لسفيانَ: أي شيءٍ دارَ بينك وبينها؟

قال: ما كلّمتْني.

فقال لها: يا سبحان الله الشَّيخُ جاءَ إليك فما كلمتيه؟!

فقالت: إنَّ العبدَ إذا كان مقْبلاً علىٰ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كان اللهُ مقبلاً عليه، وقد كنتُ مقبلةً على الله، ولستُ أشكُّ في إقباله عليَّ، أَوَ أُقْبِلُ على هذا؛ ثمَّ قالت: الله أكبر، ودخلتْ في صلاتها[2]!!

* وقال أبو سُليمان الدَّاراني[3] ـ رحمه الله ـ: بتُّ ليلةً عند رابعة

---

(١) الرّوض الفائق، وانظر: شَهيدة العشق الإلهي (ص٢٣).

(٢) شرح مقامات الحريري للشريشي (٢/ ١٧١).

(٣) «أبو سُليمان الدَّاراني»: عبدُ الرحمن بن أحمد بن عطيّة العَنْسي، الدّاراني الزَّاهد المشهور، أحدُ رجالِ الطّريقة، كان من جلّة السَّادات، وأرباب الجدِّ في المجاهدات. ومن كلامه: من أحْسَنَ في نهارِه كُفي في ليله، ومن أحْسَنَ في ليله كُفي في نهاره، ومن صدق في ترك الشّهوة ذهبَ اللهُ سبحانه وتعالى بها من قلبه، واللهُ تعالى أكرمُ من أنْ يعذّب قلباً بشهوةٍ تُركت له.

ومن كلامه: أفضلُ الأعمال خلاف هوى النفس. وله كلام مليح جميل أورده =

العدويّة، فقامتْ إلى محرابٍ لها، وقمتُ إلى ناحيةٍ من البيت، فلم تزلْ قائمةً إلى السَّحر.

فقلتُ: ما جزاءُ مَنْ قوَّانا علىٰ قيامِ هذه الليلة؟

قالت: جزاؤُه أنْ تصومَ له غداً[1]!!

* والحديث عن العبادة والعُبّاد ممتعٌ وشائقٌ، يصقلُ النّفوس، ويؤنسُ القُلوب، ويغذّي الأرواحَ برحيقِ الإيمان، فالعبادةُ عند رابعة جزءٌ من كيانها، وجزءٌ مِنْ صِلَتها الوثيقة بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ فلا يمكن أنْ تتركَ المناجاةَ والعبادةَ مهما تكنِ الظُّروف، إلا لحادثٍ طارىءٍ خارجٍ عن إرادتها.

* يروي السَّراج القارىء صاحب كتاب «مصارع العشّاق» ـ هذا الخبر عن عبادةِ رابعةَ في حلْمٍ رأتْه في أحدِ الأيام ـ بسندٍ له عنْ مسْمَع بن عاصم قال: قالت رابعةُ العدويّةُ:

اعتللتُ علّةً قطعَتْني عن التَّهجُّد، وقيام الليل، فمكثتُ أياماً أقرأُ جزئي إذا ارتفعَ النَّهار، لما يُذكر فيه أنّه يُعَدِّلُ بقيامِ الليل؛ ثمَّ رزقني اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ العافيةَ، فاعتادتني فترةٌ في عقبِ العلّةَ، وكنتُ قد سكنتُ إلىٰ قراءةِ جزئي بالنّهار؛ فانقطعَ عنّي قيام الليل.

فبينا أنا ذات ليلةٍ راقدةٌ أُرِيْتُ في منامي كأنّي رُفعتُ إلىٰ روضةٍ خضراء، ذاتِ قصور ونبتٍ حَسَنٍ، فبينا أنا أجولُ فيها أتعجَّبُ من حسنِها، إذا أنا بطائرٍ أخضر، وجاريةٍ تطارده، كأنّها تريدُ أخذه، فشَغلني حسنها عن حسنهِ، فقلتُ: ما تريدين منه؟ دعيه، فواللهِ ما رأيتُ طائراً قطّ أحسنَ منه!

قالت: بلى؛ ثمّ أخذتْ بيدي، فأدارَتْ بي في تلك الرّوضة، حتى انتهت

= ابن الجوزي في «صفة الصفوة» وابنُ شاكر الكتبي في «فوات الوفيات» توفي سنة (٢٠٥ هـ) ـ رحمه الله ـ.
(وفيات الأعيان ٣/ ١٣١) و(صفة الصفوة ٤/ ١٩٧ وما بعدها) مع الجمع والتصرف.

(١) شرح مقامات الحريري للشريشي (٢/ ١٧١ و١٧٢).

بي إلى بابِ قصرٍ فيها، فاستفتحتْ، فَفُتِحَ لها، ثم قالت: افتحوا لي بيت لَمْقَة؛ فَفُتِح لها بابٌ شاعَ منه شعاعٌ استنارَ من ضوءِ نوره ما بين يدي وما خلفي، وقالت لي: ادخلي، فدخلتُ إلى بيتٍ يحارُ فيه البصير تلألؤاً وحسناً، ما أعرفُ له في الدّنيا شبيهاً أشبّهه به.

فبينا نحنُ نجول فيه إذ رُفِعَ لنا بابٌ يُنْفَذُ منه إلى بستانٍ، فأهوتْ نحوه وأنا معها، فتلقّانا فيه وُصَفاء كأنَّ وجوهَهم اللؤلؤ، بأيديهم المجامرُ، فقالت لهم: أين تريدون؟

قالوا: نريدُ فلاناً، قُتِلَ في البحر شهيداً.

قالت: أفلا تجمّرون[1] هذه المرأة؟

قالوا: قد كان لها حظٌّ فتركَتْه.

قالت: فأرسلتْ يدها من يدي، ثمّ أقبلتْ عليَّ فقالت:

صَلاتُكِ نُورٌ والعِبَادُ رقُودُ ... ونومُكِ ضِدٌّ للصَّلاةِ عَنِيدُ

وعُمُركِ غُنْمٌ إنْ عقَلْتِ ومهلةٌ ... يسيرُ ويفنىٰ دائماً ويبيدُ

ثمَّ غابتْ من بين عينيَّ، واستيقظتُ حين تبدّىٰ الفجرُ، فواللهِ ما ذكرتُها فتوهمتُها إلا طاشَ عقلي، وأنكرتُ نفسي، قال: ثم سقطَتْ رابعةُ مغشيّاً عليها[2].

* وعادت رابعةُ إلى ما عوّدَت[3] عليه نفسها من صلاةٍ وقيام، وعبادةٍ

---

(١) «تجمرون»: تبخّرون بالطيب.

(٢) مصارع العشاق (١/ ٢٠٧ و٢٠٨).

(٣) يحضُرني قول جرير في هذا المقام:

تعوّدْ صَالحَ الأعْمالِ إنّي ... رأيتُ المرءَ يلزمُ ما استعادا

وقول المتنبي:

لكلّ امرىء مِنْ دهره ما تعودا ... وعاداتُ سيفِ الدَّولةِ الطعنُ في العدا

ومناجاةٍ. وأخبارُ رابعة في هذا المجال كثيرة لا يتّسعُ المقام لإيرادها.

رَابِعَــةُ وزُهَّــادُ عَصْرِهَــا وقَصَصِهِــم:

* لرابعة العدوية أخبارٌ وضيئةٌ مضيئةٌ مع أعْلامِ الزُّهد في عصرها، ولها قَصَصٌ رائعةٌ مع سُفيان الثّوري، ورياح القيسيّ، وشَيبان الرّاعي، وخادمتها عَبْدة، وغيرهم.

* وكان لرابعةَ لقاءاتٌ لطيفةٌ، وأحوالٌ طريفة، وأخبار خفيفة، مع سُفيان الثّوري. قال الشَّريشي: كان سفيانُ يذهبُ إليها ويسألُها عن مسائلَ دينية ويعتمدُ عليها!![1]

* ومن طرائفِ الأخبار الزُّهدية ما ورد أنَّ سُفيان الثَّوري قال عندها ذات يوم: واحزناه! فصحَّحتْ رابعةُ مفهومَه ونبهَتْه إلىٰ ما يلفظ بدقّة، وأشارت إليه أن: لا تكذبْ، بل قُلْ: واقلّة حُزناه؛ لو كنتَ محزوناً لم يتهيأ لكَ أنْ تتنفّس[2].

* وذات يوم قالت رابعةُ لسفيانَ وهي تَعِظُه وتذكّره بالآخرة: يا سفيان، إنَّما أنتَ أيامٌ معدودةٌ، فإذا ذهبَ يومٌ، ذهب بعضُك، ويوشك إذا ذهبَ البعض أنْ يذهبَ الكلُّ، وأنتَ تعلمُ فاعمل[3].

---

(١) شرح مقامات الحريري للشريشي (٢/ ١٧٠).

(٢) انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٢٨٦)، ولنا تعليقات مهمّة على مثل هذه القصص والأخبار في الصَّفحات المقبلة إن شاء الله.

(٣) أعتقدُ أنَّ مثل هذه الأخبار وأشباهها من صُنْع القُصّاصِ والمذكّرين وهواةِ الأخبار، إذ لا تصحُّ مع رجل جليل القدر من مثل سفيان الثوري. فسفيان بن سعيد الثوري الكوفي من الأئمةِ الأعلام، كان إماماً في عِلْم الحديث وغيره من العلوم، وأجمعَ النَّاس على دينه وورعه وزهده وثقته، وهو أحدُ الأئمة المجتهدين، قال يُونس بن عُبيد: ما رأيتُ كوفياً أفضل من سفيان، وقال بشر بن الحارث: كان سفيان الثّوري كأنَّ العلم بين عينيه، يأخذ منه ما يريد، ويدع ما يريد، وأخباره تملأ المجلدات الكثيرة، ولد سنة (٩٥ هـ)، وتوفي سنة (١٦١ هـ) ـ رحمه الله ـ.
(حلية الأولياء ٦/ ٣٥٦ وما بعدها) و(وفيات الأعيان ٢/ ٣٨٦ ـ ٣٩١) مع الجمع والتصرف، وغيرها كثير جداً.

* وكان سفيانُ الثّوري يشاركها في العبادةِ، وقد أطلقَ على رابعةَ لقب «المُؤَدِّبَة»؛ فقال يوماً لأصحابه: هلمّوا بنا نلمُّ بصاحبتنا، فإنّي لا أستريحُ إذا فاتَنِي حديثُها. ولما دخلوا عليها مجلسَها رفعَ سفيانُ يده داعياً: اللهم إنّي أسألُك السَّلامة.

فابتدرته رابعة بالبكاءِ، فسأَلها: ما يبكيك يا رابعة؟

فأجابته وهي تعرِّضُ به: أنتَ السَّببُ، لقد عرضتني للبكاء، أَمَا علمتَ أنَّ السَّلامةَ تَرْكُ ما في الدُّنيا، وأنتَ منغمسٌ فيها، متلطخٌ بها[1].

* ويبدو أنَّ سُفيان الثَّوري قد أعجب بدرجةِ العبادة التي بلغتها رابعةُ، فهو يحكي إحدىٰ وقْفات العبادة التي وقفَتْها فيقول: كنتُ عند رابعةَ ذات ليلة، فصلّينا معاً حتى مطلع الفجر، وفي الصَّباح قالت: علينا أنْ نصومَ اليومَ شكراً للهِ على هذه الصَّلوَات الطّوال التي أقمناها الليلة[2].

* وسمعت رابعةُ سفيان يقول: اللهم إنّي أسألُكَ رضاكَ، فقالت: تسألُ رِضا مَنْ لَسْتَ عنه براض[3].

* ولسفيان الثّوري جولاتُ نُسْكٍ وعبادة مع رابعة العدوية، لم تغفلها

(١) انظر: شرح مقامات الحريري للشّريشي (٢/ ١٧١) بشيء من التصرف.

(٢) كانت رابعة تفيضُ علماً، وقد اعترفَ بعلو كعبها في هذا المجال أحد الزُّهاد، حيث روى أنَّه مضى مع رابعةَ في ذِكْر الله والتّسبيح له، ثمّ أخذا يجولان فيما آتاهما الله من معرفةٍ وفهم لأمورِ الدّين، فأطالا الحديثَ والمدارسة والتعمّق في أسرارِ الوجود حتى نسيَ الزّاهد المتصوف أنَّه رجلٌ، وأنّها امرأة، فلمّا انتهيا من الكلامِ، واستجلاء المرامِ، أحسَّ هو أنّه لم يكن إلا فقيراً، وأنّها كانت غنية بالمعرفَة والإخلاص.
أقول: إنَّ هذه القَصَص وأشباهها لا تصحُّ ولا يقبلها أدنى مَنْ كانت له معرفة بأحوال العُلماء، ولكنّي أذكرها هنا لكي نعرفَ الغثَّ منَ السَّمين، بل ولنعرف مدى بساطة وسذاجة أولئك الذين يقتنعون بمثل هذه القصص التي تخالف جوهر الشريعة، ولكن لله في خلقه شؤون!!

(٣) شذرات الذهب (٢/ ١٥٧) طبعة دار ابن كثير المحققة.

ذاكرةُ المؤلّفين؛ وإنّما وعَتْها بين سطورها، وبين طيّات الأخبار التي وصَلتْنَا عن طريقِ المصادر المتنوّعة في المشارب والمذاهب.

* أوردَ ابنُ خلّكان أنَّ سفيانَ الثَّوري قد لقيَ رابعة العدوية ـ وكانت زرية الحال ـ، فقال لها: أرىٰ لكِ حالاً رثّةً، فلو أتيتِ جارك فلاناً، لغيّر بعضَ ما أرى، وكانت حالُكِ أحسن!

فقالت رابعةُ لسفيانَ بكلام يفيضُ حلاوةً وطلاوةً: يا سفيان، وما ترىٰ من سوءِ حالي!! ألستُ علىٰ الإسلام، فهو العزُّ الذي لا ذُلَّ معه، والغنىٰ الذي لا فَقْرَ معه، والأُنْسَ الذي لا وحْشَةَ معه؟!!

قال سفيان: بلىٰ يا رابعة.

فقالت رابعةُ: يا سفيان؛ والله إنّي لأستحيي أنْ أسألَ الدُّنيا مَنْ يملكها، فكيف أسألها مَنْ لا يملكها!!

فقام سفيان الثّوري متعجّباً وهو يقولُ: والله ما سمعتُ مثلَ هذا الكلام[1].

* هذا؛ ولقاءاتُ الزُّهدِ كثيرةٌ بين رابعةَ وسفيانَ، ومِنْ أحلاها ما أوردهُ الذَّهبي في «السِّيَرِ» قال: استأذنَ ناسٌ على رابعةَ، ومعهم سُفيان الثّوري، فتذاكروا عندها السَّاعة، وذكروا شيئاً منَ الدّنيا، فلمّا قامُوا قالت لخادمتها: إذا جاءَ هذا الشّيخ وأصحابه، فلا تأذني لهم، فإنّي رأيتُهم يحبُّون الدّنيا.

* ومن أخبار رابعةَ الرَّائعةِ ما كان مع رياحِ بنِ عمرو القيسيّ[2] العابدِ الزّاهدِ، وكان بينهما أحوالٌ ـ وأَوْحَال ـ ذكرتها بعضُ المصادر.

* ذكر صاحبُ «المَصَارع» قصَّةً وحواراً بين رابعةَ ورياح القيسي فقال:

---

(١) عن وفيات الأعيان (٢/ ٢٨٦) بتصرف يسير جداً.

(٢) قال عنه الإمام الذَّهبي ـ رحمه الله ـ: رياحُ العابدُ أبو المُهاصر، بصريٌّ زاهد متألّه، كبيرُ القدرِ، كان خاشِعاً بكّاءً. قال رباح عنْ نفسه: لي نيفٌ وأربعون ذنباً، قد استغفرتُ الله لكلّ ذنب مئة ألف مرة.

وذكر الذهبي أنَّ رياحَ بن عمرو كان يُسمعُ منه الموعظة ويُغْشَى عليه.

نظرتْ رابعةُ إلىٰ رياحِ القيسي وهو يقبِّلُ صبيّاً منْ أهْلِهِ، ويضمُّه إليه، فقالت: أتحبُّه يا رياح؟ فنظرَ إليها رياح متعجباً وقال: نعم والله، إنّي أحِبُّه!

فقالت رابعةُ لرياح وهي تصحّحُ له مفهوم الحبّ الحقيقي: واللهِ يا رياح، ما كنتُ أحسبُ أنَّ في قلبِك موضعاً فارغاً لمحبَّةِ غير الله تعالى.

فصاحَ رياحٌ صيحةً عظيمةً، وسقطَ مغشيّاً عليه، ثمَّ أفاقَ وهو يمسحُ العرقَ عن وجههِ، وهو يقول: رحمة منه تعالىٰ ذِكْرُه ألقاها في قلوب العبادِ للأطفالِ[١].

* وأوردَ ابنُ الجوزي أخباراً لطيفة وقعتْ لرياح القيسيّ مع رابعةَ العدويةِ منها: أنَّه دخَل مع جماعةٍ من الزُّهاد على رابعةَ، فتذاكروا الدّنيا، فأقبلوا يذمّونها، فقالت رابعةُ: إنّي لأرىٰ الدّنيا بجهاتها الأربع، وكلُّ ما فيها في قلوبكم.

قالوا: ومنْ أينَ توهمّتِ علينا؟

قالت: إنّكم نظرتُم إلىٰ أقربِ الأشياء مِنْ قلوبكم فتكلّمتم فيه[٢].

* ومن أخبارِ رابعة اللطيفة، أنَّه قال لها رجلٌ: يا رابعة، إنّي أحبُّك في اللهِ!

فقالت: إذاً فلا تَعْصِ اللهَ الذي أحببتَني له. ثمّ أنشدتْ:

أَيضْمَـــنُ لـــي فتَـــىً تَـــرْك المعَـــاصـــي
وأرهنُـــــهُ الكَفَـــالَـــة بـــالخَـــلاصِ

(١) مصارع العُشّاق (١/ ٢٧٥ و٢٧٦) بشيء من التصرف؛ وانظر: حلية الأولياء (٦/ ١٩٤) وسير أعلام النبلاء (٨/ ١٧٤). وهذا الخبر يخالف السّنّة.

(٢) انظر: صفة الصّفوة (٤/ ٢٨ و٢٩)، ومن الجدير بالذكر أنَّ رباحاً هذا كان صديق رابعة في المذهبِ والرأي والعبادة، وكان دائمَ البكاء كأنّه في مأتم، فلا يُرى إلا والهاً حزيناً، فإذا سُئلَ عما يبكيه قال: يحقُّ لأهلِ المصائب والخطايا أن يبكوا. وكثيراً ما شُوهد هذا التّقي النَّقي واضعاً في رقبته قيداً من حديدٍ يشدّه، وهو يضرعُ ويتضرّع ويدعو الله أنْ يتقبّل توبته وعبادته، حتى يشتدّ عليه الألم بإحساس النّدم، ويهجعُ في مصلاه ليعاودَ التّوسل والابتهال، بعد أنْ يصحوَ من غفوةٍ أو إغماء.

أطَـــاعَ اللهَ قَـــومٌ فَـــاسْتَـــراحُـــوا
ولَـم يتجـرَّعُـوا غصَـصَ المعَـاصـي[1]

رَابِعَـةُ وَقَصَصٌ لا تُـعْقَـلُ:

* أوردَ أهلُ الأخبارِ قَصَصاً كثيرةً حدثَتْ لرابعةَ مع الزُّهَّادِ والعبّادِ والمتصوفة وغيرهم، غير أنَّه تُوجد في بعضِ هذه القَصَص مبالغاتٌ وكراماتٌ لا يقبلها العقلُ، ولا يتصورها إنسانٌ، بل ألصقُوا بها كراماتٍ لم تحدثْ لِنَبيٍّ!

* ومن تلكم القَصَص والأخبار ما أورده الشَّيخُ يُوسف النَّبهاني في «جامع كرامات الأولياء» قال: قال المناوي: من كراماتها؛ أنَّ لصَّاً دخلَ حجرتها وهي نائمةٌ، فحمل الثِّياب، وطلبَ الباب، فلم يجدْهُ، فوضعها فوجدَه، فحملها فخفيَ عليه، فأعادَ ذلك مراراً كثيرةً، فهتفَ به هاتفٌ: دَعِ الثّيابَ فإنّا نحفظُها، ولا ندعها لك وإنْ كانت نائمة[2]!!!!

* ومنها أنّها زرعتْ زرعاً فوقعَ عليها الجرادُ، فقالت: إنَّ رزْقي تكفّلتَ به، فإنْ شئتَ فأطعمه أعداءَك أو أولياءَك، فطار الجرادُ كأنَّه لم يكن[3]!!

* ومن القَصَصِ الغريبة قصّة حجّ رابعة، حيث أُضيفت إليها «البهارات والمقبّلات» كيما تكون أشهىٰ، ـ وإياكَ أنْ تعترضَ فتنطرد ـ!!.

* لقد جعلَ محبُّو رابعةَ حجَّها مليئاً بخوارقِ الخَوارق، وهذا ليس بغريبٍ أو جديدٍ علىٰ حياتها، فحياتُها منذ ولادتها تصاحبها الكرامة والخوارق ـ كما رأينا في قصّة ولادتها من قبلُ ـ، وما نُسبَ إليها في قصّة حجتها وزيارتها بيتَ اللهِ الحرام لا يقلُّ كرامةً عن ولادتها، وإن شئتَ فقُل: لا يقلُّ اختِراعاً عن قَصَص كراماتها الخيَالية.

---

(١) انظر: شرح مقامات الحريري للشريشي (٢/ ١٧١).

(٢) جامع كرامات الأولياء (٢/ ٧١).

(٣) المصدر السَّابق، وهنا جعلتها القصّة صاحبة زرع علماً بأنّها كانت زاهدة فقيرة فتأمل!!

* فأوّلُ خارقةٍ تخرقُ الأسماعُ ما ذكره النّبهاني قال: مرَّتْ رابعةُ يوماً بشيبانَ الرّاعي[1]، فقالت له: إنّي أريدُ الحجَّ؛ فأخرجَ لها من جيبه ذهباً لتنْفِقَهُ، فمدَّتْ يدَها إلى الهواء فامتلأتْ ذهباً وقالت له: أنت تأخذُ من الجيْبِ، وأنا آخذُ من الغيب، فمضى معها على التّوكل!!!...!!!...

* ونتابعُ رحلتنا مع حجّة رابعة، حيثُ يشارك فريد الدِّين العطّار بإيرادِ الخوارق فيقول: ارتحلتْ رابعةُ ذات مرّة إلىٰ الكعبة، ومعها حِمَارٌ يحمل متاعها، ولكنَّ ذلك الحمار نَفَقَ في الطَّريق فتقدَّمَ رفاقها في القافلة يريدون حَمْلَ متاعها، إلا أنَّها قد رفضتْ ذلك بشدّة، وقالت لهم: ما كان اتّكالي عليكم لما أنْ رحلتُ، بل ثِقَتي باللهِ تعالىٰ.

* ومضتِ القافلةُ في طريقها، وبقيت رابعةُ وحدها، فنظرتْ إلى السَّماء تدعو اللهَ وتقول: إلهي، أكذا يفعل الملوكُ بعبيدهم الضُّعفاء؟!! لقد دعوتَني إلى زيارةِ بيتك، وها أنتَ تَدَعُ حماري ينفقُ في الطَّريق، وتدعني في الفيافي وحيدة؟

* وما أتمتْ رابعةُ كلامها حتّى عادتِ الحياةُ إلى حمارها[2]، وانتصبَ أَحْسَنَ مما كان، فوضعتْ عليه أمتعتها، وتابعتْ سَفرها وحيدةً في الطَّريقِ إلى مكةَ المكرمةِ حيثُ الكعبةُ الشَّريفةُ.

* وبينما كانت رابعة تُغِذُّ السَّيرَ شَعَرتْ بالوحشةِ، فصاحتْ من أعماقِها:

---

(١) انظر ترجمته في صفة الصفوة لابن الجوزي (٤/ ٢٦٣ و٢٦٤) طبعة مؤسسة الكتب الثقافية ببيروت ط(١٩٩١م).

(٢) جعل الشيخ يوسف النبهاني مكانَ الحمار جَملاً، ولكنْ في طريق عودتها منْ حجّها فقال: حجّتْ رابعة على بعيرٍ فمات قبل بلوغها لمنزلها، فسألتِ اللهَ أنْ يحييه فأحياه، فركبته حتى وصلَ إلى باب دارها، وخرّ ميتاً. (جامع كرامات الأولياء ٢/ ٧١)، ولن أعلّقَ على هذه القصّة، وسأترك ذلك للقارىء الكريم لكي يميز الخبيث من الطيب، ويدرك مدى الاستخفاف بالعقول؛ والله المستعان على ما يصفون.

إلهي، إنَّ قلبي يضطربُ في هذه الوحشة، أنا لَبِنَةٌ والكعبةُ حَجَرٌ، وما أريده هو أنْ أشاهدَ وجهك الكريم!!

* وعلىٰ الفور ناداها صوتٌ من السَّماء يقول: يا رابعة، أتطلبينَ وحدَك ما يقتضي الدّنيا بأسرها؟ إنَّ موسىٰ حين رامَ أنْ يشاهدَ وجهنا لم نُلقِ إلا ذرّة من نُورِنا علىٰ جَبَل فخرَّ صَعِقاً(١).

* ويتابعُ العطّار تعطيرَ المجالسِ بهذه الخوارقِ، فيروي عنها بأنّها وهي في طريقها إلى الحجّ، رأتِ الكعبةَ قادمةً نحوها عَبْر الصَّحراء!!!! فقالت: لا أريدُ الكعبةَ، بل ربّ الكعبة، أمّا الكعبة فماذا أفعلُ بها؟! ولم تشأْ رابعة أنْ تنظرَ إليها.

* ويمضي العطّار لإظهارِ ما لرابعة من كرامة فيروي أنَّ إبراهيمَ بنَ أدهم أمضَى أربعينَ سنة في حجّةٍ واحدة ليبلغ الكعبة، لأنَّه كان يصلّي في كلِّ خطوةٍ ركعتَيْن، وكان يقول أثناء ذلك: غيري يسلكُ هذا الطَّريق على قدميهِ، أمّا أنا فأسلكه على رأسي!.

* والآن ـ عزيزي القارىء ـ انتبه جيّداً، فقد تفوتك الفائدة. واستمعْ بقيةَ هذه الرّواية التي تنسجُ مكرمات عدّة لرابعة:

* ولما بلغَ إبراهيم بنُ أدهم الكعبةَ ـ بعد أربعين سنة ـ لم يجدْهَا في مكانِها!!، فقال يشكو: واأسفاه؛ أَأَظْلَمَ بَصَري حتى لم أعُدْ أرىٰ الكعبةَ؟

* لكنَّ حيرةَ ابن أدهم لم تَطُلْ، بل يسمعُ صوتاً يناديه ويقول له بلسان

---

(١) أعتقدُ أنَّ هذا استهتار بعقولِ النّاس، فرابعةُ لا تكاد تناجي ربّها وتطلبُ منه أن يحيي حمارها حتى يتحقق رجاؤها، وتقعُ المعجزة، درجة الإحياء، إحياء «الحمار».
لقد زادَ الدلالُ على الحدِّ، فهل كان لرابعة درجة أسمى وأعلى من درجاتِ النّبييّن والمرسلين؟ فعيسى ابنُ مريم ـ عليهما السلام ـ لم يمنحه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ القدرة على إعادةِ الحياة لأحدٍ مطلقاً، وإحياء الموتى، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِيٓ ﴾ [المائدة: ١١٠]. فهل أنافت رابعة على مراتب الأنبياء والمرسلين؟! نستغفرُ الله ونسأله السّلامة وصحة اليقين.

عربي مُبين: يا إبراهيم، لستَ أعمىٰ ولكنَّ الكعبةَ ذهبتْ للقاءِ رابعة!!

* ويتأثّر إبراهيمُ بنُ أدهم أشدَّ التّأثّر لما يسمع، لكنّه لم يلبث أنْ يرىٰ الكعبةَ وقد عادتْ إلى مكانها كما كانتْ، وفي الوقتِ ذاته يرىٰ رابعة تتقدّمُ وهي تتوكأُ علىٰ عصاها، فيقول لها: أي رابعة، يالجَلالِ أعمالك! ثمَّ وما تلك الضَّجة التي تحدثينها في الدُّنيا، فالكلُّ يقولون: ذهبتِ الكعبةُ للقاء رابعة. وتجيبُه رابعة: يا إبراهيم، وما تلك الضّجة التي تثيرها أنتَ في الدّنيا بقضائك أربعينَ عاماً حتى تبلغَ هذا المكان، فالكلُّ يقولون: إنَّ إبراهيمَ يتوقّفُ في كلِّ خطوة ليصلي ركعتين؟!! فقال إبراهيم: نعم أمضيتُ أربعينَ عاماً أجتازُ هذه الصَّحراء. فقالت رابعةُ: يا إبراهيم لقد جئتَ أنتَ بالصَّلاة، أما أنا فقد جئتُ بالفقر[1]!!!

* هذا؛ والأخبارُ والقَصَصُ من هذا النّوع لا تُحصى، وتغصُّ بها كثيرٌ من كُتُب الأخبار والمُسامرات، ولكنّي أوردتُ بضعة نماذج حتى تتوضّح الصّورة والهالة التي أحيطتْ بها رابعة العدوية، والتي لا يمكن لنا أنْ نقبلَ بها ما دامتْ تخالفُ كل منطقٍ وكلّ عَقْل، بل تخالف حقيقةَ الدِّين وجوهره.

إعْرَاضُهَــا عَــنِ الــزَّوَاجِ:

* يذكر الذين ترجموا لرابعة أنَّها كانت ترفضُ كلَّ مَنْ تقدَّمَ إليها مَن

---

(١) إنَّ هذه الخوارق وغيرها التي يرويها العطّار وغيره، إنْ هي إلا خيالاتٌ وأوهامٌ لا تدلُّ على عقليةٍ ناضجةٍ، بل إنَّ الحوار الذي دار بين رابعة وإبراهيم بن أدهم حوار سخيفٌ مختلق، لا يوجد بينه أي ترابط.
والقارىء الكريم يدركُ مدى الهزال في الحوار، ويدرك مدى السّخف والسّخرية من عتاب كلا الشّخصين لبعضهما؛ فإبراهيم يمشي أربعينَ سنة للحج، أما هي فقد خفَّتِ الكعبةُ لاستقبالها. يا الله ما أشدّ هذا السّخف؟ بل قُلْ: ما أمرَّ هذه الحماقة.
إنَّ الغريبَ في الأمر أنَّ كثيراً منَ المتنوِّرين وكثيراً من حاملي بعضِ الشَّهادات يصدّقون مثل هذه الأمور وأعظمَ منها؛ ونحن على أعتابِ قرن جديد قد بلغ فيه العلم الذروة! تُرى متى نستطيع فهم الحقائق؟!

الخُطّاب، وكان منهم عدد من أعيانِ العصر.

* ذكروا أنَّ محمَّد بنَ سُليمان بن علي الهاشميّ أمير البصرة المتوفى سنة (١٧٣ هـ) قد خطبَها، فبعثتْ إليه رسالةً تُعلّمه من خلالها أصولَ الزّهد، وتخبره أنّها مُعرِضةٌ عنِ الزّواج.

* ولنستمعْ إلى ما أوردَهُ ابنُ خلّكان عن قصّة تلك الخطبة فقال: كان أبو سُليمان الهاشمي له بالبصرة كلّ يوم غلّة ثمانين ألف درهم، فبعثَ إلىٰ علماءِ البصرة يستشيرهم في امرأةٍ يتزوجها، فأجمعوا علىٰ رابعةَ العدويةِ وأرشدوه إليها.

* فكتبَ أبو سُليمان إليها: السَّلام عليكِ... أمّا بعد: فإنَّ ملكي من غلّة الدّنيا في كلِّ يوم ثمانون ألف درهم، وليس يمضي إلا قليلٌ حتى أتمّها مئة ألف درهم، وأنا مُصَيِّرٌ إليك من بَعْدُ أمثالها، فأجيبيني إلىٰ الزّواج.

* فكتبتْ إليه رابعةُ تقول: السَّلام عليكَ، أمّا بعد: فإنَّ الزُّهَد في الدُّنيا راحةُ القلبِ والبدنِ، والرّغبةَ فيها تُورثُ الهمَّ والحزن، فإنْ أتاكَ كتابي هذا فهيىءْ زادَك، وقدِّم لمعادك، وكُنْ وصيَ نفسِك، ولا تجعلْ وصيّتك إلىٰ غيرِك، وصُمْ دهرَك، واجعل الموتَ فِطْرك، فما يسرّني أنَّ الله خولني أضعافَ ما خولَك، فيشغلني بك عنه طرفةَ عين، والسَّلام[1].

* وتروي المصادرُ حكايات كثيرة عن إعراضِ رابعة عن الزّواج، ومن مختلف تلك الحكايات والرّوايات يتبيّن لنا أنّها لم تتزوّجْ، وإن كانتْ خُطبت بضْعَ مرّات، فكانت ترفضُ كلَّ مَنْ تقدَّم لذلك.

* وقد رفضتْ رابعةُ عبدَ الواحد بنَ زيد البصريّ المتوفىٰ سنة (١٧٧ هـ)، وكان زاهداً عالماً متصوّفاً عالي الشّأْن، فهجرتْهُ، وحجبَتْهُ عنها أيّاماً، ولم تستقبلْه إلا بعد أنْ شفعَ له إخْوانٌ عندها، ولم تكن تشأْ أنْ تَراه لأنَّها مُسْتَفْظِعةٌ لإقْدامِه علىٰ خطبتها، وإزماعه علىٰ زَواجها، وأرسلت إليهِ تؤنبه وتلومه، لأنّه يريدُ أنْ يصرفَها عمّا أخذت به نفسها من العبادةِ والتّفرغ

---

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٢٨٦) بتصرف يسير.

إلى الصَّلاة والنُّسك، وكان ممّا قالت له: يا شهواني، اطلبْ شهوانية مثلك؛ أي شيء رأيتَ فيَّ من آلةِ الشّهوة[1]؟!

* لقد كان انصرافُ رابعة عن الدّنيا وعن الزَّواج ظاهرةً واضحةً وغُرّةً لامعةً في حياتها، حيث انتظمتْ رابعةُ في سلْكِ العُزَّاب الزُّهّاد، وحكمتْ علىٰ نفسها بالوحدة، بل اعتبرتْ ذلك من بابِ الأُنْس بالله؛ ولذلك فإنَّها كانت من أشَدِّ الزُّهَّاد انصرافاً عن متاعِ الدُّنيا، وزهدت في كلِّ شيءٍ، وهي المرأةُ التي يمكن أنْ تغريها المفاتنُ، وتستهويها زينةُ الحياةِ الدنيا، فلم تحفلْ بشَبابِ العمر، ولا بمطالِبه، وإنّما وهبتْ عمرها إلى العبادةِ والنُّسك، واستمتعتْ بلباسِ التّقوى والإيمان ومداومة الذّكْر والشّكْر.

* وكانت رابعةُ تعرضُ عن الزَّواج، بل عن فكرتهِ أيضاً، وتجيبُ من يسألها بأنّها لا تقدرُ على أنْ تقومَ بأعباءِ الزّوجيّة، فقد سُئلت: لماذا لا تتزوجين؟

فقالت: هناك ثلاثةُ أشياء سبب الهمِّ عندي، فإذا وُجِدَ مَنْ يخلّصني منها تزوّجتُ!

فقيل لها: وما هي هذه الأشياء؟

فقالت: الأوَّل: هل إذا مُتُّ أستطيعُ أنْ أتقدم بإيماني طاهراً؟

والثَّاني: إذا كنتُ سأُعطىٰ كتابي بيميني يومَ القيامة.

والثّالثُ: إذا جاء يومُ البعثِ، وأُخِذَ أصحابُ الميمنةِ إلى الجنّة، وأصحابُ المشأمة إلى السَّعير، فمن أي الفريقين سأكون؟!

فقيل لها: لا نعرف شيئاً عمّا سألته، إنّما عِلْمُه عند الله.

---

(١) انظر: شرح مقامات الحريري للشّريشي (٢/ ١٧٠) بشيءٍ من التّصرف. هذا وقيل: إنَّ رابعة قد أنشدت أبياتاً حينما عُرِض عليها أنْ تتزوج، ومطلعها:

راحتي يا إخوتي في خلوتي   وحبيبي دائماً في حضرتي

(انظر ذلك في فقرة: شَاعرة الزَّاهدات).

هنالك قالت رابعة: إذا كان الأمْر كذلك وأنا في قَلَقٍ من هذه الأشياء، فكيف أحتاجُ إلىٰ الزوجِ وأتفرّغُ له؟!!

* وهكذا امتنعتْ رابعةُ عن الزَّواج الذي هو أمنيةُ المرأة، ـ بل كلّ امرأة ـ وبغيتُها في الحياة، وأملُها التي تنتظره؛ نعم أَبَتْ رابعة الزّواجَ لترضي نزعةَ نفسها بالانقطاع إلى الله، والارتفاع بالرّوح عن غريزةِ الجسد، بحيث اعتبرتْ أنَّ الزَّواجَ انشَغالٌ عن ذكر الله والتَماس مرضاتِه[1].

شَاعِرَةُ الزَّاهِدَاتِ:

* ليس غريباً أنْ تنطقَ رابعةُ بالشّعر، إذ فاضَ قلبُها بالأحاسيسِ، فجاء ذلك ترجمةً على لسَانِها شعراً جميلاً يداعبُ الوجدان؛ ويدغدغُ الإحساس.

* وإنَّ القصائدَ والمقطّعات التي وصلَتْنا عنها، ونُسبتْ إليها، لتشيرُ إلىٰ شاعريتها العذبة في مجال التصوف والزهد، كما تشيرُ إلىٰ الكلمات التي ترشحُ بعبيرِ الحبِّ للذاتِ الإلهية، أو العشْق الإلهي[2]، أو ما شَابه ذلك، وإنْ رأَيْنا في بعضها الشَّطط عن طريق الزّهد، من ذلك قولها:

إنّــي جَعَلْتُــك فــي الفــؤادِ مُحــدّثــي
وأبَحْــتُ جِسْمــي مَــنْ أَرادَ جُلُــوســي

(١) هذا رأيٌ يُمثّل رأيَ رابعة العدوية وحدها، ورأي مَنْ شاكلَها منَ الزّهاد والمتصوفة والمتفلسفة، إنّما السُّنَّة المتواترة أنْ يتزوجَ الإنسانُ، ويقتدي بسيّدِ الأنام محمّد ﷺ الذي علم هذا الهدي أصحابه ليكونوا على سُنَّته، ونعى على الذين أرادوا العزوفَ عن هذه السُّنّة الكونية التي تعمرُ الدنيا، وتجعل فيها الحركة، ولا يُلْتَفتُ لهذه الآراء المنعزلة التي تدعو إلى البعد عن الزّواج.

(٢) «العِشْقُ الإلهي»: «العشْق»: قال الفيروز أبادي: العِشْق والمَعْشَق، كَمقْعَد: عُجْبُ المحبِّ بمحبوبه: أو إفراط الحبِّ، ويكون في عفافٍ أو دعارة، أو عمى الحسِّ عن إدراك عيوبه، أو مرض وسواسي يجلبه إلى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصُّور، عشِقَه عِشْقاً، فهو عاشق، وهي عاشق وعاشقة. (القاموس المحيط ص١١٧٤) مادة (عشق). ومن الجدير بالذكر عزيزي القارىء أن لفظ «عشق» لم يرد في القرآن الكريم، حتى هذه الحروف (عشق) لم تردْ مطلقاً.

فـالجسْـمُ منّـي للجَليْـسِ مُـؤَانِـسٌ
وحبيْـبُ قَلْبِـي فـي الفُـؤَادِ أَنيسـي

* وسأتركُ هذيْنِ البيتينِ للقارىء الكريم كيما يفهمهما كيف شاء، وإنْ كانَ بعضُ مَنْ تحدَّث عنها أشار إلىٰ أنَّ قولها هذا في ذاتِ الله تعالتْ ذاته.

* إلا أنَّ ظاهرَ البيتَيْن يدلان علىٰ التّناقُض بين الصَّلاح والفَسَاد، إذ تزعم رابعة أنّها منحتْ قلبها للهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ وأباحتْ جسمها للجليسِ، ومثل هذا القول لا يصدرُ عن امرأةٍ صالحةٍ تدّعي الفَضْل والطّهر، بل ولا يصدرُ عن غيرِ صالحة، لأنّه تصريحُ صريح بإباحةِ الجسم للجلاس.

* ولكنّي أوردُ لها هذين البيتين، فهما أقربُ إلى النّفس من حيثُ المعنى، فقد قالت في الذّات الإلهية:

حبيـبٌ ليـسَ يعـدلُـه حبيـبُ — ومـا لِسَـواه فـي قلبـي نَصيـبُ
حبيبٌ غابَ عن بصري وشخصي — ولكـنْ عَـنْ فـؤادي مـا يغيـبُ

* ومما نُسِبَ إلى رابعةَ في التَّبتُّل[1]، وحبّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والبعد عن اللذات، واللجوء إلى العزلةِ والوحدةِ، لكي تسعدَ بمناجاة خالقها؛ هذه الأبيات الطَّريفة اللطيفة الحفيفة المشتملة على ذكْر الوَصْل وما أشبهه:

راحَتـي يـا إخـوتـي فـي خَلْـوتـي — وحبيبـي دائمـاً فـي حَضْـرتـي
لـم أَجِـدْ لـي عَـنْ هـواه عِـوَضـاً — وهَـواهُ فـي البَـرايـا محْنَتـي
حيثمـا كنْـتُ أشـاهـد حُسْنَـه — فهـو محـرابـي إليـهِ قِبْلتـي
إنْ أمُـتْ وَجْـداً ومـا ثـمَّ رضـاً — واعَنَـائـي فـي الـورىٰ واشقـوتـي
يـا طبيـبَ القلـبِ يـا كـلَّ المنـى — جُدْ بوصلٍ منك يشْفي مهجتي
يـا سـروري وحيـاتـي دائمـاً — نَشْـأتـي منـك وأيضـاً نشـوتـي
قد هجرتُ الخلْقَ جمعاً أرتجي — منـك وصـلاً فهـو أقصـىٰ منيتـي

* ولعلَّهُ منَ الفائدةِ أنْ أشيرَ ـ هنا ـ إلىٰ أنَّ هذه القصيدة قد أغرِمَ بها أهلُ

---

(١) ظهر في القرن الثّاني الهجري شواعر متزهّدات متبتلات مثل رابعة ضيفة حلقتنا، وريحانة، وحيونة، وميمونة الزّاهدة، وهذه الأخيرة من المتزهدات المتنسكات.

التّصوّف، بل أُغْرِمَ بها كثيرٌ من المشتغلين بالأدبِ والشِّعر وفنِّ الكلمة، فمنهم مَنْ شطَّرها، ومنهم من خمَّسها، ومنهم من ضمَّنَ بعضاً منها في أشعارِه، ومن أجمل ما قرأتُ هذا التَّخميس اللطيف الذي خمَّسه الأديبُ المِفَنُّ: أبو العزم السَّمَّان الحموي الحُسيني حيثُ قال:

لـي حبيبٌ فيه عـزّةُ نَشْأتي
وتَسَامَتْ في هَواهُ شُهْرَتي
معْ سِواهُ ما صَفَتْ لي رَاحَتِي
راحَتي يا إخوتي في خَلْوتي   وحبيبي دائماً في حَضْرتي

فَبِذَا حُكْمُ حبيبي لي قَضَىٰ
وأَنالَ الصَّبَّ فَوْزاً وَرِضَا
نورُهُ في مهْجَتي لمَّا أضا
لم أَجِدْ لي عنْ هواهُ عِوضَا   وهواهُ في البَرايا مِحْنَتي

وامتِحاني في حَيَاتي إنَّهُ
بغَرامي لي حبيبي سَنَّهُ
وهُيامي زائدٌ لكنَّهُ
حيثُما كنْتُ أشاهدْ حُسْنَه   فهو محرابي إليهِ قِبْلَتي

لم أكنْ ما عشْتُ عنه مُعْرِضَا
لا ولا أختارُ عَنْه عِوضَا
صاحَ قلبي وبه نَارُ الغَضَا
إنْ أمُتْ وجْداً وما ثمَّ رضا   واعَنَائي في الوَرَىٰ واشِقْوتي

يا جميلاً حُسْنُه هيَّمنا
وبنيرانِ الهَوىٰ أحرقَنا
يا حبيباً ليس لي عنه غِنى
يا طبيبَ القَلْبِ يا كُلَّ المنىٰ   جُدْ بوصلٍ منك يَشْفي مهجتي

لسْتُ في غيرِك روحي هائما
وبأعتابِك دمْتُ القائِما
لم أطعْ واشٍ تبدّىٰ لائِما

يـا سُـروري يـا حيَـاتـي دائِمـا   نَشْـأتـي منـكَ وأيضـاً نَشْـوتـي

وأنـــا مـــنْ غيـــرِكـــم لا أرتجـــي

نفحـــــةً تفتـــــحُ بـــــابَ الفَـــــرجِ

هـــا أنـــا جئـــتُ إليكـــم ألتجـــي

قد هجرتُ الخلقَ جمعاً أرتجي   منـكَ وصـلاً فهـو أقصـىٰ منيتـي

* ولعل من أشهرِ ما يُنْسَبُ لسيّدة المتصوّفات، وخنْساء المتزهّدات رابعة العدوية، تلك القصيدة الكافية الشّهيرة التي ظهرتْ فيها العواطفُ الصّوفيةُ المتموّجةُ، والتي جعلتْ كثيراً من الشّعراء الصّوفيين ـ فيما بعد ـ ينسجون على منْوالها، بينما أُغْرِمَ بعضُهم بها غراماً شديداً، وأخذَ في تخميسها وتشطيرها وتضمينها في أشعاره، لما تحمله منْ معانٍ متعدّدة في طرق التّصوف والزّهد، وربما رددها بعضُهم في مجالسِ الذّكْر والإنشاد، والأبيات هي:

أحبُّـك حُبَّيْـنِ حـبّ الهـوىٰ   وحُبّـاً لأنَّـكَ أهـلٌ لـذاكـا

فـأمّـا الـذي هـو حُـبُّ الهـوىٰ   فشُغْلـي بـذكـرِك عمَّـن سـواكـا

وأمَّـا الـذي أنـتَ أهْـلٌ لـه   فكشفـك للحُجـبِ حتّـى أراكـا

فـلا الحمـدُ فـي ذَا ولا ذَاكَ لـي   ولكنْ لكَ الحمدُ في ذَا وذَاكا[1]

---

(١) شاعراتُ العرب (ص١٢٦)، وشرح المقامات الحريري (٢/ ١٧١)، وقد نَسَبَ هذه الأبيات الأصبهاني إلى آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وهو من مخضرمي الدولة الأمويّة والعباسيّة، وهو قَبْل رابعة أيضاً، وقد أوردها الأصبهاني على هذا النحو الآتي في الأغاني (١٥/ ٢٨٩)؛ حيث يقولها في الغزل الصوفي بعد أن تاب وتنسّك:

أحبُّـك حُبَّيـن لـي واحـدٌ   وآخـر أنّـك أهـلُ لـذاك

فـأمّـا الـذي هـو حـبُّ الطِّبـاع   فشـيءٌ خُصصـتَ بـه عـن سـواك

وأمـا الـذي هـو حـبُّ الجمـال   فلسـتُ أرى ذاك حتـى أراك

ولسـتُ أمـنُّ بهـذا عليـك   لـك المـنُّ فـي ذا وهـذا وذاك

وانظر ترجمة آدم بن عبد العزيز في الأغاني (١٥/ ٢٨٦ ـ ٢٩٧).

هذا وقد ذكرَ جماعةٌ منهم: أبو طالب المكي، والإمامُ الغزالي، والسّيد المرتضى=

* ويبدو أنَّ هذه الأبيات قد أضحتْ قبلةَ قصّادِ التّصوف[1] لجماعة المتصوّفين، بل والمتصوّفات منَ النّساء فيما بعد، وأخذن ينسجنَ على منوالها ما يروقُ لهنّ أنْ ينسجوه، كيما يلحقن برابعةَ في هذا المجال الذي بلغت فيه الجوزاء - كما زعموا -.

* ويؤيدُ ما قلناه، ما ذكرته بعضُ الرّوايات عن ذي النُّون الصّوفي[2]

= الزَّبيدي، أنَّ لرابعة أربعة أبيات هي: أحبّك حبَّين حبَّ الهوى.. الخ. ويبدو أنَّ رابعة اقتبستها منه.

(١) كان الخَطْبُ في التّلبس بالدِّيْن، والتّشدد في العبادة، والتّناغي بالآخرة، واطراح الدنيا، من السَّهل على المجتمع الإسلامي لو انحصر في أفرادٍ بعينهم، ولكنّه تعدّى إلى العوام، والعوام في كلّ عَصْرٍ ومصر لا يقيمون للحقائِق وزْناً، ولا يهشّون إلا لما تزينه لهم ظواهرُ المحسوسات، وهم أقربُ الطَّبقات إلى غلطِ الحِسِّ، والمغالطة في النَّافعِ والضّار، ولقد أطلقَ على مَنْ أخذوا أنفسهم بهذه الطّريقة: لقب الصّوفية والمتصوّفة، و أطلقوا على عِلْمِهم اسم: التصوّف، وذلك نسبةً إلى الصّوف الذي كانوا يلبسونه، أو إلى «سوف» اليونانية، ومعناها: الحكمة؛ أو إلى رجلٍ يُقال له: صوفة، كان في الجاهلية هو وأصحابه ممن انقطعوا إلى الله، ولزموا الكعبة، فقالوا لمن تشبّه بهم: الصّوفي.

هذا؛ وقد مرّ معنا قول أبي الفتح البستي - رحمه الله -:

تنازع النَّاسُ في الصوفي واختلفوا ... فيه وظنّوه مشتقاً من الصّوف

ولسْتُ أنحلُ هذا الاسم غير فتىً ... صافى فصُوفي حتى لُقّب الصُّوفي

وقال أبو العلاء المعري:

صُوفية ما ارتضوا للصوفِ نسبتهم ... حتى ادعوا أنَّهم من طاعةٍ صُوفوا

(٢) «ذو النون»: أبو الفيض، ثوبان بنُ إبراهيم، وُلدَ بإخميم على شاطىءِ النّيل بالصعيد، وهو أحد رجال الطّريقة، وواحدُ وقته، ومن كلامه: علامةُ محبِّ الله متابعةُ الرّسول ﷺ في كلّ ما أمر به. ومن بدائع أقواله: بصحبة الصّالحين تطيبُ الحياة، والخير مجموع في القرين الصّالح؛ إنْ نَسيت ذكرك، وإن ذكرت أعانك. ومن أقواله أيضاً: ما خلع الله - عز وجل - على عبدٍ من عبيده خِلْعَةً أحسنَ من العقل، ولا قلده قلادة أجمل من العلْمِ، ولا زيّنهُ بزينةٍ أفضل من الحلم، وكمال ذلك كله التّقوى. وله نظْم منه: =

الزّاهد المشهور أنَّه قال: بينما أنا أسيرُ على ساحلِ البحر، إذ بصرتُ بجاريةٍ عليها أطمار شَعرٍ، وإذا هي ناحلةٌ ذابلةٌ، فدنوتُ منها لأسمعَ ما تقول، فرأيتُها متَّصلةَ الأحزانِ بالأشجان، ثم قالت: سيّدي! بكَ تقرّبَ المتقرّبون في الخلواتِ، ولعظمتك سَبَّحَتِ النّينانُ[1] في البحارِ الزَّاخرات، ولجلالِ قدسك تصافقتِ الأمواجُ المتلاطمات؛ أنتَ الذي سَجدَ لك سوادُ الليل، وبياضُ النَّهار، والفلك الدّوار، والبحرُ الزَّخّار، والقمر النَّوّار، والنجم الزهار، وكل شيء عندك بمقدار، لأنك الله العلي القهار:

يا مُؤْنِسَ الأَبْرارِ في خَلَواتِهم ... يَا خيرَ مَنْ حَطَّتْ بهِ النُّزَّالُ
مَنْ ذاقَ حبَّك لا يَزَالُ متيَّماً ... مَرِحَ الفُؤاد يعودُه بِلْبَالُ
مَنْ ذاقَ حبّك لا يُرىٰ متبسّماً ... مِنْ طولِ حزْنٍ في الحشَا أشْغالُ

فقلتُ لها: مَنْ تريدين؟

فقالت: إليكَ عنّي، ثم رفعتْ طرفها نحو السَّماء، فقالت:

أحبُّكَ حُبَّيْنِ حُبَّ الهوى.. ... الأبيات الأربعة...

ثم شهقتْ شهقةً، فإذا هي قد فارقتِ الحياة، فبقيتُ أتعجَّبُ ممّا رأيتُ منها، فإذا أنا بنسوةٍ قد أقبلنَ، وعليهن مدارع الشَّعر، فاحتملْنَها، فغيَّبْنَها عنّي، فغسلنها، ثمّ أقبلنَ بها في أكفانها، فقُلن لي: تقدم فَصَلِّ عليها. فتقدمتْ، فصليتُ عليها وهنَّ خلفي، ثمّ احتملنها ومضين[2].

= صَغيرُ هَوَاك عذبني ... فكيفَ به إذا احتنكا
وأنتَ جمعتَ منْ قلبي ... هوىً قد كان مشتركا

قال عنه السيوطي في «حُسن المحاضرة»: كان أوحد وقته علماً، وورعاً، وحالاً، وأدباً، مات في ذي القعدة سنة (٢٤٥ هـ) وقد قارب التّسعين، وأخباره كثيرة مجموعة في كتب التراجم وقد توسع ابن الجوزي في «صفة الصفوة» بترجمته وأخباره. (شذرات الذهب ٣/ ٢٠٦ و٢٠٧) و(صفة الصفوة ٤ / ٢٢٢ ـ ٢٢٧).

(١) «النينان»: الحيتان، مفردها: نون وجمعها: نينان وأنوان. وذو النون: لقب نبي الله يونس عليه السلام.

(٢) عن مصارع العشّاق (١/ ٢٧٤ و٢٧٥) بتصرف يسير جداً، ونلاحظ من القصّة كيف=

* ومن روائع شعر رابعة ـ الذي ينسبُ إليها ـ في العمل ليوم المعاد، ورجائها رحمةَ اللهِ قولها:

وَزَادي قَليـــــلٌ مـــــا أُراهُ مُبلِّغـــــي
أَلِلـــزادِ أبكـــي أمْ لِطُـــولِ مَسَـــافَتِـــي

أَتحـــرقُنـــي بـــالنَّـــار يـــا غـــايـــةَ المنـــىٰ
فـــأَيـــنَ رجـــائـــي فيـــكَ أَيـــنَ محبَّتـــي[1]

* إنَّ المتتبِّعَ لشعر رابعةَ يجدُ فيه طابَعَ التّكلّفِ، بل إنَّ المتمرسَ بالشّعر يجدُ أنَّه منسوبٌ لرابعةَ، أو منحولٌ، أو مصنوعٌ، وربما قيل كيما يُنْشد في حلقات الذّكر، والتَّنافُس في مجالسِ الزّهاد، وأعتقدُ أنَّ أكثرَ ما نُسِبَ إليها من شِعْرٍ كان لتزيّين سيرتها في أنديةِ الوعّاظ، وأهل التَّصوُّف ممن يطربُون لمثلِ هذه الأشعار والأناشيد التي تموجُ بالمناجاة والابتهالِ، وتفيضُ بالعاطفة الشَّفافة في الحُبّ الإلهي ـ كما يزعمون ـ، وأحياناً في الغزل والتّورية في ذكْرِ المحبوب، ومنَ النّماذج على مصداق ما قُلناه هذه الأبيات التي تدلُّ علىٰ الوَلَه والحُبّ والتّتيّم حيث تقول:

كـأْسـيْ وخَمْـري والنَّـديـمُ ثـلاثـةٌ وَأَنـا المشُـوقـةُ فـي المحبَّـةِ رَابعَـه
كـأْسُ المسـرَّةِ والنَّعيـمُ يـديـرُهـا ساقي المُدام علىٰ المدىٰ مُتَتابعه
فـــإذا نظـــرتُ فَـــلا أُرىٰ إلاّ لَـــهُ وَإِذَا حَضَـــرتُ فَـــلا أُرىٰ إلا معـــه
يـــا عـــاذلـــي إنّـــي أحـــبُّ جمـــالَـــه تـــاللهِ مـــا أُذْنـــي لعـــذلـــكَ ســـامعـــه
كم بتُّ منْ حُرَقي وفرطِ تعلُّقي أُجري عُيوناً مِنْ عُيوني الدَّامعه
لا عَبْـرتـي تَـرْقَـا ولا وَصْلِـي لـه يَبقىٰ ولا عَيني القريحة هاجعه

* ولعلَّ منْ أشهرِ ما يُنْسب إليها في العشْق الإلهي هذه الأبيات الشَّهيرة المشهورة:

فَليتَـكَ تَحلُـو والحيَـاةُ مـريـرةٌ وليتَـكَ تـرضـىٰ والأنـامُ غِضـابُ

= قلّدت هذه المرأة رابعة العدوية. ولكني أميلُ إلى أنَّ هذه القَصَص وأشباهها مصنوعة للتّسلي والتحلّي في المجالس، والله أعلم!

(١) صفة الصفوة (٤/ ٣٠٢).

وَليتَ الـذي بيني وبينَـك عـامرٌ   وبيني وبيـنَ العَـالميـن خَـرابُ
إذا صَـحَّ منْك الـودُّ فـالكـلُّ هيِّـنٌ   وكلُّ الذي فوق التُّراب ترابُ[1]

* هذا؛ ويمكننا أنْ نقولَ: هناك أشعارٌ تصحُّ نسبتُها إلى رابعةَ، منها قصيدتُها الدَّالية التي نهجتْ فيها نهجَ أهل الزُّهد، وأصحابِ الورع في القرن الهجري الثاني الذي غَصَّ بالزّاهدين والزّاهدات[2]، والأبيات هي:

يـا سُـروري ومُنْيَتَـي وعمـادي   وأَنيسـي وعـدّتـي ومُـرادي
أنـتَ روحُ الفـؤادِ أنـتَ رجَـائـي   أنتَ لي مُؤنسي وشوقُك زادي
أنـتَ لـولاكَ يـا حيـاتـي وأُنْسـي   مـا تشتَّـت فـي فسيـحِ البـلادِ
كـم بـدَتْ مِنَّـةٌ وكـم لـكَ عنـدي   مـنْ عطـاءٍ ونعمـةٍ وأيـاد
حبُّـك الآن بغيَتـي ونعيمـي   وجـلاءٌ لعيـنِ قلبـي الصَّـادي
ليـس لـي عَنْـك مـا حييـتُ بـراح   أنـت منّـي مُمكّـنٌ فـي الفـؤاد
إن تكـنْ راضيـاً عنّـي فـإنّـي   يا مُنىٰ القَلْبِ قد بدا إسعادي[3]

* ومن الواضح أنَّ تلكم الأبيات تشتملُ على ذكْرِ محبّة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والسّرور بأنْسه، والاعتماد عليه، كما تظهرُ في الأبياتِ اعترافات رابعة بمنّة اللهِ ونعمه عليها، وأنَّ حبّه جلاءٌ لصدأ قلبها، ورضاءَه ذرورةُ سعادتها، وهذه المعاني مألوفة في عالَم الزَّاهدين وعالَم الورعين في عَصْر رابعة.

---

(١) هذه الأبيات المنسوبة لرابعة العدوية، هي من قصيدة طويلةٍ مشهورة لأبي فراس الحَمْداني الشَّاعر الفارس المشهور، وهي في ديوانه، ولكنَّ معانيها الرائقة سولّت لبعضِ محبي رابعة أن ينسبها إليها، ولله في خلقه شؤون، وللناس من بعض الناس حظوظ!!

(٢) إنّنا نجد في هذا القرن أيضاً عدداً كبيراً من النّساء الزّاهدات القانتات اللائي تجردنَ لله، وعكفنَ على العبادة والتّهجد، نجدُ منهنَّ غير رابعة: ريحانة، وحيونة، ورابعة الشَّامية، وسلمونة، وميمونة، وأخواتُ بشر الحافي وهن: مضغة ومخة وزبدة، وغيرهن كثيرات ذكر عدداً منهن أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه «صفة الصفوة» فليُراجع.

(٣) انظر: الروض الفائق (ص١١٧) طبعة القاهرة سنة (١٣٠٤ هـ).

* هذا؛ والمجال هنا لا يتسعُ أنْ نوردَ الأشعارَ التي نُسبِتْ إلىٰ رابعةَ العدويةِ، ولكن فيما أوردناه غلّة للصَّديان، وزاداً لمن أراد المسير إلى أطلالِ المتصوّفات ومُتَربَّع الزّاهدات، كي يرتعَ في نعيمِ تصوفهن، ويقتَعد سدّة زهدهن، ويسمر مع تبتّلِهنَّ ومناجاتهن مع مولاهُنَّ.

قَلائِـدُ منْ جُمَـانِ حِكَمِهَـا:

* تركت رابعةُ العدويةُ ـ رحمها الله ـ أقوالاً نفيسةً في دنيا الحكمةِ، هي أفْتَنُ للأسماعِ، من مُطْرِبِ السَّماع، وألذّ في الألبابِ، من مُناجَاة الأحبابِ.

* إنَّ جُلَّ أقوالِهَا تشير إلى تمسكها بالمنهجِ الذي اختطته لطريقِ حياتها، ألا وهو الزُّهد الممزوجُ بشيءٍ منَ التّصوّف والنّسك والحبِّ والمناجاة.

* وتتوضّحُ حكمتها أكثر عندما نسمعُ إليها وهي تعظُ مَنْ يسألها، أو تهديه بعضَ الملاحظات التي تصحح المفاهيم، وذلك حسب معرفتها للزّهد، وحبّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

* قال رجلٌ ذات مرّةٍ لرابعة: يا أمّ الخير، إنّي أحبُّك في الله، وهنا أجابته رابعة إجابةَ الحكمةِ إذ وجهته فيها للطاعةِ الحقيقية فقالت: إذاً؛ فلا تَعْصِ الذي أحببتَني له.

* وقالت امرأةٌ لرابعة: إنّي أحبّك في الله؛ فقالت رابعةُ: أطيعي مَنْ أحببتِني له.

* وسُئلت: متى يكونُ العبدُ راضياً؟

فقالت: إذا سرّته المصيبة، كما سرّته النّعمة[1].

* ومن فرائدِ حكمها الجليلة قولها في وصْفِ الدُّنيا: لو كانتِ الدّنيا لرجل ما كان بها غنياً.

قيل: كيف؟!

---

(١) الطّبقات الكبرى للمناوي (ص٤) مخطوط.

قالت: لأنّها تفنى[١].

* ومن نفائسِ أقوالها في الاستعانةِ على كتمانِ الحسَنات، هذه الحكمة اللطيفة الخفيفة: اكتموا حسناتِكم كما تكتمونَ سيئاتكم.

* إنَّ الإعْراضَ عنِ الدُّنيا نجاةٌ وراحةٌ، أمّا حبُّها فهو رأسُ كلِّ نَصَبٍ وتَعَبٍ، وفي تحقيقِ هذا المعنى تقول: الزُّهد في الدّنيا راحةُ القلبِ والبدن، والرغبةُ فيها تورثُ الهمّ والحزن.

* ولها في الحثّ على صفاء النَّفس والصِّدق في السِّرِّ والعلانية قولها: أستغفرُ اللهَ من قلّةِ صدقي في قولي: أستغفرُ اللهُ.

* وسمعتْ رابعةُ يوماً صَالحاً المُرّيَّ ـ وكان منَ الزّهاد ـ يذكرُ الدنيا في قَصَصِه ووعْظِه، فنادته ونبَّهَتْه إلىٰ الوعظِ الحقيقي وقالت: يا صالح، مَنْ أحبَّ شيئاً أكْثَر مِنْ ذِكْره[٢].

* ويلاحظ أنَّ عيونَ الحكمة تتفجَّرُ من هذهِ العبارة تفجيراً، كما يلاحظ أنَّ رابعةَ كانت فَطِنَةً وذكيةً، وتعرفُ كيف تلقي بالحكمة في المواقفِ المناسبة.

* ومن روائع بدائع كلماتها في المحبّة الحقيقية، ما حُفِظَ عنها أنّها كانت تقول: مُحِبُّ الله لا يسكُنُ أنينه وحنينُه حتى يسكنَ مع محبوبه.

* وكانتِ الحكمةُ عند رابعة تنثالُ على لسانها، فكأنّها تنتقي الكلمات والألفاظ كما تشاء، لتصوغَ منها جُمَلاً تنضحُ بالحكمة، وتفصحُ عن البلاغة.

* قال لها رجلٌ مرّة: يا أمّ الخير، ادعي اللهَ لي. فرجعتْ رابعةُ والتصقتْ بالحائطِ، وقالت للرّجل في تواضعٍ: مَنْ أنا يرحمك الله؟! ثمّ إنّها ألقتْ إليه

---

(١) الطّبقات الكبرى للمناوي (ص٤) مخطوط.

(٢) انظر: سير أعلام النّبلاء (٨/ ٢٤١).

عبارةً ترشده من خلالها إلىٰ الدّعاءِ الخالصِ فقالت: يا هذا أطعْ ربَّك، وادعُه، فإنَّه يجيبُ المضطرين[1].

* ويبدو أنَّ رابعة كانت لا تبخلُ بفيضِ حكمتها في جميع المواقف، وفي كلِّ الحالات، فقد أوردَ صاحبُ كتاب «نزهة النَّاظرين» قصّة حدثت لرابعة مع لصٍّ منَ لصوصِ البصرةِ، ويظهر في حوارها مع اللصّ جمال حكمتها، فقال:

* حُكي أنَّ رابعةَ العدوية كانت تصلّي ذاتَ ليلةٍ، فدخل عليها لصٌّ، فنظرَ في البيتِ يميناً وشمالاً، فلم يرَ شيئاً غيرَ إبريق كانت تتوضأُ به.

فقالت له رابعة: يا هذا إنْ كنْتَ من الشُّطَّار فلا تخرجْ إلا بشيء!

فقال اللصُّ: يا هذه، إنّي لم أَجِدْ شيئاً غيرَ هذا الإبريق القديم.

فقالت له بلسانِ العطفِ والوعظ: يا مسكين، قُمْ فتوضّأْ مِنْ هذا الإبريق، وادخل إلى هذه الغُرفة وصلِّ ركعتَيْن لله، فإنّك لا تخرجْ إلا بشيء.

* فدخلَ الرّجلُ الغُرفةَ، وفعلَ ما أمرته به رابعة، فلما قامَ يصلي، رفعتْ رابعةُ طرفها إلىٰ السَّماء وقالت: سيدي ومولاي، هذا قد أتىٰ إليَّ، فلم يجدْ عندي شيئاً، وقد أوقَفْتُهُ علىٰ بابِكَ فلا تحرمه جزيلَ ثوابِكَ.

* أمّا اللصُّ، فقد لذَّتْ له العبادة داخلَ الغُرفةِ، فلم يزلْ يصلّي إلىٰ آخرِ الليل، فدخلتْ رابعةُ الغرفةَ عند السَّحَر، فوجدته ساجِداً يتذللُ بين يدي الله؛ وهو يقولُ في سجوده مُعاتباً نفسه، ومستغفراً ربَّه، ونادماً عمّا بدر منه في الأيّام الخوالي وفي جنْح الليالي:

إذَا مَـــا قَـــالَ لـــي ربّـــي	أَمَـــا استحييـــتَ تَعصيْنـــي
وتخفـــي الـــذَّنْـــبَ مِـــنْ خَلْفـــي	وبـــالعصيـــان تـــأتينـــي
فمَـــا قـــولـــي لـــه إذا مـــا	يُعـــاتُبنـــي ويقْصِينـــي

(١) صفة الصفوة (٤/٢٨)، والطبقات الكبرى للمناوي مخطوط (ص٥) مع الجمع والتصرف اليسير.

فقالت له: السَّلامُ عليكم، كيف كانت ليلتُكَ يا هذا؟!

قال: بخيرٍ، وقفتُ بين يدي مولاي بذلّي وفقري، فجبرَ كَسْري، وقبل عُذْري.

* ثمَّ إنَّ ذلك الرَّجل تركَ البيتَ، وخرجَ هائماً على وجهه لا يلوي على شيء، وإذ ذاك رفعتْ رابعةُ رأسها إلى السَّماء وقالت تناجي مولاها: مولاي، هذا عبدٌ وقَفَ ببابك ساعةً واحدةً فقبلته، وأنا منذُ عرفتك بين يديك، أفتَراكَ قبلتني أمْ لا؟ فنُوديت رابعة في سِرِّها: يا رابعة مِنْ أجلك قرّبْناهُ، وبدعائِك قبلناه[1].

* إنَّ حكمةَ رابعةَ ـ علىٰ ما يبدو ـ مخصصة لأولئك السَّارقين الذين يقتحمونَ وحدتَها، فإذا بهم ينصتُون لحكمتها كأنَّ علىٰ رؤوسهم الطّير، فيخرجون وهمْ من أكابر الزُّهاد[2]!! هكذا أحبَّ مخرجو هذه القَصَص أنْ

---

(١) انظر كتاب: نزهة النّاظرين في الأخبار والآثار المروية عن الأنبياء والصَّالحين (ص٢٤٣ و٢٤٤) بتصرف يسير. وإنّني أتركُ للقارىء الكريم هذه القصَّة أو الأقصوصة كي يدرك وضْع هذه الكرامات المُخترعة والمصنوعة التي أُلصقت برابعة وغيرها، ولا ندري هل رفَع ذلك مِنْ شأنها، أمْ غضَّ شأن المرأة في العُصور الأولى المشرقة، فكيف تقضي رابعةُ الليل في عبادةٍ مع رجل ليس عادياً ـ وإنما هو لصّ عيّار شاطر ـ وبسرعةِ البرق الخاطف تحوّلَ من شريرٍ مارق إلى عابد زاهد حينما شاهدها وهي تتعبّد؟!

ومما قاله القُصَّاص والوضاعون ومحبو الأخبار المُتَخَيَّلة: أنّها كانت تقضي ليالي ذوات عدد في العبادة مع سفيان الثّوري ـ كما مرَّ معنا ـ وليس هذا من خُلُقِهِ، ولا من خُلُقِ المرأة المسلمة الطاهرة العابدة الزاهدة، أليس الحبيبُ المصطفى ﷺ قد قال: «ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما»؟ فكيف غاب عن بال رابعة والثوري هذا؟! إن هذا لشيء عجيب!! وسبحان الله عما يصفون.

(٢) يبدو أنَّ قَصَص السّارقين قد غطّى قسماً لا بأسَ به منْ حياة رابعة العدويّة، وقد ذكر المناوي قصّة أحدهم ـ كما مرَّ معنا ـ وقبله بزمنٍ طويل ذكر قصّة مشابهة بأسلوب قريب: الفخر الرازي، وذلك في تفسيره الكبير، فقد أورد قصة حلوة عن سارق دخل بيت رابعة، ولكنّه بعد أن حمل المتاع لم يجدِ البابَ فقال: باتت رابعة ليلة=

يجعلوا من قَصَص اللصوص مع رابعةَ مَسْرحاً للحكمة والتّوبة، ومن الملفتِ للنّظر والغريب بآن واحد أنَّ هؤلاء اللصوص بُلغَاءُ فُصَحاءُ يجيدون الشّعر والنَّثْر النَّاصع!!

* إنّه كما نُسِب لرابعة كثير من الشّعر، نُسِبَ لها كذلك كثيرٌ منَ النَّثْر، وكثيرٌ منَ الأقوال التي يعجزُ فحول البلغاء عن قولها في لحظاتِ المفاجأة أو في موقفٍ سلبي، إلا أنَّ أغلبَ الظَّنَّ قد وُضعَتْ تلكم الحِكم وصُنِعَت ثمّ عُجنْت وخُبِزَتْ، ونُسِبَتْ لرابعة، ومن ذلك قولها في الإغراق بمحبّة الله تعالىٰ: إلهي، اجعلِ الجنّةَ لأحبابك، والنّار لأعدائك، أمّا أنا فحسبي أنتَ!.. وقولُها أيضاً: إلهي، أغرقْنِي في حبِّكَ حتى لا يشغلني شيءٌ عنك.

* وتَبْرُزُ محبتها في المناجاة فتقول في سكونِ الليل هذه الكلمات التي تناجي فيها ربّ العالمين خالق كلّ شيء: إلهي، أنارتِ النُّجومُ، ونامتِ العيونُ، وغلقتِ الملوكُ أبوابَها، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك.

إلهي، هذا الليل قد أدبرَ، وهذا النَّهار قد أسْفَرَ، فليتَ شعري أقبلتَ منّي ليلتي فأُهَنَّأَ، أمْ رددتها عليَّ فأُعزَّىٰ؟ فوعزّتك هذا دأبي ما أحييتني وأعنتني، وعزّتك لو طردتني عن بابك ما برحتُ عنه لما وقع في قلبي من محبّتك.

* ومما يشغَل ألسِنَة النَّاس، ويداعبُ خيالَهم ما نُسب إليها قولها المشهور: ما عبدتُه خوفاً منْ ناره، ولا حبّاً في جنَّتِه، فأكونُ كالأجير السُّوء، بل عبدتُه حبّاً له وشوقاً إليه[1].

= في التهجد والصلاة، فلما انفجر الصبح نامت، فدخل السَّارق دارها، وأخذ ثيابها، وقصد الباب، فلم يهتد إلى الباب، فوضعها فوجد الباب، ففعل ذلك ثلاث مرات، فنودي من زاوية: ضع القماش واخرج، فإن نام الحبيب فالسّلطان يقظان.

(التفسير الكبير ـ مفاتيح الغيب ـ للرازي ١/ ١٤٠).

(١) في الحقيقة لو تأملنا هذا الكلام الذي يُنسب لرابعة ـ أو الذي قالته ـ نجدْ أنَّه كلامٌ=

* وسمعتْ قارِئاً يتلو قولَه تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥]، فقالت: مساكين أهلُ الجنَّة في شغُل هم وأزواجهم[١].

* ومن أمثلةِ المبالغات والغلو والإغراق، ما ذكره أبو حيّان التّوحيدي في «بصَائره وذخَائره» قال: قيل لرابعة ـ وكانت ناسكة مفوّهة، وشأنُها شهير، وأمرها خطير ـ: كيفَ حبُّك لرسولِ الله ﷺ؟

قالت: إنّي لأحبُّه، ولكنّي شغلني حبُّ الخالقِ عنِ المخلوق[٢].

وعلَّقَ التّوحيديُ على هذهِ المقولة تعليقاً نفيساً فقال: هذا الكلامُ عويصُ التّأويل، خَرْطُ القَتَادِ دونَه، ولَقْط الرَّمْل أسْهَلُ منه، وهي موكولةٌ فيهِ إلىٰ اللهِ تعالى، وقد رويتُه كما رأيتُه[٣].

* إنَّ الأقوالَ والحِكَم كثيرة، وهي منسوبةٌ إلى رابعة، وقد راقَ للواضعين، ومَنْ راق لهم الحديثُ عن رابعةَ أنْ يضعوها على لسانها، أو ينسبوا أقوالاً رقيقةً لها وإلى غيرها، فابتعدوا عن الحقيقةِ، بل إنَّ في بعضِ هذه الأقوال إساءة لمن نُسبت إليه[٤].

رَابِعَـــةُ في مِيْزَانِ وَأَقْـوَالِ العُلَمَـــاء:

* عندما تحدَّثَ الإمامُ الذَّهبيُّ عن رابعةَ العدويّة قال عنها: رابعةُ العدويةُ البصريةُ، الزَّاهدة، العَابدة، الخاشعة، أمّ عمرو، رابعةُ بنت إسماعيل.

= خطيرٌ مخيفٌ، لا ينسجم مع الدِّين الإسلامي، بل فيه جرأةٌ عجيبة، ومخالفات لا تُحصر، فتأمل.

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) انظر: البصائر والذخائر (١/ ١٥٠).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) يُنسب لرابعة هذا القول، وفيه بعض الاعتدال؛ قيل لرابعة وقد انصرفت من الجبانة في يوم فطر: كيف رأيت الناس في هذا اليوم؟
قالت: رأيتكم خرجتم لإحياء سُنَّة وإماتة بدعة، غير أنكم أظهرتم نعمة أدخلتم بها على الفقراء مذلة. (البصائر والذخائر ٣/ ٢١).

* وذكرها الذَّهبيُّ أيضاً في تاريخه فقال: رابعةُ العدويةُ العابدةُ البصريةُ المشهورة بالتّألُّه والزُّهد[١].

* وأمّا ابنُ خلّكان، فقد طابَ له أنْ يفتتح ترجمتها بقوله: أمُّ الخير، رابعة ابنة إسماعيل العدوية البصرية، مولاة آل عتيك، الصَّالحة المشهورة، كانت مِنْ أعيانِ عصرها، وأخبارها في الصَّلاح والعبادة مشهورة.

* وفي تاريخه «البداية والنّهاية» ذكرها ابنُ كثير فقال: رابعةُ العدويةُ البصريةُ العابدةُ المشهورةُ، أثنى عليها أكثر النّاس، وقد ذكروا لها أحوالاً وأعمالاً صالحة، وصيامَ نهارٍ، وقيامَ ليلٍ، ورؤيت لها مناماتٌ صالحة.

* وقال الشَّريشي[٢] عنها: بلغتْ من النُّسك والزُّهد منزلة شريفة، وكانت منوّرة البصيرة، مطهّرة السّريرة، حظيت بالمكاشفات الرّبانيّة.

* وذكر ابنُ العماد الحنبلي ترجمتها في شذراته فقال في بدايتها: رابعة البصريّة العدوية، شهيرة الفَضْل.

* وقال المناوي في «طبقاته»: رابعة العدويّة القيسيّة ثمّ البصرية، رأسُ العابدات، ورئيسةُ النّاسكات القَانتات، وهي إحدىٰ النّساء اللاتي تقدمْنَ ومهرنَ في الفضْل والصَّلاح، كأمّ أيوب الأنصاري، وأمّ الدّرداء، ومعاذة العدويّة، وهي من بينهن مشهورة بعظم النُّسْك، ومزيد العبادة، وكمال النّزاهة والزهادة[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٤١).

(٢) «الشّريشي»: جمال الدين أبو بكر محمّد بن أحمد بن محمد البكريّ الوائليّ الأندلسيّ، الفقيه المالكي، الأصولي المفسّر، ولد سنة (٦٠١ هـ)، وسمعَ من العلماء ببغداد ودمشق وغيرها، وكان بارعاً في مذهب مالك، محقّقاً للعربية، عارفاً بالكلام والنّظر، قَيِّماً بكتاب الله وتفسيره، جيّد المشاركة في العلوم، ذا زُهْد وتعبُّد وجلالة، شرح مقامات الحريري شرحاً ممتعاً، وتوفي في الرابع والعشرين من رجب سنة (٦٨٥ هـ) وعمره (٨٤ عاماً) ـ رحمه الله ـ.

(شذرات الذهب ٧/ ٦٨٥).

(٣) انظر: الطبقات الكبرى للمناوي (ص٣) بتصرف يسير. وتوجد من هذا... =

* وأمّا أبو عُثمان الجاحظ، فقد طابَ له أن يشيرَ إلى النُّساك والزُّهاد من أهلِ البيان، فذكرَ طائفةً من أعلامِ الزُّهاد من الرِّجال، ثمّ تعرضَ إلى ذكْرِ النّساء الزّاهدات، ومنهن رابعة، بعد أنْ أثنى عليهن فقال: ومنَ النِّساء النَّاسِكات والزَّاهدات: رابعةُ القيسيّة، ومعاذة العدويّة[1] امرأة صِلَة بن أشْيم، وأمّ الدَّرداء[2].

* ومن نساءِ الخوارج: البَلْجاء، وغَزَالة[3]، وقَطام، وحَمادة، وكَحيْلة.

= الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية.

(١) معاذة بنتُ عبد الله العدويّة البصريّة تكنى «أمّ الصهباء» زوجُ صلة بن أشيم العدوي النّاسك، روت عن عائشة وعلي ـ رضي الله عنهما ـ؛ وروى عنها قتادة، والحسنُ البصري، وأيّوب السّختياني، وعاصم الأحول وغيرهم، وكان يُقال: إنَّها لم تتوسد فراشاً بعد أبي الصّهباء حتى ماتت؛ وكان أبو الصّهباء قد قُتِل شهيداً في غزاة، في أوّل إمْرةِ الحجّاج على العراق سنة (٧٥ هـ)، واجتمعتِ النّساء عند معاذة للتعزية، فقالت لهن ونفحاتُ الإيمان والتّسليم والاستسلام تسيلُ من كلماتها: مرحباً، إن كنتنَّ جئتن لتهنئنني فمرحباً بكن، وإن كنتنْ جئتن لغير ذلك فارجعن. وكانت تقول: عجبت لعين لا تنام، وقد عرفت طول الرقاد في ظلم القبور. (تهذيب التهذيب ١٢/ ٤٥٢)، و(صفة الصفوة ٣/ ١٣٩) مع الجمع والتصرف بينهما. وانظر سيرتها في كتابنا «نساء من عصر التابعين» (٢/ ٣٩ ـ ٤٩).

(٢) أمُّ الدرداء، زوج الصَّحابي الجليل أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ وهما ثنتان:
أمّ الدّرداء الكبرى، واسمها: خيرة بنت أبي حدرد.
وأمّ الدّرداء الصُّغرى، واسمها: هُجيمة بنت حُيي الأوصابية، وأعتقد أنَّ الجاحظَ قد قصدَ بذكره من النّاسكات: أمّ الدرداء الصغرى، إذ تنتشرُ أخبارها، وهي بذلك مشهورة. هذا وقد توسَّعْنا بترجمتها في كتابنا: «نساء من عصر التَّابعين» (٢/ ١٠٥ ـ ١٢٥).

(٣) غزالةُ الشَّيبانية: زوج شبيب بن يزيد الخارجي الشَّيباني، كانت من الشَّجاعة والفروسية بالموضع العظيم، وكان الحجّاج في بعض حروبه قد هرب منها، فعيّره أسامة بن سفيان البجلي بقوله:

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نَعامةٌ ... فتخاء تنفرُ منْ صفير الصَّافر
هلاّ برزتَ إلى غزالةَ في الضّحى ... بل كان قلبُك في جناحي طائر

* ومن نساءِ الغَالية: ليلىٰ النَّاعظية[1]، والصَّدوف، وهند[2].

* وقد أثنى على رابعةَ عددٌ من علماء وأدباء العصر الحديث، وخصوها بأقوالهم ودراساتهم وهي كثيرةٌ، فمنها ما قاله الشَّيخ يُوسُف النبهاني: رابعة العدوية القيسيّة البصرية، أشهر النّساء العارفات بالله تعالى[3].

* وقال عمر رضا كحالة في مطْلَع ترجمتها: رابعةُ بنتُ إسماعيل العدوية[4] صُوفية كبيرة، وعابدةٌ شهيرةٌ، تمكَّنَتْ من معرفةِ دقائق التّصوف مكاناً علياً، واستفتاها في دقائق التّصوف كبار المتصوفة في عَصْرِها.

* وقال عبد الرحمن بدوي: إنَّ رابعةَ تنتسبُ إلى الجيلِ الأوّل من الصُّوفية المسلمين الحقيقيّن الذين أشاعوا في التّصوّف روحاً جديدة كلّ الجِدّة على التّطور العام للحياة الرُّوحية في الإسلام.

* وأقوالُ المؤلّفين والمصنّفين والعلماء كثيرة مشهورة في رابعةَ العدوية، وكلُّها تشيرُ إلىٰ صلاحها وإلى عبادتها وصلاتها، وتصفُ ما كانت عليه من الزُّهد والنُّسك، كما تذكر أبرز صفاتها وأحوالها، وهذا بلا شكّ يدلُّ على مكانةِ رابعةَ في تاريخ النِّساء المتصوّفات، بل تكاد تكون أشهر النّساء في هذا المضمار.

رَابِعَـةُ والرّحْلَـةُ الأَخِيْـرَةُ:

* عشْنا في الصَّفحاتِ الماضيات ساعات لطيفة مع سيّدة زاهدات عصرها، وصفية ناسكاتِ دهرها رابعة العدوية.

* وقبل أنْ نشهدَ رحلة الخلود لهذه العابدة النّاسكة، لا بد أنْ نشهدَ

---

(١) ليلى النّاعظية، إحدى نساء الغالية، منسوبة إلى بني ناعظ، وهي بطن من العرب.

(٢) انظر: البيان والتبيين للجاحظ (١/ ٣٦٤ و٣٦٥) و(٣/ ١٩٥)، بتحقيق: عبد السَّلام هارون.

(٣) جامع كرامات الأولياء (٢/ ٧١).

(٤) شهيدة العشق الإلهي (ص١٠).

الأيّام الأواخر من رحلةِ حياتها المعطاء في عالم التَّصوُّف والعبادة.

* قال عبدُ الله بنُ عيسى ـ وكان من زهّاد عصرها ـ: دخلتُ على رابعةَ العدويةِ بيتَها، فرأيتُ على وجهها النّور، وكانت كثيرةِ البكاءِ، فَقَرأَ رجلٌ عندها آيةً من القرآنِ الكريم، فيها ذِكْرُ النار، فصاحت ثمَّ سقطَتْ.

* ودخلتُ عليها وهي جالسةٌ على قطعةِ حصير قديم خَلَق، فتكلّم رجلٌ عندها بشيء، فجعلتُ أسمعُ وقْعَ دموعها على الحصير، ثمّ اضطربتْ وصاحتْ باكيةً، فقُمنا وخرجنا.

* ومن الجدير بالذّكْرِ أنَّ رابعةَ العدويةَ كانت منَ النِّساء المعمَّرات اللواتي بلغنَ منَ الكِبَر عتياً، واشتعلَ رأسهنَّ شيباً، ووهَنَ العظمُ منهن، إلا أنَّ زهدهن لم يُصَبْ بالوهن، أو الضَّعف، بل زادَ قوة مع تقادُم الأيّام والأعوام.

* ذكر محمّد بنُ عمرو هذا فقال: دخلتُ على رابعةَ العدوية في بيتها، وكانت عجوزاً كبيرة بنت ثمانين سنة، فرأيتُ في بيتها قطعةَ حصير بالية، وكان سِتْرُ البيت منْ جلْدٍ، وربّما كان منَ الحصير، ورأيتُ جرَّةً كبيرةً، وجلداً هو فراشها وهو مصلاها، وكان لها مشْجَبٌ[1] من قَصَبٍ عليه أكفانُها، وكانت إذا ذكرتِ الموتَ انتفضتْ، وأصابَتْها رِعْدةٌ، وإذا مرَّتْ بقومٍ عرفوا فيها العبادة، لما يظهر عليها منَ الأحوال ومن الصَّلاح[2].

* وكانت رابعةُ في أيّامها الأخيرة كثيرةَ الرّكوع والسُّجود، تَصِلُ النَّهار بالليلِ في الطَّاعات والبكاء؛ وصورة هذه العبادة يجلوها سجف بن منظور فيقول: دخلتُ على رابعةَ وهي ساجدةٌ، فلما أحسَّتْ بمكاني، رفعتْ رأسها، فإذا موضعُ سجودها كهيئةِ الماءِ المستنقع منْ دُموعها، فسلَّمَتْ، فأقبلتْ عليَّ فقالت: يا بني ألَكَ حاجة؟!

فقلتُ: جئْتُ لأسلِّمَ عليك.

---

(١) «المِشْجب»: ما تعلّق عليه الثياب، ويكون من خشب ونحوه.

(٢) عن صفة الصفوة (٤/ ٢٧ و٢٨) بتصرف يسير.

قال: فبكتْ، وقالت: سَتْرُكَ اللهمّ سَتْرُك.

ودعتْ بدعواتٍ، ثم قامتْ إلى الصَّلاة، وانصرفتُ[١].

* أمّا عن وفاةِ رابعة، فتحدثنا عنْ ذلك عبدةُ بنتُ أبي شوال، وقد شهدتِ اللحظاتِ الأخيرةِ من حياة سيّدتها رابعة[٢]، تقول عبدة: لما حضرتْ رابعةُ بنتُ إسماعيل العدوية الوفاة، دعتني إليها وقالتْ لي: يا عبدةُ لا تؤذني[٣] بموتي أحداً منَ الخلق، وهذه جبّتي أمامَك كفّنيني فيها ـ وكانت جبّةً من شَعْر تقومُ فيها إذا هدأتِ العُيون ـ.

قالت عبدة: فلمّا ماتتْ رابعةُ كفَّنّاها في تلك الجُبَّة، وفي خمار صوف كانت تلبسه في أوقاتِ العبادة أيضاً. ثمّ إنّي رأيتُها بعد ذلك بسَنَة أو نحوها في منامي، وعليها حلّة إستبرق خضراء، وخمارٌ مِنْ سُندس أخضر، لم أرَ شيئاً قطّ أحسن منه، فقلتُ لها: يا رابعة ما فعلتِ بالجبَّةِ التي كفنّاك فيها والخمار الصّوف؟

فقالت: إنَّه، والله نُزِعَ عنّي، وأُبْدِلْتُ به ما ترينه عليَّ، وطُويَتْ أكفاني، وخُتِمَ عليها، ورُفعتْ في علّيّين ليكمل لي بها ثوابُها يومَ القيامة.

فقلت لها: لهذا كنتِ تعملين أيامَ الدُّنيا؟!

فقالت: وما هذا عندما رأيتُ منْ كرامةِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأوليائه؟

قلتُ: فما فعلتْ عُبيدة بنتُ أبي كلاب ـ وكانت عابدة زاهدة ـ؟

فقالت: هيهات هيهات، سبقتنا واللهِ إلىٰ الدَّرجات العُلا.

---

(١) صفة الصفوة (٤/ ٢٨).

(٢) لم تتخذ رابعة خادماً لها، فقد قيل لها: لو كلّمتِ رجال عشيرتك، فاشتروا لك خادماً تكفيك مهنة بيتك. قالت: واللهِ، إني لأستحي أن أسأل الدنيا مَنْ يملك الدنيا، فكيف أسألها من لا يملكها؟! (البيان والتبيين ٣/ ١٢٧).
وهناك بعض المصادر تقول: إن عبدة هذه كانت تخدم رابعة!!

(٣) «لا تؤذني»: لا تخبري، ولا تعلمي.

فقلت: وبمَ وقد كنتِ عند النّاس أكبر منها وأكثر عبادة؟

قالت: إنّها لم تكن تبالي على أيّ حال أصبحت منَ الدُّنيا وأمست.

قلتُ: فما فعل أبو مالك، ـ أعني: ضَيغَماً ـ[1].

قالت: يزورُ اللهَ متَى شَاءَ.

قلت: فما فعل بشْرُ بنُ منصور[2]؟

قالت: بخٍ بخٍ أُعطيَ واللهِ فوق ما كان يأمُل ويؤمل!

قلت: فمريني بأمْرٍ أتقرّب به إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

قالت: يا عبدة، عليك بكثرة ذِكْره، يوشِك أنْ تغتبطي بذلك في قَبْرِك[3].

* بقي أنْ نعرفَ أنَّ رابعةَ العدوية توفيتْ علىٰ أصحّ الأقوالِ في سَنَة (١٨٥ هـ)[4] بعد أن عمّرت ثمانين سنة.

---

(١) ضيغم بن مالك، الزّاهد القدوة الرّباني، أبو بكر الرّاسبي البصري، كان أحدَ الصُّلحاء الفضلاء، وكان وردُه في اليوم والليلة أربعمئة ركعة، وصلى حتى انحنى، وكان من الخائفين البكائين، توفي سنة (١٨٠ هـ)، ـ رحمه الله ـ. (سير أعلام النّبلاء ٨/ ٤٢١).

(٢) بشرُ بنُ منصور، أبو محمّد الآزدي البصريّ الزّاهد، الإمام المحدّثُ الرباني القدوة، كان آية في الورع والرقّة؛ وكان يصلّي كل يوم خمسمئة ركعة، وكان وردهُ ثلْثَ القُرآن، وكان ضغيم بن مالك صديقاً له، وأخباره كثيرة في الزّهد والعلم، توفي هو وضغيم في يوم واحدٍ سنة (١٨٠هـ) ، ـ رحمه الله ـ. (سير أعلام النُّبلاء ٨/ ٣٥٩ ـ ٣٦٢).

(٣) عن صفة الصفوة (٤/ ٣٠) بتصرف؛ وانظر: مرآة الجنان (١/ ٢٨٢ و٢٨٣).

(٤) هنالك أقوالٌ في المصادر تقول: إنَّ رابعة قد توفيت سنة (١٣٥ هـ)، ومنها مرآة الجنان لليافعي، فقد قال ما نصّه: وفيها (أي سنة ١٣٥ هـ) توفي: السَّيدةُ الولية ذات المقامات العلية، والأحوال السّنية، رابعة ابنة إسماعيل العدوية، الشّهيرة الفضل البصرية (مرآة الجنان ١/ ٢٨١). وفي اعتقادنا أنَّ وفاتها كانت سنة (١٨٥ هـ) وذلك لمعاصرتها رياح بن عمرو القيسي المتوفى في سنة (١٨٠ هـ)، =

* ووردَ في بعض المصادر أنّها توفيتْ في بيتِ المقدس. قال ابنُ خلّكان: وقبرها يُزار، وهو بظاهر القُدس من شرقيّه، على رأس جَبَل يُسمّى الطُّور[1].

* وبعد؛ فتلكم صورٌ حِسَان لطيفات متموجات عن رابعة العدوية، أشهر متصوّفة في تاريخ النّساء، أرجو أنْ أكونَ قد وفّقتُ في رسمِ ملامح صورتها، وأنْ أكونَ قد وفقتُ في الحديث عنها، وإبرازها في ثوبٍ جديد لتطلّ منه على نافذةِ التّاريخ، ولكي تبقى إحدىٰ نوادر نساء التّاريخ في حضارتنا الإسلاميّة، وفي تاريخ وتواريخ نسائنا العربيات.

* في الختام: أرجو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يلهمنا الصَّواب في أقوالِنا وأفعالِنا، وأرجو القارىء الكريم أنْ يخصّني بدعوةٍ صالحةٍ منه بظهر الغيب، وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربّ العالَمين.

* * *

= وصداقتها سفيان الثوري الذي قدم البصرة بعد سنة (١٥٥ هـ)، وكذلك خطبة محمّد بن سليمان الهاشمي لها الذي كان والياً للعباسيين عليها، وقد مات سنة (١٧٢ هـ). وهناك أدلّة أخرى يمكن للقارىء الفطن أن يستنبطها من خلال سيرتها.

(١) انظر: مرآة الجنان (١/ ٢٨٢)، وقال اليافعي: سمعتُ من بعض أهل بيت المقدس يذكر أنَّ المدفونة في الجبل المذكور رابعة أخرى غير رابعة العدوية، والله أعلم.



١٢
زبيدة بنت جعفر

في رحَابِ العَظَائِم:

* إذا أردْنا أنْ نُدْرِكَ في أيِّ بيتٍ عاشتْ هذه المرأةُ الفاضلة، ومنْ أيِّ دوحَةٍ بَسَقَتْ، ومَنْ يَحْسُنُ فيها قولُ الشَّاعِرِ والنَّاثِرِ، فلنَقْتَطفْ ما كَتَبَهُ عنها الإمام الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ حيثُ قال: السِّتُّ المُحَجَّبَةُ، كانتْ عظيمةَ الجَاهِ، والمالِ، لها آثارٌ حميدةٌ في طريقِ الحجِّ، وكان في قَصْرِها مِنَ الجواري نحو منْ مئةِ جارية كلُّهن يحفَظْنَ القُرآن[1].

* وهذه المرأةُ قالَ فيها الشَّاعر:

بَلَغْتِ مِنَ المفَاخِرِ كُلَّ فَخْرٍ ... وجَاوَزْتِ الكلامَ فَلا كَلامَا
إذا نَزَلَتْ مَنَازِلَها قُرَيشٌ ... نَزَلْتِ الأَنْفَ منْها والسَّنَامَا
تُقىً وسَماحةٌ وخُلُوصُ مَجْدٍ ... إذا الأَنْسابُ أَخْلَصَتِ الكِرامَا

* وأمَّا ما جادتْ به أقلامُ أَعْلياءِ العُلماء، وأصْفياءِ المُنصفين عن زوجها؛ فهي كثيرةٌ لا تُحْصَىٰ، يكْفيْنا منها قولُ أميرِ المنْصفين الإمام الذَّهبي ـ رحمه الله ـ إذْ وصَفَه بما كان فيه حقّاً فقال: أنْبَلُ الخلفاءِ، وأحْشَمُ الملوكِ، كان ذا حجٍّ وجهاد، وغَزْو وشجاعةٍ ورأي، كان يصلّي في خلافَتِهِ في كلِّ يوم مئةُ ركْعة إلىٰ أنْ مات؛ ويتصدَّقُ بأَلْف، وكان يحبُّ العُلماء، ويعظِّمُ حُرُمَات الدِّيْن، ويبغضُ الجِدالَ في الكَلام[2].

* ومحاسِنُه كثيرةٌ، وحجَّ غَيْرَ مرَّة، وَلَهُ فُتُوحاتٌ ومواقفُ مشهورةٌ، ومنها: فَتْحُ مدينة هرقْلَة، غَزَاها بنفْسِه[3].

* وحجَّ في خلافتِهِ ثماني حِجَج ـ وقيل: تسع ـ، وغزا ثماني غَزَواتٍ، حتى قال فيه أبو السَّعلى:

فَمَنْ يَطْلُبْ لقاءَكَ أَوْ يُرِدْهُ ... فبالحرمينِ أو أَقْصَىٰ الثُّغور
ففي أرضَ العدوِّ علىٰ طِمِرٍّ ... وفي أرضِ التَّرفُّهِ فوقَ كُورِ

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٤١).
(٢) سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٨٧).
(٣) الأخبار الطّوال للدينوري (ص٣٩).

وما حَازَ الثُّغورَ سِواكَ خَلْقٌ   مِنَ المتخلِّفِيْن علىٰ الأُمورِ[1]

* وكان قد اتَّخذَ قلنسوةً مكتوباً عليها: «غَازٍ، حاجٌّ» فكان يلبُسها[2].

* وكان شَهْماً شُجاعاً حَازِماً جَواداً ممدوحاً، فيه دِيْنٌ وسُنَّةٌ وتخشُّعٌ، وكان يخضع للكبارِ ويتأدَّبُ معهم، وله مشاركةٌ قويّةٌ في الفقْهِ وبعض العلوم والأدبِ.

* وصاحبُ هذه المحاسن هو أبو جَعْفر هارون الرَّشيد الخليفة الشَّهير في عالَم خلفاءِ بني العبَّاس، أمّا زوجه التي درجتْ في رحابِ العظائم فهي زُبيدة[3] بنتُ جعفر بنِ المنصور أبي جعْفر، العبَّاسيّة الهاشميّة القرشيّة، وتُكْنى أمّ جَعْفر، أمّا اسمها: فهو أَمَةُ العزيزِ بنتُ جعفر[4]، وقيل اسمها: أمةُ الواحِد، ولقبها زبيدة[5].

---

(١) تاريخ الطبري (٨/ ٣٢١)، ومرآة الجنان (١/ ٤٤٤)، وما أجمل قول مروان بن أبي حفْصَة فيه:

وسُدَّتْ بهارونَ الثُّغور فأُحكِمَتْ   به مِنْ أمورِ المسلمينَ المرائرُ

(نهاية الأرب ٢٢/ ١٦٣).

(٢) البداية والنهاية (١٠/ ٢١٤).

(٣) عُدْتُ إلى أكثر من (٣٠٠ مصدر) عندما كتبتُ عن زُبيدة، ولستُ أُبالغُ في هذا، فهو حقيقة، وسيدركُ القارىءُ الكريمُ الفَطِن ذلك منْ خلالِ هذه الدِّراسة القيّمة عن هذه السَّيدة الكريمة؛ وسيجد معلومات جديدة للمرة الأولى ومن هذهِ المصَادر: تاريخ بغداد (١٤/ ٤٣٣ و٤٣٤)، وشرح مقامات الحريري للشَّريشي (٢/ ١٦٦)، ووفيات الأعيان (٢/ ٣١٤ ـ ٣١٧)، والبداية والنّهاية (١٠/ ٢٨٣)، والنّجوم الزاهرة (٢/ ٢١٣ و٢١٤)، والكاملُ في التّاريخ (انظر الفهارس ١٣/ ١٣٥)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٤١)، والمعارف (ص٣٧٩ و٣٨٣)، والمحبّر (ص٣٩ و٤٠٥)، والموشّح (ص٣٩٣ و٤١٥)، والدرّ المنثور (ص٢١٥ ـ ٢١٨)، وشاعرات العرب (ص٢١٢ و٢١٣)، والمناسك للحربي (انظر الفهارس)، والعقد الفريد (انظر الفهارس ٨/ ٤٣) والأغاني (انظر الفهارس) وغيرها كثير جداً.

(٤) انظر: تاريخ بغداد (١٤/ ٤٣٣).

(٥) انظر: تاريخ القضاعي (ص٤٢٤) طبعة جامعة أم القُرى بمكة المكرمة (١٤١٥ هـ).

* ويبدو أنَّ مولدَ زبيدة[1] كان قُبيل منتصفِ القرنِ الثَّاني الهِجْري، فقد وُلدت في سنةِ (١٤٥ هـ)[2] بقصر حَرْبٍ[3] بالمَوْصِل، وفَتَحَتْ عينيها وهي ترفلُ في أحضَانِ النّعم والخيراتِ، وقد حَبَاها اللهُ جَمالاً وبياضاً، وألقى محبَّتها في قَلْبِ جَدِّها أَبي جعفر المنصور الذي كان يحبُّها حُبّاً شديداً، وهو الذي أَطْلَقَ عليها لقب زُبيدة الذي عُرِفَتْ به؛ بل واشتهرتْ بهِ في عالَم النِّساء.

* قال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ: كان أبو جعفر المنصور يلاعبُها، ويرقِّصُها وهي صغيرةٌ، ويقول: إنّما أنتِ زُبيدة؛ لبياضها ونضَارتها، فغلبَ عليها ذلك، فلا تُعْرَفُ إلا به[4]، أمّا والدةُ زُبيدة فتُدعى: «سلسبيل» وهي أمُّ ولد[5].

---

(١) قال ابنُ منظور ـ رحمه الله ـ: زُبيدة: لقب امرأة، قيل لها: زُبيدة، لِنعْمةٍ كانتْ في بَدَنِها، وهي أمُّ الأمين محمّد بن هارون الرّشيد (لسان العرب ٣/ ١٩٣ و١٩٤) دار صادر.
وقال الزمخشري ـ رحمه الله ـ: أزبد الشّيء: اشتدَّ بياضه، وأبيض مُزْبد نحو يَقَق. (أساس البلاغة ص٢٦٦).

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (١٠/ ٣٣٩).

(٣) «قصر حرب»: هو قصرٌ بَنَاهُ حربُ بن عبد الله، وهو من أكابر قُوّاد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، وكان المنصورُ قد وجّه حرب بن عبد الله مع ولدِه جعفر أبي زُبيدة ليكون نائباً عن مالك بن الهيثم في ولاية الموصل، وهذا القصر بأسفَل الموصل.
قال ابنُ الأثير ـ رحمه الله ـ في «كامله»: وُلدَتْ زُبيدة بقصر حرب، وعنده يومنا هذا قرية كانت مُلْكاً لنا، فَبَنَيْنا فيها رباطاً للصُّوفية، و وقفنا القرية عليه، وقد جَمَعْت كثيراً من هذا الكتاب ـ أي: الكاملِ في التّاريخ ـ في هذه القرية في دار لَنا بها، وهي منْ أَنْزَهِ المواضع، وأحسنِها، وأَثَرُ القصرِ باقٍ إلى الآن، فسبحان مَنْ لا يزول، ولا تغيّره الدهور. (الكامل في التاريخ ٥/ ٥٧٢).

(٤) انظر: البداية والنّهاية (١٠/ ٢٨٣)، ومرآةُ الجنان (٢/ ٦٣).

(٥) المعارف لابن قتيبة (ص٣٧٩).

مَقَامُهَا ومكَانَتُها وتفرُّدُها في الفَضْل:

* ما أكرمَ مقام زُبيدة! وأيّ منْصفٍ لا تأخذه روعةُ الفَضْل وهو يشدو بمقام أمّ جعفر وفضلها؟! فهي سيّدةٌ بطلعتِها الفخامةُ والشَّرفُ يتجلّيان، والجَمالُ والإفْضالُ يتألَّقان:

ومَزَايا كَالزَّهْرِ نَفْحاً وَطِيْباً وكَزَهْرِ السَّمَاءِ بَهَاءً ونُورا

مِنْ شرفِ حَسِيْبٍ إلى كرمِ محْتِدٍ، إلىٰ سُؤددٍ، إلى فَضْلِ حِجَى، إلى عزِّ عشيرة.

* وهٰذه المزايا ليست بالبدع من الأشياء، ولا نَبَؤُها بغريب منَ الأَنْباء، بل هي معهودةٌ في كثيرٍ منَ النِّسوَة، ومَعَ ذلك لم يكنْ لأَسْمائِهنَّ نصيبٌ في عالَم الشَّهيرات، فقد طُويتْ أعلامُهُنَّ، ولم يُنْشَر ذكْرهُنَّ، ولم يَسْمُ في التَّاريخ مقامُهُنَّ، فكيف تسامىٰ اسمُ زُبيدة، وعَلَتْ منزلتها، وحلّقَ مقامُها؟!

* إنَّما كان لزُبيدة ذلك المقام النَّفيس بشيءٍ آخر غير مزاياها الحِسَان، ذلك الشَّيء هو ارتقاءُ مداركها فوقَ مداركِ النِّساء في عَصْرِها، وسلامةُ ذوقها، وطلبُها لمعالي الأمورِ، وميلُها إلىٰ الفَضَائِل ومزايا الكمال، وشغفُها بالعِلْم وأهلِ العِلْم؛ فقد أدلىٰ الخطيبُ البغداديُّ ـ رحمه الله ـ بهذه الشَّهادة النَّاصعة لها فقال: كانتْ معروفةً بالخيرِ والإفْضال على أهلِ العلْم، والبرِّ للفقراء والمسَاكين[1].

* فالحجارة الكريمةُ عند مَنْ لا يعرف مزيّتها ليس لها مِنْ قيمة، وهي عند عارفيها فوقَ القِيم، وزُبيدة ابنة جعفر تستحقُّ الرِّفْعَة، حيث نالتْ مقاماً كريماً في نِساء الخُلفاء، بل نساء خلفاء بني العبَّاس، لِما لها من آثارٍ مشكورةٍ في تاريخ الإسلام في عَهْدها وما بَعْدَه، وما تركَتْه من آثارٍ لا يمكنُ لحوادثِ الأيام أنْ تمحوهُ منْ ذاكرةِ التَّاريخ، بل ستبقىٰ الأجيالُ تهمِسُ لأَحْفَادِها، وتشدو بمغاني زُبيدة، ومعاني فضائِلها في الحرمَيْن الشَّريفَيْنِ، وخُصوصاً في أمِّ القُرى ومَا حولها.

---

(١) تاريخ بغداد (١٤/ ٤٣٣).

* ولما رُحْتُ أقلِّبُ صَفَحاتِ المصادر، وأقلِّبَ النَّظر في أخبارِ أمِّ جعفر، أَلْفَيتني أَقِفُ أمامَ صَرْحٍ منَ الفضائل قد شيَّدته بزَواهِرِ إنسانيّتها الفُضْلى، وبنورِ هذه الزَّواهر ضربَتْ في القدحِ المُعلّى، ولمعتْ فضائِلُها في المكان الأعلى. لذلك ما عُذْتُ بمبتدعاتِ التَّصوُّرِ، ولا لُذْتُ بغرائبِ الحوادث، وشواذ المُصَادفَات، وخوارقِ العَادَات، ولم أَمُتّ إلىٰ أفئدةِ القُرّاء إلا بمألوفٍ لا تضيقُ بتصديقِهِ الأفكار، وهي أوضحُ من الشَّمس في وسط النَّهار.

* إننا بتذكُّرِنَا مَنْ سادوا، وشَادوا، وبتذكُّرنا مَنْ صَلحوا، وأَصْلحوا، نتذكَّر تاريخَ زبيدة، وترتاحُ نفوسنا باستجلاءِ أَحْسَنِ صُورِها، ولمَ لا نبرزُ صورتَها، وقد تركتْ كُنُوزاً منَ المحامدِ لا تَنْفَدُ مَهما دَارتِ الأيامُ وتقلبتِ الأعوامُ؟!

ومَنْ يكُنْ راعِيْهِ السَّعْدُ فَقُلْ   مَا شِئْتَ في تَيْسير مَا يَرْجُوهُ

* نَعَمْ، فقد لاحظَتْها عيونُ السَّعادةِ منذ أنْ تَنَفَّسَ صبحُ اليوم الأَوّلِ لولادتها إلى أنْ لقيتْ ربَّها، فقد تفرَّدتْ في مزايا باهرةٍ لم تَحْظَ بهَا امرأةٌ سواها، فهي امرأةٌ تَعُدُّ تسعة منَ الخلفاءِ، كلُّهم لها محرم:

- فزوجُها: أبو جعفر هارون الرَّشيد أشهرُ خلفاء دنيا بني العبَّاس.
- وابنها: محمّد الأمين خليفة.
- وابنُ زوجها: المأمون خليفة.
- وابنُ زوجها الآخر: المعتصم خليفة أيضاً.
- وابنا ابن زوجها: الواثق والمتوكّل كُلّ واحدٍ منهما خليفة.
- وعمُّها: المهدي خليفة.
- وجدُّها: المنصور خليفة.
- وعمُّ أبيها: أبو العبَّاس السَّفاح خليفة(١).

---

(١) انظر: المحبّر لابن حبيب (ص٤٠٥) بتصرف يسير. هذا وتعدُّ كلّ واحدةٍ من بنات هارون الرشيد عشرة خلفاء، كلهم لها محرم:
هارون: أبوها؛ والهادي: عمّها؛ والمهدي: جدّها؛ والمنصور: جدّ أبيها، =

ـ كما كان ابنُ عمِّها الهادي خليفةً أيضاً.

* ومنَ الفضائِلِ التي تكتنفُ زُبيدة أيضاً: أنَّه ليسَ في بناتِ هاشم عبَّاسيّةٌ وَلَدَتْ خليفةً إلا هي[1]، وما وليَ الخلافةَ هاشميٌّ ابنُ هاشميّة سوىٰ عليّ بنِ أبي طالب ـ عليه سحائب الرضوان ـ ومحمّد الأمين ابن زبيدة[2].

* وزبيدةُ واحدةٌ من ثلاثِ نسوة عربيّات، أَنْجبْن ثلاثة خلفاء من بني العبّاس، ومنَ الجدير بالذِّكْرِ أنَّ الخلفاءَ العبَّاسيّين كانوا سبعةً وثلاثينَ خليفة، ولم يكنْ فيهم عربيُّ الأمِّ إلا ثلاثة خلفاء فَحَسْب:

ـ فأوّلُهم: أبو العبّاس السَّفَّاح عبد الله بن محمّد الخليفة العبّاسي الهاشمي أوّلُ خلفاءِ بني العباس، وأمُّه: ريطةُ بنتُ عبد المدّان الحارثية[3].

ـ وثانيهم: المهدي أبو عبد الله بنُ أبي جعفر المنصور، أَحَدُ كرماء بني العبَّاس وخلفائهم؛ وأمُّه: أمٌّ موسى بنت موسى بن عبد الله الحِمْيَريّة.

ـ وثالثهم: محمّد الأمين بنُ هارون الرشيد، وأمُّه زُبيدة بنتُ جعفر بنِ المنصور الهاشميّة، وهي رأسُهُنَّ في الفَضْل والحَسَبِ والنَّسَبِ.

= والسَّفاح عم جدّها، والأمين والمأمون والمعتصم: إخوتها، والواثق والمتوكل: ابنا أخيها.

(1) تاريخُ بغداد (١٤/ ٤٣٣)، وسير أعلامِ النبلاء (١٠/ ٢٤١).

(2) انظر: سير أعلام النُّبلاء (٩/ ٣٣٥)، وانظر: العقْد الفريد (٥/ ١١٨)، والكامل في التَّاريخ (٦/ ٨٩)، ونهاية الأرب للنويري (٢٢/ ١٨٧) وغيرها.
قال الإمامُ الفاسي: لم تلد هاشميةٌ خليفةً هاشمياً سوى فاطمة بنتُ أَسَدٍ ـ رضي الله عنها ـ ولَدت عليَّ بنَ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، وفاطمةُ بنت سيّدنا رسول الله ﷺ ولَدَتْ الحسن بن علي بن أبي طالب، وزُبيدة بنت جعفر ولدت محمّد الأمين. (العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ـ تراجم النِّساء).

(3) منَ الجدير أنَّ المنصور أكبر منْ أخيهِ أبي العباس السَّفَّاح، ولكنَّ السَّبب الذي جَعَل أبا العباس يتقدّم عليه في الخلافة، هو أنَّ أمَّ أبي العباس عربية أصيلة، بينما كانت أمُّ المنصور بربرية اسمها سلامة.

اقْتِرَانُ زُبَيْـدَةَ بالرّشِيْـدِ:

* يبدو أنَّ هارون الرَّشيد كان يتطلَّعُ إلى المعالي في جميع أُموره، ولما أرادَ أنْ يتزوَّجَ أَلْفَى أنَّ زُبيدة قريبته هي المرأةُ الوحيدةُ التي تحقِّقُ آماله العِظَام، وتجعلُه قويّاً مرفوعَ الهَام، فلقد كانت زُبيدة إحدىٰ فرائدِ بنات بني العبّاس في الفَضْل والعِلْم، والتَّحلِّي بالعَفَاف؛ ولا ريب في أنَّها قَدْ بلغتْ مَبْلَغاً عظيماً في استلام سَنَام الثَّقافات المتنوِّعَةِ في عَصْرِها، وفي مقدمتها علوم القُرآن، والسُّنَّة المطهّرة، ومن ثمَّ المعارف والآداب، وفي مقدمتها نَظْمُ الشِّعْر، ورصْفُ رقائقِ الكلام، ورائق المعاني ـ كما سيمرُّ معنا إنْ شاء الله ـ.

* لذلك عَجَمَ الرشيدُ عِيْدَانه، فألفى أنَّ زُبيدةَ أكرم تلكم العيدان أصْلاً ومحتداً، وذِرْوتَها أدباً وفضْلاً، فسارع إلىٰ خطبتها، وعَقَدَ عليها في سنةِ (١٦٥ هـ)، وصَنَعَ وليمةً قيل بأنَّه أنفق عليها (٥٥ مليون درهماً)[١].

* وأعرس هارون بزبيدة في شَهْر ذي الحجّة من سَنَةِ (١٦٥ هـ) في قَصْرِه المعروف بالخُلْد[٢] في بغداد، وحَشَد النَّاس من الآفاقِ، وفرَّق فيهم الأموالَ، ولم يُرَ في الإسلام مثله[٣].

---

(١) تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن (٢/ ٤٢٤) بتصرف يسير.

(٢) «قَصْر الخلدِ»: هو ذلك القَصْرُ الشَّهير في بغداد، والذي بناه الخليفة العباسي الشَّهير أبو جعفر المنصور بعد الفراغ من بناء مدينة بغداد، وهو من القصورِ ذات المكانة عند خلفاء بني العبَّاس.

(٣) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ٣١٤ و٣١٥).
وقد أوردَ أبو الحسن الشَّابشتي صورةَ عرسِ الرشيد فقال: وقد جرى العُرس في قَصْرِ الخلد، وحَشَر النَّاس من الآفاق، وفرَّقَ فيهم من الأموال شيئاً عظيماً، فكانتِ الدَّنانيرُ تُجْعَلُ في جَاماتٍ ـ كؤوس ـ منَ الفضّة، والدَّراهم في جاماتٍ منْ ذهَب، ونوافجِ المِسْك، وجماجم ـ أقداح من خشب ـ العنبر، والغالية في بواطٍ من زجاج، ويُفرَّقُ من ذلك على النَّاس، ويُخْلَعُ عليهم خلع الوشي المنسوجة، وأُوقدَ في تلك الليلة بين يدي العروسين شمع العنبر من أتوار ـ آنية ـ الذَّهب، وأُحْضِر نساء بني هاشم، وكان يُدْفَعُ إلى كلّ واحدةٍ منهن كِيْسٌ فيه دنانير، وكيسٌ فيه =

* هذا وقد عزَا المؤرِّخُون، وكُتَّاب الأَدب أشياءَ كثيرة لزُبيدة، فقد قيل إنَّ السَّيدة زُبيدة كانتْ تَصْنَعُ أَعْمالاً تفوقُ مقدرة الملوكِ كمثْلِ اصطناعها بسَاطاً من الدِّيباج جمعَ صورةَ كلّ حيوانٍ من جميع الأَجْنَاس، وصورةَ كلِّ طائرٍ من الذَّهب، وأعينُها من يواقيت وجواهر، يُقالَ: إنّها أنفقتْ عليه نحواً من ألف ألف دينار[1].

مـرُوْءَتُهَــا ونُــبْلُهَـا:

* ما أوقَدَ النَّاسُ منْ نارٍ لمكرمةٍ، إلا كانت زُبيدة ممّن يصْطَلي ويوقدُ تلك النَّار، وما سارع النَّاس إلى مكرمةٍ إلا كانتْ زُبيدة منَ السَّوابق إلىٰ تسلُّق ذُراها، فقد كانت ذات نبل ومروءة قَلَّ أنْ تُوجدَ في الرِّجال، فكيف في النِّساء؟

* يبدو لي من خلالِ أخبارها بأنَّها كانت تحبُّ أن تكون أياديها وأعمالها عند ذي الرُّتبةِ القديم، وعند ذي الخلَّةِ الكريم، والمُعْسِرِ العديم، والمُسْتَضْعَفِ الحليم، وأن تكونَ صنائِعُها للمعروفِ خالصة لوجهِ اللهِ العزيز الرَّحيم.

= دراهم، وصينية كبيرة من فضة فيها، ويخلع عليها خلعة وشيء مثقّل.
(الدِّيارات ص١٥٦ و١٥٧).

(١) انظر كتاب: حضارة الإسلام في دار السَّلام (ص٩٥).
وزعم آخرون بأنَّ السَّيدة زبيدة هي ذاتُ الأثرِ الواضح في تطُّور الملابس في عصرها، ولنقرأ الفقرة التالية التي تحدثتْ عن ذلك:
كان للسَّيدة زُبيدة أثر كبيرٌ في تطوُّر الزِّي، وإدخالِ تغييرات على ملابس السَّيدات في عَصْرِها، فيُعزى إليها اتخاذ المناطق والنِّعال المرصَّعة بالجواهر، وكان فوق ذلك تسرفُ في شِراء ملابسها وتزيينها، حتى إنّها اتّخذت ثوباً منَ الوشي الرَّفيع، يزيدُ ثمنه على خمسين ألف دينار (تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن ٢/ ٤٣٠).
ولاحظ ـ عزيزي القارىء ـ هذه الأخبار وأشباهها، وأمْعِنِ النَّظر في قولهم: يُقال، يُعزى، إلخ. . . وقارن فيما قَالَه عنها ابنُ تغري بردي وغيره من المنصفين: هي منْ أعظمِ نساء عصرها دِيناً وأصلاً وصيانةً ومعروفاً، أُحصي ما أنفقته في حجةٍ واحدة فكان ألفي ألف دينار. (النّجوم الزاهرة ٢/ ٢١٤).

* فقد كان لزبيدة معَ ما آتاها اللهُ منَ الجمالِ وفضائل النَّفْس، حظٌّ منَ الثَّراء أيضاً، وثراؤها في حياةِ أبيها وجدّها ثمّ زوجها، لذلك كانت شغوفةً بصنائعِ المعروف وإغاثةِ الملهوف.

* وَلَعَمْرُ الحقِّ، لقد أدركتْ زبيدةُ أنَّ الخيرَ كلَّ الخيرَ في إحياءِ المروءات بما أعطاها اللهُ من مالٍ سَخَّرَتْه لهذهِ الغايات، وخصوصاً إقالة العثرات.

* تروي المصادرُ قصصاً كثيرةً عن أنباءِ مروءتها، وتشيدُ بمعالي مكارمها، وبعراقةِ أصلها ونبلها، نختارُ منها القصَّة التَّالية التي حكاها التّنوخي ومفادها: كان داود كاتب أمّ جعفر زبيدة بنت جعفر العبّاسية، قد وضَعَ في الحبْسِ وكيلاً لزُبيدة، وقد وَجَبَ لها على هذا الوكيل في حسابه مِئتا ألف درهم.

* ومكثَ الوكيلُ في الحبْسِ بضعة أيّام، أجالَ فِكْرهُ فيمن يكتبُ لهم منْ أصحابه كيما يخرجونه من غياباتِ السّجْنِ، وهداهُ تفكيره إلى صديقين له وهما: عيسىٰ بنُ فلان، وسَهْل بنُ الصَّباح، فكتبَ لهما ويرجوهما أنْ يذهبا إلى وكيلِ زُبيدة داود ليتكلما في أمْرِ دَيْنِه وحسابه.

* وركب الرّجلان إلىٰ داود، وبينما هما في طريقهما إليه، لقيَهُما الفيضُ بنُ أبي صالح ـ وكان وزير المهدي ـ فسألهما الفيضُ وقال: ما خطبكما؟

قالا: نحنُ ذاهبان إلى داود كاتب زبيدة من أجلِ وكيلها.

فقال لهما الفيض: أتحبّان أنْ أكونَ معكما وفي صحبتِكُما.

قالا: حُبّاً وكرامة.

* وانطلقَ ثلاثتُهم إلىٰ داودَ، وكلَّمُوه في إطلاقِ الرَّجُل، فقال داود: ليس الأمْرُ بيدي، وإنّما أكتُب إلى أمّ جعفر أستشيرها. وكتبَ إليها يعلمها خبرَ القوم، وسببَ حضورهم، ومسألتهم في إطلاق الوكيل.

* وقرأتْ أمُّ جعفر الرّقعة، فوقَّعتْ فيها بأنْ يعرّفهم داود بما وجَبَ على

وكيلها منَ المال، ويعلمهم أيضاً أنَّه لا سبيلَ إلى إطلاقه دون أن يؤديَ ما عليه منَ المال.

* وقرأَ ثلاثتُهم ما وقَّعته زبيدة على الرّقعة، وهنا قال صديقا الوكيل عيسى وسَهْل: لقد قضينا حقَّ الرَّجُل، ووفينا بما وعدناه من ذهاب إلى داودَ، وقد رفضت أمُّ جعفر أنْ تطلقَ صاحبنا إلا بالمال، فقوموا نَنْصرف.

* وساءَ هذا الكلامُ الفيضَ بنَ أبي صالح فقال لهما: يا هذان، كأنَّا أتينا إلىٰ هنا لكي نؤكّد حَبْسَ الرَّجل، أليسَ كذلك؟ فقالا له: وماذا نصنعُ إذاً؟!

فأجابهم الفيض والمروءة تفيض منْ عباراته: نؤدّي عنه المال، ونخرجُه منَ الحبْسِ، ونكشفُ عنه ضائقته.

* ثم إنَّ الفيض أخذَ الدَّواة، وأمْسَك بالقَلَم، وكَتَب إلى وكيله في حَمْلِ المال عن الرّجُل، ودفع بالكتابِ إلى داود كاتب أمّ جعفر، وقال: قد أزحنا علّتكَ في المال، فادفعْ إلينا صاحِبَنا.

* وأسقِطَ في يَدِ داود ما رأىٰ، وقال للفيضِ: عُذْراً سيدي، فلا سبيلَ إلى ما طلبت حتى أعرِّفَ أمَّ جَعْفَرٍ الخَبرَ.

* وكتبَ داودُ إلىٰ زبيدة بالخبر، فوقّعت في أسْفَلِ رقعته: أنا أولىٰ بهذه المكرُمَة منَ الفيضِ بنِ أبي صالح، فاردُدْ عليه كتابَه بالمالِ، وادفعْ إليه بالرَّجلِ، وقُلْ له لا يعاوِدْ مثلَ ما كان عليه[1].

مِنْ آثَارها في الحج:

* في سَنةِ (١٨٦ هـ) أزمعتْ زُبيدة علىٰ أداءِ فريضة الحجّ إلىٰ بيتِ الله الحرام، وكان زوجُها هارون الرَّشيد قد عَقَدَ العَزْم أيضاً على أداءِ الحجّ أيضاً، ولما مشَى هارونُ إلى مكةَ، ومَشَتْ معه زوجه زُبيدة، كان معه جماعة تبسطُ الدَّرانك[2] أمامهم، ثم تُطْوىٰ خلفَهم، فلما أَعْيا دَعَا بخادِمِ له، فألقىٰ

(١) انظر: الفرج بعد الشّدة للتنوخي (٢/ ١٢٠ و١٢١) بشيء من التصرف.

(٢) «الدَّرانك»: جَمْع، ومفردها: الدُّرنوك والدَّرنيك: ضَرْبٌ من الثياب أو البُسْطِ، له خمل قصير كخَمَل المناديل، وبه يشبه فروة البعير والأسد، وقد يقال في جمع =

ذراعَه عليه وتأوّه وقال: واللهِ لركوب حمارٍ شموسٍ خيرٌ من المشي علىٰ الدَّرانك[1].

* ووصلتْ زُبيدة الحرمَ، وقَضَتْ مناسكَ الحجِّ، ورأتْ ما يقاسيه أهلُ مكةَ، وضيوفُ الرّحمن منْ مصاعبَ ومتاعبَ في حُصُولهم على مَاءِ الشُّرب، فتأثَّرت جِدّاً لذلك، وحَزَّ في نَفْسِها ما يعاني أحباب اللهِ منْ أجْلِ شربة ماء، فقد بلغتْ شربة الماءِ ديناراً في ذلك العَصْر.

* هنالك تحرّكَتْ بواعثُ الخيرِ في نفسها الكبيرة، وشمَّرت عن همّةٍ عالية لتسقي أهْل مكة والحجّاج الماء؛ نَعَم:

وَإذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَاراً تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الأَجْسَامُ

* وفكَّرتْ زُبيدة ـ رحمها الله ـ في وسيلةٍ لجلبِ المياهِ إلىٰ الحرم حتى اهتدتْ إلى ذلك، فَدَعَت خازنَها، وأوحتْ إليه أنْ يأتيَ أهْلَ الصِّناعة، وأن ينفِّذَ مشروع شقّ قَنَاةٍ في وسْطِ الجبالِ، وبينَ الصُّخور حتى يصلِ بالمياهِ إلى وسطِ مكةَ إلىٰ الحرم.

* وسارع خازنُها فأحضر الخبراءَ والعمّال، ومَنْ له دراية بهذا العملِ الكبير، وبدأ هؤلاء في تنفيذ عملهم حيثُ اعتمدوا على عَيْنٍ تُسمّى «عين حُنين» وعلى المياه الجوفيةِ مِنْ حولها.

* ولم يكنِ العملُ بسيطاً، وعلينا أنْ نتصوَّرَ مدىٰ صعوبةِ هذا العملِ عَصْر ذاك. يقولُ المؤرخُون: إنَّ زبيدةَ أَسَالَتْ المياه عشرة أميال بخطِّ الجبال، ونحت الصُّخور حتّى غَلْغَلتْهُ منَ الحِلِّ إلى الحرمِ.

* ولم يكُن لزبيدةَ هذا العمل الضَّخم فحسب، وإنّما لها آثارٌ كثيرةٌ في طريقِ مكةَ منْ مصانعَ حفرتها، وبِركٍ أَحْدثَتْها، وكذلك بمكةَ والمدينة[2].

* قالَ صاحبُ «النُّجوم الزَّاهرة» عن أعمالها هذه: ولعلَّها عمَّرتْ في هذه

= «درنوك»: دَرَانك. والدرنوك: الطنفسة والبساط. (لسان العرب مادة درنك).

(١) العقد الفريد (٦/ ٢٢٨).

(٢) انظر: تاريخ بغداد (١٤/ ٤٣٣).

الحجّةِ المصانعَ التي بطريقِ الحجاز أو بعضها[1].

* وأبرزَ الشَّريشي صورةً منْ صُورِ أعمالها فقال: حَفَرتِ العينَ المعروفة بعين المشَاش بالحجاز، فإنّها حفرتها، ومهدتِ الطَّريقَ لها في كلِّ رفْع وخَفْض حتى أجْرَتْها من مسافةِ اثني عشر ميلاً. ولها في طريقِ مكةَ منَ العراقِ آثارٌ كثيرةٌ في مصانعَ حفرتها، وبركٍ أحدثتها، تنزلُ وفودُ الحجيج عليها، فلا تجدُ ماءً إلا فيها فيشربون ويسقُون إبلهم، ويتزوَّدون، وهم في الكثرة أعدادٌ لا يحصيهم إلا خالقُهم، والكلُّ داعون لزبيدة إلى زماننا هذا[2].

* وقال ابنُ الجوزي يثني على زبيدةَ ويَحْمَد عَمَلَها: إنَّها سَقَتْ أهل مكة بعد أنْ كانتِ الرَّاويةُ عندهم بدينار.

* وفي «الأعلام» قال الزِّركلي ـ رحمه الله ـ: وإليها تُنسبُ «عين زُبيدة»[3]

---

(١) النجوم الزاهرة (٢/ ٢١٤).
(٢) شرح مقامات الحريري للشَّريشي (٢/ ١٦٦).
(٣) «عينُ زبيدة»: هي عينٌ عذبةُ الماء، غزيرةٌ، مباركةٌ، وهي منْ أجلِّ الأعمال، وأعظمها، وأكثرها بركةً ونفعاً، وهي تنبعُ من وادي نعمان، وقد أجْرَتْ لها الطَّريق، ومهدتها لها، حيثُ تبدأُ انطلاقتها منْ نعمان ـ وهو وادٍ من أكبرِ الأودية بمكةَ المكرّمة ـ ثم تمرُّ بعرفات، فتقطعُ وادي عُرَنَة إلى الخَطْم، ثم تنحدرُ إلى منى، ثم إلى مكة.
وقد كانَ الحجيجُ يعانون من قلّةِ الماء، وارتفاع ثمنه قبلِ وجودِ هذه العَيْن، فجاءتْ هذه العينُ ماءً بارداً على الظّمأ، وسُقيا طيِّبة تروي غلّة الحجاج، وأصبحَ مُعَوَّلُ الحجاجِ عليها بعدَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، واستمرّ ماؤها المتدفّق مئات السّنين، ولا يزالُ إلى اليوم، إلا أنَّ مجرى العين القديم قد هُجِرَ، وحُوِّل إلى أنابيب ضخمةٍ متطورة، ولها اليوم في مكةَ إدارةٌ خاصَّةٌ بها تُسمى: إدارة عين زبيدة.
ولقد مهَّدتْ زُبيدة ـ رحمها الله ـ طريقاً للحجّ من بغدادَ إلى مكةَ، يُسمَّى «درب زُبيدة»؛ أو: «طريق الجادة»، وجَعَلَتْ في هذا الطَّريقِ منافعَ ومرافقَ على جنباته، وحفرتِ الآبار والعُيون، وصَرَفَتْ على هذا الطَّريق مبالغ عظيمة، قيل: إنَّها بلغتْ حوالي أربعة وخمسين مليون درهماً.
ومن الجدير بالذّكر أنَّ جامعةَ الملك سُعود في مدينةِ «الرِّياض» عاصمة المملكة =

فِي مكة، جَلَبَتْ إليها الماءَ من أقصىٰ وادي نعمان، وأقامتْ له الأقنية حتى أبْلَغَتْه مكة.

* وتمَّ العملُ المبارك الذي بلغتْ تكلفته ما يقترب من مليوني دينار[1]، وقرّتْ زبيدةُ عَيْناً وهي تجري «عين زبيدة» في مكةَ، وذلك في سبيلِ الله، لتوفّر الماءَ لأهلِ مكةَ، وللذين يأتون ﴿ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ [الحجّ: ٢٧ ـ ٢٨].

* لقد كان السُّرور يداعبُ نَفْسَ زبيدة بهذا العمل الميمون، وكيف لا يداعبها السُّرور، وتحاورُها المسرَّات، وقد رأتْ أمارات السُّرور وعلامات الرِّضا ترتسمُ علىٰ وجوهَ ضيوف الرحمن[2]؟!.

= العربية السّعودية قد قامت بعملٍ بحوثٍ وحفريات لطريقِ الجادة؛ لتستكشفَ الآثارَ والآبارَ والمرافقَ المنظمة فيه، فوجدوا منْ ذلك العجبَ العجاب منَ الآبار والآثارِ التي كانت محيطة بهذا الطريقِ، وكلُّها من آثارِ زُبيدة ـ رحمها الله ـ، فما أكرمها من امرأة!! آتاها الله مالاً، فتاجرت بهِ مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فربحت تجارتها بإذن الله:

ولــو أَنَّــهُ حُسْــنٌ وَحيــدٌ عَــذرتُــهُ ... ولكنَّــهُ حُســنٌ وثَــانٍ وثَــالــثُ

ولزبيدة أعمال خيريّة أخرى في أنحاءَ مختلفةٍ منَ الدَّولة الإسلاميّة، ومن ذلك أنّها أقدمت على بناءِ خانات وبيمارستانات وقصورٍ وقلاع لضَمان راحةِ المسافرين في المناطق النّائية خاصّة على طولِ امتداد الثُّغور الإسلامية في بلاد الشَّام، ومن أجلِ الحفاظِ وتحسين هذه المنشآت أوقفت زبيدة ضياعاً غلتها السَّنوية مئة ألف دينار.

فهل تقتفي نساؤنا اليوم إثْر ومآثر زبيدة؟ وهل ينهجن نهجها في مضمارِ الخيرات وأعمال البرِّ والإحسان؟! لا شك أنَّ هنالك نساء يحببنَ عملَ الخيرات، وفي عصرنا الحاضر تُوجد بعض النّسوة ممن لهن أياد بيض في مجال البر والفضائل والمكارم والعلم وكفالة الأيتام وعمل المبرّات.

(١) قال ابن تغري بردي: أُحْصِي ما أنْفَقته زبيدة في حجّةٍ واحدة، فكان ألفي ألف دينار. ـ يعني: مليونين ـ (النّجوم الزاهرة ٢/ ٢١٤).

(٢) إنَّ كلَّ مَنْ يكرمُه الله ـ عز وجل ـ بالحج إلى بيته الحرام يدرك أثر ذلك في نَفْسه هذا، ويقومُ العاملون الآن على شؤون المسجد الحرام بمتابعة هذا الطَّريق الكريم، =

* نعم لقد كانت زبيدةُ شديدةَ السُّرور بهذا العملِ المباركِ الذي لم يعرّجْ علىٰ خاطرِ أحدٍ منذ عهد نبيّ الله إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما صلوات الله ـ وحتى عهد زُبيدة، إلى أنْ أَلْهَمها اللهُ ذلك، بل لقد عزَّزَتْ رأيها، وصمَّمتْ على تنفيذِ هذا العمل عندما جاء خازِنُها ووكيلُها ليقول لها متهيِّباً خُطورة العَمل: يا أمَّ جعفر يلزمك في هذا العمل نفقة كثيرة؛ هنالك سَطَعَتْ زواهرُ نجومها، وقالت كلمتها الخالدة المشهورة: اعملْ ولو كلَّفَتْ ضربةُ الفَأْسِ ديناراً[1].

تلكم هي عينُ زبيدة التي احتملتْ ماءَ الحياةِ هنيّةً إلىٰ مكةَ، وحَكَتْ تلك العينُ آثار زُبيدة لمن شربَ منها، وظلَّت تلكم العينُ غرّةً واضحةً وضيئةً في جبينِ الدَّهْر، ولعلَّ اللهَ قد أكْرمَ زُبيدة بحُسنِ صنيعها.

* روىٰ الخطيبُ البغداديُّ ـ رحمه الله ـ بسندهِ عن عبدِ الله بنِ المبارك أنَّه قال: رأيتُ زبيدةَ في المنام، فقلتُ: ما فعلَ اللهُ بك؟ قالت: غَفَرَ اللهُ لي بأوَّلِ معْوَلٍ ضُرِبَ في طريقِ مَكةَ، رحمها الله تعالى[2].

* نعم إنَّ الجزاء من جنْس العمل، فقد رغبتْ زبيدةُ أنْ يكونَ عملُها خالِصاً لوجههِ الكريم، وما دون ذلك فلا وَزْنَ له بميزانها.

* تروي المصادرُ مصداق ذلك فتقول: إنَّ وكيلَها حضَر إليها في بعضِ الأيّام وقال لها: يا أمّ جعفر، قد صُرِف إلى الآن نحو أربعمئةِ ألف درهم!

فقالت له بحزمٍ وقوة: يا هذا ما أردتَ بهذا القول إلا أنْ تعنّفَني وتغرسَ

= حيث يوفّرون لملايين الحجاج الماء ووسائل الراحة، فجزى اللهُ خيراً كلَّ مَنْ عملَ خيراً إلى يوم الدِّين.

(١) انظر: مرآة الجنان لليافعي (٢/ ٦٣).

(٢) تاريخ بغداد (١٤/ ٤٣٤)؛ وانظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ٣١٧)، وذكر الرَّحالة ابن جُبير أنَّ لها بعضَ الآثار في مزدلفة فقال: ومزدلفة بسيطٌ من الأرضِ فسيح بين جَبَلَين، وحوله مصانع وصهاريج كانت للماء في زمانِ زبيدة. (رحلة ابن جبير ص١٥٠).

النَّدم في نَفْسي، أو تمنعني منَ الخيرِ، اذهبْ، واصرفْ، وتمم العملَ، ولو كان أضعاف ذلك. ثمّ إنَّها اقترحتْ عليه أشياءَ أُخرى يعملُها، لما يعودُ بالخيرِ والفائدة علىٰ المسلمين وقُصَّادِ بيتِ اللهِ الحرام.

* ولما انتهىٰ العملُ، جاءَ الوكيلُ إلىٰ زُبيدة، وأحضر العُمّال إلى بينِ يديها لكي يكتبُوا الحِسَاب قُدَّامها، وما كلَّفته تلكم الأعمال الجِسَام، وهنالك قالتْ لهم قولتها النَّاصعة التي تتحلّى بها الأسماع، ويتحلّى بها جِيْد الدَّهْر: خلُّوا الحِسابَ إلىٰ يومِ الحساب. ثم أمرتْ بغسلِ الدَّفاتر والأوراق رحمها الله تعالى[١].

* وامتدتْ يدُ إحسان زُبيدة إلى إصلاحِ الطُّرق، وإيجاد المرافقِ والمنافع للعباد في طُرقِ أسفارِهم، فمن آثارها الكريمة، ما ذكره الرَّحّالةُ ابنُ جبير ـ وهو ممن ماتَ في أوائلِ القرن السَّابع في سنة ٦١٥ هـ ـ حيث روىٰ ما شاهده في الطّريق من بغداد إلى مكة، وما رآه من بركٍ ومصانعَ وآبارٍ من آثارِ زبيدة حيث قال: وهذه المصانعُ والبرك والآثارُ التي من بغداد إلى مكةَ، هي آثارُ زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور زوجِ هارون الرَّشيد، وابنة عمّه، انتدبتْ لذلك مدّة حياتها، فأبْقَتْ في هذا الطَّريق مرافق ومنافع تعمُّ وَفْدَ الله تعالى كلّ سنة منْ لدن وفاتها إلىٰ الآن، ولولا آثارُها الكريمةُ في ذلك لما سُلِكتْ هذا الطَّريق، واللهُ كفيلٌ بمجازاتها والرضا عنها[٢].

* لقد كانت زبيدةُ ـ رحمها الله ـ ذاتَ معروفٍ كثيرٍ، وفِعْل خيرٍ شهير، خلَّدَ التَّاريخ لها أعمالَها النَّفيسة، وخاصّة عين زبيدة بمكة، فلا يكادُ مؤرِّخٌ أو عالِمٌ أو أديبٌ يذكرُ شيئاً من أخبارِ البلدِ الحرام، إلا يعرّجُ علىٰ ما يشفي الغَرامَ من ذِكْرِ عين زبيدة، ومنَ الأمثلةِ الواضحةِ عن ذلك ما أوردهُ الإمامُ أبو محمّد عبدُ الله بنُ أسعدَ اليافعيّ اليمنيّ المكيّ المتوفّىٰ سنة (٧٦٨ هـ) الذي ذكَرَ عينَ زبيدة ووصفها في «مِرآتِهِ» فقال: وهذه العينُ المذكورةُ التي

---

(١) العقد الثمين للفاسي المكي (٨/ ٢٣٦) بتصرف يسير جداً.

(٢) رحلة ابن جبير (ص١٥٠).

أجْرَتْها، آثارُها باقيةٌ مشتملةٌ على عمارةٍ عظيمةٍ عجيبةٍ، ممّا يُتنزَّهُ برؤيتها على يمينِ الذَّاهبِ إلىٰ مِنىً منْ مكةَ، ذات بنْيَان مُحْكَم في الجبال، تقصرُ العبارةُ عن وصفِ حُسْنه، وينزلُ الماءُ منه إلى موضع تحتَ الأرض عميق، ذات درج كثيرة جدّاً لا يُوْصَلُ إلىٰ قراره إلا بهبوطٍ كالبير يُسَمُّونه لظلمته، يفزَعُ بعضُ النَّاسِ إذا تُرِكَ فيه وحده نهاراً فَضْلاً عنِ الليل[1].

أولئِــكَ قَــوْمٌ إنْ بَنُــوا أَحْسَنُــوا البنَــا
وإنْ وَاعَــدُوا أوْفُــوا وإنْ عَقَــدُوا شــدُّوا

* وأمّا أبو الوليد الأزرقي المتوفى سنة (٢٤٤ هـ) ـ وهو قَبْلَ اليافعي بأكثر من خمسة قُرون ـ فإنَّه عَقَد فَصْلاً نفيساً عن العيونِ التي أُجْرِيتْ في الحَرَم وذلك في كتابه النَّفيس «تاريخ مكّة» فقال بعد أنْ تحدَّثَ عن انقطاع العيونَ وقلَّةِ الماء في مكةَ: ثمَّ كانَ النَّاسَ في شدّةٍ منَ الماءِ، وكان أهلُ مكةَ والحاجُّ يَلْقَونَ من ذلكَ المشقَّة، حتى إنَّ الرَّاويةَ لتبلغُ في الموسمِ عشرة دراهم وأكثر وأقلّ، فبلغ ذلك أمّ جعفر بنت أبي الفضْل جعفر بن أمير المؤمنين المنصور، فأمرتْ في سنةِ أربع وتسعين ومئة بعملِ بِركتها التي بمكةَ، فأجْرَتْ لها عيناً منَ الحرم، فجرت بماءٍ قليل، فلم يكْفِ فيه ريٌّ لأهلِ مكة، وقد غَرِمَتْ في ذلك غرماً عظيماً، فبلغَها ذلك، فأمرتِ المهندسينَ أنْ يُجروا إليها عيوناً من الحِلِّ، وكانَ النَّاسُ يقولون: إنَّ ماءَ الحِلِّ لا يدخلُ الحرم، لأنَّه يمرّ على عِقَاب وجبال، فأرسلتْ بأموالٍ عِظام، ثمّ أمرتْ مَنْ يَزِنُ عينها الأولى، فوجد فيها فَسَاداً، فأنشأتْ عيناً أخرى إلَى جنبها وأبطلتْ تلك العين، فعملتْ عينها هذه بأحكمِ ما يكون منَ العمل، وعظُمَتْ في ذلك رغبتُها، وحَسُنَت نيّتها، فلم تزلْ تعمَل فيها، حتّى بلغت ثنيّة رخْلٍ، فإذا الماءُ لا يظهرُ في هذا الجبل إلا بعملٍ شديد، فأمرتْ بالجبلِ فَضُرِب فيه، وأنفقتْ في ذلك منَ الأموالِ ما لم يكنْ تطيبُ به نفسُ أحد، حتى أجراها اللهُ لها، وأجرتْ فيها عيوناً من الحِلِّ، منها عينُ المشَاش، واتّخذت لها بركة تكون السُّيول ـ إذا جاءت ـ تجتمعُ فيها، ثمَّ أجرتْ لها

---

(١) انظر: مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعي (٢/ ٦٣).

عيوناً منْ حُنين، واشترتْ حائطَ حُنين، فصرفتْ عينه إلى البركة، وجعلت حائطه سُدّاً يجتمعُ فيه السَّيْل، فصارت لها مكرمة لم تكن لأحدٍ من قبلها، وطابتْ نفسُها بالنَّفَقةِ فيها، بما لم تكن تطيبُ نفس أحدٍ غيرها، فأهلُ مكة والحاجُّ، إنّما يعيشون بها بَعْدَ الله عزَّ وجلَّ[1].

* هذا ولا يستطيعُ الباحثُ أنْ يحصرَ ـ هنا ـ مآثرَ وآثارَ زبيدة ـ رحمها الله ـ ولو رُحْتُ أسجِّل لكَ ما وردَ في ذلك لاحتجنا إلى مجلدٍ كبير، هذا وقد تكفَّلَتْ كتُبُ التَّراجمِ والتَّاريخ والأدبِ والآثارِ بإحصاءِ أعمالها التي قامتْ بها في حياتها[2].

* وإنّني ـ بدوري الآن ـ قد أحصيتُ المنازلَ التي نزلَتْها أمُّ جعفر زبيدة من طريقِ بغداد، فالكوفة، إلى مكةَ ثمّ المدينة، وما قيل فيها منْ شِعْر، وفي الصَّفحاتِ الآتية توضيحٌ لذلك.

المَوَاضِعُ والمَنَازِلُ التي نَزَلَتْهَا زُبيدةُ في حَجِّهَا:

* بلغتِ المنازلُ ـ المواضعُ ـ التي نزلتْهَا زبيدةُ ـ وهي في طريقها إلى الحج ـ أكثرَ من خمسينَ منزلاً، ولها في كلِّ موضعٍ أثرٌ طيّبٌ، وبعضُ هذه الآثار لا يزالُ يشهدُ بفضلها إلى وقتنا الحاضر، وبعضُها قد دُرِسَ مع الأيّام،

---

(١) انظر: تاريخ مكة للأزرقي (٢/ ٦٢٧) طبعة المكتبة التجارية بمكة المكرمة عام (١٤١٦ هـ).

(٢) تُنْسَبُ إلى زبيدة ـ رحمها الله ـ مآثرُ عمرانية كثيرة، وأعمالٌ خيريةٌ عديدةٌ في مختلف البلدان، ولا يفوتنا أن نشيرَ هنا إلى أنّها هي التي بَنَتِ المسجدَ المنسوب إليها في بغدادَ، وكان هذا المسجدُ قريباً من مسجدِ العالِمِ المشهور والزَّاهد الكبير «معروف الكرخي»، وكان هذا المسجدُ واسعاً قوي الأركان، رصينَ البناء، وقد اندرست معالُم هذا المسجد في نهايةِ القرن الثَّاني عشر الهجري في سنة (١١٩٥ هـ)، ولم يبقَ منه سوى قبر زبيدة، وعليه قُبّة مخروطية الشَّكل، تُعْتَبرُ إحدى نوادر الفنِّ المعماري؛ ويُنْسَبُ إليها أيضاً من أعمالِ الخير «الزُّبيدية» وهي بركةٌ بين المغيثية والعُذيب، وبها قصر ومسجد عمرّتها زُبيدة، يضاف إلى ذلك أعمال خيرية توزّعت هنا وهناك تشهد لزبيدة بالخيرِ والفضْل والصَّلاح والإصلاح.

إلاّ أنَّه لم يُدْرَسْ من ذاكرةِ الأيّام، ومن وجدانِ المنصفينَ، ومن نفوسِ المحبّين للخيرات.

* أمّا المواضعُ التي نزلتها زُبيدة، فمنها ما هو مشهورٌ وباقٍ إلى الآن، ومنها ما هو غيرُ مشهور، وهذه المواضعُ هي علىٰ التَّرتيب كما نزلتها حتى وصلتِ المناسك:

الفراتُ ـ سُورا ـ نَهر أَبّا ـ أَسْفل الفُرات ـ الكُوفة ـ القَادسيّة ـ المُغِيْثَة ـ القَرْعَاء ـ وَاقِصَة ـ العَقَبَة ـ القَاع ـ الزّبالة ـ الشُّقوق ـ البِطَان ـ الثَّعْلَبِيَّة ـ الخُزَيميّة ـ الأَجْفُرُ ـ فَيْد ـ تُوز ـ سَمِيرا ـ الحَاجِر ـ النَّقِرة ـ مُغِيثة الماوان ـ الرّبذة ـ السَّلِيلة ـ العُمَقُ ـ المَعْدِن ـ أُفَيْعِيّة ـ المَسْلح ـ الغَمْرة ـ ذات عِرق ـ البستان ـ المُشَاش ـ مكة ـ منَى ـ عَرفَات ـ المُزدلفة ـ المِشْعَر ـ بطن مَرّ ـ عُسْفَان ـ قُديد ـ الجُحفَة ـ الأَبْواء ـ السُّقيا ـ الرّوحاء ـ السَّيالة ـ مَلل ـ المدينة ـ الطّرف ـ بطن نَخْل ـ العسيْلَة ـ المحدث[1].

* هذا وقد ارتجزَ أحمدُ بنُ عمرو في قصيدةٍ طويلةٍ وجميلةٍ أسماءَ المواضع والمنازلِ التي نزلَتْها زبيدة أمُّ جعفر في حجِّها، وقد أشارَ في كثيرٍ من أرجوزَتِهِ[2] إلى فَضْل زُبيدة وهمّتِها القَعْسَاء، وعزيمتِها الماضية، وحبِّها للخيرات، وإلىٰ مآثِرها وآثارِها وأثرِها في كلِّ موضع تنزلُ فيه.

* ونحنُ مرسلو القول ـ بإذن الله ـ في ذِكْرِ بعضِ المنازل التي نزلتها،

---

(١) يمكن الرجوع إلى كتاب: معجم البلدان، وكتاب: المناسك للحربي، وغيرها من الكتب الجغرافية، وكتب البلدان، وكتب السيرة النبوية والتواريخ المتعددة كالطبري والكامل والبداية والنهاية وغيرها، وذلك لمعرفة هذه الأماكن ومواضعها في وقتنا الحالي، ولولا الإطالة لذكرنا ذلك.

(٢) أشار الراجز أحمد بن عمرو إلى كلِّ موضعٍ من أرجوزته بخمسةِ أبيات كلُّ قافية تختلفُ عن الأخرى حسب المناسبة أو اسمِ الموضع؛ وقد بلغت أرجوزته قرابة (٢٧٥ بيتاً) وقد اخترتُ بعضها هنا لتتوضَّح صورة زبيدة ـ رحمها الله ـ، وهذه الأرجوزة ذات قيمة كبيرة جداً في تحديد الأمكنة، فضْلاً عن قيمتها الأدبية واللغوية.

ونشيرُ إلى ذِكْر زُبيدة لتكونَ سيرتها إمتاعَ الأسماع، وإنسانَ العُيونِ، وأُنْسَ المُجَالِس، وإيناسَ المَجَالِس، ولتكونَ أخبارهَا عيونَ الأَخْبار، وربيعَ الأبرارِ، ونسماتِ الأسْحار، وزهرَ الرِّياض، وذِرْوةَ كلِّ جمال.

* أَنْشَأَ أحمدُ بنُ عمرو[1] يذكر المواضعَ التي نزلتها زبيدة، بعد أن قطعتِ الفراتَ، فوصلت إلى «سُورا» حيث قال:

ثــمَّ عطَفْنَــاهــا بنَهْــرِ سُــوْرَا   نتبَــعُ قَصْــراً فَــارقَ القُصُــورا
حَــرَّاقــةٌ تَخْتَــرِقُ البُحُــورا   تَحمِــلُ فــي الأَبْيـاتِ منهـا نُـورا
سَيِّــدَةٌ تَسْــري بنــا شُهــورا   نــؤمُّ حَجّــاً زَاكِيــاً مَبْــرُورا
تعــدُّ آبــاءً لَهــا بُــدورا   جَعْفَــراً الأكبــرَ والمَنْصُــورا
أَدَامَ ذُو العــرشِ لهــا السُّــرورا   وصَيَّــر الحــجَّ لهــا مَبْــرُورا

* ثـم قطـع الـرَّكـبُ نَهْـر أبـا، وأَسْفَـل الفُـرات، والكـوفـة، ووصـل «القادسيّة»، وتحدّث الرَّاجزُ عن زُبيدة وفضْلها على مَنْ حولها منَ الحجيج، وأشارَ إلى إخلاصها في ذلك، فقال:

ثــمَّ رحَلنَــاهَــا لقَــادِسيّــةْ   أَجْمَــالَ صــدقٍ جلّــةٍ سَــرِيّــةْ
نَقْطُــرهــا مَطيّــةً مَطيّــةْ   وهــي مــنْ جِمــامِهــا وحَشِيّــةْ
ونحــنُ حَــوْلَ عَبْلــةٍ نَجيّــةْ   تَحمــلُ شَمْســاً فــوقَهــا مُضِيّــةْ
ميمــونــةً غــرَّاءَ هــاشميّــةْ   تُفْضِــلُ بــالخيــرِ علــىٰ البــريّــةْ
قــد أَخْلَصَــتْ للهِ صــدْقَ النّيّــة   حتّــى تُــوافــي الكعبــةَ المبْنِيّــةْ

* وقطعَ الركبُ بعد القادسيّة المُغيثة، ثمَّ الفَرعَاء، ثمَّ واقصَة حتى وصلُوا «العقبة»؛ وفي العقبةِ تَهَبُ زبيدةُ المالَ للغادي والرَّائح، وتأمرُ بحَفْرِ بعضِ الآثار، وإجراءِ بعض العيون، لتكون سُقيا للشَّاربين ممن يقصدون بيت الله الحرام وهي تبتغي بذلك وجْهَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وفي ذلك المنزلِ يقول أحمد بنُ عمرو:

---

(١) من الجدير بالذكر أنَّ هذه الأجوزة الجميلة قد جاء فيها بعضُ النَّقص، وسقط منها بعض الأبيات، واضطربت فيها بعض الأوزان، فحاولت أنْ أكملَ ما نقص فيما أوردته فقط، ليكون النص أقرب إلى الصّحة والصّواب، والله من وراء القصد.

ثُمَّ أَتَيْنا منزِلاً بالعَقَبَةْ يَحْوي صُخوراً في ذُرا مُنْتَصِبةْ
وهَبْطة في سَفْح أرضٍ مُخْصِبةْ تَسْمعُ للنَّاس لديها جَلَبَةْ
ترىٰ بها للأكبرينَ الغَلَبَةْ وفي القِبابِ حُرّة مُحَجَّبَةْ
سَيِّدة تمنعُ قَبْل الطَّلبَةْ ولا تريدُ المالَ إلا للهِبَةْ
أَجْرتْ عُيوناً في فَلاً مُعْتذبَةْ أَمْسَتْ على النّاسِ بها مُحْتَسِبَةْ

* ولما رحلَ الرَّكبُ الزُّبيدي - أي: زُبيدة ومَنْ معها - مرَّ بالقاع ثمّ الزّبالة، إلى أنْ وصَلَ منطقة «الشُّقوق»، فوجدت زُبيدة قلَّةَ مائهِ، فأمَرتْ بحفْرِ الآبار أيضاً، كما أمرتْ بالبحثِ عنِ الآبارِ المهجورة، وإصلاحها، والبحث عن عيونِ الماء ليرتوي الحجاج، وقد وصفَ الرّاجزُ هذا الأثر الطِّيبَ المعطاءَ المعطارَ فقال:

ثمَّ تَرحَّلنَا إلىٰ الشُّقُوقِ مُنَيزِلٌ في مَائِهِ ذي ضِيْقِ
قَد كادَ أنْ يقْطَعَ بالفَريقِ لولا فعالُ البَرَّةِ الصَّدُوقِ
ومَا نُعانيهِ منَ الطَّريقِ لم يَكُ للحجّاجِ بَلُّ الرِّيقِ
لكنَّها أَجْرتْ بكلِّ نيْقِ ماءَ عيونٍ شَبَه البثُوقِ
أو نَقْبِ بئْرٍ نَاتقٍ عَميقِ يروي ذوي الحجّ وأهلِ السُّوقِ

* وانطلقَ ركبُ الحجِّ، وفيه زبيدة، وقطعَ البطانَ، والثَّعلبيَّة، والخزيميّة، حتى وصلَ مكاناً يُقالُ له «الأَجْفَر»، وكان مُوعراً لا ماء فيه، فَسَعَتْ في تسوية طريقهِ، وأمرتْ بحفرِ الآبار فيه، فجاءت آباره عذبةَ الطَّعم، وهناك جَادَتْ علىٰ الحجّاج من مالها وعطائها، قال الرّاجزُ يثني على ساقيةِ الحجيج:

ثمَّ نَزَلْنَا منْزلاً بالأَجْفَرِ بَعْدَ طَريقٍ خَشِن مُوَعَّرِ
سَهَّلَهُ اللهُ بأمِّ جَعْفَرِ فَصَارَ مَوْرُوداً حَميْدَ المصْدَرِ
رُمي بعذبِ الطَّعْم مثل السُّكرِ وراجِلٍ أشْعَث شَعْرٍ أغْبَرِ
جَادَتْ له بفضَّةٍ وجَوْهَرِ ساقيةُ الحُجَّاج ذاتُ المَفْخَرِ
طُوبى لها يومَ الجزاءِ الأَوْفَرِ زبيدة طوبى لأمِّ جَعْفَرِ

* وبعد الأجْفَرِ مباشرة نزلتْ «فَيْد»، هنالك قال الرَّاجزُ يثني علىٰ جودِ

وكَرم زُبيدة، ويذكر عطْفَها علىٰ الفُقراء:

ثــمّ بــإذْنِ اللهِ جئْنَــا فَيْــدا ... قُبَيْــلَ وجْــهِ الصُّبــحِ أو بُعَيْــدا
ورجَّــعَ الحَــادُون هَيْــداً هَيْــدا ... فَظَلَّــتِ العِيْــسُ تميــدُ مَيْــدَا
تَخْطُــو علــىٰ هَيْبَتِهــا رُويــدا ... تَحْمِــلُ غَــرَّاءَ تَفِيــدُ فَيْــدَا
تَفُــكُّ مِــنْ فَقْــرِ الفَقِيْــر القَيْــدا ... تدفعُ منْ خَطْبِ الدُّهورِ الكَيْدَا
تَــرى وجُــوهَ البِــرِّ طُــرّاً صيْــدا ... طُــوبــى وطُــوبــى لــكِ يــا زُبَيْدَا

* أمَّا في منطقةِ «سميرا» فقد عمِلَتْ حوضاً كبيراً لشرب الحجيج، وأضحىٰ الماءُ ـ بإذن اللهِ ـ غزيراً نَميراً سَائغاً لضيوف الرحمن، وحكى الراجزُ ما أنفقتْهُ زبيدة فقال:

ثــمَّ وَرَدْنَــا بَعْــده سَمِيــرا ... نقــدِّمُ الأَثْقَــالَ عِيْــراً عِيْــرا
وقَــدْ أَلِفْنَــا الليــلَ والمسِيْــرا ... ونَحْــنُ نَقْفُــو قَمَــراً مُنِيْــرا
سَيِّــدةً قَــدْ أَغْنَــتِ الفَقِيــرا ... وأنْفَقَــتْ مِــنْ مــالهــا كَثِيْــرا
علــىٰ الحجيــجِ سَهَّلَــتْ عَسِيْــرا ... وأَنْبَطَــتْ عَيْنــاً لهــم وَبِيْــرا
وكــلَّ حــوضٍ يشْبِــهُ الغَــدِيْــرا ... فــأَصْبــحَ المــاءُ لهــم غَــزِيْــرا

* وانطلق الركب إلى «الحاجر»، وعنده قال الراجز:

ثــمَّ قَصَــدْنــا بــالنُّزولِ الحَــاجِــر ... مُنيــزلٌ ضَــاقَ عــنِ المتَــاجِــرِ
وعــن قُــرى بَــاديــةٍ وحَــاضِــرِ ... وقــد رحَلنَــا بــرَّكَ الأبــاعِــرِ
وهُــنَّ يصْغِيْــنَ لــزجــرِ الــزّاجِــرِ ... وبَيْنَنَــا بِنْــتُ ذَوي المــآثِــرِ
ومنتَهَــى الفَخْــرِ لــذي المفَــاخِــرِ ... فــي قُبَّــةٍ تــروقُ عَيْــن النَّــاظِــرِ
ذات الأيــادي والعَطــاءِ الــوَافِــرِ ... ومَــنْ بهــا يَحْسُــنُ قــولُ الشَّــاعِــرِ

* ثم ارتحلتْ إلى «النَّقرة» حيث كان لها منزلٌ ميمون، إذ كانتِ المنطقةُ مهجورةً، فأصبحتْ معمورةً ذات آبارٍ وعُيون، كلُّ هذا بفضْلِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ثم بسببِ السَّيّدة المحجّبة زبيدة ـ رحمها الله ـ فلله درّ الراجز إذْ قال:

ثــمَّ نَــزَلْنَــا بَعْــدَه بــالنَّقِــره ... بمنْــزِلٍ بيــنَ صخــورٍ وَعِــرَه
ليس بــهِ مــنْ نَبْت أرضٍ خَضِــره ... ظلَّــتْ إليــهِ عَيْشُنــا مُنْشَمِــره
حتــى أُنِيخَــتْ ذُلــلاً منْبَهِــره ... وفــي القبــابِ حــرّة مُفْتَخِــره

علـى الملـوكِ بـالنَّـدى مُقْتَـدره   لكـلِّ خَيْـرٍ لـم تَـزَلْ مُـدَّخِـرَه
لهـا عيـونٌ فـي الفَـلا مفْتَخـره   أضحتْ علىٰ النَّاس بها مُؤْتجره

* وسارتْ زبيدةُ منَ النَّقرة إلى مغيثة الماوان، ثم الرَّبذة، ثم وصلت «السّليلة»؛ وفيها صنعتْ زبيدة كما صنعتْ بغيرها، حيث كانت مياهُها نادرةً وقليلة، فبذلتْ أموالاً كثيرة، فاستخرجتِ الماءَ على الرغم من صعوبةِ ذلك، إلا أنَّ تلك المصاعب لم تقفْ أمام همتها القَعْساء، بل ذُللت لها الصِّعاب تذليلاً، وكأنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ قد جعلَ الفضل على يدِ بنت أبي الفَضْل زبيدة، وهكذا رسم الراجزُ أحمد بن عمرو زبيدة وهي تُجْري الماء في السّليلة فقال:

ثـمَّ تَـرَحَّلْنَـا إلـى السَّليلـة   مَـرحَلـةٌ ميـاهُهـا قَليْلـة
تَعْجِـزُ عـنْ رفْقَتِهـا النَّـزيلـة   فـأَنْجِـدَتْ ذاتَ اليـدِ الجميْلَـة
بِبَـذْلِ أمْـوالٍ لهـا جَـزيْلـة   فـاسْتُخْـرِجَ المـاءُ بكـلِّ حيْلَـة
فَضْـلاً علـىٰ الحجّـاج والقَبِيْلَـة   لقـد حَبَـا ذُو القُـدْرَة الجليلـة
بنْـتَ أبـي الفَضْـل يـدا الفَضيْلـة   لهـا سمـاءٌ أبـداً مخِيْلَـة

* وانطلقتْ زُبيدة بمن معها منَ السّليلة إلى «العُمَق» مباشرة، وفعلت كما فعلت بالسّليلة، إذ أجرتِ الماءَ للحجاج، قال الراجز:

ثـمَّ تَـوَجَّهْنَـا نُـريـدُ العُمَقَـا   منـزلَ صـدْقٍ لـم يَـزَلْ مُـرتَفَقَـا
ببئْـرِ مَـاءٍ طـابَ منْهـا المُسْتَقَـىٰ   والعيْسُ تَسْرِي في الظّلام حَزَقَا
وَرَاكبُـوهـا يَصِلـون الأَرَقَـا   والنُّـور فـي القُبَّـة يَجْلُـو الأُفُقَـا
مِـنْ حُـرَّةٍ تَـرىٰ العَطَـايـا خُلُقـا   أحْيَـتْ لمـن لبَّـى وحـجَّ الطُّـرُقَـا
أَجْـرَتْ لهـم مـاءً رواءً غَـدَقَـا   فـالله يَجْـزِيْهـا بـذخْـرٍ وَبَقَـا

* ومنَ العُمَق انطلقت زبيدةُ إلى منطقة «المعدن»، حيث تفقدّتِ الفقراء والمسَاكين، ثمَّ أجرتِ الماءَ في تلك المنطقة، وانهال عليها الثَّناءُ من كلِّ لسان، وصار ذكْرها العَطِر على كلِّ لسان، قال الراجز:

ثُـمَّ نَـزَلْنَـا بَعْـدَه بـالمَعْـدنِ   منَ بَعْدِ سَيْرٍ في الظَّلام مدمنِ
علـى طـويّـاتٍ وبُـزْلٍ بُـدَّنِ   يَحْمِلْـنَ كـلَّ ذي ابتهـالٍ مُـؤْمـنِ

يَدعُو لأُمّ جَعْفرٍ في الموطنِ　إذْ فَرَّجَتْ عنِ الفقيرِ والغَنِي
فالماءُ في كلِّ طريقٍ أَخْشَنِ　فَلَيْس عَنْه رَاحِلٌ بمُنْثَنِي
جَادَتْ بهِ للمؤمنِ المُهيمنِ　واللهُ قَدْ يَجْزي بفَضْل المُحْسِنِ

* وسار الرّكبُ الزّبيدي فقطعَ أُفَيْعةَ حتى وصَلَ «المَسْلح»، فجددتْ زُبيدة تجارتها مع اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ وسَعَتْ في حفْر بئرٍ هنالك، وعينِ ماءٍ تجري فوق الأرض لينهلَ منها الرّائح والغادي، وهي ترجو بذلك وجْهَ الكريم المُتعَال، وفي منزلِ المسلح يقول الراجز:

ثمَّ أَتَيْنَا منْزِلاً بالمسْلَحِ　جُزْنَا عليهِ كلَّ خَرْقٍ أَفْيَحِ
علىٰ حَديْدَاتِ العُيونِ الطُّمَّحِ　خُزْرٌ مَتَىٰ تُحْدَ تُرِحْ وتفْرحِ
بنْتَ أبي الفَضْل تَجِرْتِ فَارْبَحِي　وبعْتِ أمْوالاً بحظٍّ المفْلحِ
في حَفْرِ بئرٍ لو جَرَتْ لم تَنْزَحِ　وعَيْنِ مَاءٍ أُجْرِيَتْ في صحْصَحِ
حتّى انتَهى إلى حِيَاضِ الأبطحِ　يروي لذي حجٍّ ومَنْ لَم يَبْرحِ

* واتّجهت زُبيدة منَ المسلح إلى «الغَمْرة» لتعمل على تفجير المياهِ فيها أيضاً، وأجْرُها بذلك على العليّ القدير، قال الرّاجز:

ثمَّ نَزَلْنَا منْزِلاً بالغَمْرة　منه يلبّي مَن أرادَ العُمْرة
والحجُّ للرّحمن لا للشُّهْرة　وافَتْه منّا زُمْرَةٌ فَزُمْرَة
تغذُّ سَيْراً مَالَهُ منْ فَتْرة　نَتْبَعُ غَرّاءَ لخيرِ عَشْرة
لم تَخْلُ منْ خلافةٍ وإمْرَة　أَحْيَتْ ذوي الحجّ وأهلِ العُسْرة
فَفَجَّرْت عيناً لهم مِنْ صَخْرة　واللهُ يعطي جَازياً بقدرة

* وفي «ذات عرق» ـ وهو مكان شهير في كتب السيرة ـ عملت زبيدة ما استطاعت من الخيرات، فأخذ الناس يلهجون لها بالدعاء بأن يبقيها الله ذخراً لهم، قال الراجز:

ثمَّ تَوافَيْنا بذاتِ عِرْقِ　بمنزلٍ يجمعُ أَهْلَ الطُّرقِ
منْ كلِّ فجٍّ عادلٍ وأفْقِ　وليسَ في إحْرامِهم منْ فَرقِ
ولا يحلّونَ بدونِ الحَلْقِ　شُعْثٌ يَدِيْنُون بدِيْن الحقِّ
لبُّوا وقالوا يا عزيزُ أبْقِ　بنْتَ أبي الفَضْل لهذا الخَلْقِ

وكلُّهـــم يــروي بهــا ويَسقـــي والله يجـــزي كـــلَّ مُستحـــقِّ

* ومن ذاتِ عِرْقٍ، انطلقَ الرّكبُ الزّبيدي الميمونُ إلى «البُستان» مباشرةً، هنالك حطَّتْ زبيدة رحَالها لتضمَّ فخراً آخر إلىٰ مفاخرها الحِسَان، فعملت على حَفْر بئر، بل أمرت بإكثار الماء في البُستان لينهلَ منه الحجيج منْ أي مكانٍ وفدوا، وكانت تعملُ هذا كلّه من أجْلِ مرضاةِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فهل هناك غاية أرفعُ مِنْ هذه؟! قال الرَّاجز:

حتّـــى إذا مـــا رُفِـــعَ البُسْتَـــانُ ومنْـــــزِلٌ تكنفُـــــه حِيْطـــــانُ
فيــه صُنُــوفُ النَّخْـلِ والـرَّيحـانُ خَــفَّ إليــه الــرُّجْـلُ والـرُّكبَـانُ
ذكْــراً لأَوْطــانٍ هــي الأوطــانُ وكلُّهـــــم بِسَيْـــــرهِ جَـــــذْلانُ
مـــا فِيهـــمُ إذْ وردُوا عطْشَـــانُ عمَّتهـــمُ بــالــرّي حيــثُ كــانُــوا
مَـنْ هَمُّهـا المعـروفُ والإحسـانُ مَـــنَّ بهـــا عليهـــمُ الـــرّحمـــنُ

* ووصل الرَّكبُ إلىٰ المشاشِ ثمَّ مكةَ، ثم «منى» وفعلت زبيدة هنالك ما فعلتْ من توفيرِ المياه للعباد الذين أتوا من كلّ فج عميق. وهم يلبُّون، فإذا بهم يَرَونَ الماءَ نميراً عذباً، بعد أنْ كان نادراً، وثمنه مرتفعٌ جدّاً، إلا أنَّ زبيدة أجرتِ المياه، لينتفعَ به العباد، قالَ الرَّاجز:

ثـــمَّ خَـــرجْنَـــا زُمَـــراً إلـــى مِنـــى مُسْتَبْشـريـــنَ إذْ بِهَـــا نِلْنَـــا المُنَـــى
نَرجُو الثَّوابَ والغِنى منْ ذي الغنَى بـــرحمـــةٍ واسعـــةٍ تَمَّـــتْ لَنَـــا
هُنَـــاكَ يـــا أَشْـــرفَ خَلْــق بَيْنَنَـــا تَجْنِيْنَ مِنَ غَرسِكِ طِيْبَ المُجتَنَى
يدعو لكِ النَّاسُ وقَد حفُّوا بنَا مِـنْ بعْـدِ شكْـرٍ لـكِ منهُـمْ وَثَنَـا
إذْ بكِ في الماءِ لَقُوا طُولَ العَنَا والله يَجْـزي نِعمَـاً مَـنْ أَحْسَنَـا

* وفعلت زبيدة أعمالها المباركة في كلِّ الأماكن المباركة، في الدِّيار المقدَّسةِ، إذ كَفَتِ الناسَ الماء في «مزدلفة»، فإذا بالحجّاج يتضرّعُون إلىٰ الله أنْ يكرِمَها ويجزيها خيرَ الجزاء، ويقرَّ عينها بما تصنع منْ إحسان، وفي صنيعها بالمزدلفة قال الراجز:

ثـــمَّ ابتـــدرْنَـــا دفْعَـــةَ المُـــزدلفَـــةْ عنْـد غـروبِ الشَّمْـسِ يـو عَـرفَـةْ
فـــازْدَحَمـــتْ رفـــاقُنَـــا مُنْصَـــرِفَـــةْ بِهَجْمَـةٍ فـي السَّيْـرِ مِنْهـم عَنَفَـةْ

نحـو صَـلاةٍ جُعِلَـتْ مـؤْتَلفَـةْ   لـوقـتِ أخـرى سُنَّـة مُنْسَلِفَـةْ
وجـدَّد النّـاسُ الـدُّعـا بـالمعـرفَـةْ   لِحُـرَّةٍ آبـارُهـا فـوقَ الصِّفَـةْ
كَفَتْهـمُ مـاءَ الطّهـورِ والشَّفَـةْ   فكـلُّ وقْـتٍ عِيْـرُهُـمْ مُخْتَلِفَـةْ

* وسارت زبيدةُ منَ المزدلفةِ إلى المشعر الحرام، ثمّ بطن مَرّ، ثمّ عُسفان، حتى وصلت «قُدَيد»، قال الراجز:

ثـمَّ تَـرحَّلْنَـا إلـى قُـدَيـدِ   فـي جُـدَدٍ تفْضـي إلـى جُـديْـدِ
تميـدُ فيـه العِيْـسُ أي مَيْـدِ   ومـالَهـا عـنْ سَمْتِـهِ مِـنْ حَيْـدِ
بعسْكَـرٍ مجتمـعٍ زُبَيْـدي   رَائِـدُه يظْفَـر عنْـد الـرَّيْـدِ
بـالخصْـبِ والمـاءِ ولحـمِ الصَّيْـدِ   وكـلّ خَيْـر يُـرتَجـىٰ وَفَيْـدِ
مِـن ابْنَـةِ المنصـور ذاتِ الأيـدي   ضَـامِنَـةِ الـدَّيْـنِ وفَـكِّ القَيْـدِ

* وتركت زبيدةُ قُديداً، ووصلتِ الجحفةَ، ثم كانت قد أدّتْ مناسك حجّتها، وتابعت مسيرها نحو المدينة المنوّرة.

* وفي طريقها إلى المدينةِ صنعتْ صنائعَ المعروف، فلَها في «الأبواء» آثارٌ طيّبة، فقد نزلت بها، وأمرتْ بأنْ يكونَ الماءُ وفيراً بها، وأن يكون هناك غديرٌ ينتفعُ به الناس، قال الراجز:

ثـمَّ نَـزَلْنَـا منْـزِلَ الأَبْـواءِ   فَـي نَفْنَـفٍ نـاءٍ عَـنِ الأَحْـواءِ
نجنـبَ كـلَّ بغْلَـةٍ سَفْـواءِ   زيّـافـةٍ ونـاقـةٍ رَهْـواءِ
تحمـلُ فـي قبّتِهـا العلْـواءِ   سيّـدةً تُعْـرَفُ بـالـوَفَـاءِ
سمـاؤُهـا صـادقَـةُ الأَنْـواءِ   أَبْقَـتْ بـأرضٍ جـدبـةٍ قَـوّاءِ
غَـديـرَ مـاءٍ واسـعٍ رَوّاءِ   فـلا رأَتْ شَيئـاً مـنَ الأَسْـوَاءِ

* وانتقلتْ زبيدةُ ورَكْبُ الحجيج معها منَ الأبواءِ إلى السُّقيا لتنفق هناك، وتطعمَ، وتكسو، وتعمرَ الطُّرقات بمنابع المياه، وبذلك قال الرّاجز:

ثـمَّ ركبْنَـا فـأَتَيْنـا السُّقْيَـا   تَحـدي بنَـا العِيْـسُ إليهـا حَـدْيَـا
فـي سَبْسَـبٍ يقضِمْـنَ فيـه الحَلْيَـا   وبَيْنَنَـا أَشْـرفُ أهْـلِ الـدُّنيـا
بنْـتُ الملـوكِ أورثُـوهـا هَـدْيَـا   ليـس علـى المـالِ لهـا مـنْ بُقْيَـا
تُنْفِقـه فـي طعْـمٍ كَـذَا وسُقْيـا   وفي كِسَا من يكونُ يشْكُو العُرْيَا

فـالطُّـرقُ بَعْـدَ اللهِ منْهـا تَحْيَـا　　　والله ُ يَجْـزي بـالأيـادي العُلْيَـا

* وبعد السُّقيا، انطلقت زُبيدة إلىٰ الرّوحاء، وإلى السَّيالة، وفي كلٍّ من الموضعين وفَّرتِ الماء، ثمّ وصَلَتْ مَلَل، وكانت قليلة المياه، فأَرْوَتِ الحجاج بما صنعتْ من بِرَك وآثار، ثم زارتِ المدينة المنوّرة، وانصرفت بعدها إلى الطّرَف ثم إلى بَطنِ نَخْل، حيثُ أكرمتْ جميع مَنْ وفَدَ إليها منَ الأرامل والضِّعاف والأيتام وغيرهم، ثم أتت «العُسيلة»، وكانت هذه المنطقة من المناطق التي يندر فيها الماء، فعملتْ جهدها على إسالةِ الماء وصنع البرك، حتى أصبح سَهْل المنال لكلّ قاصد، قال الرّاجز:

ثـمَّ نَـزلْنَـا بَعْـدَه العُسَيْـلا　　　بمنْـزِلٍ كـانَ حِمَـاهُ غيْـلا
تحـرقُـهُ الـرِّيـاحُ ذَيْـلاً ذَيْـلا　　　لا يَجِـدُ العَطْشَـانُ فيـهِ نَيْـلا
فصـارَ فيـه المـاءُ عَـذْبـاً سَيْـلا　　　مَـالَـتْ عليـه بـالبُـدورِ مَيْـلا
بنـتُ أبـي الفَضْـل تكيـلُ كَيْـلا　　　بنـتُ الـذي سَـاقَ وسَـاق الخَيْـلا
فمـا يُبـالـي مَـنْ أتـاه لَيْـلا　　　ألا يَـرى ليـس بـهِ دَخِيْـلا

* أمّا آخر موضع كان لزبيدة، فهو «المحدث» وكان من المناطقِ الوعرة غيرِ المأهولة، فسهَّلَتْ طرقه، وحفرتْ به الآبار، فأصبح مكاناً يمكثُ فيه النَّاس يشربون ويستريحون، ويدعون لزبيدة التي أحيتْ هذا المَوَات.

* وبعد هذا الموضع، سَلَك الركبُ الزّبيدي الطريقَ الأوّل الذي يتّجهُ إلى بغدادَ دار السَّلام؛ قال الراجز يصِفُ طريق عودتها ووصولها بغداد:

ثـمَّ خَـرجْنَـا فـي الطَّـريـقِ الأوّلِ　　　بمنـزلٍ يَجْمَـعُ طُـرقَ المعْـدلِ
حتّـى قَطَعْنَـا مُنْقَـلاً عـنْ مَنْقَـلِ　　　نحـو العـراقِ بـالجمـالِ البُـزَّلِ
يـالَـكِ مـنْ فَـرحـةِ سِفْـرٍ مقْبِـلِ　　　بـأَجْـر حَـجٍّ ومنـىً مـؤمّـلِ
والقُـربِ مـن قَبْـر النَّبـي المرسـلِ　　　تحـوطُهـم بنْـتُ النَّبـي المفضَـلِ
بِبَـذْلِ مـالٍ مثْلُـه لـم يُبْـذَلِ　　　سَهَّلَـه اللهُ لهـا العـامَ وَلـي

* وعندما وصلوا مشارفَ بغداد قال الرَّاجز:

حتّـى إذا تَمَّـمَ ذُو الإكْـرامِ　　　تَسْليمنـا بـأفْضَـل التَّمـامِ
صِـرْنَـا إلـى مـدينـةِ السَّـلامِ　　　فـي ظِـلّ بنْـتِ سيِّـد الأنَـامِ

كـــريمـــةِ الآبـــاءِ والأَعْمـــامِ والأمّ ذاتِ الـــدِّيْـــن والإسْـــلامِ

غيـثِ اليَتَـامـى وحَيَـا الأيتـامِ مَـدَّ لهـا فـي العُمْـر ذُو الإنْعَـامِ

وخَصَّهـا بـالحـجّ كـلَّ عـامِ حتّـى تُـوافـي آخِـرَ الأيّـامِ

* وهكذا تركَتْ زبيدة ـ رحمها الله ـ في هذه الحجة أطْيَبَ الآثار الكريمة التي جعلتْ ذِكْرها فواحَ النَّشْر بطيبِ عَرْفِ صنائعها على مدى الأيّام:

فَـارْفَـعْ لِنَفْسِـكَ قَبْـلَ مَـوتـكَ ذِكْـرَهَـا

فَـالـذّكْـرُ لـلإنْسَـانِ عُمْـرٌ ثَـانِ

* إذاً، فمن يستطيع أنْ يفعلَ كما فعلت زُبيدة في عَصْرها؟!

أَدَبُهَا وأَنْسَامٌ منْ مَعَارِفِهَا:

لا تكُـنْ لائِمـي إذا اهتـزَّ عِطْفِـي مِـنْ سَمَـاعـي لِكُـلِّ مَعْنَـىً نَظِيـمْ

كلُّ مَنْ كَانَ في رِيَاضِ المعَاني غُصْنـاً هَـزَّهُ مُـرورُ النَّسِيـمْ

بلغتْ زبيدةُ مبلغاً رائعاً منَ المعرفةِ، حتى تسنَّمتْ ذُرا الأدب والثَّقافة والمعرفة، في الوقتِ الذي كان فيه كثيرٌ ممّن عاصَرْنَها يقضينَ حياتهُنَّ بين الحلي والحلل، وما شَابَـهَ ذلك من أمورِ النِّساء.

لقد كانت زُبيدة تاليةً للقُرآنِ العظيم، تتعاهده صباحَ ومساء، ولشدة شغفها بالقرآن العظيم وسماعه، فقد كان في قصرها مئة جارية تقرأُ القرآن، فكان يُسمَعُ منْ قصرها دويٌّ كدوي النَّحل من القراءة(١).

وتنمُّ أخبارها بأنَّها كانت تقضي أغلبَ أوقاتها تقرأ كتابَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وتنسجم مع معاني آياته الكريمة، فقد وَرَدَ أنَّها فَقَدتْ ذات مرة خاتماً بفصٍّ له قيمةٌ كبيرةٌ جدّاً، وقد اتّهمت فيه بعضَ جواريها، وإذ ذاك أحضرت رجلاً من أهل الصِّناعة فقال: ما أخذَ هذا الخاتم إلا اللهُ تعالى! وردَّدَ القولَ ولم يرجِعْ عنه، وبعد مُديدة عاودت زُبيدة القراءة، وفتحتِ المصحفَ، فوجدتِ

---

(١) النجوم الزاهرة (٢/ ٢١٤)، ووفيات الأعيان (٢/ ٣١٤)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٤١).

الخاتمَ فيه، وكانت قد جعلَتْهُ علامةً للوقف، وأُنْسِيَتْهُ[1].

* وأمّا الأدبُ وفنونُه فقد كان لها فيه اليد الطُّولى، وتدلي دلوها في البيان السَّاحر، والقول الآسر، والمعنى الهامس، فقد كانت أميرةً منْ أميراتِ البَيان، وشاعرةً مثقفةً، وكثيراً ما كانت تبعثُ في رسائلها الفيّاضة أبياتاً شعرية إلى مَنْ تودُّ مخاطبتهم.

* وقد ورد أنَّها كانت تجيدُ فَنَّ التَّوقيعات المختصرة التي تشيرُ إلى بلاغتها، فقد وقَّعَتْ مرّةً في ظَهْرِ كتاب وَرَدَ إليها من أحدِ عمّالها: أنْ أصلح كتابَك وإلا صرفْنَاك عن عملك، فتأمّله ذلك العامل فلم يظهرْ له فيه شيءٌ، فَعَرَضَهُ على بعضِ إخوانه، فرأى فيه الدُّعاء لها: وأدام كرامتك، فقال: إنَّها تخيلتْ أنّكَ دعوتَ عليها، فإنَّ كرامةَ النِّساء دفنهن[2]، فغيَّرَ ذلكَ وأعاد الكتاب إليها فقبلته.

* وقد شَهِدَ لزُبيدة بالبلاغة، أعلامُ البلاغةِ ممن عاصروها، فهذا عمرو بنُ مسعدة[3] أحد بلغاء الكتّاب قد قرأَ توقيعات كثيرة لعددٍ منَ البلغاء، فوجد أنَّ زبيدة أمّ جعفر قد فاقتهم، لذا أدلى دلوه بهذه الشَّهادة

---

(١) انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٣١٧) بتصرف يسير.

(٢) ومما يحضرني الآن ما قرأته منذ مدة في ديوان البحتري حيثُ قال في موتِ ودفْنِ البنات:

وَمِـنْ نِعَـمِ اللهِ لا شـكَّ فيـه ... حيـاةُ البنيـن ومـوتُ البنـات

لقـولِ النبـي عليـه السَّـلام ... مـوتُ البنـات مـن المكـرمـات!!

(٣) عمرو بن مسعدة، العلامةُ البليغُ، أبو الفضل ابن عمّ إبراهيم بن العبّاس الصَّولي الشّاعر، كان موقّعاً ـ كاتباً ـ بين يدي جَعْفر البرمكي، وكان فصيحاً، قوي المواد في الإنشاء، يُقال: توفي سنة (٢١٧ هـ)، عمل في وزارة المأمون، وله نظم جيّدٌ أورده ياقوتُ الحموي في معجم الأدباء. انظر: معجم الأدباء (١٦/ ٢١٧ ـ ١٣١) و(سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٨١ و١٨٢).

فقال: قد قرأتُ لأمّ جعفر توقيعات في حواشي الكُتُب وأسافِلَها، فوجدتُها أجودَ اختصاراً، وأجمعَ للمعاني[1].

وقد شهد لها المتأخِّرونَ بالفصاحةِ، فقال ابنُ تُغري بردي: وكانت مع هذا الجمالِ والحشمة، فصيحةً لبيبةً عاقلةً مدبّرة[2].

ويبدو أنَّ زبيدةَ كانت تحبُّ الاطلاعَ على أَسْرارِ اللغة العربية، وتسأل عنها كبار علماء العَصْر، فقد حُكي أنَّها أرسلتْ إلى الأصمعي[3] تسأله قائلة: إنَّ أميرَ المؤمنين ـ هارون ـ استدعاني وقال: هلمّي يا أمّ جعفر، فما معنى ذلك؟ وقد اهتمّتْ لذلك كثيراً، ولم تفهمْ معناه. فأجابَ: إنَّ جعفراً في اللُّغةِ، هو النّهر الصّغير، وأنتِ أمّ جعفر[4]. وإنمّا أرادَ أميرُ المؤمنين هارون هذا، وعند ذلك طابتْ نفسها، وسُرّي عنها، وأكرمتِ الأصمعي[5].

ولم يكن اهتمامُ زبيدة ـ رحمها الله ـ بشواردِ اللغة ومعارفها، وأسرارِ العربيّة وبيانها فحسب؛ وإنّما كانت تهتمُّ بالمسائل الفقهيّة وأمورها، وتسألُ العلماءَ الأكابرَ عن دقائقها، وعن تفصيلاتها.

---

(١) البيان والتبيين (١/ ١٠٦ و١٠٧) بتحقيق عبد السَّلام هارون.

(٢) النّجوم الزَّاهرة (٢/ ٢١٤).

(٣) الأصمعي: الإمامُ، العلامةُ، الحافظُ، حجةُ الأدب، ولسانُ العرب، أبو سعيد عبد الملك بن قُريب الأصمعي، البصريُّ، اللغويُّ، الأخباري، أحد الأعلام. وُلِدَ سنة بضع وعشرين ومئة، وكان بحراً في اللغة، وكتب شيئاً لا يُحصى عن العرب، وكان ذا حفظ وذكاء، ولطف وعبارة، فَسَادَ في عالَم السِّيادة، وتصانيف الأصمعي ونوادره كثيرة، وأكثر تواليفه مختصرات، وقد فُقِدَ أكثرها.
قال الشَّافعي: ما عبَّر أحدٌ عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي.
وعن ابن معين قال: كان الأصمعي من أعلم الناس في فنّه.
وقال أبو داود: صدوق. وأثنى عليه الإمام أحمد في السُّنَّة. مات الأصمعي سنة (٢١٥ هـ)، وعاش (٨٨ سنة) ـ رحمه الله ـ (تاريخ بغداد ١٠/ ٤١٠ ـ ٤٢٠) و(سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٧٥ ـ ١٨١).

(٤) انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٣١٥)، و(٣/ ١٧٧) بشيء من التصرف اليسير.

(٥) المصدر السابق.

قال أبو عبد الله اليوسفي: إنَّ أمَّ جعفر زبيدة ابنة جعفر كتبتْ إلى أبي يُوسف[1] تستفتيه في مسألةٍ، فأفتاها بما أوجبه العلمُ عنده، فوافقَ بذلك مرادها، فبعثتْ إليه بحق فضّة فيه حقاقُ فضّة مطبقات، في كلّ واحد لونٌ من الطِّيْب، وفي جام دراهم وسطها جام فيه دنانير، فقال له جليسٌ له: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أُهديت له هدية، فجلساؤه وشركاؤه فيها»[2].

فقال أبو يُوسف: ذاك حين كانتِ الهدايا: اللبن والتّمر، وقد تأوّلْتُ الخبرَ على ظاهره، والاستحسان قد منع من إمضائه، وذلك فَضْلُ اللهِ يُؤتيه من يشاء[3].

---

(١) أبو يُوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاريّ الكوفي البغدادي، صاحب الإمام أبي حنيفة وتلميذه، وأوّل مَنْ نشر مذهبه، وُلد في الكوفة سنة (١١٣ هـ)، وتفقَّه بالحديث والرّواية، وكان فقيهاً علامة من حفّاظ الحديث النبوي الشّريف، لزم أبا حنيفة، وغلب عليه الرأي.
وَليَ أبو يوسف القضاء ببغداد أيام الخليفة المهدي، ثم الهادي، ثمّ الرشيد، وهو أوّل من دُعي قاضي القضاة؛ ويُقال له: قاضي قُضَاة الدّنيا. وأول من وَضَع الكتب في أصول الفِقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، وكان واسعَ العلم بالتفسير والمغازي وأيام العرب.
ومن كُتُب أبي يوسف؛ كتاب: الخراج، والآثار وغيرها كثير.
وقد أفاض الذّهبي وابن خلكان، وقبلهما الخطيب البغدادي في جمع أخبار أبي يوسف، توفي أبو يوسف سنة (١٨٢ هـ) في خلافة الرشيد وعمره (٦٩ سنة) ـ رحمه الله ـ. انظر ترجمته في تاريخ بغداد الجزء (١٤).

(٢) انظر: مجمع الزوائد (٤/ ١٤٨).

(٣) انظر: تاريخ بغداد (١٤/ ٢٥٢)، وشرح مقامات الحريري للشَّريشي (٢/ ٢٤٨) مع الجمع والتَّصرّف.
ومن لطائفِ الطَّرائف، وطرائف اللطائف في هذا المجال، هذه الطّرفة الظَريفة الخفيفة التي رواها ابنُ خلكان في وفيات الأعيان (٢/ ٣١٦) في اختلاف الرّشيد وزبيدة في نوعين من الحلوى، فقال:
اختلفَ الرشيدُ وأمّ جعفر في اللوزينج، والفالوذج، أيّهما أطيب، فمالت زُبيدة إلى تفضيل الفالوذج، ومالَ الرشيدُ إلى تفضيل اللوزينج؛ وتخاطرا على مئةِ دينار، =

وكانت زبيدةُ تجلس خلفَ السِّتار تستمع إلى أقوالِ كبار فقهاء الدُّنيا آنذاك، وتعي مسائل الفتوى، وتحفظ ما يُقال في مجالسِ هارون الرشيد، وبذلك فاقت كثيراً من مثيلاتها، واقتعدت سدّة الشُّهرة.

قال أبو الحسن الخادم: كنتُ غلاماً لزُبيدة، وأُتي يوماً بالليث بن سعد، فكنتُ واقفاً على رأس زُبيدة خلف السِّتارة، فسأله هارون الرشيد فقال: حلفتُ أنَّ لي جنَّتَيْن. فاستحلفه الليثُ ثلاثاً أنَّك تخافُ اللهَ، فحلفَ له.

فقال له الليثُ: قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

قال: فأقطعه قطائعَ كثيرة بمصر(١).

تذَوقُهَا للشِّعْر وإكْرامُهَا للشُّعَرَاءِ:

* يحكي تاريخُ زبيدةَ أنَّها كانت تتذوّقُ ما ينظمُه الشُّعراء من لطيفِ الكلام، وتَتذوّقُ ما آتاهم اللهُ من فَضْلٍ في فَصْلِ الخطابِ، وفي لذيذ الألفاظ التي تجذبُ بمغناطيسها القلوب الصَّافية إلى دائرةِ الفَصَاحة، ومَيْدان البلاغةِ، وسَاحة المعاني.

* وكانت زُبيدةُ ـ رحمها الله ـ فصيحةً، تفهم ما يرمي إليه الكلام، لبيبةً تدركُ لوامعَ الإشاراتِ، عاقلةً تدركُ الأمورَ برويّة وحُسْن أناة، وكانتْ شاعرةً

= فأحضرا أبا يُوسف القاضي وقالا له: يا يعقوب قد اختلفنا في كذا وكذا على كذا وكذا فاحكم فيه.

فقال: يا أمير المؤمنين، ما يُحكمُ على غائب ـ وهو مذهب أبي حنيفة ـ فأحضر له جامَيْن من المذكورَيْن، فطفقَ يأكلُ من هذا مرّة، ومن هذا مرة، وتحقَّقَ إنْ حكَمَ للرشيد لم يأمنْ غضبَ زبيدة، وإن حكمَ لها لم يأمنْ غضبَ الرشيد، فلم يزلْ في الأكلِ إلى أن نصَّفَ الجامَيْن، فقال له الرشيد: إيه أبا يوسف.

فقال: يا أمير المؤمنين! ما رأيتُ خصمين أجدل منهما، كلما أردت أنْ أسجّل لأحدهما أدلى الآخر بحجته، وقد حِرْتُ بينهما. فضحك الرشيد، وأعطاه المئة دينار، وانصرف مشكوراً.

(١) انظر: العقد الفريد(٥/١١٨).

مثقّفةً تعرفُ مواقع العبارات، وتدرك بدائعَ التَّعبيرات.

* روي أنَّ ابنها الأمين قد رُزِقَ من الولد مُوسى، من أمّ وَلدٍ تُدعى «نَظْم»، وحَدَثَ أنْ ماتَتْ نَظْم، فاشتدَّ جزعه عليها، فدخلتْ زبيدة معزيّة له، فقالت مُنْشدة:

نَفْسي فِدَاؤُكَ لا يَذْهَبْ بكَ التَّلَفُ   فَفي بقَائِك ممَّنْ قَدْ مَضَىٰ سَلَفُ
عُوِّضْتَ موسى فمَاتَتْ كُلُّ مُرْزِيَةٍ   مَا بَعْدَ مُوسى على مَفْقُودةٍ أَسفُ

* ولزبيدة مواقفُ طريفةٌ آسِرةٌ مع شُعراء عَصْرهَا، فقد عرفَ شعراء العصر آنذاك جُودَها الذي يشبِهُ البحر، إذ إنَّ المعروف لجّتها، والجودَ ساحِلُها، لذلك امتدحوها كي ينالوا عطاءها.

* تروي كتبُ الأدب والأخبارِ، أنَّه لما حجّتْ أمُّ جعفر زبيدة، لقيها نصيب الشَّاعر مولى الخليفة المهدي، فترجَّل عن فرسه وأنشأ يقول:

سيسْتَبْشرُ البَيْتُ الحرامُ وزمزم   بأمّ وليِّ العَهْدِ زَيْنِ المواسمِ
ويعلمُ مَنْ وَافى المحصَّب[1] أنَّها   ستَحملُ ثِقْلَ الغُرْم عن كلِّ غَارمِ
بنُو هَاشم زيْنُ البَريّةِ كُلّها   وأمُّ وليّ العهد زينٌ لهاشمِ
سليلةُ أملاك تفرّعت الذُّرا   كرام لأبناءِ الملوكِ الأكارمِ
فوالله ما ندري أَفَضْلُ حديثِها   عليهم به تسمو أَم المُتَقادمِ
يظنُّ الذي أَعطتْهُ منها رغيبةً   يقصُّ عليه النَّاسُ أحلامُ نائمِ

فأمرتْ زُبيدة بعشرة آلاف درهم وفرسٍ، فأُعطي الفرس بلا سَرجٍ، فَصَبَر نُصيب حتى عادتْ زبيدة من حجّها، فتلقّاها وشكى لها ما نَالَه من نَقصٍ في العَطَاء، وقال:

لقد سَادَتْ زبيدةُ كلَّ حيٍّ   ومَيْتٍ ما خَلا المَلكِ الهُماما
تقىً وسماحةٌ وخُلُوصُ مَجْدٍ   إذِ الأَنْسَابُ أَخْلَصتِ الكراما
إذا نَزَلَتْ مَنَازِلَها قريشٌ   نَزَلْت الأَنْفَ منها والسَّناما
بلغْتِ منَ المفَاخِر كلَّ فَخْرٍ   وجاوَزْتِ الكلامَ فَلا كَلاَمَا

---

(١) «المحصب»: موضع رمي الجمار بمنى.

وأُعطِيْتُ اللّهى لكنَّ طرْفي يريدُ السَّرجُ منكم واللّجاما

فتبسَّمَتْ زبيدةُ ضاحكةً من قَوْلهِ، وأمرتْ أنْ يُعطَى سرجاً ولجاماً، فأخذَ ذلك وانصرف يكرّرُ مديحه لزبيدة، ويثني عليها في كلِّ نادٍ وموقف[1].

* ويبدو كرمُها واضحاً للشُّعراء عندما عَقَد الرَّشيدُ البيعةَ لابنه محمّد الأمين ابن زبيدة، حيثُ جاءه سَلَم الخاسِر، وأنشدَهُ قصيدته التي أوّلها، ومنها:

قُلْ للمنازلِ بالكثيبِ الأعفَرِ أُسْقيْتِ غاديةَ السَّحابِ المُمطرِ
قد بايعَ الثَّقلانِ مَهْدي الهُدى لمحمدِ بن زُبيدةَ ابنةِ جَعْفَرِ
وَلَّيْتَه عَهْدَ الأنام وأَمْرِهم فَدَمَغْتَ بالمعروفِ رأسَ المُنْكَرِ

فحشَتْ زُبيدة فَاهُ دُرّاً، فباعه بعشرينَ أَلْف دينار[2].

* ويبدو أنَّ سلمَ الخاسر هذا قَدْ أَعْطَتْه زُبيدة مَالاً وفيراً لوفرةِ مدائحه لها ولزوجها ولابنها ولي العهد، وماتَ وهو أحدُ أغنياء الشُّعراء[3].

* هذا وقَدْ أكثرَ الشُّعراء مَدْحَ الأمين بسببِ هارون الرشيد، وسبب أمّ جعفر زبيدة، فهذا مروانُ بنُ أبي حفصة يقولُ أبياتاً، ويرفعها إلى زبيدةَ بنتِ جعفر يمتدح ابنها محمّداً، وفيها قوله:

لله دَرُّكِ يا عقيلة جَعْفَر ماذا وَلَدْتِ منَ العُلا والسُّؤددِ
إنَّ الخلافةَ قد تبيَّن نُورُها للنَّاظرين علىٰ جَبين محمّدِ
إنّي لأعْلَمُ أنَّه لخليفةٌ إنْ بيعةٌ عُقِدَتْ وإنْ لم تُعْقَدِ

---

(١) الأغاني «٢٣/ ١٤ و١٥» بشيء من التصرف.

(٢) الأغاني (١٩/ ٢٧٩)، ووفيات الأعيان (٢/ ٣٥١).

(٣) رُفعَ إلى الرشيد أنَّ سلماً الخاسر قد توفي، وخلَّفَ مما أخذه منه خاصة، ومن زوجه زبيدة ألف ألف وخمسمئة ألف درهم ـ أي: مليون ونصف درهم ـ سوى ما خلّفه من عَقَار وغيره مما جَمَعه قديماً، فقبضه الرشيد، وتظلم إليه مواليه من آل أبي بكر الصديق ـ رضوان الله عليه ـ فقال: هذا خادمي ونديمي، والذي خلّفه من مالي، فأنا أحق به، فلم يعطهم إلا شيئاً يسيراً من قديم أملاكه. (الأغاني ١٩/ ٢٨٠ و٢٨١).

فأمرَ الرشيدُ له بثلاثةِ آلاف دينار، بينما أمرتْ زُبيدة أنْ يُحشى فُوهُ جوهراً[1].

أمّا أشجعُ بنُ عمرو السُّلَميّ ـ وهو من شعراءِ العَصْرِ العبّاسي المشهورين ـ فقد حظيَ بدراهمَ بلغتْ مئة ألف، حينما امتدح هارون وزوجه وابنه. فقد روى أَشْجعُ نفسه هذا الخبر قال: دخلتُ على محمّد الأمين حين أُجْلِسَ مجلس الأَدَبِ للتَّعليم، وهو ابنُ أربع سنين، وكان يجلس فيه ساعة، ثمّ يقوم، فأنشدته:

مَلِكٌ أبوهُ وأمُّه من نَبْعَةٍ ... منها سراجُ الأُمَّةِ الوهَّاج
شَرِبَتْ بمكةَ في ربىٰ بطحائِها ... مَاءَ النَّبوة ليس فيهِ مزاج

قال: فأمرتْ له زبيدة بمئةِ ألف درهم[2].

وكان الشُّعراء يترصَّدون المناسبات ليحظوا منْ زُبيدة بالأعطيات، ويأخذون ما تجودُ به نفسُها منَ الجواهرِ والدَّراهم والدُّرر، ومن هؤلاء الذين يتصيّدون المناسبات: داود بن رزين مولى عبد القيس، فقد رُوي أنَّه وقَعَ بين هارون وزبيدة خصامٌ وشَرٌّ، فتهاجرا، فعمل داود بن رزين شِعْراً، وأمَّلَ فيه الأملَ الكبيرَ من زبيدة فقال:

زمنٌ طيِّبٌ ويومٌ مطيرُ ... هذهِ روضةٌ وهذا غديرُ
إنّما أمُّ جعفرٍ جنَّةُ الخلـ ... ـد رضاها والسّخط منها السّعيرُ
أنت عبدٌ لها ومولى لهذا الـ ... خلق طرّاً وليس في ذا نكيرُ
فاعتذرْ يا خليفةَ اللهِ في الأر ... ضِ إليها وتركُ ذاك كبيرُ

فصار هارون إليها عندما وقفَ على الأبيات، وسألتْ عن سببِ مجيئه فعرفتْ، وأوْصَلَتْ إلى داود مئة ألف درهم في وقتها، وأضعافها بعد ذلك[3].

---

(١) العقد الفريد (١/ ٣١٣ و٣١٤)، ووفيات الأعيان (٢/ ٣١٥ و٣١٦).
(٢) الأغاني (١٨/ ٢٢٦).
(٣) وفيات الأعيان (٢/ ٣١٥).

* وكان للشَّاعرِ الفَكِهِ، ثُمَّ الزَّاهدِ أبو العتَاهية[1] مواقفُ لطيفة مع زبيدة، فقد نَالَهُ كثيرٌ من عطاياها، فقد ورد أنَّها كانت تعطيه في كلِّ سنة مئة دينار، وألف درهم، وكان أبو العتاهية يصبُّ جزءاً من مدائحه على ابنِها الأمين، فتغدقُ عليه وتكرمه، فقد كانت تتذوّق الشِّعْرَ وتفهمه، وتدرك جَيّدهَ منْ رديئه، وتناقشُ في ذلك. قال أبو العتاهية عن نفسه لما جلس الأمينُ بالخلافةِ: أنشدتُ أبياتاً وهي:

يابْنَ عَمِّ النَّبي خَيرِ البريّةْ	إنَّما أنتَ رحْمَةٌ للرّعيَّةْ
يا أمينَ الهدى الأمين المُصَفّى	بلباب الخلافةِ الهاشميّةْ
لكَ نَفْسٌ أمّارَةٌ لكَ بالخيـ	ـر وكفٌّ بالمكرمات نديّة
إنَّ نَفْساً تحمَّلَتْ منْكَ هذا	حَملتْ للمسلمين نَفْسٌ قويّة

وبعدَ فراغي منَ الأبياتِ، ذهبتُ لأمّ جعفر، فقالت لي: أنشدني ما أنشدت أمير المؤمنين، فأنشدتها. فقالت: يا أبا العتاهية، أينَ هذا من مدائحك في المهدي والرَّشيد؟ فغضبتُ وقلتُ لها:

يا عمودَ الإسلامِ خير عَمُودِ	والذي صِيْغَ منْ حياءٍ وجُودِ

فقالت لي: الآن يا أبا العتاهية وفّيْتَ المديح حقّه، وأمرتْ لي بعشرة آلاف درهم[2].

---

(١) أبو العتاهية إسماعيل بنُ القاسم بن سُويد العيني العنزي، وُلدَ في «عَيْن التَّمر» بقربِ الكوفة سنة (١٣٠ هـ)، ونشأ في الكوفةِ، وسكنَ بغداد، وكان في بدءِ أمرهِ يبيعُ الجِرار، ثم اتَّصل بالخلفاءِ، وعلَتْ مكانتُه عندهم، كان شاعراً مكثراً، سريعَ الخاطر، في شعره إبداع، كان ينظمَ المئة والمئة والخمسين بيتاً في اليوم، وشعرُه الذي حُفِظ عنه معظمه في الحكمة والعِظة، فقد كان يجيدُ القول في الزُّهد، وكذلك المديح، هجر الشّعر مدّة، ثم عادَ إليه، ونظم في الزُّهد والأخلاق، وأخباره كثيرة جداً مبثوثة في بطون الكتب. توفي في بغداد سنة (٢١١ هـ) وعمره (٨١ سنة).

(الأغاني: ترجمة أبي العتاهية) وغير ذلك من مصادر.

(٢) انظر: الدُّر المنثور (ص٢١٨).

* ومنْ طرائف أخْبارِ أبي العتَاهية مع زُبيدة، ما رواه محمّد بن الفَضْل قال: كان المأمون يوجه إلىٰ أمِّ جعفر زبيدة في كلِّ سنة مئة ألف دينار جُدُداً، وألف ألف درهم، فكانت تعطي أبا العتَاهية منها مئة دينار، وألف درهم، فأَغْفَلَتْه سَنَة، فرفع أبو العتاهية رقعة إلى محمّد بنِ الفضل، وقال له: ضَعْها بين يدي زبيدة، فوضَعها، وكان فيها:

خَبّروني أنَّ في ضَرْبِ السَّنَةْ جُدُداً بِيْضاً وصُفْراً حَسَنَة
سُكَكاً قد أُحْدِثتْ لم أَرهَا مثلما كنتُ أرى كلَّ سَنَة

فقالت: إنّا والله أغفلْناه، ثمّ وجّهتْ إليه بعطائه[1].

* وكانت زبيدةُ بالإضافةِ إلى سخائِها على الشُّعراء تنقدُ الشِّعر، وتوجِّهُ مَنْ أخطأَ إلى الصَّواب. قال الجاحظُ: حدَّثَني أبو نُواس أنَّ شَاعراً غَثَّ الشِّعر جاءَ إلى زبيدة وأنشدها مدحاً فيها وهي تسمعُ:

أَزُبيدةُ ابنةَ جَعْفَرٍ طوبى لزائِرِك المُثَاب
تُعطينَ منْ رجْلَيْكَ مَا تُعْطي الأكفُّ منَ الرِّغاب

فتبادرَ الخدمُ إليه ليوقعوا به على سُوءِ أدَبِه وعبارته، فقالت: دعوه، فإنَّ مَنْ أرادَ خيراً فأخطأ، خيرٌ ممنْ أرادَ شرّاً فأصابَ، سَمِعَ الناس يقولون: شمالك أندى من يمين غيرك، فَقَدَّر أنَّ هذا مثل ذلك، أعطوه ما أمَّل، وعَرِّفُوه ما جَهِل.

قال الجاحظُ: فقلتُ له: واللهِ لو وَرَدَ هذا على العبّاس جدّها ـ رضي الله عنه فإنّه النّهايةُ في العَقْل ـ ما كان عنده منَ الحِلْم والاحتمال أكثر من هذا. وعقّب الجاحظ قائلاً: كانت زبيدةُ أعقلَ النّاس، وأفصحَ النّاس[2].

---

(١) نهاية الأرب (٢٢/ ١٨٨ و١٨٩) بتصرف يسير.

(٢) انظر: الموشح للمرزباني (ص٣٩٣)، والهفوات النادرة (ص٣٧)، ووفيات الأعيان (٢/ ٣١٥)، وزهر الآداب (١/ ٣٤٩) بتحقيق البجاوي مع الجمع والتصرف.

زبَيْدَةُ والأمِيْنُ والمَأْمُونُ:

* قال الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ: خلَّفَ هارون الرّشيد عدَّة أولادٍ، فمنهم تسعةُ بنين اسمهم محمّد، أجلُّهم الأمين، والمعتصم[1].

* وبعد وفاةِ الرَّشيد، بُويع الأمين ابن زُبيدة بالخلافة سنة (١٩٣ هـ) بِعَهْدٍ من أبيهِ الرَّشيد، فولَّى الأمينُ أخاه خُراسان وأطرافها، وكان المأمونُ وليَ العَهْدِ من بعده.

* وأجمعَ الرُّواةُ على أنَّ الأمينَ كان مليحاً، ومن أحْسَنِ الشَّباب صورةً، بديعَ الحسن، أبيضَ وسيماً طويلاً، ذا قوّة مفرطة وبطشٍ وشجاعةٍ وأدب، وفصاحةٍ وأدبٍ وفضيلةٍ وبلاغةٍ، صحيح الإسلام والدِّين[2]، قَتَل مرّة أَسَداً

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٩٥)؛ وقد ورد أن الرشيد قال للأمين: يا محمد ما أنت صانع إنْ صرف الله إليك أمْر هذه الأمة؟! قال: أكون مهدياً يا أمير المؤمنين. قال الرشيد: إنْ فَعَلْتَ فأنتَ أهله. (أبناء نجباء الأبناء لابن ظافر الصِّقلي ص١١٣).

(٢) انظر: العقد الفريد (٥/ ١١٨)، والكامل في التاريخ (٦/ ٢٨٩)، وسير أعلام النبلاء (٩/ ٣٣٥)، والنجوم الزّاهرة (٢/ ١٦٠)، ونهاية الأرب (٢٢/ ١٨٧) مع الجمع بينها.
ولا شكَّ بأنَّ الأمينَ كان أديباً فصيحاً، فقد تعلّمَ ذلك على كِبارِ عُلماء عصره. وقد وَرَدَ أنَّ أباهُ الرَّشيد قد أوصى الأحمر النَّحوي ـ وهو علي بنُ الحسن المعروف بالأحمر ـ حينما عهد إليه بتأديب ابنه الأمين وقال له: يا أحمر إنَّ أميرَ المؤمنين قد دفَعَ إليك مهجةَ نفسه، وثمرةَ قلبه، فَصَيِّر يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة، فكُنْ له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرّفه الأخبار، وروّه الأشعار، وعلّمه السُّنن، وبصّره مواقع الكلام وبدئه، وامْنَعْه من الضَّحك إلا في أوقاته، وخُذه بتعظيمِ مشايخ بني هاشم إذا دخُلوا عليه، ورفْع مجالس القُوّاد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرّنَّ بكَ ساعة إلا وأنتَ مغتنم فائدة تفيده إياها منْ غير أنْ تحزنَه، فتميتَ ذهنه، ولا تمعنْ في مسامحته فيستحلي الفَراغ ويألفُه، وقوّمْه ما استطعتَ بالقربِ والملاينة، فإنْ أبَاهُما فعليك بالشّدةِ والغلظةِ. (مروج الذهب ٣/ ٤٣٠).

بيديه، وما ولي الخلافة هاشمي ابن هاشمية سوى علي ومحمّد الأمين.

* وعن قوّةِ الأمين وشجاعته، حكي أنَّه أُحْضِرَ إليه أَسَدٌ في قَفَصٍ حديد، فأمَرَ بفتح القَفَصَ، فوثبَ الأسدُ، فتفرَّقَ الغلمانُ، وانفردَ بالأمينِ، فوثب الأسدُ عليه، فعمد إلى مِرْفَقَة[1] تلقاه بها لحمايته، ثم قبضَ على أَصْلِ أُذنيه وهزَّه، فَسَقَط الأسدُ ميّتاً، وزاغتْ أكتافُ الأمين، فأحضر الأطبّاء، فأعادها إلى مكانها، وانفقأت مرارةُ الأَسدِ في جوفه[2].

* وبعد مضي سنتين منْ خلافةِ الأمين، أعلنَ خَلعَ أخيهِ المأمون منْ ولايةِ العهد، هنالك نادى المأمون[3] بخلعِ الأمين في خراسان، وتسمّى بأمير المؤمنين، وجهّزَ وزيره طاهر بن الحسين، وجهَّزَ الأمينُ وزيره علي بن عيسى بن ماهان للقاءِ المأمون في سنة (١٩٥ هـ).

* ولما عزم قائدُ الأمين على المسيرِ من بغدادَ للقاء المأمون ركبَ إلى باب زبيدة أمّ الأمين ليودّعها، فقالتْ له هذه الكلمات التي تشيرُ إلى نُبْلِ أصْلِها، وعراقةِ محتدها، وطيْبِ عنصرها: يا علي، إنَّ أميرَ المؤمنين وإنْ كانَ ولدي، وإليه انتهتْ شَفَقَتي، فإنّي على عبدِ الله ـ أي: المأمون ـ منعطفةٌ مُشْفِقةٌ، لما يحدثُ عليه منْ مكروهٍ وأذىً، وإنّما ابني مَلِكٌ نافسَ أخاهُ في سُلطانه، وغارَّه على ما في يَدِه، والكريم يأكلُ لحمه، ويُميقه غيره، فاعرف

---

(١) «مرفقة»: مخدة، أو متكأ.

(٢) انظر: نهاية الأرب للنويري (٢٢/ ١٨٧). وقيل أيضاً: بعد مَصْرع الأَسد، إذا بمفصل يَدِ الأمين قد زالتْ عن موضعها، فأتىٰ بمجبّر فجبّرها، وردَّها كما كانت، وجَلَس الأمين كأن ما صنع شيئاً، فشقوا جوفَ الأسد، فوجدوا مرارته قد انفقأت في جوفه.
وقيل: بل حاد الأمين عن الأسد حتى تجاوزه، ثم قبض على ذنبه، وجذبه جذبة أقعى لها الأسد، وانقطع ظهره، فماتَ، وزاغت أناملُ الأمين على منابتها.

(٣) من الجدير بالذكر، أنَّ زبيدة أمَّ جعفر قد أهدتْ إلى زوجها الرَّشيد عَشْر جوار منهن: ماردة أمّ المعتصم، ومراجل أمّ المأمون، ونادرة أمّ صالح. (الأغاني ١٨/ ١٦٧).

لعبدِ الله حقَّ ولادته، وأخوّته، ولا تجبهه بالكلام، فإنكَ لستَ له بنظير، ولا تَقْتَسِرْه اقتسارَ العبيد، ولا توهنه بقيد، ولا غلّ، ولا تمنعْ عنه جاريةً ولا خادماً، ولا تعنِّفْ عليه في السَّير، ولا تُساوِهِ في المسير، ولا تركبْ قبله، وخُذْ بركابه، وإنْ شَتَمك فاحتملْ منه. ثم دفَعَتْ إليه قيداً من فضّة، وقالت: إنْ صارَ إليك فقيّده بهذا القيد. فقال لها: سأفعلُ مثلما أَمَرْتِ[1].

* والتقى الجيشان، فَقُتِل ابنُ ماهان، ثم حُوصِرَ الأمينُ ببغدادَ حصاراً طويلاً انتهى بقتله سنَة (١٩٨ هـ).

* وتألَّمتْ زبيدةُ أشدَّ الألمِ لهذه الحادثة الكبيرة التي صَدَعَتْ جِسْمَ الدَّولةِ العباسيّة، وصَدَعَتْ نَفْسَ زبيدة، فَقَدْ كان فَقْدُ الأمينِ أليماً عليها، فقد كان يجمعُ إلى جانب شجاعته وهمّته نَفْساً كبيرة، وعزّة تدلُّ على كلماته التي قال لأمّه عندما أحاطَ به أعداؤه، فدخلتْ عليه زُبيدة باكيةً، فقال لها: إنّه ليس بجزعِ النّساء وهلعهن عُقِدت التّيجانُ، والخلافة سياسةٌ لا تسعُها صدورُ المراضعِ وراءَك.

* وتفجَّرتْ ينابيعُ الحزنِ في قَلْب زبيدة، فانبعثت عيونٌ شعريةٌ آسرةٌ منْ نفحاتها تَرثي فلذة كبدها ابنها الأمين، بل أبدعتْ في فنِّ رثائها له، وحلَّقَتْ في هذا الفنّ الرّقيق الرّائع، بل تُعَدُّ هذه القصيدة منْ روائع ما قيل في رثاء الأبناء:

أَوْدىٰ بأَلْفَيْنِ مَنْ لم يَتْرُكِ النَّاسَا	فَامْنحْ فؤَادَك عن فُضُولكَ اليَأسَا
لما رأيتُ المنايا قَدْ قَصَدنَ له	أَصَبْنَ منهُ سوادَ القَلبِ والرَّاسَا
فَبِتُّ متكِئاً أرعى النَّجومَ له	أَخَالُ سُنَّتَه بالليلِ قرطاسَا
والموتُ كانَ بهِ والهمُّ قَارَنَه	حتّى سَقَاهُ التي أودى بها الكاسَا
رُزِئْتُه حينَ باهيتُ الرِّجالَ بهِ	وقد بنيتُ به للدَّهْر أسَاسَا
فليسَ مَنْ ماتَ مَردُوداً لَنَا أبداً	حتى يُرَدَّ علينا قَبْلَه نَاسَا[2]

---

(١) الكامل في التاريخ (٦/ ٢٤٠)، والأخبار الطوال للدينوري (ص٣٩٦).

(٢) الدر المنثور (ص٢١٦)، وشاعرات العرب (ص٢١٣)، وأعلام النساء (٢/ ٢٠ و٢١).

* وظلَّتِ السَّيدةُ زُبيدة ـ رحمها الله ـ مثال التَّعقُّل والحكمة، والبلاغةِ في الكلامِ في الأوقات الحرجةِ. وقد أُثِرَتْ عنها كلماتٌ في غايةِ الرَّصانة والبلاغة والقَصْد واستيفاءِ المعنى في الوقت المناسب.

* ذُكِرَ أنَّ المأمونَ دخلَ عليها بعد قَتْلِ ابنها الأمين يعتذرُ إليها، ويعزّيها فيه، ويسكِّنُ ما بها منَ الحزنِ والهمِّ، فقال لها: يا ستّاه، لا تَيْأَسِي عليه، فإنّي عوضُه لكِ!

فقالت: يا أمير المؤمنين! كيف لا آسفُ على وَلَدٍ خَلَّفَ أخاً مثلك؟! ثمَّ بكتْ وأبكتِ المأمونَ حتى غشي عليه[1].

* وبهذا التَّصرّفِ الحكيم، وبهذا اللفظ السَّليم، فرضتْ على المأمون احترامها، فكان يبالغُ في إجْلالِها، حتّى قالت له مرَّةً: لئن فقَدتُ ابناً خليفةً، لقد عُوِّضْتُ ابناً خليفة لمْ أَلِدْهُ، وما خَسِرَ مَن اعتاضَ مثلك، ولا ثكلت أمٌّ ملأتْ يدها منك، وأنا أسألُ اللهَ أجْراً على ما أخَذَ، وإمتاعاً بما عوض[2].

* ويبدو أنَّ كلمات زبيدة قد أَسَرَتْ مجامعَ قَلْبِ المأمون، وأُعْجِب بها وبصبرها الذي يعتبر مضرب الأمْثال، فقد وَرَدَ أنّها دخلتْ عليه بعد قَتْل ابنها

---

(١) انظر: النجوم الزاهرة (٢/ ٢١٤). ويُقال: إنَّ المأمونَ لما رأى رأسَ أخيه الأمين بكى، واستغفر له، وذكر له أياماً محمودة، وجميلاً أسْداه إليه في حياة أبيه الرشيد. (تاريخ القضاعي ص٤٢٧).
وهذا الجميلُ المحمود يرويه المأمونُ نفسه، ويدلُّ الجميلُ على مكارمِ الأمين وأخلاقه وجودة نفسه وكرم نبله وأصله، كما وتدلُ على طبيعةِ المأمون.
قال المأمونُ: تذكرتُ لمحمد ـ مع عقوقه وقليل برّه ـ: أمَرَ لي الرشيدُ يوماً بمئة ألف دينار، وأمَرَ له بمئتي ألف، ولم يعلم بذلك؛ فبادرت فبشّرتُه بها، فقال: يا أخي لعل في نفسك شيئاً مِنْ تفضيلي عليك، قد جعلتُها لكَ بأسْرِها جزاء بشارتك لي. فصرف الثّلاثمئة ألف إليَّ. (تاريخ العمراني ص٩٥).
(٢) تاريخ بغداد (١٤/ ٤٣٣ و٤٣٤)، ووفيات الأعيان (٢/ ٣١٦)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٤١).

وقالت: الحمدُ للهِ الذي ادّخرك لي لما أثكلَني ولدي، ما ثكلتُ ولداً كنتَ لي عوضاً منه. فلمّا خرجتْ قال المأمونُ لأحمد بن أبي خالد: ما ظننتُ أنَّ نساءً جُبِلْنَ على مثْلِ هذا الصَّبْر[1].

* وحصَل جَفَاءٌ بينها وبينَ المأمون يوماً، فبعثتْ إليه بأبياتٍ تشيرُ إلى فطْنَتِها وذكائِها وشاعريتها، وأمرت كاتبها جعفر بن الفضل، والأبيات هي:

أَلا إنَّ ريبَ الدَّهْرِ يُدْني ويُبعِدُ ... ويـؤنـسُ بـالألآف طَـوراً ويفقـدُ
أصابتْ لريبِ الدّهر منّي يدي يدي ... فَسلمـتُ لـلأقـدارِ واللهُ أَحْمَـدُ
وقلتُ لريبِ الدَّهر إنْ ذَهَبتْ يَدٌ ... فقـد بقيـتْ والحمـدُ لله لـي يَـدُ
إذا بقيَ المأمونُ لي فالرشيد لي ... وَلـي جعفـرٌ لـم يهلكـا ومحمّـدُ

* ولما سمعَ المأمونُ الأبياتَ حَسُنَ موقعها عنده، فبكى ورقَّ لها، وقام لوقته فدخل عليهما فقبل رأسها، وقبّلت يده، وقال لها: يا أُمّه، ما جفوتُكِ تعمداً، ولكنّي شُغِلْتُ عنه بما لا يمكن إغفاله.

فقالت: يا أمير المؤمنين! إذا حَسُنَ رأْيُك لم يوحشْنِي شيءٌ. وأتمَّ بقية يومه عندها[2].

* ولعلَّ منْ أجمل بوحِ فؤادِ زُبيدةَ، تلك القصيدة التي بعثَتْ بها إلى

---

(1) انظر: العقد الفريد (٢/ ٢٧٣ و٢٧٤).

(2) العقد الفريد (٣/ ٢٦١)، ونهاية الأرب (٢٢/ ١٨٩) مع الجمع والتصرف.
هذا وقد زادَ أبو الحسن محمّد بن هلال الصّابي المتوفى سنة (٤٨٠ هـ) على هذه القصّة فقال: إنَّ المأمون أقامَ عند زُبيدة، وتغدّى عندها، فأخرجتْ إليهِ منْ جواري الأمين مَنْ يغنّيه، وسألته أنْ يأخذَ منهن مَنْ يرتضيه، فأومأ إلى واحدةٍ منهن، فغنَّتْ، وضربت الباقيات عليها:

هُـمُ قتلـوهُ كـي يكـونُـوا مكـانَـه ... كما فعلَتْ يوماً بكسرى مرازِبُه
فـإلا يكـونُـوا قَـاتليـه فـإنّـه ... سـواءٌ علينـا مُمْسكـاهُ وضَـاربـه

فوثبَ المأمون مغضباً، فقالتْ له زُبيدة: يا أمير المؤمنين، حَرَمني اللهُ أجره إنْ كنتُ عَلَمّتُها، أو دسَسْتُ إليها به، فصدّقها، وعجبَ من ذلك.
انظر: (الهفوات النّادرة للصّابي ص١٣).

المأمونِ على إِثْرِ مَقْتَل ابنها الأمين، وإنّها لتدلُّ دلالةً واضحةً على عُلو كَعْبِها في الأَدَبِ والنَّظم والبلاغةِ والبيانِ، ناهيك بفصاحتها وحُسْن تصويرها للأحداثِ والأمور؛ فقد كتبتْ للمأمونِ ترثي بها سوء حالها، بعد فَقْد ولدها والأبيات هي:

لخَيْـرِ إمـامٍ قَـامَ مـنْ خيـرِ عُنْصُـرِ ... وأفْضَـلِ سَـام فـوقَ أَعْـوادِ مِنْبَـرِ

لـوارثِ علـمِ الأوَّليـنَ وفَهْمِهـم ... وللمَلِـكِ المـأمـونِ مـنْ أمِّ جَعْفَـرِ

كَتَبْـتُ وعَيْنـي مُسْتهـلٌّ دمـوعهـا ... إليكَ ابنَ عمّي مِنْ جُفوني ومِحْجَري

فُجِعْنَا بأدْنى النَّاس منْكَ قرابةً ... ومَنْ زَلَّ عن كبدي فَقَلَّ تَصبُّري

وقـد مسَّنـي ضَـرٌّ وذُلُّ كـآبـةٍ ... وأَرَّقَ عينـي يـابـن عمّـي تفكُّـري

وهمـتُ لمـا لاقيـتُ بَعْـدَ مُصَـابِـهِ ... فـأمْـري عظيـمٌ منكَـرٌ عنـدَ منكـرِ

سَـأشْكُـو الـذي لاقيتُـهُ بَعْـد فَقْـدِهِ ... إليـكَ شكـاةَ المستهـامِ المقُهّـرِ

وأرجو لما قَدْ مَرَّ بي مُذْ فقدتُه ... فـأنـتَ لبيتـي خيـرُ ربّ معمَّـرِ

أَتـى طَـاهِـرٌ لا طهّـرَ اللهُ طَـاهِـراً ... فمـا طَـاهِـرٌ فيمـا أتـى بمطهَّـرِ

فأخرجني مكشوفةَ الوجه حَاسِراً ... وأنْهَـبَ أَمْـوالـي وأَحْـرق أدْورِي

يعـزُّ علـى هـارونَ مـا قَـد لَقِيْتُـه ... وما مرَّ بي منْ ناقصِ الخَلْقِ أعْورَِ

فـإنْ كـانَ مـا أبـدى بـأمْـرٍ أمـرتُـه ... صبـرتُ لأمـرٍ مـن قـديـرٍ مقـدّرِ

وإنْ كـان مـا قـد كـان منه تعـدّيـاً ... علـيّ أميـرُ المـؤمنيـن فعيّـرِ

تـذكَّـرْ أميـرَ المـؤمنيـن قـرابتـي ... فـديتُـك مـنْ ذي حـرمـة متـذكّـرِ

* فلمّا نَظَرَ المأمونُ إلى كتابِها، وقرأ شعرها بكى، واعتذرَ إليها منْ قَتْلِ أخيه محمّد الأمين، وقال لها: لَسْتُ صاحبَه ولا قاتِلَه، واللهِ ما أمرتُ ولا رضيتُ، اللهم جَلِّلْ قَلْبَ طاهر بن الحسين حزناً.

* هنالك قالتْ زبيدة للمأمونِ مقالةً تدلُّ على أخلاقِها الحِسَان، وكلماتها التي تنثرُ من جُمانِ طيبها، وهمسات تشيرُ إلى نُبلها وحسن صِلَتِها بالله:

يا أميرَ المؤمنين، إنَّ لكما يوماً تجتمعانِ فيه، وأرجو أنْ يَغْفِر اللهُ لكما إِنْ شَاء[1].

* هذا ولم يكنْ قَتْلُ الأمين أليماً على قلبِ زبيدة وحدها، وإنّما كانت هناك نساءٌ أخريات قد تأثّرن بهذهِ الحادثة المفجعة ورثَيْنَ الأمين، من ذلك ما رثته به لبانةُ ابنة ريطة التي بكته قائلة:

أبْكيْــكَ لا للنَّعيــمِ والأُنْــسِ ... بـلْ للمعَـالي والـرُّمـحِ والفَـرسِ

مَــنْ للحـروبِ التـي تكـونُ بهَـا ... إنْ أُضْـرِمـتْ نـارُهـا بـلا قَبَـسِ

مَــنْ لليتــامــى إذا هُــمُ سَغبُــوا ... وكــلُّ عــانٍ وكــلُّ مُحْتَبَــسِ

* وقد رثاه شعراء كثيرون، ومنهم الحُسين بن الضَّحاك ـ وكان منْ ندمائه ـ فقال من قصيدةٍ طويلة منها:

يَـا خَيْـرَ أُسْـرتِـهِ وإنْ زَعَمُـوا ... أنَّـي عليـكَ لمثبـتٌ أَسِـفُ

اللهُ يَعْلَــمُ أنَّ لـــي كَبَـــداً ... حــرَّىٰ عليـكَ ومقْلَــةٌ تكِـفُ

هَــلاّ بقيْــتَ لِسَــدِّ فَــاقتِنَــا ... أَبَــداً وكــانَ لِغَيــركَ التَّلَــفُ

هَيْهَــاتَ بَعْــدَكَ أنْ يــدومَ لنَــا ... عــزٌّ وأنْ يبقــى لنَــا شَــرَفُ[2]

وَدَاعَــاً سَيّدةَ نِسَاءِ الخُلَفَــاءِ:

* عاشتْ زُبيدةُ بَعْدَ مَقْتَلِ ابنها مدّةً منَ الدَّهْر، تَصِلُ عبادةَ الليل بطاعةِ النَّهار، وتؤدي الفَرائض، وخرجتْ إلى الحجِ في عهد المأمون، ولم يتغيّر شيءٌ مِنْ حالها.

---

(١) العقد الفريد (٣/ ٢٦١ و٢٦٢)، والكامل في التاريخ (٦/ ٢٩٠ و٢٩١)، وأعلام النّساء (٢/ ٢١ ـ ٢٣)، وشرح مقامات الحريري للشّريشي (٢/ ١٦٦ و١٦٧) وشَاعرات العرب (ص٢١٢ و٢١٣) مع الجمع والتصرّف. هذا وقد وجدنا قصيدتها الرائية السَّابقة أشتاتاً في بطون المصادر، فجمعنا ذلك الشَّتات، وآلفنا بينها، ونسقنا بين معانيها لتفي بالغرض المطلوب؛ والله المستعان، وهو الموفق للصواب.

(٢) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (٦/ ٢٨٩ و٢٩٠).

* وفي شهر جمادى الأولى منْ سَنَة (٢١٦ هـ) ماتت زُبيدة، وهي أعظم نساءِ عصرها دِيناً وأصْلاً وجَمالاً وصيانة ومعروفاً[1]. ماتتْ زُبيدة في بغداد، ودُفِنَت فيها ووقفَ على قبرها عددٌ كبير منَ الشُّعراء ورثوها بأبدعِ ما جادت به قرائِحُهم وبناتُ أفكارهم.

* وقُبيل الوداع نتذكّر قولَ القائل ـ وهو المتنبي ـ:

ولـــو كـــانَ النِّســـاءُ كَمَـــنْ فَقَـــدْنَـــا
لَفُضِّلَـــتِ النِّســـاءُ علـــى الـــرِّجـــالِ

ومَـــا التَّـــأْنيـــثُ لاســـمِ الشّمـــس عيـــبٌ
ولا التّـــــذكيـــــرُ فَخْـــــرٌ للهِـــــلالِ

وأفْجَـــعُ مَـــنْ فَقَـــدْنَـــا مَـــنْ وَجْـــدَنَـــا
قُبَيْـــــلَ الفَقْـــــدِ مَفْقـــــودَ المِثَـــــالِ

* ماتتْ زُبيدة؛ ماتتِ المرأةُ التي أنفقتْ في سبيلِ الله، وفي خدمةِ حجّاج بيت الله، وفي بناءِ المساجد والقناطر، وتشييد المكارم وقصورِ المحامِد ما لم تنفقْه امرأةٌ منْ نساءِ الخلفاء قبلها، ولا بعدها، ولم تفكّر امرأةٌ من نساءِ الخلفاء بعدها في عَملِ ما عملته زبيدة، سيّدة نساء الخلفاء فَضْلاً ومَعْرُوفاً.

* لقد ماتت زُبيدة، ولكنَّ آثارَها ومآثرها ما تزالُ حيّة تشهدُ لها لا عليها، وتعطِّرُ الدُّنيا بأريجها، وتنفحُ التَّاريخ النَّسوي بشذاها.

* رحمَ اللهُ زبيدة ابنة جعفر، وجَعَلها في مستقرِّ رحمته في جنّات ونَهر.

* * *

(١) الكامل في التاريخ (٦/ ٢١٦)، والنجوم الزاهرة (٢/ ٤١٤)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٤١).



١٣
زينب بنت حُدير

تَرْبيَـةٌ فَريْـدَةٌ:

امتلكتْ هذهِ المرأةُ مشاعرَ أشْهَرِ قَاضٍ في صَدْرِ الإسلام، وظلَّت تحتفظُ بودِّه وتحفظُه طيلَةَ حياتها عنده.

عاشت هذه المرأةُ في القرن الهجري الأوّل، وهي وإنْ لم تكن ممن لمَعَتْ أسماؤُهن في سمواتِ الشّهرة، إلا أنَّ تربيتها السَّليمةَ الفريدةَ، جعلَتْها من نساءِ التَّاريخ اللاتي نستمتعُ بسيرهن، ونسمعُ أخبارهن، وتقتدي صوالحُ النِّساء بأخلاقِهن، ليكنَّ خيرَ عونٍ ومعوانٍ لأزواجهن وأهلهن.

وهذه المرأةُ العاقلةُ عاشتْ في كَنَفِ أمّها التي لا نعرفُ اسمها، وإنّما نعرفُ أنَّها امرأةٌ خبيرةٌ بالحياةِ، قد خبرتِ الأُمورَ، وعرفتْ ما يصلُح لها، وما يفسدُها، وكانت حكيمةً ذات نصائح مفيدةٍ، قد صقلتها التَّجاربُ، وعلّمتها الأيّامُ، وهذَّبتها تعاليمُ الإسلامِ، فراحتْ تغذّي ابنتها ـ ضيفة حلقتنا ـ برحيقِ هذه الفضائلِ الحِسَان، لتكون معواناً لزوجها تساعده على تقلّباتِ الأزمان، فالمرأةُ الجميلةُ ربّما تملكُ القلوبَ لزمنٍ معين، أمّا المرأة العاقلةُ الفاضلةُ فإنّها تسترقُّ العقولَ والنّفوسَ.

ولم يَخِبْ ظنُّ الأُمِّ بابنتها، فكانت كما أرادتْ أمُّها، حيث كان زوجُها يأنسُ بقربها، وتتبدّدُ وحشته معها، وتزولُ غربته وهو يلازمُها، وتزولُ همومُه وأثقالُه بين راحتيها، فإلى جوارِها تشرقُ شمسُ التّفاؤل، ويطلعُ بدرُ المحبّةِ والوئام، فقد كانت رفيقَ تقى، وصديقَ عُمرٍ، وعوناً على الدّهر، وفيّة له أشدَّ الوفاء، تؤدّي واجباتها أحسنَ أداء، لذلك انتزعتْ إعجابَ زوجها، ونطقَ بمحاسنِ فضائلها، وفضائلِ محاسنها، إذ هذّبتها أمُّها فبالغتْ في تهذيبها، وأحسنتْ أدبَها، ممّا جعل هذا الزّوج يرعى عَهْدها، وينْشِدُ دائماً:

وَمَـا زِلْـتُ أَرْعَـىٰ لَهـا عَهْـدَهَـا　　　وَلَـمْ أَتَّبِـعْ سَـاعَـةً عَـارَهَـا

ولا يكتفي بهذا، بل كانَ يُشَيِّدُ مكارمَها في كلّ نادٍ، ويشيرُ إلى ما حبَاها اللهُ من كمالٍ وجمالٍ يزينُ جمالَ أخلاقها وكمالَ أدبها، فهي تزينُ الحي، بل هي شمسُ نساءِ عَصْرها:

فـزَيـنَـبُ شمـسٌ والنِّسـاء كَـواكـبٌ   إذا طَلَعَتْ لم تُبْقِ منْهُنّ كَوكَبا[1]

* تُرى أيُّ الزَّيانب هذه الزِّينب؟! بل أيّ امرأة جعلت زوجها شُريحَ بنَ الحارث القاضي الشَّهير ينشِدُ ما أنشد؟! إنَّ زينبَ هذه الصَّفحات هي زينبُ بنتُ حُدير التّميميّة[2]، إحدى عاقلات ذاك العصر، وأطوعهن لأزواجهن، وزوجُها هو القاضي شُريح، فهل أتاك نبأ زينب[3] هذه؟ وهل أتاك حديثها؟!

زينبُ وأمُّهَا:

* لم تُفْصِحِ المصادرُ عن اسمِ أمِّ زينب بنت حدير، وإنّما حفظتْ لنا نُتَفاً منْ كلامها، ورسمتْ بعضَ معالمِ شخصيتها، ونقلتْ لنا صُوراً من محاسنِ تربيتها لابنتها زينب، كما عرّفتنا المصادر بأنّها امرأَةٌ ذاتُ وقَارٍ وذكاء وحزم.

---

(١) لقد حلّق النّابغة الذّبياني عالياً، حينما امتدحَ النّعمان بن المنذر، ثم خَلعَ عليه هذه الصِّفَة إذْ قال:

ألـم تَـرَ أنَّ اللهَ أعطـاك سُـورةً   تـرى كـلَّ مَلْـكٍ دونَهـا يتـذبـذبُ
فـإنَّـك شمـسٌ والمُلـوكُ كـواكـبٌ   إذا طلعـتْ لـم يبْـدُ منهـنّ كـوكـب

وهنا نجد هذا الرَّجل قد وصَفَ زوجته مادحاً إياها بأنّها شمسٌ عندما تطلعُ تتفرّد في كبد السَّماء، وهنالك تتلاشى الكواكب أمامها ويختفين. ونلمح بأنَّ هذا الرجل قد أغارَ على قولِ النابغة، وركب البحر نفسَه، وأتى بروحِ معانيه في سبيل إبراز فضائل زوجته.

(٢) العقد الفريد (٦/ ١٢٢) و(٧/ ٨٦ ـ ٨٩) بتحقيق: محمد سعيد العريان، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ٤٦٢)، والأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (١٦/ ٣٦ ـ ٣٨)، والأخبار الموفقيات (٤٥ ـ ٤٩)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ١٠٦)، وتهذيب تاريخ دمشق الكبير (٦/ ٣١٥ و٣١٦)، والدر المنثور (ص٢٢٨ و٢٢٩)، وأعلام النساء (٢/ ٦٤)، وقصص العرب (٢/ ١٣٥)، وغيرها كثير من المصادر المتنوعة المشارب.

(٣) من معاني «زينب» ما جاء في اللسان لابن منظور قال: «الزينب»: شَجر حَسَنُ المنظر، طيّب الرائحة؛ وبه سمّيَت المرأة، وواحد الزينب للشّجر: زينبة. (لسان العرب ١/ ٤٥٣) دار صادر ببيروت.

* أمّا عنْ حياةِ زينب، فلا نعرفُ إلا قليلاً عنْ نشأتِها، إذ توفي أبوها وهي في عُمْر الزَّهْر، لم تستنشقْ أريجَ الأبوّةِ، وتتذوّق طعم حنانه؛ لكنَّ أمَّها حاولت أنْ تكرمَ فتاتها التي تُضاهي الشَّمس حُسناً، وراحتْ تحسنُ إليها، وتزرعُ في نفسها الصَّافية غراسَ الفضَائل، وتغرسُ فيها سنابلَ الأخلاقِ، فآتَتْ أُكُلَ هذه المكارم، وغدتْ واحدةً من فُضْليات النِّساء في عَصْر التَّابعين، وعصْر بني أُميّة.

* وأخذتْ أمُّ زينب تحرصُ على أنْ تكونَ ابنتها من أحسنِ نساء بني تميم عِلماً وأدباً وتربيةً، لتكون أُمّاً نافعةً معطاء في بيتها، فالزُّوجةُ الصَّالحةُ نبعُ السَّعادة، وسببُ الفلاحِ، وسرُّ النجاح، فبصلاحها يشعُّ البيت بهجةً وإشراقاً، ويظلُّ الزُّوج لأخلاقها مشتاقاً، فهي كنزٌ ثمينٌ ينفعُ في سَائِر الأحوال، وفي جميع الأوقات.

* ويبدو أنَّ أمَّ زينب كانت تدركُ بإحساسها وفراستها، أنَّ ابنتَها ستكون ذات شأن بارز، فقد راضتْ أخلاقها على النّحو الذي أرادته، لتكونَ خيرَ امرأة، وخير زوجة في نساء بني تميم.

* وصدقَ حدسُ أُمِّ زينب، فقد نالتْ ابنتها شهرةً طبّقتْ آفاقَ شهرة نسوة قومها، وحظيتْ بمكانةٍ عُظمى عند زوج كريم هو القاضي شُريح، فكانت له من خيرة الزّوجات، على الرّغم من حداثَةِ سنّها، إلا أنَّ عقلَها قد تَمَّ نضجُه، وذلك بما غذَّتْهُا أمُّها منَ التَّجارِب، ووشَّحَتْها بكثيرٍ من حُلى الفضائل، فغدت موفّقةً في زواجها، إذ وافقتْ زوجَها في مزاجه وأمورهِ، فكان موفّقاً في عَمَلهِ، وما أُسْنِدَ إليه من قَضَاءٍ بين الناس.

* إنَّ امرأةً تستطيعُ أنْ تأسرَ مشاعرَ زوج خطير ـ كالقَاضي شريح ـ امرأةٌ تستحقُّ الخلودَ في دنيا التّأريخ، كما تستحقُّ الاحترامَ والتّوقير، وتُوضَعُ مع قائمةِ الفُضْليات.

* فالقاضي شُريح الكندي، واحدٌ من كبارِ ورؤوسِ التّابعين، وأحدُ الأذكياءِ والنَّابهين، أدركَ الجاهليّة، واستقضاهُ عمر بنُ الخطّاب ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ على الكوفةِ، فأقام قاضياً ثلاثة أرباعِ القرن ـ ٧٥ سنة ـ لم

يتعطّل فيها إلا ثلاث سنين امتنعَ فيها منَ القضاء في فتنةِ عبد الله بن الزُّبير ـ رضي الله عنهما ـ، واستعفى الحجاجَ بنَ يوسف الثّقفي منَ القضاء فأعفاهُ، ولم يقْضِ بين اثنين حتى مات[1].

* فالقاضي شُريح هذا، هو زوجُ ضيفتنا زينب بنت حدير، فقد كان أعْلَم النَّاسِ بالقضاء، وكان ذا فطنةٍ وذكاء، ومعرفة وعقلٍ ورصانة. قال ابنُ عبد البّر ـ رحمه الله ـ: كان شُريح شاعراً مُحْسِناً، وهو أحدُ السَّادات الطّلس[2]، وهم أربعة: عبدُ الله بنُ الزّبير، وقيسُ بنُ سعد بن عُبادة، والأحنفُ بنُ قيس الذي يُضرب به المثل في الحلم، والقاضي شُريح.

* أمّا كيف التقى القاضي شريحُ زينبَ، فلذلك قصّة شائقةٌ طريفةٌ، رواها شريحٌ نفسه للشَّعبي التّابعي الكوفي العالِم المشهور؛ الذي يُضربُ المثَلُ بحفظِهِ، وقد كان الشَّعبي ـ رحمه الله ـ عَالِماً جليلَ القَدْر، وافرَ العِلْم، أدركَ قرابة خمسمئة من الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ.

عَلَيْكُمْ بِنِسَاءِ بَنِي تَمِيْم:

* هذه دعوةٌ مغريةٌ من القاضي شريح للزَّواجِ من بني تميم في عصره، فقد وجدَ في نفسه ذلك، ووجدَ في زوجهِ زينبَ الأُنْس والرّضا، وكانت ـ على ما يظهر ـ واسعةَ العقل، وافرةَ الأدب، هيّأتْ له أسباب الرَّاحةِ، ولم تَعْصِه يوماً واحداً، أو تنغّصَ حياته مرّةً خلال عَقْدين[3] من الزَّمن، قضَتْهُما معه، فكانت خيرَ زوجةٍ لزوجها.

* أمَّا قصّة هذا الزَّواج الموفّق الميمون، فسنعرفه في الصَّفحات الآتيات، كما رواهُ القاضي شريح للشَّعبي في واحدةٍ من ليالي سَمَرِ العُلماء، وما أدراك ما سَمَرُ العلماء؟!

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ٤٦٠)، وانظر ترجمة شريح في كتاب «أخبار القضاة» لوكيع.

(٢) «الطُّلس»: مفردها؛ أطلس، والأطلس الذي لا شَعْر بوجهه، ويُقال له: الكوسج والأثط.

(٣) «عَقْدين»: أي: عشرون سنة.

* حكى الشَّعبي ـ رحمه الله ـ قصّةَ[1] شُريح وزَوْجِهِ زينبَ بنتِ حُدير فقال:

قال لي أبو أميّة[2] شُريح بن الحارث الكندي ذات يوم وقد طابَ لنا الحديثُ: يا شعبي! عليك بنساءِ بني تميم، فإنَّهنَّ النِّساءُ، وإنّي رأيتُ لهنَّ عُقولاً، ولمستُ منهنَّ آداباً، وعرفتُ منهن طهارةً وعفَّةً وصَلاحاً.

قال الشَّعبي لشريح: وما رأيتَ منْ عقولهنَّ وأدبهنَّ يا أبا أُميّة؟! فقال شُريح: اسمعْ أبا عمرو[3] ذلك؛ انصرفتُ ذاتَ يوم من جنازةٍ وقْتَ انتصافِ الظّهيرة، فقلتُ في نفسي: أعرِّجُ على دُورِ بني تَميم، ومن ثمَّ أذهبُ منْ هنالك إلى بيتي. وقادتني قدمايَ، فمررتُ بدورِ بني تميم، فإذا بامرأةٍ جالسةٍ في سقيفة[4] على وسادة يزينها وقارٌ، وإلى جانبها جاريةٌ وَرْد[5] رؤُدَة[6]، ولها ذؤابةٌ على ظهرها كأحسنِ ما رأيتُ من الجواري، كأنّها البدرُ في الليلةِ الدَّاجية؛ كما قال الشَّاعر:

بَـدَتْ قَمـراً ومَـالـتْ خـوطَ بَـانٍ   وفَـاحَـتْ عَنْبـراً ورَنَـتْ غَـزَالا

* وكانتِ الجاريةُ تجلسُ على وسادةٍ ما رأى الرّاؤون أحسنَ منْ وجهها:

يـزيْـدُكَ وجهُهَـا حُسْنـاً   إذا مـا زِدْتَـه نَظَـرا
إذا مَـا الليـلُ سَـال عليـ   ـكَ بـالإظْـلَامِ واعْتَكَـرا
وَدَجَّ فَلَـمْ تَـرَ قَمَـرا   فـأَبْـرِزْهَـا تَـرَ قَمَـرا

فقال الشَّعبي: وماذا فعلتَ يا أبا أميّة؟!

---

(١) تصرفنا ـ عزيزي القارىء ـ بالقصّة وأوردنا بعض الأشعار الجميلة المناسبة ليكون وقعها أجمل في النَّفس.
(٢) «أبو أمية»: كنية القاضي شريح.
(٣) «أبو عمرو»: كنية الشّعبي.
(٤) «السَّقيفة»: الصُّفَّة، والموضع المظلل، ومنها: سقيفةُ بني ساعدة. (القاموس المحيط ١٠٥٩).
(٥) «وَرْد»: التي بلغت.
(٦) «رؤُدة»: الشّابة الحسنة، و«الرّود»: في اقتبال شبابها.

قال شريحُ: فعدلتُ نحوهما، فسلَّمْتُ واستسقيتُ؛ ـ واللهِ يا شعبي! ما بي عَطَشٌ، وما لي حاجةٌ في الشّرب ـ فردّتِ المرأةُ السَّلام، وقالت لي: أي الشّراب أحبّ إليك يا وجه الخيرِ؛ اللبن، أمّ الماء؟!

فقلت: ما تيسَّر عندكم يابنةَ الأكارمِ.

قالت: اسقوا الرَّجل لبناً، فإنّي أحسبه عربيّاً، والعربُ تحبُّ اللبنَ، وإخاله غريباً عَنْ دُورِنا.

قال شريحُ: فلمّا شربتُ، نظرتُ إلى الجاريةِ فأعجبتني، وقلتُ في نفسي: أسألُ هذه المرأة عنها، فلعلَّ عندها خبرها.

قلتُ للمرأة: مَنْ هذهِ الجارية يا أختَ الكَرَمِ والكِرام؟

قالت: إنّها ابنتي وفلذة كبدي.

قلت: وإلى أي قبيلة تنتسبُ يرحمك الله؟!

قالت: إلى بني تميم، ثمّ بني حنظلة، ثمّ بني طهية.

فقلت: ما اسم ابنتك ومَنْ أبوها؟

قالت: زينبُ، وأبوها حُدَير التّميمي، ماتَ منذ سنوات.

قال شريح: ولما عرفتُ ما عرفتُ عنها منْ أمّها، وعرفتُ نسبها، شجَّعْتُ نفسي، وقلتُ: سأطلبها زوجةً لي.

* وبدأتُ الحديثَ مع أمّها، وقلتُ لها: يابنة الأخيار، أودُّ أنْ أسأَلك عنْ زينبَ.

قالت: حُبّاً وكرامةً.

قلتُ: أفارغةٌ ابنتك، أمّ مشغولةٌ؟!

قالت: بل فارغة لم تتزوّجْ بعد.

قلتُ في شيءٍ من الجرأةِ: أتنعمين بها زوجةً لي؟

قالت ـ ولم تكن عرفتني بعد ـ: نعم يا وجْهَ الخير إنْ كنتَ لها من الأكْفَاءِ فعَلْنا؛ ثم تابعَتْ قولها: وأنا امرأةٌ لا أقطعُ أمْراً، وإنَّ لها من يقطعُ

الأمر، لها عَمٌّ فاقصدْه، فإنَّه منْ عِلْيَةِ القوم.

قال شريحُ: ومضيتُ يا شعبي إلى منزلي كيما أقيْلَ، فامتنعتْ مني القائِلةُ[1]، وفرَّ النوم من عيني، و. .

بِـتُّ أبْـدي وَجْـداً وأكْتُـمُ وجْـدا   لِخَيـالٍ قَـد بـاتَ لـي منْـكِ يُهْـدى

وحاولتُ النَّوم مراراً، ولكنْ عبثاً، ولم أستطعْ أنْ أغمضَ عيني لحظةً واحدة، وأنا أفكّر فيما حدثَ لي، وما وجدتُ في قلبي من الميلِ نحو تلك الفتاةِ الطّاهرة، وأحسستُ بمشاعرَ شتى نحوها، لا أدري ما نهايتها، فقد. . .

طَـــافَ الهـــوى فـــي عِبَـــادِ اللهِ كُلِّهـــم

حتّـــى إذا مَـــرَّ بـــي مـــنْ بينهـــم وقَفَـــا

* وعندما مَلِلتُ النَّوم وملَّني هو، قمتُ، وأرسلتُ إلى إخواني القُرّاء[2] الأكابر الأَشْراف: عَلْقَمةُ، والأسودُ بنُ يزيد، والمسيبُ بن نجية، ومسروقُ ابن الأجدع الهمداني، وسلمانُ بن صرد الخزاعي، وخالدُ بنُ عرفطة العذري، وعروةُ بن المغيرة بن شعبة، وأبو بُردة بن أبي موسى[3]؛ فوافيتُ معهم صلاةَ العصر، ثمّ إنّي مضيتُ بهم عقب الصَّلاة إلى دُور بني تميم، أبتغي عمَّ زينب بنت حدير، وإذا به جالسٌ على وسادة أمامَ منزله، فلما رآني ومَنْ معي خَفَّ إلى لقائِنا، ورحّبَ بنا جميعاً؛ ثم أجلسنا، وأكرمنا، وقال: يا أبا أمية ما حاجتُك؟

قلتُ: إليك جئتُ فيها، وأرجو ألا أخيب.

---

(١) «القائلة»: نصف النهار، قال قَيْلاً وقائلة وقيلولة ومقالاً ومقيلاً. وتقيَّل: نام فيه فهو قائل. (القاموس المحيط ص١٣٥٩).

(٢) «القراء»: جمع قارىء، وهم أصحاب شريح الذين كانوا قد اشتهروا بقراءة القرآن وتلاوته.

(٣) ما أجمل هذه الصحبة!! بل ما أحلى هؤلاء وهم يرافقون شريحاً لقضاء حاجته، وبمثلهم تقضى الأمور!

قال متعجّباً: ما هي يا أبا أميّة؟

قلتُ: زينب بنت حدير، ابنة أخيك قد ذُكرتْ لي، وأنا أودُّ أن أَصِلَ نسبي بنسبكم، وسببي بسببكم.

فقال عمُّها: يا أبا أمية، ما بزينب عنك رغبة، ولا بك عنها مَقْصر.

* عندئذ تكلمتُ يا شعبي، وحمدتُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وصليتُ على النَّبي ﷺ، ومن ثَمَّ ذكرتُ له حاجتي ورغبتي في الزَّواج.

* وردَّ عمُّ زينب أَحْسنَ ردٍّ، وخطبَ خطبةً بليغةً موجزةً، ثمَّ زوجني زينب أمامَ الملأ منْ أصحابي، ومن وجوه بني تميم، وبارك القومُ لي وهنوني، وباركوا هذا الزَّواج الميمون، ودعوا الله أنْ يثمرَ بالذُّرية والبنين[1].

* ولما بلغتُ منزلي ساورتْني الأفكارُ، وندمتُ أشدَّ ندامة، إذ أصبحتْ زينب ابنة حدير في حِبالي، وفي خيالي، وصرتُ أعنِّفُ نفسي وأقولُ: ويحك يا شُريح تزوَّجْتَ إلى أغلظِ العرب وأجفَاها، وأبعدها عن مواطنِ الرِّقة، ثمّ إنّي تذكرتُ غِلَظَ قلوبهم، وجفاءَ طباعهم، ورجعتُ أقول لنفسي: أي شيءٍ صنعت بنساءِ بني تميم؟!

* وهممتُ بطلاق زينب التّميمية، وقويَ عزمي على ذلك، ثم ما لبثتُ

(١) قال الزَّبيديُّ ـ رحمه الله ـ في «التّاج»: إذا قال له: بالرّفاء والبنين، أي: بالالتئام والاتفاق، والبركة والنماء، وجمع الشمل وحسن الاجتماع. قال ابن السّكيت: وإن شئت كان معناه: السكون والهدوء والطمأنينة، فيكون أصله غير الهمز (تاج العروس ١/ ٢٤٨).
هذا ومن الهدي النّبوي في هذا المجال، ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا رفّأ الإنسان، أي إذا تزوّج قال: «باركَ الله لك، وبارك عليك، وجمعَ بينكما في خير»، أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٢٨١)، وأبو داود برقم (٢١٣٠)، والترّمذي برقم (١٠٩١)، وابن ماجه برقم (١٩٠٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٨٣)، وهو حديثٌ صحيح.
وقد نهى الحبيبُ الأعظمُ ﷺ أنْ يُقال: بالرفاءِ والبنين لأنّها تهنئة الجاهلية.

أنْ قلتُ: لا، يا هذا، ولكنْ أضمّها إلى أهلِ بيتي، فإنْ رأيتُ ما أجِده وأحبُّه فيها لزمتها، وإنْ كانتِ الأخرى كان طلاقُها عليَّ يسيراً.

أَنْـتِ سَيِّـدَةُ نِسَائِهِـم:

* كان القاضي شريح يُحدِّثُ جليسَه الشَّعبي، وكان الشعبيُّ قد أصاخَ بسمعه إلى حديثِ شريح الذي يُدخلُ السُّرور إلى النَّفس، وكأنّي به يستزيده منْ حديثها ولسان حاله يقول:

وحَـدَّثْتَنِـي يـا سَعْـدُ عَنْهـا فَـزدتَّنـي
جُنُـونـاً فَـزِدْنـي مـن حَـديثِـكَ يـا سَعْـدُ

* وتابعَ القاضي شُريح حديثَه وقال: ولما ساورني ما ساورني من أخلاقِ النِّساء التّميميات، أقمتُ بعد ذلك بضعةَ أيّام، وحانَ وقتُ زفافها، فلو رأيتني يا شعبي! وقد أقبلَ نساؤُها يهدينها حتى أُدْخِلَتْ عليَّ، ولما أُجلستْ في البيتِ، أخذتُ بناصيتها فبركت، ثمّ أُخْليَ لي البيت؛ فقلتُ لها: يا هذه إنَّ منَ السُّنَّةِ إذا دخلتِ المرأةُ على الرَّجلِ أنْ يقومَ فيصليَ ركعتين، وتصلي هي ركعتين، ومن ثمَّ يسألا اللهِ تعالى خيرَ ليلتهما، ويتعوّذا بهِ من شرّها.

* ثمّ إنّي يا شعبي توضأتُ، فإذا بزينب تتوضأُ بوضوئي، وصليتُ فإذا بها تصلّي بصلاتي، فلمّا قضينا الصَّلاة، انْفَتَلْتُ، فإذا هي قاعدةٌ على فراشها، ولم ألبثْ إلا قليلاً حتى أتتني جواريها، فأخذنَ ثيابي، ثمَّ ألبسنني ملحفةً قد صُبِغَتْ في عكر العصفر.

* ولما خلا البيتُ دنوتُ منها، فمددتُ يدي إلى ناصيتها فقالت لي: على رسلك أبا أميّة! كما أنتَ!. فقلتُ في نفسي: ويحك أبا أمية، إحدى الدُّواهي مُنيتَ بها. ثمّ إنّها اعتدلتْ في جِلْسَتِها وقالت:

* إنَّ الحمدَ للهِ وحده، أَحمدُه وأستعينُه، وأؤمنُ به، وأتوكلُ عليه، وأصلي على محمّد وآله، أما بعد: إنّي امرأةٌ غريبةٌ، ولا واللهِ ما سِرْتُ مَسيراً قطّ ـ قبل الآن ـ هو أشقّ عليّ منْ مسيري هذا إليك، وأنتَ رجلٌ لا عِلْمَ لي بأخلاقك، ولا أعرفُ خلالك، فَبيِّنْ لي ما تحبّ فآتِيْهِ وأفعلُه، وما تكره

فأزدجرُ عنه ولا آتيه. . ثمّ إنّها قالت لي مقالةً تشيرُ إلى بلاغتِها وفصاحتِها ورجاحةِ عقلها: يا أبا أمية، إنّه قد كانَ لك في قومك مَنْكحٌ ومجالٌ للزَّواج، ولي في قومي مثلُ ذلك أيضاً، ولكنْ إذا قضى اللهُ تعالى أمْراً كان، وقد ملكتَ زينبَ بنتَ حدير، فاصنعْ ما أمركَ اللهُ به: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾[1] أقولُ قولي هذا، وأستغفرُ اللهَ العظيمَ لي ولكَ، والحمد لله أولاً وآخراً.

* كان الشَّعبيُّ مشْدوداً إلى جمال هذا الموقفِ الآسرِ الجميلِ، وسرعان ما سألَ القاضي شُريحاً: وماذا فعلتَ يا أبا أمية؟

فقال شريح: لقد أحوجتني ـ واللهِ ـ يا شعبي إلى الخطبةِ في ذلك الموضع، وذلك المقام، ثمّ إنّي امتثلتُ وقلتُ ردّاً على خطبتها: الحمدُ لله ربِّ العالَمين، أحمدُهُ وأستعينُه، وأصلّي على النّبي وآله وسلم وبعد: فإنّك ـ يابنة الكرام ـ قد قُلتِ كلاماً إنْ تَثْبتي عليه يكنْ ذلك حظُّك، وإنْ تدّعيه يكن حجَّةً عليك، وإنّك ـ بحمد الله ـ قد قدمتِ خيرَ مقدم، قدمتِ على أهْل دارٍ زوجُك سيِّدُ رجالهم، وأنتِ سيدة نسائهم؛ ثمّ إنّيً بَيَّنْتُ لها أخلاقي وقلتُ: أحبُّ كذا وكذا، وأكرهُ كذا وكذا، ونحنُ في هذه الدّار سواء، فلا تُفَرِّقي، وإذا رأيتِ حسنةً فانشريها، وإنْ رأيتِ سيئةً فاستريها.

* قالت: ستجدني إنْ شاء الله من الصَّالحات فيما تحبُّ.

* ثمَّ إنَّها قالت بأدبٍ واستحياء: يا أبا أمية كيف محبّتك لزيارة الأهل، وأخبرني عن أختانِك[2]، أتحبُّ أنْ يزوروك؟ فقلتُ لها: يا زينب إنّي رجلٌ قاض، وما أحبُّ أنْ يملّني أصهاري! وما أحبُّ أنْ تملوني[3].

---

(١) الآية [٢٢٩] من سورة البقرة.

(٢) «أختانك»: جمع ختن: الصهر، أو كل مَنْ كان من قِبل المرأة، و«الخُتونة»: بالضم: المصاهرة و«خاتنه»: تزوج إليه؛ و«الخَتَـنَة»: أم الزوجة؛ و«الخاتون»: للمرأة الشريفة، كلمة أعجمية.

(٣) «أن تملوني»: أي: يطيلوا الجلوس عندي.

قالت: فمن تحبُّ منْ جيرانك أنْ يدخلَ دارك آذنَ له، ومَنْ تكرهه أكرهه مثلك؟

قلت: يا زينب، اسمعي جيداً، بنو فلان قومٌ صالحون، فاسمحي لهم بالزّيارة، وبنو فلان قومُ سوءٍ أشرارٌ فلا يدخلوا دارنا؛ ثمّ إنّي أنشدتها قائلاً:

خــذِي العَفْــوَ منّـي تَسْتَــديْمــي مَــوَدَّتــي
ولا تَـنْطِقِـي فـي سَـورتـي حِيْـنَ أغْضَـبُ
ولا تَـنْقُــرينــي نَقْــرةَ الــدُّفِ مــرَّةً
فــإنَّــكِ لا تَــدْرِيْــنَ كيــفَ المُغَيَّــبُ
ولا تكْثِـري الشَّكـوى فتَـذْهَـبَ بـالقُـوى
ويـــأْبـــاكِ قَلبـــي والقُلـــوبُ تقلـــبُ
فـإنّـي رَأيـتُ الحُـبَّ فـي القَلْـبِ والأذَى
إذا اجتَمَعَـا لـم يَلْبَـثِ الحُـبّ يـذهـبُ[1]

* وتابع القاضي شريح حديثَه فقال: واللهِ يا شعبي، لقد بتُّ بأنعم ليلة، ثمّ إنّي أقمتُ عندها ثلاثةَ أيام، خرجتُ بعدها إلى مجلسِ القضاء، فكنتُ لا أرى يوماً يمرُّ عليَّ إلا وهو أفضلُ من اليومِ الذي قبله، لما كنتُ أجدُ عندها من فَضْلِ أدبٍ، وكمالِ تربيةٍ، وحسنِ عشرة، وكريمِ خصال.

---

(١) انظر هذه الأبيات في: عيون الأخبار (٣/ ١١)، وبهجة المجالس لابن عبد البر (٢/ ٥٦)، ومحاضرات الأدباء (٢/ ٢١٢).
ومن الجدير بالذكر هنا، أنه يَحْسُن استحباب وصية الزوجة لما في ذلك من آثار حِسَانٍ على الحياة الزوجية. قال أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: كان أصحابُ رسول الله ﷺ إذا زفّوا امرأة على زوجها، يأمرونها بخدمةِ الزَّوج ورعاية حقّه.
ومن روائعِ وصايا الأزواج لزوجاتهم وصية أبي الدّرداء ـ رضي الله عنه ـ لامرأته إذ قالَ لها: إذا رأيتني غضبتُ فرضِّني، وإذا رأيتكِ غضبي رضّيتُك، وإلا لم نصطحب. وباب الوصايا النّافعة باب كبير في تاريخنا الوضيء، وما أحلاه وأجمله!

إنَّها أُمّي:

بعد أنْ فرغَ القاضي شريح منَ الثَّناء على زوجه زينب بنت حدير ـ وذكر ما حبَاها الله من خَصائِل خيِّرات قلّما تجتمع في امرأةٍ غيرها ـ قال:

وظللتُ يا شعبي على تلك الحياة الهنية، وسعودُها في إقبال، وحصائلُ مناقبها في ازدياد، وهي كلَّ يوم ـ والله ـ تزادُ حُسْناً على حُسْنٍ في ناظري؛ و...

زيَّنَهـــا اللهُ فـــي الفُـــؤادِ كَمَـــا زُيِّـــنَ فـــي عَيْـــنِ والـــدٍ وَلَـــدُ

وكنتُ أخرجُ إلى مجلسِ القضاء، وأقضي بين النّاس، وآخذُ من هذا، وأردُّ على ذاك، وحين عودتي إلى بيتي كنت حَالِماً حيثُ:

أرى الطَّـــريـــقَ قَـــريْبـــاً حيـــنَ أَسْلُكُـــه

إلـــى الحبيـــبِ بعيـــداً حيـــنَ أَنْصَـــرِفُ

ومكثتُ يا شعبي! على هذه الحالِ مدّة منَ الزَّمنِ، حتى إذا كان رأسُ الحول، ومضى على زواجنا اثنا عشر شهراً، وكانتِ الشُّهور سِمَاناً، قَضَتْ على السَّنوات العِجافِ التي مرَّت عليَّ، انصرفتُ ذاتَ يوم من مجلسِ القضاء، وجئتُ منزلِي، فإذا أنا بعجوزٍ تأمرُ وتنهى في الدَّار! وأخذني منْ ذلك ما قَرُبَ، وما بَعُدَ، وتعجَّبْتُ، فسألتُ زينب: مَن هذه التي تأمُرُ وتنهى؟

فقالت: لا عليك أبا أميّة، إنّها أمّي فلانة، حماتُك.

وعندئذ سُرّيَ عني ما كنتُ أجدُ، فلما جلستُ وأخذتُ مكاني، أقبلتِ العجوزُ، فقالت: السّلام عليك أبا أمية.

فقلتُ: وعليكِ السّلام ورحمة الله وبركاته، وحيّاك الله، وأكرمك ورعاكِ، كيف أنتِ يرحمكِ الله؟

قالت: أنا بخير وفضل من الله، قَرَّبكَ اللهُ وأكرمك.

* ثمّ إنّها جلستْ قريباً منّي وقالت: يا أبا أميّة، كيف رأيتَ زوجَك زينبَ بنتَ حدير؟

قلت: خير زوجةٍ، وخير امرأةٍ، أحسنَ اللهِ إليكِ على هذه التّربية يابنة الأجواد.

فقالت لي والحكمةُ تتناثرُ من فمها: يا أبا أمية، إنَّ المرأةَ لا تكون في حالٍ أسوأ خُلُقاً منها في حالتين:

إذا ولدتْ غلاماً،

أو حظيتْ عند زوجها؛

فإنْ رابَك منها ريبٌ فعليك إذ ذاك بالسَّوط؛ فواللهِ ما حازَ الرجالُ في بيوتهم شرّاً من المرأةِ المدللة الحمقاء.

فأجبتُها وقد أَسَرَني عقلُها وسحرتني كلماتُها: أشهدُ أنّها ابنتك، أمَا واللهِ لقد أدَّبْتِ فأحسنتِ الأدبَ، ورضْتِ فأحسنتِ الرّياضةَ، فجزاكِ اللهُ أفضلَ جزاءٍ، وأثابك خيرَ ثواب، ومثلك فلتكنِ الأمّهات.

فقالت لي بعد أنْ صممتْ هنيهة: أبا أمية، أتحبُّ أنْ يزورك أختانك ـ أصهارك ـ؟!

قلتُ: متى شاؤوا يا أمّ زينب، ومتى أحببتِ أنتِ ذلك.

قال شريحُ: وهكذا يا شعبي كانت أمُّ زينب، وتلك تربيتها، وتلك طريقتها في الحياةِ، فقد كانت تأتيني في كلِّ سنةٍ تذكر هذا، وتذكّرني بالسّوط إذا ما رابني شيءٌ من زينب؛ وتوصيني تلك الوصية الفريدة الرّائعة، ومن ثمَّ تنصرف راشدةً راضيةً رضيةَ النَّفس، سليمةَ دواعي الصَّدر، تغرِسُ الفضيلةَ تلوَ الفضيلةِ في نفْسِ زينب، وتُنمّي عناصر الخير في أعماقِها[1].

---

(١) انظر المصادر التّالية مع الجمع بينها، والتصرف في القصّة ووضع الأشعار المناسبة مما رقّ لفظه، وراقت معانيه، وحسنت مغانيه: الأخبار الموفقيات (ص٤٥ ـ ٤٨)، وأخبار القضاة لوكيع (٢/ ٢٠٥ و٢٠٦)، وعيون الأخبار (٤/ ٩١)، ووفيات الأعيان (٢/ ٤٦٢)، والأغاني (١٧/ ٢٢٠ ـ ٢٢٣) طبعة دار الكتاب العربي، والعقد الفريد (٧/ ٨٦ ـ ٨٨) بتحقيق محمد سعيد العريان، والمستطرف (٢/ ١٩)، والدر المنثور لزينب فواز (ص٢٢٨ و٢٢٩)، وقصص العرب (٢/ ١٣٥ ـ ١٣٧)؛ =

عشْرونَ عَامَـاً منَ الصَّفَـاء:

قال منصورُ بنُ إسماعيل الفقيه[1]:

أَفْضَـلُ مَـا نَـالَ الفَتَـى ... بَعْـدَ الهُـدَى والعَـافِيَـة
قَـرِيْنَـة مُسْلِمَـة ... عَفيفَـة مُـواتيـة[2]

* ولقد كانت زينبُ ابنة حُدير ـ رحمها الله ـ كذلك، فقد عاشتْ في كنفِ القاضي شُريح عشرين عاماً كانت حياةَ صفاءٍ ونقاءٍ وسناءٍ، عشرون عاماً قضَاها معها ولم يزلْ في صفحةِ الودّ الأولى وصفحة الوفاء الأولى[3]؛ عشرون عاماً قضتها لم تعكرْ صَفْوَهُ مرّةً واحدة متعمّدة، ولم توغرْ صدره في يوم منَ الأيام، فقد عرفتْ مالها وما عليها، فكانت من فضْليَات نساءِ العُلماء، ومن كرائمِ نساءِ القُضاة في دنيا النّساء.

* ففي رحلة حياتها مع القاضي شريح، كانت نِعْمَ الزَّوج الودود، تزرعُ

= وغيرها كثير جداً.

(١) منصور بنُ إسماعيل بن عمر، أبو الحسن التّميمي المصري الفقيه الشّافعي الضرير، أصله من رأس عين بالجزيرة، أخذَ الفقْه عن أصحابِ الشّافعي، وله مصنّفات في المذهبِ مليحة، وله شِعْرٌ جيد شائر، ومن غرر أقواله قوله:

عـابَ التَّفَقُّـهَ قـومٌ لا عُقـولَ لهـم ... ومـا عليـهِ إذا عـابُـوه مِـنْ ضَـررِ
ما ضرَّ شمسَ الضّحى والشّمسُ طالعةٌ ... أنْ لا يرى ضوءها مَنْ ليس ذا بصَرِ

وحكاياتُه وأخباره مشهورة، أثنى عليه القُضاعي فقال: كان فقيهاً جَليل القدر، متصرفاً في كلِّ عِلْم، شاعراً مجيداً، لم يكن في زمانه مثله بمصر، توفي في جمادى الأولى بمصر سنة (٣٠٦هـ) رحمه الله. (وفيات الأعيان ٥/ ٢٨٩ ـ ٢٩٢)، ونكت الهميان للصفدي (ص٢٩٧) مع الجمع والتصرف.

(٢) انظر: بهجة المجالس (٢/ ٣١ و٣٢).

(٣) يحضرني هنا قول الشاعر:

عشْـرون عَـامـاً يـا كتـابَ الهـوى ... ولا يـزالُ الـدَّرب مجهـولا
فمـرّةً كنـتُ أنـا قـاتـلاً ... وأكثـرُ المـرّاتِ مقتـولا
عشـرون عـامـاً يـا كتـاب الهـوى ... ولـم أزلْ فـي الصَّفحـةِ الأولـى

في حياتِه الأنْسَ والطِّيْب، لذلك أحلَّها شريحٌ من قلبه مكاناً رحيباً، فهي أملُ دنياه، ودنيا أمله، ومهوى فؤاده، يسالمُ مَنْ سالَمت، ويرعى عَهْدها، ويكرمُ أهلها وذويها، ولشدّة شغفِه بها كان ينْشِدُ في امتداحها دائماً:

إذا زينبٌ زارَها أهلُها ... حَشَدتُ وأكرمْتُ زوَّارَها
وإنْ هيَ زارتْهُم زُرْتُها ... وإنْ لم يكنْ لي هوى دارهَا
فسِلْمي لِمَنْ سالمتْ زينبٌ ... وحربي لمنْ أشْعَلتْ نارَها
وما زلتُ أرعَى لها عَهْدها ... ولم أتَّبِعْ ساعةً عارها

* ويبدو أنَّ القاضيَ شريحاً قد أكثر التَّغنّي بمناقبِ زينب، وأنشأ فيها كثيراً من الأشعار الرّائقة، والمعاني الفائقة، ففي مدّة مقامها عنده لم يُعَكِّرْ صفوَ حياتهما سوى حادثةٍ عابرةٍ لا شأْنَ لها، أمّا هذه الحادثة، فيرويها القاضي شُريح نفسه في حديثه الشّائق العذب للشّعبي فيقول:

يا شعبي! أقامتْ زينبُ ابنة حُدير معي عشرين سنة، ما غضبتُ عليها يوماً ولا ليلة، عشرون عاماً مضتْ ولم أعتبْ عليها في شيءٍ إلا مرّةً واحدةً، وكنتُ لها ظالماً، وذلك أني كنتُ إمام قومي، وأخذ المؤذّنُ في الإقامة بعدما صليتُ ركعتَي الفجر، فأبصرتُ عقرباً تدبُّ بالقرب منّا، فعجلتُ عن قَتْلِها، وعندها أخذتُ الإناء فأكفأتُه عليها ريثما تنتهي الصَّلاة، ولما كنتُ بالبابِ، قلتُ: يا زينب، لا تحرّكي الإناء حتى آتي من الصَّلاة؛ ثم خرجتُ.

ولكنَّ زينبَ عَجِلتْ، وحرّكتِ الإناءَ دون قَصْدٍ منها، فضربَتْها العقربُ، فجئتُ، فإذا بزينبَ تتلوى من شدّة الألم، فقلتُ: ما لك؟ وما بك؟ وما دهاك؟

قالت: لسعَتْني العقربُ ـ ولهذا السَّبب كان غضبي لتعجيلها رفعه ـ فلو رأيتُني يا شعبي وأنا أمرسُ أصبعها بالماءِ والملح، وأقرأُ عليها فاتحةَ الكتاب والمعوذتَيْن، حتى خفَّ ألمُها، وكانت خلال ذلك تشعرُ أنّها أخطأتْ في حقّي.

ومَاذَا بَعْدُ يا زَيْنَب؟

هذه هي زينبُ ابنة حدير التَّميمية، وذلك هو القاضي شُريح الذي حدَّث الشَّعبي وحدَّثنا عنها، ودَعا إلى الزَّواج من نساءِ بني تميم.

ولكنْ ماذا بقي في جعبةِ القاضي شُريح عن زوجه زينب؟ لا شكَّ أنَّ

مشاعِرَه ما تزالُ فيّاضة، وآماله عِراض فيها، فقد كانت توليه خيراً، وتعرفُ مكانه ومكانته بين النّاس، وبين علماء التّابعين، أمّا شريح فقد كان يودُّ لو كان النّاس جميعهم يعيشونَ سعادته، وكم كان يؤلمُه أولئك الذين يختلفون مع زوجاتهم، فلذلك كان يقصُّ على الشَّعبي قصَّة أحد جيرانه فيقول:

كان لي جارٌ من كندة يُقال له: مَيْسرة بنُ عُرير، فكان لا يزالُ يقرّعُ امرأته، ويضربُها، فآلمني فِعْله كثيراً، فقلتُ في ذلك:

رَأيــتُ رِجَــالاً يَضْــرِبُــون نســاءَهــم
فشُلَّــتْ يمينــي يــومَ أَضْــرِبُ زَيَنبــا

أَأَضْــرِبُهــا فــي غَيــرِ ذَنْــبٍ أتــتْ بــهِ
فمـا العَـدْلُ منّـي ضَـرْبُ مَـنْ ليس مُـذْنبـا

فَتَــاة تَــزِيــنُ الحــي إنْ هــي زُيِّنَــتْ
كــأنَّ بفيهــا المسْــكَ خــالَــطَ محلبـا

فــزينــبُ شمــسٌ والنِّســاء كــواكــبٌ
إذا طَلَعــتْ لــم تُبْـقِ منْهــنَّ كـوكبـا[1]

فلــو كنــتَ يــا شعبــي صَــادفْــتَ مثلَهـا
لعشــتَ زمــانــاً نــاعِــمَ البــالِ مخصبَـا

يا شعبي! وددتُ ـ والله ـ أنّي قاسمتُها عيشي، فلقد توفيْت زينبُ، وتركتْ أعْطَرَ الأثرِ في نفسي، وأجملَ الذّكريات؛ نعم أجمل الذّكريات في الأيّام الخوالي، و. . .

ومَــا ذَكــرْتُكُــمُ إلا وضَعْــتُ يَــدي
علــى حُشَــاشَــةِ قَلْــبٍ قَلّمــا بَــرَدَا

ومَــا تَــذكّــرتُ أيّــامــاً بكــمْ سَلَفــتْ
إلا تحــدَّرَ مِــنْ عينــيَّ مــا بَــرَدَا

(١) ورد في بعض المصادر: «لم تُبْد» بدلاً من قوله: «لم تبق».

وإنَّني ـ والله ـ قد أبغضتُ العيشَ بعدها، ووددتُ لو أنّها كانت حيّة تُرزقُ الآن، أو وددتُ لو أنّي تَبِعتُها:

اللهُ يعلـــــمُ أنّنـــــي لفـــراقِ وجهـــك نـــازِعُ

ولكنْ يا شعبيُّ! لا مفرَّ منْ قضاءِ الله تعالى، فهو المتصرّف فيما يشاء، ولا أملكُ إلا الصّبر، وإلا التّسليم، و...

لـــوْ كنـــتَ سَـــاعـــةَ بيْنَنَـــا مـــا بيننـــا
وشَهِـــدتَ كيـــفَ تكـــرر التّـــوديعـــا
أيقنـــتَ أنَّ مـــنَ الـــدُّمـــوع محـــدّثـــاً
وعلمـــتَ أنَّ مـــنَ الحـــديـــثِ دُمـــوعـــا

* ولعلَّ القاضي شُريح قد رثى زوجَه زينب بكثيرٍ من رقائقِ قصائده، وسكبَ عليها العبرات، حتى لقد سار على دربِه كثيرٌ من عُلماءِ الشُّعراء، ونهجوا نهْجَه في إبرازِ محاسنِ وفضائلِ زوجاتهم، فهذا بعضُهم يرثي زوجته واسمها زينب أيضاً:

عَليـــكِ سَـــلامُ اللهِ مَـــا غِبْـــتِ زيْنَـــبُ
فمـــا كـــانَ عَهْـــدي أنْ يَطُـــولَ التَّغيّـــبُ
لَقَـــد كُنـــتُ مَمْلـــوءَ الفُـــؤَادِ بـــأُنْسِهَـــا
ولـــمْ أدْرِ أنَّ البَيْـــنَ يـــومـــاً يشعَّـــبُ
تَعجَّلَهـــا ريْـــبُ المنَـــونِ عَلـــى الصِّبَـــا
وليـــسَ لهَـــا ممّـــا قَضَـــى اللهُ مَهْـــرَبُ
فَضَـــائِلُهـــا شَتّـــى ومَـــنْ كَـــانَ مِثْلُهَـــا
يَعِـــزّ عَليْنَـــا أَنْ تمـــوتَ ويَصْعُـــبُ
سَقَـــى قَبْـــرَهَـــا صَـــوْبٌ مِـــنَ المُـــزْنِ وَاكِـــفٌ
ويَـــرحَمُهَـــا الـــرّحمـــنُ مَـــا ضَـــاءَ كَـــوْكَـــبُ

وَدَاعَـاً نَعِيْـمَ الحَيَـاةِ:

* في الشَّوطِ الأخيرِ من قصّة زينب بنتِ حدير، نستمعُ مع الشَّعبي إلى

القاضي شريح وهو يتابعُ حديثَه عنها قائلاً: ماذا أقولُ لك يا شعبيُّ عن زينبَ؟! لقد ذكرتُ لك غَيْضاً من فيضِ محاسِنها، واقتطفتُ لك زَهْرةً من رياضِ أزاهِرها؛ إنَّ ذكراها ما تزالُ ماثلة في قلبي؛ و. . .

عليْكُـــــم سَـــــلامُ اللهِ أَمّـــــا وِدَادُكُـــــمْ
فَبـــاقٍ وأمّـــا البُعْـــدُ عنكُـــمْ فَمـــا أَبْقَـــى

لكنّي أقولُ لك: عليكَ يا شعبيُّ بنساءِ بني تميم، فهنَّ النِّساء، وهنَّ نعيمُ الحياة، ورحيقُ الوداد[1].

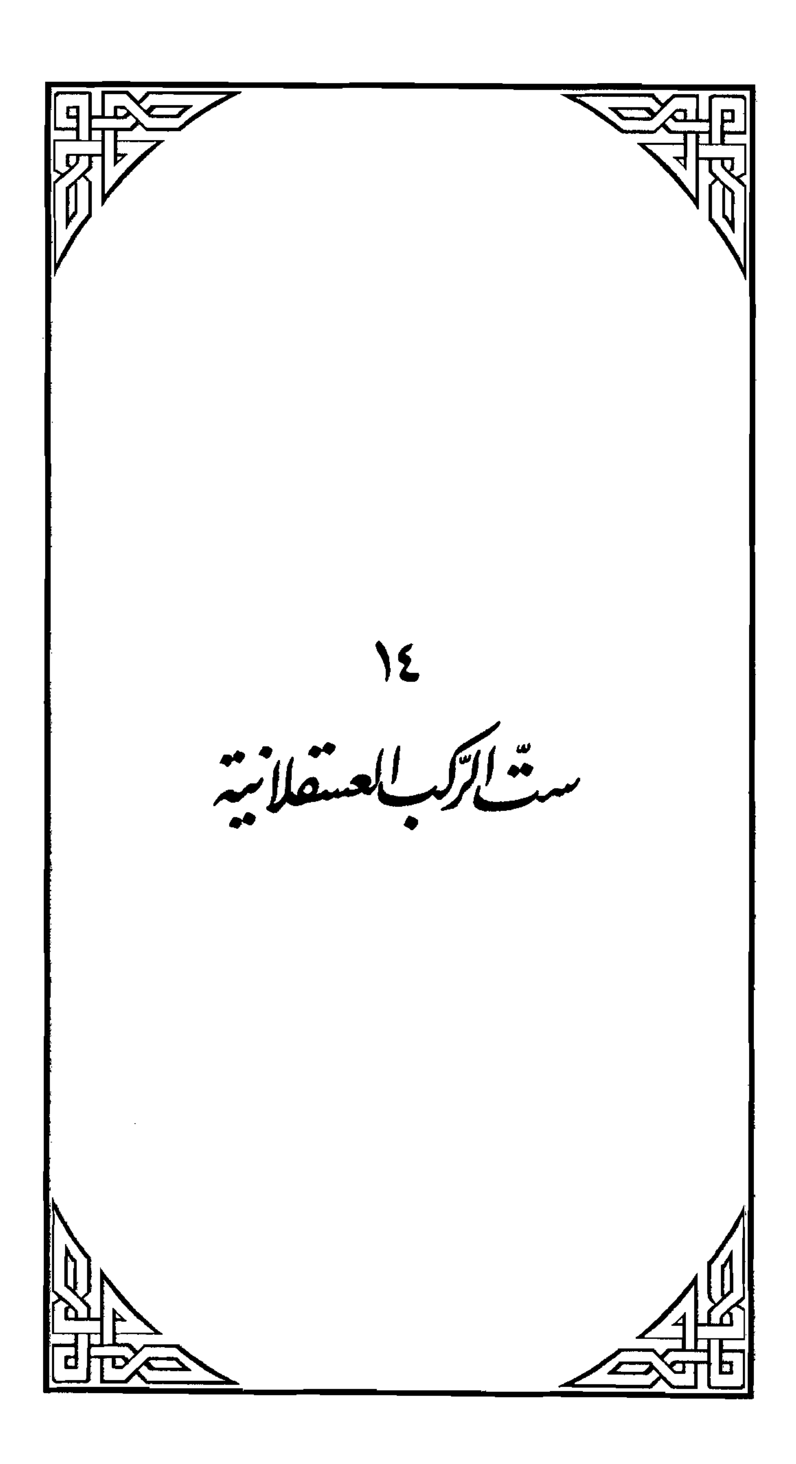
* والآن، عزيزي القارىء، وصلنا إلى السَّاحِل، وهذه زينبُ ابنة حُدير التّميميّة[2]، امرأةُ القاضي العالِم شريح بن الحارث، فقد عطّرتْ سيرتُها سِيَرَ نِساءِ العُلماء، وعاشتْ حميدةً، وماتت زاكيةَ الفِعال، فهل تكونُ زينبُ قدوة لنساء عصرنا؟ وهل تكن النّساء الصّوالح قدوة لغيرهن لتشمل السّعادة الزَّوجية بني الإنسان؟!

* رحم اللهُ زينب بنت حُدير، فلقد كانت بحقّ مثال الزّوجة الصَّالحة العفيفة الأليفة التي تعينُ على طاعةِ الله تعالى.

* * *

(١) انظر: الأخبار الموفقيات (ص٤٨ و٤٩)، والعقد الفريد (٧/ ٧٩) بتحقيق محمد سعيد العريان، ووفيات الأعيان (٢/ ٤٦٢)، وتهذيب تاريخ دمشق الكبير (٦/ ٣١٥ و٣١٦) مع الجمع والتصرف.

(٢) كم هُنَّ كثيرات أمثال زينب ابنة حدير هذه في كلِّ زمانٍ وأوانٍ، ولكنْ لم يُتَح لهنّ أنْ يظهرنَ على مرآة الزَّمان، ومَنْ كان يعرفُ زينب هذه لولا اقترانها بالقاضي شريح؟!



١٤

ستّ الرّكب العسقلانية

نَشْـأَةٌ عِلْميـةٌ وتَربيـةٌ صَافيـةٌ:

* هذه امرأةٌ أثارتْ إعجابي بشمائِلها عندما شرعتُ أقرأ سيرتَها، فأحببتُ الكتابةَ عنها إذْ حرّكَتْ فيَّ كوامنَ الإعجاب لما اختصّها اللهُ من مَكارمَ في عصرٍ يندرُ أنْ تحظى امرأة بالمكانةِ العلميّة.

* وكنتُ أخاطبُ نفسي وأنا أقلِّبُ المصادرَ العديدةَ بحثاً عن أخبارِ هذه المرأة، وأقولُ: تُرى مَنْ سمع بهذهِ المرأة العالِمة وعرفَ سيرتَها؟ بل مَنْ تصدّى لاستخراجِ ملامح شخصيّتها، ورسمَ معالمَ حياتِها لتكونَ إحدى نساءِ التّاريخ اللواتـي نَفْخَرُ بهنَّ، ونطربُ منْ أخبارِهنّ؟!

* وعندما تجمعتْ خطوطُ حياتِها في مخيلتي، رأيتُ أنّها امرأةٌ تستحقُّ أنْ تُرْسَمَ أحداثُ حياتها، وتُسَجَّلَ فضائِلُها في صفحاتِ فضلياتِ النّساء الخالداتِ ممنْ حقَّقنَ المكارمَ على مرِّ العُصور والأزمان.

* ولعلَّ الأضواءَ لم تُسلَّط كثيراً على سيرتها، أو أخبارِها، لذلك لم تَحْظَ بمساحةٍ كبيرةٍ بينَ النِّساء الشَّهيراتِ في عالِم الشُّهرة، ولكنَّها على الرغم منْ هذا كلِّه، أثَّرتْ في عَالَم العُلماء، وأَثْرَتْ دُنْيَا العِلْم، فكانت وراءَ نبوغِ أحدِ أفرادِ الدَّهرِ عِلْماً وأدباً ومعرفةً، وكان لها اليد البيضاء الطُّولى في حسْنِ تربيتِه ورعايتِه.

* فلندخلِ الآنَ رحابَ وأجواءَ هذه المرأة العالمة، لكي نتعرَّفَ نشأتَها وتربيتها، وجوانبَ العلمِ والمعرفةِ في شخصيتها، فهي أختُ أحدِ علماءِ الدُّنيا البارزين، وأحدِ حفّاظ عَصْره المرموقين، وأحدِ نوادر الدّنيا المعدودين، فهل عرفتم مَنْ ضيفتنا اليوم؟

* لعلَّ أخاها أفضلُ مَنْ يقدِّمُ بطاقتها لشُدَاةِ العِلْم، وطلابِ المعرفة، فهي ستُّ الرَّكب بِنتُ علي بن محمّد العسقلانية[1]. وستُّ الرّكب هذه

---

(١) انظر: إنْباء الغمر لابن حجر (٣/ ٣٠٢)، والجواهر والدُّرر (ص٥٨ و٥٩) وشذرات الذَّهب (٨/ ٦٠٣) وأعلام النّساء (٢/ ١٥٤).

واحدةٌ من نساء الإسلام اللائي عِشْنَ في القرن الثَّامن الهجري، وحقَّقْنَ نصيباً في تاريخِ النِّساء، ولكنْ في أذهانِ العُلماء ومحبّي العِلْم.

* وسِتُّ الركب هذه سليلةُ بيتٍ علمٍ ومآثر، ومكرمات وفضائل، نشأتْ في بيتٍ تحفُّه الأخلاق، ويكتنفُه المجدُ من جميعِ جوانبه، وتفوحُ منه أزاهِرُ المعرفةِ والأدبِ، فتملأ أسماعَ الدنيا، لذلك دَرجتْ على معرفةِ الكتابة والقراءةِ منذ نعومةِ أظفارها، وأحبَّتِ العلمَ منذ أنْ أيفعتْ وأدركتْ مكانةَ العِلْم والعُلماء.

* فأبوها عليّ بنُ محمّد الملقب نور الدّين العسقلاني المولود سنة (٧٢٠ هـ)، أحدُ المشتغلين بالعِلْم في عَصْره، وخصوصاً علم العربيّة والأدبِ، ناهيك أنَّه نَبَغَ في الفِقْه، وتتلمذَ على محمّد بنِ سيِّد النَّاس[١]، صاحبِ التَّصانيفِ المشهورة، والعلومِ المأثورة.

* وتشيرُ أخبارُ والدها إلى أنَّه أجادَ فَنَّ الشِّعْر، وله كثيرٌ من المدائحِ النَّبويّة، وكثيرٌ منَ النَّظم في مختلفِ فنونِ الشِّعر، ووقّعَ في الحِكَم، وأكثر

---

(١) محمّد بنُ محمّد بن محمد بن أحمد بن سيّد النّاس أبو الفتح الشّافعي؛ الإمامُ الحافظَ اليعمري الأندلسي الإشبيلي المصري، المعروف بابن سيِّد النّاس. وُلِدَ سنة (٦٧١ هـ) بالقاهرة، وتفقّه على المذهبِ الشَّافعي، أخذ في علْمِ الحديث وأصول الفِقْه، وقرأ النّحو، وبرع في العُلوم، وصنّف كُتباً نفيسة منها «عيون الأثر» في السّيرة النّبوية. وذكره الذّهبي في «معجمه المختص» وقال: أحد أئمةِ هذا الشّأن، كَتَب بخطّه المليح كثيراً، وخرّج، وصحّح وعلّل، وفرّعَ وأصّلَ، وقال الشّعر البديعَ، وكان حلو النّادرة، حسن المحاضرة.
وقال ابنُ كثير: اشتغلَ بالعلم، فبرعَ وساد أقرانه في علوم شتّى من الحديث، والفقهِ، والنحوِ، وعلمِ السّير، والتّاريخ، وغير ذلك، وله الشّعر والنّثر الفائق، وحسن التّصنيف، والترصيف، والتعبير، وجودة البديهة، وحسن الطّوية، والعقيدة السّلفية، والاقتداء بالأحاديث النبوية.
وقال ابن ناصر الدين: كان إماماً، حافظاً، عجيباً، مصنّفاً، بارعاً، شاعراً، أديباً. مات في (١١ شعبان) من سَنَة (٧٣٤ هـ) بمصر رحمه الله. (شذرات الذهب ٨/ ١٨٩ و١٩٠) بتصرف واختصار.

الحجَّ والمجاورة، وله عدّة دواوين منها «ديوان الحرم».

* وقد ذكره ابنُ العمادِ نَقْلاً عن ابنه الحافظ ابن حجر فقال: وكان موصوفاً بالفَضْل، والمعرفةِ، والدِّيانة، والأَمَانة، ومكارمِ الأخلاق، ومن محفوظاتِه كتاب «الحاوي»، وله استدراكُ على كتاب «الأذكار» للإمام النّوويّ، وفيه مباحثُ حسنةٌ تشيرُ إلى عِلْمه، وهو القائلُ:

يـــا رَبِّ أَعْضَـــاء السُّجـــودِ عتقَتْهَـــا
مِـــنْ عبْـدِك الجَـانـي وأنْـتَ الـوَاقـي
والعِتْـقُ يَسْـري بـالغنَـى يـا ذا الغِنَـى
فـأنعـمْ علـى الفَـانـي بعتْـقِ البَـاقـي[1]

---

(١) شذراتُ الذهب (٨/ ٤٣٥ و٤٣٦) بتصرف يسير جداً، ويروى الشّطر الثّاني من البيت الثاني على النحو التالي: «من فضلك الوافي وأنت الواقي».
ولعلَّ من نافلةِ القول أنْ نشيرَ إلى أنَّ الشُّعراء بَعْدَه قد أُغْرِموا غراماً شديداً في هذيْن البَيتيْن، فراحوا ينسجونَ على منوالهما، وراحوا يستخدمون ألوانَ الصَّنعةِ البديعيةِ فيهما من تشطيرٍ وتضمينٍ وتخميسٍ وما شابَه ذلك. ومنْ أجملِ ما قرأته في هذا المجال تخميسُ لطيفٌ على بيتي نور الدّين ما قاله أحدُ الفضلاء:

يَـا رب كَـمْ مـنْ نعمـةٍ أسْـدَيتها ... يـا ربّ كـم مـن رحمـةٍ أرسلتَهـا
شكراً لفضلِكَ كم ذنوب غفرتَها ... «يـا رب أعضـاء السّجـود عَتَقْتَهـا
من فضلِك الوافي وأنتَ الوافي»
بشْـراكِ أعْضَـاءَ السّجـودِ لـكِ الهنـا ... بـالعفـوِ والغفـرانِ جـاءَ شـرعُنَـا
ولقـد عتقـتَ البعـضَ منّـا ربَّنـا ... «والعتـق يسـري بـالغنـى يـا ذا الغنـى
فامننْ على الفاني بعتقِ الباقي»

كما أنَّ الشُّعراءَ العلماءَ، والعلماءَ الشّعراء، قد نسجوا على منوالِ هذه القصائد والمقطعات، من ذلك قول القاضي نور الدين علي بن محمد الشّافعي المتوفى في القاهرة بشهر صفَر سنة (٨٦٢ هـ):

يـا ربّ مـالـي غيـر رحمتـك التـي ... أرجـو النّجـاة بهـا مـن التّشـديـدِ
مـولاي لا علْمِـي ولا عَمَلـي إذا ... حـوسبـتُ مـا عنـدي سـوى التّـوحيد
(شذرات الذهب ٩/ ٤٤٢).

مَوْلِـدُهَا وتَسميتُهَـا:

* ولدت ستُّ الركبِ هذه في شهر رجبَ سنة (٧٧٠ هـ)، وكان لتسميتها بهذا الاسمِ سببٌ طريفٌ يدلُّ على ذكاءِ أبيها وصفاءِ نفسه.

* ففي سنةِ (٧٧٠ هـ) عزمَ والدها نور الدِّين على الحجِّ وزيارةِ الدِّيار المقدّسة، فاصطحبَ معه زوجه إلى رحلةِ الحج، فخرج من مصرَ، ويمّم تلقاءَ أمِّ القُرى في ركْبٍ من حجّاجِ الدِّيار المصريّة، ولما كان في بعضِ الطَّريق ـ وقد دخل شهرُ رجَب ـ وَلَدت امرأته بنتاً هي ستُّ الرّكبِ ضيفة حلقتنا في هذه الصَّفحات، وأطلقَ عليها أبوها اسم ستِّ الرّكب، وكنّاها أمّ محمد لمناسبة الحجِّ والرّكبِ الميمون الذي يقصد الدّيار الحجازية لأداءِ فريضة الحجّ.

* وبعد بضْع سنوات ولدت أمّها ابناً هو الحافظ الشّهير في دنيا المشَاهير، ومشاهير الدنيا، وفي دنيْا العِلْم، وعلم الدنيا، وفي دنيا الحديث والمعرفةِ والأدبِ والمعارفِ والمكارم، حافظ عصره، وزينِ مصره أحمد بن علي المشهور بابن حجر العسقلاني.

* نشأتْ ستُّ الركبِ العسقلانية بينَ أبويْنِ كريمينِ، ولكنَّها لم تنعم بدفءِ حنانِ والدها سوى بضعة أعوام، فقد وافت المنيةُ والدَها في (١٥ رجب) سنة (٧٧٧ هـ)[١]، وكانت ستّ الركب طريّةَ العُودِ لم تتجاوزْ سَبْعَ سنَوات، أمّا شقيقها أحمد فلم يكملِ السَّنةَ الرَّابعةَ من عمره، ويؤيّدُ هذا ما ذكره ابن حجر ـ رحمه الله ـ قال: تركني والدي لم أكمل أربعَ سنين، وأنا الآن أعْقلُه كالذي يخيل الشّيء، ولا يتحقّقه... وأحفظُ منه أنّه قال: كنية ولدي أحمد أبو الفَضْل[٢].

القَـارئَـةُ التَّقيّـةُ والكاتِبَـةُ الذّكيّـةُ:

* قيَّضَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ لهذهِ المرأةِ أسرة تحبُّ العِلْم، وتكْبِرُ العلماء،

---

(١) شذرات الذهب (٨/ ٤٣٦) طبعة دار ابن كثير المحققة.

(٢) المصدر السَّابق نفسه باختصار.

فقد كان أبوها نور الدّين ـ كما عرفنا بعض صفاته ـ يقومُ على تربيتها وفْقَ مرضاةِ اللهِ تعالى، ويسعى لكي تكونَ ابنته ستّ الرّكب من ذوات الطَّهارة والفَلاح، والتُّقى والعمل الصَّالح، فكان حريصاً أشدَّ الحرصِ على اصطحابها معه كيما تحضرَ حلقاتِ العلْم، وحِلَقِ العلماء، لتأخذَ العلمَ عن العلماء منذ صغرها[1]. وكان كذلك يصحبُ ابنه أحمد بن حجر إلى مجالس العُلماء لينال هو الآخر قِسْطاً منَ العُلوم والمعرفةِ بطريقةِ المشَافهة والتَّلقين والتَّلقِّي.

ويظهر أنَّ نورَ الدِّين والد ستّ الرّكب كان منَ الموسرين، إذ تركَ لها ولأخيها ثروةً جيّدة، تعينهما على أنْ يعيشَا في يُسْر وسُهولة.

وعلى الرغمِ من وفاةِ والدها وهي لم تشبَّ عنَ الطَّوق، فقد كانت نشأتُها خيرَ نشأةٍ وأحسنها، فقد درجتْ على تعلّم الحفظِ والتّدرب عليه، والسَّير في طريقه، فحفظتْ شطراً كبيراً من القُرآن الكريم ولم تتجاوزِ العاشرة.

ويبدو أنَّ المحيطَ الذي نشأت به كان يحفلُ بأمّهات الكتُبِ النَّفيسة، والنَّادرة، فانطلقت وشقَّت طريقَها في تعلُّم القراءة، فأكثرتْ من مطالعةِ الكتب والنّظر فيها، حتى أضحت من الماهرين في ذلك، إذ كان يظنُّ مَنْ

---

(١) ذكر ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ صورةً وافيةً من عناية والده نورِ الدّينِ بتعليمِ أخته ستّ الركب، وكيف أجازَ لها كبارُ العلماء في عصرها، وأوردَ أسماء طائفة من العُلماء الذين أجازوا لها من عواصم البلاد الإسلامية. وذكر منهم:
من مكةَ: ابن عبد المعطي.
من المدينة: نور الدين الزّرندي.
ومن المجاورين: الكرمَاني شارح البخاري.
ومن دمشقَ: محمد بن أحمد بن خطيب المزة، وكذلك التّقي بن رافع.
ومن حلب: محمد بن عمر بن حبيب وأخوه: الحسين بن عمر بن حبيب.
ومن تونس: شمس الدين بن مرزوق.
ومن مصر: الحافظ زين الدين العراقي؛ وأبو الفرج بن الشِّحنة، وصلاح الدين بن مسعود وآخرون.

يراها وهي تقرأُ منَ الكتاب، أنّها تحفظه لجودة استخراجها[1].

* ولعلَّ أخاها الحافظَ ابن حجر كان من المعجبين بمعرفتها الواسعة لشتى العلوم، بل كان يغبطها على ذكائِها وحفظها وقد وصفَها في قوله: كانت قارئةً كاتبةً، أعجوبةً في الذّكاء[2].

* وأعتقدُ أنَّ ستَّ الركبِ هذه قد سلكتْ طريقَ العِلْمِ والعبادة، حيث كانت تحسّ في روحها نعيماً غابراً وهي تسيرُ في ظلالِ هذا الطَّريق الوضيء، فازدادتْ طاقتها اندفاعاً وتألقاً لتسمو فوق نساءِ عصرها، أو ممن عاصرها من نساءِ مصرها.

* إنَّ المتتبعَ لأحوالِ وأخبار هذه المرأةِ العالمة يجدُ أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كان بها رحيماً، حيثُ كشفَ عن بصيرتها العلميّة، وأضاءَ لها دربَها، لتقودَ سيّد الحفّاظ في عصرها، بل سيّد المحدّثين ابنَ حجر أخاها، ومَنْ منّا لا يعرفُ ابن حجر؟!

* نعم يبدو لي أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد أكرمَ ضيفتنا لتكون أمّاً وأختاً ومعلمةً وقائدةً لهذا الحافظ النّادرة، ولا غرابةَ في هذا، فليستِ المكانةُ العلميةُ مقصورةً على جماعةِ الرّجال وحدهم دون النّساء. بل إنَّ المصادرَ الوثيقةَ، وكتُب التّراجم والتّأريخ قد حفظتْ لنا أخبارَ كثير من العَالِمات القانتاتِ، والمؤمناتِ الصَّالحات اللواتي تطهّرتْ قلوبُهن، وأذهبَ الله عنهن غشاوةَ الجهل، وحباهُنَّ نورَ العِلْم والفَهْم، فتفتَّحتْ بصائِرهُن، وتخرَّج في مدارسهِنّ كبار عُلماء الدّنيا.

معَلمَـةُ أَميرِ الحُفّـاظ والعُلَمـاء:

* كان الحافظُ ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ إذا ذكرَ أخته ستّ الركب قال: هي أمي بعد أمّي[3].

---

(١) الجواهر والدرر (ص٥٨) بتصرف يسير.

(٢) إنباء الغمر (٣/ ٣٠٢)، وشذرات الذهب (٨/ ٦٠٣).

(٣) شذرات الذهب (٨/ ٦٠٣).

ويبدو أنَّ ستَّ الرّكبِ قد حَدَبَتْ على أخيها ابن حجر، وعطفتْ عليه، وأذاقَتْه من دفءِ الحنان ما كاد ينسيه حنانَ أبويه اللذين ماتا وهو في سنِّ الصِّغَر، لذلك أطلقَ عليها اسم: أمّي بعد أمّي؛ وناهيك بالتّسمية هذه.

* ولم تقفْ ستّ الركبِ عند الحنان الذي يتدفَّقُ من قلبها على أخيها، وإنّما أخذتْ ترفده بمكارِمِ الأخلاق، وتُركِبَهُ مراكبَ الصَّلاحِ والتَّقوى، حتى غدا يبحِرُ في آدابها ومكارمِ أخلاقها، وظلَّ يحتفظُ بينَ جوارحه وجوانحه بكلّ التَّقدير والإجلال الممزوجِ بالاحترام والتَّبجيل، وظلَّ يذكرُ محاسنها وينْشُرُ فضائِلها ـ على الرغم من تبحره بالفَضائِل ـ فكان يقولُ: كانت ـ ستّ الركب ـ بي برّةً، رفيقةً محسنةً، جزَاها اللهُ تعالى عنّي خيراً، فلقد انتفعتُ بها وبآدابِها مع صِغَرِ سنّها[1].

* إنَّ امرأةً تحظى بهذا التّقريظ من عالمٍ نحرير ـ وإن كان شقيقها ـ لشيء يجعلُنا نقفُ أمامَ شخصيتها بكلّ احترام وتوقير وإعجاب.

* ومما يحسنُ ذكره في هذا المقام أنَّ الحافظَ ابنَ حجر قد هيّأَ اللهُ له شيوخاً في الحديثِ من جماعةِ النّساء، كان يُشار بالبنان إليهنّ، وتخضعُ الرّقاب لقولهنّ، لمعرفتهن فنونَ الحديثِ النّبوي، ولقد قرأ الحافظُ ابن حجر على نيف وخمسين امرأة، نذكر منهن:

فاطمةُ بنتُ المنجّى أمّ الحسن التّنوخية الدّمشقيّة المتوفاة سنة (٨٠٣ هـ)؛ كانت فاطمةُ هذه خاتمةَ المُسندين في دمشق، عالمة بالحديثِ النّبوي، أخذَ عنها ابنُ حجر وجماعةٌ من أعيان علماء عصرها؛ قال عنها ابن حجر: قرأتُ عليها الكثير من الكتبِ الكبار والأجزاء.

* ومن مشايخ ابن حجر منَ النّسوة: فاطمة بنتُ محمد بن عبد الهادي[2] المقدسيّة ثم الصَّالحية الحنبليّة أمّ يُوسُف المولودة سنة (٧١٩ هـ)، حدَّثت وسمعَ منها الفُضَلاء، وقرأَ عليها ابن حجر كثيراً من المعارفِ والعلوم، قال

---

(١) إنباء الغمر (٣/ ٣٠٢).

(٢) وكذلك أختها عائشة بنت عبد الهادي.

ابنُ حجر: قرأتُ عليها الكثير من الكتبِ والأجزاء بالصَّالحية، ونعم الشّيخة كانَتْ.

توفيت فاطمةُ بنت محمد في شعبانَ سنة (٨٠٣ هـ) وعمرها (٨٤ سنة) ودفنت بصالحيةِ دمشق.

* ومن شيخاته أيضاً: خديجةُ بنتُ إبراهيم بن إسحاقَ البعلبكيّة الدّمشقيّة، ولدت سنة (٧٢٠ هـ)، وأجاز لها عددٌ من العُلماء الشَّاميّين والمصريّين، وحدَّثَتْ بالكثيرِ، وسمعَ منها الأئمةُ، وتوفيت سنة (٨٠٣ هـ).

* ومنهن: خديجةُ بنتُ أبي بكر الصَّالحية المحدّثة المشهورة ببنت الكوري، توفيتْ سنة (٨٠٣ هـ).

* سارّةُ بنتُ تقي الدِّين علي بن عبد الكافي السُّبْكي، محدّثة شهيرة وُلدت في سنة (٧٣٤ هـ)، وسمعتْ على أبيها مشيخته، وأجاز لها الذّهبي، والبِرْزالي، وزينب بنت الكمال، وجماعة، وحدّثت وسمعَ عليها الفُضَلاء، وتوفيتْ بالقاهرة في ذي الحجّة سنة (٨٠٥ هـ) وعمرها (٧١ سنة).

* كما حدَّث ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ عن شيخاتٍ كثيراتٍ ذكرهن في مُعْجم شيوخه[١].

منْ معَالِم سِيْرتِهَا:

* لا بدَّ لنا ونحنُ نقرأُ سيرةَ ستّ الرّكب العسقلانية، من أنْ نعرفَ بعضَ

---

(١) ليسَ غريباً أنْ نجدَ عالماتٍ قد تصديْنَ لفنونِ العلمِ وشؤونِ الأدَب في مختلف الأعوام والأعصار، فلقد امتازتِ المرأةُ المسلمةُ العالمةُ بالصّدق في العلمِ، والأمانةِ في الروايةِ، ولا نستغرب إنْ كان للحافظِ ابن حجر أكثر من خمسين شيخة قد تلقّى العلم عنهن.
وأمّا الحافظ ابنُ عساكر المتوفى سنة (٥٧١ هـ) أي: قبل ابن حجر بقرابة ثلاثة قرون، كان يلقب بحافظ الأمّة، كان له من شيوخه وأساتذته بضعٌ وثمانون من النّساء، ممن تمرسْنَ العلمَ، وتبحرن في الفقه والرّواية.

الأحداثِ والمعالم في حياتِها؛ التي تزيدُ من مساحةِ شخصيّتها في ساحةِ تاريخِ نساءِ الإسلام.

* تدلُّ أخبار ستّ الركب أنّها تزوَّجَتْ وهي صغيرة، وكان قد تزوجها أحد فضلاء عصرها ويدعى: شمس الدِّين محمّد بن السَّرَّاج بن عبد العزيز الخروبي، ولدت له ولداً أسمياه محمّداً، وبذلك وافقَ هذا ما كناها به أبوها نور الدّين عندما وُلِدت وهو في طريقه لأداءِ فريضة الحجّ في سنة (٧٧٠ هـ)؛ ثم ولدتْ ستّ الركب بنتاً أسمتها فوزاً.

* ونشأ هذان الطِّفلان تحتَ رعاية والدتها ستّ الركب، وأجاز لهما جماعةٌ من أعيان العصر، وذلك بعناية خالهما الحافظ ابن حجر.

* أمّا ستّ الركب، فقد عاشت تتابعُ ركْبَ العِلْم والعلماء، لكنَّ مدتَها كانت قصيرة، فقد وافتها المنيةُ ولم تجاوزِ العِقْد الثَّالث من عمرها، فقد ماتت وعمرها (٢٨ سنة) رحمها الله. وقد أرَّخَ ابنُ حجر موت أخته ستّ الركب فقال: وماتت شابّة في جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعينَ وسبعمئة، عوّضَها اللهُ تعالى وإيانا الجنَّة بمنّهِ وكرمهِ.

* وذكر ابنُ حجر أخته في موضعٍ آخر، في معرض حديثه عنها فقال: وُلِدتْ في رجبَ سنة سبعين وسبعمئة في طريقِ الحجّ، وكانت قارئةً كاتبةً أعجوبةً في الذّكاء، وهي أمّي بعد أمّي، أُصِبْتُ بها في جمادى الآخرة من هذه السَّنة ـ يعني سنة ٧٩٨ هـ ـ رحمها الله.

رِثَاؤُهَا وذِكْرَاهَا:

* شعرَ ابنُ حجر بمرارةِ فَقْد أختِه ومعلّمته وأستاذته ستّ الركب، وفُجع بموتها، فسكبَ عليها العبرات، إذ كان فَقْدُها أورى من الزَّند، فرثاها بقصيدة طويلة ذكرَ فيها بعض فضائلها ومكارمها، وذكر توجّعه وألمه لما أنشبتِ المنيةُ أظفارَها بها، فماتتْ وهي شابّة، فقال:

بكَيْتُ عَلى تلكَ الشَّمائِلِ غَالَها
كثيفُ الثَّرى بَعْدَ التَّنَعُّمِ واللّطْفِ

بكيْــتُ علــى حلــمٍ وعلْــمٍ وعفَّــةٍ
يقــارن مــع عــزِّ الهــدى هــزّة الطَّــرفِ

بكيـتُ علـى الغُصْـن الـذي اجتُثَّ أصلـه
ولــم أَجْــنِ مــنْ أزهَــارِه ثَمَــر القَطْـفِ

ومنها قوله أيضاً:

فقْــدتُ بــكِ الأهْليــنَ قُــربــى وأُلْفــةً
فــأقسمــتُ مــالــي بَعْــدَ بُعْــدِك مِــنْ إلْــفِ

* ولم يكن ابن حجر وحده الذي رثى ستّ الركب، وإنّما رثاها عددٌ كبيرٌ من أفاضلِ عصرها وأماثِل مصرها، اعترافاً بفضلها وعلْمِها.

* وهكذا عرفنا صفحةَ امرأةٍ من نساء القَرن الثَّامن الهجري، رفعتْ أعلامَ الإعزازِ والإكرام، وتركتْ أثراً حميداً في دنيا العِلْم لا زالت معالمه باقيةً إلى ما شاء الله؛ ويكفيها من الفَخْرِ أنَّ أخاها ابن حجر حافظ الدنيا كان من تلاميذها.

* رحم اللهُ ستّ الركبِ العسقلانية، وجعلها في مستقرّ رحمته، وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

* * *



١٥

ستّ الملك الفاطمية

مِنْ نِسَاءَ التَّارِيخِ:

* عرف تاريخُ النّساءِ في العصور الإسلاميّة شخصيّات نسوية كثيرات، كان لهنَّ الأثرَ البارزَ في قُصُور الخلفاءِ أو السَّلاطين، أو في توجيهِ سياسة المملكة، ولكنْ مِنْ وراء ستار أحياناً، وبشكلٍ مباشر أحياناً، وسجّلْن بذلك آثاراً متنوّعةً في مجالاتٍ مختلفةٍ.

* وسنشهدُ في الصَّفَحات الآتيات شخصيّةً نسويةً ظهرتْ بمصرَ بُعَيْدَ منتصفِ القرن الرّابع وأوائل القرن الخامس الهجري، هذه الشّخصية كان لها أعظمَ نفوذٍ في توجيهِ سياسةِ مصر حيناً منَ الدَّهْر.

* هذه المرأةُ هي ستُّ الملكِ بنتُ العزيز بالله الفاطميّة، وأختُ الحاكم بأمْرِ الله خليفة والده العزيز بالله الفَاطمي[(١)].

* ففي سَنَةِ (٣٥٩ هـ) كان مولدُ ستّ الملك، وذلك بعد الفتح الفاطمي لمصر بنحو عام منَ الزّمن، حيثُ كان دخول الفاطميّين مصرَ في أوائل سنة (٣٥٨ هـ)؛ أمّا أخوها الحاكمُ فقد وُلدَ بعد مَوْلِدِ أخته بستة عشر عاماً، وذلك في سنَة (٣٧٥ هـ)[(٢)].

* وصفَ الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ الحاكم بقوله: وكان شيطاناً مريداً، جبّاراً عنيداً، كثيرَ التَّلوُّن، سَفّاكاً للدِّماءِ، خبيثَ النِّحْلة، عظيمَ المكْرِ، جَوَادَاً مُمدَّحاً، له شأْنٌ عجيبٌ، ونبأٌ غريبٌ، وكان فرعونَ زمانِه، يخترعُ كلَّ وقتٍ أحكاماً يلزمُ الرَّعية بها[(٣)].

* نشأتْ ستُّ المُلْك في قصْرِ أبيها، وكان أبوها يحبُّها محبّةً شديدةً لما كان يرى فيها من صفاتِ الحزم، ولما شبَّتْ عن الطَّوق، أضحتْ موضعَ

---

(١) الكاملُ في التّاريخ (٩/ ٢٣٠ و٣١٥ و٣١٦ و٣١٩)، والنّجوم الزّاهرة (٤/ ١٨٥)، والدرّ المنثور (ص٢٤٠)، وأعلام النّساء (٢/ ١٦٦ ـ ١٧٠) ومصادر أخرى.

(٢) انظر: سير أعلام النُّبلاء (١٥/ ١٧٣).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٧٤)؛ وانظر كذلك: البداية والنهاية (١٢/ ٩)، وشذرات الذهب (٥/ ٦١).

ثقته، فكان يستشيرها في أمورٍ كثيرة، وكانت تجيبُه إجابةَ حزمٍ وتعقُّلٍ وروية.

* وتدلُّ الأخبارُ والرِّواياتُ التي وصلتْنَا عن ستِّ الملك، بأنَّها كانت منذُ طفولتها تميلُ إلى الهدوء، والحزم، وكانت تُعنى بالأمورِ الجليلة التي تَرِدُ على الدَّوْلةِ، وعُرِفَ عنها بأنَّها كانت وافرةَ التّحفُّظ والجدّ، كما عُرِفَتْ بالعقلِ، وحسن التَّدبير، والإدارة، وجَوْدَةِ الرّأي. افتتحتْ زينبُ فواز العامليّة ترجمةَ ستّ الملك بقولها: كانت منْ أحسنِ نساءِ زمانها، وأوفرهُنَّ عَقْلاً؛ وأثبتهنَّ جنَاناً، وأعلاهُنَّ رأياً، وأشدّهُن حَزْماً[1].

سِتُّ المُـلْكِ وأَخُوهَـا الحَاكِـم:

* في أواخر شَهْرِ رمضان منْ سنةِ (٣٨٦ هـ) مات العزيزُ باللهِ في بلبيس[2]، وكان عمره ـ إذ ذاك ـ ثنتَيْن وأربعينَ سنة وبضعة أشهر[3]، وقام ابنُه الحاكم بأمْرِ الله بعده.

* وفي تلك السَّنةِ كانت ستُّ الملك بنت العزيز بالله في ذِرْوَةِ شبابها، حيث كان عُمرها ستاً وعشرين سنة؛ أمّا الحاكمُ الخليفةُ الجديد فقد كان وقتها غلاماً يفَعة، لا يحسنُ إدارة المُلْك وأمورَ الحكم، فتولّى إدارة الشُّؤون بمصرَ بَرْجَوان[4] مولى أبيه العزيز بالله، ولكنَّ برجوانَ هذا لم تَطُلّ مدّة

---

(١) الدُّر المنثور في طبقات ربّات الخدور لزينب بنت يوسف فواز العاملية (ص٢٤٠).

(٢) «بلبيس»: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشّام.

(٣) كانت وِلادةُ العزيزِ بالله في شهر محرّم سنة (٣٤٤ هـ) بالمهديّةِ من أرضِ إفريقية، والعزيز بالله لَقَبٌ له، أمّا اسمه فهو نزارُ بنُ المعز وكنيته: أبو منصور، ولي العهدَ في شهر ربيع الآخر سنة (٣٦٥ هـ)، وكان كريماً شجاعاً حَسَنَ العفو عند المقدرة، اختطَّ أساسَ الجامع بالقاهرة مما يلي باب الفتوح، وكان أسمرَ أصهب الشَّعر، عريض المنكبين، حَسَنَ الخلق، قريباً من النَّاس لا يؤثر سفك الدّماء، وكان أديباً له شِعْرٌ لطيف، مات في (٢٨ رمضان) من سنة (٣٨٦ هـ). (وفيات الأعيان ٥/ ٣٧١ ـ ٣٧٦).

(٤) «برجوان»: الأستاذ أبو الفتوح بَرْجَوان الذي تُنْسَبُ إليه حارة برجوان بالقاهرة، كان=

نفوذِه، إذ دبَّرَ الحاكِمُ مقتله في سنة (٣٩٠ هـ)، وبدأ الحاكمُ وهو في سنِّ الخامسة عشرة يسوسُ مصرَ بنفسه.

* وتشيرُ الأخبارُ التَّاريخيّةُ إلى أنَّ مصرَ قد عاشتْ في عَهْدِ الحاكم بأمرِ اللهِ قرابةَ ربْعَ قَرنٍ منَ الزَّمن، شهدتْ خلالَ ذلك أشياءَ فظيعة من ألوانِ الطُّغيان وسَفْكِ الدّماء، وقَتْل الأبرياء، وشهدت ألوانَ التَّناقض، ممّا جعل النَّاس في أمْرٍ مريجٍ، وفي ضيقٍ ونكدٍ وهمومٍ وأحزانٍ ووجَلٍ وتخوّفٍ وعدمِ استقرار.

* ولعلَّ إصدارَ الأوامرِ المتناقضةِ، والأحكامِ القاسيةِ المتموّجةِ التي كان الحاكمُ بأمْرِ الله يتفنَّنُ في فرضها على الشَّعب، جَعلتِ النّقمة عليه من أقربِ النَّاس إليه، وكذلك مَنْ حولَه، ومَنْ كان بقصره من طبقاتٍ مختلفةٍ حَسبَ وظائفهم.

* ويقصُّ علينا التَّاريخُ بعضَ قَصَصِه، ويروي لنا بعضَ أموره الغريبة، فمنها: أنَّه كانَ يحرِّمُ بعضَ الأطعمة ثمّ يبيحُها، ويحظر خروجَ النِّساء منَ البيوت، وظلَّ حكْمُه هذا نافذاً لمدّة سبع سنين وسبعة أشهر[1]، ثمَّ بعد ذلك سمحَ لهنَّ بالخروجِ؛ وكان يقْلِبُ الليلَ نهاراً، ويجعله مسرحَ العَمل والنَّشَاط وطلب المعيشة، ثمّ يمعِنُ في قَتْل وزرائه وكتّابه واحداً بَعْدَ الآخر، ثم يأمْرُ بهدمِ الكنائس، ثمَّ يعودُ فيسمحُ ببنائها، وهكذا ظَلَّ على هذه الشَّاكلة مدّة ربع قرنٍ، كانت تهبُّ خلالها على المجتمع المصري ريحٌ منْ

= من خُدّام العزيز صاحب مصر، ومدبِّري دولته، وكان نافذَ الأمر مُطاعاً، نظر في أيّام الحاكمِ في ديار مصر والحجاز والشّام والمغرب وأعمال الحضرة، وكان أسودَ اللون.
قُتِل في شهرِ ربيع الآخر سنة (٣٩٠ هـ) في القصر بالقاهرة وذلك بأمْرِ الحاكم، حيث ضَربَه أبو الفضل رَيْدان الصّقلبي صاحب المظلة في جوفه بسكّين، فمات من ذلك. ثم قتل الحاكم ريدان في أوائل سنة (٣٩٣ هـ) حيث أمر مسعوداً الصقلي صاحب السّيف بقتله. (وفيات الأعيان ١/ ٢٧٠ و٢٧١).

(١) وفيات الأعيان (٥/ ٢٩٤).

روعةِ الإرهاب، والتّوجّسِ، وتعصفُ بالمصريين الأخطارُ من كلِّ مكان، وفي كلّ مكان.

* ولكنْ أين كانتِ الأميرةُ الفاطميّةُ ستّ الملك خلال هذه الأحداث المُذهلة، وهذه الخطوب الجِسَام؟!

* كانت ستُّ الملْكِ ترقُبُ الأوضاعَ

بعينَيْنِ ساهرتَيْن، ومن ثمَّ تنهى أخاها الحاكم بادي الرّأي وتقولُ له محذّرة وناصحة: يا أخي! احذر أنْ يكونَ خراب هذا البيت على يديك[1].

* وظلَّتْ ستُّ الملك تمدُّ أخاها بشوارِدِ الحِكَم، وتمدّه بتجاربِ الأُمَم، ونصائح ذوي الفهم، لعلّه يرعوي؛ وكانت ترشدُه إلى الطَّريق السَّليم كلّما شهدتْ موجةً من موجات عُنْفِهِ وشذوذِه الأهوجِ، وخروجِهِ عن جادَّةِ الصَّواب.

* ولكنْ ماذا تفيدُ هذه النَّصائح وتلك التّوجيهات مع هذا الخليفة الفتى الطَّائش ذي المزاج المتلوّن المتموِّج؟!

* لقد أمسى الحاكمُ بأمْرِ الله يتبرَّمُ بنصائحِ أخته ستّ الملك، ويسوؤه تدخُّلُها في أمورِه وشؤون المملكة، فكان يسمعُها منْ غليظِ الكلامِ ما لا يليقُ بها، ثمَّ بات يتهدّدُها ويتوعّدُها بالقَتْل والدَّمار، إنْ هي أسْدَتْ إليهِ نصيحة، أو قدَّمت له توجيهاً وإرشاداً، أو نَعَتْ عليه طريقته وطرائقه.

* ومن هنا ظهرتْ بوادرُ الخلاف ما بين ستّ الملك والحاكم بأمْرِ الله، ثمَّ ما لبثَ أن استحكمَ ذلك بينهما، واتّخذ صورةَ خصومةٍ شديدةٍ غيّرت بعضَ الملامحِ التّاريخية في عَهْدها وزمنها.

---

(١) انظر: النّجوم الزاهرة (٤/ ١٨٥)؛ نقلَ ابنُ تغري بردي عن ابن الصَّابىء قوله: إنَّ الحاكمَ لما بَدتْ منه هذه الأمور الشَّنيعة استوحشَ النَّاسُ منه، وكان له أختٌ يُقال لها: ستّ الملك، من أعْقَلِ النَّاس وأحزمهن، فكانت تنهاه وتقول: يا أخي احذرْ أنْ يكونَ خرابُ هذا البيت على يديك، فكان يسمعها غليظَ الكلام، ويتهددها بالقَتْل (النّجوم الزّاهرة ٤/ ١٨٥).

سِتُّ المُلْك وَبدَايَـةُ نِهَايَـةِ أَخِيْهَـا :

* أخذَ الحاكمُ بأمْرِ اللهِ يسيءُ إلى أخته ستّ الملك إساءةً شديدةً، ويشوّهُ سمعتَها بشتّى الأراجيفِ، فعلمت أنَّها ستهلكُ إنْ ظلَّتْ على تلكَ الحال.

* وأضحى نفوذُ ستّ الملك يتقلَّصُ ويتلاشى في البلاط الفَاطمي، ولم تَعُدْ كلماتُها تؤثِّرُ فيمن حولَها، لذلك آثرتْ في بدايةِ الأمْرِ حياةَ العُزْلَة، وأقامتْ في قَصْرٍ مقابل للقصر الفاطمي الذي فيه أمورُ الحكْمِ وشؤون الحاكم بأمْرِ الله.

* ولكنَّ ستَّ الملك لم تَكنْ تنقطعُ في عزلتها عنِ الاهتمام بأمورِ الدّولة، ولم تكن في عزلتها بمعزلٍ عن الأحداثِ ومجريات الأمور، بل كانت تلحظُ ما يجري من بعيد، وترقبُ في جزع وخوفٍ ما يسلكه الحاكمُ بأمْرِ الله من مسالكَ توصله وغيره إلى مزالقَ فظيعةٍ، فكانت تحاولُ بكلّ ما وسعتْ من حيلةٍ أن تعملَ على إصلاحِ الأمور، واتقاء الأزمات والعقبات وتهدئة الخواطر، والنَّظر أحياناً في بعض الشُّؤون وإدارتها من بعيد، وعن كَثَب لكنْ بحذَرٍ شديد.

* ولما أغرقَ الحاكمُ في القتل، وأسرفَ في إصدار الأوامر والقوانين الشَّاذَّة، واستأثر بالحكم، واندفعَ في تيار العنف، لم تبخلْ ستُّ الملك في نصحه، بل كانت أحياناً تعترضُه، وتحذّره من سوءِ المنقلب، ومن سوءِ العاقبةِ الوخيمةِ.

* ولكنَّ الحاكمَ بأمْرِ الله لم يلتفتْ للنُّصح والإرشاد، بل كان يحقدُ على أخته ستّ الملك، ويأخذُ عليها تدخلُّها في شؤونِ الدَّولة، ثمَّ تجاوزَ إلى ما هو أكبر من ذلك، فأخذَ ينتقدُها في مَسْلكها الشَّخصي، وينعى عليها أعمالها، بل بسوءِ سيرتها، ويتهمها في أشياءَ تحطُّ من مكانتها، كالتَّورط في حَمأَةِ الرّذيلة والفواحش وما شابَه ذلك، ويهدّدها بإرسالِ القوابل لاستبرائها، وخاضَ في هذا المجال كثيراً، وأكثرَ الإساءة في ذلك.

* على أنَّ تاريخَ ستَّ الملك ينعى على الحاكم بأمْرِ الله تصرّفاته، ويتحدَّث عن شخصيةِ ستّ الملك بأنّها كانت حازمةً عاقلةً، ثمّ إنَّها كانتْ قد

تجاوزتِ الخمسين عندما بدأ يتّهمها ويرميها بأبشعِ وأشنعِ الشّائعات.

* واستمرَّ الحاكمُ في تهوّره زهاء خمسة وعشرين عاماً، يسيءُ لمصرَ ومَنْ حولَه ومعه، حتى ملَّ النَّاس، وضجرتْ أختُه ستّ الملك؛ ولكنْ ماذا فعلتْ ستّ الملك لتجعلَ لتلك البداية السّقيمة نهاية سليمة؟!

* تشيرُ المصادر المتعدّدة والمتنوّعة التي تحدثتْ عن سيرةِ ونهاية الحاكم بأمرِ الله، إلى أنَّه لما كانت ليلة الإثنين لسبعٍ وعشرين مضتْ من شوالَ في سنة (٤١١ هـ)، خرجَ الحاكمُ بأمر اللهِ منْ قصره يطوفُ كعادته بالجبل، وكان يرصدُ النُّجوم، وركبَ حماره الأشهب، وخرجَ معه مِنَ القاهرة ركابيان فقط، ثمَّ سار متوغّلاً في شِعْبِ جَبَلِ المقطَّم، وصَرَفَ الرّكابيَيْنِ، ومن تلك السَّاعة يتلاشى خَبَرُ الحاكمِ بأمْرِ الله، ويختفي من صفحة التَّاريخ إلى الأبد.

* أمّا كيف كانتِ النِّهايةُ، وكان المصيرُ، فذلك أمْرٌ حِيْكَتْ حوله كثيرٌ من الأقوالِ، وكانت لُحْمَتُها الأساطيرُ، وسدُاها الرّواياتُ المتعدّدة، وقد أوردَ كثيرٌ من المصنّفين تلك الرّوايات ـ وما أحاط بها من أقوال ـ في كتبهم، كابن الأثير في «الكامل»؛ وابن كثير في «البداية والنّهاية»، والذّهبي في «تاريخه»، وابن تغري بردي في «النُّجوم الزَّاهرة» وغيرهم من المؤرِّخينَ العُلماء، وعلماء المؤرخين. إلاّ أنّنا نجدُ أنَّ معظم الرّوايات تشيرُ إلى أنَّ وراءَ اختفاءِ الحاكم بأمرِ الله عَمَلٌ مدبّرٌ متْقَنٌ، ولكنْ مَنْ بطلُ هذا العمل؟!

هل كانت ستُّ الملك وراء اختفاء أخيها؟!

* قُلنا: إنَّ الحاكم بأمر الله كان شرّه مستطيراً، قد تعدّى إلى النَّاسِ كلّهم، حتى إلى أختهِ ستّ الملك، فكان يتّهمها بالفاحشة، ويسمعها أغْلظَ الكلام، فتبرَّمَتْ منه، وأحسَّت بدنو أجَلِ الدّولة إن استمرّ الحاكمُ بأمْرِ الله في طَيْشه وظلمه، فقرَّرتْ شيئاً ما، وفكَّرتْ لكي تجعلَ لما يحدث حَدّاً، تُرى بأي شيءٍ كانتْ تفكِّر؟!

* كانت ستُّ الملك تنظرُ فيمن حول الحاكم بأمْرِ الله لعلّه يساعدها على تحقيقِ مأربها؛ فهي امرأةٌ لا تحسن التَّدبير وحْدَها، بل لا يمكن أنْ تقومَ

بعملٍ خطير في مثل هذه الظُّروف الصَّعبةِ.

* ودلفتْ إلى فكرها صورةُ رجلٍ يمكنْ أنْ يحقِّقَ ما تصبو إليه، إنّه أميرٌ منْ أكبرِ الأُمَراء اسمُه الحُسين بن دواس، فالحسينُ هذا شديدُ الحذرِ من الحاكمِ بأمْرِ الله، ومن النَّاقمين عليه وعلى سيرته في آنٍ واحد. وجَدَتْ ستُّ الملك أنَّ ابنَ دوّاس سيحقِّق مأربها ومأرب المصريين، إذ هو ـ بالرغم من حذَره ـ معروفٌ بشدّة المراس والبأْس؛ ولما تيقنت من سلامة فكرتها، راسَلَتْه[1] في حذَرٍ، واتّصلت به سرّاً، وشرحت له أمور أخيها، وسيادة

---

(١) أوردَ ابنُ تغردي بردي ـ رحمه الله ـ في «النجوم الزّاهرة» قصَّة نهاية الحاكم ودورِ ست الملك في ذلك فقال ما نصه:
وراسلتْ ستُّ الملكِ أختُ الحاكم ابنَ دوّاس مع بعض خدمها وخواصّها، وهي تقول له: لي إليك أمْرٌ لا بدَّ لي فيه منَ الاجتماع بك، فإما تنكّرتَ وجئْتَني ليلاً، أو فعلتُ أنا ذلك. فقال: أنا عبدُك والأمْرُ لك، فتوجّهتْ إليه ليلاً في داره متنكّرة، ولم تصحب معها أحداً؛ فلما دخلتْ عليه، قام وقبّل الأرض بين يديها دفَعَاتٍ، ووقفَ في الخدمةِ، فأمرتْه بالجلوسِ، وأُخْلِيَ المكان، فقالت: يا سيف الدَّولة! قد جئتُ في أمْرٍ أحرسُ به نفسي ونفسك والمسلمين، ولك فيه الحظُّ الأوفر، وأريدُ مساعدتك فيه، فقال: أنا عبدك، فاستحلفته، واستوثقتْ منه، وقالت له: أنتَ تعلمُ ما يقصده أخي فيك، وأنه متى تمكّنَ منك لم يُبْق عليك، وكذا أنا، ونحن على خطر عظيم، وقد انضاف إلى ذلك تظاهره بادعائه الإلهية، وهتكِهِ ناموسَ الشريعة، وناموس آبائه، وقد زاد جنونه، وأنا خائفة أن يثور المسلمون عليه فيقتلوه ويقتلونا معه، وتنقضي هذه الدولة أقبح انقضاء. فقال سيف الدولة: صدقتِ يا مولاتنا، فما الرأي؟!
قالت: قَتْلُه ونستريح منه، فإذا تمَّ لنا ذلك، أقمنا ولده موضعه، وبذلنا الأموال، وكنتَ أنت صاحب جيشه ومدبّره، وشيخ الدولة، والقائم بأمره، وأنا امرأة من وراء حجاب، وليس غرضي إلا السلامة منه، وأن أعيش بينكم آمنة من الفضيحة. ثم أقطعته إقطاعات كثيرة، ووعدته بالأموال والخلع والمراكب السنية، فقال لها عند ذلك: مُري بأمرك؛ قالت: أريدُ عبدين من عبيدك تثق بهما في سرّك، وتعتمد عليهما في مهماتك.
فأحضر عبْدَيْن، ووصفهما بالشهامة، فاستحلفتْهُما، ووهبتْهُما ألْفَ دينار، ووقّعَتْ=

الاضطراب وانتشار الفوضى، وما يهدِّدُ الدَّولة من التّمزُّق إن استمرَّ الحاكم في غيّه وفساده وعبثه بالنّاس ومصالحهم، ولم يُوضَعْ له حَدٌّ لشنيعِ تصرّفاته وجرائمه.

* استجابَ ابنُ دوّاس لِستّ الملك، ولبّى دعوة القَضَاءِ على الحاكم وأجابها إلى ما تريد[1]، وتوافق هو وهي على قَتْل الحاكم ودماره، وكانت ستُّ الملك قد أخذتْ عليه ميثاقاً بالوفاءِ والكتمان. ثمّ إنَّها قطعتْ هي على نفسها أغلظَ الأيمان والمواثيق والعهود، ووعدته أنَّه سيكون مدبّر الدّولة وصاحب الكلمة الأولى في شؤونها، وقالت له: إذا تمَّ لنا قتله، أقمنا ولده موضعَه، وبذلْنا الأموالَ، وكنتَ أنتَ صاحب جيشه ومدبره، وشيخ الدّولة، والقائم بأمره، وأنا امرأةٌ منْ وراء حجاب، وليس غرضي إلا السَّلامة منه، وأنْ أعيشَ بينكم آمنة من الفضيحة، وممّا يرميني به الحاكم بأمْرِ الله.

فقال ابنُ دواس: مُري بأمرك واعرضي رأيك.

قالت ستُّ الملك بعدما علمت صِدْقَ نيّة ابن دواس: أريدُ عبديْنِ من عبيدك تثق بهما في أسرارِك وخفاياك، وتعتمدُ عليهما في مهمّاتك وعلانيتك.

= لهما بثياب وإقطاعات وخَيْل وغير ذلك، وقالت لهما: أريد منكما أن تصعدا غداً إلى الجبل، فإنها نوبة الحاكم، وهو ينفرد ولا يبقى معه غير القرافي والركابي، وربما ردّه، ويدخل الشِّعْب وينفرد بنفسه، فاخرجا عليه فاقتلاه، واقتلا القرافي والصبي إن كانا معه، وأعطتهما سكينين من عمل المغاربة تسمّى الواحدة منهما: «يافورت» ولهما رأس كرأس المبضع الذي يفصد به الحجّام، ورجعت إلى القصر، وقد أحكمتِ الأمرَ، وأتقنته. (النجوم الزاهرة ٣/ ١٨٦ و١٨٧).

(١) يحضرني في هذا المجال قول الشاعر:

رأيـتُ شـاةً وذِئبـاً وهـي مـاسكـةٌ ... بـأُذنِـه وهـو منقـادٌ لهـا سَـاري
فقلـتُ أعجـوبـة ثـمّ التفـتُّ أرى ... مـا بيـنَ نـابَيـه مُلقـى نصـف دينـارِ
وقلـتُ للشَّـاة مـاذا الإلْـفُ بينكمـا ... والـذّئـبُ يسطـو بـأنيـاب وأظفـارِ
تبسَّمَـتْ ثـمّ قـالـتْ وهـي ضـاحكـةٌ ... بـالتِّبْـر يُكْسَـرُ ذاك الضّيغـم الضّـاري

* وفي الوقتِ والحال أحضر ابنُ دواس عبديْنِ أسودين شَهمين، فاستحلفتهما ستّ الملك على ما تلقيه إليهما من سرّ خطير، ثمّ أعطتهما ألف دينار، فَحَلَفَا ووعَدَاها بكتمان السِّرِّ، وعندها دفعتْ لهما بثياب، ووقَّعتْ لهما إقطاعات وخَيْل وغير ذلك، كي تطيبَ نفوسهما، ومن ثمَّ زوَّدتهما بسكينَيْن ماضيَيْن، وسيفَيْن قاطعَيْن، وقالت لهما: إذا كانتِ الليلةُ الفُلانية، فكونا في جَبَل المقطّم، ففي تلك الليلة يكونُ الحاكمُ هنالك في الليل لينظر في النّجوم، وليس معه أحَدٌ إلا ركابي وصبي، فاقتلاهُ واقتلاهما معه[1].

* انفضَّ ذلك الاجتماعُ على القضاءِ على الحاكم بأمْرِ الله، واتّفقِ الأمْرُ على ذلك، وتمّتِ الأمورُ على ذلك التّدبير المُحْكم، وخرج كلٌّ واحدٍ منهم لشأنه ينتظر الوقت الذي سينفذ فيه ما أُوكِلَ إليه.

* ولما كانتِ الليلةُ المتَّفق عليها، وهي ليلة مساء يوم الإثنين (٢٧ شوال)، من سنة (٤١١ هـ)، خرجَ الحاكم بأمْرِ الله كعادته إلى الجبل[2] راكباً حماره، فلمّا توغَّل في شِعْبِ الجبل منفرداً، خرجَ ذانك[3] العبدان منْ مكمنهما، ـ وكانا يرصدان حركاته ـ فاستقبلاه، وأنزلاهُ عن مركوبهِ، وقَتَلاه، وقطعا يديه ورجليه، وقطَعا قوائم الحِمار أيضاً، ثمَّ إنَّهما حَمَلا جثَّة

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٢/ ١٠)، والنجوم الزاهرة (٣/ ١٨٦ و١٨٧).

(٢) كانت ستُّ الملك تراعي ما يكون منْ أمرِ الحاكم بأمر الله، وكان قصرها مقابل قصره، فإذا ركب علمت. (النجوم الزاهرة ٤/ ١٨٨).

(٣) «ذانك»: «ذان»: اسم إشارة للقريب، يستعمل للعاقل ولغيره، وهو مثنى ذا. يُعرب برفع الألف في حالةِ الرفع، وعلى الياء في حالتي النصب والجر، نحو: «فاز ذان المؤمنَان بمرضاة الله»، و«شجعت ذين الطفلين المؤدبَيْن»، و«وقفتُ مع ذين الرجلين الحافظين كتاب الله».

و«ذان»: اسم إشارة مبني ـ أو مرفوع ـ بالألف في محل رفع فاعل لـ «خرج».

ملحوظة مهمة: «ذان»: لا يشار بها إلى البعيد لذلك لا تدخلها لام البعد. ولكن قد تلحقها «ها» نحو: «هذان» بالرفع وهذين بالنصب والجر، وتلحقها كاف الخطاب نحو ذانك في حالة الرفع، وذينك في حالتي النصب والجر.

الحاكم إلى مولاهما ابن دوّاس، فحمله إلى ستّ الملك، فدفنته في مجلسها[١]، فكان كأمْسِ الدّابر، واتّخذتِ الوسائل كلّها لإخفاءِ الجريمة، ومن ثمّ استدعتِ الوزيرَ، وأطلعته على جلية الأمْر، واستطاعت تدبير ما يجب لجلوس الخليفة الجديد ابن الحاكم، وكان بدمشق، واستطاعت تدبير بعض الأمور الخارجية بذكاء، كما فعلت بدمشق[٢] وحلب[٣].

* أمّا كيف أخفتْ جريمتها، فقد طفقَتْ تقولُ للنَّاس وتوهمهم بأنَّ الحاكمَ بأمْرِ الله قال لها: إنَّه يغيبُ عنكم سبعة أيام، ثمّ يعود. فانصرفوا على هدوء وطمأنينة، ولم تزلْ ستّ الملك في تلك الأيّام ترتِّبُ الأمور، وتنسِّقُ الأحْوال، وتفرِّقُ الأموال، إلى أن استقدمت ابن أخيها من دمشق، وحينما

---

(١) النجوم الزاهرة (٤/ ١٨٩).

(٢) كتبتْ ستُّ الملك إلى دمشقَ بحمل ولي العهد إلى مصر، فلم يلتفتْ إلى ذلك، واستولى على دمشقَ، ورخَّصَ للنّاس ما كان الحاكمُ حظره عليهم، فأحبَّه أهل دمشق، ولكنّه كان بخيلاً ظالماً، فشرع في جَمْع المال ومصادرة أموال النّاس، فأبغضه الجندُ وأهل البلد، فكتبتْ أختُ الحاكم إلى الجند، فتتبعوه حتى مسكوه، وبعثوا به مقيّداً إلى مصرَ، فحبس في القصر مكرّماً. (النجوم الزاهرة ٣/ ١٩٤)، بشيء من التصرف. وهذا العمل يدلُّ على ما أوتيتْ ستُّ الملك من سَعَةِ الحيلة والذكاء.

(٣) كان على حلبَ عند هلاك الحاكم بأمر الله: عزيز الدّولة فاتك الوحيدي، وقد استفحل أمره، وعظم شأنه، وحدّث نفسه بالعصيان، فلاطفته ستّ الملك، وراسلته وآنسته، وبعثت إليه بالخِلَع والخيل بمراكب الذّهب وغيرها؛ ولم تزلْ تعمل على الحِيَل، حتى أفسدتْ غلاَماً له يُقال له بدر الذي عمل حيلة وقتل فاتك الوحيدي، واستولى بَدْرٌ على القلعَة وما فيها، وكتب إلى أخت الحاكم بما جرى، فأظهرتْ الوجد على فاتك في الظّاهر، وشكرت بدراً في الباطن على ما كان منه في حفظ الخزائن، وبعثت إليه بالخلع، ووهبت له جميع ما خلّفه مولاه، وقلّدته موضعه، ونظرت ستّ الملك في أمور الدولة بعد قَتْل الحاكم أربع سنين، أعادت الملك فيها إلى نضارته، وعمرت الخزائن بالأموال، واصطفَتِ الرّجال، ثمّ اعتلَّتْ علّة لحقها فيها ذَرْبٌ فماتت منه، وكانت عارفة، مدبرة، غزيرة العقل. (النّجوم الزاهرة ٣/ ١٩٤ و١٩٥) بتصرف واختصار.

وصلَ القاهرة، ألبسَتْه تاج جدِّ أبيه المعزّ، وحلّة عظيمة، وأجلسته على السَّرير، وبايَعه الأُمراء والرّؤساء، ومن بالقَصْر من ذوي الشَّأْن، وأطلق لهم الأموال بإشارة عمّته ستّ الملك، ثم إنّها لم تَنْس ابن دواس من الجائزة، فخلعتْ عليه خلعةً عظيمة، وعملتْ بعد ذلك عزاء أخيها الحاكم بأمرِ الله ثلاثة أيام.

* وهكذا أتمّت ستُّ الملك تدبيرها في تدميرِها لأخيها، وفي تنصيب ابنه الظَّاهر[1] لإعزاز دِيْن الله. ولكنَّ هناك هماً واحداً أخذَ يساورها ويقضُّ مضجعها، وينغِّصُ حياتها، ويتعبُها، هذا الهم الثّقيل الذي يجثمُ على كاهلها ابن دواس الذي يعرف سرّ فِعْلتها بأخيها، فماذا تصنعُ، وما عساها أنْ تفعل الآن وقد تمَّ لها ما رسمته وحاكته وأحكمتْ لحمته وسُداه؟!!.

بمَاذَا كَافَأَتْ سِتُّ المُلْك ابنَ دَوَّاس؟!

* بعد أنْ استوثقتْ ستُّ المُلك لابن أخيها في المملكةِ، وأطاعَهُ الزُّعماء والنَّاس، أخذت تعدُّ العدّة لتكافىء الحُسين بنَ دواس، ولكنَّ المكافأةَ هذه المرّة من نوع آخر، لقد أخذت تدبِّرُ للقضاءِ عليه، وعلى الوزيرِ أيضاً، ومَنْ وقف على السِّرِّ في مقتلِ الحاكم لكيلا تنفلت الأمورُ من يدها، وتمَّتْ هذه الإجراءات في مدّةٍ بسيطة استخدمت فيها كلّ وسائل الحيطة والحذر والذّكاء.

* وتحكي المصادر[2] نهايةَ ابنَ دواس، ودور ستّ الملك في ذلك فتقول: أرسلتْ ستّ الملك إلى ابن دواس طائفة من الجند، ليكونوا بين

---

(١) «الظّاهر»: الظّاهر العبيدي أبو هاشم علي، الملقب الظّاهر لإعزاز دِيْن الله، كانت ولايته بعد فَقْد أبيه بمدة، وكانت مملكته الديار المصرية وإفريقية وبلاد الشام.
كانت ولادة الظّاهر يوم الأربعاء عاشر رمضان سنة (٣٩٥ هـ) بالقاهرة، وتوفي آخر ليلة الأحد منتصف شعبان سنة (٤٢٧ هـ). (وفيات الأعيان ٣/ ٤٠٧ و٤٠٨).

(٢) انظر: الكامل (٩/ ٣١٤ ـ ٣١٧)، والبداية والنّهاية (١٢/ ١٠ و١١) مع الجمع بينهما.

يديه بسيوفهم وقوفاً في خدمته، ثمّ يقولوا له في بعض الأيام: أنتَ قاتلُ مولانا، ومن ثمّ يهبّرونه بسيوفهم، ويجعلونه كأمْسِ الدَّابر.

* وفعلَ الجنود ما أمرتهم به، وقتلُوا ابنَ دوّاس[1] والعبدين، وكلّ مَن اطّلع على سرّها أودت بحياته، فكان منَ الغابرين. فعظمت هيبتُها في النُّفوس، وقويت حرمتها، وثبتتْ دولتها، وجلسَ الخليفةُ الجديد الظَّاهر لإعزاز دِيْنِ الله مكانَ أبيه الحاكم بأمرِ الله في العاشر من ذي الحجّة سنة (٤١١ هـ)، وعمره لم يجاوزِ السَّابعة عشرة، وتولّت ستُّ الملك تدبير أمور الدّولة، وهيأت كلّ شيءٍ في البلاط والدولة.

* وراحَ الظَّاهرُ لإعزازِ دين الله، يعملُ في إصلاحِ الدَّولة، بوحي عمّته ستّ الملك، التي دبّرتِ الدّولةَ أحْسَن تدبير، فألغَى كثيراً منَ القوانين والمراسيم الشّاذّة التي ابتكرها أبوه من قبل، وعاد السَّلام والأمنُ إلى مصر، بعد أنْ مضى عليها ربْعَ قرنٍ من التّقلبات والاضطرابات والفوضى.

---

(١) نقل ابنُ تغري بردي عن القضاعي كيف دبّرت ستّ الملك مقتل ابن دواس وغيره ممن اطلع على سرّها فقال: ثمّ أمرت ستّ الملك بخلعٍ عظيمة، ومالٍ كثير، ومراكب ذهبٍ وفضة للأعيان، وأمرت ابن دوّاس أنْ يشاهدها في الخزانة وقالت له: غداً نخلع عليك، فقبّل ابنُ دوّاس الأرض، وفرح، وأصبح من الغَد، فجلس عند السّتر ينتظر الإذن حتى يأمر وينهى.
وكان للحاكم مئة عبد يختصُّون بركابه، ويحملون السّيوف بين يديه، ويقتلون مَنْ يأمرهم بقتله، فبعثت بهم ستّ الملك إلى ابنِ دوّاس ليكونوا في خدمته، فجاؤوا في هذا اليوم، ووقفوا بين يديه. فقالت ستُّ الملك لنسيم صاحب السّتر: اخرج وقفْ بين يدي ابن دواس، وقُل للعبيد: يا عبيد! مولاتنا تقول لكم: هذا قاتلُ مولانا الحاكم، فاقتلوه.
فخرج نسيمٌ فقال لهم ذلك؛ فمالوا على ابن دواس بالسُّيوف فقطّعوه، وقتلوا العبديْن اللذين قتلا الحاكم، وكلّ مَن اطّلع على سِرّها قتلته، فقامت لها الهيبةُ في قلوبِ النّاس. (النّجوم الزّاهرة ٤/ ١٩١ و١٩٢).

ثَـرْوَتُـهَــا ووفَـاتُـهَــا:

* ظلت ستُّ الملك قرابة أربعة أعوام[1] تسوسُ المملكة من خلفِ الأستار، ولم تجلسْ على عرش المملكة، وإنّما ظلتْ أميرة، ولكنّها بذكائها وحزمها استطاعت أنْ تثبِّتَ نفسها في ديوان مشاهير نِساء الدُّنيا، وفي دُنيا نساء التَّاريخ، في عصر يصعبُ أنْ ترتقيَ فيه امرأةٌ سدّةَ الشُّهرة.

* ويحكي تاريخ ستّ الملك بأنَّها كانت تملكُ الأموالَ التي لا تُحصى، ناهيك بالجواري والعبيد، قال صاحبُ النّجوم: إنَّ ثروةَ ستّ الملك أخت الحاكم اشتملتْ على ثمانمئة جارية، وثمان جرّات ملأى بالمسك، وكثير من الأحجار الكريمة، من بينها قطعة منَ الياقوت تَزِنُ ثمانية مثاقيل، وكانت مخصّصات هذه الأميرة السّنوية خمسين ألف دينار، وكانت مشهورةً بالكرمِ والحكم[2].

* وقال ابنُ إياس في تاريخ مصر[3]: كان بقصر ستّ المُلك أخت الحاكم أربعة آلاف جارية بين بِيْض وسُود، ومولّدات.

* وفي أواخرِ سنة (٤١٤ هـ) ماتتْ ستُّ الملك بمرضٍ أصابها، وكان عمرها (٥٥ سنة). وبهذا يطوي التّاريخ صفحةَ هذه المرأة التي أثرتِ تاريخَ النِّساء بمواقف متباينة.

* * *

---

(١) الكامل في التاريخ (٩/ ٣٢٠)؛ هذا وقد امتازت ست الملك بالحزم، ورجاحة العقل، واشتهرت بالكرمِ والحلم، وعرفت بالتّسامح الدّيني، وكثيراً ما كانت تعطفُ على النّصارى، وكانت في السّادسة والعشرين من عمرها حين تُوفي أبوها. وكانت مع أخيها الحاكم مسلوبةَ السّلطة، فأثار ذلك حفيظتها، ولا سيما عندما انتقد مسلكها، فتآمرت على قتله بالاشتراك مع سيف الدولة ابن دواس أحد شيوخ كتامة ـ كما أسلفنا ـ.

(٢) انظر أيضاً: خطط المقريزي (١/ ٤١٥).

(٣) (١/ ٥٨).



١٦

عائشة الباعونية



فَاضِلَـةُ الزَّمَانِ وحَليفَـةُ الأَدَبِ:

نادرةٌ منْ نوادرِ الدَّهْرِ، وأديبةٌ منْ أُدباء العصرِ، وواسطةُ عقْدِ الدُّر، في رصْفِ المباني، ونظم الشِّعر، لم يكنْ في زمانها من حرائرِ النِّساء مَنْ يعادلُها أدباً وعِلْماً، وفصاحةً وحلماً، وفهماً لمعاني القُرآن، وصَفَها الشَّيخُ عبد الغني النّابلسي بأنّها فاضلةُ الزَّمان؛ وحليفةُ الأدبِ في كلِّ مكان[1]، ووصفها غيرُه من أكابرِ العُلماء والأعلام بأنّها منْ أكابرِ الأعلامِ، وبأنَّها ربّةُ الفَضْل والأدبِ، وصاحبة الشَّرف والنَّسَب.

كانت شاعرةً مطبوعةً فاضلةً، أديبةً ناثرةً لبيبةً عاقلةً، حباهَا اللهُ جمالَ لغةِ الأدب، وأسلسَ على لسانِها بلاغةَ العرب، فكانت بغيةَ الرّاغبين ومنيةَ العارفين، والذي أجمعَ عليه أهلُ العِلْم أنّها في عصرها، تزيدُ عن غيرها في فهمها وعلْمِها.

في «شذراته» عرّفها ابنُ العماد الحنبلي بقوله: عائشةُ بنتُ يوسف بن أحمد بن ناصر بنت الباعوني المعروفة بالباعونية[2]؛ الشّيخة، الصَّالحة، الأريبة، العالمة، العاملة، أمّ عبد الوهاب الدّمشقية، أحد أفرادِ الدّهرِ، ونوادر الزّمان، فَضْلاً، وأدباً، وعلماً، وشعراً، وديانةً، وصيانةً.

ولا نعلم بالتّحديد متى كان مولدُ عائشة الباعونية هذه، إلا أنَّ الدَّلائل تشيرُ إلى أنَّها قد وُلدتْ في منتصفِ القرن التّاسع الهجري أو بعده بقليل، وامتدتْ حياتُها حتّى الرّبع الأوّل من القرن العاشر الهجري تقريباً.

وفي أسرةٍ زاكية بحلية الفَضْل، نشأت عائشةُ الباعوينة، حيثُ أبوها

(١) نفحات الأزهار على نسمات الأسحار (ص٢).

(٢) شذرات الذهب (١٠/ ١٥٧ ـ ١٥٩)، وانظر: كشف الظنون (٥/ ٣٥٧ و٣٥٨)، والكواكب السّائرة للغزي (١/ ٢٨٧ ـ ٢٩٢)، والدر المنثور (ص٢٩٣ ـ ٣٠٣)، وأعلام النّساء (٣/ ١٩٦ و١٩٧)، وشاعرات العرب (ص٢٣٠ ـ ٢٣٢)، والأعلام (٣/ ٢٤١)، وغيرها؛ و«باعون»: إحدى قرى عجلون في شرقي الأردن، والنسبة إليها: باعوني.

القاضي يُوسُف بن أحمد بن ناصر الباعوني المقدسي ثمَّ الصَّالحي الدّمشقي، قاضي الشّافعية بدمشق، والمتوفى عن عمر يقتربُ من ثلاثةِ أرباع القرن، فقد وُلِدَ سنة (٨٠٦ هـ) وتوفي بدمشق في شهر ربيع الثّاني سنة (٨٨٠ هـ) وعمره (٧٤ عاماً)(١).

* وقد لمعتْ أسماء كثيرة في سماءِ العِلْمِ من الأسرة الباعونية، وكلُّهم اغترفَ من بحارِ المعرفة، فاعترفَ لهم أكابر أهل الفَضْل بالفضلِ، وأقرُّوا لهم بالعِلْم والحلم(٢).

شَغَفُهَـــا بالعِلْمِ وحَافِظَتُهَا العَجيْبَــة:

* اقتطفتْ عائشةُ الباعونية أزاهيرَ العِلْم، ووَرْدَ المعرفةِ وهي في عُمْرِ الزَّهْر، وقد أنعمَ اللهُ عليها بنعم شتّى أعلاها حفْظ القرآن الكريم.

* ومنذ نعومة أظفارها شُغِفَتْ بالعِلْم شغفاً عجيباً، وداومَتْ عليه، فلا وُصُولَ للمرءِ إلى صفَاء شيءٍ من أسباب الدّنيا إلا بصَفَاء العِلْم فيه، وخصوصاً علوم القُرآن، فهي تُهذِّبُ اللسان، وتثبتُ الجَنَان، وتقوي الحجّة والبُرهان، وتجعل المرءَ سبّاقاً في كُلِّ مَيْدان.

* ويبدو لي ـ والله أعلم ـ أنَّ أباها قد لاحظَ نباهَتَها، وحبَّها للعلم، فأخذَ يعتني بها، حيث تلقَّتْ علومَ القرآن الكريم، وأخذتْ تقرأُ آياته وتحفظها، وهي ما تزالُ طِفْلةً صغيرةً، إلا أنّها عندما كانت في ربيعها الثّامن، وعَتِ القُرآن الكريم كلّه في صدرها، وحفظتْه واستظهرتْه، وأتقنتْ قراءته إتقاناً عجيباً ممّا جعلها متفرّدة بين نساء عصرها، بل بين حُفَّاظ نساء العصر آنذاك.

* وكانت عائشةُ الباعونية ـ رحمها الله ـ تَعتبرُ أنَّ حفظها للقرآن في تلك

---

(١) انظر: الضوء اللامع للسّخاوي (١٠/٢٩٨)، ونظم العقيان في أعيان الأعيان للسيوطي (ص١٧٨ و١٧٩).

(٢) انظر في هذا على سبيل المثال: الجزء التاسع والعاشر من كتاب شذرات الذهب، وكتاب الكواكب السّائرة في أعيان المئة العاشرة، حيث تجد عدداً من تراجم العلماء الباعونيين.

السِّنِّ مِنَّةٌ من مِنَنِ اللهِ عليها؛ بل من لطائفِ المنن الإلهيّة ذلك اللطف الرّباني الذي صاحَبَها منذ بداية حياتها إلى نهايتها.

* وقد تحدَّثَتْ عائشةُ عن مشاعرها، وعن تلك النّعمة الإلهية، والمنّة الرّبانية في حفظِ القرآن العظيم وهي في سِنِّ الطّفوليّة، فتقول من كلام طويلٍ نقتطفُ منه هذه الفِقْرات: وكان ممّا أنعمَ اللهُ به عليَّ أنّني بحمدِهِ لَم أزلْ أتقلَّبُ في أطوارِ الإيجادِ؛ في لطائفِ رفاهيةِ البرِّ الجواد، إلى أنْ خرجتُ إلى هذا العالَم المشحون بمظاهرِ تجلياته، الطّافح بعجائب قدرتِهِ، وبدائع إرادته، المشوب موارده بالأقدار والأكدار، الموضوع بكمالِ القدرة والحكمة للابتلاء والاختبار، دار ممر لا بقاءَ لها إلى دارِ القرار؛ فربّاني اللطفُ الرّباني في مشهد النّعمة والسّلامة، وغذّاني بلبان مداد التّوفيقِ لسلوك سبيلِ الاستقامة، وفي بلوغ درجة التّمييز، وأهَّلَني الحقّ لقراءةِ كتابه العزيز، ومَنَّ عليَّ بحفظِهِ على التّمام، ولي من العمر حينئذ ثمانية أعوام، ثمّ لم أزلْ في كنَفِ ملاطفات اللطيف، حتى بلغتُ درجة التّكْليف[1].

* على هذهِ المائدة العظيمة الميمونة نشأتْ عائشةُ الباعونية، وبعدها راحت تنهلُ من المعارفِ العامّة من علماء عصرها، فهي تعلمُ بأنَّ العلماءَ هم سُرُجُ الأزمنةِ والأوقاتِ، فكلُّ عالمٍ مصباحُ زمانِهِ، يستضيءُ به أهلُ عَصْره، لذلك اتخذتِ العلمَ لها حرفةً على كلّ الحِرَف، فالعلمُ يزيدُ الشَّريف بالشَّرف، ولأنَّ العلم لا ينقصُ بالبذل والنّفقة، والمالُ ينقص بالبذل والنّفقة، ولأنَّ صاحبَ المالِ إذا ماتَ انقطعَ ذِكْرُهُ، وغابَ أثره، ونسيه أهله ومحبّوه، وصاحبُ العلْم إذا ماتَ يبقى ذِكْره بين النّاس، وتبقى معارفه مشهورة كالنّبراس، ولأنَّ صاحبَ المال ميتٌ يُسألُ عن ماله منْ أين اكتسبه، وأينَ وضعه؟ وصاحبُ العِلْم له بكلِّ عِلْمٍ قَصَدَ به وجْهَ اللهِ درجة في الجنّة.

---

(١) انظر: در الحبب (١ق٢ ١٠٦٢ ـ ١٠٦٤)، والكواكب السائرة (١/ ٢٨٨)، وشذرات الذهب (١٠/ ١٥٨).

بدأتْ عائشةُ حياتها العلميّة بطلبِ العلم، وحضور مجالس العلماء، فقد تنسّكتْ في بدايةِ حياتها العلمية على شيخٍ سيّد جليل اسمه: «إسماعيل الخوارزمي»، ثمَّ مِنْ بعدِه على يَدِ شيخ آخرٍ اسمه: «خليفة المحيوي يحيى الأرموي»، ثمّ إنّها حُمِلَتْ إلى القاهرة، فنالتْ من العُلوم حظوظاً وافرةً، وحضرتْ مجالس العُلماء[1]، وأبدعتْ هنالك أيّما إبداع، فأُجيزَتْ بالإفتاءِ والتّدريس.

هذا؛ ولم تتفوقْ عائشةُ في مجالِ علومِ القُرآن الكريم، والفقْهِ، والحديث النّبوي فحسب، ولكنّها أبدعتْ في اجْتناء ثمرات الأَدب، فعرفتْ أبكار الكلام، وحفظتْ كثيراً من عيونه، وتوفّرتْ لها شروطُ المعرفةِ[2]

---

(١) قال عمر بنُ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: إنَّ الله ـ عز وجل ـ لم يخلقْ على وجهِ الأرض بقعة أكرم على الله من مجالس العلماء.
وقال أبو الليث السّمرقندي ـ رحمه الله ـ: من انتهى إلى العالِم وجلس معه، ولا يقدر على أنْ يحفظَ العلم فله سبع كرامات:
أوّلها: ينال فضل المتعلّمين.
والثّاني: ما دام جالساً عنده كان محبوساً عن الذنوب والخطايا.
والثّالث: إذا خرجَ من منزله تنزل عليه الرحمة.
والرابع: إذا جلسَ عنده فتنزل عليهم الرحمة فتصيبه ببركته.
والخامس: ما دام مستمعاً تكتب له الحسنة.
والسّادس: تحفّ عليهم الملائكة بأجنحتها رضاً وهو فيهم.
والسّابع: كلّ قدم يرفعه ويضعه يكون كفّارة للذنوب، ورفعاً للدرجات له، وزيادة في الحسنات.
(تنبيه الغافلين ص٤٣٩ و٤٤٠) بتحقيق: يوسف علي بديوي.

(٢) قال الماوردي ـ رحمه الله ـ: الشّروط التي يتوفّر بها علم الطالب، وينتهي بها كمال الرّاغب، مع ما يُلاحظ به من التوفيق، ويمدُّ به من المعونة، فتسعة شروط:
أحدها: العقلُ الذي به تُدركُ حقائقُ الأمور.
الثّاني: الفطنةُ التي يتصوّر بها غوامضُ العلوم.
الثّالث: الذكاءُ الذي يستقرّ به ما تصوره، وفهم ما علمه.
الرّابع: الشّهوة التي يدوم بها الطّلب، ولا يسرع إليها الملل.

بالشّعر وفنونه، فغدتْ إحدى شاعرات النِّساء اللواتي سجلْنَ أجملَ الأشعارِ وأحلاها في ديوانِ الدَّهر، بل إنَّ عائشةَ هذه كانت شاعرةَ البليغاتِ، وبليغةَ الشَّاعرات، وفصيحةَ النَّاثراتِ، وآثارها تشهدُ بما آتاها اللهُ تعالى من نباهةٍ وفصاحةٍ وبلاغةٍ وجودةِ نَظْم، وخصوصاً في مجالِ المدائح النّبوية التي بلغتْ فيها السُّها، وتسنمتْ ذِروةَ المعرفةِ والإلمام بفنونِ البلاغة والأدب ـ كما سنرى بإذن الله ـ.

* وتشيرُ أخبار عائشةَ الباعونية إلى أنّها قد أبحرتْ في علوم الأدب، وقرأتْ كثيراً من كتُبِ الأقدمين، لذلك كانت تجدُ أنَّ لذَّةَ العِلْمَ فوقَ كلّ لذّة، ونشوةَ المعرفةِ فوقَ كل مسرّة؛ قال بعضُ الأدباء الحكماء: مَنْ تَفَرَّدَ بالعلم لم توحشْهُ خَلْوة، ومن تسلّى بالكتُبِ لم تَفُتْهُ سلوة، ومن آنسه قراءة القُرآن لم توحشْهُ مفارقة الإخوان[1].

* وهكذا كانت هذه العالمةُ الأديبةُ التي زادَ من بلاغتها حفظها كتاب الله تعالى، لذلك فإنَّه لما سطعَ نجمُها، أَفَلَتْ نجومُ غيرها من نساءِ عصرها، بل لم نسمعْ عن امرأةٍ حظيتْ بشهرتها في عصرها كما اشتهرتْ هي، فقد كانت من السَّوابق في الشّهرة، وغيرها من المُصلِّين، على أنّنا لا نبخسُ أولئك اللواتي ظهرن في القرن العاشر من مثل: زينب بنت محمّد الغزيّ الشّافعية[2]، وفاطمة بنت يوسف التّادفي الحنبليّة

الخامس: الاكتفاءُ بمادة تغنيه عن كُلَفِ الطَّلب.

السّادس: الفراغ الذي يكون معه التوفّر ويحصل به الاستكثار.

السّابع: عدم القواطع المذهلة من هموم، وأشغال، وأمراض.

الثّامن: طول العمر واتساع المدة، لينتهي بالاستكثار إلى مراتب الكمال.

التّاسع: الظّفر بعالم سَمْح بعلمه، متأن في تعليمه.

فإذا استكمل هذه الشروط التسعة، فهو أسعدُ طالبٍ وأنجح متعلّم. (أدب الدنيا والدين ص١٠٤) طبعة دار ابن كثير المحققة.

(١) انظر: أدب الدنيا والدِّين (ص١٢٣).

(٢) زينبُ بنت محمّد الغزي الشّافعية، كانت من أفاضلِ نساءِ عصرها، وكانت مِنْ أهلِ العِلْمِ والدِّين والصَّلاح، ولها شعرٌ في المواعظِ، ولدت في ذي القعدة سنة =

الحلبيّة[1]، وأمّ الخير أمَةُ الخالق[2]، وخديجة بنت محمّد بن حسن الباني الحلبي[3] وغيرهن.

دخُولُهَا القَاهِرَةَ ولقَاؤُهَا الأُدباء:

* قال الغزّيُّ ـ رحمه الله ـ في «الكواكبِ»: دخلت عائشةُ الباعونية القاهرةَ في سنة(٩١٩ هـ)[4].

* ويبدو من خلالِ هذا القول بأنَّ عائشةَ قد قصدتْ مصرَ، واصطحبتْ معها بعضَ منظوماتِها وأشعارها، كما كان معها بعضُ مؤلفاتها[5]، وفي طريقها إلى القاهرة أصيبتْ بشيءٍ من مؤلفاتها ومنظوماتها، ويبدو أنَّها فُقِدت أو سُرِقت أو تَلِفت.

* ولما دخلَتِ القاهرة نُدبت لقضاءِ مآرب لها تتعلّقُ بولدها؛ وكان في

= (٩١٠ هـ) وتوفيت سنة (٩٨٠ هـ) وعمرها (٧٠ سنة)، ومن شعرها تمدح شيخها:

إنّمـــا العَـــالِـــمُ الـــذي ... جمَـــع العِلْـــم واكتمـــلْ

قـــامَ فيـــهِ بحقّـــهِ ... يتبـــع العِلْـــم بـــالعَمـــلْ

سَهِـــرَ الليـــلَ كلّـــه ... بنشـــاطٍ بـــلا كَسَـــلْ

فهـــو فـــي اللهِ دأبُـــه ... أبـــد الـــدهـــر لـــم يـــزلْ

حـــاز علمـــاً بخشيـــة ... وبـــدنيـــاه مـــا اشتغـــلْ

(١) فاطمة بنتُ يوسُف التّاد في الحنبلية الحلبية، كانت من الصّالحات الخيّرات، حجَّتْ مرتَيْن، ثمَّ عادت إلى حلبَ، وزارت بيتَ المقدس، ثم حجّت ثالثة، وتوفيت بمكةَ المكرمةِ سنة (٩٢٥ هـ).

(٢) أمُّ الخير أمَةُ الخالق، الشّيخة الأصيلة المعمَّرة، ولدت سنة (٨١١ هـ)، وهي آخرُ مَنْ يروي صحيح البخاري عن أصحاب الحجاز، وتوفيتْ سنة (٩٠٢ هـ). قال ابنُ العماد: نزلَ أهل الحديث درجةً في رواية البخاري بموتها ـ رحمها الله تعالى ـ.

(٣) خديجةُ بنتُ محمّد بن حسن البابي الحلبي، الشَّيخة الصَّالحة المتفقّهة الحنفية، كانت دَيِّنة، صيّنة، متعبّدة، مقبلة على التّلاوة إلى أنْ توفيت في شهر رمضان سنة (٩٣٠ هـ).

(٤) الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة (١/٢٨٨).

(٥) سيأتي الحديث عن مؤلفاتها إن شاء الله.

صحبتها المقرّ أبو الثَّنا محمود بن أجَا الحلبي، صاحب دواوين الإنشاء بالدِّيار المصرية، وكان أبو الثّنا ذا هيبة وهيئة حسنة، وشيبة نيّرة، ظريفاً كيساً، يحبُّ التَّواريخ، ويرغبُ في خلطةِ الأكابر وأهلِ العِلْم، لذلك أكرمَ عائشة الباعونية، وأحسنَ نُزُلَها ونُزلَ ولدها، وأنزلَها في حريمِهِ، وأوصاهم بها، وعرّفَهم قَدْرَهَا ومكانَتها العلميّة بين عالماتِ الشَّام، وأنَّها إحدى نوادر الدَّهر، وأمرهم أنْ يهتمُّوا بشؤونها، لذلك خصَّتْهُ عائشة بعددٍ من مدائحها، وقلدته أطواقاً من ذهبِ نَظْمِها وقريضها، ظلّت تتغنى بها الأجيال، وكان أوّل ما مدحته قصيدة ميمية نفيسة قالت في أولها:

رَوَى البَحْرُ أخْبارَ العَطَا عنْ نَداكم ... ونَشْرَ الصَّبا عن مُسْتَطابِ ثَنَاكُمُ

وهي قصيدةٌ طويلةٌ، حيث أُعْجِبَ بها المقرّ أبو الثَّنا، وإذ ذاك عرضها على شيخِ الأدباء السَّيّد عبد الرّحيم العبّاسي الشّافعي القاهري[1]، وكان من جِلّةِ الأدباء ومفاخرِ العلماء، فأُعجبَ بقصيدتها إعجاباً شديداً، وأخذتْ معانيها بمجامعِ لُبِّه، فما كان منه إلا أنْ جرَّدَ نفسه، وبعثَ لها بقصيدةٍ من بديعِ نظمه ذكرَ فيها بلاغتها، وأشار إلى علْمِها، فأجابتْ عائشة عبد الرحيم هذا بقصيدة رائية مطلعها:

وَافَتْ تُتَرجِمُ عَنْ حَبْرٍ هو البَحْرُ ... بـديْعَـةٌ زانَهـا مـعَ حُسْنِهـا الخَفْـرُ

---

(١) عبد الرحيم بن أحمد العبّاسي الشّافعي القاهري من علماءِ العصر، كانت له يدٌ طولى، وسندٌ عالٍ في علْمِ الحديث، ومعرفةٌ تامةٌ بالتواريخ، والمحاضرات، والقصائد، والفرائد، كما كان له إنشاءٌ بليغٌ، ونظمٌ حَسَنٌ، وخط مليح، وكان منْ مفرداتِ العالَم، صاحب خُلُقٍ عظيم، وبشاشة، ووجه بسّام، لطيفَ المحاورة، عجيبَ النادرة، متواضعاً، متخشعاً، أديباً، لبيباً، يبجل الصغير، ويوقر الكبير، سخي النفس، مباركاً، مقبولاً، ومن شعره:

إنْ رُمـتَ أنْ تسْبَـر طَبْـعَ امـرىءٍ ... فـاعتبـرِ الأقـوالَ ثـم الفعـال
فـإن تجـدهـا حسنـت مخبـراً ... مـن حسنِ الـوجـه فـذاك الكمـال

وُلد عبد الرحيم بن أحمد العباسي يوم السَّبت ١٤ رمضان سنة (٨٦٧ هـ) وتوفي سنة (٩٦٣ هـ) وعمره (٩٦ سنة) ـ رحمه الله ـ. (شذرات الذهب ١٠/ ٤٨٦ ـ ٤٨٨).

* ثمَّ إنَّ عبدَ الرحيم العبّاسي كتبَ إلى عائشة مُلغِزاً بقصيدة بلغت (٢١ بيتاً) جاء في أوّلها:

قُلْ لمنْ بالقَريضِ بَزَّ الفُحولا فانْثَنى عَنْ قُصورِهم مُسْتَطيلا
وأرَانَا عرائسَ الثَّغْرِ تُجْلى بِمَعَانٍ أَضْحى عُلاَهَا جَلِيْلا
رَافِياتٍ منْ زَاهياتِ المعَاني في مُروطٍ تجرُّ فيها الذُّيولا
مُسْفِراتٍ عن حُسْنِ معنى بديع مِنْ سَنَاهُ تبغي البُدور الأُفولا
وتَودُّ الرِّياضُ أَنْ لو أُعْيرتْ مِنْ أفانين وشْيِها إكْلِيْلا
كلُّ طَرفٍ إذا ترجَّعَ مِنْها عادَ منْ حُسنِهِ حَسْيراً كَلِيْلا

فأجابته عائشة بقصيدةٍ على نفس الوزنِ والرّوي قالت في أوّلها ـ بعد أنْ أجابته عن حلّ لغزه ـ:

يَا حَسِيْباً قَد جَازَ مَجْداً أَثيلا وفَخَاراً بالمُصْطَفى لَنْ يَحُولا
وإمَاماً فيما حَوى لا يُجارى في علومٍ حَوتْ له التَّفْضيْلا
جئْتَنَا بالعُجَابِ نَظْماً تَحلَّى منْ لآلي البيدعِ عِقْداً جَميْلا
سَافِراً عنْ وجوهِ مُعْجزِ لُغْزٍ كلُّ فكْرٍ أضْحى لديهِ كليْلا
قد سَمعْنا ومَا سَمِعْنا لمعنَى لُغْزِك الفائِقِ البَديعِ مَثِيْلا[1]

* ولما وصلتْ هذه الأبيات السَّيّد عبد الرحيم العبّاسي نالت إعجابه، فما كان منه إلا أَنِ امتدحَ السَّيِّدة عائشة الباعونية بأبياتٍ جميلة أبانَ فضلَها وعلمَها وجمالَ نثرها، ورائقَ شِعْرها فقال:

لِيَهْنِكِ مَجْدٌ طَارِفٌ وتَليدُ يخصُّكِ آباءٌ بهِ وجُدودُ
وأَصْلُ زَكا والفرعُ يَتْبَعُ أَصْلَه وليسَ له عمَّا انتحاهُ محيدُ
فيا روضةَ العِلْم التي بَانَ فضْلُها وليس منَ الفيضِ السَّري مَديدُ
فمنْثُورُ ما تُبديه قد ضَاع نَشْره ومنظومُه فوقَ النُّحور عُقودُ
وورقُ المعَاني فوقَ دَوْحِ بَيانها له ببديعِ السَّجْعِ فيه نشيدُ
إذا ما تَغنَّى مُطرِباً عندليبُها تميلُ قلوبٌ لذةً وتميدُ

---

(١) الكواكب السّائرة (١/ ٢٨٩ و٢٩٠).

فأجابته قائلةً:

تَسَاميْتَ مَرْمَى فاللّحاقُ بعيدُ　　وحسبُك ما أبدعْتَ فهو شَهيدُ
حَصَلتَ على الغاياتِ مَجْداً وسُؤْدداً　　وفَضْلاً مُبيَناً ليس فيهِ جحودُ
وأصبحتَ في رَوْضِ العلوم مفكَّهاً　　تجولُ وتجني ما تَشَا وتفيدُ
وكَمْ بوجيزِ اللفظِ أصدرتَ منهلاً　　يطيبُ به للطَّالبينَ ورودُ
مواردُ آدابٍ صَفَا سَلْسَبيلُها　　وحامَ عليها مهتدٍ ورشيدُ[1]

* ويبدو أنَّ عائشةَ الباعونية ـ رحمها الله ـ قد مكثت مدّة في القاهرةِ في ضيافة أبي الثّناء محمود الحلبي، فهزّتها الأشواقُ إلى دمشقَ وهاتيك الأطلال، وداعبتها أنسامُ الحنين إلى الشَّام، وإلى الصَّالحية وإلى كلّ بقعة من دمشق وما حولها، هنالك انبثقت عرائسُ فكرها عن أبدع الكلامِ المنظومِ، فمدحت أبا الثّناء بقصيدةٍ رائعةٍ جدّاً، ذكرت فيها كرمه ورفده، كما ذكرت شوقها وحنينها إلى دمشق، وإلى معالمها الجميلة، وأنهارِها العذاب، ومروجها الخُضْر الرائعة، تقول عائشة في مطلع قصيدتها:

حَنِيْنِـي لِسَفْحِ الصَّالحيّةِ والجِسْرِ
أَهَاجَ الهوى بينَ الجَوانِحِ والصَّدْرِ[2]

* ثم إنَّها تذكرُ في هذه القصيدة البديعة حنينها إلى دمشقَ وإلى أنهارها العذاب التي تروي أراضيها فتقول:

أَلا ليْتَ شِعْري والأَمَاني كثيرةٌ　　أَأَبْلُغُ ما أَرجُوه قَبْل انْقِضَا عُمْري
وهَل أَرِدَنْ صَافي يَزيدَ[3] واجْتَلي　　مَحاسنَ ذاك السَّفْحِ والمرجِ والقَصْرِ

(١) انظر: الكواكب السائرة (١/ ٢٩٠).
(٢) مطلع هذه القصيدة يذكرنا بمطلع بل بقصيدة علي بن الجهم الشاعر المشهور حينما مدح المتوكل بقصيدة مطلعها:
عيونُ المها بين الرّصافةِ والجسْرِ　　جلبْنَ الهوى من حيث أدري ولا أدري
(٣) «يزيد» المقصود به: نهر يزيد، وهو أحد أنْهار دمشق السَّبعة وهي: يزيد، ثورا، الدّاراني، بانياس، قنوات، عقربا، بردى.
قال العماد الأصفهاني في وصفها: =

بلــى إنَّ ربّــي قَــادرٌ وعطــاؤُه بغيرِ حسَابٍ والهِبَاتِ بلا حَصْرِ
ولــي أمــلٌ فيـه جميـلٌ وجـودُه كفيلٌ بما أرجوهُ منْ منَن الجبْرِ
وحَسْبي بشِيراً بالأماني وبالمنى معاملتي باللطفِ في العسرِ واليُسرِ

* ومنْ خلالِ حنينها تمتدحُ «محمود أجَا الحلبي» وتذكر شمائله وجُودَه، ومكانته الاجتماعية، وكرمَ وفادته، وتشيرُ إلى علْمِهِ وبلاغته وأدبه فتقول:

ولا بـدَّ مـنْ جُـودٍ يـوافـي وفـاءه بتبْليـغِ آمـالـي وفكّـي مـنَ الأَسْرِ
ويبدو صباح الوصلِ أبيضَ ساطعاً سطوعَ ضياءِ البِشْر من كاتبِ السِّرِّ
سَليلِ أَجَا كَهْف اللَّجَا وافرِ الحِجَى مُنيْلِ الرَّجا رُكْنِ السِّيَادةِ والفَخْرِ
إمـامٍ حَـوى مـنْ كـلِّ عِلْـمٍ لُبَـابـهُ فَحـجَّ لعـالـي بَـابِـهِ كـلُّ ذي قَـدْرِ
وأصبحَ في بَحْرِ الحقائِقِ غَائِصاً ومُستخرِجاً ما شاءَ منْ ذلك البحرِ
تلـوذُ بـه الأَعْيـانُ فيمـا يهمُّهـم فيَلْفَوْنَ عطْفَ البَرِّ أو فائِض البِرِّ
كريمٍ تُجاري السُّحْب راحتَه ولا يريدُ بما يجزي سوى الفوزُ بالأجرِ

= إلــى نـاسِ بـانـاس لـي صبـوةٌ لهـا الـوجـد داعٍ وذكـر مثيـر
يــزيــدُ اشتيــاقـي وينمــو كمــا يــزيــد يــزيــدُ وثــور يثــور
ومــنْ بــردى بـرد قلبـي الشـوق فهــل أنــا مــن حــرّه مستجيــر
(منتخبات التواريخ لدمشق للحصني ص١٠٩٦).

وفي نهر يزيد قال الرّاعي الدمشقي:

كــذا يــزيــدُ أطيــبُ الأنهــارِ إذ جَــرْيُــه داخــل الأحجــار
(منتخبات التواريخ لدمشق ص١١٠٢).

وهذا النّهر الجميل يروي عدداً من قرى غوطة دمشق، ومنها «حرستا» ـ وهي بلدتي التي ولدتُ بها ـ فقد جعل منها هذا النهر جنّة من جنّات الدنيا، مما جعل أحد الشّعراء يذكر ذلك فيقول:

رُبَّ يــوم بحــرستــا رطــب وسْــطَ روضٍ بــالصَّبــا مضطــرب
وعقــودُ الكــرم لمــا انتظَمَــتْ فتــدلَّــتْ بعقيــق الــرُّطَــبِ
سَتَــرتْهــا حلّــةٌ مــن وَرَقٍ أخْضَــر خــوف عيــون العــربِ
هــذه اللــذةُ مَــنْ فــارقهــا صــار يفــديهــا بــأمٍّ وأبِ

يمـنّ ولا مَـنٌّ يشُـوبُ عطَـاءَهُ ويمنحُ منْ لفظٍ سَبَى العَقْلَ بالسِّحرِ
عَرائِسَ فكْرٍ أرخَصَ الدُّرَّ لفظُها وأَنْشَتْ معانيها لنا دهشةَ الفكْرِ
مُفيـدٍ بحـلِّ المشكـلاتِ بمـوجـزٍ حَلاَ وعَلا عن وهْدَةِ العيِّ والحَصْرِ

ثم تختم مديحه بقولها:

هُو الشَّمْسُ في العَلْيا هُو النَّجمُ في الهدى
هُو الغوثُ في الجدوى هُو الصُّبح في البشْرِ(١)

مُـؤَلَّفَـاتُهَـا وألْوانٌ مِنْ شِعْرِهَـا:

المـرءُ بعْـدَ المـوتِ أحـدوثـةٌ يفنـى وتبقـى منـه آثـارُه
وأحسـنُ الحـالاتِ حـالُ امـرىءٍ تَطيـبُ بعـدَ المـوتِ أخبـارُه

* وأي أحدوثة أجمل منْ أحدوثةِ ضيفتنا عائشة الباعونية؟! وأيّ خبر نَشْره أطيب ممن وصَلَتْ سَوادَ ليلها ببياضِ نهارها سعياً وراءَ هداية غيرها سُبلَ المعرفةِ ولُبَابَ الآداب؟!

* لقد أشغلتْ عائشة ـ رحمها الله ـ جلَّ وقتها بكتابةِ وتقييد ما يعودُ نَفْعه على عموم النّاطقين بالضّاد على مرِّ الأعوام، فكلُّ مَنْ يقرأ آثارها يقطفُ ثمارَ المعرفةِ والعلم والأدبِ، ويغذي عقله بما تركته هذه البارعة التي تعتبرُ آثارها غذاءَ الألباب.

* وكما أسلفنا من قبلُ، فإنَّ عائشةَ قد نالتْ منَ العُلوم حظّاً وافراً، وأجيزتْ بالإفتاءِ والتّدريس، وتتلمذت على أكابرِ علماء عصرها في كلّ فنّ، ورزقَها اللهُ عَقْلاً وافراً، وذكاءً نادراً، فلا عجبَ أنْ تبدعَ في مجالِ التَّصنيف، وتتركَ أبدعَ الآثار في عالم السِّيرة النّبوية، وعالَمي الأدب والشِّعر، وغير ذلك كثير.

* لقد أَلَّفَتْ عائشةُ الباعونيةُ عدّة مؤلّفات تشهدُ بفضلها وعلمها؛ ومن هذه المؤلّفات، مؤلفها المشهور باسم: «الفتحُ الحقّي منْ مِنَحِ التلقّي»، وهذا الكتاب يشتملُ على كلماتٍ لدنيّة، ومعارفَ سنية، وإنشاداتٍ صُوفية،

---

(١) الكواكب السائرة (١٠/ ٣٠٤).

اختارتها عائشة ونَحَتْ فيها منحى أهلِ التّصوف، وكان لهذا الكتاب أثرٌ كبيرٌ عند المتصّوفة وغيرهم ممن يعشقون الأدب الصُّوفي.

* ومن آثارِها كذلك في هذا المجال كتاب بعنوان: «الملامحُ الشَّريفة والآثارُ المنيفة» ويشتمل كتابها على إنشاداتٍ صوفيةٍ ومعارفَ سنية، توافقُ ما جاء في عَصْرها من أفكارٍ، ومعتقداتٍ، وعادات.

* ومن آثارِها الشَّهيرةِ اللطيفةِ كتاب بعنوان: «دُرَرُ الغائصِ في بحرِ المعجزات والخصَائصِ» وهو قصيدةٌ رائيةٌ وبديعية؛ وقد شرحت هذه القصيدة شرحاً حسناً أظهرتْ فيه مقدرتها البيانية واللغوية والشّعرية بآنٍ واحد.

* ولعائشة أيضاً أرجوزةٌ نفيسة في الأخلاقِ والتَّصوّف، اختصرتْ فيها كتاب «منازل السَّائرين» للهروي، وقد أطلقت على أرجوزتها هذه اسم «الإشارات الخفيّة في المنازلِ العليّة»؛ كما أنَّ لها أرجوزة أخرى لخَّصَتْ فيها كتاب: «القولُ البديعُ في الصَّلاةِ على الحبيبِ الشَّفيع» للسَّخاوي.

* ومن نفائسِ كتبها كتاب بعنوان: «الموردُ الأهنى في المولدِ الأسنى» قالت: إنها فرغت من تأليف كتابها المورد الأهنى يوم الإثنين (١٢) ربيع الأوّل سنة (٩٠١ هـ)، وهذا اليوم يوافق ميلاد الحبيب المصطفى محمّد ﷺ، كما أنّها قد تركت ديوان شعر عنوانه «فيضُ الفَضْل»[(١)].

* هذه بعضُ آثارِ عائشة الباعونية في مجالِ التّأليف، ومن المُلاحظ أنَّ سائرَ هذه المؤلفات تغلبُ عليها الشَّخصية الصُّوفية المُشْرقة.

* أمَّا شِعْرها فقد حوى سائرَ المعاني، وفنونَ المغاني، فلَها منَ الموشّحاتِ الجميلة ما تطربُ له الأسماع، ولها منَ القصائدِ الرّائعة ما يهذّبُ الطّباع؛ ومن شِعرها على لسانِ القوم قصيدة جميلة ساحرة قالتْ في أوّلها:

---

(١) انظر: كشف الظنون لحاجي خليفة (٥/ ٣٥٧ و٣٥٨)، وأعلام النسَاء (٣/ ١٩٦) وغيرهما.

حَبيبي أنْتَ منْ قَلْبي قريبُ ... وعن سرِّي جَمالُك لا يغيْبُ
خَلَعْتَ الحُسْنَ في خِلَعِ التَّجلّي ... فشاهَدْتَ الجمالَ ولا رقيبُ
وأَبَّدْتَ الوصالَ فلاَ صدودٌ ... ولا وهْمٌ ولا شيءٌ يُريبُ

ومنها:

فلا خَوفٌ وأنتَ أَمَانُ قَلْبي ... ولا سقْمٌ وأنتَ ليَ الطَّبيبُ
ولا حُزنٌ وأنتَ سرورُ سِرِّي ... ولا سُؤْلٌ وأنتَ ليَ الحَبيْبُ[1]

* ولمدينةِ دمشق مساحةٌ كبيرةٌ في أشعارِ عائشة الباعونية، فهي جنَّةُ الدّنيا، وجنّةٌ منَ الجنَّات التي تجري من تحتها الأنْهارُ، وفيها ما تشتهيهِ الأنفسُ، وتلذُّ الأعين، ولذلك كانت تمنحُ دمشق بدائعَ شعرها، ونفائسَ نثرها.

* قال محمّد أديب آل تقي الدِّين الحصني ـ المولود بدمشق عام (١٢٩٢ هـ)، والمتوفى بها عام (١٣٥٨ هـ) ـ في كتابه «منتخبات التّواريخ لدمشق»[2]: ومما يُكتبُ بقلمِ الافتخار والاعتبار، ما قالته الفاضلة، سيّدة عصرها، وعلامة مصرها، وهي إحدى أفراد الدّهور، ومن نوادر الزّمان والعُصور، نزين به كتابنا، ونكرر ذكْرَ ما قالته في دمشق، قولها:

نَزِّهِ الطَّرفَ في دمشقَ ففيْها ... كلُّ ما تَشْتَهي وما تَخْتَارُ
هيَ في الأرضِ جنَّةٌ فتأمَّلْ ... كيفَ تَجْري من تحتِها الأنهارُ
كم سَمَا في ربوعها كلُّ قَصْرٍ ... أشرقَتْ من وجوهِهَا الأقمارُ
وتُنَاغِيْكَ بينها صادِحَاتٌ ... خَرِسَتْ عند نطْقِها الأوتَارُ
كُلُّهَا روضةٌ ومَاءٌ زلالٌ ... وقُصورٌ مشيْدةٌ وَديَارُ[3]

* ولعائشة باعٌ طويلٌ في جميعِ ألوان الشِّعر وأشكاله، فقد أجادت نَظْمَ

---

(١) انظر: الكواكب السَّائرة في أعيانِ المئة العاشرة للغزي (١/ ٢٩١).
(٢) وهو من الكتُب النفيسة الشَّاملة لتاريخ دمشق.
(٣) انظر: منتخبات التواريخ لدمشق للحصني (ص١٢٠٣)، وانظر: الكواكب السائرة للغزي (١/ ٢٩٢)، وشذرات الذهب (١٠/ ١٥٩)، وأعلام النساء (٣/ ١٩٧)، وشاعرات العرب (ص٢٣٢).

فنون الشّعر كاملة، وأبدعتْ في ذلك أيّما إبداع، وأظهرتْ من سِحْرِ بلاغتها ما يَسْحَرُ الألباب، ومن شعرها في الغزل قولها:

كأَنَّما الخَالُ تَحْتَ القُرطِ في عُنُقٍ ... بَدَا لنَا مِنْ مُحيًّا جَلَّ مَنْ خَلَقَا
نَجْمٌ غَدا بعمودِ الصُّبْحِ مُسْتَتِراً ... خَلْفَ الثُّريا قُبَيْل الشَّمْسِ فاحْتَرَقَا[1]

* ومن شعرها قولُها في جسْرِ الشَّريعة لما بناه الملك بَرْقوق بيتان هدَّما كثيراً مما شيّدهُ فحول الشّعراء منَ البيوتِ وهما:

بَنَى سُلْطَانُنَا بَرقُوقُ جِسْراً ... بِأَمْرٍ والأَنَامُ لَهُ مُطِيْعَةْ
مَجَازاً فِي الحقيْقَةِ للبَرَايَا ... وأمْراً بالمرورِ على الشَّرِيْعَة[2]

* ومَعِيْنُ عائشة الباعونية الشِّعْري ثَرٌّ غزيرٌ لا يَنْضَبُ، ومعارفها الدِّينية غزيرةٌ أيضاً، فهي واسعةُ التَّبحُّر في المذاهب الأربعة: الحنفيّ، المالكيّ، الشّافعيّ، والحنبليّ، ومن كثرةِ ما لها من العِلْم والفَهْمِ والاطلاع وسرعةِ الجواب، ذلكم السُّؤال الذي يدلُّ على سرعةِ البديهةِ وحضورها، فقد سألَها سائلٌ نظماً عن وَطءِ النَّائمةِ فقال:

ما قَولُك يا ستَّنَا العَالِمه ... في رجُلٍ دبَّ على نَائِمه
تَفَتَّحَتْ تحسبُه بَعْلَها ... وهيَ بما لَذَّ لها رائِمه
فاستَيْقَظتْ فأبْصَرتْ غَيْره ... عضَّتْ على إصْبُعِها نادِمَه
فهلْ لَها مِنْ فَتْوةٍ عندكُمْ ... مأجُورة مِنْ ذاكَ أمْ آثِمه

---

(١) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص٢٩٣).
(٢) الدّرُ المنثور (ص٢٩٣)، ويبدو لي أنَّ مؤلفةَ كتاب الدّر المنثور في طبقات ربّات الخدور قد وهمتْ في نسبةِ هذيْن البيتين لعائشة الباعونية من عدّة وجوه منها: أنَّ برقوق قد أمر ببناء جسر الشريعة بطريق الشام في سنة (٧٨٢ هـ)، وكان طول هذا الجسر (١٢٠) ذراعاً وانتفع به الناس، ومنها أن السَّلطان برقوق هذا قد مات على فراشه بالقَاهرة سنة (٨٠١ هـ) وفي هذا التاريخ لم تكن عائشة الباعونية قد وُلدت فضلاً عن امتداحها السّلطان برقوق.
ولكن قائل هذين البيتين هو شمسُ الدِّين محمد المزيّن. انظر (شذرات الذهب ٩/١٧) طبعة دار ابن كثير المحققة.

فأجابته عائشة ـ رحمها الله ـ على البديهة قائلة:

قـالـتْ لكـمْ ستّكُـمُ العَـالِمـه ... أنـا لأَهْـلِ العِلْـمِ كـالخَـادِمَـه
أَنْقُـلُ مـا قَـالُـوا ومـا أَخْبـرُوا ... عــنِ التــي قــد نُكِحَــتْ نَـائِمَـه
الشَّـافِعـي قَـال لهـا أجْـرُهَـا ... ما لـم تكُـن فـي نكْحِها عَـالِمَـه
والمـالِكـي قـالَ أنـا فَتْـوَتـي ... مــأجــورةٌ فــي ذاكَ لا آثِمَــه
والحنفــي قــالَ أَتــى رِزْقُهــا ... فـي ظُلْمَـةِ الليـلِ وهـيَ حَـالِمَـه
والحنْبلـي قـال أنــا فَتْـوتـي ... فــي هــذِهِ النّكْحَــةِ كــالآثِمَــه
لــو لــمْ يكُــنْ لَــذَّ لهـا طَعْمُـه ... لانْتَهَضَــتْ مــن تحتِـه قـائِمَـه

وأشعارُ عائشة كلّها تدلُّ على ما آتاها اللهُ من فَصْلٍ في الخطاب، وتمكُّن من ناصيةِ في الكلام، وفيما يلي يتبين لنا مصداق ما قلناه.

المَـدَائـحُ النَّبويّـةُ وبَدَائـعُ مَدائِحِهَـا:

شهدَ القاصي والدَّاني لعائشة الباعونية في عُلوِ الكعب في مضمارِ المدائح النّبوية، فقد قالتِ الأديبةُ زينب يوسُف فواز عنها ما نصه: ولها ديوانُ شعرٍ بديعٍ في المدائحِ النّبوية كلُّه لطائف.

وقالت أيضاً: ومن نظمِها قصيدتُها «البديعيّة» التي سارتْ بذكرها الرّكبان، وفاقتْ بمعانيها على الصَّفي[1] وابن حجّة[2]، وسائر أهل البديع

---

(١) «الصَّفي»: صفي الدِّين الحليّ، واسمه عبد العزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم السّنبسي الطّائي، وُلد في الحلّة سنة (٦٧٧ هـ)، ونشأَ بها، وتعددتْ رحلاتُه إلى الشَّام ومصرَ وماردين، وغيرها بحكمِ اشتغاله في التّجارة، وانقطعَ مدّة إلى أصحابِ ماردين، فتقرَّبَ من ملوكِ الدولة الأرتقية، كما مدح السّلطان النّاصر بالقاهرة. وتوفي ببغداد في سنة (٧٥٠ هـ) وله ديوان شعر كبير مطبوع مراراً.

(٢) «ابن حجّة»: تقي الدّين أبو بكر بن علي بن حجَّةِ الحموي الأديبُ البارع الحنفي شاعر الشّام المعروف بابن حجّة، ولد بحماةَ في سنة (٧٧٧ هـ)، ونشأَ بها، وحفظ القُرآن الكريم، وطلبَ العِلمَ، وسافر إلى دمشقَ ومدحَ أعيانها، واتّصل بخدمةِ نائبها الأمير شيخ المحمودي، ثم صحبه إلى القاهرة، ومدحه وأصبح شاعر العصر.
=

وذوي العرفان، ولها عليها شرحٌ بديعٌ سمَّته «الفتحُ المبينُ في مدحِ الأمين» نظمتها على منوال بديعية[1] تقي الدِّين بن حجّة، مع عدم تسمية النّوع تمسّكاً بطلاقةِ الألفاظ، وانسجام الكلمات، وشرحتها بشرحٍ مختصرٍ، أسفرت فيه عن لسان البيان، بقدْرِ الطّاقة والإمكان[2].

* وأجدني هنا أقفُ وقفةً مفيدةً ـ إنْ شاءَ الله ـ أستعرضُ بها تاريخ المدائح النّبوية في الأدبِ العربي، وكيف سارَ كبارُ الشُّعراء على هذا المنوال ـ الذي بدأَ به الشَّرف البُوصيري[3]، صاحب البردة المشهورة ـ ولما يَنْتَهِ بعد، إذ ما يزال كثيرون ينسجون على منواله وآثاره.

* فقد تزاحمَ الشُّعراء منذ القديم على البردةِ، وتسابقوا في معارضتها؛ وتنافسوا في النَّسج على منوالها؛ وتُعَدُّ البردةُ من أطولِ المدائح النّبوية في

نظم بَديعيته المشهورة، وشرحَها شرحاً حافلاً عديم النّظر، وجمعَ مجاميعَ أخرى مخترعة، ولما توفيَ الملكُ المؤيد حَسَده شعراءُ مصرَ، وتسلّطوا عليه، وهجوه، ولا زالوا به حتّى خرجَ من مصر، وسكنَ موطنه حماة، وماتَ بها في (١٥) شعبان من عام (٨٣٧ هـ) ـ رحمه الله ـ.

(١) البديعية أن تكون القصيدة في مدحِ الرسول ﷺ ولكن كل بيت من أبياتها يشيرُ إلى فنٍّ من فنونِ البديع.

(٢) انظر: الدر المنثور (ص٢٩٣).

(٣) «البوصيري»: صاحب البُردة أبو عبد الله شرف الدِّين محمّد بن سعيد بن حمّاد الدِّلاصي المولد، المغربي الأصل، البُوصيري المنشأ، نسبة إلى «بُوصير» من أعمال بني سويف، لأنَّ أمّه منها، وُلد في بهتيم يوم الثلاثاء أول شوال سنة (٦٠٨ هـ) ونشأَ في دلاص، وبرعَ في النظم، كان شاعراً ظريفاً، ومَنْ سَبَرَ شِعْره عَلِم مزيّته، وأشهر شعره البردة، والهمزية، وعارض قصيدة «بانت سعاد»، توفي البُوصيري بالإسكندرية في سنة (٦٩٦ هـ) وقيل سنة (٦٩٥ هـ)، وما أحسن قوله في افتتاح ديوانه:

كَتَبَ المشيبُ بأبيضٍ في أسود ... بقضاءِ ما بيني وبين الخُرَّد

(الوافي بالوفيات ٣/ ١٠٥ ـ ١١٣)، و(شذرات الذهب ٧/ ٧٥٣ و٧٥٤).

عالمَ المدائح، إذ تبلغُ أبياتها (١٦٠) بيتاً، وهي أشهر ما مُدِحَ[1] به الحبيب الأعظم محمّد ﷺ منَ الشِّعر.

* ولقد نُسِجَتْ حولَ البردةِ حكاياتٌ وقَصَصٌ ومناماتٌ، وقامتْ على جوانبها خرافاتٌ وخرافات، وتقرّبَ بها المنشدون، وتبارى في إنشادها أصحابُ الأصوات الجميلة، واستشفعَ بها واستشفى كثيرون، وتبارى في كتابتها أشهر الخطّاطين في دنيا الخطّ في مشرقِ البلاد الإسلاميّة، وفي مغربها، وذَهَّبُوها، وتفنَّنوا في إبرازِ براعتهم بكتابتها. ومن هنا كانتْ شُهرتها، ومن هنا أقبل عليها الشّعراء حفظاً ومعارضةً، وتخميساً وتشطيراً وغير ذلك من ألوانِ البديعِ وفنونِ القول.

* أمّا سببُ نَظْمِ البُردة وما رافقه من تأويلات، فقد تحدَّثَ البوصيري نفسه عن سببِ نظمه للبردة فقال: كنتُ قد نظمتُ قصائدَ في مدحِ رسول الله ﷺ، منها ما كان اقترحه عليَّ الصَّاحب زين الدِّين يعقوب بن الزُّبير، ثمّ اتّفق بعد ذلك أنْ أصابني فالجٌ أبْطلَ نصفي، ففكّرتُ في عَمَلِ قصيدتي هذه، فعملتُها واستشفعتُ بها إلى الله تعالى في أنْ يعافيني، وكررتُ إنشادها،

(١) إنَّ أولَ ما مُدحَ به النَّبيُّ ﷺ قصيدة الأعشى، واسمه: ميمون بن قيس من شعراءِ الطَّبقة الأولى في الجاهلية، أدركَ الإسلامَ ولم يُسْلم، ومات سنة (٧ هـ) مدحَهُ بقصيدةٍ مطلعها:

أَلَـمْ تغتمـضْ عينـاكَ ليلـةَ أرْمَـدا ... وبـتّ كمـا بـاتَ السَّليـمُ مُسَّهـدا

ثم نظم الشُّعراء في حياةِ النَّبيِّ ﷺ كثيراً منَ القصائد التي جَرَتْ على ألْسُن شُعراء الإسلام، كحسَّانِ بنِ ثابت ـ رضي الله عنه ـ، وحظيتْ لاميّةُ كعب بن زهير «بانَتْ سُعاد» بشهرةٍ واسعةٍ لم تحظَ بها قصيدة في عَصْر النّبوة.

وقد تتابع الشّعراء في الإسلام على الثّناء والمدح لأهلِ البيتِ عامّة وللنّبي ﷺ خاصة. فقد نظم الكميتُ وغيره في مدحِ أهلِ البيت، لكنَّ النظمَ في مدح رسول الله ﷺ والثناء عليه، وخصّه بالقصائد الطوال تقرّباً إلى الله، وتعبّداً، وإشباعاً للجانب الروحي، إنّما شاعَ في العُصُور المتأخرة، وأثمر وأينعَ وشاع في العصر المملوكي حين نظم فيه: صفي الدين الحلي، والبوصيري، وغيرهما، وحينئذ تابعهما على ذلك شعراء العربية والإسلام إلى يومنا هذا.

ودعوتُ وتوسلتُ، ونمتُ فرأيتُ النَّبيَّ ﷺ فمسح على وجهي بيدهِ المباركة، وألقى عليّ بردةً، فانتبهتُ ووجدتُ فيَّ نهضةً، فقمتُ، وخرجتُ من بيتي، ولم أكنْ أعلمتُ أحداً بذلك، فلقيني بعضُ الفُقراء فقال لي: أريدُ أنْ تعطيني القصيدة التي مدحتَ بها رسولَ الله ﷺ.

فقلتُ: أيُّها؟

فقال: التي أنشدتَها في مرضك، وذكَر أوّلها؛ وقال: واللهِ لقد سمعتُها البارحة وهي تُنْشَدُ بين يدي رسولِ الله ﷺ، ورأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يتمايلُ وأعجبته، وألقى على مَنْ أنشدها بردةً، فأعطيته إياها، وذكر الفقيرُ ذلك وشاعَ المنام.

* ومن هنا، حلَّقتِ البردةُ في سَماءِ الشُّهرةِ في البلدانِ الإسلاميّة، وأضحتْ عند الأدباءِ وشداةِ المعرفة كالشّمس في رابعةِ النَّهار؛ وتُعدُّ البردةُ أوّل ما نُظِمَ منَ المدائح النّبوية التي تستهدفُ ذكْرَ صفاتِ النّبي ﷺ، وشمائِله، ودحضِ أقاويلِ أعدائه، وبيانِ فَضْله على الأنبياء والرُّسِل، وسائر الخلق أجمعين.

* ولم يسبقِ البُوصيري إلى هذا الفنّ المتكامل أحدٌ، ذلك أنَّ طابع المدائح قبل البُوصيري كان طابعَ المديح النّبوي مع ذكْرِ شيءٍ من صفاتِهِ ﷺ. ومن هنا كَثُرت معارضات الشّعراء والشّاعرات للبردة، وقد تتابع الشّعراء على محاكاة البردة، والنّسج على منوالها حتى بلغَ مِنْ تزاحمهم عليها أنْ أمسى حصرهم غير يسير(١).

* ومن الجدير بالذّكْرِ هنا أنّه تبدّى لنا أنَّ البُوصيري قد تأثّر بميميةٍ جميلةٍ

(١) أحصى أحدُ الباحثين أنّه قد وجدَ ما يزيد على مئةِ معارضة للبردة، وقال: ما أحسبني حصرت إلا القليل.
أقول: وقد خَمَّسَ هذه البردة أكثر من تسعينَ شاعراً، وبعضها مطبوع متداول بين الناس، وممن خمَّس هذه البردة شاعرتنا وضيفة حلقتنا عائشة الباعونية ـ رحمها الله ـ وسنقرأ بعضاً منها في ترجمتها.

سبقَتْ عصره بأكثَر من نصفِ قرن من الزّمن، هذه الميمية شَدَا بها ابنُ الفَارض[1] قبل البُوصيري بزمنٍ طويل؛ ويبدو لي أنَّ البوصيري قد سمعَ وقرأَ وحفظَ ميمية ابن الفارض فتأثَّر بها، وأُعجِبَ بمعانيها، فَنَحا نحوها في البحرِ والقافية، بل في كثيرٍ منَ الألفاظ والمعاني، ومن المُعتقد أنَّ البُوصيري قد تتبَّع أنْفَاسَ ابن الفارض، وتنسَّمَ أريجَ أبياتِهِ، فإذا به يعارضُه في ميميته، فيبلغُ السُّها، ويَسْحَرُ الألباب، وينسى النّاس ابنَ الفارض،

(١) «ابن الفارض»: شرفُ الدِّين عمر بن علي بن مرشد الحموي الأصل المصري، يكنى بأبي حفص، ويُعرف بابن الفارض لاشتهار أبيه بإثبات فروض النّساء على الرّجال، قال المناوي المتوفى سنة (١٠٣١ هـ): ابن الفارض الملقب في جميع الآفاق بسلطان المحبين والعشّاق، والمنعوت بين أهل الخلاف والوفاق، بأنّه سيّد شعراء عصره على الإطلاق. وُلد ابن الفارض في ذي القعدة سنة (٥٧٦ هـ) بالقاهرة، ونشأَ تحت كنف أبيه في عفَافٍ وصيانة، وعبادةٍ وديانةٍ، بل زُهْدٍ وقَناعةٍ، وورعٍ أسْدلَ عليه لباسه وقِناعه، ثم حُبِبَتْ إليه طرق الصّوفية، فأوغل فيها، فتزهّدَ وتجرّد، وكان يرتاد المساجد المهجورة في خرابات المقابر، حتى أَلِفَ الوحشة وألفه الوحش، وذهب إلى مكة في غيرِ أشهر الحج وأقام بها نحو (١٥ سنة) ثم عاد إلى مصر، فكان له الحظوة عند حكامها؛ ولابن الفارض قصائد حسنة، وقد اختُلِفَ في شأنه واعتقاده. ورؤي في النوم فقيل له: لِمَ لا مدحتَ المصطفى ﷺ في ديوانك؟ فقال:

أرى كـلَّ مَـدْحٍ فـي النّبـيِ مُقصِّـرا ... وإنْ بـالـغَ المثنـي عليـهِ وكثّـرا

إذا اللهُ أثنـى بـالـذي هـو أهلُـه ... عليـهِ فما مقـدارُ مـا يمـدحُ الـورى

وأراد بقوله: «أثنى بالذي هو أهله»: إشارة منه إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ويقال: إنّه لما نظم قوله:

وعلـى تَفَنُّـنِ واصفيـهِ بحسنـهِ ... يفنـى الزّمـانُ وفيـهِ مـا لـم يُـوصـفِ

فرحَ فرحاً شديداً وقال: لم يُمدَحْ ﷺ بمثله.

لابن الفارض ديوانٌ مطبوع، وتوفي في جمادى الأولى سنة (٦٣٢ هـ) بمصر، وعمره (٥٦ سنة)، ودُفن بالمقطم. (وفيات الأعيان ٣/ ٤٥٤ ـ ٤٥٦) و(شذرات الذهب ٧/ ٢٦١ ـ ٢٦٨).

حيث شغلتهم ميميةُ البوصيري عنها؛ ولكي نعرف مدى تأثّر البوصيري بابن الفارض نقرأ ما قال ابنُ الفارضِ في مطلعِ قصيدته:

هَـلْ نَـارُ لَيْلَـى بَـدَتْ لَيْـلاً بِـذي سَلَـمِ
أمْ بَـارِقٌ لاحَ فَـي الـزَّوْراءِ فَـالعَلَـمِ
أَرُوحُ نعْمَـانَ هـلاّ نسمـةٌ سَحَـراً
وَمَـاءُ وَجْـرةَ هَـلا نَهْلَـةً لَظَـمِ

وممّا يقابل معاني ابنَ الفارض وألفاظَه في هذا المطلعِ لدى البُوصيري في بردته حيثُ يقول في مطلعها:

أَمِـنْ تـذكُّـرِ جِيـرَانٍ بِـذي سَلَـمِ
مَـزَجْـتَ دَمْعـاً جَـرى مـنْ مُقْلَـةٍ بِـدَمِ
أمْ هَبَّـتِ الـرِّيـحُ مِـنْ تِلْقَـاءِ كَـاظِمَـةٍ
وأوْمَـضِ البَـرْقُ فـي الظَّلمـاءِ مـنْ إِضَـمِ

ويقول ابنُ الفارض:

يـا لائِمـاً لامَنـي فـي حُبِّهـم سَفَهـاً
كُـفَّ المـلامَ فَلـو أَحْبَبْـتَ لَـم تُلَـمِ

نجدُ البوصيري يقابل هذا المعنى بقوله:

يَا لائِمي في الهَوى العذْريّ مَعْذِرةً　　منّي إليكَ ولو أنْصَفْتَ لم تُلَمِ

ونقرأُ من قصيدةِ ابن الفارض قوله:

طَوْعاً لقَاضٍ أتى في حُكْمه عَجباً　　أفْتَى بسَفْكِ دمي في الحلِّ والحَرمِ
أَصَمّ لم يَسْمعِ الشّكْوى وأبْكَم لَمْ　　يحِرْ جَواباً وعَنْ حَالِ المشوقِ عَمِي

فيتابِعُهُ البُوصيري بقوله:

عَـدتْـكَ حَـالـي لا سِـرّي بمُسْتَتـرٍ　　عـنِ الـوشَـاةِ ولا دَائـي بمنْحَسِـمِ
مَحضْتَنِي النُّصْحَ لكنْ لَسْتُ أسْمَعُهُ　　إنَّ المحبَّ عنِ العُذَّال في صَمَمِ

ولكنَّ قصيدةَ البوصيري هي التي اشتهرتْ، حيثُ فيها أمْشَاجٌ منَ الأغراضِ، بدأَه بالنَّسيب، ثمّ التّحذير من هوى النَّفس، ثم مَدْح النّبي ﷺ، وعن مولدِهِ ومعجزاتِه وذكْرِ القرآن الكريم، والإسراءِ والمعراجِ، والجهادِ

والتّوسُّلِ والمناجاةِ، بيد أنَّ هدفَها هو مدحُ النَّبيِّ ﷺ.

* لذلك لم تَحْظَ قصيدةٌ في الأدبِ العربي بمثلِ ما حظيتْ به البُردة، ولا توجد قصيدةٌ في الأدب العربي قد أَقبل عليها الخاصّةُ والعامّة، ورجالُ الأدب والدِّين بمثل ما أقبل عليها؛ فقد أقبل عليها المسملون حفْظاً ودراسةً ومعارضةً، وأُولِعَ بها الصُّوفيون ولَعَاً شديداً، وأمّا العامّة فقد أخذوا يرددونها في كلِّ مناسبة، يتغنون بها وينشدونها ويعقدونَ لها المجالسَ والحِلَق في المساجدِ، وفي النَّدوات الأدبيّة والعلميّة وما شابه ذلك.

* لقد تتابعَ الشُّعراء في مختلفِ العصورِ على العناية بالبردة، تضميناً، وتشطيراً، وتخميساً، وتسبيعاً، وغير ذلك.

* ولعلَّ تشطيرَ البردةِ أكثرُ منْ أنْ يُحصى، ومنه تشطير الشَّاعر «رمضان حلاوة» حيث قال في مطْلَع تشطيره:

[أَمِـنْ تَـذكُّـرِ جيـرانٍ بـذي سَلَـم] لَبِسْتُ ثَوباً مِنَ الأَشْواقِ والأَلَمِ

أمْ منْ عيونِ ظباءِ بالعَقِيقِ بَدَتْ [مزجتَ دمعاً جرى منْ مُقلةٍ بدم]

* وأمَّا التّخميسُ فقد شَغَل كثيراً منَ الشُّعراء، وأجادوا في هذا المضمار، وعددُهم لا يكادُ يُحْصَرُ، ففي كلِّ عَصْر نَجدُ عشرات ممن تصدّى لتخميسِ البردة. ومن الجدير بالذّكر أنّ كثيراً من الشُّعراء المغمورين قد خمّسوا البردة، وأبدعوا في تخميسهم للبردة. وقد خمّسَ البردة ناصر الدِّين الفيومي، وأوّل قصيدته:

مـا بَـالُ قَلْبِـكَ لا ينْفَـكُّ ذَا أَلَـمِ مُذْ بانَ أهلُ الحِمَى والبَانِ وَالعَلَمِ

وانهلَّ مَدْمَعُكَ القَاني بمنْسَجمِ [أَمِـنْ تـذكُّـر جيْـرَانٍ بـذي سَلَـمِ

مزجتَ دمعاً جرى من مُقْلَةٍ بدَمِ]

* وأمَّا ضيفتنا عائشة الباعونية، شاعرةُ البليغات، وبليغة الشّاعرات، فقد أخذتْ بردةَ البُوصيري رقعةً كبيرةً من شِعْرها، وراحت تُظْهِر ما أوتيتْ من بلاغةٍ، وما حبَاهَا اللهُ من فصاحةٍ، فأخذتْ تتفنّنُ في تخميسِ البردة بكلّ ألوانِ البديعِ، وأطلقت على عملها هذا اسم: «القول الصَّحيح في تخميسِ بردة المسيح» وقالت في مطلعها:

كَتَمْتُ وَجْدي فَأَضْحى غَيْر مُكْتَتِمٍ   بمـدمـعٍ عَنْـدَمـيِّ اللّـونِ مُنْسَجِـمِ
وقالَ صَحْبي وَوَجْدِي صَار كالعَلَمِ   [أَمِـن تَـذَكُّـر جيـرانٍ بـذي سَلَـمِ
مزجتَ دمعاً جرى من مُقْلةٍ بدمِ]

أَم مـنْ لـواعـجِ أشـواقٍ مُـلازمـةٍ   أَم منْ شجونٍ هوىً بالقَتْل حَاكمةٍ
أم منْ سيوفِ ملامٍ فيك كَالمةٍ   [أم هبَّتِ الرّيحُ منْ تلقاءِ كاظمةٍ
وأومضَ البرقُ في الظَّلماء مِنْ إِضَمِ]

أزْكى صَلاةٍ تُنِيْل القَصْدَ والطَّلَبا   منَ الوفاءِ تؤدي بَعْضَ ما وَجَبا
وتُشْهِـدُ العَبْـدَ مـنْ أَلْطَـافـهِ عَجَبـا   [ما رنَّحتْ عذبات البانِ ريح الصَّبا
وأطربَ العيسَ حادي العيسِ بالنَّغمِ]

وفي العصرِ الحديث برعَ شاعرٌ يُسمى السَّيد عبد اللطيف الصَّيرفي في تخميسِ بردة البوصيري، وقد اطَّلَعْتُ على ديوانِهِ المطبوع في مصر، واخترتُ مطلعَ تخميسه حيثُ قال:

مَالي أَراكَ أَخَا الإِيْنَاسِ والسَّلَمِ   أَصْبَحْتَ للهمِّ والأفْكَارِ فَي سَلَمِ
ومَـا لمنْسَكـبِ الأَجْفَـانِ كـالسَّلَـمِ   [أَمِـنْ تـذكُّـر جَيْـرَانٍ بـذِي سَلَـمِ
مزجتَ دمعاً جرى منْ مُقْلَةٍ بدَمِ]

أمْ طارَ نومُكَ منْ ورقاءِ سَاجِعَةٍ   غَنَّتْ فَهَامَتْ بنَفْسي منك هائمةٍ
وليستِ النَّفْسُ من هَمٍّ بكاظمةٍ   [أمْ هَبَّتِ الرِّيحُ منْ تلقاء كاظمةٍ
وأومضَ البرقُ في الظّلماءِ منْ إِضَمِ]

وأمّا تَسْبيعُ البردةِ فقد تبارى فيها الشُّعراء أيضاً، وممن سَبَّعَها: شِهابُ الدِّين أحمد بن عبد الله المكيّ، وأوّل تسبيعه قوله:

اللهُ يَعْلَـمُ كَـمْ بـالقَلْـبِ مِـنْ أَلَـمِ   ومنْ غَرام بأَحْشَائي ومنْ سَقَمِ
على فِراقِ فريقٍ حَلَّ في الحَرمِ   فَقُلْـتُ لمّـاً هَمَـى دَمْعي بمُنْسَجِمِ
علـى العَقيـقِ عقيْقـاً غيـر مُنْسَجِـمِ   [أَمِـنْ تـذكُّـرِ جيـرانٍ بـذي سَلَـمِ
مزجتَ دمعاً جرى منْ مقْلةٍ بِدمِ]

أمّا معارضاتُ البردةِ فلا تكادُ تُحصر، ولعلَّ السَّببَ في هذا لِمَا في البُردة منْ أمثالٍ وحكَمٍ وأدعيةٍ، وسردٍ لكثيرٍ من صفاتِ النَّبي ﷺ وما فيها من

أخباره، ناهيك بمجالس الصُّوفية التي جعلت من البردة نشيداً لها.

* ومن هنا تبلورتْ معارضاتُ البردةِ في المشرق وفي المغرب، وكثُرتْ بحيث يتعذَّر على الباحث أنْ يحصيَها أو يحصرها بين دفتي كتاب.

* ولعلَّ من أوائلِ الشُّعراء الذين عارضوا البردة ابنُ جابر الأندلسيّ[1] الذي افتتنَ بفنِّ البردة، وهامَ بها حبّاً، فشغل نفسه بمعارضتها، وابتكرَ فنّاً جديداً هو فنُّ «البديعيات» وذلك بأنْ تكونَ القصيدة في مَدْحِ رسولِ الله ﷺ، ولكنْ كلُّ بيتٍ من أبياتها يشيرُ إلى فنٍّ من فنون البديعِ، وعدد أبيات بديعيته (١٢٧) بيتاً، وتمتاز هذه البديعية بأنَّ ابنَ جابر قد فَصَلَ بين ألوان البديع اللفظية والمعنوية، ولم يخلطْ بينهما، كما نحّى المسائل المتعلقة بباب علْمِ البيان عن بديعيته، وأول بديعيته قوله:

بِطِيْبَـةَ انـزِلْ ويَمِّـمْ سَيِّـدَ الأُمَـمِ وانْشُرَ له المدْحَ وانثُرْ أَطْيَب الكَلِمِ

ومنها:

أَمَّا مَعَانِي المعَاني فهيَ قَد جُمِعَتْ فـي ذَاتِـهِ فَبَـدتْ نَـاراً علـى عَلَـمِ
كالبَدْرِ في شِيَمٍ والبحرِ في دِيَمٍ والزَّهْر في نَغَمٍ والدَّهر في نِقَمِ

* وهذه البديعيةُ الحسناء قد شرحَهَا صديقَه أحمد بن يوسُف أبو جعفر الإلبيري المتوفى سنة (٧٧٩ هـ)، وأثنى عليها بقوله: نادرةٌ في فنّها، فريدةٌ في حسنها، تجني ثَمرَ البلاغة من غصنها، وتنهلُ سواكبَ الإجادة منْ

(١) «ابن جابر»: محمّد بنُ أحمدَ بن علي بن جابر الأندلسيّ أبو عبد الله الهواري المالكي النحوي الأعمى، رفيق أبي جعفر الرُّعيني، وهما المشهوران بالأعمى والبصير. وُلد ابن جابر سنة (٦٩٨ هـ) ونشأ على حبّ العلم وقرأ القرآن وتعلم النحو، ودرس الفقه على أساتذه عصره، ورحل إلى مصر، ثم الشّام، واستوطن حلب، ثم رجع إلى الأندلس. ولابن جابر تصانيف ممتازة منها: شرح الألفية لابن مالك، وبديعية نظمها عال، كما له مصنفات أخرى.
عمر ابن جابر حتى تجاوز الثّمانين، وفي سنة (٧٨٠ هـ) توفي في البيرة وعمره (٨٢ سنة).
(الدر الكامنة ٣/ ٣٣٩ و٣٤٠)، و(شذرات الذهب ٨/ ٤٦٢) مع الجمع والتصرف.

مُزْنِها، لم يُنسجْ على منوالها، ولا سمحتْ قريحةٌ بمثالها.

* وممنْ عارضِ البردة أبو بكر تقيّ الدِّين الحموي، حيثُ أنشأَها في (١٤٢ بيتاً)، وهي منَ البديعيّات المشهورة، وشَرْحُها من أمْتَعِ الشُّروح، قال في مطلعها:

لِيْ في ابْتِدا مَدْحِكُمْ يا عُرْبَ ذِي سَلَمِ
بـرَّاعـةٌ تَستهِـلُّ الـدَّمْـعَ فـي العَلَـمِ

ومنها:

جَمْعُ الكَلام إذا لم تَفْنَ حِكْمَتُه وجُودُه عِنْدَ أَهْلِ الذَّوقِ كالعَدَمِ
واللهِ مـا طَـالَ تَـذْيِـلُ اللقـاءِ بِهـم يا عاذلي وكفَى باللهِ في القَسَمِ

* وعارَض بردةَ البُوصيري كذلك الشَّاعر الشَّهير صفي الدِّين الحلّي، ومعارضته مشهورة ومثبتة في ديوانه[1]، وسمَّاها: «الكافية البديعيّة في المدائحِ النّبوية»، ويبدو أنَّ صفيَ الدِّين الحلّي هذا، قد راقَه منامُ البُوصيري، وراقتْ له أحداثُه، فَنَسَجَ بديعيته حسب رؤيا رآها ـ كما زعَم ـ وخلاصة ذلك: أنّه قد عزمَ على تأليفِ كتاب في البديع يكون شاملاً، فاعترتْهُ علّةٌ برّحَتْ به، وأوهنتْ قوّتَه، فرأى في المنام رسالةً منَ المصطفى ﷺ يدعوه فيها إلى مدحه!! فعَدَل عن تأليفِ الكتاب، ونظمَ هذه البديعيّة التي أنشأَها من (١٤٥) بيتاً، وتشتملُ على (١٥٠) نوعاً من البديع؛ وجعل كلّ بيتٍ منها مثالاً شاهداً لذلك النوع، وربما اتفق في البيت الواحد نوعان أو ثلاثة بحسب انسجام القريحة في النّظم، وقد وصفَ الحلي بديعيته بقوله:

* وألزمتُ نفسي في نظمها عدمَ التكلّف، وترك التّعسّف، والجري على ما أخذت به نفسي من رقّة اللفظِ وسهولته، وقوة المعنى وصحته، وبراعةِ المطلع والمترع، وحسن المطلب والمقطع، وتمكّن قوافيها، وظهور القوى فيها، بحيث يحسبها السّامع غفلاً من الصَّنائع.

---

(١) طبعة دار صادر ببيروت عام ١٩٦٠م.

ثم إنّه قال: فانظرْ إليها أيّها النّاقدُ الأديبُ، والعالِمُ اللبيبُ، إلى غزارةِ الجَمْعِ ضمن الرّياقة في السَّمْع، فإنّها نتيجةُ سبعين كتاباً لم أُعِدْ منها باباً، فاستغنِ بها عن حشو الكُتُب المطوّلة، ووعْرِ الألفاظ المغلقة:

وَدَعْ كُلَ صَوْتٍ غَيْرَ صَوتي فَإنَّني أَنا الطَّائِرُ المحْكِي والآخرُ الصَّدى

وأعوذُ باللهِ مِن أنْ أكون ممن زكّى نفسه، أو مدح نفسه وحدسه. ثم إنَّ صفي الدين بدأ بديعيته بهذا المطلع فقال:

إنْ جئْتَ سَلْعاً فَسَلْ عنْ جيْرةِ العَلَمِ
واقْرَ السَّلامَ على عُرْبٍ بذي سَلَمِ

ومنها قوله:

فقد ضَمِنْتُ وجودَ الدَّمع مِنْ عَدَمٍ لهم ولم أَستطِعْ مَعْ ذَاك مَنْعَ دَمي

أبيتُ والدّمْعُ هَامٍ هَامِلٌ سَرِبٌ وَالجِسْمُ في أَضَم لحم على وضَمِ

* وممن تصدّى لمعارضة بردةِ البُوصيري، وبردة صفي الدين الحلي، ذلك الفحل الشّاعر زين الدين شعبان بن محمّد القرشي الآثاري الموصلي أصلاً ومولداً، المصري داراً ومدفناً[1]، وقد نُسِبَ للآثار النّبوية الشّريفة لأنّه كان خادمُها، وإلى هذا أشار في قوله من بديعيته الكبرى:

لأنَّني خَادِمُ الآثَارِ لي نَسَبٌ أرْجُو بِهِ رحْمةَ المَخْدومِ للخَدَمِ

وللآثاري ثلاثُ قصائد بديعيات: صغرى، ووسطى، وكبرى، فالصُّغرى سمّاها «بديع البديع في مديح الشّفيع ﷺ»، وتقع في (١٦٠) بيتاً نظمها عام (٨١٠ هـ)، وقالَ في مقدمتها الطويلة، بعد أن حمِدَ الله وأثنى عليه وصلى على النَّبي الكريم:

أمّا بعد؛ فهذه قصيدةٌ بديعيةٌ في علْمِ البديع، مدحتُ بها حضرة الجنابَ الرّفيع، عارضتُ بها مَنْ عارضَ من أهلِ الحلّة، وهو عبد العزيز بن سَرايا، لكنْ فاقتْ على قصيدته بما فتحَ اللهُ به من مزيد العطايا، لأنّه تكلَّم في عِلْمِ

---

(١) ولد الآثاري سنة (٧٦٥ هـ) ومات سنة (٨٢٨ هـ) وعمره (٦٣) سنة؛ (شذرات الذهب ٩/ ٢٦٧).

البديع بالغريب، وسكتَ عن مهمّات لو ظفرَ بها لأتى بالعجيب، فخالفَ في ترتيبه، ولم ينصحْ في تركيبه، وادعى أنّها بنْتُ سبعينَ كتاباً من كتُبِ المعاني والبيان، مع ما فيها من الزّيادة والنّقصان؛ ثم مشى على منهاجه إلى وقتنا هذا عام (٨١٠ هـ) جيلٌ بعد جيل، اشتغلَ بهذا العِلْم، ومن ليس هو من هذا القبيل، فركبَ خطراً كبيراً، وأتعبَ بشَرَاً كثيراً:

وكُــلٌّ يــدَّعُــون وِصَــالَ ليْلَــى ... ولَيْلَــى لا تُقِــرُّ لهــم بِــذَاكــا

لكنَّ الطَّمعَ في رحمةِ بديع السَّموات والأرضِ، يعمّ الجميع بمدح الشَّفيع في دار الدّنيا ونهار العرض، فاستدركْ أيّها الطالب لغدِ ما فاتَكَ في أمْسِك، وإن شئتَ أنْ تحظى بنفع نفسك قبل يوم رمسك، فأمسكْ بديعةً مطيعةً سَهَّلَ الوضعُ حَمْلَها، ونافعةً جامعةً إنْ حواها أهلُ الأدبِ كانوا أحقَّ بها وأهلها:

تُدْعَى بَدْيعُ البديعِ منْ محَاسِنِها ... وفي مَديحِ الشَّفيعِ أَبْدَتِ العجَبا

تحتوي على خلاصةِ ما في المصنّفات منَ المحاسنِ والمفاخر، وتغني إنْ شاء الله عن تصانيف الأوائلِ والأواخر:

تُغْنِـي عـنِ المصْبَـاحِ فـي غَسَـقِ الـدُّجـى ... وبفَتْحِهـــا أَغْنَـــتْ عـــنِ المفْتَـــاحِ

* ثم يتحدّثُ الآثاري عمّا حباهُ الرَّسول ﷺ من إشارة في منامِهِ كانت وراء نظْم بديعيته:

وهَــذا بِحَمــدِ اللهِ بَعْــدَ إشَــارةٍ ... ظَفِرتُ بها في النَّوم مِنْ سَاكِنِ الحَرم

كَسَــانـي يَـدَاً بيضـاءَ منْـه تَفَضُّـلاً ... فأصبحتُ محْسوداً على فائضِ النِّعَم

أَتيْتُ بنظْمِ الدُّرِ في مَدْحِ أَحْمدٍ ... بمكــةَ جـاراً عنـد بيـتٍ ومُلتَـزم

وَيُسِّـرَ لـي مـا كـان قَبْـلُ مُعَسَّـراً ... فلـولا أيـاديـهِ لمـا عُـرِفَ الكَـرم

وَإلا فَلَيْسَ الأَمْـرُ سَهْـلاً لطـالـبٍ ... ودُونَكـمْ هَـذَا المـدادُ وَذَا القَلَـم

ثم إنَّ الآثاري يختمُ مقدمته بقوله: فأسأَلُ اللهَ الكريمَ الذي لا تنفعه الطّاعة، ولا تضرّهُ المعصية ولا الإضاعة، أن يهبَ مسيئنا لمحسننا، وأنْ يغفرَ لنا ما جَنتْهُ حصائد ألسنتنا، وأن يرفعَ بيننا، وأنْ يجمعَ بيننا، وأنْ

يجعلَها وسيلةً إلى شفاعةِ الرسول، وسبباً إلى بلوغِ المأمول، وأن يشملَها وناظمَها وقارئها بحسنِ القبول[1].

وقد افتتحَ الآثاري هذه القصيدة بقوله:

إنْ جِئْتَ بَدْرَاً فَطِبْ وانْزِلْ بِذِي سلَمِ
سلِّمْ على مَنْ سَبَا بَدْرَاً عَلى عَلَمِ

ومنها قوله:

فاحمدْهُ وامْدَحْهُ تَظْفَرْ بالأَمَانِ فَكَمْ ... لأَحْمَدَ المُصْطَفَى مِنْ حَامِدٍ بِفَمِ
هـذا نَبِيٌّ نَبِيْهٌ عَنْ شَرِيْعَتِهِ ... سَدَّ الرَّدَى ثُمَّ سَنَّ الشَّرْعَ للأُمَمِ

وفيها يذكر الخلفاء الراشدين الأربعة:

كَالبَدْرِ بَيْنَ نُجومٍ مِنْ صَحَابَتِهِ ... على سَحابَتِهِ قَدْ لاَحَ في الظُّلَمِ
محمَّدٌ وأَبو بَكْرٍ وَقُلْ عُمَرٌ ... عثْمانُ ثمّ عَليٌّ صَاحِبُ الهِمَمِ
صِدْقٌ وَصِدِّيْقٌ الفَاروقُ ثَالِثُهم ... ثُمَّ الشَّهِيْدُ مَعَ المَنْعُوتِ بالكَرَمِ

وختمها بقوله:

مَا قَصَّرَ الفِكْرُ في نَظْمِ البديع بَلَى ... قَصَّرْتُ في مَدْحِ خَيرِ الخَلْقِ كُلِّهِمِ
عليهِ أزْكى صَلاةٍ دائماً أَبَداً ... والآلِ والصَّحْبِ في بَدْءٍ ومُخْتَتَمِ

أما البديعية الوسطى فقد سماها الآثاري باسم: «بديع البديع في مدح الشفيع»، وصرح باسمها ضمن أبياتها حينما قال:

هَذَا بَدِيْعُ البَديعِ الْمَحْ مَحاسِنَهُ ... وفي مَديحِ الشَّفِيْعِ اذْكُرُه تَغْتَنِمِ[2]

وذكر بأنه نظمها ليلة النصف من شعبان في سنة (٨٠٧ هـ)، وعدد أبياتها (٣١٠) أبيات؛ وصدَّر هذه البديعية بمقدمة موجزة جداً قال إنه: يمدح النبي ﷺ مضمناً من معاني البديع ما قدر على الوصول إليه، ثم إنه بدأها بقوله:

---

(١) انظر: بديعيات الآثاري (ص١٩ ـ ٢٢) بشيء من الاختيار والاختصار.

(٢) انظر: بديعيات الآثاري (ص٩٤).

دَعْ عَنْكَ سلْعَاً وسَلْ عنْ سَاكِنِ الحَرمِ
وخَلِّ سَلمى وسَلْ ما فيهِ مِنْ كَرَمِ

واختتمها بقوله:

صَلَّى وسَلَّمَ ربّي دَائِماً أَبَداً عَلَيْهِ في مُبْتَدَا مَدْحي ومُخْتَتَمي

* وتقعُ بديعية الآثاري الكبرى في (٤٠٠) بيت، وسمّاها «العِقْد البديع في مديح الشّفيع»، وتعتبرُ أطْول بديعيةٍ عُرفت حتى تاريخ نظمها في شهر ربيع الأوّلِ سنة (٨٠٩ هـ)، وافتتحَ الآثاري بديعيته الكبرى بقوله: الحمدُ للهِ البديع الكلام، الرفيع المقام، أحْمَدُه على جليل نعمه، وأشكره على جليل كرمه.... ومنها: وأشهد أنْ سيّدنا محمّداً عبده ورسوله، المبعوث بين زمزم والحطيم، بالخَلْقِ الوسيم، والخُلُق العظيم، والقلب السّليم، والمنطق النّظيم، واللسان القويم، والفضل العميم.

* وأشارَ الآثاري بعد ذلك إلى أنَّه استخار اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ في نظم هذه البديعية فقال: فاستخرتُ الله تعالى في نظْمِ قصيدةٍ خَامِسَة[1]، تكونَ عُدَّة لأهلِ المناقشة والمنافسة، وعمدةً يُعتمدُ عليها في تحرير المسائل، وباذلةً يقفُ على أبوابها كلُّ طالبِ تقرير وسائِل، يتضوّعُ نَشْرها بينَ الأنام، وتقومُ في مقامِ المسكِ عند الختام، تستوعبُ من أصولِ الفصاحة والبلاغة أقصاها، بجمعٍ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، أضمِّنُها مهماتِ عِلْمِ البديع، وأضمّنها بمديح المليح الشَّفيع، إذا قرأها المبتدي يهتدي، وإذا طالعها المنتهي يشتهي أنَّه بها يقتدي... تكون كَنْزاً للحافظ، وحجةً في لسانِ اللافظِ، ومرشدةً للمُقرِي[2] والخطيب، ومعونةً للمفسِّر والأديب... جامعةً لأهلِ الأدب، نافعةَ المعاني بتيسير ما طلب، ترتيبها لم يُسْبَق إليه، وتركيبها لم يَقِفْ واقف عليه:

---

(١) «خامِسَة»: ليس المقصود بها العدد خمسة، وإنما يقصد بها الآثاري بأنها غنية بألوان المعرفة ـ والله أعلم ـ.

(٢) «للمقري»: المقصود بها المقرىء، قارىء القرآن.

يَكَــادُ يُفْهَــمُ مِــنْ مُبْــدَا بَــراعَتِهـا
حُسْــنُ الخِتَــامِ لتَقْــرِيْــبٍ وإيْجَــازِ

ويذكرُ الآثاري ما في بديعيته من أشياءَ تشغلُ من طلب بديعية صفي الدّين الحلي، وابن جابر، وغيرهما، فيقول عنها بأنّها: تَشْغَلُ طلاب (الصَّفي) بصفائها من الكَدرِ، وتجبر مكاسير (ابن جابر) بطولِ أنواعها من ذلك القِصَر، وتصلُ مقاطيع (الموصلي) حيث عزّ الموصل عن إدراك المعاني الغالية، وتُسَفِّلُ حجّة القائمين (بابن حجاج) في قصيدته وإن كانت معروفةً بالعالية؛ تعجبُ النّاظر، وتشرح الخاطر، وتفرّج عن القلب المحزون، بدرها المكنون، وكلامها الموزون، تَسْتَحسِنُ بديعَ صنعتها أربابُ العقول، وتسترشدُ قولها لهم حيث تقول:

قُـلْ للصَّفـيِّ ومَـنْ أتـى مِـنْ بَعْـدِهِ ومُعَاصِري في ذَا الزَّمانِ ومَنْ بَلِي
أَتْعَبْتَ نَفْسَكَ يا قطيعَ القلبِ في عِلْمِ البديعِ ولا وصَلْتَ لموصِلِي

وذكر الآثاري أنَّه لما أرادَ الشّروع في نظم هذا العقد البديع، وجدَ الفكْرَ غير قابل أنْ يطيع، فمكثَ قريب السَّنة، والقلب والفكْر في غفلةٍ وسَنَةٍ، فوقفَ على بابِ الله تعالى خاشعاً باكياً متضرعاً داعياً، حتى رأى في المنام النّبي ﷺ، وقد جعل له ساعداً أبيض غير ساعده اليمين الأوّل.... فأصبحَ فرحاً مسروراً، وعلى جيشِ القوافي مؤيداً منصوراً، وفتح الله عليه بالغرضِ المطلوب، وجاءتْ في أربعمئة بيت منَ البديع لم يُسْمَعْ بمثلها:

فَقُلْ لأهْلِ المعَاني إنْ يكُنْ لَكُمُ أَوْ عنْدَكم مثْلُ ما في جَمْعِهَا هاتوا

ولشدّة إعجاب الآثاري ببديعيته يقول عنها: فأعيذها بقُلْ هو الله أحد، من شر حاسد إذا حسد، هذا ولسان التّقصير قصير، عن نظم معاني البشير النذير:

وسمّيتُهَــا العِقْــدَ البــديــعَ لأَنَّهــا جَوَاهِرُ في مَدْحِ الشَّفيعِ نظَامُهَا[1]

وقد بدأَ الآثاري قصيدته بقوله:

---

(١) انظر: بديعيات الآثاري (ص١٠٣ ـ ١٠٧) بشيء من الاختصار والتصرف.

حُسْـــنُ البَــراعَــةِ حَمْـدُ اللهِ فــي الكَلِــمِ
وَمَــدْحُ أَحْمَــدَ خَيْــرُ العُــرْبِ والعَجَــمِ

وفي غضونِ البديعية يأتي الآثاري ببدائع الكلام، ويدلي دلْوَه في فنِّ النّظام، ويدلُّ على تمكُّنِهِ من اللغة والبيان، اقرأ قوله من وسطِ بديعيته:

تَقَسَّـمَ المـدْحُ للمُـدَّاحِ فيْـهِ عَلـى   قَطْـعٍ ووَصْـلٍ وتَجْـريـدٍ ومُنْعَجِـمِ

ثم يتحدَّثُ في مديحهِ عن القَطْعِ، وهو الأحرف المقطعة غيرِ الموصولة ببعضها، فيقول:

دَوَاءُ دَائــــي ورُودِي دَار ذِي أَرَبٍ   وَدَعْ زُروداً وَذَرْ زَوْرَاءَ ذي أَرَمِ

وبعدها يتحدّثُ عن وصلِ كلّ حرفَيْن مع بعضهما:

مُـؤَيّـدٌ ظَـاهِـرٌ لاحَـتْ سَـرِيْـرتُـهُ   عَنْ كلِّ فَنٍّ غريبٍ منْ بديْعِ فَمِ

ثمّ يتحدَّثُ عن وصل كلّ ثلاثة أحرف:

بَحْـــرٌ بِسَـــاحِلِـــهِ فَيْـــضٌ لِسَـــائِلِـــهِ
فَسَـلْ تَنَـلْ خَيْـرَ خَمْـسٍ تمْـسِ غَيْـرَ ظَمِـي

وبعدها يتحدّث عن وصل كلّ أربعة أحرف:

مُحمَّـــدٌ مُكْمَـــلٌ بخيـــرِ متَّصَـــفٍ   مُجمَّـــلٌ مُخبـــرٌ بغَيـــرِ مُتَّهَـــمِ

ومن ثم يتحدّث عن وصلِ كلّ خمسة أحرف:

بِعِلْمِـــهِ نَقْتَفِـــي تَيْسيـــرَ مَنْهَجِـــه   بِحلمِـــهِ نكتفـــي تَعْسيـــر مُغْتَنَـــمِ

وبعد ذلك يأتي بالأحرفِ المهملة غير المنقوطة فيقول:

عَـدُوّهُ مُهْمَـلٌ عَـارٍ وصَـار لَـهُ   عَـارٌ ومَـا لاَحَ إلا وَهْـوَ كـالعَـدَمِ

ويتلوه بأحرف معجمة منقوطة فيقول:

زَيْـــنٌ تَقـــيٌ نَقـــيٌ بَيّـــنٌ شَفِـــقٌ   غَيثٌ نبيٌّ نَجيبٌ فيضُ ضَيفِ فَمِ

وقد أتى الآثاري في هذه البديعية بالعجبِ العُجاب، وأظهر براعته في فَصْل الخطاب، ثم ختمها بقوله:

كُـلُّ المَـدائِـحِ والمُـدَّاحِ فـي قِصَـرٍ   ولو أَطَالُوا لمالُوا نَحْوَ عَجْزِهِمِ
لا أَختَشي مَقْطعاً فالفَضْل متَّصِلٌ   بمـدحِ أَحْمَـدَ فـي نَثْـرٍ ومُنْتظَـمِ

صَلّـــى وسَلَّـــم ربّـــي دَائمـــاً أَبَـــداً
عليــهِ فــي المُبْتَـدا مــع حُسْــنِ مختَتِمــي

* وممــن عــارض بــردة البُــوصيــري
أبو عبد الله محمّد بن علي الهواري المالكي المتوفى سنة (٧٨٠ هـ)، وأوّل قصيدته:

بِطِيْبَــةَ انْــزِلْ ويَمــمْ سَيِّــد الأُمَــمِ   وانْشُرْ له المدحَ وانشُر أَطْيَبَ الكَلِمِ

* وكذلك عارضها عليُّ بن الحُسين بن علي أبي بكر محمد بن أبي الخير الموصلي المتوفى سنة (٧٨٩ هـ)، وعدد أبياتها (١٤٥ بيتاً)، ويقول في مطلع قصيدته التي تعتبر من عيون البديعيات:

بـرَاعَـةٌ تَسْتَهِـلُّ الـدَّمْـعَ فـي العَلَـمِ   عبَـارةٌ عَـنْ نِـدَاءِ المُفْـرَدِ العَلَـمِ

* والموصلي هو أوّلُ مِن التزمَ التّورية باسم النّوعِ البديعي في كلّ بيت من بديعيته، وقد شرحها بنفسه وسمّاها: «التّوصّلُ بالبديع إلى التّوسل بالشَّفيع».

* ومن بدائع البديعيات، بديعية شرف الدِّين عيسى بن حجاج السّعدي المصري الحنبلِي المتوفى سنة (٨٠٧ هـ)، فقد كان فاضلاً في النّحو واللغة، وله النّظمُ الرَّائق، أمّا بديعيته في مدحِ النّبي ﷺ فهي تختلفُ عن بردةِ البوصيري من حيثُ القافية، فقد اختار لبديعيته حرف الرّاء، ونسجَ عليه بديعيته ومطلعها:

سَلْ مَا حَوى القَلْبُ في سُلْمى مِنَ العِبَرِ
فكُلّمــا خَطَــرتْ أَمْسَــى عَلــى خَطَــرِ[1]

* وممن عارض بردة البوصيري، وبردة صفي الدّين الحلّي، شمس الدّين محمّد بن خليل بن أبي بكر الحلبيّ الأصل، الغزي القدسي المتوفى

---

(١) انظر: الضوء اللامع (٦/ ١٥١)، وشذرات الذهب (٩/ ١٠٩).

في رجب سنة (٨٤٩ هـ)، وكان مقرئاً بارعاً، صاحب فضائل؛ قال في أوَّلِ بديعيته:

عَجَبِي عـرَاقـي فَعُـجْ بـي نَحـوَ ذيْ سَلَـمِ
واجْنَـحْ لِسَـاكِنِهَـا بِـالسّلْـمِ والسَّلَـمِ

ومنهم جلال الدِّين السُّيوطي المحقِّق المدقق صاحب المؤلّفاتِ الفائقةِ النّافعةِ المتوفى في (١٩) جمادى الأولى من سنة (٩١١ هـ)، وقد استهلَّ بديعيته بقوله:

مـنَ العَقِيْـقِ ومـنْ تـذْكَـارِ ذِي سَلَـمِ
بَـرَاعَـةُ العَيْـنِ فـي اسْتِهْـلاَلِهـا بِـدَمِ

وقد شرحَ السُّيوطيُ بديعيته شرحاً لطيفاً وسماها: «نظم البديع في مدح الشَّفيع».

وممن عارضَ البردةَ ضيفةُ حلقتنا عائشة الباعونية، ولنا عودة إليها في نهايةِ هذا الفَصْل إنْ شاءَ الله لنبحر معها في بحارِ معانيها، ونستحلي ألفاظَ مغانيها، ونستجلي عرائسَ مبانيها.

وممن عارضَ البردةَ عبدُ الرحمن بنُ أحمدَ الحُميدي المتوفى سنة (١٠٠٥ هـ)، ومطلع بردته التي أطلَقَ عليها اسم: «تمليح البديع بمدح الشّفيع»:

رِدْ رَبْـعَ أَسْمَـا وأَسْمـى مـا يُـرَامُ رَمِ
وحَـيِّ حَيّـا حَـوَاهَـا معْـدنُ الكَـرَمِ

ومنهم: السَّيِّد علي خان المتوفى سنة (١٠١٨ هـ)، فقد أنشأَ بديعيةً لطيفةً، وشرحها شرحاً جميلاً وسمّاها: «أنوار الرّبيع في أنواعِ البديع»، ومطلع بديعيته:

حسْـنُ ابتـدَائـي بـذكـرى جِيْـرَةِ الحَـرَمِ
لَـهُ بَـراعَـةُ شَـوْقٍ يَسْتَهِـلّ دَمِـي

وممن مدَّ باعَ اليراعِ في هذا المجال من علماء وأدباء القرن الحادي عشر

الهجري، الأديب الشّيخ عبد القادر محمّد مكي الشّافعي المتوفى في سنة (١٠٣٢ هـ)، فقد قال في مطلع بديعيته الرائعة:

حسْـنُ ابْتِـداءِ مَـديحـي حـيّ ذِي سَلَـم
أبْـدى بَـرَاعَـةَ الاسْتِهْـلالِ فـي العَلَـم

* ولشدّة شغف الشَّيخ عبد القادر بهذه البديعية قامَ بشرحها، وأودعَ فيها ما حبَاهُ اللهُ من معرفةٍ، ونوّه إلى بديعيةِ ابن حجّة، وأنّه تخطّاهُ بمراحلَ بلاغيةٍ وسمّاها: «عَليُّ الحجّة بتأخيرِ أبي بكر بن حُجَّة».

* ومنهم أحمدُ بنُ محمد المقّري التّلمساني المتوفى سنة (١٠٤١ هـ) الذي أنشأ بديعية جميلة تَسْحَرُ الألباب، بمعانيها العِذاب، وقال في مطلعها:

شَارفْتُ ذَرْعاً فَذَرْ عَيْني ومَا وَجَدَتْ   مِنَ الشُّجونِ على حيٍّ بذي سَلَمِ

* أمَّا الشيخُ محمّد بنُ عبد القادر حكيم زاده، فقد طابتْ له معاني البردة، وتأثّر بمَنْ سبقه، فنظمَ بديعيتَين، قال في أُولاهما:

حُسْنُ ابتدائي بذكْرِ البَانِ والعَلَمِ   جَـلا لمطْلَـعِ أَقْمـارٍ بـذي سَلَـمِ

* وأمّا البديعية الثّانية؛ فقد أطلقَ عليها اسم «اللمعة المحمديّة في مدحِ خير البرية» قال في مطلعها:

إنْ رُمْـتَ صنْعَـاً فَصُـنْ عَـنْ مَـدْحِ غيرِهِـمِ
يـا قَلْـبُ سِرّاً وجَهْـراً جَـوْهَـرَ الكَلِـمِ

* ومنهم: أبو الوفا الحلبي، وأوّل بديعيته قوله:

بَرَاعَةٌ في ابْتِدَا نَوْحي بذي سَلَمِ   قَدِ استَهَلَّتْ لدمْعٍ فَاضَ كالعَلَمِ

* وجاء بعد ذلك العالم الأديب عبد الغني بن إسماعيل النابلسي الدمشقي المتوفى سنة (١١٤٣هـ)، فأدلى دلوه بين دلاء أصحاب البديعيات، فاغترف من بحار اللغة، وأتى بأصداف العجائب وجواهر الألفاظ، ولؤلؤ المعارف، وصاغ بديعيةً حسناء، كالعقد في جيد الغيداء، قال في أولها:

يا مَنْزِلَ الرَّكْبِ بينَ البَانِ والعَلَمِ   مِنْ سَفْحِ كاظِمةٍ حُيِّيتِ بالدِّيَمِ

* وقد شرح النابلسي بديعيته شرحاً رائعاً وسماها: «نفحات الأزهار على

نسمات الأسحار في مدح النبي المختار»، وهذه البديعية مطبوعة ومتداولة بين عشاق هذا الفن، وقد أودع النابلسي فيها معارفه وعلومه، وأتى بألوان البديع ومنها؛ التأريخ لنظمه البديعية وقال: وقد انفردت بذكر هذا النوع في فن البديع، ولم يذكره أحد من أصحاب البديعيات ولا غيرهم[1].

* وفي حلبة التسابق البديعي يأتي الشيخ قاسم بن محمد البكرة الحلبي المتوفى سنة (١١٥٦هـ) فيطلع علينا في بديعية حلوة عارض فيها بردة البوصيري، جاء في مطلعها:

مِـنْ حُسْـنِ مَطْلَـعِ أَهْـلِ البَـانِ والعَلَـمِ
بَـــرَاعَتِـــي مُسْتَهَـــلٌّ دَمْعُهَـــا بِـــدَمِـــيْ

وقد شرحها وسمَّاها: «حلية البديع في مديح الشفيع».

* ومن المتسابقين أيضاً في هذا المضمار؛ السيد حسن بن مير رشيد الرضوي الهندي المتوفى سنة (١١٥٦هـ)، فاستهل معارضته بقوله:

حـيّ الحيـا عَهْـد أحبـابٍ بـذي سَلَـم
وملعـــب الحـــيِّ بيـــنَ البَـــانِ والعَلَـــمِ

* وممن عارض البردة من المعاصرين الشيخ أحمد بن محمد الحملاوي صاحب كتاب الصرف المشهور: «شذا العرف في فن الصرف»[2]؛ والحملاوي ولد سنة (١٢٧٤هـ)، وتوفي سنة (١٣٥١هـ)، وتمتاز معارضته باقتباس كثير من أبياتها من آيات القرآن العظيم ومنها:

---

(١) انظر: نفحات الأزهار (ص٣٣٩)، وقد وهم الشّيخ عبد الغني النابلسي في هذا الزعم، فقد سبقه الآثاري إلى هذا الفن بقرون، بل إن الآثاري سبق جميع أصحاب البديعيات في هذا المجال حيث قال:

بـديـعُ البـديـع قـد سَمَـا عَـدَداً   في عَامِ يوم ضحىً مِنْ مفردِ العَلَمِ

فعبارة «سما عدداً» تساوي في حساب الجُمَّل (١٦٠)، وهذا هو عدد أبيات بديعية الآثاري.

(٢) حقق هذا الكتاب صديقنا الأستاذ: يوسف علي بديوي، وطبع في دار ابن كثير بدمشق أكثر من مرة.

يا غَافِرَ الذَّنْبِ مِنْ جُودٍ ومنْ كَرَم وقَابِلَ التَّوبِ مِنْ جَانٍ ومُجْتَرَم
ومُسْبِلِ السِّتْرْ إحْسَاناً ومرحَمةً على العُصَاة بفيض الفَضْلِ والكَرمِ

* ومن الشُّعراء المعاصرين يبزغ نجم الشَّاعر محمّد بن عبد المطلب المولود سنة (١٢٨٨ هـ)، والمتوفى سنة (١٣٥٠ هـ)، كان جزْلَ الشِّعر، ذا أصالة، ولذلك كان يلقب بـ «شاعر البادية»، وأحبَّ محمد عبد المطلب أنْ يتفيّأ في ظلالِ البردة، فأنشأ قصيدة عارض بها البردة، وعدد أبياتها (١٢٣ بيتاً) وسمّاها: «ظل البردة» وأظهر فيها ما أوتيه من علْم وثقافة إسلاميّة ولغوية، ومطلع بردته قوله:

أَغْرى بِكَ الشَّوْقُ بَعْدَ الشَّيْبِ والهَرَم
سَارٍ طَوى البيْدَ مِنْ نَجْدٍ إلى الهَرَمِ

* وممن نهج في هذا الفنّ الشّاعرة عائشة التيمورية[1]، إذ أدلت دلوها، فقالت في مطلع بردتها:

أَعَنْ ومَيْضٍ سَرى في حنْدس الظُّلَم
أَمْ نَسْمَةٌ هَاجَتِ الأَشْوَاقَ مِنْ إضَمِ

* ومنهم: محمّد بن عبد الله بن بليهد المولود بنجد سنة (١٣١٠ هـ)، والمتوفى في لبنان سنة (١٣٧٧ هـ)، قال في مطلع بردته:

دَنَا الرَّحيْلُ فَودِّعْ جِيْرَةَ الهَرَمِ واتركْ زَمامَ دمُوعِ العَيْنِ إنْ تَهِمِ

* ومنهم: محمود سامي البارودي المولود بمصر في (٢٧ رجب) من سنة (١٢٥٥ هـ)، والمتوفى في (٦ شوال) سنة (١٣٢٢ هـ)، إذ عارض البردة ببردة رائعة قال في مطلعها:

يا رَائِدَ البَرْقِ يَمّمْ دَارَةَ العَلَمِ واحْدُ الغَمامَ إلى حَيٍّ بذي سَلَمِ

* ومنهم: أحمد محفوظ، وسمّى بردته «بردة محفوظ» ومطلعها:

قَلْبٌ تَقَسَّمَ بينَ البَثِّ والأَلَمِ بادي الصَّبَابةِ منْ شوقٍ ومنْ ضَرَم

---

(١) اقرأ سيرة عائشة التيمورية ومدائحها النبوية في هذا الكتاب، فقد ذكرنا فصلاً ضافياً عن هذا المجال خلال الحديث عنها.

* ومنهم: محمود جبر الذي يُدعى شاعر آل البيت، فله بردة عدد أبياتها (١٥٩ بيتاً) ومطلعها:

وَرْقَـاءُ مكـةَ بينَ البَـانِ والعَلَـمِ   ناحَتْ فأذْكَتْ بقَلْبِي لاعِجَ الضَّرَمِ

ثمَّ جاءَ أحمد شوقي المتوفى سنة (١٩٣٢ م)، وعارض بردة البوصيري ببردة سمّاها: «نهج البردة»، وقد طارت في سماءِ الشُّهرة تسعى على ساقٍ بلا قدم، وعرفَها الخاص والعام، وكُتِبَ لها القَبول بين عالَمَ الأدباء في أنحاء الأرض، وجاء في مطلعها:

رِيْمٌ عَلى القَاعِ بَينَ البَانِ والعَلَمِ   أَحَلَّ سَفْكَ دَمي في الأشْهُرِ الحرمِ[١]

وقد أحبَّ الأدباءُ على مستوى العالَمِ الإسلامي هذه القصيدة لجمالها، وانسياب معانيها، وجمال كلماتها، لذلك تسابقَ الأدباءُ والبُلغاء إلى تخميسها، ومن أبدع ما قيل في تخميسها هذا النّظم لأحد البلغاء:

لمّا عَشِقْتُ حَبيْبَ القَلْبِ مِنْ قدَمِ   أَنْوارُه قَدْ مَحَتْ عنَّا دُجَى الظُّلَمِ
سُيوفُ أَلْحَاظِهِ تَشْفِي منَ السَّقَمِ   (ريمٌ على القَاعِ بينَ البَانِ والعَلَمِ
أحلَّ سَفْكَ دَمي في الأشْهرِ الحُرُمِ)

في ليلـةِ الأُنْـسِ حقّـاً قَـدْ بَـدا قَمَـرُ   وطابَ في رَوْضَةِ المحبوبِ لي سَمَرُ
وزالَ مِـنْ فَضْلِـهِ مِـنْ قَلْبِنَـا كَـدَرُ   (يـا لائِمـي في هـواهُ والهـوى قَـدَرُ
لو شَفَّكَ الوجْدُ لم تَعْذِلْ ولَمْ تَلُمِ)

وإنّني أستميحُ القارىءَ الكريمَ عذراً، فلعلي قد أطلتُ الحديث عن البردة ومعارضاتها، بيد أنَّ عذري في ذلك أن وجدتُ فوائدَ كثيرة في ذلك، وجمعتُ معلوماتٍ ذات قَدْر وقيمة في هذا المجال لم تُجْمَعْ من قبل ـ على ما أعتقد ـ حيثُ فيها معارف متنوعة، وفوائد قيمة مهمّة.

ونعودُ الآن إلى ضيفةِ حلقتنا عائشة الباعونية، وإلى مدائحها النّبوية، وإلى بديعيتها البديعة، التي نظمَتْها سنة (٩٢١ هـ)، والتي بلغتْ (١٢٧ بيتاً)، فيها (١٢٩) نوعاً من أنواع البديع، وتدلُّ على علوِ همّتها في هذا المجال

---

(١) انظر: الشوقيات (١/ ١٩٠).

اللطيف، وقد ابتدأتْ بديعيتها بمقدمةٍ شافيةٍ جميلةٍ تدلُّ على تمكنها من ذؤابةِ البلاغة وناصية الكلام، لتجلوه لذويه، قالت رحمها الله: بسم الله الرحمن الرحيم: الحمدُ لله محليٍّ جيادَ الأفْهام بعقودِ مدح الشَّفيع، ومجليٍّ سلامة الأذواق بمكررِ ذكره الرّفيع، ومرصّعَ تيجانِ البيانِ بجواهرِ سيرته الحسنا، ومزينَ سماء البلاغة بزواهرِ معجزه الأسنى، ومعجزِ العقولِ عن إدراك كنه صفاته، ومؤيسَ الأفكار من إحصاءِ خصائصه وآياته، وباعثَ الرُّسل مقررين لعظيم قدره، ومنزلَ الكتب مبينة لرفيع ذكره، ومعطّرَ أرجاءِ الوجود بالثَّناء على خلقه العظيم، ومشرِعَ ألوية التّخصيص له بكرائم التّبجيل وجلائل التكريم، ومطلقَ ألسنةِ الإطناب في شرفه المطلق المفرد، ومفرده بكمال الاصطفاء، فما لكماله مَثَلٌ ولا حَدّ، حمداً يجمع لي بين الأماني والأمان، ويقتضي المزيد منْ مبراتِ الشّهود والعيان.

وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة شافعةً باتصالِ المدد، كافلةً بالخلودِ في جنَّاتِ العرفان إلى الأبد.

وأشهدُ أنَّ سيِّدَ أعيان الكونين، وعين حياة الدّارَيْن محمّد عبده ورسوله، وحبيبَه وخليله، صلى الله عليه وسلم صلاة تصلني وذريّتي وأحبائي في كلّ نفس بنفائسِ صلاته، وتقتضي دوامَ البسط بتوالي إمداداته، وتشفعُ لنا بمراحمِ القبول، وتسعفنا بكرائمِ الوصول، صلاة لا ينقطع لها مدد، ولا ينقضي لها أمَدٌ، وعلى جميعِ الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهِ وصحبه أجمعين، وعلى آل كلّ، وصحبَ كلّ، وسائر الصَّالحين، وسلّمْ تسليماً، وكرمْ تكريماً. . وبعد:

فهذه قصيدةٌ صادرةٌ عن ذاتِ قناع، شاهدةٌ بسلامة الطِّباع، منقّحةٌ بحسنِ البيان، مبنيةٌ على أساسِ تقوى منَ اللهِ ورضوان، وسافرةٌ عن وجوهِ البديع، ساميةٌ بمدح الحبيب الشَّفيع، مطلقةٌ من قيود تسمية الأنواع، مشرقةُ الطَّوالع في أفقِ الإبداع، موسومةٌ بين القصائد النّبويات، بمقتضى الإلهام الذي هو عمدةُ أهلِ الإشارات: «بالمدح المبين في مدحِ الأمين»، استخرتُ الله تعالى بعد تمام نظمها، وثبوت اسمها في شيءٍ يروق الطّالب موارده، وتعظم عند

المستفيد فوائده، وهو أن أذكرَ بعد كلّ بيت حدَّ النّوع الذي بنيتُ عليه وافرَ شاهده، فإنَّ ذلك مما يفتقرُ إليه، وأنحو في ذلك سبيل الاختصار، ولا أخلُّ بواجب، وأنبّه على ما لا بدّ منه قصد النَّفع للطالب، والمسؤول من الفتاح بتأسيسها على قواعد أذنَ الله أنْ ترفعَ، ومن مثبت رفعها بوجاهة مدح الوجيه المشفّع، أن يصلي ويسلم عليه، ويجعلها خالصةً لوجهه الكريم... إنّه جوادٌ كريم، رؤوفٌ رحيم، ومن الله أستمدُّ، وعليه أعتمدُ ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وبدأتْ عائشةُ الباعونية بديعيتها بقولها:

فـيْ حُسْـنِ مَطْلَـعِ أَقْمـارٍ بـذي سَلَـمِ
أصْبَحْـتُ فـي زُمْـرَةِ العُشَّـاقِ كـالعَلَـمِ

أقُـولُ والـدَّمْـعُ جَـارٍ جَـارِحٌ مُقَلِـي
والجَـارُ جَـارٍ بِعَـذْلٍ فيـهِ مُتَّهَـمِ

ومنها:

بَـدْرُ الكَمَـالِ كَمـالُ البَـدْرِ مُكْتَسَـبٌ
مِـنْ نُـورِهِ وَضِيَـاءُ الشَّمْـسِ فـاعْتَلِـمِ

ومنها:

جمـالُ صُـورَتـهِ عنـوانُ سِيْـرتِـهِ   هَـذا بَـديْـعٌ وهـذي آيـةُ الأُمَـمِ

ومنها:

قالُوا هوَ الغَيْثُ قُلْتُ الغَيْثُ آونةٌ   يَهْمِي وغَيْثُ نَدَاهُ لا يَزَالُ هَمِي

واختتمت بديعيتها بقولها:

يـا أكْـرمَ الـرُّسْـلِ سُـؤْلـي فيـكَ غَيْـرُ خَـفٍ
وأنْـتَ أكـرمُ مـدعُـوّ إلـى الكَـرمِ

حَسْبـي بحبِّـكَ أنَّ المـرءَ يُحْشَـرُ مَـعْ
أَحْبَـابِـهِ فَهَنَـائِـي غيـرُ مُنْحَسِـمِ

مـدَحْـتُ مَجْـدَكَ والإِخْـلاصُ ملتـزمـي
فيـهِ وحُسْـنُ امتـداحـي فيـكَ مُخْتَتِمـي[1]

* هذه بديعيةُ شاعرة ناسكاتِ عصرها عائشة الباعونية، وأعتقد أنّها أوّلُ امرأةٍ قد نهجتْ بردة البوصيري ومن تبعه إلى وقتها، بل لم أجدْ ـ في حدود اطلاعاتي ـ مَنْ تصدّى لهذا الفن غيرها من النِّساء البليغات، اللهم إلا شذرات لبعض الشّواعر بعد عصرها، لم تبلغْ واحدة منهن معْشار شأوها، بل لم تستطعْ أي شاعرةٍ أن تجاريها في هذا الميدان الرَّحب، وفي مجالِ البديعيات، وفي مجالِ المديح النّبوي، لذلك كان لبديعيتها طَعْمٌ خاص عند بلغاء الأدباء[2].

* هذا؛ ولم تكنْ هذه القصيدة يتيمة عائشة الباعونية في فنِّ المدائح النبّوية ـ وإن كانتِ القصيدةُ درّةً يتيمةً في بابها ـ وإنّما لها قصيدةٌ مشهورةٌ في عالَم البديعيات، أطلقتْ عليها اسم «الفتح المبين في مدح الأمين»، قالت في وصفها: أمّا بعد: فهذه قصيدةٌ فتح الحقُّ بها عليَّ بعد قصيدتي الموسومة «ببديع البديع في مدح الشّفيع». . . ووسمتها باسم وسيم يدلُّ على شرفها بممدوحها الكريم وهو: الفتح المبين في مدح الأمين، وأَسَّسْتُ كلَّ بيتٍ منها على قواعدِ الإخلاص، وجعلتُه مشتملاً على بابٍ من أنواعِ البديع، والتزمتُ فيه بتسمية النّوع التزام سامع لأوامر الإلهام الرّباني ومطيع، وعلّقتُ عليها تعليقاً جامعاً لزبد الحدود وفرائد الشّواهد، كاملاً بالمقصود لكلّ شارد ووارد، وتوّجته بخطبةٍ مسفرة عن محاسن التّأليف، تفهرس

---

(١) انظر: الدر المنثور (ص٢٩٤ ـ ٣٠٢)؛ وقالت زينب فواز في تعقيبها على هذه البديعية: إن ختام هذه القصيدة لم يأت في قصيدة غيرها من حسنِ الذّوق السَّليم. (الدر المنثور ص٣٠٢).

(٢) وقد امتدحَ بديعيةَ عائشةَ الباعونية أحدُ بلغاءِ الأدباء، وأذكياء العُلماء، وأفذاذ الشّعراء، فقال وأبدع، وأحْسَن في فنّ الجناس:

أَتَـتْ بِبَـديْـعٍ لَـوْ رآهُ ابـنُ حجّـةٍ ... لأذْعَـنَ أنَّ الفَضْـلَ حَـازَتْـهُ عَـائِشَـه
فَقَدْ عِشْتِ في روضِ الجِنَانِ عَزيزةً ... كما كُنْتِ في روضِ البلاغةِ عَائِشَه

بلطائف التّورية ما اشتملتْ عليه منَ الأنْواع.

* وبلغت هذه البديعيةُ (١٤٤ بيتاً)، واحتوتْ (١٤٤) نوعاً بديعياً، ومطلع هذه البديعية الرّائعة قولها:

عَـنْ مُبْتَـدَا خَبَـرِ الجرعَـاءِ مِـنْ إضَـمِ
حَـدِّثْ وَلاَ تنْـسَ ذِكْـرَ البَـانِ والعَلَـمِ

ومنها وقد أظهرت براعتها في استخدامِ سور القُرآن بفن بديعي بلاغي يُسمى «التّرشيح»[1] فقالت:

طـهَ بيـاسِيْـنَ كـم فـي مَـدْحِـهِ نَبَـأٌ
قَـد رشَّـحَ الشُّعـرا فـي نَسْـجِ شِعْـرِهـم

وقد اختتمتها بقولها:

مـدحـتُ مجـدكَ والإخـلاصُ مفتتحـي
ومَخْلَصـي لصـلاتـي حُسْـن مختتمـي

ولعائشة قصيدةٌ رائعة في المديح النّبوي اسمها، «لوامع الفُتوح في أشرف ممدوح»، وهي قصيدةٌ رائقةٌ، تمتعُ الأسماع، وتداعبُ الطِّباع، وتؤنسُ البقاع، وتدلُّ على طول الباعِ، في المعرفة والأدب ولطائف الأنواع، قالت في مطلعها:

سَعْـدُ إنْ جِئْـتَ ثَنِيَّـاتِ اللُّـوَيْ   حَـيِّ عَنّـي الحـيَّ مِـنْ آلِ لُـؤَيْ
وَاجْـرِ ذِكْـرِي وَإذا أَصْغَـوا لَـهُ   صِفْ لَهُمْ مَا قَدْ جَرى مِنْ مُقْلَتَيْ
عَـرَبٌ فـي رَبْـعِ قَلْبـي نَـزَلُـوا   وأقـامُـوا فـي السُّـوَيْدَا من حُشَـيْ
أَخَـذُوا عَقْلـي وَصَبْـري نَهَبُـوا   واسْتَبَاحُوا سَلْبَ كَوني مِنْ يَدَيْ
لا شِفَـا إلاّ بِتِـرْيَـاقِ اللِقَـا   أَوْ برشْفِ الشَّهْدِ منْ ذاكَ اللُمَيْ[2]

ويبدو لي أنَّ السَّيِّدةَ عائشةَ الباعونية ـ رحمها الله ـ قد أُغْرِمَتْ بيائية ابن الفارض المشهورة، فنظمَتْ مديحها تحاكيه، وتظهرُ براعتَها في هذا

(١) «الترشيح»: هو أن يأتي المتكلم بكلمة لا تصلح لِضَرْبٍ من المحاسن حتى يؤتى ترشيحها، وتؤهلها لذلك.

(٢) نساء من الإسلام (١/ ٦٥)، وشاعرات العرب (ص٢٣١).

المضمار، فقد قالَ ابنُ الفارض في مَطْلع قصيدته:

سَائقَ الأَظْعَان يَطْوي البيْدَ طَيْ   منْعِمـاً عَـرِّجْ علـى كُثْبَـانِ طَـيْ
وتَلَطَّـفْ وأجْـرِ ذِكْـري عِنْـدهـم   علَّهُـم أَنْ ينْظُـروا عَطفـاً عَلـيْ[1]

ولعائشةَ الباعونية آثارٌ أخرى، وأغراضٌ كثيرةٌ في المدحِ والغزل والنَّسيب وغير ذلك، كما أنَّ لها آثاراً كبرى في المديحِ النّبوي، وفي ذكْرِ أحداث السّيرة النّبوية الشّريفة، مما سنتعرض لجانب منه في الصَّفحات التّاليات ـ إنْ شَاء اللهُ ـ.

السِّيرَةُ النَّبويّـةُ في أَدَبِ عَائِشَـة:

لئن حلَّقَتْ عائشةُ الباعونية في فنِّ البديع والبديعيات، لقد بلغتِ الذّروة في فنِّ المديح لخاتَم الأنبياء والمرسلين، وجاوزتِ الثُّريا في صياغة أحداثِ السِّيرة النّبوية بأسلوبٍ رقيقٍ رشيقٍ أنيقٍ دقيق، تفتقتْ عن أسرار معانيه بنات أفكارها، فوعته صدور السّطور ليحكيَ ما نسجته عبقرية أفكارها، وما خطته بيدها من نثرها وأشعارها، حيث تدلُّ آثارها التي وصلتنا بأنّها كانت حَسَنة الخط، تجيد أنواعه وخاصّة: الخط الفارسي، وخطّ النّسخ، وبهذا تكون ضيفتُنا عائشة قد جمعتْ إلى جمالِ النَّظم جمال الخَطّ، وهذه نعمةٌ كبرى لا يدرك كنهها إلا الرّاسخون في هذا المضمار النّفيس الميمون.

إنَّ معظمَ آثارِ عائشة الباعونية تشيرُ إلى براعتها في فنِّ المديح النّبوي، لأنَّ عائشةَ تعتبر أنَّ المديحَ سمةُ الصَّالحين، وفي هذا تقول: إنَّ المديحَ النَّبوي الشَّريف شعارُ أهلِ الصَّلاح، ولا سيما أهل الفَلاح، وهو مما يتنافسُ فيه المتنافسون، ويدأبُ فيه المخلصون، إذْ هو من أعظمِ وسائل النّجاح، وسبب مضاعفة الأرباح.

ولعلَّ في قصيدتها الموسومة بـ: «فتوح الحقّ في مدحِ سيّد الخلق» ما يؤيد ذلك حيث تقول فيها:

بَـرَاعَتِـي فـي ابْتِـدَا حَـالـي بحبِّهِـمُ   بَـراعـةٌ تَقْتَضِـي فَـوْزِي بِقُـربهِـمُ

(١) انظر القصيدة كاملة لابن الوردي في كتاب النجوم الزاهرة (٦/ ٢٨٨ ـ ٢٩٠).

صَلَّـى عليـكَ إلهـي دَائِمـاً أَبَـداً أزْكَى صَلاة تُديمُ الفَيْض بالكَرَم
ما سَرَتْ نَسْمَةٌ منْ أرضٍ كَاظِمَةٍ وهَيَّجَ الوَجْدَ حَادي الوفْدِ بالنَّغَم

ولقد أغرمتْ عائشة الباعونية بالسِّيرة النّبوية غراماً شديداً، حيث نسجتها بأدبها الشّعري والنّثري، ولها في هذا المجال مولدٌ اسمه: «المورد الأهنى في الموردِ الأسنى» أبدعت فيه نظماً ونثراً؛ وفي طهارةِ وصفاءِ نسب النّبي ﷺ تقول:

مـا زالَ نُـورُ مُحمَّـدٍ مُتَنَـقِّـلا في الطَّيِّبينَ أُولي المفَاخِرِ والعُلاَ
كَتَنَقُّـلِ الأَقْمـارِ فـي أبْـراجِهـا حتـى بَـدا مـنْ أُمِّـه مُتَهَلِّـلا
ومنَ السِّفَاحِ حَمى وصَانَ جُدودَه حتـى بَـدا مُتَطهِّـراً مُتكمِّـلا

وفي نَسَبه الشّريف تقول:

نَسَبٌ تَلاشَى في سُطُوعِ ضِيَائِهِ نُـورُ الشُّمـوسِ وبَهْجـةُ الأَقْمـارِ
وزَكَـا وطَـابَ ولـمْ يـزَلْ مُتنقِّـلا أبـداً مـنَ الأَطْهَـارِ لـلأطْهـارِ

أمّا عن الحَمْلِ الشَّريف فتتحدَّثُ عائشة عن كثير من الأحداث المشهورة المنثورة في كتُب السِّيرة النّبوية ـ على الرّغم من ضعف بعض أخبارها ـ؛ كما تتحدَّثُ عن كثيرٍ من البشارات التي كانت خلال مدّة حَمْلِهِ ﷺ، فإذا كلّ شيءٍ مبتهج في الكونِ، مسرور بهذا الرّسول الكريم، تقول عائشة من قصيدة طويلة منها:

اللهُ أكْبَـرُ كَـمْ وَافَـتْ بشَـارَاتُ وكَـمْ تبَـدَّتْ لتَعْظِيْـمٍ إشَـاراتُ
وكَـمْ تَجَلَّـتْ بَـراهيْـنٌ ومعْجِـزَةٌ وكـم تَـوالَـتْ كَـرَامَـاتٌ وآيـاتُ
وأشرقَ الكونُ بالأنوارِ واتَّصلَتْ مـنَ الهـواتِـفِ بـالهـادي بشَـاراتُ

وفي مولده الشّريف، يكون ترحيب عائشة بالحبيبِ المصطفى ﷺ من نوع خاص، فها هي تسجّلُ وتسطر أجملَ الكلام بأجملِ تعبير أفصحتْ عنه بنات أفكارِها، وخطّتْهُ يمينُها فتقول:

وُلـدَ الحَبيْـبُ فَمَـرَحَبـاً بِـوَفَـائِـهِ وبحُسْـنِ طَلْعَتِـهِ ونُـورِ بَهَـائِـهِ
وُلِـدَ الـذي لـولا جَـلالَـةُ قَـدْرِهِ لـم تُحْشَـرِ الأَعْيـانُ تَحْـتَ لِـوائِـهِ
وُلِـدَ الـذي صلَّـى عليـه إلهُـهُ وأثـابَ مَـنْ صلَّـى بجُـودِ عَطَـائِـهِ

وتذكر عائشةُ نَثْراً ونظماً مراحِل السِّيرة النَّبوية، فتذكر الرّضاع، وشقّ الصّدرِ الشّريف، وتذكر أيضاً معجزاته الكثيرة، ناهيك بصفاتِه الخَلْقِية والخُلُقية، وتمتدحه بنفيسِ الكلامِ من مثلِ قولها:

نَبـيٌّ لَـهُ فـي كُـلِّ فَضْـلٍ تَقَـدُّمُ ... يُـريْـكَ عُـلاهُ فَـوقَ كُـلِّ مُكَمَّـلِ

فَمَـنْ مثْلُـه والحـقُّ جَـلَّ جـلالُـه ... يُفَـاتِحُـهُ بـالمـدحِ فـي كُلِّ مَنْـزِلِ

وحياةُ عائشةَ الباعونية مع السِّيرة النَّبوية جميلة ذات سلسبيل لطيف، فهي وإنْ لم تَزِدْ شيئاً على معلومات السِّيرة، إلا أنّها تُعدُّ متفرّدة في عالَم النِّساء في هذا المجال، حتى إنَّ الشَّيخ عبد الغني النّابلسي قد أتى بعد ذلك، وقصَّ آثارها بمولِدٍ نبوي بديع أظهر ما أوتيه من تبحّرٍ في شتّى العلوم والمعارف، وسمّى مولده باسم: «تحفة العرفان في مولد سيّد بني عدنان» وهذا المولد إحدى ذخائر اللغة والأدب والفقه والتصوّف، إذ ذكر فيه معظم أنواع العلوم، وذكر أسماء الأنبياء، وسور القرآن، وكُتُب الصّوفية، ثم ذكر النّسب النّبوي الطّاهر بأسلوب بديع رائق[1].

امتِـدَاحُ العُلَمَـاءِ والفُضَـلاءِ لعائِشَــة:

يَحْسُنُ بنا ونحنُ نقتربُ من نهايةِ رحلتنا مع هذه العالِمة الأديبة، أنْ نشيرَ إلى أولئك الأعلام الذين قلدوها حليةَ الفَضْل بما نَسَجَتْهُ أقلامهم، وعبّرَتْ عنه بناتُ أفكارِهم، فقد عرفَ علماءُ عصرِها فضْلَها ومقدرتَها، فكاتبوها وامتدحوها وأثنوا عليها، وقابلتهم هي بالمثل، وأطنبَ كذلك علماء المؤرخين بمدحها ووصف شمائلها.

ففي «كواكبه السَّائرة» أبرزَ نجمُ الدِّين الغزي ـ رحمه الله ـ معالم شخصية عائشة الباعونية، وأبانَ مكانتَها بين كواكبِ العِلْم والعالمات، والأديبات، فقال في مفتتح ترجمته لها: الشَّيخةُ، والأديبة، الأريبةُ، العالمةُ، العاملةُ، الصّوفيةُ، أحدُ أفرادِ الدّهر، ونوادر الزَّمانِ فَضْلاً، وعلماً، وأدباً، وشِعْراً، وديانةً، وصيانة[2].

(١) انظر كتابنا: رجال من الإسلام (٢/ ٢٢ و٢٣) حيث تجد وصفاً لهذا المولد ونماذج منه.
(٢) الكواكب السّائرة (١/ ٢٨٧ و٢٨٨).

وقال ابنُ الحنبلي عنها: فازتْ بوافرِ حظٍّ من العلوم، وحازتْ كامل نصيب من روائع وبدائع المنثور والمنظوم[١].

وأمّا الشّيخُ عبد الغني النّابلسي فقد خَلَعَ عليها حللَ الثّناء، واعترفَ بعلمها وفضلها فقال: فاضلةُ الزّمان، وحليفةُ الأدبِ في كلِّ مكان.

وقالت عنها إحدى بنات جنسها وهي زينب يوسُف فواز: شاعرةٌ مطبوعةٌ، فاضلةٌ أديبةٌ، لبيبةٌ عاقلةٌ، وكان على وجهها من الجمالِ لمحةٌ جمّلها الأدبُ، وحلّتها بلاغة العرب وقالت أيضاً: أخذ عنها جملة منَ العلماءِ الأعلام، وانتفعَ بها خلقٌ كثيرٌ من الطّالبين، ولها ديوانُ شِعْرٍ بديع في المدائح النّبوية كلّه لطائف، ومن تآليفها مولدٌ جليلٌ للنّبي ﷺ اشتمل على فرائد النّظم والنّثر.

وقالت أيضاً: إنّ مَنْ رأى سِحْر بلاغتها فكأنّما رأى هاروت وماروت[٢].

وذكرها عددٌ من جِلَّةِ العُلماء[٣] والأدباء والأعلام بجليل الفضل فقالوا: ربّة الفَضْلِ والأدب، وصاحبةُ الشّرف والنّسب، وافرة الهيبة من العِلْمِ والأدب.

وذكرها محمّد كرد علي المتوفى سنة (١٩٥٣ م) بأنّها: العالمة، الفاضلة، الشّاعرة، الناثرة[٤].

إن عائشةَ الباعونية ـ والحقُّ يقال ـ تُعتبر من كبارِ الشّعراء، ومن أعلياءِ الأدباء في عصرها، اقتعدت ذِروة الفَضْل بين الشّاعرات العربيات المسلمات، فهي أوّلُ شاعرة ـ على ما أعتقد ـ قد كتَبَتِ المولد النّبوي الشّريف منَ النّساء؛ وجعلت من نظمِ السِّيرة النّبويةِ رحيقاً طَيِّب النَّشر، وقد

---

(١) درُّ الحبيب (٢/ ق٢ ١٠٦١).

(٢) المصدر السابق.

(٣) لما كانت عائشة الباعونية في مصر، تتلمذت على يد العلامة أحمد شهاب القسطلاني شارع صحيح البخاري، والمتوفى سنة (٩٢٣ هـ)، ويبدو أنّه قد أطنب في مدحها، وأثنى على علمها وفضلها، والله أعلم.

(٤) خطط الشام (٤/ ٦٠).

اقتدى بها عددٌ منَ الشُّعراء والشَّاعرات[1] على مرّ الأيّام، كما أنَّ عائشة الباعونية أوّلُ مَنْ صنَّف أعداداً كبيرةً من الكتُبِ الرّائعة شعراً ونثراً بين النِّساء، وجابت آفاقَ المعرفةِ في عصْرٍ كانت المرأة فيه ـ لولا رحمةُ الله ـ نسياً منسياً.

وَدَاعَـاً فَاضَلَـة الزَّمَان:

* عاشتِ السَّيِّدةُ عائشة الباعونية حياةَ العِلْم والمعرفةِ والعبادةِ والعملِ، وتركتْ في دنيا النِّساء ذكراً حميداً يزين سيرهُنَّ إلى ما شاء الله، وكانت في فنِّ المديحِ النّبوي سابقة السَّابقات، وكذلك في غيره من الفنون الشّعرية الأخرى، ناهيك بنثرها الذي يأخذ بالألباب.

* وامتدتِ الحياةُ بعائشةَ الباعونية إلى سنةِ (٩٢٢ هـ)[2]، فقد زارتْ مدينةَ حلب، ثمَّ عادت إلى دمشقَ الشَّام، وتوفيت فيها، ودُفنتْ بالصَّالحية.

---

(١) ظهرت في العصر الحديث أعدادٌ من شاعراتِ العرب، وأخذن يكثرنَ من مدحِ رسول الله ﷺ، حتى غدتِ المدائح النبوية ونظم السّيرة من المواضيعِ النّسائية المستقلة، ويتخلل هذه المدائح استعراض لأحداث السّيرة النبوية.
ومن الشّاعرات اللواتي أولين في هذا المجال الشّاعرة المصرية عائشة التيمورية، وهنالك شاعرات أخريات من البلاد العربية أبدعن في هذا المجال، وبعضُهن معاصرات، ومنهن: عاتكة الخزرجي، ولها ديوان بعنوان «أنفاس السّحر» وكذلك الشّاعرة السّورية عفيفة الحصني الدّمشقية، ومن دواوينها «فداء، وفاء، ولاء» وكذلك: صابرة محمود العزّي، ولها ديوان بعنوان «نفحات الإيمان» ومن شعرها في حادثة الإسراء والمعراج قولها:

الركبُ يسري وليلُ الركبِ أضواءُ	عبــر المسيـــرِ أزاهيـــرٌ وأنـــداءُ

ومنها قولها:

بشــرى لأهــلِ سمــاءٍ زارهــم قمــرٌ	نــورُ النبــوة مــن مســراه وضّــاءُ
محمــد حفّــه الــروح الأميــن إلــى	رحــاب قــدس إلــى الآيــات مَضّــاء

(نفحات الإيمان ص٩٧ و٩٨).

(٢) انظر: الكواكب السّائرة (١/ ٢٩٢)، وشذرات الذّهب (١٠/ ١٥٩) والدرّ المنثور (ص٣٠٣)، والأعلام (٣/ ٢٤١).

وذكر ابنُ الحنبلي: أنَّها دخلتْ حلب في هذه السَّنة، والسُّلطان الغوري بها لمصلحة لها كانت عنده، فاجتمعَ بها من وراء حجاب عند البدر السّيوفي، وتلميذه الشّمس السَّفيري[1] وغيرهما، ثمَّ عادت إلى دمشقَ وتوفيت بها في هذه السَّنة[2].

* قال محمّد أديب الحصني: توفيتْ بدمشقَ، ودُفنت بالصّالحية، وروى عنها بعضُ حَمَلةِ الأخبار أنَّها قالت: روي أنَّ عيسى ـ عليه السَّلام ـ خرجَ يوماً، فلقيه عدو اللهِ إبليس، وبيده عَسَل، وفي الأخرى رماد؛ فقال له ـ عليه السَّلام ـ: ما تفعل يا عدو الله بهذا العسل؟! قال: أضعه على شفاهِ المغتابين حتى يخوضوا فيه، وأرمد وجه اليتامى حتى يبغضهم النّاس[3].

* وفي الصَّالحيةِ تثوي عائشةُ الباعونية، وفي الصَّالحية دُفِنَ كثيرٌ من فحولِ العُلماءِ والأدباءِ والفقهاءِ، والمحدّثين، وعديد من فقيهاتِ وعالماتِ الإسلام، ولله درُّ مَنْ قال في الصَّالحية:

فـالصَّـالحيّـةُ جَنَّـةٌ والصَّـالحـونَ بِهَـا أقَـامُـوا
فعَلَـى الـدِّيـارِ وأَهْلِهـا منّـي التَّحيّـةُ والسَّـلامُ

* وقال غيره مشيراً لمن فيها من أعلام النّجوم، ونجوم الأعلام:

قَـدْ ظَفـرنَـا بعيشـةٍ مـرضيّـة مُـذْ حَلَلنـا فـي جنَّـةِ الصَّـالحيّـة
ورأيْنَـا الـزُّهـور تَبْسـمُ لُطفـاً عـن ثنايـا مـن النَّـدى لُـؤلـؤيّـة
حبـذا حبـذا معـانـي مَغَـانٍ كبـروجٍ حَـوَتْ نجـومـاً مضيّـة

* وبعد هذه الرّحلة الشّائقة مع عائشة الباعونية، نودِّعُ هذه الفاضلة، إحدى نوادِر نساء التَّاريخ اللواتي زيَّنَّ التَّاريخ بقلائدَ من جُمان الفَضْل والعلمِ والأدب.

* رحمَ الله عائشة الباعونية، وأسكنها فسيح الجنّات.

---

(١) انظر ترجمته في شذرات الذهب (١٠/٤٤٨).
(٢) الكواكب السّائرة (١/ ٢٩٢)، وشذرات الذهب (١٠/ ١٥٩).
(٣) انظر: منتخبات التّواريخ لدمشق للحصني (ص٥٩٣).



١٧

عائشة التيمورية

مِـنْ أَمِيْـرَاتِ البيَـانِ:

أديبةٌ فاضلةٌ، وحكيمةٌ عاقلةٌ، اختصَّها اللهُ بفصاحةِ اللسان، وحبَاهَا البلاغةَ والبيان؛ كانت مغرمةً بالافتنانِ في أفانينِ البلاغة والنَّظم المعتدل الأوزان، وهي نادرةُ الفلك، وواسطةُ عِقْدِ الدَّهر في نظم الشِّعر.

رغبتْ عنِ العملِ بالإبرةِ وخياطةِ الثِّياب، ورغبتْ في العِلْم إذ إنّه أربحُ المكاسبِ، وأرجحُ المناصبِ، وأرفعُ المراتب، وأنصعُ المناقب؛ فالعِلْمُ حرفةُ أهلِ الهمم؛ من الأمم، ونِحْلَةُ أهلِ الشَّرف، من الخَلَف.

ولم يزلْ في كلِّ عصْرٍ من حَمَلةِ العِلْم بدرٌ طالع، وزَهْرُ غصنٍ يانع، وعَلَمٌ ترنو إليه أبصار، وتشير إليه أصابع، سواء كان العلماءُ من الرِّجال؛ أو من النساء ذوات الخدور والحجال.

وضيفة اليوم واحدة من نساء القرن الماضي، رقّت ألفاظُها، وراقتْ معاني نثرها، وبرزتْ في الجمالِ أشعارُها، وتناهتْ في الحُسن والبراعةِ كلماتُها، فكانت آخرَ البليغات، وخاتمةَ الأديبات، لكنّها من الأوليات في ميدان البلاغة، والسَّابقة في امتلاك زمام القِرطاس واليراعة، فكان نظمها روضٌ كلُّه زَهْر، وسِلْك كلُّه درّ.

ولا عجبَ في كلامي عما قُلْتُه في هذه المرأةِ المعطاء، فقد جاءها ثناءٌ عَطِر من قُطْرٍ غيرِ قطرها، وقارّة غير قارّتها، إذ أثنتْ عليها إحدى بليغات عصرها، وإحدى بنات جنسها، فأعربتْ عن أدبها ومعرفتها، وأنّها زيَّنَتْ جِيْدَ وقتها بعلِمها؛ فقالت مادحة مثْنِية:

هـيَ فَخْـرُ النِّسـاءِ بَـلْ وَرْدَةٌ فـي　　جِيْـدِ ذَا العَصْـرِ زُيِّنَـتْ بـالعُلـوم

وعن سلسبيلِ فصاحَتِها، وسَيْلِ بلاغتها، ومَعِيْنِ أدبها، وغيثِ شِعْرها، ورهام[1] نثرِها، أعربت معاصرتُها ـ أيضاً ـ عن إعجابها بهذه الأديبةِ،

---

(١) «رِهَام»: مفردها: رِهْمة بالكسر، المطر الضعيف الدائم، وجمعها رِهَم ورِهام. ويقال: أرهمت السماء؛ أتتْ بالرهمة؛ قال أبو زيد: ومن الديمة: الرّهمة؛ وهي أشد وقعاً من الديمة وأسرع ذهاباً؛ وأبو رُهْم الأنماري، والسَّمعي، والغفاري، =

فنجستْ قصيدةً رائعةً سُدَاها الإعجابُ ولحمتُها الإطْراء بهذه التي فاقَتْها، وفاقتْ نساء عَصْرها ومِصْرها، فقالت:

فصِيْحَـةُ مَنْطِـقٍ نَـاغَـتْ بِلَفْـظٍ ... كَسلْسَـالٍ مـنَ الصَّهْبـاءِ عَـذْبِ
أَتَـتْ تـروي لنـا عـنْ لُطْـفِ ذاتٍ ... غَـدَتْ بـاللطـفِ تسبـي كـلَّ لُـبِّ
فَتَـاةٌ زَيَّنَـتْ جِيْـدَ المعَـالـي ... بِـدُرٍّ مـنْ حُلَـى الآداب رَطْـبِ
أَديْبَـةُ مَعْشَـرٍ شَـرُفَـتْ أُصُـولاً ... وسَـارتْ بيـنَ أقْـلاَم وكُتْـبِ
حَـوَتْ قَصـبَ السِّبـاق بكـلِّ فَـنّ ... ورَاضَتْ في المعاني كُلَّ صَعْبِ

ولعلَّ ظمأَ المعرفةِ قد ألهبَ مشاعرنا كيما نعرف هذه المرأة الفاضلة التي ملأتْ دنيا عصرها، وشغلتْ أدباء وأديبات وقتها، وما تزالُ معانيها تملأُ الأسماع، ومغانيها تروى في البلدان، والبقاع، وتطرِبُ شُداة الأدب، وتروي غلّة محبّي لغةِ العرب، هذه المرأةُ وصفتها الأديبة اللامعة: زينب يوسُف فواز بقولها: أديبةٌ فاضلةٌ، حكيمةٌ عاقلةٌ، بارعةٌ باهرةٌ، شاعرةٌ ناثرةٌ، رضَعَتْ أفاويقَ الأدبِ، وهي في مَهْدِ الطُّفوليّة، وتحلَّتْ بحلى لغاتِ العرب قبل تضلُّعِها باللغات التّركيّة، وفاقتْ على أقرانها فصاحةً عند بلوغها سِنَّ الرَّشاد، وصارت ندرةَ زمانِها بين أَهْل الإنشَاء والإنشاد[1].

وإذا علمنا أنَّ هذه الأديبة النَّادرة هي عائشةُ عِصْمَتْ بنتُ إسماعيل تيمور بن محمّد كاشف التّيمورية القاهريّة المصريّة[2]، فإننا نقفُ وقفةَ احترامٍ لما حملته هذه الفاضلة من محاسنِ المكارم في هذا العصر.

ويبدو أنَّ زينب فواز ـ وهي الأديبةُ اللامعةُ والنَّاثرةُ البارعةُ ـ قد أخذتها هِزّةُ الطَّرب، ونشوةُ الكلمات، فوصفتْ عائشة التّيمورية بقولها: لم تَدَعْ لولاّدَة مقالاً، ولم تترك للأخيليّة مجالاً، وقد أخنَستِ الخنساء، وأنستها

= وابن قيس الأشعري، وابن مطعم الأرحبي، وأبو رهْمة، وأبو رُهيمة، صحابيون. (القاموس المحيط ولسان العرب).

(١) الدرُّ المنثور في طبقات ربات الخدور لزينب يوسف فواز (ص٣٠٣).

(٢) الدر المنثور (ص٣٠٣ ـ ٣١٩)؛ وشاعرات العرب (ص٢٢٧ و٢٢٨)، وأعلام النساء (٣/ ١٦٢ ـ ١٧٩).

صخر، وسارت في مضمار أدباء هذا العصر[1].

نَشْأَتُهَا وَصُوَرٌ منْ حيَاتِهَا:

كان مولدُ عائشة التّيموريّة في أواسط القرنِ الثّالث عشر الهجري، حيثُ رأتِ النُّورَ في القاهرةِ سنة (١٢٥٦ هـ).

كانت عائشةُ ذاتَ أصلٍ تركي من جِهَةِ أبيها إسماعيل باشا تيمور، أمّا والدتها «معتوقة» فهي من أصلٍ جركسي، من الأُسَر الجركسيّة التي قدمتْ مصرَ، واستقرَّتْ فيها منذ أمَدٍ سحيق.

كانت مصرُ في عصرِ عائشة التَّيموريّة تعيشُ حياةَ الهدوء والبَساطة، وكانتِ المرأةُ تعيشُ هذه الحياة المتواضعة رضيّةَ النَّفس، راضيةَ القلب؛ وكانت عامة البنات يَعِشْنَ كما تريدُ لهنَّ أمّهاتهنَّ أنْ يَعِشْنَ، فَكُنَّ يتعلَّمن التَّطريز الذي كان سائداً، ويتعلمْنَ أشغالَ الإبرة وخياطةَ الملابس، ولم يكن ذلك الوقتُ يسمح للمرأةِ أنْ تقرأَ، وأنْ تطالعَ، وأن تتعلّمَ في المدارس، إلا أنَّ بعضهن كُنَّ يتعلَّمْن القُرآن الكريم على فقيهِ البيت ـ إن كان هنالك فقيه ـ.

---

(١) الدر المنثور (ص٣٠٣)، أقول: إنَّ هذا الوصفَ من زينب فواز هو من قبيل المبالغة والإغراق، فالنّسوة اللاتي ذكرتهن وهن: ولّادة بنتُ المستكفي، وليلى الأخيلية، والخنساء، كلّهن من مشاهير أعلام النّساء، وخصوصاً الخنساء، وما أدراك ما الخنساء، يكفيها من الفخر أنّها تنتظم في عِقْد الصّحابيات اللواتي شرفن بالصّحبة النّبوية، وأي فَضْل أعلى من هذا الفضل؟! ناهيك بفصاحةِ الخنساء وشعرها الذي تحلّت به كتبُ الأدب والتّراجم في مختلفِ العصور، وتزيّنت به المجالسُ في مختلف الدهور. وأمّا ولادة وليلى الأخيلية فهما من نوابغ وشواعر نساء العرب، بل من أكثرهن فصاحة، وأبلغهن بياناً، ولا مجال للمقارنة بين عائشة التيمورية وبينهن.
وعلى الرغم من إعجابنا بعائشة، ولكن من الأحسن أن نقارن بينهن في بعض القصائد، أو نقارن بين عائشة وبين نساء عاصرنَها ممن ينتسبنَ إلى البلاغة وفصْل الخطاب، أليس كذلك؟!!

نشأت عائشةُ في هذا العصر، ولما انطوى بساط مهدها، وشبَّت عن الطّوقِ ففرَّقَتْ بين أبيها وجدّها، أخذت والدتها تهتمُّ بتعليمها صنعةَ التّطريز أسوة بسائرِ فتيات مصر، والعالَم الإسلامي حينذاك؛ وسارعتْ أمُّها فأحضرتْ ما يلزمُها من أدوات تُعينُها على فَنِّ التَّطريز، وخياطة الملابس، وعملِ الإبرة؛ إلا أنَّ رغبةَ عائشة كانت متوجّهة إلى أبعد من ذلك، فقد كانتْ ميولُها تتّجهُ إلى تطريزِ الكلام، وصياغة المعاني في أجمل نظام، فاصطدمتْ رغبتُها برغبة أمّها؛ ورأتِ الأمُّ أنَّ ميولَ ابنتها عائشة وحبَّها للقراءة والمطالعة نَكِرَةٌ في ذلك العَصْرِ، وصيحةٌ في وادٍ سحيق، وغثاءٌ لا يغني ولا يفيد.

ويبدو أنَّ أمَّ عائشة كانت ترى بأنَّ ابنتها قد عقَّتْ مهنةَ التّطريز، وعَصَتْ أعمالَ الإبرة؛ فكانت تسألُ اللهَ أنْ يهديَها سبيلَ صنعةٍ توافقُ مستواها، وتليقُ بها، وكثيراً ما كانت تدعو اللهَ بأنْ يُكَرِّهَ عائشة القراءةَ والمطالعةَ والعلمَ، وكانت أحياناً تزجُرها كي تمتنعَ عن هذه العادة التي لم تألفْها عينُها منذ أنْ نشأتْ إلى وقتها الحاضر.

ولم تستطعْ والدةُ عائشة أنْ تمتلكَ عَقْلَ ابنتها، بل لم تقدرْ أنْ تكبحَ جماحَ ميولها الأدبية، فقد كانت أفكارُ عائشة غير متّجهة إلى رغبةِ أمّها، وإنّما كان جُلّ مرغوبها تَعَلُّم القراءة والكتابة، وكانت والدتُها تمنعها منْ ذلك، وتبعدها عن الحضور مع الكتاب، وتجبرها على تعلُّم التّطريز؛ هنالك كانت عائشةُ تزدادُ نفوراً من طلبِ والدتها ومن رغباتها في تعلّمِ الخياطةِ والتّطريز وما شابه ذلك.

وكان والدُ عائشة إسماعيل بن محمّد تيمور باشا رجُلاً لمّاحاً، قد هذَّبَتْه الحياةُ، وصقلتْ أخلاقَه، فكان يرى ما يدورُ بين زوجه وبين ابنته، فيعرضُ باديءَ الأمْرِ إعراضَ الهاديء المفكّر، ولا يكادُ يلقي لهما بالاً، ويرى أنَّ التَّدخلَ في شأنَيْهما لا يثمرُ؛ لكنَّه عندما رأى الجدلَ قد تطاولتْ فروعُه، وثبتتْ أصولُه ـ وكادَ يقضي على ميولِ ابنته عائشة التي تلوحُ عليها مخايل الذّكاء ـ، عندها توقّعَ أنْ يكونَ لابنته مستقبلاً زاهراً، وتفرَّسَ فيها النّجابة،

فوضع حَدّاً لتلك الخلافاتِ وقال لزوجه: دعيها فإنَّ ميلَها للقراءةِ أقرب[١].

ومنذُ ذلك الوقت، سارعَ والدها، وأحضرَ لها اثنين من الأساتذة، أحدهما يُدعى: إبراهيم أفندي مؤنس الذي كان يعلّمُها القرآنَ الكريم وعلومَه، والفقْهَ الإسلامي، والخطَّ العربي الذي تزيِّنُ فيه كتابتَها، فقد كان القدماءُ يعتبرون أنَّ الخطَّ الحسنَ الجميل يزيّنُ الأفكارَ والمعاني، ويزيدُ الحقَّ وضوحاً. أمّا الأستاذ الآخر فيُدعى: خليل أفندي رجائي، وكان يعلّمُها النَّحو وعلمَ الصَّرف، بالإضافةِ إلى تلقينها اللغة الفارسية حتى برعت فيها، وصارت تكتبُ الشّعر والنَّثْر في هذه اللغة.

وأخذَ هذان الأستاذان يعلّمان عائشة كلَّ ما تحتاج إليه من معارفَ متنوعةٍ، حتى غدت نادرة عصرها ولما يشتدّ عودها، وظهرت ميولُها العلميّة والمعرفية، وهي ما تزالُ في بداية العقد الثّاني من حياتها.

عَائشَــةُ وهَمَســاتٌ منْ ذِكْرَيــاتِ والدَيْهــا:

عندما أيفعتْ عائشةُ راحت تسجِّل فَضْل والدها عليها في تعلّمها وتعليمها، ولم تنسَ أنْ تنوِّه إلى نباهَتِهِ، ويقظته واهتمامه بها، ومعرفته ميولَها ورغباتها رغم صغَر سنّها، كما أنّها سجّلت تلك الهَمَسات التي كانت تدورُ بينه وبين أمّها، وبينها وبين أمّها، وخصوصاً عندما كانتْ تراها عاكفةً على الكتابِ، وعلى دواوين الشّعر، فتقولُ في أسلوب ساحرٍ آسِر: وتعنّفُني بالتّكدير والتّهديد، فلمْ أَزِدْ إلا نفوراً، وعن صنعةِ التّطريز قصوراً، فبادر والدي تغمّدَ اللهُ بالغفران ثراه، وجعل غُرف الفردوس مأْواه، وقال لها: دعي هذه الطُّفَيْلة للقرطاسِ والقلم، ودونك شقيقتها[٢] فأدبيها بما شئتِ من

---

(١) الدر المنثور (ص٣٠٣).

(٢) كان لعائشة التّيمورية شقيقتان:

الأولى: اسمها عفّت ماتتْ في حياتها، ورثَتْها عائشةُ بقصيدة مؤثّرة آسرة في ديوانها «حلية الطراز».

الثّانية: وتُدعى مُنيرة، وكانت قد تزوّجت من رجل اسمه عليّ باشا آصف. وماتتْ منيرة هذه بعد وفاةِ أختها عائشة، وهاتان الأختان لم يُؤثر عنهما شيءٌ من الأدبِ أو=

الحكم. ثمّ أخذ بيدي وخرجَ بي إلى محفل الكتاب، ورتَّبَ لي أستاذَيْن: أحدهما لتعليمِ اللغة الفارسية؛ والثّاني لتلقين العلوم العربية؛ وصار يَسمعُ ما أتلقّاه منَ الدروسِ كل ليلة بنفسه[1].

وتتدفَّقُ إلى ذهن عائشة التّيمورية تلك الهمسَات من ذكرياتها الطُّفولية، وذلك الميلُ للأدبِ والشَّغف بالمطَالعة، وفي همسة من همسَات ذكرياتها مع أمّها ـ التي كانت تحثُّها على تعلُّم التّطريز ـ كانت تقولُ لها: يا عائشة، إنَّ هذا المِنْسج هو أداةُ النِّساء، وأستاذُ المعارف لبنات حواء.

إلا أنَّ عائشة كانت ذات رأي يخالفُ هوى أمّها، وكان رأيُها حُبَّ المعرفةِ والعلْم، والنّفور من تلك المهنة البغيضة إلى نفسها، تقولُ عائشة: وبالرّغم ممّا كان متأصِّلاً في نفسي منَ الميلِ إلى تحصيلِ المعارف من جهةٍ، والحصول على رضا والدتي من جهةٍ أخرى، فإنَّ نفسي ما برحت نافرةً منَ المشاغل النّسوية[2].

وتهبُّ نسماتُ الذّكريات على عائشة، فإذا بها تستحضر ذكريات والدها، فتسجِّل له فَضْلاً، لأنَّه رأفَ بقلبها الصَّغير، واختصّها بجُلِّ اهتمامه، وكفَّ يدَ والدتها عنها، مع وجود احترامها.

ومن سِجلِّ ذكريات عائشة نستعرضُ هذه اللوحة الجميلة التي ترسمُ فيها صُوراً حلوةً عن حياتها الطُّفولية، وعن شغفها بالأدب، تقولُ عائشة: ولكنَّ أمّي ـ أقرّها الله في رياض الفراديس ـ كانت تتأذّى من عَمَلي هذا[3]، فتقابلني عليه بالتَّعنيفِ والتَّهديد والإنذارِ والوعيدِ، وتجنحُ أحياناً إلى الوعودِ اللطيفة، والتّرغيب بالحلي والحُللِ الطَّريفة؛ أمّا أبي ـ رحمه الله ـ فكان يخاطبُها بمعنى قول الشَّاعر التّركي: «إنَّ القلبَ لا يهتدي بالقوة إلى

= الشعر أو المعرفة.

(١) نساء من الإسلام (١/ ٤٥).

(٢) نساء من الإسلام (١/ ٤٦).

(٣) أي: من حب عائشة للعلم والأدب والكتب.

الطَّريق المطلوب، فلا تجعلِ النَّفس معذّبةً في يدِ اقتدارك»، فاحذري من أنْ تكسري قلْبَ هذه الصَّغيرة، وأنْ تثلمي بالعنفِ طهرَه، وما دامت ابنتنا ميّالةً بطبعها إلى المحابرِ والأوراق، فلا تقفي في سبيلِ ميلها ورغبتها، وتعالَي نتقاسم بنتينا: فخُذي «عِفَّت»، وأعطيني «عِصْمَت» ـ أي: عائشة ـ، وإذا كانت لي من عصمت كاتبة وشاعرة، فسيكونُ ذلك مجلبةَ الرحمةِ لي بعد مَماتي.

ثمَّ وجَّه أبي خطابه إليَّ قائلاً: تعالي إليَّ يا عصمت، ومنذ غَدٍ سآتيك بأستاذَيْن يعلّمانِك التّركية، والفارسيّة، والفقه، ونحو اللغة العربية، فاجتهدي في دروسك، واتّبعي ما أرشدك إليه، واحذري أنْ أقفَ موقفَ الخجلِ أمام أُمّك؛ فوعدتُ أبي بامتثالِ هذا، ووعدتُه على أنّي سأبذلُ جهدي لأكونَ موضع ثقته، ومحقّقة أمله.

وتتوقّفُ عائشة عنِ الحديث؛ لكنْ هل توقفّتْ رغبتها عند تعلُّمِ القُرآن الكريم، والصَّرف، واللغةِ الفارسية؟! يبدو أنَّ مداركَ عائشة كانت تطاولُ جوزاءَ المعرفةِ، فقد تاقتْ نفسُها إلى مطالعةِ الكتب الأدبيّة المتنوّعة، واستهوتها الدَّواوينُ الشّعرية لفحولِ الشّعراء، فعكفتْ عليها تقرؤها بشهيّةٍ عجيبةٍ، فترتسمُ معانيها في ذهنها، حتى تولّدت عندها ملكةٌ جيّدةٌ منَ التَّصوُّراتِ الفائقةِ لمعاني التّشبيهات الغزليّة وخلافها، وعمرها لم يعانِق ـ إذ ذاك ـ الرّبيعَ الثَّالث عشر، وكانت يدُ والدها الحانية، وتوجيهاتُه الأليفة تمهِّدُ لها الطّريق[1]، وكان يرشدُها إلى قراءة الشّعر وفنونه وأنواعه، ويشيرُ

---

(١) كان والدُ عائشة التيمورية من الآباءِ الذين يعرفون ويدركون كيف يكونوا أساتذةً وأصدقاء لأولادهم، وقد حقّقت عائشة ظنَّ أبيها فيها، إذ التزمت بالعِلْم. وتروي عائشة جانباً من حياتها العلمية وعناية أبيها فيها فتقول: وكنتُ منكبةً على دروسي أجتهدُ فيها فوق ما كان ينتظرُ أبي منّي، غير أنَّ أبي لم يكن يأذنُ لي بالخروج إلى مجالسِ الرّجال، وتولّى بنفسه تعليمي كتُب البلاغة الفارسية مثل: شاهنامة الفردوسي؛ والمثنوي الشّريف، واختصّني من ساعتَيْن من وقتهِ كلّ ليلة أقرأُ فيهما عليه.

إليها أنْ تبتعدَ عنِ الشِّعر الغزلي قائلاً: يا عائشة، إنّك إذا أكثرتِ من مُطالعة الشِّعر الغزلي، فسيكون ذلك سببُ زوال كلّ دروسك منْ ذاكرتك[1].

بيْنَ الأَدَبِ وَالزَّوَاج:

* في سكونِ الليلِ، وفي هدوء الصَّباح، وفي أُويقات اعتلالِ النَّسيم في أصائِله، كانت عائشةُ تتخذُ من القراءة رفيقاً لها، ودليلاً لعقلها، وأنيساً لفؤادها، ورُوحاً وريحاناً لنفسها، فغدتِ الكلماتُ تنسابُ عذبةً من شفَتيْها، وراحتِ الألفاظُ تنثالُ رقيقةً على لسانها، وتمدّها بناتُ أفكارِها بأَبْكارِ المعاني، ويولدُ عقلُها عرائسَ الكلام.

* وكان والدُها يراقبُ ويرقبُ هذه العبقرية عن كَثَب، فتحتلّ الفرحةُ جوانحه، ويداعبُ السّرور جوارحَه، ويناغي الإعجاب وجدانَه وحناياه، فيجعله ذلك في سعادةٍ عامرة غامرة.

* ولما صارتْ قريحةُ عائشةَ تجودُ بمعانٍ مبكرة لم يسبقْها عليها غيرها، رأى والدها أنْ يستحضرَ لها أساتذة عروضيين منَ النّساء الأديبات الشّواعر الكاتبات، ولما قوي عزمُه على ذلك، صار زواجُها من رجلٍ يدعى: «محمود بك الإسلامبولي»، وكان ذلك الزّواج في سنة (١٢٧١ هـ)، وعمرها إذ ذاك (١٥ ربيعاً)، وعندها انتقلتْ معهُ إلى الآستانة عاصمة الخلافة العُثمانية عصر ذاك.

* وهناك اقتصرتْ عائشةُ على المطالعة، والقراءة، وإنشاد الأشعار،

---

(١) انظر: نساء من الإسلام (١/ ٤٧)؛ ولعلَّ كلّ هذا لم يَرْوِ ظمأَ عائشة في حُبّها للعلم والتعلُّم، فقد كانت تتوقُ وتتشوّقُ إلى أنْ تنهلَ المزيدَ منَ التُّراث، وتَعُبَّ منه كي ترويَ غُلَّتها، وتملأَ مزودها، فأخذتْ تطالعُ الكتب الأدبية، والدّواوين الشعرية، ثم تطلَعتْ نفسُها إلى تعلُّمِ اللغة التركية، فأجادتها بوقت غير بعيد، وبرعتْ فيها براعةً رائعة، وصارت تنشد الشّعر بلغات ثلاث: عربيّة، فارسيّة، وتركيّة.
ويبدو أنَّ أباها هو الذي بعثَ فيها هذا الاندفاع، وحبَّبَ إليها العِلْم والتعلّم، وحثّها على تعلّم التّركية قائلاً: يا عائشة! إنَّ الشّعر إذا لم يكن باللغات الثّلاث: العربية، والفارسية، والتّركية، لا تكون له حلاوة.

ومناغاة الطُّيور مع نَسمَات الأسحار، وترديد ما يجولُ به خاطرها من النَّظم والأفكار؛ والتفتتْ إلى تدبيرِ المنزل، وما يلزم له، خصوصاً حينما رُزقتْ بالأولادِ والبنات، وكانت قد رُزقت بابنة اسمها «توحيدة» فأغْرِمَتْ بها غراماً شديداً، ورأتْ فيها أملَ دنياها، ودنيا أملها؛ وبقيتْ عائشةُ على هذا الحال حتى كبرت ابنتها توحيدة، هنالك ألقَتْ إليها زمام منزلها.

وكان لهذه الفتاة توحيدة مكانةٌ عظمى، ومنزلةٌ كبرى في نفس أمّها عائشة، بل إنَّ توحيدة قد أخذتْ نصيباً كبيراً ومساحةً واسعةً من نَثْر وشعْرِ أمّها عائشة، بل واحتلّت رقعةً كبيرةً من حياتها، فهي روحُ أنسِها، وأنْسُ روحِها، ونفحةُ نفسها؛ ويبدو أنَّ توحيدةَ هذه قد استلبتْ قلبَ أمّها، فكان فؤادُ عائشة فارغاً إلا من محبّة توحيدة، وبهذا كان لتوحيدة من محبّة أمّها نصيبٌ فوق نصيب كلّ إخوتها وأخواتها.

وعن مكانةِ توحيدة تتحدَّثُ عائشةُ فتقول: وبعد انقضاءِ عشر سَنوات كانتِ الثّمرةُ الأولى من ثَمرات فؤادي ـ وهي توحيدة نفحة نفسي وروح أنسي ـ قد بلغتِ التَّاسعةَ من عمرها، فكنتُ أتمتّع برؤيتها، تقضي يومها منَ الصَّباح إلى الظُّهر بين المحابر والأقلام، وتشتغلُ بقيةَ يومها إلى المساء بإبرتها فتنسج بها بدائع الصَّنائع، فأدعو لها بالتّوفيق شاعرة بحزني على ما فرطَ مني يوم كنتُ في سِنّها من النَّفرة في مثلِ هذا العمل؛ ولما بلغت ابنتي الثّانية عشرة من عمرها، عمدت إلى خدمة أمّها وأبيها، فَضْلاً عن مباشرتها إدارة المنزل ومَنْ فيه مِنَ الخدمِ والأتباع، فتسنّى لي أنْ أنصرفَ إلى زوايا الرّاحة.

ويبدو لي أنَّ ابنتها توحيدة كانت فتاةً متوقّدةَ الذّكاء، صافيةَ الذّهن، استطاعت أنْ تلمَّ بِفَنِّ العَروض، وتكتسبَ بعضَ المعارف، مما زادَ عائشة ولَعاً بها، لما حَبَاها اللهُ من مواهبَ وحسناتٍ، لم توجدْ بغيرها منَ البَنات، ولذا فقد كان لتوحيدة شأنٌ وأي شأن في مشاعر وشعر عائشة؛ ـ كما سنرى إن شاء الله ـ.

عَوَاصِفُ في حَيَاةِ عَائِشَةَ:

لم تستمرّ حياةُ عائشة التّيمورية صافيةً تهبُّ عليها أرواحُ الأنْسام، وتناغيها أطيافُ الأحلام، وتبدعُ في معاني النّظم والكلام، وتتحفُ الأدبَ بما جادت عليها عبقرية الإلهام؛ وإنّما مرت بها بعضُ الأمور، وعصفتْ بها بعضُ الحوادث، فكان لذلك كبير الأثر في أدبها ونظمها وسلوكها، ومن كبرياتِ العواصف التي هزّتْها هزّاً عنيفاً، وأرّقَتْها زَمَناً طويلاً موت ابنتها توحيدة وهي عروس ـ كما سنرى بعد ـ.

ومن عواصفِ الأمور في حياتها وفاة والدها إسماعيل تيمور، ففي عام (١٢٨٩ هـ) وفاتِ المنيةُ أباها؛ ثمَّ جاءتها هزّة أخرى زلزلت كيانها، وذلك بعد ثلاثة أعوام من وفاةِ والدها، فقد تُوفي زوجها أيضاً عام (١٢٩٢ هـ)، فأثَّر ذلك فيها كثيراً، وعادت إلى مصرَ، وصارت حاكمة نفسها، وعكفتْ على الأدبِ تعبُّ منه ما يطفىءُ من فراغِها وحزنها، وأخذتْ تنشرُ مقالاتها الحلوة الهادفة في الصُّحف والدّوريات.

وأخذتْ طموحاتُ عائشة التّيمورية تشرئبُّ بأعناقها نحو المعالي، وأحبَّتْ أنْ تتنسَّمَ ذِروةَ الشّعر، وتتسنَّمَ معرفةَ عَروْضِهِ وبحوره، لتبحرَ في بحارِه، وتشدو بأرقِّ الكلمات؛ وهي تمخرُ عبابَ عِذابِ العبارات، لذلك عَجَمَتْ عيدانَ عزيمتها، وأرهفتْ حدَّ ظُبَاتِها، كيما تحقق هذا الهدفَ المنشود، والأملِ المعقود، فقصدت عالمات تدرسُ على أيديهن هذا الفنّ، ولم تلقِ عصا التّسيار بعيداً، وإنما أَلْفَتْ ما ترنو إليه عند امرأتين أديبتَيْن عالمتين هما: فاطمة الأزهريّة، وستيتة الطّبلاوية. وهكذا وجدت لها معلّمات وزميلات يقرأنَ الأدبَ، ويعرفنَ فَنَّ الشّعر والعروض، وأحضرتْهُما وتتلمذت عليهما، وتلقَّتْ علومَ العربية عن امرأةٍ أزهرية هي فاطمة الأزهرية التي تخرجَّتْ في الأزهر، وبرعتْ في العِلْم والأدب، كما أخذتِ النَّحو والعروضَ عن ستيتة الطبلاوية الأديبة الفاضلة التي برعت في النّحو والصّرف والعروض.

وعلى هاتَيْن الأديبتَيْن العالمتَيْن أسست عائشةُ التيمورية معارفَها في فنِّ

الشّعر وعمودِ الأدب، كما أنَّها اقتسبتْ من أخلاقهما الفاضلة، ومن معارفهما، ما جعلها بارعةً في مجالِ الأدبِ والأخلاقِ، حتى غطَّتْ شهرتها شهرة هاتَيْن الأستاذتَيْن الفاضلتَيْن.

لقد درست عائشةُ من الفنون خيرَ ما كان يدرسُه أبناء ذلك الجيل، وضارعت في النَّظم أحسن مَنْ نظموا فيه، وأتقنت بحورَ الشِّعر، وأحسنت نظمه، فصارت تنشدُ القصائدَ المطولة، والأزجالَ المنوعة، والموشحات البديعة التي لم يسبقْها أحدٌ إلى معانيها، أو شدو مغانيها[1].

هذا؛ وقد جمعتْ عائشةُ من ذلك ثلاثة دواوين شعرية، بثلاث لغات: عربيّة، وتركيّة، وفارسيّة؛ ولكنَّ هذا الديوان لم يُكتبْ له الخلود، ولم تستطعْ أن تطبعه لظروفٍ مرّتْ بها ـ سنعرضها فيما بعد ـ؛ وقد جعلتها تلك الظّروف ملكةَ الرّثاءِ في وقتها.

خَنْسَاءُ العَصْرِ وَيَتِيْمَةُ الدَّهْرِ:

بينما كانت عائشةُ التيمورية ـ رحمها الله ـ تتألّقُ في أجواءِ الشّهرة، وتأخذُ مكانَها بين كواكبِ السَّحَرِ في سماءِ العظائم، وتقتعدُ سدَّةَ نورِ المعرفة في سَواد الظَّلام، وتلمعُ بأفكارها وأشعارها في جنحِ الليالي؛ في هذه الأثناء توخّى حمامُ الموتِ ابنتَها توحيدة، وواسطةَ عقْد آمالها، والتي كانت أملَ حياتها وحياةَ أملها، وأُنْس همساتها، وهمسات أنْسها؛ ماتتْ ابنتُها فماتتْ معها تطلّعات عائشة، وتبعثرتْ دُررُ أقوالها، فقد أثَّر فيها موتُ ابنتها أثراً كبيراً، لأنّها ماتتْ في زهْرةِ عمرها، إذ كانت في ربيعها الثّامن عشر، وقد وافاها الأجلُ وفاجأها الموتُ وهي في الذِّروة العُليا من سرورها الذي كانت تعيشُه، لقد أصابها المرضُ وهي في ريعان شبابها، وفتكَ بها في رمضان سنة (١٢٩٤ هـ)، وفي شهر زفافها، ومن هنا كانت فاجعةُ عائشة بابنتها كبيرة جدّاً، فقد رأت توحيدة مخلوقاً جامداً في حضنها، مخلوقاً

---

(١) قال عبّاس محمود العقاد: وشعرُها يعلو إلى أرفع طبقةٍ منَ الشّعر، ارتفعَ إليها أدباء مصر في أواسط القرن التاسع عشر.

هامداً لا حراك به، فأخذتْ تبكيها أَحرَّ بكاء، وأضحتْ ترى الكونَ متهدماً مظلماً، عندما أغمضت ابنتها عينيها إلى الأبد.

يا ويحَ عائشة! ويا حسرتها! لقد فقدت ابنتها في زينةِ شبابها، فلم تُمَتَّع بالشّباب، ماتتِ ابنتُها في مرض خفي لم يستطع الأطباءُ إنقاذها من براثنهِ فَضْلاً عن تحديد هويته التي ما زالت مجهولة لأمّها. وكثيراً ما يكونُ الحزن شديداً إذا لم يُعرفِ السَّببُ، ومن هنا كان حزن عائشة طويلاً عريضاً لفقدها ابنتها، وفقدها أنْسَها وأدبها وظرفها وشاعريتها الغضة.

* ترجمتْ عائشة بعضَ جوانبِ أحزانها وأشجانها في ذلك فقالت: قبل أنْ تنطرحَ ـ توحيدة ـ على فراشِ المرض، فاجأتُها في أحدِ الأوقات، وهي في رداءِ نومها، وبين أناملها قلمٌ تكتبُ به القطعة العربيّة الآتية:

اسمــعْ مقَــالــي يــا أَريْــب ... وقصّتــي شــرحٌ مــريــب

قــد كنــتُ فــي دَوحِ الصِّبــا ... أهْتَــزُّ كــالغُصْــنِ الــرطيــب

أصْبَحــت حَــالــي عبــرةً ... يبكــي علــى مثلــي الغَــريــب

كــلاّ ولا لــي مَنْهَــلٌ ... أُروى بــه إلاّ النّحيــب

فــالــدّمــعُ منّــي ســاجــمٌ ... والــرّمْــسُ أضحــى لــي قــريــب

يــا ربِّ عَجّــل رحلتــي ... واغفــرْ ذنــوبــي بــالحبيــب

فلمّا رأتني مقبلةً عليها، دسَّتْ رقعةَ الشِّعر تحت وسادتها بسرعة، ولكنّي بادرتُ في الحال لاستخراجها، فاختَطَفَتْها منّي، ثمّ خاطبتني قائلة: لا تعبئي يا أمّي المشفقة بمثلِ هذه الثّرثرة.

ثم قالت لجاريتها: خُذي هذي الورقة فاحرقيها. فلحقْتُ بالجاريةِ وأخذتُ الورقةَ منها، وألححتُ عليها بالسّؤال فأجابتني: إنَّ سيدتي تتناولُ الطَّعام معك إذعاناً لرأفةِ أمومتك، ولكنَّ الطَّعام لا يبقى بعد ذلك لحظةً في جوفها، وهي تذهبُ كلَّ ليلةٍ إلى سرير نومها تطميناً لقلبك، غيرَ أنّها لا يغمضُ لها جَفْن.

بهذه النّبرات الهامسات ترسمُ كلُّ واحدةٍ منَ المرأَتَيْن؛ ـ عائشة وابنتها ـ

عواطفهما وقلبهما على الورقِ، وكلّ واحدة منهما تنظرُ للأخرى بعين الشَّفقة، وعين العطف.

ولكنَّ عينَ العطف منَ الأمِّ كانت أكثر استمراراً، إذ إنّها استمرتْ في الحياةِ قرابة ثلث قرن بعد ابنتها وهي ترسمُ مشاعرها بالكلماتِ المؤثّرة في التّفجع والتَّوجع والأنين؛ بينما كانت ابنتها ـ من قبل ـ قد عرفت أنّها ستلاقي وجْه الكريمِ المتعال، وأنَّه لا مجال لبُرئها وخلاصها من وهدة المرض، وها هي تخاطبُ أمّها برقيقِ اللفظ، وحنانِ الشَّفقة، وتسكب في وجدانها أنْ لا مناصَ من الموت، ولا مفرَّ من المرض، وسيبقى وجهُ اللهِ ذو الجلال والإكرام، فكلُّ مَنْ على الأرض فانٍ وصائرٌ إلى الزَّوال، وكأنّها لحظاتُ وداع، وحقّاً كانت تلكم لحظاتُ الوداع، اسمعها تقول: عبثاً تدفعك الشّفقة يا أماه إلى معالجةِ أمراضي، فإنَّه قد آنَ الأوان، ولا مناص من تلبية المنادي: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، وإنّي أضرعُ إلى الله أنْ يلهمَك صَبْرَ أيّوبَ، وأنْ يمنحَني نعمةَ رضاك، فيكون ذلك سبب الرّحمةِ، والتّجاوزِ عن سيئاتي، وأنْ يصونَ شقيقي وإخوتي. ثمّ ضمَّتْني إلى صدرها فاعتنقنا، وبتنا ليلتنا إلى الصَّباح في بكاءٍ وانتحابٍ ونواح.

* واستولى الحزنُ على عائشة، وغلَّفها الأسفُ الشَّديدُ، حيث إنَّ ابنتَها توحيدة كانت مدبرة منزلها، ولم تحوجْهَا لأحدٍ، بل كانت ملهمتها في شِعْرها الذي تفرّغت له فتفرّغ لها، وسالَ على لسانها، فأسالَ إعجابَ الأدباء والعُلماء والكتّاب، فأثنوا على أدبها، وأطروا شعرَها بعرائسِ الكلام البديع الذي يرفعُ مِنْ مقدارها الأدبي.

* وبموتِ توحيدة، تركتْ عائشةُ الشّعر، وأعرضت عن العروضِ، وزَحَفَتْ عليها العِللُ، وفرّقت بينها وبين المعرفة ودنيا العلم. ثم إنَّ عائشة جعلتْ ديدنَها الرّثاء والنّوح مدّة سَبْع سنوات كانت عجافاً أكلت سِمَانَ أدبها وكثيراً من شِعْرها، ومن ثمَّ أصابها رَمَدُ العيون، وكان الحزنُ يذهبُ بضياءِ عينيها، بل كادت عيناها تبيضُّ منَ الحزن، ويكاد يقضي عليها الأسى لولا أن كثرتْ لواحيها، وكثر عواذلُها من أولادِها وأقاربها وصُويحباتها،

ونَصَحها النّاصحون والأحبابُ، وأشفقوا عليها مما هي فيه لتقلعَ عن الحزن والنّوح، فربما تصبحُ إذا ما استمرت على ذلك رهينة المحبسين[1]، وعندها أقلعتْ عن البكاء والنَّوحِ، فشَفاها الله مما نزلَ بعيونها؛ وبعد أنْ شُفيت من مرضِ عينيها أنشأَتْ تقول:

مَـــرَّتْ مُشَيّـــدةً مَـــا مَسَّهَـــا لَغَـــبٌ
شَفَـافُ مَنْظِـرِهَـا فـي أَحْسَـنِ الخُلُـقِ
ونُـــورُهَـــا ضَـــاحِــكٌ تَبــدو نَــواجِــذهُ
لمـا تَـنَـفَّـسَ صُبْـحُ الصَّحـوِ عـن شَفَـقِ
قَـــد ضَـــمَّ بـــالشَّـــوقِ مَحْبُـوبـاً يعـوِّذُه
مِـــنَ الـــوشَـــاةِ بـــربِّ النُّـــورِ والفَلَــقِ[2]

ورسمتْ عائشةُ أيضاً قصّة شفائها بالكلماتِ النّثرية الحلوة فقالت: أصبح جسمي الضّعيف كأنّه فاقدُ الحياةِ لكثرة أتعابي وأوصابي، ثمّ أنعمَ اللهُ علي بالشّفاء، وأشرقت ظلماتُ كآبتي بنور وجود ابني محمود، فكان فرحةَ بيتِ الحزن.

إنَّ شفاءَ عيون عائشة لم يتوقفْ أمامَ عواطفِها، بل شَدَتْ بأبدع أشعار الرّثاء في ابنتها، وصاغَتْ أعذبَ كلماتِ الحزن التي تُصَافح الوِجدان، وجدَّدت ذكرى الخنساء تلكم الشّاعرة الباكية الرّاثية، التي لم يكنْ منَ

(١) «رهين المحبسين»: هو لقب لأبي العلاء المعري؛ وذلك لعَمَاه ولزومه البيت، ولذا سمي بذلك وقِسْنا عليه عائشة التيمورية بذلك. يقول المعري وقد اعتبر نفسه أنه رهين لثلاثة محابس:

أراني في الثلاثةِ من سجوني ... فلا تسأل عن الخبر النبيثِ
لفقدي ناظري ولزوم بيتي ... وكون النفس في الجسم الخبيثِ

(٢) انظر: حلية الطراز: شعر عائشة التّيمورية (ص١٩٠)، ولاحظ معي ـ أيّها القارىء الكريم ـ تأثّر الشّاعرة عائشة بألفاظ ومعاني القرآن الكريم من خلال الكلمات التّالية: مَسَّها لَغَبٌ، تنفسَّ صبح، الفلق، يعوِّذه، شَفق؛ وشعر عائشة التّيمورية ـ في مجمله ـ قد تأثَّر تأثراً كبيراً في القرآن الكريم في ألفاظه ومعانيه وصوره ونواحيه ـ كما سنرى في الصَّفحات القادمة بعون الله ومشيئته ـ.

الشَّواعر المعروفاتِ من بعدها إلا مقلّدات مُردّدات، حتى جاءت عائشة التَّيموريّة، فجوَّدتِ الرّثاءَ في ابنتها توحيدة، وأتتْ ببدائع المعاني، وحركتِ المشاعرِ بهاتيك المباني، فكانت بذلك يتيمةَ دهرها، وعَصْرةَ أهل عصرِها، وخنساءَ[1] وقتها.

ومن أبدعِ رثاء عائشة لابنتها، تلك القصيدة الرّائية التي بلغت خمسينَ بيتاً، وهي من أرقّ شعرها وأصدقهِ عاطفةً، وأجملهِ تصويراً، وأحلاهُ موقعاً في النُّفوسِ، فقد قالت في مطلِعها:

إنْ سَــالَ مِــنْ غَــرْبِ العُيــون بُحــورُ
فــالــدَّهــرُ بَــاغٍ والــزَّمــانُ غَــدورُ

وفيها تشيرُ وتذكرُ ما حلَّ بابنتها من مرضٍ، وكيف مضَتْ وهي في عمر أزاهِر الورْد، وأزاهير الصّبا، ثمّ تذكر حزنها فتقول:

سُتِرَ السنا وتحجَّبتْ شَمسُ الضُّحى ... وتنقَّبَــتْ بعــدَ الشُّــروق بُــدورُ
ومَضَى الذي أهوى وجرَّعَني الأسى ... وغَــدَتْ بقلبــي جــذْوَةٌ وسَعيــرُ
لو بُثَّ حُزني في الوَرَى لم يُلْتَفَتْ ... لِمُصَــابِ قَيْـس والمصــابُ كثيــرُ
طافَتْ بشَهْرِ الصَّوم كاسات الرَّدى ... سَحَــراً وأكْــوابُ الــدُّمُـوع تَـدُورُ
فتَنَــاوَلَــتْ منْهــا ابنَتــي فتغيَّـرَتْ ... جَنَّــاتُ خَــدٍّ شَــانَهَــا التَّغييــرُ
فَــذَوَتْ أزَاهيــرُ الحيَاةِ بِـروضِهـا ... والقَــدُّ مِنْهــا مَــائِــسٌ ونَضيْــرُ

ثمّ تتحدَّثُ عائشة التّيمورية بهذه المحاورة اللطيفة عن الطَّبيبِ الذي يعالجُ ابنتها، ولكنَّ الأقدارَ هي التي مضتْ، وكانت إرادةُ اللهِ ومشيئتُه.

لقد أبدعت عائشةُ التيمورية في هذه القصيدة، وأتت بروائع الصُّور الجميلة المؤثّرة، لذلك اشتهرتْ تلك القصيدة، وأشادَ كثيرٌ منَ الأدباءِ

---

(١) من الجدير بالذكر أن حمدة بنت زياد الأندلسية كانت تلقب بخنساء المغرب وشاعرة الأندلس (معجم الأدباء ١٠/ ٢٧٥) واقرأ ترجمتها في الوافي بالوفيات للصفدي، وفي معجم الأدباء (١٠/ ٢٧٤ ـ ٢٧٨). وكذلك اقرأ سيرتها مفصلة في كتابنا «نساء في القصور».

والنُّقاد والمتذوّقين شعرَ عائشة التّيمورية، وذلك لأنَّها سلكتْ طريقة التّصوير القَصَصي القائم على الحوار بين الفتاةِ المتوفاة توحيدة وأمّها عائشة، ولأنّها تُداعبُ الأحاسيسَ، وتحرّك حنايا القلوب أسَفاً على حبّاتِ القلوب، وحُزناً على فلذات الأكباد:

لَبِسَتْ ثيابَ السُّقْمِ في صِغَرٍ وَقد ... ذاقَتْ شَرابَ الموتِ وهو مَرِيْرُ
جاءَ الطَّبيبُ ضُحَىً وبشَّرَ بالشِّفَا ... إنَّ الطَّبيبَ بِطِبِّهِ مَغْرورُ
وَصَفَ التَّجَرُّعَ وهو يَزْعُمُ أنَّهُ ... بالبُرْءِ مِنْ كُلِّ السّقَام يُشيرُ
فتنفَّسَتْ للحُزْنِ قائلةً له ... عَجِّلْ بِبُرْئي حيثُ أنتَ خبيرُ
وارحَمْ شَبابي إنَّ والدتي غَدَتْ ... ثكلى يشيرُ لها الجَوى وتُشيرُ

وتتابعُ عائشة في رسْمِ هذا المشهد المؤثّر الآسر المعبّر، فتصور يأسَ فتاتها، وتيَقُّنها بعجز الطَّبيب، ولك عزيزي القارىء أنْ تتصور عاطفة الأمّ المفجوعة وهي تترجمُ عواطفها وتسكبُها شِعراً في هذه القصيدةِ الرّائعة، لتنتزعَ منك الدَّمع وتشاركها حزنها:

أُمَّاهُ قَدْ كَلَّ الطَّبيبُ وفَاتَني ... مِمّا أُؤمِّلُ في الحياةِ نَصِيرُ
لو جاءَ عرَّافُ اليمامةِ يَبْتَغي ... بُرْئي لَردَّ الطَّرْفَ وهو حسيرُ
أُمَّاهُ قَدْ عَزَّ اللقاءُ وفي غَدٍ ... سَتَرَيْنَ نَعْشي كالعروس يطيرُ
وسيَنْتَهي المَسْعى إلى اللحدِ الذي ... هو منزلي ولهُ الجموعُ تصيرُ
قُولي لِربِّ اللحدِ رفْقاً بابْنَتي ... جَاءَتْ عَرُوساً سَاقَهَا التَّقديرُ
وتجلَّدي بإزاءِ لَحْدِي بُرْهَةً ... فَتَراكِ رُوْحٌ راعَها المَقْدورُ
أُمَّاهُ قَدْ سَلَفَتْ لنا أُمْنِيَّةٌ ... يا حُسْنَها لو سَاقَهَا التَّيْسِيرُ[1]

ولا بدَّ لنا من وقْفَةٍ هنا عند هذه الأبيات، إذ نرى شاعرتنا عائشة التّيمورية قد استمدّت بعضَ عباراتها من الماضي البعيد، كقولها: «لو جاء عرّاف اليمامة»[2]، وهذا يدلُّ على مدى عمقِ ثقافتها ومعارفها الواسعة، ثمّ

---

(١) حلية الطراز (ص٢١٠) وما بعدها.

(٢) «عراف اليمامة»؛ اسمه: رباح بن عجلة، قال الشاعر:

فقلتُ لعرّافِ اليمامةِ دَاوِني ... فإنَّك إنْ داويتني لَطبيبُ

إنَّها تبدو متأثّرة أشدَّ الأثر بمعاني القرآن الكريم، من ذلك قولها: «ردَّ الطَّرف وهو حسيرُ»، إذ استمدّتْ ذلك من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤].

ووقْفَةٌ أخرى لا بدَّ منَ الإشارة إليها، وهي تصوير نعش العروسِ في القصيدة، وذلك عندما شبَّهَتْ موكبَ الجنازة بموكب العرسِ، وصورة العروسِ تُعبِّرُ عنِ الفرحِ، ولا تتّفقُ مع موكب الحزنِ الذي يسيطرُ على القصيدة، ولكنّه يبدو لنا أنَّ ذلك يتمثّلُ في محاولةِ هروب عائشة التّيموريّة منَ الواقعِ الذي فاجأها بموتِ ابنتها الأثيرة لديها، فهي أمٌّ، وهي ثكلى، والأمُّ تحرَصُ أشدَّ الحرص على اليوم الذي ترى فيه ابنتها عروساً، ـ وخاصة أنَّ توحيدة ابنتها كانت في ميعةِ الصِّبا كزهرِ الرُّبى ـ فراحت عائشةُ تعبِّرُ عن الصُّورة التي استقرت في مخيلتها لمستقبل ابنتها.

والقصيدةُ هذه جميلةٌ، آسرةٌ لمجامعِ القُلوب، تستدرُّ دمْعَ العيون، فمن خلال الحوار والنّجوى تطلبُ توحيدة من أمّها أنْ تزورَها في قبرِها، وأنْ تتفقَّدَها بتلاوةِ الذِّكْر الحكيم والقرآن العظيم، وتخصَّها بالدّعاءِ لتحظى برحمة الرحمنِ الرحيم؛ وما أعْذَبَها من كلمةٍ تقولها: أمّاه!! بل ما أشدّ حزن عائشة وهي تسمعُ كلمة أماه!

أُمّــاهُ لا تَنْســي بحــقِّ بُنُــوّتــي	قَبْــري لِئَــلا يَحْــزنَ المقْبُــورُ
ورجــاءَ عَفْــوٍ أو تــلاوةَ مُنْــزَلٍ	فَسِـواكِ مَـنْ لـي بـالحنيـن يـزورُ
فلَعلَّمـا أَحْظـى بـرحمـةِ خَـالـقٍ	هــو راحــمٌ بَــرٌّ بِنَــا وغفــورُ
فـأَجَبْتُهـا والـدَّمْعُ يحبِسُ مَنْطِقي	والـدَّهْـرُ مـنْ بعـدِ الجِـوَارِ يَجُـورُ
بِنْتَـاهُ يـا كبِـدي ولـوعـةَ مُهْجَتـي	قـد زَالَ صَفْـوٌ شـأْنُـه التَّكْـديـرُ
واللهِ لا أسْلُـوا التِّـلاوةَ والـدُّعـا	مـا غـرَّدَتْ فـوقَ الغُصـونِ طيـورُ

وقُبيل نهايةِ القصيدة، وفي الشَّوطِ الأخيرِ منها، تبدعُ عائشة أيّما إبداع، وتبدو مستسلمةً لقضاءِ العزيز الحميد، فتدعو اللهَ أنَّ يجمعها مع ابنتها في جنَّات النَّعيمِ، ومع الحورِ العِيْن، فهذا هو النَّعيم المقيم:

أبْكيْـكِ حتّـى نَلْتَقـي فـي جَنَّـةٍ	بِـريَـاضِ خُلْـدٍ زَيَّنَتْهـا الحُـورُ

إنْ قيل عائشة أقولُ لقد فَنَى عَيْشي وصَبْري والإلهُ خَبيرُ
وَلَهِي على تَوحيْدَةِ الحُسْنِ التي قد غابَ بَدْرُ جَمالِها المستورُ
قَلْبِي وجَفْنِي واللسانُ وخالقي رَاضٍ وبَاكٍ شاكرٌ وغَفُورُ
مُتِّعْتِ بالرِّضْوانِ في خلدِ الرِّضا ما زُيِّنَتْ لك غُرْفَةٌ وقُصورُ
وسَمعْتِ قَولَ الحقِّ للقَوم ادخُلُوا دَارَ السَّلام فسَعْيُكم مشكورُ
هذا النَّعيمُ بهِ الأحبَّةُ تلتَقي لا عيشَ إلا عِيْشَةَ المبرورِ

ثم تختمُ هذه الرّائعة بقولها:

ولَكِ الهناءُ فصِدْقُ تاريخي بَدَا توحيدة زُفَّتْ ومعها الحورُ[1]

وكما لاحظنا في رائيةِ عائشة هذه، فقد أثارتِ الشّجون، وحركتِ العواطفُ، وكانت خنساء العصر في رثاء ابنتها، وقد بلغت نبراتُ هذه القصيدة أذن الجوزاء، وصافحت نجومَ الليل في أنحاء السَّماء.

أميْـرَةُ شعر الرثـاء في عَصْرِهَـا:

إنَّ عائشةَ التَّيمورية واحدةٌ منَ النِّساء الشَّواعر اللواتي حلَّقْن في فنِّ الرّثاء، وأَجَدْنَ في هذا المجال؛ فلم يكنْ إبداعها منحصراً في رثاءِ ابنتها توحيدة، ولكنَّها طرقت هذا الفنّ من قبل وأَجَادَتْه، لقد مات ـ من قبل ـ عددٌ منْ أهلِها وذويها ومنهم: أبوها، وأمُّها، وأختُها وغيرهم.

ففي سنة (١٢٨٩ هـ) مات والدها، ولم تمضِ وفاته دون أثر بالغ، فقد حفَر أخاديدَ في قلبها، وقد مرَّ معنا عنايته بها، وشَدّه أزرها، حتى اشتدَّ عودها في الأدب والشِّعر، وحتى نمتْ مواهبُها وتطاولتْ فروعُ معارفها لتلامس الأسماع في سائرِ البقاع، فكان حقّاً عليها رثاء والدها، وجاشتِ الكلماتُ في صدرها، فإذا بها تنبعثُ بهذه الأبيات الجميلات الجميلة التي ترسمه من خلالها بالبدر الذي غابَ من بينِ نجوم السَّماء في الليلة الظَّلماء:

---

(١) انظر: حلية الطراز (ص٢١٠) وما بعدها، والدر المنثور (ص٣١٣ ـ ٣١٥) وأعلام النساء (٣/ ١٦٧) وما بعدها، ونساء من الإسلام (١/ ٥٢ و٥٣).

عـزَّ العَـزَاءُ علـى بَنِـي الغَبْـراءِ   لمّـا تـوارى البَـدْرُ فـي الظَّلْمَـاءِ[1]
حَقٌّ عَلى الأيَّامِ تَنْدُبُ فَقْدَ مَنْ   هـــو نَيِّـــرُ الإفْصَـــاحِ للبُلَغَـــاءِ

إنَّ لأبيها أكرمَ أثرٍ يُحمدِ، وأعظمَ فضيلة تنشَر، لكونه عُنيَ بتعليم كريمته عائشة، ونَظَمَها في عقْد الشّهيرات، من شواعرِ العصر ومشاهير الأديبات، وإنَّ عائشةَ ابنته لنِ تنسى فِراقه، وها هي تذكرُهُ، وتُذَكِّرُ سامعيها بصعوبةِ فراقه، فإلى مَنْ تركَنُ بمكنونِ نفسها بعد فراقه؟!

أَبتَـاهُ قَـدْ حَـشَّ الفِـراقُ حشَـاشَتـي   هلْ يرتَضي القَلْب الشَّفُوق جَفَائي
يا مَنْ بِحُسْنِ رِضَاهُ فَوْزُ بُنُوَّتي   وعــزيــزِ عيْشَتِـه تَمَـامُ رخَـائـي
إنْ ضَاق بي ذَرعي إلى مَنْ أشتكي   مِـنْ بعْـدِ فَقْـدِكِ كـافـلاً بـرضَـائـي

وفي هذه القصيدةِ اللطيفة تبيِّنُ حسراتها وآهاتها، وتتساءل: هل كان أبوها راضياً عنها؟! ثمّ تدعو الله أن يتغمدَه بالرّحمةِ والنّعمة في جنّاتِ النَّعيم:

يــا حَسْـرةَ ابنَتِـهِ إذا نَظَـرَتْ لَهـا   بِمَمَـاتِـهِ عَيْـنٌ مِـنَ البـأْسَـاءِ
قـالـتْ وحَـقّ سَنَـا أُبُـوَّتـك التـي   كـانـتْ ضِيَـاءَ الأمْـنِ لـلأبنـاءِ
يـا كَنْـزَ آمـالـي وذخْـرَ مطـالبـي   وسُعُـودَ إقْبـالـي وعَيْـنَ سَنَـائـي
أبَتَـاهُ قَـدْ جَـرَّعْتَنِـي كـأْسَ النَّـوى   يـا حـرَّ جُـرعَتـهِ علـى أحْشَـائـي
ياليتَ شِعْري حينما حَلَّ القَضَا   هــل كُنْــتَ عَنِّــي راضِيــاً أمْ نَــاءِ
لمّا قَضَى المولى بِبُعْدِكَ وانْقَضَى   أَمَلـي مِـنَ الـدُّنْيَـا وقَـلَّ عـزَائـي
وجَّهْـتُ مُبْتَهِـلاً لـربّـي وجْهَتِـي   ليعُــمَّ روحَــكَ منــه بــالنَّعْمَــاءِ
فَلَـكَ الهنَـا بـالخُلْـدِ فُزْتَ بعَـذْبـهِ   إذْ أنْــتَ مَعْــدُودٌ مِــنَ الشُّهَــداءِ
وَلـيَ التَّقَلُّـبُ فـي سَعيرِ تحرُّقي   مـا دُمْـتُ عـائشـة ليـومِ فنـائـي[2]

---

(١) ما أجملَ هذا التعبير! وهذا المطلع الذي وفّقت عائشة التيمورية لاختياره، ويذكرني بقول أبي تمام الطائي في رثائه محمّد بن حميد الطوسي من قصيدته الرّائية الرّائعة الجميلة التي جاء فيها:

كــأنَّ بنــي نبهــانَ يــومَ وفــاتِــهِ   نجومُ سماءٍ فَلَّ من بينها البدرُ

(٢) شاعرات العرب (ص٢٢٥ و٢٢٦).

وكان لوالدتها نصيبٌ موفورٌ في شِعْرها، إذ رثتها بقصيدةٍ عينيةٍ رائعة، طلبتْ منَ اللهِ خلالها الرّحمة والمغفرة، بل كانت تدعو اللهَ أن يجعلَ نُزُلَها جنَّة المأوى، فأمُّها واحدةٌ من فضليات النِّساء اللاتي مضينَ وتركْنَ أنصعَ آيات الطّهارة، وأجملَ صُورِ العفاف والتُّقى والصِّيانة، ولعلَّ أبرزَ ما في رثائها أمّها أنّها هنّأتِ القبرَ بها لكونها محجَّبةً لم يرهَا رجلٌ أجنبيٌّ في حياتها غير محارمها، وتمنَّتْ لو تفديها بنفسها، «ولكن ليتَ ليست تنفع»؛ فالتّسليم والاستسلام إذاً للعليم الخبير:

يـا قَبْـرُ فَـاهْنَـأْ بـالتـيْ أَحْـرزْتَهـا	هـي دُرَّةٌ بـالـدُّرجِ لاحَـتْ تَسْطَـعُ
يا ربِّ فاجْعَلْ جَنَّةَ المأْوى لَها	دَاراً بطِيْـــبِ نَعِيْمِهَـــا تَتَمتَّـــعُ
وَاسْكُبْ على حَصْبَائِها سُحْبَ الرِّضَا	فَضْلاً وَإنْ تَكُ قد سَقَـتْها الأدمُع
ذَهَـبَ الأحبَّـةُ واسْتقَـلَّ ركـابُهُـم	يَـاليْـتَ رُوحِـي ودَّعَـتْ إذ وُدِّعُـوا
يــا لَيتَهــم طَلَبُــوا الفِــدَاءَ فَهـذِهِ	رُوحِـي وَلَكِـنْ لَيْـتَ لَيْسَـتْ تَنْفَـعُ

هذا؛ وفي ديوانها «حِلْيَةُ الطِّراز» نجدُ مراثٍ كثيرة رثتْ بها أختها التي توفيتْ وهي في ميعة الصِّبا؛ وتتساءل عائشة بل تتعجّب بالتَّشتتِ الذي أضرَّ بها، فلا تملك إلا الحزن تنفثُ سحبه، ولكنّها تملكُ أدمعها الذّاتية فوق جناتها، وكذلك مداد قلمها الذي سَطَّر وَأَرَّخَ مرثيتَها، أمّا ما كُتب على القبر فلَهُ شأن آخر:

أَحَبيْبَتِـي كيـفَ الـرِّضَـا بِتَشَتُّـتٍ	قَــدْ ضَــرَّ بــالإخْــوَانِ والأَوْلادِ
يـا مَـنْ أتـى للقَبْـرِ يَقْـرأُ طـرْسَـهُ	مَهْــلاً فليــسَ كِتَــابَــهُ بِمــدَادِ
وأَعِــدْ لَــهُ نَظَـراً فَـإنَّ حُـرُوفَـه	كُتِبَــتْ بِــذَوْبِ العَيْــنِ والأَكْبَـادِ
وُجِدَتْ وَأَعْدَمَهَا الزَّمَانُ حَيَاتَها	مَــا أَقْــربَ الإعــدام لــلإيْجَــادِ

* وفي مراثي عائشة التّيمورية ـ رحمها الله ـ نجدُ قصائد أُخَر، أبدعت فيها أيّما إبداع، بل بلغتْ في مرثاتها للشّيخ «إبراهيم السَّقا» ـ وهو مِنَ العلماء الأعلام الأفذاذ ـ عنان السَّماء، وصافحتْ أذنَ الجوزاء والمُشتري، في بلاغتها برثاء هذا العبقري؛ وكيف لا ترثيه وهو سقّاءُ المعالي، ودوحةُ البستان، وكلماته رحيق المعاني الحسان، إذاً، فلتسكب عائشة عليه الدَّمع

من وراء خِدْرها، ومن صبيب عاطفتها، التي أبت عليها إلا أنْ تذكرَ اسمها في آخر سطرٍ من هذا الرثاء الموجع الذي يحرّك سَواكن الأشجان:

الـدَّهْـرُ أَبْـدَلَ راحَتِـي بِعَنَـاءِ ... واعْتَـاضَ صَفْـوَ تَـنَعُّمِـي بِشَقَـاءِ
شَجَنٌ عَرَى الإِسلامَ بالظَّمأ الذي ... حَـلَّ العُـرَى بِضَمَـائِـرِ العُلَمـاءِ
أَضْحَتْ حَصِيْداً أرضَ أزْهَرِنا التي ... كـانَـتْ بـهِ كـالـدَّوْحَـةِ الخضْـراءِ
تَشْكُو الأوامَ وما بِها منْ مُطفِيءٍ ... قَـدْ غَـابَ سَقَّـاءَ العُـلا بـالمـاءِ
قَلْبِي عليهِ غَدا كجمراتِ الغَضَا ... وَاْ لَـوْعَتـي مـنْ حَـرِّهِ وشَقَـائـي
فـلأَذْرِفَـنَّ أَسَـىً عليـهِ مَـدَامِعـي ... مَـا دُمْـتُ عَـائِشَـةً بِخِـدْرِ فِنَـائـي

أَخْلاقُهَا ومَعَالِم مِنْ سِيْرَتِهَا:

عاشت السَّيِّدةُ عائشة التَّيمورية ـ رحمها الله ـ حياةَ العفاف والصِّيانة، وكانت تدعو في أشعارِها وأقوالها إلى كريمِ الأخلاق، وأخلاقِ الكرام، وفي مقدمة دعوتها إلى ميدان الأخلاق: نداؤها العذْب الفرات للتّحلّي بالعفافِ والحجاب، وهما ممّا يجبُ أنْ تكونَ كلّ امرأة ـ في كلِّ عصر ـ تتحلّى وتتجمّل بهاتين الخصْلَتيْن الشَّريفتين.

ولعلَّهُ منَ المفيد ـ هنا ـ أنْ نشيرَ إلى كثيراتٍ من شواعر[1] عصرنا الحالي بأنهنَّ قد تحدثن عن مكارمِ الأخلاقِ التي يجبُ أن تتحلّى بها النِّساءُ؛ فهذه إحداهن تُسْأَلُ عن أدواتِ زينتها وتحسين جمالها، فتجيبُ من منظار الشَّريعة الغَرَّاء الزّهراء البيضاء إجابةً تنمُّ عن مدى معرفتها بالأخلاقِ الفاضلة التي تشيّدُ بها النِّساءُ البيوتَ، وتربّي الأجيالَ على موائدِ النّقاء، فقد أَبانَتْ أدوات تجميل الشّفتين، واليد، والعين، والقَوَام، ثمّ القلب، لكن تُرى بأيِ أسلوبٍ عبّرتْ عن وسيلة الزّينة؟! بل ما أدوات التّجميل عندها؟! فلنقرأ ما جادتْ به بناتُ أفكارها لبناتِ جنسها من كلماتٍ ومعانٍ عِذاب في هذا الميدان الرّحب الفسيح:

---

(١) في عصرنا الحالي تظهرُ بعض الأصوات النّسائية في مختلف أرجاء الوطنِ العربي، وتحملُ عبقات الأنوار الطّيّبة، وتدعو إلى الأخلاقِ الحميدة، كما أنَّ بعضَ النّساء الشّاعرات يشاركن في صياغةِ السّيرة النبوية وغير ذلك بأسلوب شعري جميل.

وَحَلاكِ فَرْطُ تَزَيُّنٍ بفضَائِلٍ ... فَاضَتْ عَلَيْكِ بِهَالَةِ الأَنْوارِ
فالقَلْبُ بالإِخْلاصِ لله انْتَشَى ... كم يَطْمَئِنُّ بِحَومَةِ الأَذْكَارِ
والصِّدْقُ للشَّفَتَيْنِ خَيْرُ تَجَمُّلٍ ... هَذا طِلاءٌ ثَابِتُ الآثَارِ
وبَهَاءُ صَوْتِكِ في تلاوَةِ مُصْحَفٍ ... بِنَوَاشِيءِ الأَسْحَارِ والأَبْكَارِ
والبِرُّ والإِحْسَانُ لليدِ حِلْيَةٌ ... أسمى وأجْدى مِنْ نَفيس سِوَارِ
أَمّا القَوَامُ فَالاسْتِقَامةُ درْعُهُ ... بِتَريّضٍ في مسْدلِ الأَسْتَارِ
والعَيْنُ في الإِشْفَاقِ كُحْلُ لحاظِها ... تأسى لمَنْ قَدْ باتَ في أكْدَارِ
والخيرُ كُلُّ الخَيْرِ بَعْدَ تَحجُّبٍ ... في تَرْكِ مَعْصِيةً وفي اسْتِغْفَارِ[1]

لقد حلَّقتْ هذه المرأة في رسمِ وتصوير أدوات التّجميل التي ينبغي أنْ تستعملَها المرأةُ المسلمةُ المحافظةُ وتستمرّ عليها، فجمال الشَّفتين وتجميلهما بالصِّدق خيرُ من تجميلهما بالطّلاء والأصباغِ، وتجميل اليد بالبِرِّ والإحسانِ أسمى وأجملُ من تزيينها بالسّوار النّفيس من ذهبٍ ودرّ وجوهر، والاستقامة كما أمرَ اللهُ خيرُ جمالٍ للقوام، والشّفقةُ جمال العينِ وسرّ سحرها، والإخلاص لله تعالى جمال القلْب، ويتحققُ جمالُ الصّوتِ وسحره وعذوبته وبهاؤه بتلاوة القرآنِ العظيم، وحسن ترتيله في الغدو والآصال، ثم إن جُلَّ الخير وذروة مكارم الأخلاق، ودرة المحاسن، وخلاصة كلّ جمال وكمال يتمثّلُ في الحجاب والصِّيانة، والاستكثار من زادِ الاستغفارِ في أحضانِ الأسحار[2].

---

(١) هذه الأبيات لشاعرة مصرية اسمها: سهام إسماعيل حجي، وهي تعتني بأمور المرأة، وتنشر قصائدها في المجلات الأدبية، وقد حظيت هذه القصيدة بإعجاب كثيرين من شداة فن الأدب والشعر.

(٢) وما أجمل قول إحداهن وهي تصوِّر تمسّك الفتاة المسلمة بحجابها حين طُلِبَ منها خَلعه:

لَسْتُ مِمَنْ تَأْسِرُ الحليُّ صِبَاهَا ... فكُنُوزي قَلائِدُ القُرآنِ
وحِجَابُ الإِسْلام فَوقَ جبيني ... هوَ عنْدي أَبْهَى مِنَ التّيجَانِ
كُنْتَ تُغْوي فَقْري بوهْمِ قُصُورٍ ... كبُروجٍ تَزْهو على البُنْيانِ
لَسْتُ أبْغي منَ الحياةِ قُصُوراً ... فقُصوري في خَالِداتِ الجنَانِ

ولذلك فإنَّنا نجدُ عائشة التّيمورية تفتخر وتفخر بالحجابِ، إذ هو رمزٌ للصيانةِ النّسائية، وحسبنا أنْ نصغيَ إليها وهي تباهي بحجابِها وعفافِها ومعرفتها وأدبها:

بيَدِ العَفَافِ أَصُونَ عِزَّ حِجَابي ... وبعِصْمَتِي أَسْمُو على أَتْرابي

وبفِكْرَةٍ وقَّادَةٍ وقريحَةٍ ... نَقَّادَةٍ قَدْ كُمِّلَتْ آدَابي

فَجَعَلْتُ مِرآتي جَبِيْنَ دفَاتري ... وجَعَلْتُ من نَقْشِ المدَادِ خِضَابي

وهذه القصيدةُ البائيةُ الرّائعة تعدُّ أربعةً وعشرين بيتاً تحكي الآدابَ التي يجبُ أنْ تكونَ عند كلِّ امرأةٍ، وكلِّ فتاةٍ تنشدُ جمالَ الحجابِ ورواء العفَاف، والتّمسّك بالدين الإسلامي الذي أمرَ به العزيزُ الحميد. كما وتذكر أنَّ اللهَ قد أمرَ بسترِ جسْمِ المرأة صوناً لعفّتها، وسمواً لها عن كلّ ما منْ شأْنِهِ أنْ يخدشَ كرامتها؛ ويبدو أنَّ عائشة التيمورية ـ رحمها الله ـ متأثرة في قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩]؛ لذلك دعت عائشة التيمورية إلى الحجابِ الذي لن يعيقَ مَنْ أرادتِ التَّطلُّع إلى العلياء، وإلى سدّة الفخرِ والعَطاء:

ما ضرَّني أدبي وحُسْن تَعَلُّمي ... إلاّ بكَوني زَهْرَةَ الأَلْبَابِ

مَا سَاءَني خِدْري وعقْد عِصَابتي ... وَطِرَاز ثَوبي واعْتِزَاز رِحَابي

ما عَاقَنِي حَجَلي عَنِ العَلْيَا وَلا ... سَدْل الخِمَارِ بلمَّتِي ونِقَابي

بلْ صَولَتِي في راحَتي وتَفَرُّسي ... في حُسْنِ ما أَسْعى لخيرِ مَآبِ

ناهيكَ مِنْ سِرٍّ مَصُونٍ كنْهُهُ ... شَاعَتْ غرابتُه لدى الأَغْرابِ

كالمسْكِ مَخْتُومٌ بدرج خَزَائِنٍ ... ويضُوعُ طَيِّبُ طِيْبِهِ بِمَلابِ

أو كالبحارِ حَوَتْ جواهرَ لُؤْلُؤٍ ... عن مَسِّهَا شلَّتْ يد الطَّلابِ

ثمَّ إنَّ عائشةَ تختمُ قصيدتها بقولها:

فَأَنَرْتُ مِصْبَاحَ اليَرَاعَةِ وهيَ لي ... مِنَحُ الإلهِ مَوَاهِبُ الوهَّابِ[1]

---

(١) انظر: حلية الطّراز: ديوان عائشة التّيمورية (ص٢٦٥ و٢٦٦)، وشاعرات العرب=

وتعتزُّ عائشة التّيمورية بصيانتها وحجابها في أكثرَ من موضع من أشعارها وقوافيها، فهي ترى أنَّ احتجابها لـم ينشأ عن عاهةٍ أو عيبٍ، وإنّما من أجلِ الصِّيانة والحفظ والعفاف، وهو الجانبُ الأخلاقي الفاضل الذي تحبُّه وتعيشُ كيما تحقّقه، بل وتدعو إليه في شعْرِها وفي نثرها لتسمعَ بنات جنسها في أرجاءِ الأرض:

صِيَانَتِي في كُهُوفِ الصَّبْرِ أَنْفَعُ لِيْ   مِنْ حصْنِ كسْرى ومنْ أَعْمَاقِ أَغْمَاتِ
ومَا احْتِجَابي عنْ عَيْب أَتَيْتُ بِهِ   وإنّما الصَّوْنُ مِنْ شَأْني وغَايَاتي[1]

إنَّ الأسلوبَ هو الرّجل؛ والشِّعرَ صورةٌ تشفُّ حقيقةَ الشّاعرِ؛ أو الشَّاعرة، فمن خلال نظْمِ عائشة التيمورية نستجلي أخلاقها، فنستحلي طريقَ العفّةِ الذي تسلكهِ، وسبيلِ معالي الأخلاق الذي تدعو إليه:

مَا الحَظُّ إلاَّ امْتِلاك المَرْءِ عفَّتَه   ومـا السَّعـادةُ إلاّ حُسْـنُ أَخْـلاقِ

ولعلَّ مِن أبرزِ صفات عائشة التّيمورية، وملامح أخلاقها، بُعْدُهَا عنِ الثّرثرة، وتتبّع عورات الآخرين والأخريات، فكانت تصونُ لسانها عن الإسفافِ وعن ساقِطِ الكلام، إذ إنَّ حفْظَ اللسان من كمالِ الأخلاقِ، وخصوصاً أخلاق المرأة العاقلة الفاضلة، بل تدعو عائشة لحفظ اللسان من ذمِّ النّاس، وذكر مثالبهم، وتدعو لتَرْكِ الخَلْق للخالِقِ:

احْفَـظْ لِسَـانَـك مـنْ ذَمِّ الأَنَـام وَدَعْ   أَمْـرَ الجَميْـعِ لِمَـنْ أَمْضَـاهُ فـي القِـدَمِ
معَـايـبُ النَّـاسِ لا يَكْبَـرْنَ عَـنْ غَلَطـي   إِذَا نَمَمْـتُ بهـا فـي مَحْفـلِ الهِمَـمِ[2]

وتدلُّ نفحات عائشة التّيمورية بأنّها كانت امرأة ندية الكفِّ، سخيّة النفس، تكره اللؤمَ والبخل، فالبخلُ والشُّحُّ لم يجدا إلى نفسها سبيلاً،

= (ص٢٢٧ و٢٢٨)، والدر المنثور (ص٣٠٩ و٣١٠)، ونساء منَ الإسلام (١/ ٤٨).

(١) حلية الطراز (ص١٩٦)، والدر المنثور (ص٣١٧).

(٢) شاعرات العرب (ص٢٢٨).

فأخلاقُها السَّمحة، وقناعتها منَ الدنيا قد أرشداها إلى الزُّهد، وعلّماها ألاّ تركنَ إلى التّعلُّق بالدَّراهم والجواهِر والدُّرر، وإنّما تتعلّق بذكْرِ الله، أمّا الذين غرقوا في حَصْر الدَّراهم وعدّها، فهي ليست منهم، بل:

رَبُّ الدَّرَاهِمِ أَحْصَاهَا وعَدَّدَهَا ... في حِصْنِ أكْياسِهِ أَلْفاً على أَلْفِ
والحمدُ للهِ إذْ عَدِّي لمسْبَحَتي ... وعَنْ سِوَاها تَراني قَاصِرَ الطَّرفِ[1]

وكانتْ عائشةُ ـ رحمها الله ـ تَسْخَرُ منَ البخيل الحريص، الذي يبخل في الأشياء التي لا تنقصُ ولا تغني، ولا تكلِّفُ ثمناً، ولكنَّ سجيةَ البخل قد غلبَتْه واحتلَّتْ جوانحه وجوانبه، وزلزلت أركانَه، ولعلَّها في تصويرها لحرصِ الحريص ـ وأثر حرصه في حياته العامة وتعامله مع النّاس ـ تبرزُ جانبَ الأخلاق في حياتها، وتبين مدى كراهيتها لهذا الصِّنف منَ الناس:

حَيَّا الحريْصَ صدِيْقُهُ بتَحِيّةٍ ... فأَجَابَهُ بَيديه دُونَ لسَانِهِ
حَذراً على أنْ يَصرِفَ الأَنْفَاسَ في ... ردِّ السَّلام وصَانَها ببَنَانِهِ
فأَجَبْتُه دَعْهَا لِيَومِ حِسَابِهِ ... سَيزيدُهَا نَفْخاً على نِيرانِهِ[2]

وتبدو عائشةُ التّيمورية بعيدةً عن النِّفاق، تكره النّفاقَ وأهلَه، وتنعى الذين يبطنون أشياء، ويتظاهرون بخلافها، وتكرهُ أولئك الذين يجيدون مَعْسُول الكلام، ولكنّهم يَسْقُون الشَّرابَ المسمومَ بعباراتِ الإيهام، أولئك هم دُهاة الأنام، فلا يُغَرَّ بهم إنسان:

---

(١) إن قول عائشة هذا يذكرني بقول القائل:
ولسْتُ أرى السَّعادة جَمْعَ مَالٍ ... ولكنَّ التَّقيَ هو السَّعيدُ

(٢) حلية الطراز (ص٢٦٨)، وشاعرات العرب (ص٢٢٨)، وتذكرنا هذه الصورة السَّاخرة السَّاحرة الجميلة، بصورةٍ مماثلة عند ابن الرومي الشَّاعر العبّاسي الشَّهير، إذ صوَّر بخْلَ رجلٍ يدعى عيسى، فقال ساخراً منه:
يقتّرُ عيسى على نَفْسِهِ ... وليسَ بباقٍ ولا خَالدِ
فلو يستطيعُ لتقتيرِهِ ... تنفَّسَ مِنْ منخرٍ واحدِ
(ديوان ابن الرومي ٢/ ٦٤١).

إنَّ الـــدُّهَـــاةَ وإنَ أَبْـــدوا بشَـــاشتَهـــم
فـــلا تَقُـــلْ بِغُـــرورٍ فَـــاتَنِـــي الغَضَـــبُ
وكَـــمْ بحُلْـــوِ شَـــرابِ سُـــمّ مَقْتَلَـــة
والأُسـدُ تَبْسُـمُ إذْ يبـدو لهـا العَطَـبُ[1]

ولكنَّ خبرتَها بالنّاس لم تقفْ عند هذا الحدِّ، بل تقرأُ في شعرها عمقاً أكثر، وخاصة عندما تقول:

النَّـاسُ شتَّـى فـي الصِّفَـاتِ فَـلا تكُـنْ
ممَّـنْ يقيـسُ الـدُّرَّ يَـومـاً بـالبَـرَدْ
إنْ قِسْـتَ فَظَّـاً بـالـرَّقيـقِ فـلا تَلُـمْ
مِـنْ بعْـدِ نَفْسِـكَ فـي الـورى أَبـداً أَحَـدْ

ومن البدهي أنَّ عائشةَ التيمورية قد حفظتِ الآدابَ الإسلاميّة، ودرستْ معاني القرآن الكريم، وبلاغة السُّنَّة النَّبوية، وعززت ثقافتها بجواهرِ الأدب، وتغذّتْ بلبِّ آداب لغة العرب، ولا شكَّ في أنَّ هذا كله قد أمدَّها بلطائفِ الحكمةِ التي تمثَّلَتْ في شعرِها، فجادت به قريحتها بنظمٍ جميل، فيه ما فيه من ألوانِ المعرفة، والتّجارب التي مرّتْ بها، وصاغتها حِكَماً لمن أراد أنْ يسلكَ سبيلَ الحكمةِ.

إنَّ مَنْ يعشْ مع عائشة في شعرها ونثرها يجدْ مصداقَ ما قلناه، فهي في معظمِ قصائدها تجودُ بألوانِ النَّصائح، وفصوصِ الحكمِ، وقد لا يغيبُ عن البال أنّها تستقي بعضَ حكمتها من حِكَم السَّابقين، وتأتي بها في ثوبٍ جديد، وذلك من مثل قولها في التّحذير من الدّنيا:

---

(١) حلية الطراز (ص٢٦٦)، وهذان البيتان يرجعانا بالذاكرة إلى قول المتنبي:

إذا رأيـتَ نيـوبَ الليـثِ بـارزةً فـلا تظنَّـنَّ أنَّ الليـث يبتسـمُ

فالأسدُ المكشّرُ عن أنيابه، والدّاهيةُ البشوش، يبدوانِ لمن يراهما على خلافِ ما يضمران، فالأسدُ لا يبتسم وإنْ بدتْ أنيابه، والداهية غير راضٍ وإنْ بدا ضاحكاً مسروراً، بل يسقيك شراباً مسموماً، وهو ذو مذاق حلو مستساغ؛ إلا أنَّه قاتلٌ.

لا تَفْـرَحَــنَّ بِــدُنْيَــا أقْبَلَــتْ وَصَفَــتْ
بِكُــلِّ مَــا تَــرتَضِــي واحْــذَرْ عَــوَاقِبَهَــا

تَديُّنُهـا وابتهَالاتُهـا وتَأثّـرُهَا بالقُـرآن:

لا شكَّ في أنَّ نشأةِ السَّيِّدة عائشة التّيمورية كانت نشأةً إسلاميةً خالصةً بعيدة عن كلّ ما يمسُّ المشاعر الإسلامية التي كانت سائدةً في عصرها.

ولقد شهدَ شاهدٌ من أهلِها بحسنِ قيامها بأمور الدِّين، وحبّها للعبادات، وأدائها جميع الطّاعات، واجتنابها المحرّمات، يجمع ذلك كلّه التّقوى، فقد قال أخوها وربيبُها أحمد تيمور[1] عنها: إنَّ عائشةَ كانت تقيّةً، تصلّي، وتصومُ، وتقومُ بكلّ الفَرائض الدِّينية[2].

واستمدَّتْ عائشةُ ـ رحمها الله ـ شفافيتها منَ القرآنِ الكريم، إذ راحتْ تستقي منه الرّحيق المختوم، فترَكَ ذلك في نفسها وشعرها أعظمَ الأثر، فراحت تناجي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إذ المناجاةُ جميلةٌ آسرةٌ في سوادِ الليالي،

---

(١) أحمد بن إسماعيل بن محمّد تيمور المصريّ، وُلد بالقاهرة في سنة (١٢٨٨ هـ)، توفي أبوه وعمره ثلاثة أشهر، فنشأ في كنف أخته عائشة التي أحسنَتْ تربيته.
تلقّى مبادىءَ العلوم في مدرسةٍ فرنسية، وأخذَ الأدبَ عن علماء عصره، وهو عالمٌ بالأدب، وباحثٌ، ومؤرّخٌ، ومن أعضاء المجمع العلمي العربي، وجمعَ مكتبةً قيمة تُعَدُّ من نَوادرِ المكتبات في العَصْر الحالي.
وصفه معارفه فقالوا: كانَ ـ رحمه الله ـ رضي النّفس، كريمها، متواضعاً، فيه انقباضٌ عن النّاس.
توفيتْ زوجته وهو في سِنّ التاسعة والعشرين من العمر، فلم يتزوّجْ مخافة أن تسيء الثّانية إلى أولاده، فانقطعَ إلى خزانة كتبه ينقّبُ فيها، ويعلّق، ويفهرس، وألّفَ كتباً كثيرة ومنها: أسرار العربية، ونظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة، والتّصوير عند العرب، وغيرها. توفي أحمد تيمور في سنة (١٣٤٨ هـ)، وعمره (٧٠) سنة، ودفن بالقاهرة، ونُقلت مكتبته بعد وفاته إلى دار الكتب المصرية، وهي نحو (١٨) ألف مجلد.
(٢) نساء من الإسلام (١/ ٥٤).

وحديثُ الإلهِ يسعدها، وبذكْرِ اللهِ يرتاحُ قلبها، وترى الصَّعب سَهْلاً، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

لقد كانت عائشة تفْضِي ما في نفسها إلى خالقها، وتقضي سبحاتٍ طويلة وهي واقفةٌ تطلبُ الرحمةَ من العَليّ الغَفَّار، وتطرقُ بابَه طالبةً العفوَ والمغفرةَ، وتدعوه، فهو يجيبُ دعوة مَنْ دعاه:

أَتَيْتُ لِبَابِكَ العَالي بذلّي ... فإنْ لم تَعْفُ عَنْ ذَنْبي فَمَنْ لي
مقرّاً بالجنَايةِ وامتِثَالي ... لأمْرِ النَّفس في عقْدي وحلّي
سَعَتْ نفسي بأنْ أمسي مكبّاً ... على وجهي لطاعَتِها فويلي
فأنت لوحدَتي ولكلّ عاصٍ ... له رحماك منْ بعدي وقبلي

إنَّ النَّفسَ عند عائشة نفسٌ تخطىءُ وتصيبُ، وقد يضعفُ الجهل من عزيمتها:

وَاديْ الغَضَا قَلْبي بِمَا أَلْقَاهُ مِنْ ... أَمَّارتي بِالسُّوءِ والضَّرَّاءِ
فَزَعيْمُ جَيْش الجهلِ حَطَّ عزَائمي ... والشَّرُّ قَوَّضَ مَرْبعي وبنَائِي[(١)]

وترى عائشةَ أنَّ التَّوجُّه إلى اللهِ هو منيةُ نَفْسِ المؤمن، فالعبدُ يلجأ إلى خالقهِ في كلِّ ظروفه، فهو الغفّار ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النّمل: ٦٢].

إنْ كانَ عِصْياني وسُوء جنَايتي ... عِظَماً وصرتُ مهدّداً بجزَائي
فقَضَاءُ عَفْوِكَ لا حدودَ لوسعِهِ ... وعليه مُعتمدي وحُسْن رجَائي
يا مَنْ يرى ما في الضَّمير ولا يُرى ... إنّي رجوتُك أنْ تجيبَ دُعَائي

وفي موقفٍ آخر نجدُ أنَّ الدُّعاء عندها هو مخُّ العبادة، وأنَّ التُّذللَ بين يدي الله هو ذِرْوة عزّة المؤمن، وأنَّ طلبَ المغفرة منَ اللهِ هو غاية كلّ مَنْ خالطت بشاشةُ الإيمان نَفْسَه، لا سيما وهو يرفعُ يمينه بالدُّعاء:

وقَدْ بَسَطْتُ أكُفَّ الذُّلِّ ضَارعَةً ... لخالِقِ الخَلْق جَبَّارَ السَّمواتِ
وبتُّ أدعُو عليمَ السِّرِّ قائلةً ... يا غافرَ الذَّنْب جُدْ لي باستجاباتي

---

(١) حلية الطراز (ص٢٧١)، وقولها: «أمارتي بالسوء»: كناية عن النفس.

وقـد رفَعْـتُ يميـنَ الـذُّلِّ داعيـةً ... إليـكَ يـا ربّ أرجـو غَفْـرَ زلاّتـي
ربِّ إليـــه مَعْبُـــودي ومُلتجئـــي ... إليـك أرفَـعُ بثّـي وابتهـالاتـي
فـامنُـنْ علـيَّ بـألطـافٍ لتخـرجنـي ... منَ الضَّلالِ إلى سُبلِ الهداياتِ
أنـتَ الخبيرُ بحـالـي والبصيـرُ بـه ... فافتحْ لهذا الدُّعا بابَ الإجَاباتِ
فكيفَ أشكو لمخلوقٍ وقَدْ لجأتْ ... لـكَ الخـلائـقُ فـي يُسْـرٍ وشـدَّاتِ
أنـتَ الشَّهيـدُ علـى قـولٍ أفـوهُ بـهِ ... ما دمتُ عائشةً بالحمد غاياتي[(١)]

ومن خلالِ مناجاتها لخالقها نلمحُ أثَرَ القُرآن الكريم في معانيها ومبانيها، كما قرأنا الأبيات السَّابقة، كما ويظهرُ ذكرها لأسماءِ الله الحسنى أيضاً؛ واستغاثتها بها ودعاؤها بها[(٢)].

وفي واحدةٍ من استغاثاتها، تظهرُ ألفاظُ القُرآن الكريم في ألفاظها، حيثُ زيّنت به عرائسَ شعرها كقولها[(٣)]:

أيـنَ الطَّـريـقُ لأبْـوابِ الفُتـوحَـاتِ ... أيـنَ السَّبيـلُ إلـى نَيْـلِ العِنَـايـاتِ
أينَ السُّلوك الذي أسرارُ لَمْحَتِهِ ... مصْبـاحُ نـورٍ لمشكـاةِ المُنَـاجَـاةِ
كيـفَ الـرَّحيـلُ بـلا زَادٍ وراحَلـةٍ ... تحثُّ سَيْري لأرْضِ الاستقاماتِ
إنْ طالَ خوفي فَقَدْ أحيَا الرَّجَا أَملي ... في غافرِ الذَّنْب خلاّق السَّماواتِ
فـازَ المُخِفُّـونَ واسْتَـنَّ التُّقَـاةُ إلـى ... دارِ السَّـلامِ وفـردَوسِ الكـرامـاتِ

ونلمح أَثَرَ القُرآن الكريم جليّاً في هذه الأبيات، ففي قولها: «مصباح نور لمشكاة المناجاة»، مقتبسٌ من قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النّور: ٣٥]؛ وفي قولها: «وفي غافرِ الذّنب خلاّق السِّموات»، يبدو الاقتباسُ والتأثّر بقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣]، وأمّا قولهما: «دار السلام وفردوس الكرامات» فمقتبس من قوله تعالى: ﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، ومن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

---

(١) انظر حلية الطراز (ص١٩٦)، والدر المنثور (ص٣١٧ ـ ٣١٩) باختصار.
(٢) انظر مثلاً قولها: «جبّار السّموات، عليم السّر، غافر الذنب، أرفع بثّي، أنت الخبير، والبصير، أنت الشهيد. . .».
(٣) انظر: الدر المنثور (ص٣١٦).

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]، ومن قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥]، ومن قوله تعالى: ﴿يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾ [المؤمنون: ١١].

ونقرأ تأثّر عائشة الكبير في شعرها، وهي تكثر منَ المعاني القرآنية، وتكثرُ من ذكر الجنّة في مناجاتها كالبيتِ الأخير الذي مرَّ آنفاً، وكذلك في رثائها لابنتها توحيدة:

مُتِّعْتِ بالرّضوانِ في خلدِ الرِّضا ... مـا زُيِّنَـتْ لـكِ غُـرفَـةٌ وقُصـورُ
وسَمعْتِ قولَ الحقِّ للقومِ ادخلوا ... دارَ السَّـلامِ فسعيُكـم مشكـورُ

ففي قولها: «متّعتِ بالرضوان» مقتبسٌ من عدد كبير من الآيات الكريمة، كقوله تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ [التّوبة: ٢١]؛ وفي قولها: «غرفة» يظهرُ أثر القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥] وأمّا قولها: «فسعيكم مشكور»: مقتبسٌ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢].

الأَنْبِيَاءُ فِي شِعْرِ عَائِشَةَ:

من خلالِ سَرحِ العُيون في آثارِ عائشة التّيمورية، ألفينا أنّها قد عبّرت عن اطلاعها الواسع لمعاني القرآن الكريم، حيثُ استقت منه كثيراً منَ الأحداث، ومن القَصَص النّبيلة، وخاصّة قَصَص الأنبياء، فقد كانت ترى أنَّ قصَصَهم عبرةٌ لأولي الألباب، وأولي الأبصار والنّهى، وكيفَ لا، وقد قرأت قولَ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾ [يوسُف: ١١١]، كما قرأتْ قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [يوسف: ٣]، لذلك وجدتني أقفُ معجباً أمامَ ثرائها الدِّيني الذي وَرَدَ في شِعرها وآثارها؛ فقد ذكرتْ كثيراً من الأنبياء، وأشارت إلى قَصَصهم، وإلى الأحداثِ البارزة في حياتهم، وذلك في أسلوبٍ لطيف محبّب، ويمكننا أنْ نقولَ: لقد جاءت بنفائس الصُّور

الجميلة عن الأنبياء في نظمها، وذلك نتيجة لغزارة اطلاعها على كتب الدِّين والتَّفْسير والأدب والسّيرة والتّاريخ وغير ذلك، مما أمَدَّها بأسلوب مؤثِّرٍ آسِرٍ، ناهيك باستفادتها من صُوَرِ الأدب في ديوان العرب بمختلفِ العصور، فنظمتْ ذلك المُتَناثر، وعبّرتْ في براعةٍ بأسلوب الشَّاعر والنّاثر، وانتزعت بعضَ الصُّور القديمة، وأدخلتها في أشعارها، فكانت حليةً جديدةً في ثوبٍ شعريٍّ جميل.

وأستطيعُ أنْ أدللَ على ذلك من تلك الصُّور الرّائعة التي استقرَّتْ في ضميرها، ورسمتْ فيه صوراً بديعة، ترجمت عنها بما عبّرتْهُ من نظمٍ، كقصّة أيوب، ويونُس، ويعقوب، ويوسُف، وإبراهيم ـ عليهم السَّلام ـ، ومن المعلوم أنَّ هذه الصُّور وأمثالها قد وردت عند مختلف الشُّعراء في مختلفِ العصور، واكتسبت بذلك صفةَ العموم، ولم تختصّ بشاعر دون آخر، اللهم إلا بعض الشّعراء الذين أكثروا منها في نظمهم من مثل: ابن جابر الأندلسي، ومحيي الدِّين بن العربي، وعبد الغني النّابلسي ويوسُف النّبهاني[1] ـ رحمهم الله ـ وغيرهم كثير.

ولعلَّ من أبدع الأمثلة ما نظمته عائشة التّيمورية ـ رحمها الله ـ ضارعةً إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، أنْ يستجيبَ دعاءها، وجعلتِ السَّامعَ والقارئَ لشعرها يستحضرُ قَصَصَ الأنبياء: أيّوب، يُونُس، يعقوب، يُوسُف، وإبراهيم، وذلك دون أن تَعْمدَ إلى التّرتيب الزَّمني لأولئك الأنبياء، كما نلاحظُ أثرَ القُرآن الكريم، وأثر قَصَصهِ في نفسيتها التي تظهرُ صافيةً موصولةً بخالقها في قولها من قصيدةٍ طويلة زادت عن ستينَ بيتاً، ومنها:

يَا كَاشِفَ الضُّرِّ عنْ أَيّوبَ مرحَمَةً ... حِيْنَ استَغَاثَكَ منْ مَسِّ المَضَرَّاتِ
وصَاحِبُ الحوتِ قَدْ أَنْجَيتَه كَرَماً ... لمَّا دعَا بابتهالٍ في الضَّراعَاتِ
أَنْقَذْتَه يا إلهَ العرشِ منْ ظُلَمٍ ... فَظُلْمَةِ النَّفْسِ لاقَتْهُ بإعْنَاتِ
وابيضَّتِ العينُ منْ يعقوبَ وانْسَكَبَتْ ... حُزْناً على يوسفَ فِي فَيْضِ العِبَاراتِ

---

(١) اقرأ ـ عزيزي القارئ ـ إن شئت دواوين وآثار هؤلاء تجد مصداق ما قلناه.

ومُذْ شَكا البَثَّ للرَّحمنِ عَادَ لهُ   نَـورُ العيـونِ قَـريْنـاً بـالمَسـرَّاتِ
ويوسفُ السَّيِّدُ الصِّدِّيقُ حينَ دعَا   في ظُلْمةِ السِّجْنِ مِنْ بَعْدِ الغَيَاباتِ
ومُذْ عَلِمْتَ بإخْلاصِ الخيلِ غَدَا   والنَّارُ مِنْ حَوْلِه في رَوْضِ جَنَّاتِ
عادتْ سَلاماً وبَرْداً بَعْدَ ما اشْتَعلَتْ   ولـمْ يَفُـهْ مـنْ مُعَنَّى بـالشِّكـايـاتِ
وقـدْ رفَعْـتُ يميـنَ الـذُّلّ داعِيـةً   إليكَ يا ربّ أَرجُو غَفْرَ زلاّتي[1]

إننا نجدُ في الأبيات السَّابقة كيف تحدثَتْ عائشة عن معالِم قصص الأنبياء كما أوردها القُرآن الكريم، ووجدنا كيف استخدمت الألفاظ القرآنية كيما تعبِّر عن معانيها، كقولها: «يا كاشف الضّر عن أيوب»، «وابيضتِ العينُ من يعقوب»، و«الغيابات»، و«يوسف الصّديق». . . . وهذا يدلُّ على مدى تأثرها بالقرآن الكريم الذي كان ربيعَ قلبِها، وقلبَ ربيعها، وأعتقد أنَّ عائشةَ كانت تكثرُ من تلاوةِ كتاب الله تعالى، وهو الذي جعلَها تُكْثِرُ من ذِكْرِ آياته وصوره في شعرها، وكانت إذا ضاقتْ بها الحياةُ، لجأت إلى كتاب الله، لأنَّ القرآنَ الكريم يُدْخِلُ الأمْنَ والأمان إلى نفسها، وبتلاوةِ آياته تزدادُ الحسنَاتُ، وتتطلّعُ إلى جمالِ الجنَّات من خلالِ حروفه التي تشعُّ نوراً:

إذَا ضَـاقَـتْ بـيَ الـدُّنْيَـا   وشَـابَ عـزيمَتِـي ضَعْـفُ
وضَجَّـتْ وحْـدَةُ روحـي   وروَّعَ أَمْنَهـا الخـوفُ
أَلـوذُ بِجَنَّـةِ القُـر   آنِ فهـو الفـيءُ والألْـفُ
تَفيـضُ حُـروفُـه نُـوراً   ويشْفِـي عِلَّتِـي حَـرْفُ

عَائِشَـةُ وَالمَدِيْـحُ النَّبَـوِيُّ:

لا أكون مبالغاً لو قلتُ: إنَّ عائشةَ التَّيمورية ـ رحمها الله ـ منْ أبرع شاعرات العَصْر الحالي، ومن أكثرهنَّ حِرصاً على مديح النّبي ﷺ، فلقدَ حلَّقَتْ في هذا المجال في الآفاق، وبلغتْ فيه شأواً بعيداً، بل يمكنني أنْ أقولَ: إنَّها تفرَّدت لأكثرَ من نصفِ قرن منَ الزَّمن في هذا المضمار البديع، ولعلَّ مردَّ ذلك يرجعُ إلى عدم شهرةِ الشَّاعرات في القرن الماضي، وإلى

(١) انظر: حلية الطراز (ص١٩٨)، والدر المنثور (ص٣١٨).

تَغَلُّب شعراء الرّجال على هذا الفنِّ الجميل.

* وقد سلكتْ كثيرٌ من شاعراتِ عصرنا الحالي ـ خصوصاً بعد وفاة عائشة التّيمورية ـ سبل الشُّعراء الذين امتدحوا الحبيبَ الأعظم محمّداً ﷺ منذ عَهْدِ الأعشى الذي امتدحَ النَّبيَّ ﷺ، ثمّ كعب بن زهير بن أبي سلمى المتوفى سنة (٢٦ هـ) في لاميّتِهِ المشهورة «بانت سُعاد»، ثمَّ جاء ابنُ الفارض المتوفى سنة (٦٣٢ هـ) في بردةٍ ميمية جميلة[١]، وتعقبه البُوصيري المتوفى سنة (٦٩٧ هـ) في بردته المشهورة التي طغتْ على بردة ابن الفارض، وكذلك اشتهرَ في الهمزية اللطيفة ذات المطلع:

كَيْفَ تَرقى رقيّك الأَنْبياءُ   يا سماءً ما طاولَتْها سَماءُ

وهذه الهمزية الجميلة قد بنى نور الدِّين الحلبي عليها سيرته النّبوية المشهورة باسم «إنْسَان العُيون في سيرةِ الأمين المأْمُون»، والتي اشتهرت باسم «السِّيرة الحلبيّة»، ثمَّ جاء ابن حجّة الحموي المتوفى سنة (٨٣٧ هـ)، وبرعَ في بديعتيه التي تُعَدُّ من بدائع بدائهِ الشِّعر في فنِّ المدائح النّبوية؛ وكذلك أتتْ فاضلةُ الزّمان عائشة الباعونية[٢] المتوفاة سنة (٩٢٢ هـ) لتتحفَ الأنام في بديعيتها المسماة: الفتح المبين في مَدْحِ الأمين.

وفي العصر الحديث أطلقت شاعراتُ العرب العنان في مدحِ الرّسول ﷺ حتى غدتِ المدائحُ النّبوية ذات موضوع مستقل من موضوعات أشعار النِّساء، ويتخلل هذه المدائح على الغالب استعراضٌ جميلٌ لأحداثِ السِّيرة النّبوية، ولعلَّ الهدف من ذلك في رأي معظمهن الاقتداء بسيرةِ النّبي ﷺ، وأنْ يأتمَّ النَّاسُ بقَصَصِ الأنبياء وسيرهم، وأن يسلكوا سبيلَهم الذي دعو إليه، كما قالت إحداهن:

---

(١) قال ابن الفارض، واسمه عمر بن مرشد بن علي الحموي الملقب بشرف الدين وسلطان العاشقين في بردة جميلة مطلعها:

هل نارُ ليلى بَدَتْ ليلاً بذي سَلَمِ   أمْ بارقٌ لاحَ في الزوراءِ فالعلمِ

أروح نعْمانَ هلاّ نسمة سحراً   وماءُ وجْرة هلاّ نهلة لظمِ

(٢) اقرأ سيرتها وترجمتها في هذا الكتاب.

إنَّ القُلُوبَ إِذَا مَا آمَنَتْ سَعِدَتْ وإنَّ بالرُّسْلِ يأْتَمُّ الأَلِبَّاءُ[1]

وهذه شاعرة أخرى واسمها «عُليّة الجعار» من مصرَ، تدعو بنات حواء إلى التَّمسُّكِ بأخلاقِ رسول الله ﷺ حينما قالت:

يا سَائِلاً عنّي أنَا بِمُحَمَّدٍ قَدْ هُذِّبَتْ وتأثَّرتْ أَخْلاقِيَا
النُّبْلُ والخُلُقُ العَظِيمُ صِفَاتُه ومِنَ الرَّسولِ قَبَسْتُ كلَّ صِفَاتِيَا
يا سَائِلاً عنّي وعَنْ آبَائِيا إنّي أَتِيهُ على الزَّمَانِ بجاهِيَا
فأَنَا ابنةُ الإسلامِ أكْرمُ وَالِدٍ حَسْبِي مِنَ الدُّنيا نَسَباً لِيَا

وقد علمتِ الشّاعراتُ اللواتي أحببنَ سيرةَ المُصطفى ﷺ أنَّ الرَّسولَ ﷺ قد أوصى بإكرام النِّساء في قوله: «فاستوصوا بالنِّساء خيراً»[2]، وكذلك قولُه ﷺ في حجَّة الودَاع بعد أنْ حَمِدَ اللهَ، وأثنى عليه: «ألا واستوصوا بالنِّساء خيراً، فإنّما هُنَّ عَوانٌ عندكم، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أنْ يأتين بفاحشة مبينة»[3].

ووفاء من عائشة التيمورية لدِيْنها، وحجابها، وحبِّها للهدي النّبوي، فإنّها حرصتْ على أنْ تجعلَ جزءاً من أشعارِها، ومساحة من ديوانها في المدائح النَّبويةِ، ومن تلكم المدائح النّبوية الرّائعة قولها:

أَعَنْ وَمِيْضٍ سَرَى فِي حِنْدسِ الظُّلَمِ
أَمْ نَسْمَةٍ هَاجَتِ الأَشْواقَ مِنَ إِضَمِ
فَجَددَتْ لِي عَهْداً بِالغَرَامِ مَضَى
وشَاقَنِي نَحوَ أَحْبَابِي بِذِي سَلَمِ
وَدَعَا فُؤَادِيَ مِنْ بعْدِ السُّلْوِ إلى
ما كُنْتُ أَعْهَدُهُ فِي قَلْبِي مِنَ القِدَمِ

---

(١) نفحات الإيمان (ص٩٧) لشاعرة اسمها صابرة محمود العزّي، واسمها الحقيقي: خديجة محمود العزّي، وديوانها اسمه «نفحات الإيمان».
(٢) انظر: صحيح البخاري بشرح الكرماني، كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء (١٩/ ١٣٠ و١٣١) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.
(٣) المصدر السابق (١٩/ ١٣١) وما بعدها.

وهَـــاجَنِـــي لحبِيْـــبٍ عِشْـــقُ مَنْظَـــرِه
يَمْحُــو ويثْبِــتُ مــا يَهْــوَاهُ مِــنْ عَــدَمِ[1]

* ويبدو أنَّ عائشة التيمورية ـ رحمها الله ـ قد اطلعت على بُردة البُوصيري واستظهرتْها، ووعَتْ معانيها ومبانيها، فنقلت بعضَ صورها إلى شعرها، وضمنت ذلك في هيئةٍ جديدة، لكنّها سلكت الخُطى في القافية والوزن، من ذلك قولها: «وشاقني نحو أحبابي بذي سلم»، منتزع من قول البُوصيري في مطلع بردته الشّهيرة المشهورة:

أَمِــنْ تَـذَكُّـرِ جيْـرَانٍ بِـذي سَلَـمِ ... مَزَجَتْ دَمْعاً جَرى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

وكذلك قولها في وسط قصيدتها الميمية:

مَــنْ لــي بِتُــرْبِ رحَــابٍ لــو أَفُــوزُ بهَــا
كَحَلْــتُ عَيْنَــاً أَفَــاضَــتْ دمْعهَــا بِــدَمِ

هذه الصُّورة مُنتزعة من الشَّطرِ الثَّاني من مطلعِ ميمية البُوصيري بقوله: «مَزَجْتَ دَمْعَاً جَرى منْ مقْلَةٍ بدمِ».

فصورة العين، أخذتها عائشة من البوصيري لشدّة إعجابها بنظمه ومعانيه الفواتن الرّائعات.

* وعندما تحدثتْ عائشةُ عنِ النَّفس أوردت صورة جماحها، فقالت:

وَكَيْــفَ لــيْ بــاتِّعَــاظِ النَّفْــسِ آمِــرَتــي
بِــالسُّــوءِ نــاهِيَتِــي عــنْ مَــوْرِدِ النِّعــمِ[2]

فصورتها هذه مستوحاةٌ من قول البُوصيري:

مَـنْ لـي بِـرَدِّ جِمَاحٍ في غـوايتهـا ... كمـا تُـردُّ جماحُ الخَيْـلِ بـاللّجُـمِ
فَلا تَرُمْ بالمعَاصي كَسْرَ شَهْوَتها ... إنَّ الطَّعَـامَ يقـوّي شَهـوة النَّهِـمِ

---

(١) حلية الطراز (ص٢٦٩).

(٢) حلية الطراز (ص٢٧٠).

وتظهر ذروةُ محبّتها للرّسولِ ﷺ عندما أخذتْ تمدحه في بردتها هذه، وعندما أدلتْ دلوَها في المديح، فهي تترنّمُ بمدحه ﷺ، وبذكْرِ أسمائه من مثل: المصطفى، وطه، وكذلك اختصاصه بالشّفاعة؛ ويظهر هذا جليّاً في قولها:

وَلــذْتُ بــالمصطفــى ربِّ الشَّفــاعَــةِ إذْ
يــدعُــو المُنــادي فَتَحْيَــا النَّــاسُ مِــنْ رَقــمِ

طــهَ الــذي قَــدْ كَســا إشْــراقُ بعْثَتِــهِ
وَجْــهَ الــوجــودِ سَنَــاءَ الــرُّشْــدِ والكَــرَمِ

طـــهَ الـــذي كلَّلَـــتْ أنـــوارُ سُنَّتِـــهِ
تيجـــانَ أُمَّتِـــهِ فَضْـــلاً علـــى الأُمَـــمِ

ثم يأخذها الوجدُ فتذكر بعض معجزاته ﷺ، كنبع الماء من بين يديه الشَّريفتين، وحنين الجذع له، وغير ذلك من معجزات لا تُحصى ولا تُحْصَر:

كَــمْ مَنْبــعٍ زَلَــلٍ قَــدْ فَــاضَ مِــنْ يَــدِهِ
أَرْوَى الأوَامَ وأَسْقَــى منْــهُ كــلَّ ظَمِــي

والجــذعِ أَنَّ لَــهُ مِــنْ بُعْــدِهِ جَــزَعــاً
لمّــا نَــأَى عَنْــه مــولــى العُــرْبِ والعَجَــمِ

لانَــتْ لَــهُ الصَّخْــرةُ الصَّمَّــاءُ طَــائِعَــةً
مُــذْ مَسَّهَــا سَيِّــدُ الكَــونيْــنِ بــالقَــدَمِ

فَيَـــالَهـــا مُعْجِـــزَات مَـــالهَـــا عَـــدَدٌ
أَقَلُّهَـــا مَـــا بَـــدا نـــارٌ علـــى عَلَـــمِ

وتعترفُ عائشة بأنَّها لن تفيَ مَدْحَ النّبيّ الكريم ﷺ، ولو كانت كلّ جارحة فيها تنطقُ بلسانِ الحكمة، ولكن قصدت من امتداحه: أنْ تحظى بأقباسٍ وضيئات تهديها سواءَ السَّبيل:

ولا يُحِيْــطُ بِــهِ مَــدْحــي وَلــو جُعِلَــتْ
جَــوَارِحــي أَلْسُنَــاً يَنْطِقْــنَ بــالحِكَــمِ

وإنَّمـــا أَرتَجـــي مـــنْ مَـــدْحِـــهِ قَبَسَـــاً
يَهْـدي الصِّـراطَ ويَشْفـي الـرُّوحَ مـنْ أَلَـمِ

* وترجو عائشةُ شفاعةَ المصطفى ﷺ فهي مؤمنةٌ مسلمةٌ من عداد الأمّة المحمديّة:

ومَـا سِـوى فَـوْزِ كَـوْنـي بَعْـضَ أُمَّتِـهِ
ذُخْـرَاً أَفـوزُ بـهِ مـنْ زَلَّـةِ الـوَصَـمِ
إلا التِمَـاسـي عَفْـواً بـالشَّفَـاعـةِ لـي
مِـنْ خَـاتَـمِ الـرُّسْـلِ خَيـرِ الخَلْـقِ كُلِّهـمِ
محمّـــدُ المصطفـــى مشْكـــاةُ رحمَتِنَـــا
مِصْبَـــاحُ حجّتِنـــا فـــي بَعْثَـــةِ الأُمَـــمِ

* وتختمُ عائشة بردتها في مخاطبةِ الرَّسول ﷺ، وهي ترجو شفاعته، وقد استخدمتِ المبالغة فقالت:

يـا خَيْـرَ مَـنْ أَرْتَجـيْ إنْ لَـمْ تكُـنْ مَـدَدِي
وَأْزَلَّتِـي يـومَ وَضْـعِ القِسْـطِ وَأنَـدمـي
فـاشْفَـعْ بِحُـبِّ الـذي أنْـتَ الحبيـبُ لـه
لـولاكَ مـا أَبْـرزَ الـدُّنيـا مِـنَ العَـدمِ
عَلَيْـكَ أزْكـى صَـلاةِ اللهِ مَـا افْتَتَحَـتْ
أدْوَارُ دَهْـــر وَمَـــا دَلَّـــتْ بِمُخْتَتَـــمِ

* ونلاحظُ هنا أنَّ عائشةَ التّيمورية قد غطّى حبّهَا للرّسول ﷺ مساحةً كبيرةً من نَظْمِها، إذ تصوّرُ منزلته ﷺ، وهي ترجو شفاعَتَه يوم الزّحام، ولجأتْ إلى المبالغة الشَّديدة في ذلك، حيث زعمتْ أنَّ الدّنيا كلّها قد خَلقَها اللهُ مِنَ العدم من أجْلِه ﷺ، ولولاه لما خلقَها، في حين أنّه بُعِثَ ﷺ من أجلِ هداية العالَم، وإخراج الناس منَ الظُّلمات إلى النّور إلى صراط العزيز الحميد، ولكنْ مع هذا وذاك نشهدُ لعائشةَ بصدق عاطفتها، وحبّها للرسولِ ﷺ، وإبراز مكارم أَخلاقه، والدعوة إلى الاقتداء به ﷺ.

ثَقَافَتُهَا وَمَعَارِفُهَا:

* تدلُّ آثارُ عائشةَ التّيمورية ـ رحمها الله ـ على اطلاعها وثقافتها التي استقتْها من مواردَ متعددةٍ، وفي مقدمتها القرآن الكريم، والحديث النّبوي الشّريف، والسِّيرة النّبوية، ونلمح كذلك ـ فيما سَيَلي ـ حرص هذه السَّيدة على أن تأخذَ من كلِّ علمٍ بطرف، وخصوصاً أخبار الشَّواعر فيما مضى من سالفِ العَصْر، وقراءة الشِّعر القديم، حتى وعَتْ كثيراً من أشعارِ نساء العرب وأخبارهنّ ومعارفهنّ وآثارهنّ، ناهيك بأشعار ومعارف العرب أنفسهم في بواديهم وحواضرهم.

* وكان لهذا الاطلاع على الأخبار القديمة أثره الواضح في آثار وأشعار عائشة التّيمورية، وقد ساعدها ذلك على تنمية أصالتها التّراثية، وتوسيع ثقافتها، وشحذ موهبتها، وإلمامها بكثير من الصُّور الفاتنة، والمعاني الفائقة المعبّرة عن المعاني عن إرادتها.

* ونلمحُ جانبَ الثّقافةِ والمعرفة بِسِيَرِ مَنْ مَضَى من شاعرات العرب اللاتي اتخذتهنَّ عائشة التّيمورية قدوة لها، وأكثرت من قراءةِ أخبارهنّ ونتاجهِنّ الأدبي والشّعري.

* ويبدو لي أنَّ عائشةَ قد قضتْ وقتاً طويلاً في دراسة أخبار شاعرات العرب، وحفظتْ كثيراً من رائقِ أشعارهن حتى غَدَتْ صورُ كثيرات منهن واضحةً في ذهنها، فراحت تعبِّرُ عن ثقافتها ومعرفتها بأخبار مَنْ مضى من جماعة النِّساء، وتنظمُ كلَّ ذلك في قصائدَ جميلةٍ تحملُ المعاني اللطيفة الموحية، كاللواتي ذكرتهن في قصيدتها البائية المشهورة حيثُ قالت:

وَلَقَدْ نَظَمْت الشِّعْرَ شِيْمَة مَعْشَرٍ ... قَبْلي ذَواتِ الخِدْرِ والأَحْسَابِ

فَبُنَيَّةُ المَهدي وليلى قُدوَتي ... وبفطْنَتِي أُعْطِيْتُ فَصْلَ خطَابي[1]

---

(١) «بنية المهدي»: هي عُليّة بنتُ المهدي الخليفة العبّاسي المشهور.
ومن الجدير بالذكرِ أنّه كان للمهدي ثلاث بنات قد اشتهرن في دنيا النّساء وهنّ: عُليّة، العبّاسة، البانوقة. =

للهِ دَرُّ كَـــواعـــبٍ منْـــوَالُهـــا ... نَسْـجُ العُــلا لِعَـوانـسٍ وكعَـابِ
وخُصصْتُ بالدُّرِ الثَّمينِ وهَامتِ الخَنْـ ... ســاءُ في صَخْـرٍ وجَـوْبِ صعَـابِ
فَجَعَلْـتُ مِـرْآتـي جَبيْـنَ دفَـاتِـري ... وجَعلْتُ منْ نَقْشِ المدادِ خضَابي

* ثمَّ إنَّها تذكرِ مقدرتها الشِّعرية وفنّها الأدبي فتقول:

كَمْ زَخْرفَتْ وَجْنَاتِ طَرسي أَنْمُلِي ... بَعَـذَارِ خَـطٍّ أَوْ إهَـابِ شَبـابـي
ولكمْ أَضَا شَمْعُ الذَّكَا وتضوَّعَتْ ... بعبيـرِ قَـولـي روضَـةُ الأَحْبَـابِ
مَنْطقْـتُ ربَّـاتِ البَهـا بمنَـاطِـقٍ ... يَغْبِطْنَهـا فـي حَضْـرتـي وغيَـابـي
وحَلَلتُ في نادي الشُّعور ذَوَائباً ... عَرفَتْ شَعائِرَها ذوو الأَحْسَابِ
عَوّذْتُ منْ فِكْري فُنونَ بلاغَتي ... بِتَميْمَـــةٍ غَـــرّا وحـــرْزِ حِجـــابِ

ثمّ تختمُ عائشة قصيدتها بقولها:

فَأَنَرْتُ مِصْبَاحَ البَراعَةِ وهي لي ... مِنَـحُ الإلـهِ مَـواهـبُ الـوهَّـابِ(١)

* وقد تردَّدَتْ في أشعارِ عائشة أنفاسُ القُدامى، وخاصة شعراء القرون

= وقد كانت عُلية نموذجاً للمرأة في العَصْر العباسي، وهي سيّدةٌ جليلةٌ ولدتْ سنة (١٦٠ هـ) وكانت من أظرفِ نساء عصرها، وأعقلهن، ذات صيانةٍ وعفّةٍ، وأدبٍ بارعٍ، تقول الشّعر الجيد، وكانت حسنةَ الدِّين، تقرأُ القرآن، وتقرأُ الكتبَ، وكانت تعدلُ بكثير من أفاضلِ الرجالِ في فضْل العقلِ، وحسنِ المقال، وكانت مجالسُها من أبهى مجالس بغداد، توفيت سنة (٢١٠ هـ).

وأمّا العباسة، فكانت كبيرة القدر، ذات صون وعفاف وشرف وسلطان، وكانت من ربات الفضل والأدب والحسن والجمال، توفيت بالرقة سنة (١٨٢ هـ).

أمّا البانوقة، فقد ماتت في حياة أبيها المهدي، وحزن عليها حزناً شديداً.

هذا وقد زاد القُضاعي ـ رحمه الله ـ في تاريخه بأنَّ للمهدي ابنةً أخرى اسمها سليمة (تاريخ القضاعي ص٤٠٨).

وأرادت عائشة التيمورية بقولها: ليلى: ليلى الأخيلية، وهي إحدى نابغات شَواعر النساء، ولها ترجمة طويلة في تاريخ دمشق لابن عساكر، واقرأ سير هؤلاء النساء في كتابنا: «نساء في القصور».

(١) انظر: حلية الطراز (ص٢٦٥ و٢٦٦).

منَ العاشرِ إلى الثَّالث عشر الهجري، حيث سلكتْ طريقة الشُّعراء الذين كانوا يسلكون طريقة التّأريخ الشّعري[1] فيجعلون آخرَ أبيات القصيدة تأريخاً للحَدثِ الذي يعبّرون عنه، وخاصّة أشعار المراثي، أو أشعار التّهنئة بمولود، أو ما شابه ذلك، ولعلَّ عائشة قد راقَها هذا الأسلوب، ورقَّ في منظارها الشّعري، فأدلت دلوَها في هذا المضمار، لتشير إلى تمكّنِها من ناصيةِ اللغة، وتدلُّ على ثقافتها الأصيلة الواسعة؛ ففي ختام مرثيتها لابنتها توحيدة التي ماتتْ عام (١٢٩٤ هـ) أرَّخَتْ وفاتها وِفْقَ حساب الجُمَّل فقالت:

هَـــذا النَّعيـــمُ بـــهِ الأَحِبَّـــةُ تَلْتَقِـــي
لا عيـــشَ إلا عِيْشـــةَ المبـــرور

---

(١) «التّأريخُ الشّعري»: هو أن يأتيَ الشَّاعرُ أو النَّاظمُ بكلمةٍ أو كلمات إذا حُسبَتْ حروفها بحساب الجُمَّل بلغت عدد أعوام السَّنة التي يريدها المتكلّم من تاريخ هجرةِ النّبي ﷺ.
وينبغي حساب الحروف المنطوق بها، لا المرسومة، ويُشتَرط في التّأريخ أنْ يتقدَّمَ على ألفاظه لفظ: أرَّخَ، أو أرّخوا، أو واحدة مما يُشتقُّ من التّاريخ من غير فصل بينه وبين كلمات التّاريخ، بل مقارنة لها، وألاّ تكون كلماته معقّدة، أو غير ظاهرة المعنى، وأحسنه ما اشتملَ على اسمِ المؤرخ، أو لقبه، أو شيء من متعلّقاته، وكان منسجم الألفاظ، مؤتلف المعنى، خالياً من التكلّف والتّعسّف.
انظر (نفحات الأزهار لعبد الغني النابلسي ص٣٣٦) بتصرف.
وحساب الجُمَّل الذي يُحْسَبُ به التأريخ الشعري، وهو إعطاء قيمة رقمية لكل حرف من الحروف الأبجدية: «أَبْجَدْ هوَّز، حُطّي، كَلَمُنْ، سَعْفَص، قَرَشَتْ، ثَخِذٌ، ضَظغٌ» وذلك على النحو التالي:

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
ي	ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص
١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠

ق	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ
١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠

ولـكِ الهنـاءُ فَصِـدْقُ تَـاريخـي : بِـذَا
(٧)
تَـوْحيـدةٌ زُفَّـتْ ومَعَهـا الحُـور
(٢٤٥) (١٢٢) (٤٨٧) (٤٣٣)

* إنّنا إذا ما جمعنا ما يقابل حروفها منْ أرقام [٧ + ٤٣٣ + ٤٨٧ + ١٢٢ + ٢٤٥] لألفينا أنَّ النّاتج هو الرقم [١٢٩٤] وهو سنة تاريخ وفاة ابنتها.

* ولم تؤرِّخْ عائشةُ وفاةَ ابنتها فحسب، وإنّما كانت تهنىءُ الخديوي في توليةِ المنصب، ومن ذلك قولها تهنىء الخديوي توفيق بتوليته سنة (١٢٩٦ هـ)، وحرصت على ذكْرِ اسمه في نهاية قصيدتها لتدلَّ على مقدرتها من ناصية الكلام فقالت:

هَذا الخديوي الذي قرّتْ بموكبِهِ ... عينُ الزّمانِ وقالتْ للهدى ابتَهِجِ
يسـوسُ بـالعـدلِ والإنصـافِ أمّتـه ... ويبذلُ الفَضلَ والجدوى لكلّ رَجِ
والـدهـرُ رنَّـم بـالبشـرى يـؤرِّخُـه: ... يا مصر قد زانك التّوفيق بالبلجِ
(٣٤١) (١٠٤) (٧٨) (٦٢٧) (١٤٦)

* وتحلّقُ عائشة عالياً في مضمار التّأريخ بالحروف، وتظهر براعتها في تهنئةِ الخديوي السَّابق، إذ تفتتح تهنئتها بالتّاريخ نفسه الذي تختتم به تهنئتها، وفي هذا تقول:

كَلّلْـتَ تَـاجَ البَـدْرِ قُـرباً بـالشَّـرفْ ... مُذْ حَلَّ في مِصْرٍ ركابُكَ وانْعَطَفْ
وَبـكَ الأَمَـانـي قَـد تَبَسَّـمَ ثَغْـرُهَـا ... والصَّفـوُ مَـالَ بِقَـدِّهِ حُسْـنَ الهيَـفْ
وتَراقَصَتْ مُهَجُ النُّفوسِ لبشْرِها ... كبَـلابـلٍ غَـرَّدْنَ فـي رَوْضٍ أُنُـفْ
أَضحـى يقـولُ بِسَعْـدِ بـابِـك نِيْلُهَـا ... أَقْبِلْ على بَحْرِ الوفاءِ ولا تَخَفْ
واللهِ يـا مصْبَـاحَ مشْكَـاةِ العُـلا ... بكَ سُرَّتِ الدُّنيا ومَنْ فيها شُغِفْ
رقَمَتْ جَمَالَ بَهَا قُدُومكَ عِصْمَةٌ ... بمدَادِ تَحْريرِ سَنَاهُ شَفَى وشَفّ
وبمُعْجَـمٍ فـي معـربٍ قَـد أرَّخـتْ ... كَلَّلْتَ تاجَ البَدْرِ قُرباً بالشَّرفْ[1]

---

(١) الدر المنثور (ص٣١٣) هذا وقد تركنا القارىء الكريم أن يحسب بنفسه جمّل الشطر=

* وهذا الفنُّ منثورٌ منتشرٌ في شُعراءِ القرون الثَّلاثة الماضية، وعلى الرغمِ من التكلُّف الواضح فيه، إلا أنَّه يدلُّ على تبَحُّرٍ في اللغة، وذكاء في إبرازِ المعاني التي يريدها الشَّاعر.

* ومنَ الجديرِ بالذِّكْر أنَّ التَّأْريخ يكون بالسَّنَةِ الهجرية؛ ولعلَّه منَ المفيد والممتع أنْ نشيرَ إلى أنَّ الأدباءَ ـ في القرن العاشر فما بعده ـ قد أُغْرِمُوا غَراماً شديداً بفنّ التّأريخ الهجري في قصائدهم؛ فهذا محمّد بن أحمد بن عبد الله المعروف باسم «ماميّة الرُّومي» المتوفى سنة (٩٨٧ هـ)، قد جمع لنفسه ديواناً، وجعل تاريخ جَمْعِهِ قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، وذلك يوافق سنة (٩٧١ هـ). وله من التّواريخ التي لا نظير لها، كقوله في تاريخ عرس:

هُنّئتـــــم بعــــــرسِكُـــــم والسَّعــــدُ قـــد خـــولكـــم
وقــــد أتــــى تـــأريخـــه ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾[1]

* وتبدو عائشة التّيمورية ـ رحمها الله ـ ثابتةَ الأصولِ في منابتِ الثَّقافة الإسلامية والعربية، متطاولةَ الفروعِ في الثَّقافة الأدبية التي تجسَّمت في شِعْرها الذي يشهد لها لا عليها، فقدْ سلكتْ طريق الشّعر الموزون المقفّى في جميعِ أشعارها؛ وهذا طبيعي لاطلاعها على الثّقافة العربيّة الأصيلة؛ وإقبالها على دراسة عِلْمِ العَروض ـ كما رأينا ـ، فلقد هضمتْ بحورَ الشِّعر، وعرفت مصطلحاته العروضية حتى غدت تلكم المصطلحات تتمشّى في أشعارها سجية وصنعة، بل إنّها كانت تستخدمُ المصطلحات العروضية بما يخدمُ غرضها الذي تريده، وهذا لعمري يشيرُ إلى تسنّمها ذروة المقدرة على الكلام والنّظم، ولعلَّ من أجمل الأمثلة على ذلك قولها في تصوير ما أصابها من ضرّ:

= الأخير كيما يعرف سنة وتاريخ هذه التهنئة.

(١) اقتباسٌ جميلٌ من قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، فقد أحسنَ الاقتباس وحساب الجمّل. وهذا الفن كثير جدّاً، ومن أرادَ الاستزادة فليراجع مثلاً كتاب: «سِلْك الدّرر» للمرادي، يجد فيه ما يبتغيه.

إنْ بَانَ خَبْنِي بلُقْيَاكم فَلِي زَمَنٌ   يَطْوِيَ خَيَالَ الأَسى في راحَةِ الأَسَفِ
تَبَّتْ يَدَاهُ فكَمْ بالكفِّ أَعْصَبَنِي   عَنِ اللِّقَا وانْثَنى للزَّحْفِ في تَلَفِي
أو زَادَ جسْمِي اعتلاَلاً بالخَفِيْف فَلي   رُوحٌ لديْهم وشَكْلٌ حَاضِرٌ وخَفِي
مَجْموعُ أَوتادِ قَلْبِي في الهوى افْتَرقَتْ   وَمَا لذلكَ أسبابٌ سوى الصَّلَفِ
عـاقَبْتُمـونـي ومَـا راقَبْتُمـو ذِمَمـاً   وكَمْ قَطَعْتُم ولَم ترثُوا إلى شَغَفِ[1]

* وكما ربطتْ عائشةُ شعرها بأوتادِ العروضِ، كذلك حلَّقَتْ في الفضاءَ لتستخدمَ المجموعة الشّمسيّة في غَرضها، لذلك حرصتْ على جَعْلِ مظاهر الطَّبيعة تشاركُها في آلامها وآمالها، وإحساسها ومشاعرها بما تمليه عليها ظروف الحياة، وقد انتزعتْ من مظاهرِ الطَّبيعة الصَّامتة ومشاهدها صوراً لطيفة عبرتْ من خلالها عمّا يجيشُ بداخلها من أحاسيس ومشاعر.

* فلقد حلَّقَتْ عائشةُ ـ رحمها الله ـ عالياً، حينما جعلتِ الثُّريا، والمشتري، والمريخ، ثمَّ الرَّعد، فالبرق، هذه الأشياء تشاركها آلامها، وتتفاعل مع أحاسيسها فتحزن إذا حزنت، وتبكي إذا بكتْ، وتداعبُ عائشة الطَّبيعة بنبراتٍ هامسةٍ حزينةٍ، حينما أصابها مرضُ الرَّمدِ في عينيها، فاغرورقتا بالدّمع، ونَفَرتَا من ضَوءِ النّيرَيْن، ـ وذلك عقيب وفاة ابنتها ـ فمن ذلك قولها من قصيدة رائية:

عَيْنُ الثُّريَا بَكَتْنِي وهيَ ضَاحِكةٌ   فَيَـالـدمْـعِ عَظيـمِ الـوبْـلِ مُنْهَمِـرِ
كَمْ لامَها المُشْتَري عَيْناً وحَيْنَ رأى   حَالي تَوارَى يزيلُ السُّحْبَ منْ بَصرِي
وَمُذْ رَأى لَوعَتِي المرّيخُ ذَابَ أَسىً   وغَابَ في الحَالِ تحتَ الحُجبِ والسُّتُرُ
وخُبِّـرَ البَـرْقُ فـاشْتَـدَّتْ لَـوامعُـه   وأَرسلَ الرَّعْدُ يَنْعاني على الأَثَرِ[2]

* وفي مجال التَّهنئةِ تستخدمُ عائشة التّيمورية الكواكب أيضاً في شعرها،

---

(١) حلية الطراز (ص٢٣٩)، ومن الملاحظ أنَّ عائشةَ التيمورية تظهرُ براعتها خلال استخدامها مصطلحات علم العروض: كالخَبْنِ، والطي، والكفّ، والعَصْب، والزّحاف، والعلّة، والأوتاد، والأسباب، وتستمر على هذه الشاكلة إلى نهاية قصيدتها، وذلك في فن يُظهر مقدرتها على استخدام الكلام في أي موضوع.
(٢) حلية الطراز (ص٢٠٤ و٢٠٥).

وتسخِّرُ الألفاظَ لتكون مطواعةً لها فيما تريد، من بدائع نظمها في هذا المجال، ما قالته في التّهنئة بمولودٍ حيثَ تلاعبتْ في استخدام المجموعة الشّمسية برائع الكلام:

تَجَلّى النُّورُ في أُفقِ المَعالي ... وَحَلَّ البَدْرُ في أوْجِ الكَمَالِ
وأَزْهَرتِ الكَواكبُ مُسْفِراتٌ ... عنِ البُشْرى كإِشْراقِ الليالي
وأَبدى الدَّهْرُ مَولُوداً زَكيّاً ... تلوحُ عليهِ آيَاتُ الجَلاَلِ
عُطارِدُهُ بِلائِحةِ التَّهَاني ... أَتى الأعْتَابَ والإقْبَالُ عَالِ

* ولقد أبانتْ عائشةُ بأشعارِها هذه عن حُسْنِ تفهُّم أسرارِ الطَّبيعة، وتأويلِ معانيها، فوصفتْ حركات حدثَتْ للزَّهرِ وللماءِ وللغصنِ الذي اهتزَّ من مداعبةِ الأَنْسام إياه، فبدأ كأنّه يهتزُّ عجباً وتيهاً، وتستغلُّ عائشة هذا المنظر البديع الأنيق، فإذا بها تعبِّرُ بها عمّا في مكنونها من وجْدٍ وشوقٍ وهيام:

إنْ كانَ ذَلِكَ حَالَ الزَّهرِ منْ عَجَبِ ... فكيفَ حالُ أخي وَجْدٍ وأَشْوَاقِ؟

* وحتى في مظاهرِ غزلها اللطيف، تستخدمُ مظاهرَ الطَّبيعة العُلْويّة من سماء؛ ونجوم؛ وشمس؛ وقمر؛ بل وأسماء القمر، وظلام وضياء، فتأتي أشعارها تتهادى في ثوبٍ قشيب؛ وتختالُ كالغصنِ الرّطيب؛ عند اعتلالِ النَّسيم وقت المغيب:

مَلَكَ الفُؤَادَ وقَدْ هَجَرْ ... بَدْرُ المَحاسنِ مُذْ ظَهَرْ
أشكُو الغَرَامَ ويشْتكي ... جَفْنٌ تَعَذَّبَ بالسَّهَرْ
وأَتيْتُه مُتَبسِّماً ... كالبَدْرِ لمّا أَنْ سَفَرْ
يا بَدْرُ حَكَّمَكَ الهَوى ... فاحْكُمْ ونَفِّذْ مَا أَمَرْ
وَدَعِ الظَّلامَ على الضِّيَا ... واسْتُرْ بطرّتِكَ الغُرَرْ
فالشَّمْسُ تَخجَلُ عِنْدَما ... تَبْدو ويَسْتَحي القَمَرْ

تَفَنُّنُها في نَظْمِ الشِّعْر:

* يحفلُ ديوان عائشة التّيمورية بكلِّ جميلٍ وطريف، فهو كالرّوضِ المعطار فيه من كلّ زَهْر لون، ومن كلّ أريج عطْر، حيث تجتذبُ كلماتها

قلوب محبّي الثّقافة، وتأسر معانيها قصّاد المعرفة، وتنشر أشعارُهَا رحيقَ الأدب فتفوح بأريجِ ثقافتها، وتنمُّ عن سَعةِ اطلاعها وتبحرها في فنّ النّظم، ورصفِ الكلمات على شفاه الأيّام، فتظلّ كلماتها تتردد على سَمْعِ الزّمان كلّما ذكرت عائشة التيمورية.

* لقد أجادتْ عائشة فنونَ الشِّعر كلّها، ومن هذه الفنون البديعية فن التّخميس الذي بلغت فيه شَأواً بعيداً، والذي تكاد تنفردُ به عائشة بين شاعرات عصرها من مثل: أمينة نجيب[1]؛ وباحثة البادية[2] وغيرها، فقد أجادتِ النَّظم في هذا الفنّ البديعِ ذي التّذوّق والذّوق الرّفيع، فمن رائعِ تخميسها، وروائع فنها بذلك هذينِ البيتين:

خَليلـيَ إنّـي للثُّـريَـا لَحـاسِـدُ وَإنّي عَلى ريْبِ الزّمَانِ لَوَاجِدُ
أَيَجْمَـعُ فيهـا شَمْلُهـا وهـي سِتَّـةٌ ويـأْخُـذُ منّـي مُنْيَتـي وهـوَ واحـدُ

فقد قالت في تخميسها:

دَعُوني فَريْداً في الغَرام أُكَابدُ وأَشْقى بما أَلْقى فدهْرِي مُعَانِدُ
فإنْ دَرَّ مُزْنُ الوصْلِ فالمزْنُ رَاكدٌ (خليلـيَ إنَّـي للثُّـريـا لحـاسـدُ
وإنّي على ريْبِ الزّمَان لَواجِدُ)
ولي في زَوَايا الصَّبْرِ مكْثٌ وعزْلةٌ دَهَتْني لهـا رغمـاً لَعمْـرِي بـدعـةٌ
وقَامَتْ بتصْدِيقي لدى القَول حجّةٌ (أَيجمـعُ فيهـا شَمْلُهـا وهـي سِتّـةٌ
ويأخذُ منّي مُنْيَتِي وهوَ واحدُ)

---

(١) أمينة بنت محمد نجيب القاهرية المولودة سنة (١٨٨٧ م)، والمتوفاة في ميعة الصِّبا سنة (١٩١٧ م) وعمرها (٣٠ سنة)، وهي شاعرةٌ مطبوعةٌ وأديبة مجيدة.

(٢) باحثةُ البادية اسمها مَلك حفني ناصف القاهرية المولودة سنة (١٨٨٦ م)، والمتوفاة أيضاً في ميعة الصبا سنة (١٩١٨ م)، وعمرها (٣٢ سنة)، وهي الأديبة الشاعرة الناثرة التي غلب عليها لقب «باحثة البادية».
ومن الجدير بالذكر أنّ هناك أديبة لقبها «باحثة الحاضرة» وهي مغربية اسمها: ملكية الفاسي وتهتم بالكتابة عن شؤون المرأة.

* وتظهر براعتُها في مضمار التغزّل[1]، واستخدام الألفاظ الأليفة اللطيفة، عندما عمدتْ إلى هذهِ الأبيات:

عُيـونٌ عَـنِ السِّحْـرِ المبيـن تَبيْـنُ ... يُسَـالمهَـا المُشْتَـاقُ وَهـيَ تَخُـونُ
مِرَاضٌ صِحَـاحٌ نـاعِسَـاتٌ يَـوَاقِـظٌ ... لهَا عندَ تَحْرِيْكِ الجُفُونِ سُكونُ
إِذا أَبْصرتْ قَلباً خَلِيّاً منَ الهوى ... وأَومَـتْ بلطـفٍ حَـلَّ فيـه فُتُـونُ
ومـا جـرَّدتْ مـنْ مُـرهفَـاتٍ وإنَّمـا ... تَقُـولُ لـه كُـنْ مُغْـرمـاً فَيكُـونُ

* فلقد تفاعلتْ عائشةُ مع هذه الأبيات، وأظهرت مقدرتها على الإتيان بالكلمات الوافيات، التي تنسجمُ مع قافية النّون ومع المعاني الغزليّة اللطيفة، لذا فقد جاء تخميسها يحملُ همسات أليفة خفيفة كما ستقرأ معي:

وعُذْري الهوىَ العُذْريّ وهو يميْنُ ... بـه مقسَـمُ التَّبـريـحِ ليـس يَمْيـنُ
لأَفْتَـكُ مـنْ ضَـرْبِ الصِّفَـاح تَبِيْـنُ ... (عُيـونٌ عـنِ السِّحـرِ المبيـنِ تبيـنُ
يُسالمها المشتاقُ وهي تخونُ)

عجبْتُ لها تَـنْسى وقَلبي حَافِظُ ... وإنْسانُها ينْسى النُّهى وهو واعِظُ
وأَعْجبُ منْ ذا الفَتْكِ وهي لَواحِظُ ... (مِراضٌ صِحَاحٌ نَاعِسَاتٌ يَواقِظُ
لها عند تحريكِ الجفونِ سكونُ)

فَأَهَالَها مَرضي على شِدَّةِ القُوى ... وهَاروتُ عنْ أجفانِها السِّحْرَ قَد رَوى
ولا ذَنْبَ للولْهانِ في لوعةِ الجوى ... (إذا أَبْصَرَتْ قلباً خَليّاً مِنَ الهوى
وأَوْمَتْ بلطْفٍ حلَّ فيهِ فُتُونُ)

---

(١) مما تجدرُ الإشارة إليه أنَّ عائشةَ، قد شَدَتْ بكثير من شعرها الغزلي، وقالت كثيراً في التغزل تقليداً ومحاكاةً لأكابر شعراء الأعصر الخاليات، ومجاراة لكبار العلماء والفقهاء الذين تركوا آثاراً لطيفة في هذا المجال الجميل؛ ومَنْ أراد التوسع في هذا المجال فليقرأ كتاب: «غَزَل الفقهاء».
وقد سلكت عائشةُ هذا المسلك ـ فيما أعتقد ـ لتثبت جدارتها وشاعريتها، وتدلي دلوها في فنون الشّعر، ولقد عبرت عائشة نفسها، واعترفت بذلك لما صدَّرتْ بعض مقطوعاتها ومنظوماتها الغزلية بهذه العبارة: «وقالت متغزلة في غيرِ إنسان، والقصد تمرين اللسان» (حلية الطراز ص٢٣٢).

يُقَادُ لهـا طَـوعـاً أَسيـراً وطـالمـا أضاعتْ بوادي التِّيهِ صَبّاً ومُغْرَما
وكم فَوَّقَتْ سَهْماً وكم سفكَتْ دَمَا (وما جرَّدَتْ منْ مرهفاتٍ وإنّما
تقولُ له كُنْ مغْرَماً فيكونُ)

* ونلحظُ من خلال هذا التّخميس بُعْدَ ثقافتها المتنوعة، وخصوصاً القُرآنية في ذكرها سِحْر هاروت، وكذلك نلمح شيئاً من ثقافتها الأدبيّة والشّعرية حينما تستعيرُ كلمات من صلب التّراث من مثل: الصّفاح، السّهام، وادي التّيه، وغير ذلك مما يجعلها أميرة شاعرات وقتها.

* وممّا يزيدُ الإعجاب بثقافةِ أميرة البيان السّيّدة عائشة التيمورية حُسْنَ استخدامها لأكثر من فنٍّ شعري وبديعي للبيت الواحد، فقد خمَّسَتْ وشطّرتْ، وبذلك برهنتْ على أنَّها قد سبرت أغوارَ اللغةِ العربية، فانقادت لها المعاني تجرُّ أذيالها، لتضَعها في المكان الذي يفي بالغرض، ويؤدّي كمالَ المعنى، وجمالَ المبنى، فلقد خمَّست، وشطّرتْ هذيْن البيتين:

وَلَيْلـى مَـا كَفَـاهَـا الهجْـرُ حتَّـى أَباحَتْ في الهَوى عِرضِي ودِيْني
فَقُلْـتُ لهَـا ارحَمِـي الأُمـيَّ قَـالـتْ وهلْ في الحُبِّ يا أمّي ارحمِيني

* وعلى الرغمِ من بساطةِ معاني ذَيْنَكِ البيتين، إلا أنَّ عائشة قد أبدعتْ، وداعبت الكلمات حتى نظمتها في عقْدِ التّخميس، والتَّشْطير، فجاء حلية ذات طرازٍ جميل، زاهر بفوحِ الآداب، فوّاح بآدابِ الأزاهير التي تملأُ النّفوس نغماً شادياً ساحراً، والقلب شعراً مطرباً معجباً آسراً، لأنّها تقولُ الشِّعر طيِّعاً سهلاً، نابعاً من صبيب عاطفتها، دالاً على كبير رسوخها وتطوافها بين أزاهرِ الكلام، وورْدِ الأكمام، ولا أدلَّ على ما نقول إلا سماعِ تخميسها:

إِلَيْـــكَ معَنِّفِـــي يكْفِيـــكَ إفْتَـــا جَهلْـتَ صَبَـابَتِـي أَمْ هَـلْ عَـرفْتَـا
فَـلا أقـوى عليـكَ وأَنْـتَ أَنْتَـا (ولَيلـى مَـا كَفَـاهَـا الهجْـرُ حتَّـى
أَباحَتْ في الهوى عِرضي وَدِيْني)
بـرَوْضِ جَمـالِهـا أَمْسَـتْ وقَـالـتْ وإنْ عَثَـر المتيَّـمُ مَـا أَقـالَـتْ

وكمْ صَدَّتْ وفي هَجْري أَطَالَتْ (فقُلْتُ لها ارحمي الأمّيَ قالتْ
وهَلْ فِي الحبِّ يا أُمّي ارحَميْني)[1]

* وذانك البيتان نفسهما تعمدُ عائشة إلى فنِّ التَّربيع ـ التَّشطير ـ بعد أنْ خمستهما، وتجدُ في تشطيرهما أيضاً، بساطة الكلمة، وسهولةَ معناها، وجمال مغناها، وليونة مبناها، ثم تجدُ شاعريتها التي تتراقصُ أمامك لتعبرَ إلى الوجدان، وتداعب أوتارَ القلوب، وهاك تشطيرها في البيتين السَّابقين ثلاث مرات، في كلّ مرّةٍ تعطيك سحراً يختلف عن سابقه:

(وَلَيْلى ما كَفَاهَا الهجْرُ حتّى) أَرَتْني جُرْحَ قَلبي بالعُيُونِ
وما قَنِعَتْ بِسَفْكِ دَمي ولكِنْ (أَباحَتْ في الهَوى عِرضِي ودِيْني)
(فَقُلْتُ لَها ارحَمِي الأُميَّ قَالَتْ) يا أُمّي قَدْ بُلِيْتُ فَمَنْ مُعِيْني
أَترحَمُ في الغَرامِ وأنتِ صَبُّ؟ (وهَلْ في الحبِّ يا أمّي ارحَمِيْني)

* وقالت في تشطيرهما أيضاً:

(وَلَيْلى مَا كَفَاها الهَجْرُ حتّى) أَذَاعَتْ بَعْدَ كتْمانٍ شُجُوني
وحينَ تبَيَّنَتْ آياتِ وجْدي (أباحَتْ في الهوى عِرضي ودِيني)
(فقُلْتُ لها ارحمِي الأُمّيَ قالتْ) جُنِنْتَ وفي الهوى بَعْضُ الجُنونِ
وهَبْني كُنْتُ أُمَّكَ كَيْفَ أَحْنُو (وهَلْ في الحبِّ يا أمّي ارحميْني)

* وفي مرة ثالثة تقول:

(وليْلى مَا كَفَاهَا الهَجْرُ حَتَّى) أَطَالَتْ في دُجَى لَيْلِي أَنِيْني
وَكُلُّ تَجَلُّدِي بالصَّبر لمَّا (أَباحَتْ في الهوى عِرضِي ودِيْني)
(فَقُلتُ لها ارحمي الأمّيَ قَالتْ) كذا خَطَّ اليَراعُ عَلى الجَبِيْنِ
فَدَعْ قَلَقَ الصِّغَار وكُنْ صَبُوراً (وهَلْ في الحُبِّ يا أمّي ارحَمِيْني)

* وأجدني ـ عزيزي القارىء ـ مرخياً لقلمي العنَان في هذه الوقفة، وذلك تعليقاً على التَّشطير الأخير حيث وَرَدَ قولُها: «كذا خطَّ اليراعُ على الجبين»، إذ يبدو هذا المعنى متكرراً في شِعْرِ عائشة، وفي التَّشطير في أبيات

---

(١) الدر المنثور (ص٣٦٣).

أُخر؛ ولعلَّ ذلك المعنى يرددُ فكرةً شائعةً في الشِّعر العربي القديم، بل وفي الأمثالِ القديمة، وعائشة ـ رحمها الله ـ تجيدُ صياغةَ هذه الفكرة في نظمٍ جميل، «والحبُّ خَطٌّ بالجباهِ قديم»، هكذا قالت عائشة مرّة أخرى، واستوحته من بنات أفكارِها، لترسمه كلمات، وأي كلمات:

لمّا نَأى عنّي وبَانَ صدُودُه والحبُّ خَطٌّ بِالجِبَاهِ قَديمُ
يَاليْلُ هَا أَنا فيْكَ سَاهٍ سَاهِرٌ إذْ لمْ يكُنْ لي منْ دُجَاك رحِيمُ
يَاليْلُ إِنَّكَ في الفِعَال مُنَافِقٌ ضَاعَفْتَ شَكْوَاهُ وأَنْتَ بَهِيْمُ

* وفي تشطيرِ هذه الأبيات تبدعُ وتؤكّدُ فكرةَ الرّسم على الجباهِ، رسم الكلمات . . .

لمّا نَأى عنّي وبَانَ صدُودُه والقَلْبُ أَصْبَح لا يفيقُ عَمِيْدهُ
مَلَكَ الهوى رِقّي وحقَّ وعيْدُه (والحبُّ خَطٌّ بِالجِبَاهِ قَديمُ)
(يا لَيلُ ها أَنَا فيْكَ سَاهٍ سَاهِرٌ) ولعزّةِ المحبُوبِ شَاكٍ شَاكِرُ
يا لَيلُ قَدْ أَيقنْتُ أنَّك كافِرٌ (إذا لم يكنْ لي مِنْ دُجَاكَ رحِيْمُ)
(يا ليلُ إنَّك في الفِعَال مُنَافِقُ) هذا تُسَهِّدُهُ وذَاكُ توافقُ
وإِذَا لِضَيْمٍ أَنَّ[1] فيكَ العَاشقُ (ضَاعَفْتَ شكْوَاهُ وأنتَ بهيمُ)

* وفي غَزَلِ عائشة ـ رحمها الله ـ نوعٌ من تقليدِ فحول الشّعراء في الأعصر الخالية، خصوصاً في وصفِ الجمال الذي يفعل الأفاعيل في العشّاق، ولكنْ ما رأي عائشة في ذلك؟!

إنْ كانَ مَوتُكَ مِنْ قِسِيٍّ حَوَاجِبٍ كالنُّونِ أَوْ مِنْ سِحْرِ جَفْنٍ ذَابِلِ
فهيَ التي فَعَلَتْ ولمْ أَشْعُرْ بِمَا فَعَلَتْ فكَيْفَ تَلُومُني يا سَائِلي
أَنا مَا قَتَلْتُ وإنَّما أنا آلةٌ في القَتْلِ فاطْلُبْ إِنْ تُرِدْ مِنْ قَاتِلِ
ومتَى أريدُ قصَاصَ سَيْفٍ أَوْقَناً هَلْ منْ سَمِيْعٍ مثْلِ ذَا أو قَائِلِ
واللهُ قَدْ خلَقَ الجَمِيْلَ ولَمْ يَقُلْ هِيْمُوا بلَيِّنِ قَدِّهِ المُتَمَايِلِ
مَا قَالَ ربُّكَ قَطُّ يَا عَبْدِي أَطِلْ نَظَرَ المِلاحِ وَيَا جَمِيْلَةُ وَاصِلي[2]

---

(١) «أنَّ»: من الأنين والتوجّع.
(٢) حلية الطراز (ص٢٣٨).

* إنَّ هذه المرأة الجميلة التي خصَّها اللهُ بالجمالِ الفائقِ، وسربلها بسحرِ العُيون الماثل، لا ذنبَ لها في ذلك، ولا لوم عليها مما يراه النّاس بسبب هذا الجمال الباهر الآسر القاتل القتّال، فمظاهر الجمال فيها هي التي فعلتْ ما فعلت، لكنَّ اللومَ والذنْبَ يقعَانِ على مَنْ يطيلُ النَّظر، وهنا تظهرُ روح التّربية الإسلاميّة الصّحيحة التي تلقَتْها عائشة في صغرها من حيثُ غضِّ البصر من قِبَلِ الرّجل، وحفظ المرأة عفّتها وطهارتها.

* إنَّ الذي يكررُ قراءةَ البيتين الأخيرين يظهرُ له مصداق ما قلناه، وما ذهبنا إليه من أثرِ التّربية القويمة في حياةِ عائشة التّيمورية، ومن ثمَّ راحت عائشةُ تجسِّدُ تربيتها في نظمها الخالد على مرِّ الأيّام والأعوام.

شَذَراتٌ وطرائفُ منْ أَخْبَارِها:

* إنَّ معرفةَ أخبار المرأة ـ كعائشة ـ قريبة العهد منّا، يزيدُ من رصيدها في ديوانِ المعرفة، وفي ديوانِ الأخلاق، ومما يزيد الإعجاب بأخبارِ هذه المرأة العفيفة، وقوفها بحزمٍ في وجْه تيّار الدَّعوةِ إلى حريةِ المرأة.

* فقد كانت الدَّعوةُ إلى السّفور ـ في عهدها ـ لا تزال في طورِها الجنيني، لم يجئْها المخاضُ، وبعضُها قد وُئِدَ في الأحشاءِ، وبعضها الآخر لم يكتبْ لها البقاء، وبعضُ تلكم الدَّعوات ظلت همسات حائرة تدورُ على الشّفاه، بينما تجاوزت دعوات أخريات هذا الحدّ، ووصلتْ إلى الأسماع.

* ومما لا ريب فيه أنَّ هذه الدّعوات كانت جديدة على المجتمع العربي المحافظ، فقُوبلت بادىء الأَمْر بالإنكار، ومن الجدير بالذكر أنَّ عائشة قد حرصت على إظهارِ جانب العفّة في شعرها، ودعتِ النّساء إلى الحجاب، واصطفاء عفاف النّفوس:

وَلكنّـــي اصطَفَيْـــتُ عَفَـــافَ نَفْـــسٍ
تَقَـــرُّ بِصَفْـــوِهِ عَيْـــنُ الأَرَيـــبِ

* وأكّدتْ مِراراً على الحجابِ معَ العفَاف:

بِيَـدِ العَفَـافِ أَصُـونُ عِـزَّ حِجَـابي　　　وبِعِصْمَتِـي أَسمُـو عَلـى أَتْـرابـي

ما عَاقَنِي حِجْلي عَنِ العَلْيَا وَلا   سَــدْلِ الخِمَــارِ بلمَّتِــي ونقَــابِــي

* إنَّ خيرَ سبيلٍ لحياةٍ صافية لكلّ امرأة، وكلّ إنسان، سلوك طريق العفّة، وولوج باب الأخلاق، إذ إنَّ الأخلاقَ بابُ النَّجاة، والنّجاحُ سلوك العفّةِ والاستقامة والصّلاح، وعندها يكون الإصلاح:

مَا الحَظُّ إلا امْتِلاكُ المَرْءِ عِفَّتَهُ   ومَــا السَّعَــادَةُ إلا حُسْــنِ أَخْــلاقِ

* وعلى الرّغمِ من وجودِ بعض الدّعوات إلى السّفور[1]، إلا أنَّ عائشةَ لم تتأثرْ بمثل تلك الدّعوات وأشباهها، ولم تبهرها تلك الكلمات التي تخالفُ نشأتها، بل كان رأيها يخالفُ ذلك تماماً، ولكي تؤكّد لبنات حوّاء قيمةَ الحجاب، وقيمة صيانة نفس المرأة بإسدال الخمار تقول عن نفسها:

وَمَا احْتِجَابي عَنْ عَيْبٍ أَتَيْتُ بهِ   وإنَّما الصَّونُ مِنْ شَأْني وغَايَاتِي

* ولعائشة ـ رحمها الله ـ طرائفُ وأخبارٌ جميلة مع أولادِها، وفي أشعارها ترسمُ أخبارها، وتحكي أحوالَها، بما أوحى فكرها لها؛ ففي خبرٍ لطيفٍ مع ابنتها توحيدة، نستشفُّ مدى محبّتها لها، كما نلمح سرعةً

---

(١) من الجدير بالذكر أنّه كانت هناك دعواتٌ وأصوات وأشعارٌ ومقالات تدعو إلى السّفور، ونزع الحجاب، وإلى حريةِ المرأة، وكان من أبرزِ الدّاعين إلى ذلك ممن عاصر عائشة: قاسم أمين، والشّاعر جميل صدقي الزّهاوي، ومعروف الرّصافي، وآخرون جاؤوا بعدها قليلاً.

وقد كان الزّهاوي يدعو بصراحة إلى نزع الحجاب ـ الوخيم ـ بزعمه ـ، ففي قصيدته: «أسفري» يخاطب المرأة العربية قائلاً:

أَسْفِــري فــالحِجَــابُ يــابْنَــةَ فِهْــر   هــو داءٌ فــي الاجتمــاعِ وخِيْــم
كُــلُّ شــيءٍ إلــى التَّجــدُّد مــاضٍ   فلمــاذا يُقَــرُّ هــذا القَــديــم؟!
أَسْفِــري فــالسُّفــور فيــهِ صَــلاحٌ   للفــريقيــن ثــمَّ نَفْــعٌ عَظيــم

ويخاطبُ الزّهاوي الذين يخافون على المرأة التّردي إنْ هي أسْفَرت، ويزعم بأنَّ الحجاب ليس هو الذي يقي عفّة الفتاة، ولكنَّ التعليمَ والثقافةَ من وسائل الوقاية، وفي هذا يقول:

زَعَمُــوا أنَّ فــي السّفــورِ انثــلامــاً   كــذبُــوا فــالسّفــور طُهــرٌ سَليــم
لا يقــي عفَّــةَ الفتــاةِ حجــابٌ   بــل يَقيْهــا تثقيفُهــا والعُلــوم

بديهتها، ولطف دفاعها عن ابنتها التي كان بلسانها لثغةٌ لطيفةٌ خفيفةٌ، وإليك ذاك الخبر الطَّريف ومفاده:

* جاءت يوماً بعض السَّيدات منزلَ عائشة التيمورية كي يَرَيْنَ توحيدة، ويخطبنها، فأسرعتْ توحيدةُ ترحبُ بهن، وأخذت تؤانسهنَّ ريثما تأتي والدتها، وراحت تلاطفُ أولئك النّسوة بالحديث الحلو، وكان مما قالت لهنّ بلثغةٍ خفيفةٍ لطيفة: «أوحستونا»، تقصد «أوحشتونا»؛ وفي هذه الأثناء دخلت أمّها عائشة، وسمعت لثغةَ ابنتها التي أبدلتِ الشِّيْنَ سِيْناً، فظهر ذلك في لفظها، ولكن عائشة بطابَع الأمومة، وعاطفة الحنان راحت تشرحُ للسّيدات ما جرى بسرعة بديهة، وانبرت تقول:

قَـالَ العَـواذِل مُـذْ قَـالَـتْ مُـؤَانِسـةً
«أَوْحَستَنَـا» أَنَّهَـا تَجْفُـو وَذَاكَ غَلَـطْ

لَـمْ يُبْـدِلِ الشِّيْـنَ سِيْنـاً لَفْظُهَـا غَلَطـاً
بَـلْ لَـمْ يَسَـعْ ثَغْـرُهَـا الـزَّاهـي ثَـلاثَ نُقَـطْ

* وهكذا حُسُنُ التّخلُّصِ وسرعةُ البديهةِ، فثَغْرُ توحيدة الصَّغير الجميل اللطيف لا يتّسع أنْ يلفظ كلمة فيها ثلاث نقط! وهذا غايةٌ في حُسْن التّصرف، وتطويع الموقف لصالحِ ابنتها وصرف الحاضرات عن لثغتها[1].

* ومن لطيفِ أخبارها وظريفِ أشعارها أنَّه وُلِدَ في سنة (١٢٨٨ هـ) شقيقها أحمد، وكان اسمُه مركباً: أحمد توفيق، ففرحت بمولده، ورحَّبتْ بهذا القادم الذي أشرقتِ البيوتُ به:

---

(١) ورد أنَّ أبا نُواس الشَّاعر العباسي المشهور كان ألثغ بالراء، وأنَّ أبا تمام الشَّاعر العباسي المشهور كان ألثغ أيضاً، قال ابن خلكان: كان أبو تمام فصيحاً حلو الكلام فيه تمتمة يسيرة. وقال أيضاً: وكان لأبي تمام حَبْسة إذا تكلّم، وقال فيه أحدهم:

يـا نبـيَّ اللهِ فـي الشّعـ ـر ويـا عيسـى ابـن مـريـمْ
أنـتَ مِـنْ أشْعَـرِ خلْـق اللـ ـه مـا لَـمْ تتكلـمْ

(وفيات الأعيان ٢/ ٢٥) باختصار وتصرف.

غنّى فؤادُ الأمِّ أهلاً بالذي
مُذْ جاءَ أشرقتِ المنازلُ بالهنا

* ولما أخذَ أخوها أحمد توفيق ـ هذا ـ يجيدُ القراءة منْ على لوح التّعليم، رأت مخايلَ الذّكاء، وملامحَ العلمِ بادية على محياه، وهو يتجاوب مع فقيه البيت ومقرئه، فأنشأت تقول:

لاحَ السُّعُودُ وأَسْفَرَ التَّوفيْقُ ... وتَلا لنَا سُورَ العُلاَ تَوْفيْقُ
رقَمَ الفَقيْهُ لَهُ عَلى لَوْحِ الهُدى ... أَقْبِلْ فَإِنَّكَ للنَّجاحِ رَفيْقُ

* ولعائشة أخبارٌ رائعة مع ابنها الذي غذّتْهُ بلباب الآداب منذ أنْ فتحَ عينيه على دُنيا الأدب والعِلْم، حيث كانت تعمل وتحرص على تعليمه بطريقة تشهد بعلو مقدارها في المعرفة، فإذا ما أرادت مَصْدراً من المصادرِ القيّمة كتبتْ له شعراً ليحضر الكتاب المطلوب، فتكون بذلك قد أطلعته على الكتابِ وعلى نظمها؛ ففي إحدى نفحاتِها العلمية والتّعليمية، تكتبُ إليه وتطلب منه أنْ يحضرَ لها كتاب: «درّة المختار»[1]:

طُروسُ حُرِّرَتْ فَوراً ... فَحَاكَتْ نَسْمَةَ الأَسْحَارْ
سَأُودِعُهَا تَحِيَّاتٍ ... بِهَا عُرْفُ الصَّبَا قَدْ سَارْ
إلى عَالي المكَانَةِ مَنْ ... سَمَا في المَجْدِ وَالمِقْدَارْ
لَه هِمَمٌ إذَا ظَهَرتْ ... تَوارَتْ دونَها الأَقْمَارْ
وأَرجُو مِنْ مَعَاليْكُمْ ... سَريْعَاً «دُرَّةَ المُخْتَارْ»

* وقَصَصُ وأخبارُ عائشة مع ابنها شائقةٌ جميلة، تمثّلُ عاطفةَ الأمّ الرّؤوم، فإذا ابتعدَ عنها ابنها، هتفَ قلبها: أين الحبيبُ الذي تربّى في جواري، بل تبقى في بعده عنها دونَ قلب؛ نعم تبقى عائشة دون قَلْب، ويصبَح فؤادها فارغاً:

قَلْبي لِبُعْدِكَ لَم يَحمدْ مُجَاوَرَتي ... وفَرَّ نَحْوَ حَبِيْبٍ في حشَاهُ رُبِي
فَقُلْ بَطَلْعَتِك الغَرَّا وعِزَّتِها ... واحْكُمْ بِمَا تَرتَضِي مُتِّعْتَ بالأَدبِ

---

(١) من كتب الفقه الحنفي المعروفة المشهورة.

مِنْ غيرِ قَلْبٍ أَتبقى رُوْحُ عائِشَة   لا والذي زَانَ هذا المَجْدَ بالأَدَبِ

* ولعائشة وقفاتٌ جميلة مع نفسها، وتحدثنا عن واحدة من تلك الوقْفات بطريقةٍ ساحرةٍ ساخرة، وذلك لما أَنْ غزا الشَّيب مفرقها، ولاحَ مشتعلاً في رأسِها، عندها تصابُ بالهلع، وتعدُّ ذلك مقدمةً ونذيراً للرَّحيل إلى الدَّارِ الآخرة، وطبيعة المرأة تكره الشَّيب أكثر من كُرْهِ الرّجل له[1]، وتنفر النّساء في الغَالب منَ الرّجل إذا ابيضَّ شعره، أو لاح الشّيبُ في عارضيه[2]؛أمّا عائشة فقد علا الشّيب مفرقها على حين غفلة منها، هكذا زعَمَتْ:

لا تُنكـــرُوا شَيْئــاً أَلَــمَّ بِلمَّتِـــي   فَهُـو النَّـذِيْرُ لِحَـزْمِ رَاحِلَـةِ السَّفَـرْ
مُسْتَيقظَـاً فَعَـلا بِفَـرْقـي واسْتَقَـرْ   فِرَاقُ فَانِي العَيْشِ حَانَ وَلَمْ أَكُنْ[3]

* حقّاً إنّ عائشةَ لتُحَلّي نظمها منْ جواهرِ اللفظ، وبديع المعاني ما يزيد حسناً على بهيّ الجواهر في أجيادِ الكواعب الأتراب الحسان، خصوصاً حينما ترسُم صورةً رائعةً لما بعد الشَّيب، فالمرءُ مقبورٌ لا محالة، ومفقودٌ لا شكَّ، وسيُهِيْلُ عليه التّرابَ الأخُ والقريبُ والخليلُ والصَّديقُ، ويرجعُ جميعهم كأنّهم ما عرفوا الميّتَ ولا دفنوه، ولكنّهم عرفُوا مالَه فاقتسموه بعد

---

(١) وفي ذلك أذكرُ قولَ بعضهم يمتدح خصلة من الشّيب ظهرت برأسه فأنشد:
قــد يشيــبُ الفتــى وليــس عجيبــاً   أنْ يُرى النَّوْرُ من الغصنِ الرطيب

(٢) وهذا ما أكّده منذ مئات السّنين الشّاعر الجاهلي علقمة بن عبدة وكان من أعلمِ النَّاس بالنّساء، ثم أكد ذلك كثير من شعراء وأدباء العصور الخالية والحاضرة، ولكن علقمة قال:
فـإنْ تسـألـونـي عـنِ النّسـاء فـإنّنـي   خبيــرٌ بـــأدْوَاءِ النِّســـاء طبيـــبُ
إذا شَـابَ رأسُ المـرءِ أو قـلَّ مـالُـه   فليــسَ لــه فــي ودّهــنَّ نصيــبُ
يُــرِدْنَ ثــراءَ المــالِ حيــثُ علمْنَــه   وشــرخُ الشَّبــاب عنــدهــن عجيــبُ
وهذه الأبيات من قصيدة مشهورة مطلعها:
طَحا بكَ قلبٌ في الحسان طروب   بُعيـد الشبـاب عصـر حـان مشيـب
(ديوان علقمة ص١١).

(٣) حلية الطراز (ص٢٤).

أنْ لقيَ العنتَ والعناءَ والشَّقاء في جَمْعِهِ:

أَرَاكَ بِلمَّتِي يا شَيْبُ عِظْنِي ... وقد حَانَ الرَّحيْلُ غَداً لَعَلِّي
فأَوَّلُ مَا نَرى حَدَثاً مَهُولاً ... تُهيْلُ ثَراهُ كَفَّ أَخٍ وخِلِّ
وَقَدْ رجَعُوا كأَنْ لَمْ يعرفُوني ... وهُمْ نَسَبِي وأَبْنَائي وأَهْلِي
وتَشْتَغِلُ البَنُونَ بقَسْمِ مَالٍ ... أَنا مِنْ حَشْدِهِ في عظْمِ شُغْلِ

* ولمرضِ العيون الذي أصابَ عائشة نصيبٌ كبيرٌ في شِعْرها وأخبارها، فعندما كانت مصابةً برمدِ عينيها قالت:

فَواْ أَسَفِي عَلى إنْسَانِ عَيْني ... غَدَا في سجْنِ سُقْمٍ واعْتِقَالِ
حُجِبْتُ بسجْنِهِ عنْ كلِّ خِلٍّ ... وصِرْتُ مُخَاطِباً صُوَرَ الخَيَالِ

* ولك ـ عزيزي القارىء ـ أنْ تعيدَ وتكرر قراءة الشّطر الأخير، وفيه تظهر تشكو الألمَ والحرمان في مخاطبتها الخيال!.

* وتتحدَّثُ عائشة عمّا تقاسي منْ ألوانِ العذاب في الظّلام، وما تلاقيه من الأرقِ الذي سبَّبه لها المرض الذي سبب لها تشويشَ الصُّور، حتى في شِعْرِها، إذ جعلت الخفّاش ينعم بنور عينيه!! ـ والخفاش كما نعلم لا يبصر ـ:

فَكَمْ أُمْسِي بِمَا أَلْقَى حَزِيناً ... وبيْنَ النَّوم مُعْتَرَكٌ وبَيْنِي
أَبيْتُ ومُؤْنِسِي الخفَّاشُ ليْلاً ... وحَالِي مَعْهُ شَرُّ الحالتَيْنِ
فَذَاكَ بِنُورِ عيْنَيْهِ مُهَنَّى ... ولِي أسَفٌ بِحَجْبِ المُقْلَتَيْنِ
وأَبْسُطُ للظَّلام أكفَّ بَثِّي ... وأشْقَى لوعَةً بالظُّلْمَتَيْنِ
تَراني مُعْرِضاً عَنْ كلِّ ضَوْءٍ ... فَهَلْ خاصَمْتُ نُورَ النَّيِّريْنِ
يُنَافِرُني السَّنَا فأَفرَّ مِنْه ... كأَنَّ الضَّوءَ يطلُبُنِي بدَيْنِ
وأجنَحُ للظَّلامِ جنوحَ صَبٍّ ... دنَا لحبيبِهِ بالرَّقْمَتَيْنِ

* وفي مرضها المضني، كانت تودُّ لو تشفى كي تنظم دُرَراً من أشعارها تتحلّى به صدورُ الصَّفحات، وجِيْدَ الأوراق:

فَيَا إِنْسَانَ عَيْني غَابَ عَنْها ... وبدَّلَني بِهِ طُولُ المَلاَلِ
عسَى أَلْقَاكَ مُبْتَهِجاً مُعَافى ... وأُصْبِحُ مُنْشِداً أَمَلِي صَفَا لِيْ

لِتَهْنَأَ مُقْلَتِي بسَنَا حَبيْبٍ بديْعِ الحُسْنِ مَحْمُودَ الخِصَالِ
وأنْظمُ أَحْرُفِي كالدُّرِ عِقْداً به جِيْدُ الصَّحائف كانَ حَالِي

* ويطول رمدُ عائشة، فيطول شوقها للكتابة والقراءة، ولكنْ ما الحيلةُ في ذلك وقد حرمت السِّحر الحلال من بطون الكتب وأثداءِ المصادر؟! إذاً لعلَّ لمسَ الكتُب، ومسَّ المخطوطات، ومداعبة بدائعِ المصادر وروائعها يخفّفُ لوعتها:

أَمسُّ الكُتْبَ منْ شَغَفِي عَلَيْها وأَبْلى حَسْرةً منْ سُوءِ حَالي
وأَنْدُبُ مهْجَتِي حُبّاً لأنّي حُرِمْتُ بَدَائِعَ السِّحْرِ الحَلالِ

* وتشرك عائشة أدوات الكتابة في علّتها التي أصابتها، وتضفي عليها روحَ الإحساس، فالدّواة ـ المحبرة ـ تبكي، والأقلام قد انشقت لأنّها لم تلامسْ أصابعها منذ حين؛ و. . .

نَعَانِي أَبْيَضُ القِرطَاسِ لمّا جَفَانِي اليومَ نُورُ الأَسْوَدَيْنِ
وقَدْ جَفَّتْ دَواتي وهي تَبْكي لِمَا قَدْ راعَها مِنْ طولِ أَيْنِي
وأَقْلامي قَد انشَقَّتْ لأنّي حُرِمْتُ مَسَاسَها بالإصبعَيْنِ

مَوْقِفُهَا وسُخْرِيَتُهَا مِنَ الأَطِبَّاءِ:

* للأطباءِ وأهلِ هذه الصَّنعة مساحةٌ واسعةٌ في شِعْر عائشة، لا في نفسها، ولعلَّه من أطرفِ ما نستشفّه من أخبارِها المِغْنَاج، تلكم الآراء ذات الظِّلِّ الخفيف في الطِّبِّ والأطبّاء، فقد عاشت تجربةً مريرةً أليمةً في رمَدِ عينيها، ومن قبلُ رأتْ ما حلَّ بابنتها توحيدة، وكم من طبيبٍ دخَلَ ووصفَ العلاجَ، ولكنْ ما حيلةُ الطَّبيب؟! فربّما خانَتْه العقاقير، إلا أنَّ عائشةَ ـ رحمها الله ـ قد أخذَ على خاطرها من عصْبةِ الأطبّاء من خُلَفاء جالينوس وأبقراط، ولكنْ ما ذَنْبُ الطَّبيب إذا كانت المقاديرُ قد جَرَتْ على ما قدَّرَ الله لها؟! ومع كلِّ هذا، فعائشة تهزأُ وتسخر من طبيبٍ قَادَهُ حَظُّهُ العاثر إلى بيتها:

يَا مَنْ أَتى للجسْمِ يبْرِىءُ سُقْمَه ويَظُنُّ جَالِيْنُوسَ بَعْضَ عَبِيْدِهِ
أَفْنَيْتَ بالطِّبِّ الذي تَهْدي بهِ أُمَماً وقرَّبْتَ النَّدى بِبَعِيْدِهِ

وَزَعَمْتَ أَنَّكَ أنْتَ قَدْ جَدَّدتهُ ... ولَقَدْ أَضَعْتَ قَديمَه بجَديْدِهِ

* وفي أسلوبها السَّاحر السَّاخر تصوِّر هذا المشهد اللطيف الذي جعلَها تكرهُ الأطبّاء، وتلجأُ إلى ربِّ السَّماء، فهو المرجّى والمرتجى لكلِّ نائبة؛ أمّا الأطبّاء فلا يملكون إلاّ الوعودَ النَّاحلةَ الهزيلةَ الطّويلةَ، والتَّعلُّلِ بالآمالِ و...

تَخَالَفَتِ الأُسَاةُ[1] بطولِ وَعْدٍ ... يُعَلِّلُني ويَأْسٍ فيْهِ حِيْني
ومنْ فَظٍّ يُهَدِّدُني جهَاراً ... بِمِبْضَعهِ المُصَوَّبِ في اليَدَيْنِ
وقَدْ عفْتُ الأُسَاةَ وعُدْتُ أرجو ... طَبِيْبَ الكونِ ربَّ المشرقَيْنِ

* وتنعى عائشةُ على الأطباء طريقتَهم، فهم لا يستطيعون دفْعَ الرَّدى عن أحدٍ، حتى عنِ الملوك، وأقوى الأقوياء؛ مرة أخرى نقول: ما ذنبُ الطَّبيب لدى فَتْك المنيّات؟! ولكنّه رأي عائشة التي آلمها المرضُ والرَّمدُ، وفتك الرّدى بابنتها:

أَينَ المُلُوكُ الأُلى كانَتْ أوامرُهُم ... مَحْدُودةً كسُيُوفٍ مشْرفيّاتِ
قَدْ أحْكَمَ الدَّهْرُ مَرْمَاهُم فما لَبِثُوا ... حتّى انطوَوا في الثَّرى طَيَّ السّجلاّتِ
فكمْ مضى عزْمُهم في عزِّ سَطْوتِهم ... قولاً وفعْلاً بتسديدِ الرِّياسَاتِ
يؤوبُ بالعَجْزِ أقْواهُم إذا أَلَمٌ ... بهِ أَلَمَّ ويبدي شَرَّ حَسْرَاتِ
يلوذُ ضَعْفاً بأذيالِ الطَّبيبِ وَمَا ... يغْنِي الطَّبيبُ لدى فَتْكِ المنيّاتِ[2]

---

(١) «الأساةُ»: الأطبّاء.

(٢) انظر: الدر المنثور (ص٣١٨)، وقال الرّبيع بنُ خُثيم ـ رحمه الله ـ: ذكرتُ عاداً وثمود وأصحاب الرّس وقروناً بين ذلك كثيراً، كانت فيهم الأدواء، وكانت فيهم الأطبّاء، فلا الطّبيبُ بقيَ ولا المداوى! وقيل للربيع في علّته: ألا ندعو لك طبيباً؟ فقال: الطبيبُ أمرضني.
وما أجمل قول أبي العتاهية في هذا المجال:
إنَّ الطَّبيبَ بطبِّهِ ودوائِهِ ... لا يستطيعُ دفاعَ مكروهٍ أتى
ما للطبيبِ يموتُ بالدَّاءِ الذي ... قد كانَ يبرِئُ مثلَه فيما مضى
وقال آخر:
كم مِنْ عليلٍ قد تخطّاهُ الرَّدى ... فَنَجا وماتَ طبيبُه والعُوَّدُ=

ولما رثتْ عائشةُ والدها إسماعيل باشا بهمزيتها الرّائعة، أبانت أيضاً عَجْزَ الطِّبِّ والأطبّاء، فقد أظهرتْ فَشَلَ وخيبةَ الطَّبيب الذي خرجَ يجرِّرُ أذيالَ اليأْسِ، وكان الدواءُ الذي أحضره من نصيب التّراب:

رَجَعَ الطَّبِيْبُ بِيأْسِهِ مُتَسربلاً ... وأَراقَ جُرعَتَه على الحَصْبَاءِ

نَادَاهُ لا تَيْأَسْ وعَالِجْ عِلَّتِي ... فَعَسى يكونُ على يديكَ شِفَائي

واكشِفْ على قَلْبِي فإنْ بشرَّتَني ... بالبُرءِ خُذْ مُلْكِي وذَاكَ فِدَائي[1]

* وتبلغُ عائشةُ ذِروة سخطها[2] على أهل الطِّبِّ وهاتيك الصّناعة في مرثاةِ توحيدة، وخصوصاً عندما أدركت ابنتُها يأسَ الطَّبيبِ وعجزه، هنالك انفجرتْ عائشة بهذه المقطوعة التي تُعدُّ قطعةً من فلذاتِ أكباد أشعارِها، على فلذةِ كبدِها؛ ابنتها توحيدة:

جَاءَ الطَّبيبُ ضُحىً وبشَّر بالشِّفَا ... إنَّ الطَّبيبَ بطِبِّهِ مَغْرورُ

وصَفَ التَّجرُّعَ وهو يزعُم أنَّه ... بالبُرْءِ منْ كُلِّ السّقام يشيرُ

فَتَنَفَّسَتْ للحزنِ قائلةً له ... عَجِلْ بِبُرْئي حيثُ أنتَ خبيرُ

وارحمْ شَبابي إنَّ والدتي غَدَتْ ... ثكْلى يشيرُ لها الجوى وتشيرُ

لما رأتْ يأْسَ الطَّبيبِ وعَجْزِهِ ... قالتْ ودمْعُ المُقْلَتينِ غزيرُ

أمّاه قَدْ كَلَّ الطَّبيبُ وفاتَني ... ممّا أؤمِّلُ في الحياةِ نصيرُ

* ولم تكتفِ عائشة بهذا النَّعي على الطَّبيبِ الذي عالجَ ابنتها، وإنَّما شمل نعيها واتّصلت سخريتها بعرَّافِ اليمامة:

لَوْ جَاء عَرَّافُ اليَمامةِ يبْتَغِي ... بُرْئي لردَّ الطَّرْفَ وهو حَسيرُ

* وتَلِجُ عائشةُ بابَ تاريخ الأطبّاء، وتعودُ إلى ذكر عمالقة الطِّب في سالفِ العَصر والأوان، ولكنْ هذه المرّة بأسلوبٍ أَلْيَن من قبل، ففي هذه المرّة غاب

= هذا؛ ومثل هذه الأقوال والحكم منثورةٌ في أدبنا، وقد أوردنا منها ما رأيناه مناسباً.

(١) شاعرات العرب (ص٢٢٥).

(٢) ويحضرني هنا قول المتنبي عن حبٍّ وكراهية المرأة:

وإنْ حَقَدتْ لم يَبْقَ في قلبِها رضاً ... وإنْ رضيَتْ لم يبقَ في قلبِها حِقْدُ

عنها أحدُ أحبابها، فإذا أحشاؤها في تحرُّقٍ إلى لقائه، وأجفانُها تمطرُ بالدَّمع، وها هنا لا ينفعُ الطِّب ولا مداواةُ الطَّبيب:

لَو شَخَّصَ الدَّاءَ جَالِيْنوسُ أَعْجزَهُ وقَالَ لقمانُ تكْلِيْفِي بهِ بَاطِل
كَيفَ الشِّفَاءُ ومَنْ أهْوَاهُ فَارقَني هيهاتَ إنَّ الهوى بَحْرٌ بلا سَاحِل
جاءَ الطَّبيْبُ يُداويْني فقلْتُ له دَع عَنْك طِبِّي ولا تَتْعَبْ بلا طَائِل
تَعذَّر الطِّبُّ والبُرْءُ انْزَوى ونَأَى عنّي وَلَوْني منْ فِعْلِ الهوى حَائِل
ما يَنْفَعُ الطِّبُّ والأَحْشَاءُ في حَرَقٍ والجَفْنُ منْ فَرْطِ وجْدي دمْعُه هَاطِل[1]

* وفي نهايةِ الشَّوط معَ الأطباء، الذين شعروا بالإعياءِ، والحصر والعيّ مع عائشةَ، تلجأُ إلى العليمِ الخبيرِ البصيرِ بحالها:

أَنْتَ الخبيُر بحَالي والبَصيرُ بهِ فافْتَحْ لهذَا الدُّعَا بابَ الإِجَاباتِ
فكيفَ أشكُو لمخلوقٍ وقَدْ لجأَتْ لكَ الخلائقُ في يُسْرٍ وشدّاتِ
فَيالَها منْ جرَاحٍ كُلَّما اتَّسَعَتْ أَعْيَتْ طَبِيْبِي رغْماً مِنْ مُدَاوَاتي
أَنْتَ الشَّهيدُ على ما أَفُوهُ بِهِ ما دمتُ عائشة فالحمدُ غَايَاتي

عَائِشَةُ وجَميْلُ الصَّبر:

* كان لعائشة ـ رحمها الله ـ رواياتٌ وأحداثٌ معَ الصَّبر، ومع الصِّعاب، فقد وقفت وقفةَ الصَّابرات ذواتِ العزمِ والثَّبات، واتَّخذتِ الصَّبر دليلاً لها في حياتها:

مَرارَةُ الصَّبرِ خُصَّتْ بِالحلاوَاتِ وَجَدْتُ في مُرِّهَا حَلوى السَّلاماتِ
صِيَانَتِي في كُهوفِ الصَّبر أَنْفَعُ لي منْ حصْنِ كِسْرى ومنْ أعْماقِ أَغْماتِ[2]

* ولم تتوقفْ عائشة عند هذا فحسب، وإنّما اتَّخذت جميلَ الصَّبرِ للتغلّب

---

(١) وقريب من هذا قولها:

أَرِنَا زَمَانَ الأنْسِ يا وجْهَ الحبيبْ واحذرْ حَماكَ اللهُ أنْ يَدْري الرقيبْ
دَعْني لأنّي باللقا قلبي يَطِيبْ ودَعِ العِلاجَ ومَا يقولُ بِهِ الطبيبْ

(٢) «أغمات»: ناحية من بلاد البربرِ من أرضِ المغرب قرب مراكش وبينهما ثلاثة فراسخ (معجم البلدان).

على ما يؤلِمُهَا وما يعترضُها من شدائدَ:

كَمْ قَابَلَتْنِي لَيَالٍ رِيْحُها سُعُرٌ بطيْئَةُ السّيرِ تَرمي بالشَّراراتِ
لاقَيْتُها بجَمِيْلِ الصَّبرِ منْ جَلَدي وبتُّ أَسْقِي الثَّرى مِنْ غَيْثِ عَبراتي
كَمْ أَقْعَدتْنِي أَيَّامٌ بِصَدْمَتِها وقمتُ بالعزمِ مَشْهورَ العِنَاياتِ[1]

* ولعلَّ للصَّبرِ حكاياتٌ وقَصَصٌ جميلة مع عائشةَ، فها هي تتخذُ منه خليلاً يسامِرُها وتَسامِرُه، فهي تخبره بعدم عتْبِها على الزَّمن، بينما يحدِّثُها الصّبرُ عن تقلُّباتِ الأيَّام، وينبِّهُها إلى أشياءَ كثيرةٍ حتى لا تركنَ إليها، وينفحها معاني السَّعادة، ثمَّ بعدم الاغترارِ بالدَّهْر، فالدَّهْرُ ذو غير، ولا يبقى على حاله:

أقولُ للصَّبرِ لا عَتْبٌ على زَمَنٍ أعْطَى لأَبْنَائِهِ أَسْمَى العَطِيَّاتِ
فَقالَ مَهْلاً لا تَغْررْكَ شوكتُهم فالصَّحو يعْقُبُه سودُ الغَمامَاتِ
فليسَ كُلُّ ملوم دامَ مكْتَئِباً وما السَّعيدُ سعيدٌ للمُلاقَاة
فدهْرُهم غَرَّهم جَهْلاً وما عَلِموا أنَّ الزَّمانَ قريبُ الالتِفَاتَاتِ

* إنَّ أخبارَ عائشة وطرائفَها كثيرةٌ تملأُ الأسماع، ولعلّي قد أفضتُ الحديثَ عن ذلك، ويعودُ السَّبب في ذلك إلى أنّني - في حدودِ اطلاعي - لم أجدْ مَنْ توسَّع في الكتابة عن حياتها بشيءٍ من التَّفْصيل، وتبيان مقدرتها الشّعرية، واتجاهاتها الأدبيّة؛ وثمة سببٌ آخرَ دعاني لذلك هو أنَّ الذين كتبوا عنها لم يعطوها حقَّها، وحكمَ بعضُهم وبعضهنَّ عليها بأحكام فيها بعضَ الجورِ والإجحاف.

نَثْرُهَا وَمَكَانَتُه في عالَم البَدَائِعِ:

في الصَّفحات السَّابقات رُحْنا نمخرُ عبابَ أشْعارِ عائشةَ التَّيمورية، ومن ثمَّ حلقنا في أجواء فنونها الشّعرية في مجالاتٍ شتّى، ولئن حلَّقَتْ هذه السَّيّدةُ الكريمةُ في أرجاءِ الشّعر، لقد أبدعتْ في أنحاءِ النّثر وميادين القول، فكان لها قصبُ السَّبْق بين شواعر عَصْرِها، وناثراتِ دهرها، ولا نبالغُ لو قلنا: إنّها

---

(١) الدر المنثور (ص٣١٧).

كانت أميرة شاعرات العصر، إذ سَحَرتِ الأدباء ببيانها الرّائع، وأسلوبها المستقى من روائعِ البدائع، ومن صبيبِ بدائع البدائِهِ.

* لقد خرجَ ديوانُ عائشة إلى الوجود باسم «حلية الطِّراز»[١]، فكان له وقْعٌ عظيم في النُّفوس، وقبولٌ زائدٌ عندَ أهْلِ الأدَبِ، وبعد ذلك رأت نفسها أنّها قادرة على التّأليف، فصنَّفَتْ كتاباً أسمته «نتائج الأحوال»، فَطُبِعَ ونُشِرَ أيضاً، ولها ديوانٌ باللغة التّركية اسمه «شكوفة».

* ولما انتشرتْ مؤلَّفاتُها المذكورة، سارتْ في حديثها الركبان، وطار صيتُها في الآفاقِ، ووردتِ التَّقاريظُ من كلّ جِهْبذٍ أديب، ولوذعي أريب[٢].

* ومن بدائع التَّقاريظ ما جاءها من إحدى أديباتِ لبنان تقريظاً على ديوانها «حلية الطّراز»، حيث وشَّتْه بالنَّثْرِ، وحلَّتْه بالشِّعر، وبالغَتْ في تقريظها لعائشة فقالت: تشرفْتُ باطلاعي على حليةِ طرازكم، التي تحلّى بها جيْدُ العَصر، وأخجلتْ بِسَبْكِ معانيها خَنْسَاء صخر[٣]، ألا وهي الدّرة اليتيمة التي لم تأتِ فحولُ الشّعراء بأحسنَ منها، وقصر نظْم الدّرِ عنها، وشنّفت بحسنِ ألفاظِها مسامعَنا، حتى غدا يحسدُها السَّمْع والبصر، وسارتْ في آفاقنا مسيرَ الشّمس والقمر.

وقد تطفَّلْتُ مع اعترافي بالعجزِ والتَّقصير، بتقريظٍ لها وجيزٍ حقير، فكنتُ كمن يشهدُ للشّمس بالضّياء، أو بالسّمو للقبَّةِ الزّرقاء، راجية من لدنكم قَبُولَه بالإغضاء:

حَبَّــذَا حليــةُ الطِّــرازِ أَتَــتْ مِــنْ مِصْــرَ تَــزْهُــو بــاللــؤلــؤِ المَنْظُــومِ

---

(١) على الرغمِ من أنَّ عائشة التيمورية قد فرّتْ من تعليم التّطريز وهي صغيرةٌ، وفرَّتْ من الإبرة، فرارها من القَسْورة، لكنّها وقعتْ في شَرَك التّطريز الفني وهي كبيرة، إذ دعَتْ ديوانها باسم «حلية الطّراز» حيث نَظَمَتْ شعرها الذي يبدو منضداً جميلاً متقناً كالتطريز.

(٢) انظر: الدر المنثور (ص٣٠٤).

(٣) وهذا من المبالغات التي شبت عن طوق الحقيقة، فالخنساء صحابية وشاعرة وذروة في الأدب والشعر.

حِلْيَـةٌ للعقـولِ لا حِلْيـة الـوشـ ـــي وكَنْـز المَنْطُـوقِ والمفْهُـومِ
قـد أعـاد الـزَّمـانُ عـائشـةً فيهـا فعـاشَـتْ آثـارَ علْـمٍ قـديـمِ
هـي فَخْـرُ النِّسـاءِ بـل وردةٌ فـي جِيْدِ ذا العَصْر زُيِّنَتْ بالعُلومِ[1]

* وكانتْ عائشةُ قد نفحتْ هذه الأديبة المعجبة[2] بها رسالةً تشكرها على تقريظها[3] ، فردَّتْ عليها الأديبةُ اللبنانية ببضعة أبيات منها:

يـا نَسْمـةً مـنْ أرضٍ وَادي النِّيـلِ وَرَدَتْ فـأَطْغَـتْ بـالسَّـلام غَليْلي
نَفَحـتْ بلُبنـانَ فَفَـاحَ أريجُهـا سِحْـراً بـأشهـى مـن نَسيـمِ أصيـلِ
أنتِ الفَريدةُ في النِّساءِ فكيف لا أَهْـوى حبيبـاً بـاتَ دونَ مَثيـلِ

* ولا تنسى هذه الأديبة أنْ تشكرَ عائشة على ما جاءَ في رسالتها منْ إطراءٍ منظوم، وشعرٍ مرقوم فقالت:

ولَقَـدْ أَفَضْـتِ علـيَّ منْـهُ لآلئـاً حَسَـدَتْ بهـا جِيْـدي كـرائـمُ جِيْلي
مـن كـلِّ قـافيـةٍ كـأَبْكَـارِ الـدُّمـى تـرنُـو إلـيَّ بنَـاظِـرٍ مَكْحُـولِ

* ولم يتوقفْ إطراءُ الأديبةِ اللبنانيةِ لعائشة التّيمورية على ديوان «حلية الطّراز»، وإنّما شملَ التّقريظ أيضاً كتاب «نتائج الأحوال» شِعْراً ونَثْراً، وها نحنُ أولاءِ نقتطفُ بعضَ الفقرات منه حيث قالت:

هذَا الكِتَابُ الذي هَامَ الفُؤادُ بهِ يـالَيْتَنِـي قَلَـمٌ في كَـفِّ كَـاتِبِـهِ

لعمري، إنّه كتابٌ حوى بدائعَ المنثورِ والمنظوم، وتحلّى من در الفصاحة فأخجلت لديه دراري النجوم:

أَتَتْ فَشفَتْ بطيْبِ الوصلِ قَلْبي فتَـاةٌ تَيَّمَـتْ قَلَـبَ المُحـبِّ
فَصيْحـةُ مَنْطـقٍ نَـاغَـتْ بلفـظٍ كَسِلْسَـال مـن الصَّهبـاءِ عـذْبِ
أهيـمُ بهـا علـى بُعْـدٍ ومَـاذا على الأقْـدار إنْ سَمَحـتْ بقُـربِ

---

(١) انظر: الدر المنثور (ص٣٠٤) باختصار يسير.
(٢) اسم هذه الأديبة وردة اليازجي، وهي إحدى أديبات لبنان، ولدت بلبنان في سنة (١٨٣٨ م) وماتت سنة (١٩٢٤ م).
(٣) انظر ـ إن شئت ـ الرسالة في الدر المنثور (ص٣٠٨ و٣٠٩).

ألا يـا مَـنْ سَمَـتْ في كـلِّ فَضْـلٍ ونــالَــتْ كــلَّ خلْــقٍ مُستَحَــبِّ
ورُبَّ مُـؤَلَّـفٍ كـالـرَّوضِ أجـرتْ عليـهِ سمـا البـلاغـةِ أي سحْـبِ
تهــادتْ فيــهِ أبْكــارُ المعَــاني تجـرُّ مـنَ الفصـاحـةِ ذيـلَ عجْـبِ
رأيــتُ نتــائـجَ الأحْــوالِ فيــهِ ممثلـــةً تلـــوحُ بغيرِ نَقْـــبِ
لتيمـــــوريّــــةِ العَصِرِ المُحلَّى بما نَسَجَتْ يداها كلُّ حقبِ[1]

* أمَّا أجمل ما أنشأَتْه عائشة التّيمورية من نثرٍ فهو مقالةٌ عنوانُها: «لا تَصْلُح العلائلات إلا بتربية البنَات» حيث نشرتْها في جريدةِ الآداب يوم السَّبْت (٩) جمادى الثَّانية من سنة (١٣٠٦هـ). ومقالتها هذه مقالة طويلة نفيسة تدلّ على مدى تمكّنها من ناصيةِ الكلام، ومدى اهتمامها بالموضوعاتِ الاجتماعيةِ، وقد افتتحت مقالتها بهذه المقدّمة الجميلة:

إنّي وإنْ كنتُ لسْتُ أهلاً لمجالِ المقال، في هذا المضمار ومعترفة بقصرِ اليدِ عن زمام المنال، لاعتكافي بخيمةِ الإزار، لكنّي أرى من خلال أطرافه أنَّ مناهجَ التَّربية ظرف الكنوز، وبحدود مسالك التّأديب مفاتيح كلّ جوهر مكنوز، فالواجبُ على كلّ ذي نَفْس كريمة، أنْ يميلَ كلَّ الميل إلى تلك السُّبل الفخيمة، ويحث كل عزيزٍ له أنْ يرتعَ في مراتعها القويمة، ليحظى بتلك الجواهر اليتيمة.

* ثم إنَّ عائشةَ تتعجَّبُ وتلومُ المرأة التي تسرفُ في الزِّينة دون انتباه منها إلى واجباتها، وترى أنَّ اللواتي يسرفن في التّطريةِ وينسينَ العلمَ، ما هُنَّ في الحقيقةِ إلا مسرفات في الجهل، والجهل يطمسُ كلَّ فَضْل أمجد؛ تقولُ عائشة: والعجبُ ثمَّ العجب منْ مَدَنيّة تشغفُ بتزيين فتياتها بحلي مستعار، وتستعينُ على إظهار جمالهن بزخرفِ المعادن والأحجار، وتتخيل أنَّها زادتهُنَّ بسطةً في الحُسن والدلال، والحال أنها ألقت تلك الأحداث في أخدودِ الوبال، لأنَّه لم يَعُدْ عليهن من تلك المستعارات إلا العُجْبُ والغرور، المؤدّي بهن إلى ساحةِ

(١) انظر: الدر المنثور (ص٣٠٥ و٣٠٦) باختصار.

المباهاة والفجور، وذلك لكفّ بصيرتهن عن الإدراكِ، وعدم علِمْهن بنتائج الأحوال، وعواقب الأمور:

قـد زُيّنَـتْ بـالـدّرِ غـرّةُ جَبْهَـةٍ وتـوشّحَـتْ بخمـار جَهْـلِ أسـودِ
وتطـوّقَـتْ بـالعِقْـدِ تبهـجُ جيْـدَهـا والجهلُ يطمسُ كلَّ فَضْلَ أمجدِ[1]

* وتدعو عائشة الرِّجال إلى الاهتمام البالغ في تربيةِ البنات، فكان مما قالته: فلو اجتهدتِ الهيئةُ الرِّجالية، في حسنِ سلوكهن بالتّربية، لتَتَوّجَتْ تلك الغانياتُ من تلقائها بيواقيتِ المعلومية، وتقلدت بلآلىء التَّفقُّه:

إنَّ العُلومَ لأَصْلِ الفَخْرِ جَوهَرةٌ يَسْمو بها قَدْرُ الوضيع ويشرفُ
فوجودُها في درْجِ مُهْجَةِ فَاضِلٍ مَنْ حازَها بينَ الأَنامِ مُشَرَّف[2]

* وكثيراً ما خصَّت عائشةُ الرِّجالَ بكلماتها حيثُ وجَّهت عباراتها لهم ليحسنوا تربية البنات، فقالت: فيا رجال أوطاننا لِمَ تركتموهنَّ سدى، وهنَّ بين أيديكم أطوعُ منْ قَلَم؟!

* هذا ونثرُ عائشة التّيمورية كثيرٌ، وهو وإنْ كانَ يعتمدُ على السَّجع[3] والمحسّنات البديعية، إلا أنّه يشهد لها بالسَّبْق في ميدان الفصاحة.

وأخِيْراً لا بُدَّ منَ الودَاعِ:

* هذه وتلكم عائشةُ التّيمورية التي أبَتْ تعلُّمَ التَّطريز، ولكنّها علَّمتْ

---

(١) الدر المنثور (ص٣٠٦).

(٢) الدر المنثور (ص٣٠٧) باختصار يسير.

(٣) من أمثلة ذلك ما تحدثت به عائشة عن نفسها: لما أنْ تهيأ العقل للتّرقي، وبلغ الفهم درجة الترقي، تقدّمَتْ إليَّ ربّةُ الحنانِ والعفافِ، وذخيرةُ المعرفةِ والإتحاف، والدتي تغمدّها اللهُ بالرّحمة والغفران بأدوات النّسجِ والتطريز، وصارت تجدُّ في تعليمي، وتجتهدُ في تفهيمي وتفطيني، وأنا لا أستطيعُ التّلقي، ولا أقبلُ في حِرَف النّساء الترّقي، وكنتُ أفرّ منها فرار الصّيد من الشِّباك، وأتهافت على حضورِ محافل الكتّاب بدون ارتباك، فأجدُ لصريرِ القلم في القرطاس أشهى نغمة، وأتخيل أن اللحاق بهذه الطائفة أوفى نعمة، وكنتُ ألتمسُ من شوقي قطعَ القراطيس وصغار الأقلام، وأعتكفُ منفردة عن الأنام، وأقلد الكتاب في التحرير، لأبتهجَ بسماع هذا الصرير.

بناتَ حواء أنَّ الإصغاءَ إلى دروسِ العلْمِ هو عنوان السّعادة، وأنَّ الحياةَ الحقيقية هي حياةُ العِلْم والأدب.

* وقد استطاعت عائشةُ أنْ تحقِّقَ شهرةً عاليةً في عَصْر النّهضة الحديثة، وأن تسجِّلَ اسمها بين نساء التّاريخ، ليكون علَماً بارزاً بين أعلام النِّساء اللواتي تركْنَ دوياً محموداً في دُنيا المعرفة والأدب.

ولعلَّ عصر السَّيِّدة عائشة التّيمورية كان فيه بعض الصّعوبة لتحقيق الذّات النّسائية، فلم يسطعْ نجمُ النّساءِ في سَماء الأدب، اللهم إلا قليلات يمكن حصرهن.

* وقد أصابَ عبّاس العقاد حينما تحدَّثَ عن هذا المجال، وعن نوعية المتعلّمات في عَصْر عائشة التّيمورية، وعن سرِّ نبوغها فقال ما ملخّصُه: ولم يكنِ التَّعليمُ في خدورِ العِلْية، ولا الطَّبقات الأخرى من النّدرة بحيثُ يتبادرُ إلى ظنِّنا لأوَّلِ وهْلَة، فقد وجدتْ عائشةُ لها معلّمات وزميلات يقرأْنَ الأدبَ، ويعرفنْ الشِّعر والعَروض، ولكنَّ المسألةَ في نبوغها ليست مسألة تعليمِ المرأة، وما وصلَ إليه منَ الذّيوع والاستحسان، فإنَّ هذا التّعليم قد شاعَ في عَصْرنا حتّى أصبحَ عندنا ألوفٌ من البناتِ يقرأن كما كانت تقرأُ السَّيِّدة عائشة تيمور، ويطّلِعْنَ أكثر ممّا اطلعتْ عليه. فلو كانتِ المسألةُ في هذا الصَّدَدِ مسألةَ تعليمِ البنت لوجبَ أنْ يكونَ لدينا عشرون أو ثلاثون شاعرة في طبقةِ التّيمورية، أو في أعلى منْ طبقتها، وهو غيرُ الواقع فيما نراه ويراهُ غيرنا، بلِ الواقعُ أنّنا لم نقرأْ لمن نشأتْ بعد السَّيِّدة عائشَة نَظْماً يضارِعُ نظمها، ولا شاعريةً تقاربُ شاعريتها، وإنْ كانَ التَّعْليم في عَصِرْنا أوفى، وموادّ العلوم والثّقافة النّسوية أكثر وأغنى، وكان تعليمُ المرأة عامة أقرب إلى بيئةِ الزَّمن وسنة أهله، إنّما المسألةُ هنا أنَّ الاستعداد للشّعر نادر، وأنَّه بين النِّساء أنْدَرُ، فالمرأةُ قد تحسنُ كتابةَ القَصَصِ، . . . ولكنَّها لا تحسنُ الشِّعر، ولما يشتمل تاريخُ الدّنيا كله بعد على شاعرة عظيمة، لأنَّ الأنوثةَ من حيثُ هي أنوثة ليست معبّرة عن عواطفها، ولأنَّ الأنثى تُسلِّم وجودها لمن يستولي عليها من

زوجٍ أو حبيب، فالذي يبقى من عظمة الشَّاعرية قليل[1].

* وتبقى عائشةُ التَّيموريةُ درّةً في حِلْيَة طرازِ الشَّاعرات، متفردّةً بين بنات جيلها بعبقريتها الشّاعرية، وبلاغتها في النَّثر، ويكفيها قول العقاد: شعر السَّيِّدة عائشة يعلو إلى أرفع درجة منَ الشّعر ارتفع إليها أدباء مصر في أواسطِ القرن التّاسع عشر إلى عَهْد العرابية.

* والآن، فقد حانَ الوداع، لنلتقي امرأةً أخرى من نساءِ التّاريخ، نعم آنَ الوداع مع أميرةِ شاعراتِ العَصْرِ الحديث عائشة التّيمورية ـ رحمها الله ـ.

* ففي أحدَ أيام سنة (١٣٢٠ هـ) ومنذ قَرْنٍ منَ الزَّمن، انقطعَ صوتُ عائشة التّيمورية عن الإنشاد، ولحقتْ بربّها، ونادى منادٍ في مدينةِ القاهرة: أنْ تُوفيت عائشة عصمت تيمور، توفيت أميرة الشَّاعرات، توفيت أميرةُ الشّعر؛ وهَبَّ آل تيمور وجَمْعٌ غفيرٌ من سادَةِ الأدباء والأعلام ورجال الفكْرِ والعِلْم والمعرفةِ وشيّعوها إلى مثواها الأخير ـ رحمها الله تعالى ـ.

* عاشتْ السَّيدةُ عائشة (٦٤ عاماً) قضَتْها بين المحابر والأقلام، ومع كُتُبِ الأُدباء والعُلماء الأعلام، وتركتْ في الدُّنيا ذِكْراً حميداً لا تمحوه الأيّام، نعم لا تمحوه الأيام:

المرءُ بعدَ الموتِ أحدوثةٌ ... يفنى وتبقى منه آثارُه
وأحسنُ الحالات حال امرىءٍ ... تطيبُ بعد الموتِ أخبارُه

* وأجدني في نهايةِ هذه التّرجمة أسوقُ بضْعَ أبيات رثى بها صديقنا الأستاذ سُليمان محمّد غزال[2] إحدى فواضل النِّساء وهذا الرّثاء ينطبق بأوصافه وشمائله على السَّيِّدة عائشة التّيمورية، فاسمعْ إليه حيثُ يقول:

رَحيلُ المُحسناتِ الفَاضِلاتِ ... بحقٍّ لَهو إحدى الفَاجعَاتِ
وخُسْرانٌ عظيمٌ لو فَقَدْنَا ... منَ الدُّنيا حنَانَ الأُمَّهاتِ

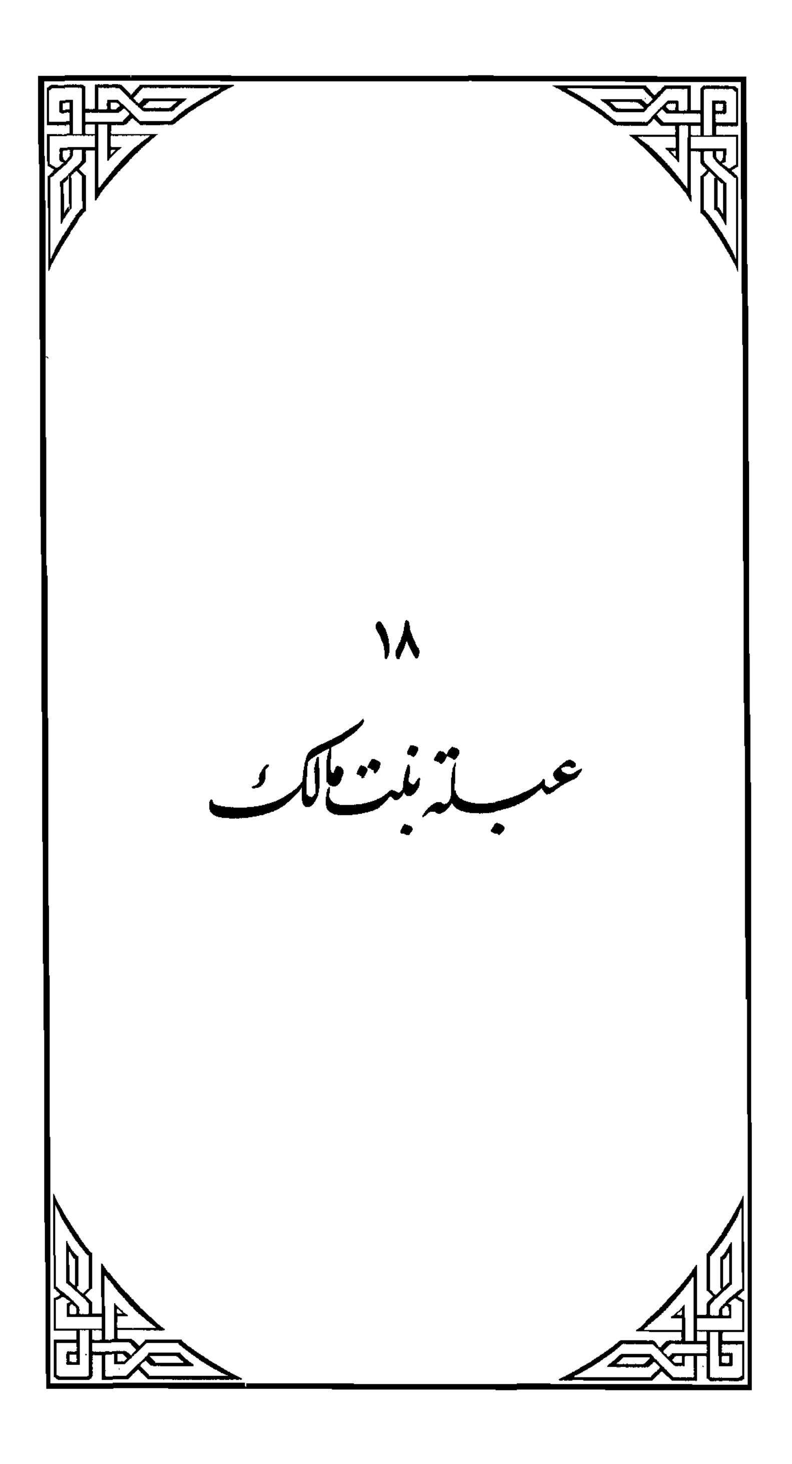
---

(١) عن شعراء مصر لعباس العقاد بتصرف واختصار.
(٢) شاعر من غزة من مواليد (١٩٣٨م) يهتمُّ بقضايا الأمة العربية والإسلامية، وشعره يمتاز بجمال الرونق، وجمال الديباجة، وبراعة المطالع.

فَهُـنَّ المـؤنسـاتُ إذا خَلْـونَـا وهـنَّ يُـذقْنَنَـا طَعْـمَ الحيَـاةِ
وهـنُّ الـرَّاجيـاتُ عَميْـمَ خَيـرٍ لنـا بـدعَـائِهـنَّ أو الصَّـلاةِ
فقـد كـانَـتْ مميَّـزةَ السَّجـايـا وكـانـتْ مِـنْ نبيـلاتِ الصِّفـاتِ
قَضَـتْ في البـرِّ أعـوامـاً وسَـارتْ على أخـلاقِ أهْـلِ المكـرُمَـاتِ
فَقُـرآن وأَذْكـارٌ وتَقْـوى وطـاعـةُ مـؤمنـاتٍ قـانتـاتِ
وقـوةُ حُجّـةٍ وصَفَـاءُ نَفْـسٍ وخشيـةُ مُخْبتـاتٍ طـائِعَـاتِ
وجُـودٌ في عَطَـاءٍ أو ودَادٍ وشِعْـرٌ فيـه أَحْلى الـذّكْـريـاتِ
ونصْـحٌ صَـادِقٌ وجمـالُ ذَوقٍ وظَـرْفٌ في الحـديـثِ وفي العِظَـاتِ
لَعَمْـري تلـكَ آيـاتُ المعَـالي وأخـلاقُ النِّسـاء المـؤمنـاتِ

رحم اللهُ عائشة، وجعلها في مستقر رحمته.

* * *



١٨

عبلة بنت مالك

منْ شَهيْـرَاتِ نِسَـاءِ الفُرسَـانِ:

* منْ هذهِ التي فجّرتْ عُيونَ الفصَاحةِ وينابيعَ البيانِ في نَفْس فارس فرسانِ الجاهليّة، وجعلتْهُ يخلطُ الثُّغورَ ببريقِ السُّيوف، ويذكرها في مآزقِ الهيجاء عندما تلمعُ السُّيوفُ، وتشتجرُ الرِّماح؟! يقول في ذلك:

ولَقـدْ ذكَـرتُـكِ والـرِّمـاحُ نَـواهِـلٌ ... منّي وبيضُ الهنْدِ تَقْطُرُ منْ دمي[1]
فَـوَدَدْتُ تَقْبيـلَ السُّيـوفِ لأنَّهـا ... لَمعـتْ كبـارقِ ثَغْـرِكِ المتبسّـمِ

* لا شكَّ بأنَّها امرأةٌ حافظتْ على إبائِها، وجَعَلَتْ من مُحِبِّها فارسَ الشُّجعان، فقد كان يَنْشُدُ رضاها، ويسْعَدُ بابتسامةٍ منها تطفىءُ وجْدَ هُيامِهِ، ويصعدُ درجاتِ العُلا والمجدِ راغباً إينَاسَها، فهو مع العدوِ رئبالٌ عنيفٌ، فقد كانت هذه المرأةُ عروسَ شِعْره، ومصدرَ إلهامِهِ، وواحةَ قلبِهِ، ومفتاحَ لسانِهِ، فقد ذكرها في معظمِ قصائِده، وجُلّ أَشْعارِه.

* إنَّ مَنْ يتتبّع أخبارَ وديوان هذا الشَّاعر الفارس، يجدْ أنَّ هذه المرأة قد احتلَّتِ الصَّدارةَ من حيثُ أغراضه، وهذا دليلٌ على مكانتِها في نفْسهِ، ودليلٌ على رقَّتهِ في أشعارِه التي استلْهَمها من شَخْصها الذي يَراهُ كلَّ يومٍ، ومنْ طيفِها الذي يُراوِدُه في منَامهِ وأحْلامِهِ.

* ولعلّنا في شوقٍ لمعرفةِ هذه المرأةِ؛ إنّها عَبْلةُ بنتُ مالك العَبْسيّة[2] ابنة عمّ عَنْترَةَ بنِ شدّاد العَبْسيّ الشّاعرِ الفارسِ المشهورِ في عالمَ الأدبِ والعِشْقِ

---

(١) قلبُ المحبّ دائماً في سَفَرٍ نحو محبوبه، ومن بدائع المحبّة أنْ تظهرَ عند الشّدائد والأهوال، فإنَّ القلب في هذه المواطن لا يذكر إلا أحبَّ الأشياء إليه، ولهذا كانوا يفخرون بذكرهم مَنْ يحبّونهم عند الحرب واللقاء، وهو كثير في أشعار العرب، لا يمكنُ حَصْره، ومن أمثلة ذلك قول أبي عطاء السِّندي:
ذكَـرتُـكِ والخطـيُّ يَخْطُـر بينَنـا ... وقَـدْ نَهَلـتْ منّـي المثقّفَـةُ السُّمـرُ
انظر (روضة المحبين ص٢٢١)، و(مدارج السالكين ٢/ ٤٢٧)، و(تزيين الأسواق ص٤٦٢).

(٢) انظر: ديوان عنترة (الفهارس) بتحقيق محمد سعيد مولوي؛ والأغاني ترجمة عنترة، وغيرها كثير من كتب الأدب والتّاريخ والأسْمار التي لا تُحْصَر في هذا المقام.

والحُبِّ والأسطورة والحربِ والشّجاعةِ، وأحد غَرابيب[1] العربِ وشُجعانهم.

* وعندما رحْتُ أبحثُ عن امرأةٍ عَبْرَ التَّاريخ القديم، لأَنْظمَها في عِقْدِ كتابنا هذا، استوقفتَنِي هذهِ المرأة التي طَغَتْ شهرتُها على كلِّ نساءِ الفُرسان في دنيا الفروسيّة، بل قلّما تَجدُ مجموعةً منَ النَّاس ـ على اختلافِ ثقافاتِها ومشاربِها العلميّة ـ إلا تختزنُ قِسْطاً لا بأْسَ به منْ حياةِ عنترة الذي كافحَ من أجلِ غَرامِهِ بعبلة[2] ابنة عمّه، وقاسى ما قاسى منَ الأهوال في سبيل رضاها.

* ومنَ الطَّريفِ والممتع أنَّ سيرةَ عنترةَ تبلغُ بضْعَ مجلّدات، وقد طُبِعَتْ عشراتِ المراتِ، وتجدُ سُوقاً رائجةً بين طبقات النَّاس إلى وقتنا الحالي، على الرّغم مما فيها منْ خُرافَاتٍ[3] وأسْمارٍ، ومُبالغَاتٍ ومُخالفَاتٍ للحقائقِ

(١) أغربةُ العرب ثلاثةٌ: عنترةُ بنُ شدّاد، وخُفَافُ بن نَدْبة، والسُّليكُ بنُ السُّلكة، وأمّ الثّلاثة سُود، وكان عنترةُ أشجعُ أهل زمانهِ وأجودهم بما ملكتْ يداه، وكان قد شَهِدَ حربَ داحسَ والغبراء، وحُمِدَتْ مشاهدهُ فيها.

(٢) «عبلة»: العَبْل: الضَّخمُ من كلِّ شيء، وفي صِفَة سَعْد بن مُعاذ ـ رضي الله عنه ـ: كان عَبْلاً منَ الرِّجال؛ أي: ضخماً. وكان أبو سعيد الخُدري ـ رضي الله عنه ـ عَبْلاً، وفي ذلك يقول: عُرِضْتُ يوم أُحُدٍ على النبي ﷺ وأنا ابنُ ثلاث عشرة، فجعل أبي يأخذ بيدي، ويقول: يا رسولَ الله! إنّه عَبْلُ العظام، وجعل نبيُّ الله يُصَعِّدُ في النَّظر ويصوِّبه، ثمَّ قال: «رُدَّهُ»، فردّني. (رجال مبشرون بالجنة ٢/ ٢٥).
والأنثى: عَبْلة، وجمعها عِبَال، وجاريةٌ عبلة، والجمع: عَبْلات، وامرأةٌ عبلة: أي: تامّة الخَلْق، والعبلاء: الصّخرة، أو البيضاء منها. (لسان العرب ١١/ ٤٢٠) دار صادر؛ و(القاموس المحيط ص١٣٣٠).

(٣) منَ الطّريف أنَّ ابن النديم قد أحصى الكُتُبَ التي أُلِّفَتْ في الأسْمار الخرافيّة باللغةِ العربيّة، فبلغتْ زهاء ثمانين، وضعْفَ ذلك أو يزيد قد تُرجمَ عن الفارسيّة والهنديّة واليُونانية وما رُوي عن ملوكِ بابل، وذلك حتى سنة (٣٧٧ هـ). انظر (الفهرست لابن النديم ص٤٧٥ ـ ٤٧٨).
وقال ابنُ النّديم أيضاً ما ملخصه: قال محمّد بنُ إسحاق: أوّلُ مَنْ صنَّفَ الخرافات، وجعلَ لها كُتُباً: الفُرْسُ الأُوَلُ؛ ثم زادَ ذلك في أيام ملوك السَّاسانية، ونَقَلَتْه العربُ إلى اللغةِ العربيّةِ، وتناوله الفصحاء والبُلغاء، فهذّبوه ونمّقوه، وصنّفُوا في معناه =

التَّاريخيّةِ والمنطقيّةِ والجغرافيّة والأدبيّة، وغيرها من المعارف المتنوِّعة.

إنْقَاذُ عَبْلَةَ مِنَ الأَسْرِ:

* كانَ عنترةُ في بدايةِ حَيَاتِهِ عبداً من أمٍّ حبشية، وكانت أَمَةً تُدعى زبيبة[1]، وكان النِّظامُ القبليُّ عندَ العربِ آنذاك يقضي في الهَجين[2] أنْ يُولد على العبوديّة.

* قال ابنُ قُتيبة ـ رحمه الله ـ: وكانتِ العربُ في الجاهليّة إذا كان للرجلِ منهم وَلَدٌ مِنْ أَمَةٍ استَعْبَده[3].

* وقد ظلَّتْ عبوديةُ عنترةَ هذه حيناً منَ الدَّهْر، لأنَّ أباهُ ادّعاه بعد الكِبر[4]. وكان عنترةُ يُعَيَّرُ بهذه النّاحية حتى استردَّ حريّته بقوةِ ساعده، وثباتِ جَنَانه ومخاطرته.

* ولحرية عنترة قصّةٌ شائقةٌ من أسبابها: خلاصُ عبلةَ من الأَسْرِ، ونحنُ

= ما كانَ يشبهه. وأولُ كتابٍ عُمِل في هذا المعنى كتاب: «هَزَار أَفْسَان» ومعناه: أَلفُ خُرافة. وإنَّ أوَّل مَنْ سَمَر بالليل الإسكندر، كانَ له قومٌ يُضحكونَه ويخرّفونَه، لا يُريدُ بذلك اللذّة، وإنّما كان يريدُ الحفْظَ والحرسَ. (الفهرست ص٤٧٥) طبعة دار الكتب العلمية الأولى (١٤١٦ هـ).

هذا؛ وقد عُني بقصّةِ عنترةَ وسيرته عددٌ كبير منَ المعاصرين في مختلفِ البلدان العربية، حتى إنَّ أحمد شوقي قد صاغَ مسرحية شعرية عُنوانها: «عنترة»، أشادَ فيها بمناقب فارس بني عبس، وصوّر غرامه بعبلةَ، أضفْ إلى ذلك كلّه أنَّ السِّينما قد عُنيتِ كذلك بسيرةِ عنترة، وكذلك ما يقدّمه الرّائي (التّلفزيون) من مسلسلاتٍ عن حياةِ وحبّ عنترةَ لعبلة.

(١) عقد محمّد بنُ حبيب ـ رحمه الله ـ في كتابه النَّفيس «المحبَّر» فصلاً عنوانُه: أبناء الحبشيّات. انظر: (المحبر ص٣٠٧).

(٢) «الهجينُ»: العربي وُلد من أَمَةٍ، أو مَنْ أبوه خير من أُمّهِ وجمعها: هُجنٌ، وهُجناءُ، وهُجنان، ومَهاجين، ومَهاجنة (القاموس المحيط ص١٥٩٩) طبعة مؤسسة الرسالة الثانية ١٤٠٧ هـ.

(٣) الشّعرُ والشعراءُ (١/ ٢٠٤)، وانظر: الأغاني (٧/ ١٤٢)، وخزانة الأدب (١/ ٦٢).

(٤) المصادر السّابقة نفسها.

مرسلو القول فيها؛ كما أوردَها السُّيوطي ـ رحمه الله ـ على الرّغم ممّا جاء فيها منْ مبالغاتٍ وخوارقَ. تزعُم القصّة: أنَّ عنترةَ جاءَ ذاتَ يوم إلى الماءِ، فلم يَجِدْ أحداً منَ الحي، فبُهتَ وتحيَّـرَ، حتى هَتَفَ به هاتفٌ: أدركِ الحيَّ في موضعِ كذا.

فعمدَ إلى سلاحهِ فأخرجَه، وإلى مُهْرِه فأَسرجَه، واتَّبعَ القومَ الذين سَبوا أهلَه، فكَرَّ عليهم، ففرَّقَ جَمعَهم، وقتلَ منهم ثمانيةَ نَفَر؛ فقالوا له: ما تريدُ؟

فقال: أريدُ العجوزَ السَّوداءَ والشَّيخَ الذي معها ـ يعني: أُمَّهُ وأباه ـ، فردَّوهما عليه.

فقال له عمُّه: يا بني كُرَّ.

فقال: العبدُ لا يكرُّ، لكنْ يحلبُ ويصرّ.

فأعادَ عليه القول ثلاثاً، وهو يجيبه كذلك.

قال له: إنّكَ ابنُ أخي، وقد زوجتُك ابنتي عَبْلة.

فَكَرَّ عليهم فصرعَ منهم عشرة[1]، فقالوا له: ما تريدُ؟

قال: الشّيخُ والجاريةُ ـ يعني: عمّه وابنة عمّه ـ، فردُّوهما عليه.

ثمَّ قال: إنَّه لقبيحُ أنْ أرجعَ عنكم، وجيراني بينَ أيديكم، فأبوا، فكرَّ عليهم حتّى صرعَ منهم أربعينَ رجُلاً قَتْلَى وجرحى، فردُّوا عليهِ جيرانه[2].

---

(١) كأنّي بعنترةَ قد كَرَّ على القوم وهو يرتجزُ يقولُ كما جاءَ في ديوانهِ:

اليـومُ تَبْلُـو كـلّ أنْثَـى بَعْلَهـا ... فـاليـومَ يحميهـا ويحمـي رحْلَهـا
وإنّمـا تلقـى النفـوسُ سُبلَهـا ... إنَّ المنـايـا مُـدركـاتٌ أهْلَهـا
وخيرُ آجالِ النُّفوسِ قَتْلها

ومن هنا يتبيّن لنا أنَّ المرأةَ العربيّةَ في الجاهلية، كانت تتمتَّعُ بمكانةٍ اجتماعيةٍ مرموقةٍ، ولها مكانتها السامية عند زوجها وذويها، ومن أجلِ الحفاظِ على شرفها كانت تقعُ الحروبُ، ومن أجلِ الحفاظِ على كرامتها كانت تُجزُّ الغلاصمُ والرِّقاب.

(٢) انظر: شرح شواهد المغني (ص١٦٥) طبعة القاهرة (١٣٢٢ هـ)، وانظر الخبر بشكل=

* ويبدو أنَّ عنترةَ قد هزَّتْه نشوةُ الانتصارِ أمام محبوبته عبلةَ، فإذا به يناديها كيما ترى ما حلَّ بالقوم، وأخذَ يرتجزُ ويقول:

عَبْلــةُ قُــومــي تَــرَكِ العُيــونْ فيَشْتَفــي ممّــا بِــهِ الحَــزيــنْ

دَارَتْ على القومِ رحى المنونْ[1]

* ولعلَّه أَنْشَدَ أيضاً:

وأَنـا المنيّـةُ فـي المـواطِـنِ كلِّهـا والطَّعْــنُ منّــي سَـابِـقُ الآجـالِ

* وهكذا، ومن أجْلِ عبلة نالَ عنترةُ حريّتَه بقائمِ سيفِه الذي ارتضاهُ صَاحِباً وخليلاً، والذي جَعَلَه أحدَ الأبطالِ الذين تحسبُ لهم الفرسانُ ألفَ حساب.

* ولعلَّ فارسَ الأبطالِ، وبطل الفُرسان عمرو بن معد كرب يُعطينا صورةً واضحةً لفروسية عنترة فيقول: لا أبالي مَنْ لقيتُ من فرسانِ العرب، ما لم يَلْقَني حُرَّاهَا وهجيناها؛ فأمّا الحُرّان: فعامرُ بنُ الطُّفيل، وعُتَيبةُ بنُ الحارث، وأمّا العَبْدان: فأسودُ بني عَبْس ـ يعني: عنترة ـ، والسُّليك بن السلكة[2].

انْتِشَارُ صِيْتِ عَبْلَةَ وشُهْرتها:

* بعد أنْ خلَّصَ عنترة[3] عبلةَ منَ الأسرِ، وعاد إلى مضاربِ قومه، فاحتْ

= موجز في ديوان المعاني لأبي هلال العسكري (١/ ١١٠)، وانظر ديوان عنترة (ص٣٩).

(١) ديوان عنترة بتحقيق محمد سعيد مولوي.

(٢) انظر كتابنا «المبشَّرون بالنار» (٢/ ٩٧) ترجمة عامر بن الطُّفيل.

(٣) قال الفيروز آبادي ـ رحمه الله ـ: «العَنْتَرَ»: الذُّباب، و«العنترة»: صوته، والسُّلوك في الشَّدائد، والشَّجاعة في الحرب. وعنترةُ بنُ معاوية ـ أي عنترة بن شداد ـ عبسيٌّ. «وعَنْتَرَهُ بالرمح»: طعنه. (القاموس المحيط ص٥٧٢ و٥٧٣).
أقولُ: وكانتِ العربُ في العصورِ الخوالي تسمي الاسمَ وتقصد به شرفَ المعنى، فعنترة يُقصد به: الشَّجاعة في الحرب. والعربُ هم سادةُ الفصحاء، وفصحاءُ السَّادة، ولا تخفى عليهم معاني الكلمات، وكثيراً ما كانوا يسمّون عبيدهم بأسماء ذات معانٍ شريفة.

أخبارُ فروسيته، وشهدَ له الأقرانُ بالتفرّدِ في حومةِ الميدان، وغدا يحتلُّ مكانَ الصَّدارةِ بين السَّاداتِ والأعيان، بعدما ألحقه أبوهُ بنسبهِ، وأنقذه من حياةِ العبوديّة والذُّلِّ والهوان.

وأخذتِ الألسنةُ تطري أفعالَ عنترة؛ وما قامَ به من خلاصِ ابنة عمّه عبلة وذويها من الأسْر، وأخذَ ساداتُ عبسٍ يعقدونَ لعنترةَ الولائم، ويتوِّجُونَها بالأسْمارِ، ونفائَسِ الأخبارِ، ونسماتِ الأشْعار، فكان عنترةُ يندِّي المجالسَ برائقِ شعره، ورقائقِ نفحاته.

ولكنَّ بعضَ الحاسدين لم يَرُقْ لهم هذا النَّصر الذي حقَّقَهُ عنترة، وتلك الشُّهرة التي كسبها بقائمِ سيفه، وكان عنترةُ إذ ذاك لا يقولُ إلا المقُطَّعاتِ من الشِّعر، وإلا البيتَين والثلاثة، فشَتَمهُ رجلٌ من بني عَبْس ذات مرّة، وذكَّرَه سواده، وسوادَ أمّه وإخوته، وعيّره بذلك، وبأنَّه لا يقولُ الشِّعر.

فقال له عنترة: واللهِ! إنَّ النَّاس ليترافَدُون بالطُّعمةِ، فما حَضَرتَ مرفدَ النَّاسِ أنتَ ولا أبوك، ولا جدُّك قطّ، وإنَّ النَّاسَ لَيُدْعَوْن في الغَارات فَيُعْرفُون بتسويمهم[1]، فما رأيناكَ في خَيْلٍ مغيرة في أوائلِ النَّاس قطّ، وإنَّ اللَّبْسَ ليكون بيننا فمَا حضرتَ أنتَ ولا أبوك ولا جدُّك خطَّة فَيْصل، وإنّما أنتَ فَقْعٌ نَبَتَ بقرقر[2]، وإنّي لأحتضر البأْس، وأُوفي المغنْم، وأعفُّ عن المسألةِ، وأجودُ بما ملكتْ يدي، وأفصل الخطَّة الصَّمعاء[3]، وأمَّا الشِّعر

---

(١) «التّسويم»: من التسوّم، هو أنْ يتخذَ المرءُ سِمةً أو علامةً يُعرفِ بها عندَ الحرب، وكان عددٌ من فرسانِ الصَّحابة يضعون علامات يُعرفون بها عند الحرب والطِّعان، فقد كان حمزةُ بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ يضع ريشةً على صدره؛ وأبو دجانة الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ يضعُ عصابة حمراء، وللمزيد من هذه الأخبار الرائعة اقرأ كتابنا «فرسان حول الرسول ﷺ» في جزأيه.

(٢) «الفقع»: نوع من أردأ أنواع الكمأة، وهي البيضاء الرخوة منها، و«فَقْع نبتَ بقرقر»: مثل يُضرب ليدل على المذلة. ويقال للذليل: هو «أذل من فقع بقرقرة» (القاموس المحيط ص٩٦٦).

(٣) «الصّمعاء»: الماضية النّافذة؛ يقال: انصمع في غضبه: مضى.

فستعلمُ؛ فكان أوّل ما قال قصيدة: هل غادر الشُّعراء منْ مُتردمِ[١].

* ولم يكنْ هذا الرّجلِ العَبْسِي هو الوحيدُ الذي حَسَد[٢] عنترةَ، وشَرِقَ بانتصاراتِه، وإنّما يبدو أنَّ والدَ عبلة وأخاها عمرو بن مالك قد شَرِقا بهذا العزِّ الذي صارَ إليه عنترة، بل إنَّ عبلةَ أخذت تتحدَّثُ إلى ابن عمِّها عنترة، وتشيدُ بقوّةِ ساعده، ونفاذِ سِنانه، وإرهافِ حُسَامه، وكان عنترةُ يشعرُ بنشوةِ السَّعادة عندما تحادثه عبلة التي أخذتْ تستلبُ لُبَّه شيئاً فشيئاً، وراحت نظراتُها تغرسُ معاني الحبّ والهُيام في قلبهِ الخالي الذي صادفَ هواها، فاحتلّه وتمكّنَ من أُصولِه وحنَاياه.

* وبمرورِ الأيّام أخذ عنترةُ يهمسُ إلى عبلةَ برقائقِ أقوالِه فيها، وما جادتْ قريحتُه في غرامِها، فكانت عبلةُ تبادله همساته بنبراتها الآسرة، وضحكاتها السَّاحرة الفاتكة، وتنظرُ إليه بعينيها الباسمتَيْن عندما يذكُرها بعدَدٍ من الأسماءِ المِغْنَاج في شِعره، فمرّةً يقول لها: عَبلة، وتارةَ عُبيلة، وأخرى عَبْل، ورابعة يابنة مالك، وهكذا. . .

* وممّا زادَ في هُيَام عنترةَ لعبلةَ أنَّها كانت تطلبُ منه قائلة: يا عنترة، أَعِدْ ما قُلْتَه من شِعْرٍ فيَّ، فإنّه ينزلُ على سَمْعي كما يقعُ النَّدى على أوراق الشَّجر.

* ويأخذُ عنترة بإنشادِ عِذَاب أشْعَاره، ويصفُ محبّته لها، ويذكرُ لها شجاعتَه وحروبَه وفروسيتَه وتطاير الشّجعان من بين يديه خوفاً على أنفسهم منَ العطب.

* وتضحكُ عبلةُ ضحكةً مرحةً تبعثُ الرِّضا في قلبِ عنترةَ، وتشيعُ السُّرور في نفسهِ الشَّفافةِ، وإذ ذاك يفصحُ لها عن حُبِّه وهيامِهِ وتهيامِهِ، وينشدُها مزيداً من أشعاره، ويسمعُها كثيراً منَ المقطّعات فيها.

---

(١) انظر: الشّعر والشُّعراء (ص١٤٩ و١٥٠) طبعة دار الكتب العلمية ببيروت.

(٢) ولله درُّ مَنْ قال:

حَسَـدوا الفتـى إذْ لم ينـالـوا سَعْيَـه ... فـالكـلُّ أَعْـداءٌ لـه وخُصـومُ

كضرائـرِ الحسَنـاء قلـنَ لـوجهها ... حَسَـداً وبغضـاً إنّـه لـدميـمُ

* وفشَا خبرُ هذا الحُبِّ في أَحياءِ بني عَبْس، وأخذَ النَّاسُ يتحدّثُون عن حُبِّ عنترة لابنةِ عمِّه عبلة، حيثُ لم يَبْقَ حُبُّ عنترة رهْنَ صَدْره، أوِ في ثنايا قلبه، وحنايا أضالِعِه، وإنَّما سرى نبأُ هذا الحبِّ ليصافحَ آذان النَّاس في جميع أحياءِ العرب، وفي مضاربهم ومجالسِهم، فما اجتمعَ قومٌ في نادٍ إلا ذكرُوه وَذكروها، وأنشدوا ما قالَ من شعْرٍ وغَزَل فيها.

* كانت أشعارُ عنترةَ وأقوالُه في عبلةَ تصلُ إلى أسماع أبيها وأخيها اللذيْن يُضْمِران له الشَّرَّ، ولكنْ ليسَ لهما من حيلة بعد أنْ قطعَا العُهودَ عليهما بأنْ تكونَ عبلةُ زوجةً لابن عمّها عنترة[١].

* أمّا عنترةُ فلم تكنْ تُخيفهُ نظرات عمّه مالك وابنه عمرو، بل وقومه من بني عبس، ولم يكن يهمّه سوى حبّ عبلة التي جعلتْهُ يُصافح أذن الجوزاءِ بحبّها له، وحبّه لها، ولله درّ مَنْ قال:

---

(١) من بعضِ عاداتِ الزَّواج في العَصْر الجاهلي، أنَّ ابنَ عمّ الفتاة، هو مِنْ أحقِّ النَّاس بالزّواج من ابنةِ عمّه، فالشَّاب إذا رغبَ الزّواجَ من ابنةِ عمّه طلبَها من أبيها، وإذْ ذاك لن يجرؤَ أحدٌ على خطبتها بعده، وإلا تعرّضَ والدُ الفتاةِ للخَطَر، وكذلك الذي يتقدّمُ لخطبتها تناله الأسواءُ، وتُدعى البنتُ في تلك الحالة: «المحيّرة»، أمّا إذا حدثَ أنْ أقدمَ رجلٌ على زواجِ ابنته المحيّرة، فإنَّ زوجَها يختفي بها عنْ أنظارِ ابن عمّها خيفةً منه.
ولكنَّ هذا الزَّواجَ لم يكنْ سائداً عند كلِّ العربِ، بل إنَّ بعضَ العربِ كانوا يحبّذون تغريبَ النّكاح، وذلك لاعتقادهم أنَّ ذلك أقوى للنّسل، وهذا الزّواج أقرّه الإسلامُ، لقول الحبيبِ المصطفى ﷺ: «غرّبوا النّكاح». وقد عبّر عن ذلك الشَّاعر القديم بأنَّ أولادَ الأقارب ضعافٌ وضعفاءُ فقال:

فَتَـى لم تَلِـدْهُ بنـتُ عـمٍّ قَـريبَـةٍ ... فيضـوى وقَـد يَضْـوى وَليـدُ الأقَـارِبِ

وقال آخرُ أيضاً في ابتعادِه عن ابنة عمّه مع حُبّه لها مخافةَ ضَعْف الذّرية:

تجَـاوَزْتُ بنْـتَ العـمِّ وهـي حبيبـةٌ ... مخـافـةَ أنْ يَضْـوى عليَّ سَليلي

وقال غيره:

تـركـتُ بنَاتِ العَـمّ واقْتَـادَني الهَـوى ... إلى ابنـةِ عـالي الـذّكْـر مـنْ آلِ فَـارِسِ

نَفْـــسُ المُحِـــبِّ عَلى الآلاَمِ صَـــابِـــرةٌ

لَعـــل مُسْقمَهـــا يَـــومـــاً يُـــداوِيْهَـــا

* وصارَ عنترةُ يكثرُ منْ أشعارِه فيها، ولم يَعُدْ يملكُ قلبه كي يصرفَه عنها، وإنّما كان إذا رآها أضاءتْ أمامه الآفاق، وإذا حدَّثَتْهُ أحسَّ دبيبَ السَّعادةِ يتمشّى في مفاصِلهِ، وإذا سمعَ همساتِها شعرَ كأنَّ أغاريدَ الطَّيرِ تصدحُ في الأسحارِ والإِبْكار، وإذا ما غابتْ عنه تفجَّرتْ ينابيعُ أشعاره[1] تفَضحُ هواه، وأخذ يناشدُ الأنْسامَ لتبلِّغَ عبلة هَواه:

---

(١) كثيراتٌ هُنَّ اللواتي فجرنَ الشِّعرَ في نفوسِ الشُّعراء في ذلك العَصر وفي غيرِه، وغدا أولئك الشُّعراء منْ كبارِ العُشّاق. ومن أشهر عُشّاق الشُّعَراءِ وشُعراء العشّاق:
عنترةُ عشِقَ عبلة؛
والمخبَّلُ السَّعدي عَشِق «الميلاء»؛
وحاتم الطَّائي عشِق «ماوية»؛
والنّمر بن تولب عشِق «ممزة»؛
وسحيمُ بن الحسْحَاس عشِق «عُميرة».
وفي العصر الجاهلي لمعتْ أسماء نِساءٍ كثيرات، كان لهنّ كبيرَ الأثرِ في نُفوس الشُّعراء على اختلافِ طبقاتهم ومكانتهم في عالَم الشعر، ومن هؤلاء النّسوة:
«هُريرة» صاحبة الأعشى؛
«وأميمة» صاحبة النّابغة؛
«وأمّ أوفى» صاحبة زهير؛
«وأسماء» صاحبة الحارث بن حِلّزة،
«وخولة» صاحبة طرفة بن العبد، وكذلك «هرّ».
«وفاطمةُ، وأم جندب» صاحبتا امرىء القيس وغيرهن كثيرات من النِّساء.
ومن الجدير بالذكْر أنَّ الغزَلَ قد احتلَّ مكاناً ظاهراً في الشِّعر الجاهلي، وقال فيه جميع الشّعراء، من اشتهر منهم ومَنْ لم يشتهر، واتّفقَ جميعُهم فيه على جَعْله بدءاً لقصائدهم، وسار كلّ واحد منهم فيه حسبَ ما يحلو له منْ وصفِ الحبيبة، وأثر حبّها وفراقها في نفسه، وما يعانيه من عشقِه لها، وهيامه بها، وكان الجاهليون الغزلون يصوّرون محبوباتهم في أجملِ خَلْقٍ، وأحسنِ مظهرٍ، وإنِ اختلفوا في الإجمال والتفصيل، أو في التّصريح والتلميح.

جُفُـونُ العَـذارَى مـنْ خِـلالِ البَرَاقِـعِ
أَحَـدُّ مِـنَ البِيْـضِ الـرِّقـاقِ القَـواطِـعِ
إذا جُـرِّدَتْ ذلَّ الشَّجـاعُ وأَصبَحَـتْ
مَحَـاجِـرُهُ قَـرحـى بفَيْـضِ المَـدَامِـعِ
فيَـا نَسَمـاتِ البـانِ بـاللهِ خَبرِّي
عُبَيلَـةَ عـن رَحْلي بـأَيّ المَـوَاضِـعِ
ويَـا بَـرْقُ بلِّغْهَـا الغَـدَاةَ تحَيّتـي
وحـيّ دِيـاري في الحِمـى ومضَـاجِعِـي

* وبهذا الغزلِ الرّقيقِ الأنيقِ طارَ صيتُ عبلة في الآفاقِ، وجرى ذكرها على كلِّ لسانٍ، وامتزجَ اسمُها باسمِ عنترة، بل تعانقَ الاسمان، على مدى مرورِ الأيّام والأزمان.

هَـلْ تَـزَوّجَ عَنْـتَرةُ عَبْـلَـةَ؟

* لا شكَّ بأنَّ عبلَة كانت منْ أجملِ نساءِ قومها، وأبعدهم صيتاً في اكتمالِ العَقْل، ونضَارة الصِّبَا، وشرفِ المحتد.

* ولقد ذاقَ عنترةُ منْ غرامِها أعْنَفَه، لكنْ كانَ يضايقُ غرامَه هذا كبرياءُ أبيها مالك، وصلَفُ أخيها عمرو بن مالك، وكانا يحتقرا عنترة كلّما سَمِعَا نبأَ هذا الغَرام، ويعيِّرانِهِ بلونهِ وأصلهِ من جهةِ أُمِّه، على الرغم من لصوقِ نسبه بهما، وذلك لاعتقادهِما أنَّ الظُّروفَ قد خَدَمَتْهُ، وأنَّ عيونَ السَّعادة قد لاحظَتْهُ.

ولكن هل تزوَّج عنترةُ عَبْلَةَ؟!

* منَ العجيبِ حقّاً أنْ يقفَ الباحثُ أمامَ المصادرِ وبينها فلا يكادُ يقفُ على خَبَرٍ يروي الغُلّة، أو يشيرُ إلى زواجِ هذا المُتَيّم من هذهِ المرأة التي أَسرتْ جوارِحَه بجمالها.

* وممّا يطيلُ الطَّريق أمامَ الباحثِ أولئك الذين ترجموا لعنترة وساقوا

أخباره من جهابذةِ المتقدمين من مثلِ: المفضَّل الضّبّي، والأصمعيّ، وابن قتيبة، وابن حبيب، وابنِ الكلبي، وأبي عُبيدة، ثمّ الأصبهاني؛ وغيرهم، حيث إنّهم لم يتطرقُوا لذكْر زواجِ عنترة.

* بيْدَ أنَّ أمامنا بعضَ المصادر التي تفصِحُ عن زواجه، ومنها ما نجدُه عند أبي هلال العسْكري عندما تعرَّضَ لذكْرِ حرّية عنترة فقال: فاستلحقه أبوهُ يومئذٍ، وزوَّجه عمُّه عبلة ابنته[1].

* وعند الميد ني في «مَجْمع الأمثال»، نجدُ إشارةً قويّة إلى زواجِ عنترةَ منْ عبلة، وذلك عندما أوردَ الميدانيُّ قولَ والد عنترة وهو: كُرَّ وقد زوجتك عبلةَ، فكرَّ وأبلى، ووفى له أبوه بذلك، فزوجه عبلة[2].

* ولعلَّ ما يجعلنا نرجّحُ بأنَّ عنترةَ قد تزوَّج عبلة؛ أضواءٌ نُسَلِّطُها على معالم من حياته، فتكشفُ لنا مصداق ما قلناه، ومنها: أنَّه تربطُه بعبلةَ رابطة القرابةِ، وكانتِ العربُ في الجاهليةِ أكثر مَيْلاً إلى زواجِ ابن العمّ، وكانوا يقولون: بناتُ العمّ أَصْبر، والغرائبُ أَنْجب[3].

* وثمة ضوءٌ يمكن أنْ يكشفَ لنا زواجه، هو كمالُ فروسيتِه وخلاصِهِ لعبلةَ ولأهلها منَ الأَسْرَ، ناهيك بأنَّه من أشهرِ فرسانِ القبيلة، بل تخطَّتْ فروسيتُه القبيلة لتعمَّ جزيرة العربِ وما حولها.

* ويمكنني أنْ أقولَ: لعلَّ في شِعْر عنترةَ نفسه ما يدلُّ، أو يشيرُ إلى زواجه منْ عبلةَ، فلا تكادُ تخلو قصيدة من التَّغزُّل بعبلةَ، والتَّغنّي بمحاسِنها وشمائِلها، حتّى في أحرجِ المواقفِ، وأصعبِ المواطن ـ كما جاء في بداية البحث ـ.

* لقد كانت عبلةُ أملَ دنيا عنترة، ودنيا أمله، يُغَنّيها لحنَ غَزَلِه، وغَزَل

---

(١) ديوان المعاني (١/ ١١٠).

(٢) مجمع الأمثال (٢/ ٢٤٤).

(٣) العقد الفريد (٦/ ١٠٣).

لحنِهِ، ويشدو لها بغرامِه، فهي أعزّ شيءٍ في حياته، وهي حليلتُه التي أُشْرِبَ حبّها، ونَعِمَ بقربها.

* وكانت عبلةُ تدركُ بثاقبِ فكرها مالها من مكانةٍ ومنزلة عند حامِيَتِها عنترة، فهي قريرةُ العينِ بمنزلتها، ومكانتِها من قلبه، فهو طوعُ أناملها إذا ما دعتْ لعظائمِ الأمورَ، وهو حصنُها الحصينُ إذا ما مسَّها سوءٌ، وفوق هذا كلّه أنَّه يبتعدُ عمّا يسوؤها، ويحرصُ على كرامتها، ويحافظُ على مشاعرِها، وها هو عنترةُ يدعو مَنْ شاء كي يسألَ عبلة عن هاتيكم الخصَال فيقول:

وَلئِـنْ سَـأَلْـتَ بِـذَاكَ عَبْلَـةَ خَبَّـرت
ألا أُريـد مِـنَ النِّسَـاءِ سِـوَاهَـا

وأُجيْبُهَـا إِمَّـا دَعَـتْ لِعَظِيْمَـةٍ
وأغيثُهـا وأكُـفُّ عمَّـا سَـاهَـا[1]

* وقد كان عنترةُ يكرمُ المرأةَ لأجلِ عبلة، ويعرفُ لها منزلتها، فلا يهدرُ كرامتها، بل هو ذُو حِفَاظ لِعرْضِ غيره، وهو يَصِلُ نساءَ قومه بهباته ما دامَ رجالهم معهم، فإذا ما خرجَ الرجالُ إلى الغزو والقتال لا يزورهن محافظةً عليهن، وصيانةً لعرضِهِ وعرضهن، فهو يحفظُ الجوارَ، ويحافظُ على الحُرمات، ويغضُّ بصره عن جاراتِه حتى يدخلنَ المنازل، ولا يتبعُ نفسه هواها:

أَغْشَـى فتَـاةَ الحـيِّ عنـدَ حَلِيْلِهـا
وإذا غَـزَا في الجيـشِ لا أَغْشَـاهَـا

وأَغُـضُّ طَـرفي إنْ بَـدَتْ لي جَـارتي
حتّـى يُـواري جَـارَتي مَـأْوَاهَـا

إنّي امـرؤٌ سَمْـحُ الخليقَـةِ مَـاجِـدٌ
لا أَتْبِـعُ النَّفْـسَ اللجـوجَ هَـواهَـا[2]

---

(١) «ساها»: معناها: ساءها، خفف الهمزة، ثم حذفها للضرورة.

(٢) وفي شعر عنترة أيضاً مواطن تشير إلى عفّته، وابتعاده عن الفواحش كقوله:

لئـنْ أكُ أسْـود فـالمسْـكُ لـونـي ... ومـا لِسـوادِ جلـدي مـن دَواء
ولكـنْ تبعـدُ الفحشـاءَ عنّـي ... كبعـدِ الأرضِ عـن جـوِّ السَّمـاءِ

* إنَّ العفَّةَ مع القدرةِ على اقتحامِ الشَّرِّ والآثام غاية الخُلُقِ الكريم، وعنترةُ الذي أخلصَ في حبِّهِ لعبلةَ، يَحفظ النِّساء[1] من أجْلِها كيلا يلقينَ سُوءاً:

ونَحْفَظُ عَوراتِ النِّساءِ ونَتَّقي　　　عَليهنَّ أنْ يلقَينَ يَوماً مَخَازِيا

جمال عبلة في شعر عنترة:

* كلما ورد في الذهن اسم عنترة، وكلما قرأنا شعر عنترة، خَطَر اسم عبلة واقترن به، وكأن عنترة ما ارتأى كماله إلا في عبلة، ولعله ترك لنفسه عنانها حتى وقع أسير حبِّها وغرامها، وطفق ينشد أجمل وأرق الأشعار فيها، ومن بدائع أشعاره فيها قوله:

---

(١) من الجدير بالذكر، أن العرب في الجاهلية كانوا يحافظون على جاراتهن، ويظهرون من المروءة ما يرصِّعُ جبينَ الدهر بذلك، ومن ذلك قول حاتم الطائي:

ولا نَطرقُ الجاراتِ مِنْ بعد هجعة　　　من الليل إلا بالهدية تحمل

وقال أيضاً:

فأقسمت لا أمشي إلى سر جارتي　　　يد الدهر ما دام الحمام يغرد

وهذه الخنساء تصف أخاها ـ بعد موته ـ بأنه كامل المروءة، يحافظ على جاراته فتقول:

لم تره جارة يمشي بساحتها　　　لريبة حين يخلي بيته الجار

وقد كان للعرب في الجاهلية فضائل خُلُقية، منها ستر الجارة، والمحافظة عليها بكل الصور والأشكال، يقول الشاعر في ذلك مادحاً من هذه صفاته وأخلاقه:

لا يهتك الستر عن أنثى يطالعها　　　ولا يشدُّ إلى جَاراته النَّظَر

وقد ورّث العرب أولادهم وأحفادهم هذه الخلال الكريمة التي ترفعهم إلى ذرا الشَّرف وعلياء المكارم، من ذلك ما وصل إلينا من شعر مسكين الدارمي هذه الأبيات الحلوة المشهورة:

لا يَرْهَبُ الجيرانُ غَدْرَتنا　　　حتّى يُواري ذِكْرَنا القبْرُ

ناري ونارُ الجار واحدةٌ　　　وإليهِ قبلي تنزلُ القِدْرُ

ماضرَّ جاري إذ أجاورُه　　　ألا يكون لبيته ستر

أعمى إذا ما جارتي خرجتْ　　　حتى يُواري جارتي الخدرُ

خليلـــيَّ أمْســـى حُـــبُّ عَبْلَـــةَ قَـــاتِلِي
وبـــأْسِي شَـــديـــدٌ والحُسَـــامُ مُهَنَّـــدُ
حـــرامٌ عَلَيَّ النَّـــومُ يـــابنـــةَ مَـــالِـــكٍ
ومَـــنْ فـــرشُـــهُ جَمْـــرُ الغَضَـــا كيـــفَ يـــرقُـــدُ
سَـــأَنْـــدبُ حتّـــى يعلـــم الطَّيرُ أنَّنـــي
حَـــزيـــنٌ ويـــرثـــي لي الحمـــامُ المغـــرِّدُ
وألثُـــمُ أَرضَـــاً أَنْـــتِ فيهـــا مُقيمـــةٌ
لَعَـــلَّ لهيبـــي مـــن ثَـــرى الأرضِ يبردُ
رحَلْـــتِ وقَلبـــي يـــابنـــة العَـــمِّ تَـــائِـــهٌ
عَلى أثَـــرِ الأظْعَـــان للـــرّكـــبِ يَنْشـــدُ

* وفي قصيدةٍ أُخرى يجعلُ كلَّ المحاسنِ وألوانِ الجمالِ في عبلةَ، وقد سرقَ القمرُ بعضَ محاسنِها، أمّا الظّباء فقد سرقْنَ سِحْر أجفانِها:

سَرقَ البـــدرُ حُسْنَهـــا واستَعـــارَتْ
سِحْـــرَ أجفـــانِهـــا ظِبَـــاء الصَّرِيْـــمِ

* ولم يكتفِ عنترة بهذا أو ذاك، وإنّما هو شديدُ الشّغف بذكر محاسنِ عبلة، وذكْر عينيها:

وكـــأنَّمـــا نَظَـــرتْ بعينَـــي شَـــادِنٍ
رشَـــأ مـــنَ الغُـــزلانِ ليـــس بتَـــوْأَمِ

* وفي لوحةٍ شعرةٍ أخرى يرسُم عبلةَ صورةً ساحرة رائعة، فهي ذاتُ شعرٍ أسود فاحمٍ طويل إذا أرسلته، ووجهُها أبيضُ نقيٌّ يميلُ إلى الصُّفْرةِ الحسَنة، فهو يضيءُ كالشَّمس في رابعةِ النَّهار، أو يشعُّ كالبدرِ ليلة اكتماله في الليلةِ الصَّافية، أمّا عيناها فهما سَوداوان، وأسنانها بيضٌ كاللؤلؤِ المنثور:

وَرَنَـتْ فقُلْـتُ غـزالـةٌ مـذْعُـورةٌ   قـد راعَهـا وسْـطَ الفَـلاةِ بَـلاءُ
وبَـدَتْ فقُلْـتُ البـدرُ ليلـةَ رتْمـهِ   قَـد قلَّـدتْـهُ نُجُـومَهـا الجـوزَاءُ
بَسمَتْ فلاحَ ضياءُ لؤلؤِ ثغرِها   فيـه لـداءِ العَـاشِقين شِفَـاءُ

* وفي موضع آخر يصوِّرُ الشَّمس وهي تخاطبُ عبلة كي تحلّ مكانها، بل إنَّ القمرَ يقول لعبلة: أنتِ مثلي في كلِّ شيء:

أشَـارَتْ إليهـا الشَّمْـسُ عنْـدَ غُـروبِهـا
تَقُـولُ إذا اسْـوَدَّ الـدُّجى فـاطلِعي بَعْـدي
وقـالَ لهـا البَـدْرُ المُنيـرُ ألا اسْفِـري
فـإنَّـك مِثْلـي فـي الكَمَـالِ وفـي السَّعْـدِ

* ولكنَّ هذا الغزلَ والتّغزل كلَّه لم يجعلْ عنترة بمعزلٍ عن ذِكْر فروسيته، ووجدَ منَ الضَّرورة أنْ يُنَبِّه عبلة إلى مكانته في عالَمِ الفُرسان ودنيا الشُّجعان، وأنْ يحملها على أن تنظرَ إليه بأنّه رجلٌ جديرٌ بالحبِّ، جديرٌ بأنْ يكونَ بَعْلاً، وليس هنالك منْ مجالٍ سوى الصِّفات الحميدةِ، فالجمالُ للرجلِ ليس مقياساً، وإنّما هناك جمالُ الفِعَال، وجمالُ النَّفس، ووجدَ عنترة ميدان الشِّعر يعرضُ فيه أخلاقه السّمحة، وأفعاله المجيدة، ويؤكد حُبَّه، كما يؤكّد حقيقةً مهمَّةً في عالَمِ الجمالِ فيقول:

عُبَيلَـةُ أيّـامُ الجَمَـالِ قَليلَـةٌ
لهـا دولَـةٌ معلـومَـةٌ ثُـمَّ تَـذْهَـبُ

* هذا؛ وقد عَرفَتْ عبلةُ فضائِلَ فارسها عنترة؛ وذات يوم قالت له: لله درُّك منْ شجاعٍ، ويالك منْ فارسٍ تذلُّ أمامه الأسود، لقد بلغتَ عنان السَّماء في الفروسية، واقتعدتَ سدَّة المجدِ يا زين الفُرسان.

* وطار فؤادُ عنترة فرحاً بهذهِ الكلمات العِذاب اللواتي أنعشنَ فؤاده، فإذا به ينطقُ بمعاني عَبْلة هذه المعاني الجميلة فيقول:

لقـدْ قَـالـتْ عُبَيْلَـة إذْ رأتْنـي ... ومفـرِقُ لِمَّتـي مثْـل الشُّعـاعِ
ألا لله درُّك مِـنْ شجـاعٍ ... تـذلّ لهـولـهِ أسْـدُ البِقـاعِ
سَمَـوتَ إلى عنـانِ المجـدِ حتّـى ... عَلـوتَ على السُّهـا فـي الارتفـاعِ

* وتتوضّحُ صورة عبلةَ في شعرِ عنترة، حيث يرسمها بأجمل الألوانِ؛ وأحلى الكلمات، وكيف لا يفعلُ ذلك وهو العاشقُ الصَّبُّ الوَلِهُ المبحرُ في عُباب دلال عبلة واسمها وشخصها، وفوق أمواجِ جمالها الآسر؟!

* فهو يَصِفُ أخلاقَها بقوله: غضيضٌ طرفها، عفيفٌ لسانُها، ويرسم خَلْقَها بوصفِه إياها أنّها جميلةُ الفم، جميلةُ العينَين، معتدلةُ القوام، تستعيرُ منها الشّمس البهاءَ والسَّناءَ، والقمرُ النّورَ والضِّياءَ.

* وهنا يتبادرُ إلى الذِّهن سؤالٌ يقول: كيفَ استطاعَ عنترة أنْ يجعلَ من عبلة لَيْلاه[1]؟!

* الحقيقةُ إنَّ عنترةَ بارعٌ في إبرازِ هذه المرأةِ الجميلةِ التي لم يحمل لنا التَّاريخ طاقةً منْ أقوالها، أو باقةً من حكمتها، إلا أنَّه حَمل لنا صورةَ جمالِها المرسومِ في شعْرِ عنترة.

* وثمّةَ ناحية أخرى لشهرتها، كثرة تكرار عنترة لاسمها، إذ استطاع أنْ يغرسَ شهرتها في النُّفوس، وأنْ يجعلَها تعتقدُ أنَّ عبلةَ هي حوّاءُ خاصّةً بعنترة، وهي حواءُ من نوعٍ فريدٍ، وأيّ حوّاء هي؟!!

* نعم لقد ظهرتْ عبلةُ أمامنا في خُلُقِها وصفاتِها، ويبدو أنَّ عنترةَ قد تغنّى بها على طريقةِ الغزلِ العُذري، فتغنّى بجمالِ خلقها، وأبدعَ في إظهارِ المعاني الخُلُقية التي حبَاها اللهُ هذه المرأة التي أخذت لبَّه، والتي أحاطها بسياجٍ أنيق منَ الحشمة مع الإعجابِ بها.

* إنَّ عبلةَ بنتَ مالك امرأةٌ متفردّةٌ بينَ النِّسوة العبسيّات، فقد استطاعتْ أنْ تؤثِّر في نفْسِ عنترة أثراً لطيفاً، حيثُ طُبِعَتْ في نفسهِ وقلبه صورتها الأليفة المحبّبة، لذلك أضحى حبُّه لها عُذرياً، هذا الحبُّ يقضي الارتباط بها وحْدها ليس غير، والإخلاصُ لها، وإعلامُها بتمكّنها من نفسه، وإخبارُها بالاستيلاء على لبِّه وقلبه ومشاعره، لذلك بادلَها عنترةُ هذه المشَاعر الرَّاقصة، وها هو يبلّغها بعذبِ الكلام أنَّها احتلَّتْ نفسَه، وسيطرتْ على مشاعرِه، ونزلتْ منزلةَ المُحَبِّ المكْرَم:

وَلَقَــدْ نَــزَلْــتِ فَــلا تَظُنّــي غَيرَهُ
مِنّــي بِمَنْــزِلَــةِ المُحَــبِّ المُكْــرَمِ

(١) «ليلاه»: المقصود هنا «ليلى» التي اشتهرت على لسان مجنون ليلى.

* ويؤكّدُ عنترةُ أنَّ عبلةَ هي قِدحُه المعلّ، وأمله الحقيقي الذي لا تخالِطُه لوامعُ السَّراب، وبوارقُ الخَيال، وعندها غدتْ عبلةُ تنطقُ بمنطقِ عنترة نفسه:

وَلئِـــنْ سَـــأَلْـــتَ بِـــذَاكَ عَبْلَـــةَ خبَّـــرتْ
أنْ لا أُريـــدُ مِـــنَ النِّســـاءِ سَـــوَاهَـــا

* لقد سَدَّتْ عبلةُ المنافذَ أمامَ عيني عنترة، فلم يَعُدْ يرى إلا هذه المرأة المتفرّدة بالمحاسنِ بين نساءِ بني عبس، ولم يَعُدْ يكلِّم إلا عبلة ودار عبلة[1]، فقد عَمِيَ عن غيرها، وصُمَّ عن سماع أخبارِ غيرها، بل أعرضَ عن غيرِها، وإن كُنَّ أجْمَل منها، فعبلةُ مُنَى رُوحه، وضياء مشاعرِه؛ وكانت عبلةُ تحاول ـ أحياناً ـ أنْ تَعْبَثَ بتلكم المشَاعرِ أحياناً، فيردّها عنترةُ إلى جادَّة الصَّواب مُنوّهاً بمكانهِ ومكانَتِهِ في مَيْدانِ الفُرسَان:

عَجِبَـــتْ عُبَيلَـــةُ مِـــنْ فتـــىً مُتَبَـــذِّلِ
عَـاري الأَشَـاجِـعِ شَـاحِـبٍ كَـالمُنْصُـلِ[2]
قَـدْ طَـالَ مَـا لبِـسَ الحَـدِيـدَ فَـإنَّمـا
صَـدأُ الحَـديْـدِ بِجِلْـدِهِ لَـم يغْسَـلِ

* وعندما رأتْهُ عبلة متغيِّر الحالِ، عجبتْ وتضاحكت، ولم تُبَالِ بقولها

---

(١) إنَّ هذا ما يؤكّده في كثيرٍ من شِعْرِهِ في بداية معلّقته إذ يقول:
يـا دارُ عبلـةَ بـالجِـواءِ تكلّمـي   وعمّي صَبَاحاً دار عبلةَ واسْلمي
ذُكِرَ أنَّ أبا عمرو بن العلاءِ قد سُئِل عن قولِ عنترة: (وعمي صَباحاً دار عبلة واسلمي)، فقال: هو من نعم المطر إذا كَثُر، ونعم البحر إذا كثُر زبده، كأنّه يدعو لها بالسّقيا وكثرة الخير. (بلوغ الأرب ٢/ ١٩٣).

(٢) «عُبَيلة»: تصغير عبلة، وقد صغّرها هنا على جهة الإلطاف، لا على جهة التّحقير.
«المتبذّل»: المقصود هنا: المتصرف في الحروف والأسفار.
«عاري»: قليل اللحم.
«الأشاجع»: أصول الأصابع التي تتّصِلُ بعصب ظاهر الكفّ.
«المُنْصُل»: السّيف.

وضحكها، ويتعجَّبُ عنترةُ كيفَ ازْدَرَتْه مع أنَّه كريمٌ، حَسَنُ الخِلالِ، طويلُ النّجاد؛ رفيعُ القَدْر بين أشدّاء الفُرسان:

فَتَضَاحَكَتْ عَجَباً وقَالَتْ يا فتىً
لا خيرَ فِيْك كأنَّها لم تَحْفَلِ
فَعَجِبْتُ منها حينَ زَلّت عَيْنُها
عن مَاجِدٍ طَلْقِ اليَدين شمَرْدَلِ[1]

* وبعد هذا يُذَكِّرُ عنترةُ عبلة بأنَّه أهْلٌ لودّها، وموضعٌ لحبِّها، ولا يحقُّ لها أنْ تَصْرِفَ النَّظر عنه، فلقد سَبَقَها نساءٌ كثيرات عَرفْنَ مكانته وهُنَّ أجملُ منها، وأحلى في عين النَّاظر، إلا أنَّ عنترةَ يخبرُها بأنَّه يريدُها هي، ولا يريد سواها:

فَلَرُبَّ أمْلَحَ منْكِ دلاًّ فاعْلَمِي
وأقَرَّ في الدُّنيا لِعَيْنِ المُجْتَلِي
وَصَلتْ حبَالي بالذي أنَا أهْلُهُ
مِنْ وُدِّهَا وَأنا رَخيُّ المِطْوَلِ[2]

* إنّنا نشعرُ بأنغام عنترةَ التي تأْسِرُ أسماعَنا وهو يشدو بنبرةٍ عذبةٍ شجية، ويرسُم صاحبتَه عبلةَ بالكلمات. ويناجيها بأحلى هَمَسات الكلام التي تخالِطُ النَّفس، وتمتزجُ بِشِغَاف القَلْب، وكيف لا؟ وقد عَزَّ عنترةُ بعد العبوديّة، وتحرَّرَ بعد الرِّق، فَصَفَتْ نفسُه، ورقَّتْ عواطِفُه، ولَطُفَ مزاجه، كلّ هذا الإلهام وهذه المشاعر مصدرها عَبلةُ بنتُ مالك الزّوجة والحبيبة والمرأة الرّقيقة.

* وفي شعْرِ عنترة تظهرُ صورة عبلة بأبهى الحُلل، ولا يتوقّف خَيالُ

---

(١) «شمردل»: حسن الخُلق.

(٢) «المِطْوَل»: الرَّسن، و«الطِّوَل»: حَبْلٌ يُشَدُّ به قائمة الدابة، أو تُشَدُّ وتُمْسِك طرفه، وترسلها ترعى، قال طرفه بن العبد في معلقته:

لعمرك إنَّ الموتَ مَا أخطأَ الفتى — لكالطِّوَل المُرخى وثِنْيَاه باليَدِ
متَى ما يشأْ يوماً قُدْهُ لحتفه — ومن يكُ في حَبْلِ المنية يَنْقَد

عنترةَ عند حدٍّ معيّن، فها هو يرسمُ ثَغْرَها، ويصوّره كأنَّه روضةٌ بِكْرٌ عذراء، ألحَّ عليها الغيثُ حتى زكَا نباتُها، وحتى استطابَ الذُّباب الإقامة فيها، فتداعى إليها نشوان متغنّياً بما يجني منْ طيِّباتها[1].

* وتظلُّ عبلةُ أغنيةَ عنترةَ، ولحنَ غزلهِ، ومُنَى أمله، وأمَلَ مُناه، لم تبرحْ ذاكرتُه وقلبه وشعره، ولم يبرحْ عنترة يقفُ بأطلالها[2] بين العقيق وبُرْقة ثَهْمد التي أمستْ ملعباً للظِّباء، وتسرحُ فيها لاهيةً، وترتعُ غافلةً وهو يعاني ما يعاني من أَلَمِ الحبِّ، وآلامِ الحزن:

بيـــنَ العَقيـــقِ وبيـــنَ بُـــرْقَـــة ثَهْمَـــد
طَلَـــلٌ لعبلـــةَ مُستَهِـــلُّ المعهـــدِ

يـــا مَسْـــرحَ الآرامِ فـــي وَادي الحمـــى
هـــل فيْـــكِ ذُو شَجَـــن يَـــرُوحُ ويغتـــدي[3]

وِقْفَــةٌ نَديّــةٌ مَعَ جَمَـالِ المَـرْأَةِ عنْـدَ العَربِ:

* لا بدَّ لنا ونحنُ على مشارفِ نهايةِ رحلتنا مع عبلةَ بنتِ مالك العبسيّة، من أنْ نشيرَ إلى مقياس الجمالِ ومعاييره عند العرب.

* فالجمالُ محبوبٌ لذاته عند الطَّبع، ومحبوبٌ لفائدته عند العَقْل، ومع أنَّ العيونَ قد أَلِفَتْ رؤيته، والآذان رُويَتْ من سماع أحاديثه، فلا تزالُ أسرارُه موضوعَ التفكُّرِ، ولا تزال دقائق تأثيراته محلَّ الإعجاب؛ كيف لا وهو السِّرُّ المكنون في جَذْب الإنسان إلى مقاماته العُلى منَ الإبداع، وقد رأينا أنَّ عنترةَ قد أبدعَ في فَنِّ البيانِ لما كان يرى من جمالِ عَبْلَة.

* فقد كانت نساءُ العرب قد تناسبت أجزاؤُهن، وتناسقتْ أوضاعُهن،

---

(١) للاطلاع على هذه الصّورة الرائعة، انظر ديوان عنترة (ص١٨١) وما بعدها.

(٢) كثيراً ما وقفَ الشُّعراء على أطلال محبوباتهم، وتغنوا وبكوا ورثوا و... ولله درُّ مَنْ قال:

بَلِيْتُ بِلِى الأطْلال إنْ لم أقفْ بها وقوفَ شحيحٍ ضَاعَ في التُّربِ خاتَمُه

(٣) انظر: ديوان عنترة (ص١٣٦) دار صادر ببيروت.

واعتدلتْ أشكالُهن، بياضهُن جميلٌ، وأدمتهُن لطيفةٌ، ليس فيها حُلْكَةُ بَعْضِ الأقوام، ولعلَّ مَنْ فازت من حِسَانهُنَّ بحظّ عظيمٍ من الجمال، تقلّ نظائرها في حِسَان الآخرين.

* والمشهورُ أنَّ الجمالَ يختلفُ في أذواقِ النَّاس، ولكلّ جيلٍ قياسٌ في الحُسْنِ قد لا يأتي عليه قياسُ جيل آخر، ولكن مَنْ أمْعَن بما يتناقله النَّاس من صفاتِ الحسن، يَجدْ جهةً جامعةً، ومقياساً واحداً تتّفقُ معه المقاييسُ كلّها، ذلك أنَّ الحسنَ الذي لا خلافَ فيه ليس هو بلونِ الأديم، وإنّما هو باعتدالِ القامةِ، واستواءِ الهامة، وتناسبِ أجزاءِ الوجه ومقاطعه، وحلاوةِ المبسم، وملاحةِ العينين، ولطفِ الحاجبَيْن؛ ولعلَّ هذه الأشياء تكثرُ في العرب، بالإضافةِ إلى بياضِ البشرة، وتشرّبه بحمرة أو صُفْرة، كان ذلك فضْلاً في الجمال، قد يُبْلَغ به منتهى الكمال.

* والعربُ لم يكْثِروا في كلامهم منْ شيءٍ بمقدار ما أكثروا منْ وَصف الجمَال، كما لاحظْنا في شعْر عنترةَ، وقد نجدهم يستحسنونَ هذَيْن اللونين كثيراً: البياض المشرَّب بحمرة، أو البياض الضَّارب إلى صُفْرة، قال ذو الرِّمة[1] معبراً عن هذا:

بَيْضَــاء صَفْــراء قَــد تَنَــازعهــا لــونــانِ مِــن فضّــة ومــنْ ذَهَــبِ

* وقال أحمد بنُ عبد ربه الأندلسي:

عَقَــائـلُ كــالآرامِ أمَّــا وجــوهُهــا فَــدُرٌّ ولكــنَّ الخــدودَ عقيــقُ

* ومنَ الجديرِ بالذِّكْر أنَّ هذا اللون هو لونُ اللؤلؤ، وقد جاءَ في القرآن

---

(١) «ذو الرّمة»: غيلان بن عقبة بن نهيس العدوي، أبو الحارث، من فحول الطبقة الثّانية في عصره؛ قال أبو عمرو بن العلاء: فُتح الشّعر بامرىء القيس، وخُتم بذي الرمة.
أكثرُ شعره تشبيبٌ وبكاء وأطلال، يذهب في ذلك مذهب الجاهليين، كان يقيمُ بالبادية، ويحضرُ إلى اليمامة والبصرة كثيراً، وعشقَ ميّة المنقرية واشتهر بها. توفي بأصبهان، وقيل بالبادية سنة (١١٧ هـ). (وفيات الأعيان والشّعر والشعراء) ترجمة ذي الرمة.

العظيم تشبيهُ حِسَان الجنَّة باللؤلؤ المكنون في قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصَّافات: ٤٩][1]، ولا يختلفُ أحدٌ في أنَّ هذا اللون هو الذي تكون صاحبته أقربَ إلى الكمالِ في الجمالِ، خصوصاً إذا أخذتْ بحظٍّ من تناسب بقية الأعضاء.

* ولكثرة البَياض اللطيف في العَرب، شبّهوه بالصُّبح، واشتقّوا من الصَّبح لوناً فقالوا للأبيض: صَبيح، وللبيضاء: صَبيحة؛ واشتقُّوا من الزَّهْر لوناً فقالوا للأبيضِ المُشَرَّب بحمرة: أزْهَر، وللبيضاء المشربة بحمرة: زَهْراء[2].

* وليس بعجيبٍ بعد أنْ كانَ الجمالُ الرَّائع من جملة خصائصِ نساء العرب في الجاهلية، إذ نجدهم مغرمي القلوب بمجالي تجلياته، منصرفي الوجوه إلى مشارقِ أنواره، ثم لا بَدْعَ بعد ذلك إذا وجدنا حبَّ الجمال قد هذَّب أذواقهم، ورقَّق طبائعهم، وعودهم على الاستحسان، ونقلهم من حالٍ إلى حالٍ، كما رأينا تطور حياة عنترة، ورقّةَ أسلوبه، ورقائقَ معانيه، وهمساتِ مغانيه، كلّ هذا من شَغَفه بابنةِ مالكِ عبلة التي خلَّدها بمعلّقته[3]

---

(١) قال جُمهور المفسرين: هو البياض قد خالطته صفرة حسنة.

(٢) وقال أبو دَهْبَل، واسمه: وهب بن زمعة بن أسد الجُمحي، وهو أحد الشعراء العشّاق المشهورين توفي سنة (٦٣ هـ):

وَهْـيَ زَهْـرَاء مثـلُ لـؤلـؤةِ الغـوّا ص مِيْـزَتْ مـن جَـوْهـر مكْنُـون

(٣) لعلّه منَ الطَّريف والمفيد أن نشير إلى أنَّ عدداً كبيراً من فحول الشُّعرا قد اشتغلوا بمعارضةِ معلقة عنترة في القديم والحديث، وكان ممن عارضها محمود سامي البارودي ـ رحمه الله ـ حيث صدحَ بمعارضةِ معلقة عنترة بقصيدة تُعتبر من فخرياته، وعيون شعره، نظمها في أخريات أيامه في سنة (١٨٩٩ م)، وفي إحدى ندواته سأله الأديب الشاب ـ آنذاك ـ مصطفى صادق الرافعي شيئاً من شعره الحديث، فقال: إن عنترة بن شداد العبسي يقول:

هَـلْ غـادرَ الشعـراءُ مـنْ متـردّم أمْ هـل عـرفـت الـدار بعـد تـوهـم

وقد نقضت هذه القصيدة بقولي:

كـم غـادر الشّعـراء مـن متـردم ولـرب تـالٍ بـذَّ شـأو مقـدّم=

وشعره بين نساءِ التَّاريخ، وتاريخِ نساءِ الفرسان.

* وختاماً، وبعد رحْلتنا اللطيفة مع عَبْلة، وحياتنا في أجواءِ شعْر عنترة فيها، فلا نعرفُ كيفَ ومتى كانت نهايتها، إلا أنّنا ندرك أنَّها ما تزال حيَّة فيما رسمه عنترة بالكلماتِ، وذلك في وصفها بأشعارهِ الحِسَان، التي عبرَتِ الليالي والأيّام إلى وقتنا الحالي، وأرجو أنْ أكونَ قد وفّقْتُ في توضيحِ بعض الصُّور للمرأةِ العربيةِ في أعصرها الخوالي، واللهُ أعلمُ بحقيقةِ الصَّواب.

* * *

= وقد بلغت قصيدة البارودي (٥٣ بيتاً). انظر (ديوان البارودي ٣/ ٤٨٥ ـ ٥٠٦).



١٩

فاطمة بنت مُرّ الخثعمية



منْ صُوَر حَيـاةِ الجَـاهِليّـةِ:

* لعلَّ أوَّلَ مظاهر البيئةِ الاجتماعية في العَصْر الجاهلي، وخصوصاً في مكـةَ، مظهـر العقيـدةِ الـدّينيـةِ، ومـا ينشـأُ عنهـا مـن مناسـكَ وتعبُّـداتٍ واعتقاداتٍ، وعنوانُ ذلك عند العرب قاطبةً هو الوثنيةُ التي تقومُ على التَّقليد الموروثِ، والتي لا تسمعُ لصوتِ العَقْل، ولا تصغي إلى الشُّعور ونداءِ الوجدان، وقد حكى القُرآنُ الكريمُ عنهم هذا الاعتقادَ في معرِض الرَّدِّ على دعوتهم إلى الهدى ودِيْن الحقّ، فقال عزَّ وجلّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: ١٧٠]، ثم إنَّ القرآنَ قد بكّتهم على هذهِ البلادةِ العقلية التي لا تناسبُ إنسانيتهم فقال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

* وقد دفَعهم الفراغُ عن جدِّ الحياةِ وجادتها القويمة إلى التَّفنن في وثنيّتهم الهزيلة الفارغةِ، فعدّدوا الآلهة، واتّخذوا لها الأنْصابَ والتَّماثيل والأصنامَ والأوثانَ، وبنوا لها البيوتَ والمتعبّدات، حتى أصبح لكلِّ قبيلة صنمٌ في بيتٍ خاص به، تُؤدّي مناسكها في كَنَفه، وكانت أغلبُ بيوتِ العرب قد اتّخذ أهلُها صنماً يعبدونه، لذلك عَجِبُوا حينما دعاهم رسولُ الله ﷺ إلى التوحيد، فقالوا ـ كما حكى القرآن عنهم ـ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

* إلى جانبِ هذه الوثنيّة، كانت هناك قلّـةٌ منثورةٌ تنفردُ باعتقاداتٍ خاصة، وتدينُ بدياناتٍ أخرى، وإلى جانب ذلك كلّه كان للعربِ أيضاً اعتقاداتٌ وخيالاتٌ يقيمون حياتهم عليها، منها: الكهانةُ، والعِرافةُ، والتَّطيّر بالسَّوانحِ والبوارحِ من الطَّير، وشيوع الخرافات، حتى غَدا الكهّانُ والكواهنُ ممن يديرون دفّة القوم في كثيرٍ من الأحيان، كما سنرى في الصَّفَحات التَّالية إنْ شاء الله.

جَوْلَـةٌ في رحَابِ الكهَانَـةِ والكَاهِنَـات:

* لعلَّ مِنْ طبيعةِ النَّفسِ البشريّة في تكوينها، أنَّ النَّاس يتشوّقون لمعرفةِ

كلِّ جديد في الحياة، وخُصوصاً ما يتعلَّق بنفسِ الإنسان من معرفةِ أحوالهم في المستقبلِ من رزقٍ ونعيمٍ وبؤسٍ وموت، وما شابَه ذلك؛ وإرضاء لتلك الرّغبة يلجأُ كثيرٌ منهم إلى الكُهّان الّذينَ يفرضونَ سُلطتهم ـ المزعومة ـ على المجتمع، فتتوفّرُ لهم الفائدةُ الماديةُ ثمَّ المعنوية.

* وكان علْمُ الكهانة شَائعاً في العرب قَبْلَ ظُهور الإسلام، وكان عليه مدار فَصْلِ خصوماتهم، وفضِّ منازعاتهم، وظهر عددٌ من الكهنَة والكاهنات واشتهر أمرهُم في الجاهليّة[1]، ومنهم امرأةُ هذه الصَّفحات التي نتعرَّفُ سيرتَها بعد قليل.

* وقد بسطَ أهلُ العلْمِ والأخبارِ أقوالَهم في الكهانة، وذهبوا بذلك مذاهب شتّى، وطرائقَ قِدداً[2].

* قال الفيروز أبادي ـ رحمه الله ـ: تكهَّن تكهُّناً: قضى له بالغيب فهو

(١) «الجاهلية»: الزّمانُ الذي كثُر فيه الجهّال. والمقصودُ بهذه الكلمة: ما كان قبل مجيء الإسلام. وقد وردتْ هذه الكلمة في القُرآن الكريم في أربعة مواضع هي:
﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].
و: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].
و: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].
و: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦].
وفي السُّنَّةِ المطهرّة وردَ لفظُ الجاهليةِ كثيراً، من ذلك قولُ النّبي ﷺ لأبي ذر الغفاري ـ رضي الله عنه ـ حين عيَّر رجلاً بأمّه: «إنك امرؤٌ فيك جاهلية»، وقول أمّنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «كان النّكاح في الجاهلية على أربعةِ أنحاء»، وقولهم: «يا رسول الله كنّا في جاهلية وشر»؛ فالمقصودُ في هذا كلّه: حال جاهلية، أو طريقة جاهلية، أو عادة جاهلية ونحو ذلك. فالجاهلية من حيث كونها اسماً لزمنٍ تُطلق على الفترة التي كانت قبل بعثة النّبي ﷺ ولا تُطلق على زمن بعد هذه البعثة.
(٢) «قِدداً»: مختلفة، وفي القرآن الكريم: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجنّ: ١١]، يعني: كنا فرقاً مختلفة الأهواء.

كاهنٌ؛ والجمع: كَهنَة وكهّان؛ وحِرفته: الكِهَانة؛ والكاهن: مَنْ يقومُ بأمْرِ الرّجل، ويسعى في حاجته[1].

* وزعم المسعودي ـ رحمه الله ـ في «مُروجه»[2] إلى أنَّ الكهانة صفاءٌ نفسي يتولَّدُ من صفاءِ المزاجِ الطَّبيعي، وقوة النَّفس، ولطافة الحسِّ.

* وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ الكهانةَ مطالعةُ الغيبِ والإخبارِ بالحوادثِ الماضيةِ والآتيةِ.

* وقيل: الكهانةُ: هي ادّعاء علْمِ الغيبِ كالإخبار بما سيقعُ في الأرض مع الاستنادِ إلى سبب، والأصل فيها: اسْتِراقُ الجنّي السَّمْع من كلامِ الملائكة، فيلقيه في أذنِ الكاهن.

* وزعم بعضُ الكهّان أنَّ لهم أتباعاً منَ الجنِّ يسترقون السَّمْع ليأتوهم بالأخبار ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: ٨]، وأنَّ الشَّياطين ليوحون إلى أوليائهم، وكانَ العربُ يتنافَرون إلى الكُهَّان في خصوماتهم.

* والكاهنُ: لَفْظٌ يُطلقُ على العرَّاف، والذي يضربُ بالحصى، والمنجِّم.

* ويختصُّ الكاهنُ بعلمِ المستقبلِ، والعراف بِعلْمِ الماضي[3].

---

(١) القاموس المحيط (ص١٥٨٥) طبعة مؤسسة الرسالة الثانية.

(٢) «مروجه»: أي: في كتابه الشَّهير: مروج الذَّهب.

(٣) قال الأصفهاني في كتابِ «الذَّريعة»: الكهانةُ مختصَّةٌ بالأمورِ المستقبلة، والعرافة بالأمورِ الماضية. والعرّافُ يشبهُ الكاهن في بعض شأنه، فقد كان العرّافُ يكشفُ المخبأَ في الماضي، وكان أيضاً طبيباً، بل هو أشهر في الطّبِّ منَ الكاهن، ولكنّه أدنى منه منزلةً، فإنَّ العرافة ليست منصباً دينياً كالكهانة.
ومنْ مشاهيرِ العرّافين: عرّاف نَجد، واسمه: الأَبْلَق الأسدي، وعرّاف اليمامة، واسمه: رباح بن عجلة.
قال عروةُ بنُ حزام في معرض حبّهِ لعفراءَ من قصيدةٍ له شهيرة جاء فيها:
جَعَلْتُ لعرّافِ اليمامةِ حُكْمَه   وعرّافِ نجدٍ إنْ هُما شَفَياني=

* وقال الخطّابي: الكهَنَةُ قومٌ لهم أَذْهانٌ حادَّةٌ، ونفوسٌ شريرةٌ، وطباعٌ نارية، فأَلِفَتْهم الشَّياطينُ لما بينهم من التَّناسبِ في هذه الأمورِ، وساعدتهم بكلِّ ما تصلُ قدرتهم إليه(١).

* وقال بعضُ الأفاضل: كانتِ الكهانةُ في الجاهليةِ فاشيةً خصوصاً في العرب لانقطاعِ النُّبوّة فيهم(٢).

* ومنَ المعروفِ لدى الباحثين بأنَّ الكهانَة قد انتشرت بين اليهودِ وغيرهم منَ الأمم قديمها وحديثها؛ وفي السِّيرة النّبوية نماذجُ من ذلك يَحْسُنُ الرُّجوع إليها لمن أرادَ أنْ يستزيدَ في هذا المجال.

* ويبدو أنَّ الكهانةَ قد مدَّتْ جناحيها في معظم أصقاعِ الأرضِ، ولا زال

= فقالا نَعَم نشفي منَ الدَّاء كلّهِ ... وقاما معَ العُوّاد يبتَدرانِ
فما تركا منْ حِيْلةٍ يعلمانها ... ولا رقيةٍ إلا وقَدْ رقَياني
فقالا شَفَاكَ اللهُ واللهِ مالنا ... بما حُمِّلَتْ منك الضّلوعُ يدانِ

وقال آخر في عرّاف اليمامة:

فقلتُ لعرّافِ اليمامةِ دَاوِني ... فإنَّك إنْ داويْتَنِي لطبيبُ

والذي يجبُ أنْ نلاحظَه: أنَّ طِبَّ العرّافين هو الطبُّ البدويُ القائم على الذَّكاء والتجربة والاختبار، وليس من الطبّ المزاجي المبني على علمٍ ودراسةٍ، فهو يخطيءُ ويصيبُ، وفيه عنصر روحي نفساني، ولذلك لا تبرأ به في الغالب إلا الأمراض النفسية، والأدواء اليسيرة.

(١) انظر: بلوغ الأرب (٣/ ٢٦٩).

(٢) بلوغ الأرب (٣/ ٢٦٩)؛ وقال الدكتور عمر فروخ في كتابه: «تاريخ الجاهلية ص١٦٢»: وكان في الجاهلية كهّانٌ على نمطِ الكهّان الذين عرفهم السّاميون (العبرانيون مثلاً)، والآريون (اليونان مثلاً). والكهانة كانت في الواقع منصباً دينياً ذا جانب سياسي وجانب تجاري. فالكاهنُ كان يدّعي أنّه رجلٌ قريبٌ من اللهِ يعرفُ الغيب، ويترجمُ عن الأصنام، وينظرُ في النجومِ، ويعرفُ ما يكتمه النّاس، وكان مقامه عادة في بيت الصَّنم، أو في بيته هو.
وكان الكاهنُ فوق ذلك طبيباً، كما كان يتقبّل النّذور باسمِ الأصنام، ويقدّمُ القرابين عن الرّاغبين. وكلّ ذلك منافع اقتصادية له، وكان من النِّساء كواهن أيضاً.

بعضُ النَّاس في عصرنا ـ ونحن في عصر الذَّرَّةِ، وعصر الاختراعات والابتكار، وعصر العُقول الالكترونية وغيرها ـ يفدونَ إلى مشعوذين ومشعوذات، يلتمسونَ عندهم ما عَسَاه أنْ يكونَ نافعاً لكشف ضرّ، أو لجلب نَفْع.

* إنَّ معرفةَ هؤلاء المشعوذين لبعضِ الأخبار الشَّخصية لمن يُراجعهم، يتمُّ عن طريقِ المصادفةِ، ممّا يجعل كثيراً من النَّاس يصدِّقُ كلامَهم، دون أنْ يُداخله شكٌّ أو ريب.

* وبعضُ المشعوذين يتمتّعُون بقدراتٍ عقلية نافذة، وحِدّة في الذّكاء، فيستطيعون كَشْفَ الأَسْتَارِ من خلال الأخبارِ من المتحدّث دون أنْ ينتَبه أو يشعر، ويحيطون أنفسهم بهالةٍ من المعرفةِ الخاصّةِ، وأنّهم يستطيعون فِعْلَ أمورٍ خارقةٍ، فيختلقُون حوادثَ عابرة، وأحاديث جذّابة، وإذ ذاك يصدِّقُها أصحابُ العقول البسيطة، وعندها يتهافتون على المشعوذين بدافع غريزة معرفةِ كلِّ غريب، وإن أكثر مَنْ يتّصل بهؤلاء المشعوذين النِّساء من مختلفِ المستويات الاجتماعية والثّقافية.

* وأكّدَ أحدُ الباحثين ـ في عصرنا ـ أنَّ كثيرات من نسوةٍ متعلمات ومثقّفات ثقافة عالية يغشَيْن منازلَ العرافات فقال: وإنني رأيتُ في عُمَان امرأةً من هؤلاء المشعوذين تتهافتُ عليها نساء وصلنَ إلى درجاتٍ سامية من العلم والثَّقافة، ومن ضمنهن زوجات لسفراء أجانب، وربما يُعَلِّلُ ذلك أنَّ النّساء يتمتعن بتفكيرٍ شفاف، وإحساسٍ بالخيال، يسيطرُ على العواطف، فيغلبُ الانفعال المتأثّر بحيثيّات الأوهامِ على حقائق الأمور، فلا يُعَلَلُ الأَمْرُ طبقاً للواقع والحقيقة، بل حسبما يرتسمُ في مجالات الظُّنون والحدوس، فالمرأةُ تتكلّمُ على الأغلب بعواطفها لا بعقلها[1].

* ويروى أنَّ الكهّان كانوا يأتون بالخوارق من الأعمال، وادّعى بعضهم

---

(١) انظر كتاب «الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي» (ص٣٨٤ و٣٨٥) د. زهدي الخواجا.

أنَّه كان يعتمدُ على الجنّ في استراقِ السَّمْع .

* وقيل: بل لهؤلاء النَّاس أرواحٌ شفافة تستطيعُ بوسائل معينة أنْ تتخلَّصَ منَ الجسدِ لتسبحَ في عالَم الأفلاك العلوية، فتأتي بالمستور من الأمورِ لكشف سرقة، أو كشف سِرٍّ مخفي .

* ومما يُروى منْ أعمالِهم الغريبةِ في هذا المجال: أنَّ هندَ بنتَ عتبة ـ رضي الله عنها ـ وهي أمّ معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ كانت في الجاهلية عند الفاكهِ بنِ المغيرة المخزومي، وكانت دارُه مثابةً يغْشَاها النَّاسُ، وأقبل رجلٌ يغشى الدَّار، وكانت هندُ نائمةً، فلمّا أبصرها رجعَ هارباً، فأبصره الفاكه، فأقبل إليها فضربَها برجله وقال:

مَنْ هذا الذي خرجَ مِنْ عندك؟!

قالت: ما رأيتُ أحداً ولا انتبهتُ حتى أَنْبَهتَني .

فقال لها: الحقي بأبيك .

* وتكلَّم النَّاس فيها، وفشَا خبرها، فخرجَ بها أبوها إلى بعض كهّانِ اليمن يستخبِرهُ عنْ أمرها، وأخرجَ معها نسوة من قومها، وأقبل معهم الفاكه بن المغيرة في رجالٍ من قومه، فلمّا شارفوا ديار الكاهن، رأى عُتْبَة من ابنته انكساراً وتغيّراً، فقال لها: يا بُنية، لا تكتميني منْ أمرِك شيئاً، فإنْ كان ما بك لريبةٍ نرجعُ ولا بأس عليك. فقالت هند ـ وكانت امرأةً عاقلةً منجبةً ذات رأي وعقْل وفصاحة وبلاغةٍ وأدب وعزّة نفس ـ: لا واللهِ يا أبت، ما ذاك لريبةٍ ولا فاحشة، ولكنّكم تقدمون على بشَر يخطىءُ ويصيبُ، وأخشى أنْ يَسِمَني بسمةٍ تبقى عليَّ وصْمةَ عارٍ إلى آخرِ الدَّهر!

قال: سأَبلُوه لك .

* ثم إنَّ عتبةَ خبَّأَ خبيئاً، وأقبلوا حتى أتوا الكاهن، فأخبرهم بخبيئتهم، ثمّ استنظروه في أمْرِ النِّسوة، فجعل يتصفَّحَهُنَّ واحدة واحدة، ثم أقبل على

هند بنتِ عتبة فقال لها: انهضي غير رسحاء[1]، ولا زانية، وتلدين ملكاً اسمُه معاويَة[2].

* وكان العربُ يعتقدونَ بصحّةِ نبوءة الكاهن، وأنَّ ما قاله لا بدّ واقع، وعلى الرغم منْ إيمانِ العرب بالكهّان، ومقدرتهم على معرفة الأمورِ الغيبية، فإنَّ بعضَهم بحكمتهم، وإمعان تفكيرهم، استطاعوا أن يكتشفوا كذب المنجمين والمنجمات، وزيف الكهّان والكاهنات؛ ومنهم لبيد بنُ ربيعة الذي يقول مكَذِّباً النّسوة اللواتي يضربنَ بالرَّمْل ويزجرن الطَّيْر:

لَعَمْرُكَ مَا تَدْري الضَّوارِبُ بالحصى وَلاَ زَاجِراتُ الطَّيرِ ما اللهَ صَانِعُ

* وقال غيرُه مُكذِّباً الكهَّان وغيرهم ممّن يتعاطونَ الزَّجر، ويؤمنون بالفأْل، وما شَابهَ ذلك:

لا يَعْلَمُ المَرءُ لَيلاً ما يُصَبِّحه إلاّ كواذب ممّا يخْبِرُ الفَالُ
والفالُ والزَّجر والكُهَّانُ كلُّهم مضلِّلون ودونَ الغيبِ أَقْفَالُ

* ولعلّنا ـ عزيزي القارىء ـ قد أطَلْنا عليكَ هذه المقدّمة قبل أنْ نتعرَّف امرأةَ هذه الصَّفحات التي تطلُّ علينا من تاريخِ نساءِ عَصْر الجاهلية، ولكنْ لنا عذْرُنا في ذلك، إذ الحديثُ ذو شجون، وفيه فائدةٌ كبيرةٌ بإذنِ الله، كيما تتوضَّحَ بعضُ الصُّور التي كانت غامضةً في بعضِ الأذهان.

* أمّا ضيفةُ حلقتنا اليوم، فهي فاطمةُ بنتُ مرّ الخثعمية[3] إحدى النِّسوة

---

(١) «الرسحاء»: القبيحة.

(٢) انظر: بلوغ الأرب (٣/ ١٣١ و١٣٢)، وأعلام النساء (٥/ ٢٤٠ و٢٤١) مع الجمع والتصرف والاختصار؛ وللقصة بقية ليست محل شاهد هنا، ومن أراد معرفتها فليرجع إلى المصادر المذكورة آنفاً.

(٣) الدرُّ المنثورُ في طبقات ربّات الخدور (ص٣٦٢ و٣٦٣)، وبلوغ الأرب (٣/ ٣٠٥ و٣٠٦)، والكاملُ في التّاريخ لابن الأثير (٢/ ٨ ـ ١٠)، ونهايةُ الأرب (١٦/ ٥٨ ـ ٦٣)، والمفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٦/ ٧٧٠) وشاعرات العرب (ص٣٠٣ و٣٠٤)، والبداية والنهاية (٢/ ٢٥٠ و٢٥١)، والطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٩٥ و٩٦)، ومجمع الأمثال للميداني (٢/ ٦٩ و٧٠) منشورات مكتبة دار=

اللواتي اشتهرن بالكهانة والعرافة في العصر الجاهلي، وهي إحدى كواهن النِّساء الشَّهيرات بين العرب في الجاهلية.

* كانت فاطمةُ بنتُ مرّ شاعرةً من شواعرِ العرب، وكاهنةً من كاهناتهم الشَّهيرات، وكانت من أجملِ النِّساء وأعفِّهنَّ، وكانت من الكواهنِ المشهودِ لَهُنَّ بالفِراسة، وقد اشتهر صيتُها في عِلْمِ الكهانة.

* ومن الجدير بالذّكْر أنَّه قد اشتهرَ في ذلك العَصْرِ كاهناتٌ أخريات في مناطقَ متفرّقة مِنَ الجزيرةِ العربيّةِ ومنهن: طريفةُ بنتُ الخير الحجورية، وكانت منْ أشهرِ كاهنات العرب، بل من أشهر كهّان عصرها، وهي التي أنذرتْ عمرو بن عامر أحد الملوك بزوالِ ملكه، وأخبرته بخراب سدِّ مارب، وإتيان سيلِ العرم، وذلك بمقتضى ما ظهر لها من الكهانة[1].

ومنهن: زَبْراء الكاهنة، حيث كانت من الكهنةِ المذكورين عند العرب، وكلامُها له وقْعٌ في نفوسهم، ولها في ذلك نوادرُ كثيرة[2].

ومنهن: سلمى الهمدانية الحِمْيَريّة، وكانت بنت سيّد همدان، وكان قومُها عن رأيها يصدرون، ويستشيرونها في جل أمورهم[3].

ومنهم عُفيراء الكاهنة، وقد ذكر رواة أخبار العرب نوادر طريفة لعفيراء الحميرية هذه[4].

صِفَاتُهَا وفِرَاسَتُهَا:

* لم تحرِمِ النِّساء الكهانةَ في العَصْرِ الجاهلي، وإنَّما كان لهنّ في هذا

= الحياة ببيروت؛ والأعلام للزركلي في عدة طبعات، ترجمة فاطمة بنت مرّ.

(١) انظر ترجمتها في: بلوغ الأرب(٣/ ٢٨٣ ـ ٢٨٨)، وأعلام النساء(٢/ ٣٦٧ و٣٦٨).

(٢) انظر ترجمتها في: أمالي القالي (١/ ١٢٦)، وبلوغ الأرب (٣/٢٨٨ ـ ٢٩١)، وأعلام النساء (٢/ ١٦ و١٧).

(٣) انظر ترجمتها في: أمالي القالي (٢/ ١٢٢ و١٢٣)، وبلوغ الأرب(٣/ ٢٩٥ و٢٩٦).

(٤) انظر أخبارها في: بلوغ الأرب (٣/ ٢٩٦ ـ ٢٩٩) وانظر أسماء هؤلاء النسوة في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٦/ ٧٧٠).

المضمار حصّةٌ ونصيبٌ، وكانت فاطمةُ ابنة مرّ الخثعميّة إحدى النّسوة اللواتي رسمَ التّاريخ جوانبَ من حياتهنَّ، وذكَرَ بأَنَّـهَنّ كُنَّ قارئاتٍ كاتباتٍ شاعرات؛ فقد ذكر أهل الأخبار أنَّها قد قرأتِ الكُتُب[1]، ودرستْ علائمَ النَّبي المنتظر الذي سيظهر قريباً.

* ففي كتابه «الطَّبقات الكبرى» ذكر ابنُ سَعْد ـ رحمه الله ـ بأنَّ فاطمةَ بنتَ مرّ الخثعمية كانت من أَجْمَلِ النَّاس وأَشَبِّهِ وأعفِّه، وكانت قد قرأتِ الكُتب، وكان شبابُ قريش يتحدثون إليها، فرأتِ النّبوةَ في وجْهِ عبد الله بن عبد المطلب[2].

* ويبدو أنَّ فاطمةَ بنتَ مر توقَّعت أنْ يكون للنّور الذي رأته بوجهِ عبد الله بن عبد المطلب شأْنٌ، فتفرَّست فيه، وتوقَّعت أنَّه سيخرجُ منه مولودٌ يكون له شَأْنٌ عظيم، فأحبَّتْ أن يكون ذلك المولودُ منها، ولذلك عرضت نفسها عليه.

* وكانَ منَ الطَّبيعي في بيئةِ قريش ومكةَ وحرمها، أنْ يستشرفَ كثيراتٌ منَ النّسوة إلى عبدِ اللهِ بن عبد المطلب كيما يكون لهنَّ، وينجبن منه، فهو أنْهد شباب الحرم، وأشبّ ما يكون فتى من فتيان مكة، وأجمل رجال قريش وأنضرهم، وهو المختارُ لذلك الحادث الخطير، والقصَّة الشَّهيرة، قصّة نذر عبد المطلب، ومُحصلّها ومُلخّصها: أنَّ عبدَ المطلب نذرَ نَحْرَ بعضِ ولده إنْ سهَّلَ اللهُ له حَفْرَ بئرِ زمزم، فلما تمَّ له ما أرادَ أَسْهمَ بينَ ولدِهِ، فخرج السَّهمُ على عبد الله والدِ رسولِ الله ﷺ، وكان أصغرَ بنيه وأحبّهم إليه، ففداه بمئةٍ من الإبل، فكان عبدُ الله هو الذَّبيح المفدّى.

* وكان ذلك الحدثُ الخطيرُ والغريبُ حديثَ قريش ومكة كلّها في محافِلها وبيوتها، إلى جانبِ ما كان يتناقله المحدثون في مجالسِ السَّمر،

---

(١) انظر: الروض الأنف (١/ ١٠٤)، وبلوغ الأرب (٣/ ٣٠٥)، وأعلام النساء (٤/ ١٤٢).

(٢) طبقات ابن سعد (١/ ٩٥ و٩٦)، وانظر: البداية والنهاية (٢/ ٢٥٠ و٢٥١).

ومحافل الملأ منْ أنباء وبشارات، تلقَّفها التّجّار والسُّمَّار والمتألّهون منْ أفواهِ الأحبار، والرُّهبان، والكهنَةِ، والكواهن، ومن قارئي كُتُب الأقدمين عن نبي يُبْعَثُ منَ العرب قد أظلَّ النَّاس زمانه؛ ومَنْ أجدر بالنّبوة من قريش، وهي منْ سُكّان الحرم وجيران البيت المعظَّم؟! ومن أحقّ بها في قريش من بني عبد المطلب وهم أصحاب مراتب الشَّرف الدّيني في الحرم؟ بل مَنْ أحرى بها بحمل نورها مِنْ هذا الفتى الذي كان الذَّبيح المفدّى؟!!!

* إنَّ النِّساءَ ـ بشكلٍ عام في كلّ زمان ومكان ـ مُولَعَات بالغرائبِ والفرائدِ؛ فليس من المستغرب أنْ تَعرِضَ امرأةٌ؛ أو أكثر نفسَها على عبد الله الذَّبيح، عقبَ فدائِهِ بمئةٍ من الإبل، ولكنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد ادّخر ما حَمَلَ عبد الله من شَرفٍ نوراني، ونورٍ قدسي، لأشْرَفِ عقائل قريش، وسيّدة نساء بني زُهْرة آمنة بنت وهب[1]، وهو الذي صانَهُ وحَفِظَه عن الاستجابة إلى مَنْ تعرض له منهن.

* ويبدو أنَّ النِّسوة اللائي عرضْنَ أنفسهن على عبد الله كُنَّ كثيرات، ولكن اشتهرَ منهن فاطمة بنت مرّة الخثعمية، التي حفظتْ ذاكرةُ التَّاريخ فراستها في عبد الله بن عبد المطلب.

* وتروي المصادرُ المتنوعةُ قصَّة فراستها هذه فتقول: أقبلَ عبدُ المطّلب، ومعه ابنه عبد الله، يريدُ أنْ يزوّجَه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب، ومرَّ في طريقهِ على فاطمةَ بنتِ مرّ الخثعمية، وهي بمكةَ، فرأتْ فاطمة نورَ النّبوة في وجْهِ عبد الله بن عبد المطلب، وتفرّست فيه، وعادتْ إلى ما كانت قد قرأته من كُتُب، وما درسته من علائم النَّبي المنتظر، وعندها تقدَّمت منْ عبد الله، وقالت له: مَنْ أنتَ يا فتى؟! قال: أنا عبدُ الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي.

* فتفرَّست فيه فاطمةُ ثانية، ودعَتْه إلى نِكاحها، وقالت له: يابنَ

---

(١) اقرأ سيرة آمنة بنت وهب في هذه الموسوعة.

عبد المطلب هل لك أنْ تَقَعَ عليَّ وأعطيك مئة منَ الإبل[1]؟!

* فأجابَها عبدُ الله بلسانِ العِفَّة والطُّهر، ووجهه[2] الجميل يقطرُ حياءً ويسيلُ بهاءً:

أَمَّا الحَرامُ فَالمَماتُ دُونَهُ ... والحِلُّ لا حِلٌّ فَأَسْتَبِيْنَهُ
فكَيفَ بالأمْرِ الذي تَبْغِيْنَهُ ... يَحمِي الكريم عِرْضَه وَدِيْنَه[3]

* كانت فاطمةُ بنتُ مرّ تستمتعُ إلى رجَزِ عبد الله بن عبد المطلب وهي مبهورةٌ به، معجبةٌ بعفَّته، وقطعَ عليها ذهولَها بقوله: يا هذه، أنا معَ أبي، ولا أقدرُ أنْ أفارقَه.

* ثم إنَّ عبدَ المطلب مضى بابنه، فزوَّجَه آمنةَ بنتَ وهب الزُّهريّة، فأقام عندها ثلاثاً، فاشتملتْ بالنَّبي ﷺ[4]، ثمَّ انصرف راجعاً، فمرَّ بفاطمةَ

---

(١) هناك بعض روايات تقول: إنَّ عدداً من النّسوة اعترضنَ عبد الله وعرضْنَ عليه العرض نفسه، وقد تكفّلتِ المصادر المتنوعة بذكر أسمائهن وبعض أحوالهن وأخبارهن.

(٢) قال الزبيرُ بن بكار ـ رحمه الله ـ يصفُ جمالَ وصباحَة عبد الله بن عبد المطلب: وكان عبدُ الله أحسنَ رجل مرئي في قريشٍ قط. (عيون الأثر ١/ ٧٥) طبعة دار ابن كثير المحققة.

(٣) انظر: السِّيرة الحلبية (١/ ٦٣)؛ في الحقيقة، في النَّفْسِ شيءٌ من هذه الرِّواية، إذ تواترَ أنَّ الحرائر قد عُرفنَ بالعفّةِ الممزوجةِ بالأنفةِ؛ بل إنَّ البيئةَ العربيةَ وخصوصاً في مكةَ لم تكنْ تَسْمَعُ بعرضٍ كهذا العرضِ من فاطمة بنت مرّ التي طلبتْ من عبد الله بن عبد المطلب ما طلبتْ، فأجابها أنّه بعيدٌ عن الحرامِ، كما في البيتَيْن السَّابقين، وإنْ كانَ بعضُ المشتغلين بالسِّيرة قد فسَّرَ عرض فاطمةَ الخثعمية لنفسها على عبد الله بأنّه عرضٌ وراءه الزَّواج بها، ولكنَّ إجابةَ عبد الله لا تلتقي مع قَصْد الزّواج منها بالحلال. وأودّ أنْ أشيرَ إلى أنَّه قد وردتْ في البيتين تعبيراتٌ ومعانٍ إسلامية، وهذا يدلُّ على أنهما مصنوعان بُعَيد عَصْر النّبوة، ولعلَّ القصّة كلّها أو جلّها من وضْع صُنّاع الكلام والأخبار، إذ كان أصحاب السِّير جميعهم يوردونها بـ «يزعمون»، ناهيك بأنّ القصَّةَ من غير سَنَد. واللهُ أعلم بحقيقة الصَّواب.

(٤) إنَّ اللهَ تعالى قد صانَ عبد الله بن عبد المطلب عن إجابةِ المرأةِ الخثعمية إلى ما أرادت، وادّخر هذا الشّرف فوضعه حيث أرادَ، قال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ: وهذه

الخثعمية، فدعته نفسُه إلى الإبل، فأتاها وقال لها: هل لك فيما كنتِ أردت؟!

* فقالت ـ ولم يَرَ فيها حرصاً ـ: قد كانَ ذلكَ مرّةً فاليوم فلا. فأرسلَتْها مثلاً يُضربُ في النّدم والإنابةِ بعد الاحترام. ثم إنّها قالت له: يا فتى، إنّي واللهِ ما أنا بصاحبةِ ريبة، ولا حاجة لي فيك، فأي شيء صَنَعْتَ بعدي؟

فقال عبدُ الله: زوّجني أبي آمنة بنت وهب الزُّهرية، فأقمتُ عندها ثلاثاً.

فقالت فاطمةُ ومرارةُ الحسرةِ تملأُ جوانحها: يا هذا! إنَّك مررتَ وبين عينيك نورٌ ساطعٌ إلى السَّماء، ورأيتُ في وجهك نورَ النّبوة، فأردتُ أنْ يكونَ ذلك فيَّ، وأبى الله تعالى إلا أنْ يجعله حيثُ أرادَ، ولما وقعتَ عليها ذهبَ ذلك النُّور، فأَخْبِرْهَا أنَّها حَمَلَتْ خَيْرَ أهْلِ الأرض[1].

تَحَسُّرُ فَاطمةَ بنتِ مرّ:

* بعد أنْ رحلَ عبدُ الله بن عبد المطلب عن فاطمةَ بنت مرّ، غبطتْ آمنة بنت وهب التي حظيتْ بأجملِ شَباب قريش، بل ظفرتْ بخيرٍ ما سبقها إليه أحد من النّساء، لذلك أنشأَتْ فاطمةُ تقول:

إنّــي رأَيْــتُ مخيلــةً لَمَعــتْ ... فتــلألأتْ بِحَنَــاتِــمِ القَطْــرِ
فَلِمَــائِهــا نُــورٌ يضــيءُ بِــه ... مــا حَــوْلَــه كــإِضــاءَةِ البَــدْرِ

= الصّيانة لعبد الله ليست له، وإنّما هي لرسول الله ﷺ، فإنّه كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

(١) انظر: طبقات ابن سعد (١/ ٩٧)، وبلوغ الأرب (٣/ ٣٠٥)، وأعلام النّساء (٤/ ١٤٢)، والخصائص الكبرى للسّيوطي (١/ ٤٠) مع الجمع والتصرّف بينها.
وذكر النويري ـ رحمه الله ـ أن فاطمة بنت مرّ قالت لعبد الله مررتَ وبين عينيك غرّة مثل غرّة الفرس، ورجعتَ وليس هي في وجهك (نهاية الأرب ١٦/ ٥٩).
وأخرج البيهقي، وأبو نُعيم عن ابن شهاب قال: كان عبدُ الله أحسن رجل رؤي قطّ، خرج يوماً على نساءِ قريش، فقالت امرأةٌ منهن: أيتكن تتزوّج بهذا الفتى، فتأخذ النور الذي بين عينيه، فإنّي أرى نوراً؟! فتزوّجته آمنةُ بنتُ وهب، فحملتْ برسولِ الله ﷺ. (الخصائص الكبرى ١/ ٤١ و٤٢).

ورأيتُ سُقْياها حَيَا بلدٍ وقَعَتْ به وعمارة القَفْرِ
ورأيتُه شَرفاً أبوءُ بِهِ ما كلّ قادح زنده يُوري
لله ما زُهريّة سَلَبَتْ منكَ الذي استلبتْ وما تَدْري[1]

وقالتْ بعد أنْ تزوَّج عبدُ الله آمنة، وغادره ذلك النُّور الذي كان بوجهه:

بني هاشمٍ قَدْ غادَرتْ منْ أَخِيْكمُ
أمينةُ إذْ للبَاهِ يَعْتَلجان
كَما غادرَ المِصْباحَ بَعْد خُبوِّه
فَتَائِلَ قَدْ مِيْثَتْ له بدِهَانِ[2]
فما كلُّ ما نالَ الفَتى منْ نصيبِه
بحزمٍ ولا ما فاتَه بتَوانِ
فأَجْمِلْ إذا طَالَبْتَ أَمْراً فإنه
سَيكفيْكَه جَدَّان يَصطرعان
سيكفِيْكَه إمّا يَدٌ مُقْفَعِلَّةٌ
وإمّا يَدٌ مَبْسوطةٌ بِبَنانِ[3]

---

(١) انظر: الدرّ المنثور (ص٣٦٣)، وأعلام النِّساء (٤/ ١٤٣)، وشاعرات العرب (ص٣٠٣ و٣٠٤) وغيرها من مصادر.
«المخيلة»: السَّحابة التي هي مظنة المطر، و«الحناتم»: سحائب سود لأن السَّواد عندهم خضرة، والحنتم: الجرّة الخضراء، وشجرة الحنظل، ومفرد حناتم: حنتمة بدون لام، وحنتمة أمّ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وهي بنت ذي الرمحين، وليست بأختِ أبي جهل، كما وهم كثيرٌ ممن كَتَبَ في السِّيرة، بل هي بنت عمّ أبي جهل. و«زهرية» منسوبة إلى زهرة حي من قريش والمقصود بها آمنة أمّ الرسول ﷺ.

(٢) «مِيثَتْ»: المرس والإذابة، والميثاء: الأرض السَّهلة، وتميَّثتِ الأرض: مُطِرَتْ فلانتْ.

(٣) «مقفعلة»: اقفعلّت يده اقفعلالاً: تشنَّجتْ وتقبَّضتْ.

ولمّـا قَضَـتْ منْـهُ أمينـةُ مـا قَضَـتْ
نَبَـا بَصـري عنْـه وكَـلَّ لِسَـانـي[1]

* وهكذا فاتَ فاطمةُ بنتُ مرّ الخثعميّة ما تمنَّتْه، فقد شاء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ تكونَ آمنةُ بنتُ وهب الزَّهرية هي المرأةُ القرشيّة التي تحظى بهذا الشَّرفِ العظيم، والخيرِ العميم، وتكون أمّ الحبيب المصطفى ﷺ و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

* ويطوي التَّاريخُ صفحةَ فاطمة بنت مرّ الخثعمية، وتُطوى معها كهانتها، وأحلامها، وحسراتها، ولا يُحدِّثنا الأخباريون عن نهايتها، أو وفاتها، أو بقية حياتها[2]، إلا أنَّ تاريخها قد احتفظَ لنا بأشعارِها وكلمتها

(١) انظر: بلوغ الأرب (٣/ ٣٠٥)، والخصائص الكبرى (١/ ٤١)، وشاعرات العرب (ص٣٠٤)، والدر المنثور (ص٣٦٣)، وأعلام النساء (٤/ ١٤٣)، وقد روى الأبيات الطَّبري في «تاريخه»، والسُّهيلي في «الرَّوض الأنف»، بروايات وكلمات متقاربة، وبينها زيادة أو نقصان فآلفنا بينها، حتى لقد وَرَدَ البيت الأخير في بعض المصادر على النَّحو التالي:
ولمـا حـوتْ منـه أمينـةُ مـا حـوتْ حـوتْ منه فخراً ما لـذلك ثـان
هذا ويُشتمُّ من هذه الأبيات رائحة الوضع، فكأنَّها قد صِيْغَتْ على لسَان فاطمة الخثعمية، لتوافقَ الحدث والأحداث والمواقف؛ ففي هذه الأبيات توضيحٌ لدوافع الرَّغبة في عبد الله بن عبد المطلب، فهو شابٌ باهرُ الطَّلعةِ، جميلُ المحيا، شبَّ عن الطوق، طويل النجاد، لا يُرى في قريش فتى أوسم منه، ولا أحلَى منه منظراً وقدّاً، بل ولا أملح منه وجهاً، ناهيك بأنَّه أرفع قريش حسباً، وأعرقهم نسباً، وأزكاهم أباً، وأكرمهم محتداً.
أمّا حديث النّور الذي رأَتْه فاطمة وغيرها من النّسوة المعترضات له، فقد يكون رواء الشباب، وإشراق الجمال، وليس بعجيب أنْ يكونَ عبد الله والد رسول الله ﷺ قد تميز بجمال فوق جمال أترابه، وحسن وحيوية لم تُوجدْ بأقرانه، وذلك لما يحمل من بذرة النّبوّة التي استنارت على وجهه حسناً وجمالاً حَسبَه الرَّاؤون غرّةً في وجهه تسطع، أو نوراً في جبينه يلمع.
(٢) قالت زينب يوسُف فواز في نهاية ترجمتها لفاطمة بنت مر هذه ما نصّه:
وبقيتْ فاطمةُ في حالِها، حتى وُلد النَّبيُّ ﷺ، وتربّى، وكبر، ونزل عليه الوحيُ، =

مثَلاً على مرورِ الأيّام والأعوام.

وعلى الرغمِ من ذلك كلّه، تبقى فاطمةُ بنتُ مرّ الخثعمية واحدةً من نساءِ التَّاريخ اللواتي أطلَّتْ على الدُّنيا بمعارفها التي وصلتْ إلينا، والتي دلَّت على مكانتها في عالَم النّساء، وفي نساءِ التَّاريخ.

* * *

= ووفدتْ عليه، وأسلمتْ على يديه، وماتتْ في مدته رحمها الله. انظر (الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ص٣٦٣).

أقول: وقد كلّفني هذا القولُ عناءً، ومشقةً، وتعباً، فقد عدتُ إلى كثيرٍ من كتب التّراجم من مثل: الطّبقات الكبرى لابن سعد، والاستيعاب لابن عبد البر، وأسدِ الغابة لابن الأثير، والإصابة لابن حجر، وغيرها من كتب السّيرة والتأريخ، فلم أجد ـ فيما قرأتُ ـ أن أحَداً ذكر بأنَّ فاطمة الخثعمية هذه قد أدركتِ النبي ﷺ، أو أنها أسلمت على يده، لذلك أحببت التّنويه إلى ذلك، والله تعالى أعلم بحقيقة الصواب، فهو العليم الخبير، وهو علام الغيوب.



٢٠

فاطمة الشُّرطيَّة

بيْـنَ أَنْفَــاسِ الذِّكْـر :

* في بيتٍ يُذكرُ فيهِ اسمُ اللهِ كثيراً، ويُسبَّحُ له فيهِ بالغدوِ والآصال، ولدتْ ضيفةُ حلقتنا اليوم، هذه المرأةُ التي عاشتْ طوال القرنِ الرابع عشر الهجري، وتوفيتْ منذ سنوات.

* وقبل أنْ ندليَ دلونا في سيرةِ هذه الفاضلة ـ التي تُعتَبر من كنوزِ المعرفة والتصوّف في عصرنا الحالي ـ لا بدَّ أنْ نلقي الأضواء على حياةِ والدها الذي يُعَدُّ شيخ الطَّريقةِ الشَّاذليّة في عصره.

* فوالدها هو الشيخُ علي نور الدِّين بن محمّد بن يشرط، الحسني أباً، الحسيني أمّاً، الشّاذلي، التّونسي، المغربي، المشهور بلقبه علي اليشرطي المولود سنة (١٢٠٨ هـ) في مدينةِ بنزرت من أعمالِ تونس الغرب.

* نشأَ منذ صغره وهو يتردَّدُ على دروسِ العُلماء والأفاضل، حتى غدا أحد الأعلامِ في الفِقْه، وأحد المبرّزينَ في علوم اللغةِ العربيةِ، واشتغلَ بالتَّدريس في علمِ الأصولِ والمنطق واللغة العربيّة في جامعِ الزّيتونة بتونس، وجامع الزّيتونة عصر ذاك كجامعِ الأزهر في القاهرةِ بمصر.

* وبعد أن بلغَ الشيخُ علي اليشرطي أشدّه واستوى، قامَ بسياحةٍ كبرى داعياً[1] إلى اللهِ، وجاورَ في المدينةِ أربعة أعوام، وحجَّ أربعَ مرّات، ثم رحلَ إلى مصرَ، ثم قصد زيارة بيتِ المقدس في فلسطين، على أملِ أنْ يعودَ إلى تونس بعد تلك السّياحة والزّيارة، ولكنَّ المقادير الإلهيّة ألقتْ به في مدينةِ عكا بفلسطين، وكان دخوله عكّا في سنة (١٢٦٦ هـ)، وكان عمره إذ ذاك (٥٨ سنة).

* وانتقل الشيخُ علي اليشرطي إلى الرّفيقِ الأعلى في ١٦ رمضان سنة

---

(١) وصفته ابنته ـ ضيفة حلقتنا ـ بقولها: كان مِطواعاً لأوامرِ الحقّ، مجتنباً لنواهيهِ، أميناً في إقامةِ شعائر الدِّين الحنيفِ، وإحياءِ سُنّة الرسولِ العظيم، عليه أفضل الصّلاة والتّسليم.

(١٣١٦ هـ) بعد أنْ عاشَ مئة وثمانية أعوام هجرية، وكانت وفاتُه في الزَّاوية الشَّاذلية في مدينة عكّا بفلسطين.

* وأمّا ابنتُه ضيفة حلقتنا اليومَ فقد شاءَ اللهُ أنْ يكون مولدها عند بلوغِ والدها تمام المئة، حيثُ كان ميلادُها في أوائلِ سنة (١٣٠٨ هـ).

* والآن فقد حانَ اللقاءُ مع هذه التي ملأتِ الدّنيا وشغلتِ النَّاس؛ إنّها فاطمةُ بنتُ عليّ اليشرطيّة الشَّاذليّة الحسنيّة الحسينيّة التّونسيّة الأصل العكّاوية المولد.

* فهل تعرفونَ هذه المرأة الصّوفية؟ وهل سمعتم بهذه التي غرَّدَتْ في سماءِ التصوّف أكثر منْ ثلاثةِ أرباع قرنٍ من الزَّمان؟!

* ولدت فاطمةُ اليشرطيّةُ في عكّا في الزّاوية الشَّاذليّة اليشرطيّة، وروتْ فاطمةُ قصَّة مراحلِ ولادتها والظّروف التي أحاطت بها آنذاك فقالت: وُلدتُ عندما كان والدي ابن مئةِ عام، وقد عمَّتِ الفرحةُ بيتَنا والزَّاوية، فلم يعشْ لوالدي أولاد كثيرون، وقد وَلَدَتْ أمّي ـ أنيسة اليشرطية ـ ثلاثة أولاد: وهم: شقيقي محمّد جلّول الذي توفي وهو طفْلٌ، وأنا، وشقيقتي السَّيِّدةُ مريم.

* ولتسميةِ فاطمة بهذا الاسم سبَبٌ طريفٌ، ترويه لنا فاطمةُ نفسها فتقول: كان والدي يحترمُ أهْلَ اللهِ، وكان في زاويتنا عابدةٌ مُعْتَقَدٌ بصلاحها، فلمّا وضعتني أمّي، ذهب والدي إلى تلكَ العابدةِ وسألها قائلاً: أريدُ منكِ اسماً مباركاً لطفلتي التي رُزقتُ بها أخيراً.

* فقالت له العابدة: وهل يوجدُ أشرفُ من اسم جدّتك سيّدتنا فاطمة الزّهراء ـ رضي الله عنها ـ ابنة رسول الله ﷺ؟! وهكذا شرفتُ بهذا الاسم الكريم[١].

مِنْ طَالِبَاتِ المَعْرِفَةِ والتَّصَوُّفِ:

* فتحتْ فاطمةُ اليشرطيّة عينها في عكّا على بيتٍ كان ملتقى أهلِ العِلْمِ

---

(١) مسيرتي في طريق الحق لفاطمة اليشرطية (ص٢٤٢).

والفكْرِ والمعرفةِ والتّصوّف والأدب، ومنذ أنْ ترعرتْ وجدتْ نفسها تعيشُ مع هؤلاءِ الأعلام من العلماءِ في حلقاتِ الدَّرسِ والمذاكرةِ، وفي مجالسِ أهلِ العِلْمِ والمعرفةِ، وراحَ أبوها يسعى لتوجيهها إلى ناحيةِ العِلْم والتّصوّف، وإلى الثّقافةِ الإسلاميّة والدِّينيّة.

* وكان الشيخُ علي اليشرطي يتكلَّمُ في مجلسهِ في جلسَاتٍ يحضرها العلماءُ والفُضلاء، وكانت ابنتُه فاطمةُ تجلسُ بين يديه معهم كيما تتلقّى العلْمَ والمعرفة، وعمرها إذ ذاك لا يتجاوزُ الرّابعة، وكانتِ الأنثى الوحيدة والطِّفلة المُعْتَنى بها مع أولئك الكبار.

* ولقد مَنَّ اللهُ على الطِّفْلَةِ فاطمةَ بذكاءٍ وفَهْمٍ، فكانت تتلقّى علومَ القُرآن الكريمِ وحفظه على يَدِ امرأةٍ من حَفَظَةِ القُرآنِ كانتْ تؤمُّ بيتَ والدها وتُدعى: «عائشة محمّد شاهين»، وكان الشّيخُ علي اليشرطي يزوِّدُ ابنته الصَّغيرةَ بشتّى ألوانِ المعارفِ التي تتناسبُ مع سِنِّها.

* واستطاعت فاطمةُ أنْ تحفظَ أجزاءً كثيرةً منَ القرآنِ الكريم وهي في سنِّ الطُّفولة، وكانت تظْهرُ عليها علامات الجدّ والنّشاطِ والاجتهادِ، ويبدو أنَّه كان لوالدها كبيرَ الأثَر في توجيهها نحو العلْم حيثُ غَدتْ تقتفي آثارَه في أقوالِها وفي أفعالها[1].

* هكذا كانت تربيةُ فاطمة اليَشْرطيّة تربيةً صوفيةً، وتهذيبها تهذيباً روحيّاً، وتعليمها تعليماً شرعيّاً، فمنذ أنْ كانت في الخامسةِ من عمرها، كانت منَ المحافظاتِ على أداءِ الصَّلوات الخمس، وتلاوةِ الأوراد والأدعيةِ بتوجيهِ منْ والدِها الشَّيخ علي نور الدِّين اليشرطي.

* وبالإضافةِ إلى تلك التّربيةِ الفريدة، كان الشَّيخ علي يعوِّدُ ابنتَه فاطمة

(١) تحدّثتْ فاطمةُ اليشرطية عن ذلك فقالت: وكان والدي يقدّمُني وأنا طفلةٌ إلى أكابرِ إخواننا العُلماء والفقهاء والعارفين باللهِ، ليجعلَ بينهم وبيني مودّة ورحمة وأخوّة في جانبِ الله، وليغرس في قلوبهم المحبّة والعطف والاحترام لي!!
(مسيرتي في طريق الحق ص٢٤٦).

منذ نعومةِ أظفارها على مكارم الأخلاقِ وفعل الخيرات، والعمل الصَّالح، والشّكر لله بالبذلِ والعطاء والتّضحية، فكانت تنفقُ على الأطفالِ وتعطيهم بعض الأشياء التي تُدْخِلُ السّرور إلى نفوسهم، وأبوها مسرورٌ بتصرفاتها، وكثيراً ما كانت تُعطي أترابها ـ من بيتِ والدها ـ الطَّعام والخبزَ بتشجيع منه، وذلك ليغرسَ في قلبها حبَّ الخير، ومساعدةَ المحتاجين، فإنَّ فعلَ الخيرات كَنْزٌ عظيم، وفَضْلٌ جسيم.

حَيَاتُهَا بَعْدَ وَالِدِهَا:

* عاشت فاطمةُ اليشرطية ثمانيةَ أعوامٍ كوامل في كنفِ أبيها الشّيخ علي اليشرطي، تتلقّى عنه المعرفة والعِلْم، وتقتبسُ كثيراً من أخلاقه.

* وعندما بلغَ الشيخُ علي اليشرطي مئة وثمانية أعوام، كان يؤدّي الفرائضَ جميعها، ويقومُ شطْراً منَ الليلِ، ثمَّ يأوي إلى فراشه يذكر الله، وظلَّ هذا شأْنُه إلى أنْ كان يوم الأربعاءِ في السَّادس عشر من شهر رمضان من سنة (١٣١٦ هـ)[1]، حيثُ أدّى الشَّيخ علي واجباتِه وفروضَه، ثم أوى إلى فراشِهِ، وفي تلك الليلة صَعِدتْ روحُه إلى بارئها قُبيل الفجر.

* ولما تنفَّسَ صبحُ ذلك اليوم، استفاقتْ مدينةُ عكا على نبأ وفاةِ الشّيخ علي اليشرطي، فغدا النّاس يأتونَ منزلَه زرافاتٍ ووحداناً وهم يبكون، بينما راحتِ الطِّفْلةُ فاطمةُ تبكي والدها، وهي لا تملكُ إلا الدُّموع.

* وشُيِّعَ جثمانُ الشّيخ علي في موكبٍ حافلٍ بأكابرِ العلماء والعارفين من عكا، ومنَ البلادِ المجاورة، ودُفنَ في عكا في مكانٍ معروف، أمّا فاطمة ابنة الشّيخ علي، فقد شعرت بالفراغِ الكبير الذي يُسَوِّر دارَ أبيها الرّاحل، وأحسَّتْ بأنَّها قد فَقَدتِ العطفَ الأبوي والرّحمةَ والحنانَ، وظلت هي وشقيقتُها مريم ـ التي تصغرها بسنتَيْن ـ يتيمتَيْن بلا حولٍ ولا قوة، إلا أنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ قد هيّأَ لهما حنَان والدتها التي عطفتْ عليهما عطفاً شديداً صاحَبَهُما طيلةَ حياتهما.

---

(١) رحلةٌ إلى الحق لفاطمة اليشرطية (ص٣٢١).

* وعلى الرغمِ منْ أنَّ عُمْرَ فاطمة اليشرطيّة لم يتجاوزْ ثمانيةَ أعوامٍ عندما انتقل والدها إلى جوارِ ربّه؛ إلا أنَّها قد تأثّرتْ بتوجيهاته التي حدَّدت مسلكَ حياتها، ممّا جعلها تستسلم للعزيزِ الحميدِ استسلامَ المؤمنين الحامدين.

وتروي فاطمةُ نفسها قصَّة فيها بعض الغَرابة والطَّرافةِ عمّا اعتراها بُعَيْدَ وفاةِ والدها فتقول: أذْكُرُ أنَّني في اليوم الثالثِ لوفاةِ والدي، أُصِبْتُ بمرضٍ ألزمني الفراش، وذلك من شدّة الحزن والألَم، فأمسكتُ بالقرآن الكريم، وأخذتُ أقرأُ سورةَ الكهف، فمررتُ بالآيةِ الكريمةِ التي تقولُ: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الكهف: ٨٢]، فشعرتُ بهذهِ الآيةِ الكريمة تبعثُ السّكينة في نفسي، والرّاحة إلى عقلي، والطّمأنينة إلى قلبي الجريح، وقد تحقّقْتُ عندئذ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لن يتركَني، وأنَّ رعايةَ والدي لي منذ أنْ وُجِدْتُ في هذا العالَم لهي الدّليلُ السَّاطعُ على أنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ آخذٌ بيدي، وسوف يسدِّدُ خطاي، وينيرُ قلبي، في دِيني ودنياي[1].

أثَـرُ وَالدتِهَـا في حَياتِهَـا العِلْمِيّـة:

* لم تستسلمْ فاطمةُ اليشرطية للظُّروف التي مرَّتْ بها، ولم تركنْ إلى الفراغ، وإنّما دامتْ صِلَتها بأهلِ العِلْم الذين ظلّوا على صِلَةٍ ببيتِ والدها، والسّؤال عن حالها، ويبدو أنَّ والدةَ فاطمة كانت على قَدْرٍ كبيرٍ من المعرفة، فقد كانت تدفعُ ابنتيها فاطمة ومريم إلى تنميةِ روحِ العلم والتّصوّف في شخصيتهما.

* ومما ساعدَ فاطمة على المُضي في تحقيقِ رغبةِ والدتها، والوصولِ إلى سدّةِ المعرفةِ والعِلْم والتّصوّف، أنّه كان في بيتِ والدها مكتبةٌ كبيرةٌ تحتوي نفائس الكُتُب القَيّمة من مطبوعٍ ومخطوط؛ فراحتْ فاطمةُ تقرأُ بشغَفٍ شديدٍ تلك الكتب؛ كيما تحصل على ما فاتَها من العِلْم الذي فَقَدتْه بموتِ أبيها.

---

(١) مسيرتي في طريق الحقِ (ص٢٦٢).

* ويبدو منْ أخبارِ فاطمة اليشرطيّة أنَّ المرضَ[1] قد صاحَبَها طيلةَ فترةِ طفولتها، فكانت والدتُها تَسْهَرُ على تمريضها الليالي العديدة، وكثيراً ما كانت تعالجُها وتسعفُها في ساعاتٍ متأخرةٍ من الليل.

* ولما بلغتْ فاطمةُ سِنَّ الشَّباب تماثلتْ إلى الشِّفاء، وأخذتْ تستعيدُ قواها الجسدية، وكانت قد قرأتْ كثيراً من كتُب التَّفسير، والحديثِ الشَّريف، والتَّاريخ، والأَدب، والشّعر، وبعض الكُتُب المترجمةِ إلى اللغة العربية من صُنوف المعارفِ الأجنبية المختلفة، ثمّ تعمَّقت بقراءة الفقه الشّافعي، بعد أن تعلّمت أصولَ النَّحو والصَّرف على يدي أحد الفضلاء في عكا.

رحلاتُهَـا ومَعَارِفُهَـا:

* عندما أخذتْ فاطمةُ اليشرطيّة تستعيدُ قواها، وتستردُّ صحتها، وعندما أخذتِ الأمراضُ تفارقُهَا بعد زيارةٍ طويلة، هنالك اشتدَّ عودُها، وبدأتْ تعدُّ برنامجاً جديداً لحياتِها في أحضانِ الصّحة والعَافية، فقد أشارَ عليها الأطبّاء والمتخصّصون أنْ تنتقلَ في البلدانِ المختلفة، والبعد عن صَخَبِ المدينة؛ وذلك لكي تحافظَ على صحتها، وتبعدَ عنها شبحَ المرض الذي لازمَها مدّة طويلة.

* ووجدت فاطمةُ في نفسها استعداداً لما يقوله الأطبّاء، واطمأنَ قلبُها إلى ذلك، فلا شكَّ بأنَّ في هذه الرّحلات فوائد عظيمة، ومنها ازديادُ المعرفةِ والعلم، لذلك أعدَّتِ العدة، وأخذتْ تقومُ برحلاتٍ متعدّدة في فصْلَي الرّبيع والصّيف، وتقصدُ جبالَ فلسطين ولبنانَ ودمشقَ وغيرها، وأينما حلَّتْ كانت تُـقَابَلُ بالتَّرحابِ من أصدقاءِ والدها الذين انتشروا في البلادِ المجاورة.

* تحكي فاطمةُ أنَّها كانت في شهورِ الرَّبيع تذهبُ كثيراً إلى مدينةِ يافا في فلسطين، أو تذهبُ إلى صيدا في لبنان لوجود صديقاتٍ عزيزاتٍ عليها.

---

(١) كانت فاطمة اليشرطية مصابة بمرض الربو لمدة عشر أعوام كوامل في بداية حياتها.

وكانت تتمتَّعُ في صيدا نَظَراً لطقْسِها الجميلِ في أيّام الرّبيع، وطبيعتها الخلابة السَّاحرة الآسِرة، ولانتشارِ عبيرِ زَهْر شجرها الذَي يعبقُ في الفضاءِ الرَّحب مع النَّسيم اللطيف الذي يداعبُ الأحاسيس، وكلّ ذلك يبعثُ الرَّاحةَ والبهجةَ في النّفوس.

* وتصفُ فاطمةُ اليشرطية رحلاتها وقتذاك، وتذكرُ وسائلَ النَّقْلِ وحالةَ المسافرين فتقول: أذكرُ أنَّنا حينما كُنَّا نسافرُ من عكّا إلى صيدا أو بيروت أو مصايف جَبَلِ لبنان ـ حتى دمشقَ وباقي المدن السّورية ـ لم نكنْ نحملُ جوازات سَفَرٍ، ولم تكن تُوجد في الطُّرق مراكز جمركٍ أو أية قيود أخرى، فالبلادُ كلُّها كانت بلاداً واحدةً، على أنَّ المسافرَ لم يكن يجدُ السَّفَر سَهْلاً ميسوراً ـ كما هو في العصر الحالي ـ فقد كنا نركبُ الباخرَة التي كانت تشقُّ عبابَ البحرِ لمدة يوم كاملٍ من حَيْفا إلى بيروت، وكذلك كان سفرنا في القطارِ من حيفا إلى دمشقَ يستغرقُ يوماً كاملاً، وكنّا نذهبُ في العربة التي تجرّها الجيادُ من بيروتَ إلى صيدا في سبعِ ساعاتٍ كاملة، كما كُنّا في بعضِ الأحيان نصعدُ من بيروت إلى مصيف «عاليه» في عربةٍ تجرّها الجياد، وأيضاً لمدّة أربعِ ساعاتٍ كاملة[1].

* وتصفُ فاطمةُ أيضاً ما كانت تلاقيه من تَرْحابٍ في البلادِ التي تزورها فتقول: وقد كانت لي في بيروتَ وصيدا وطرابلس، وبعضِ قُرى جَبَلِ لبنانِ والبقاع عائلاتٌ كثيرةٌ من مريدي والدي الشّيخ علي اليشرطي، ولهذا كُنّا نقضي أشْهُرَ الصَّيفِ في لبنان، يغمرنا الأُنْس والصَّفاء بوجود هؤلاء المريدين المخلصين، دون أنْ نشعرَ بالوحدةِ أو الوحشة، لأنّنا كُنَّا نعيشُ هناك كما لو كُنّا في الزَّاوية في مدينة عكا، فقد كان هؤلاء المريدون يستقبلوننا في بيوتهم بكلّ ترحيبٍ وفرح!![2]

* ومنَ الواضحِ أنَّ فاطمةَ اليشرطية كانت تزيدُ من رصيدها في عَالَم

---

(١) مسيرتي في طريق الحق (ص٢٧٦ و٢٧٧).
(٢) المصدر السابق.

الصَّدَاقاتِ، وتضيفُ إلى معارفها بعضَ الشَّخصياتِ المشهورة في العِلْم والأدبِ والطِّبِّ وغيرِ ذلك من خلال رحلاتها العديدة المتنوِّعة.

فاطِمَـةُ فـي دِمَشْـقَ:

* خلال الحربِ العالميّة الأولى اضطربت الأوضاع فقدمتْ فاطمةُ في صحبةِ والدتها وشقيقتها مريم دمشقَ، ونزلوا على الشّيخ محمود أبي الشَّامات؛ ثمَّ بعد مدّة استأجَرَ لَهُنَّ بيتاً في شارع «السَّنْجقدار» وسْطَ دمشق، وكان البيتُ من أجملِ دُور دمشقَ، يملكه أحد أعيانها منْ عائلة «اليُوسف»، ثمَّ انتقلت فاطمةُ ومَنْ معها إلى بيتٍ آخر في طريق الصَّالحيّة.

* وقد أنصفتْ فاطمةُ اليشرطية أهلَ دمشق إذ قالت عنهم: إنَّ أهلَ دمشق على جانبٍ عظيمٍ منَ اللطف والإيناسِ والعاداتِ العربيّةِ الأصيلة، والغريبُ يعيشُ بينهم على الرَّحْبِ والسَّعة والإكرام، وكأنَّه واحدٌ منهم، لا يشعر أنّه بعيدٌ عن أهلِه وعشيرته، في أثناءِ إقامته بينهم في دمشقَ، فهم وأهل مدينة عكا سواء في محبّة الغرباء.

* وفي دمشقَ وجدتْ فاطمةُ اليشرطية في صديقاتها الدمشقيات ذلك الودّ والإخلاص الذي يفوقُ حدَّ الوصفِ، إذ كُنَّ بمنزلةِ أخواتٍ لها، فكُنَّ يبادلنَها الأحاديثَ والمعارفَ والعلومَ والمتنوّعة، وكانت هي تحدثهنَّ عن موطنها عكا، وعن كراماتِ والدها الشَّيخ علي اليشرطي!!!!

رحْلَتُهـا إلـى مِصْـرَ:

* بعد انتهاء الحربِ العالمية الأولى بويلاتها ومآسيها، وبعد أن اطمأنَّ النّاسُ إلى عودةِ الحياةِ الطبيعيّة إلى المنطقةِ، رجعت فاطمةُ وأمّها وأختها ومَنْ معهنّ إلى مدينة عكا، ثمَّ كانت فاطمة تذهبُ بين حينٍ وآخر إلى دمشق أو لبنان بقصدِ الزّيارة أو النّزهة، ثمّ تعودُ إلى عكا، وكثيراً ما كانت تسافرُ إلى مصرَ، وتقيمُ في القاهرة في فَصْل الشّتاء، وهناك في القاهرة استفادتْ في مجالِ الدِّين والفقْهِ والعِلْم والأدبِ والمعرفة، وكانت رحلتُها الأولى إلى القاهرة بعد انتهاءِ الحرب العالمية الأولى بسنتَيْن أي عام (١٩٢٠ م)،

وسافرتْ من فلسطين إلى مصرَ بالقطارِ.

* وفي القاهرة كانت تجتمعُ مع رجالاتِ العلْمِ والفقْه والأدب، وكانت هوايتها المفضّلة هنالك المطالعة والبحث في الكتُبِ القديمة، والحديثة، وكُتُب المعارفِ المتنوّعة المترجمة من شتّى اللغاتِ، ثمّ توسَّعَتْ آفاقُها في مطالعةِ المجلات العلميّة، والأدبيّة التي كانت نشطةً عَصْرَ ذاك.

* وتشيرُ فاطمةُ اليشرطية إلى أنواعِ صديقاتها اللواتي كُنّ في القاهرةِ فتقول: ومعظم صديقاتي أديبات، وكاتبَات، ومنهن الشّاعرات، وزعيمات النَّهضة النّسائية منَ الرّائدات الأول؛ فقد بدأتْ نهضةُ المرأةِ في جميع الأقطارِ في مختلف النّواحي الاجتماعية، وتألّفتِ الجمعياتُ والاتحاداتُ النّسائية في العديدِ من البلدان العربيّة، وكانتِ المرأةُ يومذاك تكتبُ من وراء حجاب، وتخطبُ وهي ساترةٌ وجهَها[1].

* هذا؛ وقد قُدِّرَ لفاطمة اليشرطية خلال قضاء رحلاتها في فَصْل الشّتاء في القاهرة، أنْ تستفيدَ كثيراً من تلك المحاضراتِ والمناظراتِ التي كان يتكلّم فيها أعلامٌ معروفون بشتّى ألوانِ المعرفة من أدباءِ وعلماءَ وشعراءَ ورجالِ سياسةٍ، وكانت تحرصُ أشدَّ الحرص على ألا يفوتها شيءٌ من تلكم المجالس النّفيسة، أو مما يُنْشَر في صحفٍ ومجلاتِ ذلك العصر.

تَـنْمِيَــةُ ثَقَـافَتِهـــا:

* في سنةِ (١٩٣٥ م) انتقلت فاطمةُ مع والدتها وأختها إلى بيروتَ لتكون تحت إشرافِ الأطبّاء، حيث أُصيبَتْ ببعضِ الأمراضِ التي أوهنتْ جسمها، واستأجرت بيتاً في بيروت لتلقّي العلاج، وخلال وجودها هنالك، راحتْ تنهلُ من المعارفِ، وتبحرُ في مطالعةِ الكُتُب في شتّى العلوم، فقد كانت تشتري الكتبَ التي تتوالى طباعتها وتقرأها وتستفيد من تعدّدِ الآراء والأفكار في كلّ المواضيع، كما أنَّ وجودها في تلك الحقبةِ ببيروت ساعدها في معرفةِ عديدٍ من العلماء والمفكّرين والأدباء، وذلك في النَّدواتِ

(١) المصدر السابق.

والمحاضراتِ أو الزِّياراتِ، وقد استفادتْ في تلك الفترة، وتوسّع أفقُها في النّواحي الفكريّة، وخصوصاً الصّوفيّة منها.

* ولما كانتِ الحربُ العالميةُ الثّانية، انتقلتْ فاطمةُ ووالدتها وأختها إلى دمشقَ، ثمّ كانت إقامتهن في بيروتَ، وعكّا، ودمشقَ حسب ما تسمحُ به ظروفُ المواصلات يومذاك؛ وكانتِ الإيامُ والأعوامُ تمرُّ وهنَّ يتنقلْنَ بين هذه المدن على أملِ العودة إلى عكّا.

* وعلى الرّغم من تلك الظُّروف والاضطرابات فإنَّ فاطمةَ لم تكن بمنأى عن العِلْم والمعرفةِ، بل راحت تؤلِّفُ وتصنِّفُ وتجمعُ المعلومات، ووضعت بذورَ أفكارها في كتاب اسمه «رحلة إلى الحقّ» الذي هو عبارة عن مقدمةٍ في علم التّصوّف، وبيان لمقام والدها، وأثره في التّصوف، وفي الطّريقة الشّاذلية[1].

* وبعد انتهاءِ الحرب العالميّة الثّانية، عاشت فاطمة في بيروتَ لأنّها اعتادت على الحياة بها، لكنّها ظلت تتردَّد على مدينةِ عكا مرّة أو مرّتين في

(١) ترجم الزّركلي ـ رحمه الله ـ لليشرطي فقال ما نصّه: اليشرطي (١٢١١ ـ ١٣١٦ هـ) (١٧٩٦ ـ ١٨٩٩ م)؛ عليّ بنُ أحمد المغربي اليشْرطي الشّاذلي، شيخُ الطّريقةِ المعروفةِ باليشرطيةِ، من طريق الشّاذلية، وُلد في بنزرت، وتفقّه، وحجَّ مرّات، وتصوّفَ، واستقرَّ في عكّا بفلسطين، وترشيحا من قرى عكا سنة (١٢٦٦ هـ). وانتشرتْ طريقتُه في بعض البلاد الشّامية، فخافتِ الحكومةُ العثمانيةُ الفتنة، فنفاهُ أحد ولاتها إلى جزيرةِ قبرص، فأقام ومَنْ معه ثلاث سنين، وسعى الأميرُ عبد القادر الجزائري للإفراج عنه، فعاد إلى عكا، وقد أُخِذَتْ عليه المواثيق بأنْ يترك ما كان عليه.
ولم يلبثْ أن تجدَّدتْ حركتُه، وظهر من بعض أتباعه «أمور مذمومة واعتقادات مشؤومة» كما يقول مؤرخوه، فنفتهم الحكومة إلى فزّان، واكتفت بترك اليشرطي شِبْه سجين في منزلِ الأمير عبد القادر إجابة لرجائه، ثم أعيدت جماعته من فزّان، وأعيدت إليه حريته، فرجعوا في طريقتهم، واستمروا على ذلك إلى أن توفي. واليشرطي: نسبة إلى قبيلة من قبائل المغرب تقول إنها حسنية الأصل. (الأعلام ٥/ ٦٦).

السَّنَةِ، واستمرّت على تلك الحال، إلى أن كانتِ النكبةُ في عام (١٩٤٨ م).

* ولقد أتاح لفاطمة استمرارُ الإقامة في بيروتَ أن تستمرَّ في متابعةِ النّشاط الفكري، على الرّغم من سوءِ حالتها الصِّحيّة، فكانت على اطلاعٍ دائمٍ على معظم المجلات التي كانت تصدرُ هناك، أو تصلُ بيروتَ في ذلكَ العصرِ. وكذلك لم تكنْ تتركُ كتاباً في الثّقافةِ الإسلاميةِ أو الفلسفيّة أو الأدبيّة أو العِلْميّة إلا قرأته، مما زاد في صَقْل موهبتها، وعزَّزَ ثقافتها برافدٍ ثَرٍّ منَ المعارف المتنوِّعة.

أَحْـدَاثٌ ومُؤَثِّـراتٌ في حَيَـاتِهَـا:

* لا بدَّ لنا ونحنُ نترجمُ لامرأةٍ عاشت في عَصْرنا أنْ نتعرَّضَ لبعض المؤثّرات في حياتها مع أسرتها، فلعلَّ ذلك يزيدُنا في فَهْمِ وتوضيح هذه الشّخصية النَّسوية الفريدة في القرن العشرين.

* كان لفاطمة أخٌ يُدعى إبراهيم اليشرطيّ، وكان يكبرها بعشرات السّنين من أمٍّ غير أمّها؛ وكان إبراهيمُ وحيداً لأبيه الشّيخ علي اليشرطيّ، فقد تركه أبوه في مدينة بنزرتْ بتونسَ - وهو طفلٌ صغير - قَبْلَ رحلتهِ إلى ديار المشرق.

* ولما أيفعَ إبراهيمُ هذا، أحبَّ رؤيةَ أبيهِ عندما علمَ أنَّه موجودٌ في مدينةِ عكّا، فقدم عكّا منْ تونسَ، والتقى أباه الشَّيخَ علي نور الدين اليشرطي، وانخرطَ في صفوفِ طلاّب العِلْمِ في حلقةِ أبيه، وكان متفتّحاً، على الرّغم من أنّه كان أُمّياً[١] متقدماً في السِّن.

* كان إبراهيمُ أخاً رؤوفاً عطوفاً على أخته فاطمةَ، فقد مَنَحها من حُبّهِ وأفاضَ عليها من حنانهِ، ما عوّضَها كثيراً مما فقدته من عطْفِ والدها الذي انتقلَ إلى جوارِ ربّه، وهي ما تزال طرية العُود في عمر الزَّهْر.

---

(١) لاحظ التَّفتُّح والتقدم مع الأمية!!

* هذا؛ وقد تولى إبراهيم اليشرطي دفَّةَ الطَّريقةِ الشَّاذلية[1] بعد وفاةِ أبيه في (١٦) رمضان سنة (١٣١٦ هـ)، وكان عمره إذ ذاك قد أشرف على الخامسة والسّتين أو كاد، وقد استمرَّ في موقع المشيخة مدة ثلاثين عاماً هجرية إلا بضعة أيّام، إلى أن التحقَ بالرّفيقِ الأعلى في اليومِ الأوّل من رمضان سنة (١٣٤٦ هـ).

* وتركت وفاةُ الشَّيخ إبراهيم اليشرطي أثراً غائراً في نفسِ أختهِ فاطمة التي استمدَّتْ من عطْفِهِ قرابةَ ثلاثين سنة بعد وفاة أبيهما، وكان يتصف بالفضل والورع والعبادة والذكر والانقطاع في العبادة إلى آخر نَفَسٍ من حياته.

---

(١) الطّريقةُ الشّاذليةُ نسبةٌ إلى الشّاذلي، وهو أبو الحسن عليّ بنُ عبد الله بن عبد الحميد المغربي الزّاهد، شيخ الطّائفة الشّاذلية، سكنَ الإسكندرية، وصَحِبَهُ بها جماعة، وله في التّصوف مُشْكِلةٌ تُوهِم، ويُتكلَّفُ له في الاعتذار عنها، وعنه أخذَ الشيخ أبو العبّاس المرسي. وقال المناوي: إنّه من ذرية محمد بن الحسن.
والشّاذلي نسَبة إلى شاذلة قرية بإفريقية، نشأ ببلدِهِ، فاشتغلَ بالعلومِ الشّرعية حتى أتقنها، وصار يناظرُ عليها مع كونه ضريراً، ثم سلكَ منهاج التّصوف، وجدَّ واجتهد حتى ظهر صلاحه وخيره، وطار في فضاءِ الفضائل طيره، وحُمِدَ في طريق القومِ سِرَاهُ وسيرُه. نظمَ فرقَّقَ ولطَّفَ، وتكلَّم على الناس فقرّط الأسماعَ وشنَّف، وطافَ وجالَ، ولقي الرجال، وقدم إلى إسكندرية من المغرب، وصار يلازم ثغْرها من الفجر إلى المغرب، وينتفُع الناس بحديثه الحسن وكلامه المطرب، وتحول إلى الديّار المصرية، وأظهر فيها طريقتَه المرضية، ونشرَ سيرته السّريةَ، وله أحزابٌ محفوظة، وأحوالٌ بعين العناية ملحوظة.
وحجَّ الشاذلي مراراً، واختلفتِ الآراءُ حوله، بعضهم عَدَّهُ من العارفين، وآخرون عدّوه من الزّنادقة. ومن كلامه: كل علْم تسبقُ إليك فيه الخواطر، وتميلُ النفس، وتلتذُّ به، فارمِ به وخذْ بالكتاب والسّنة. ومن مبالغاته في كلامه قوله: لولا لجامُ الشريعة على لَساني لأخبرتكم بما يحدثُ في غدٍ وما بعده إلى يوم القيامة!! وأخبار كثيرة مشهورة. مات وهو قاصد الحج في أواخر ذي القعدة سنة (٦٥٦ هـ).
(شذرات الذهب ٧/ ٤٨١ ـ ٤٨٣) طبعة دار ابن كثير المحققة، بتصرف واختصار.

* أما الأثرُ الثَّاني في حياةِ فاطمة فهو وفاة والدتها السَّيّدة «رتيبة تُوسيز»، التي نَشَأَت في عكّا في جوٍّ مفعم بالتُّقى والصَّلاح والعبادة والزّهد، بالإضافةِ إلى تلقيها كثيراً منَ المعارفِ عن زوجها الشّيخ علي اليشرطي، وكانت والدتُها السّيّدة رتيبة مَثَلاً رفيعاً في التَّضحية والنُّبلِ، وقد عاشت قرابةَ نصف قرنٍ بعد وفاةِ زوجها.

* توفيت السَّيدةُ رتيبة في أواسطِ سنة (١٣٧٥ هـ)، وقد فقدتْ فاطمةُ بوفاتها ركناً مهمّاً مِنْ أركانِ أسرتها، وشعرتْ بأنّها فقدت أعظم شيءٍ في الوجود، حيثُ لازمتْ والدتها معظمَ أطوارِ حياتها.

* والأثرُ الثّالثُ الذي مَرَّ في حياةِ فاطمة هو وفاةُ أختها «مريم اليشرطية» التي عاشت (٨٥) سنة، وتوفيتْ في أواسطِ سنة (١٣٩٥ هـ)؛ ومريم هذه كانت تجمعُ بين العَقْلِ الراجح، والفكْرِ الثّاقب، والبصيرة النّافذة، والنَّفْس الهادئةِ، وكانت شديدةَ الكرمِ سخيَّةً، تفيضُ بالعطفِ على مَنْ حولها، ولها مواقفُ في البِرِّ مشهورة؛ وكانت خاتمةُ حياتها مباركةً، فقبل وفاتِها بلحظات نطقت بالشَّهادتَيْن وأسلمتْ روحها، وبموتِ مريم فقدتْ فاطمة آخر رفيقاتِ حياتها، وبذلك تفجَّرتْ عواطفُ شتى في نفسِ فاطمة.

* تحدثتْ فاطمةُ عن وفاةِ أختِها مريم فقالت: ولشدَّةِ تأثّري على وفاةِ شقيقتي، تفاعلتِ العواطفُ في نفسي، ورأيتُني أكتبُ الأبياتَ الآتية مع أنّني لم أنظم الشّعر في السَّابق، ولم أتعلم العَرُوضَ، قلتُ:

صِـــدِّيقـــةٌ أثنـــى عَلَيْهـــا ربُّهـــا ... فـــي مُحْكَـــمِ التَّـنـزيـلِ والآيَـاتِ
عاشَتْ وماتَتْ مَريمُ مَعْصُومَةً ... ولكَمْ لَها في الكَونِ من حَسَناتِ
هـيَ مـنْ مظَـاهـرِ رحْمَـةِ اللهِ التي ... نَهَجَـتْ مـآثـرُهَـا إلـى الخيـراتِ
هي صورةٌ في الخَلْقِ والخُلُق الذي ... قـد شَـابَهَـتْ فيـه أَبَـاهَـا الـذَّاتـي
هـي مـنْ جمـالِ اللهِ فـي ملكُـوتـه ... كالشَّمْسِ أو كالبدر في الظُّلماتِ[1]

---

(١) مسيرتي في طريق الحق (ص٢٣١).

* ومن الجدير بالذّكْر أنَّ الشّاعر الكبير «عمر أبو ريشة»[1] ـ وهو سبْط[2] الشَّيخ إبراهيم اليشرطيّ ـ قد رثى مريم اليشرطية، وأرّخ وفاتها فقال:

دُنْيـــاكِ بـــذكْــرِكِ لا يَفْنـــى ... مــا فــي أَيْـديهـا مِـنْ خَيْـراتْ
عَـــرَفَتْـــكِ علـــى مَـــرِّ الأيّـــا ... مِ أجـــلَّ عَـــذَاراهـــا الخَفِـــراتْ
أَقبَلْـــتِ ومِئْـــزَرك القُـــدسـ ... ـيُّ يعطِّـرُ فــي فَمِهــا البَسَمــاتْ

(١) عمرُ أبو ريشة شاعرٌ من كبار شعراء العَصْر الحالي، ولد في «منبج» إحدى مدن سورية سنة (١٣٢٨ هـ) التي توافق (١٩١٠ م) ومنبج هي مدينةُ البحتري، وأبي فراس الحَمْداني؛ كان مولدُ عمر في أسرةٍ لها في عَهْد العثمانيين شأن، فقد شغلَ أبوه بضعَ وظائفَ في سورية حتى وصل إلى منصب «قائمقام» منبج، وانتقل عمرُ إلى مدينة حلبَ فتعلّمَ في مدارسها الابتدائية ثم انتقلَ بعد ذلك إلى الجامعةِ الأمريكيةِ في بيروت لإتمامِ دراسته الثّانوية، وأرسله والده سنة (١٣٤٩ هـ) إلى انكلترا كي يدرسَ صناعةَ النّسيج، ولكن نسْجَ الشّعر كانَ الأغلبَ في نفسيته الشّاعرية التي نسجتْ أجملَ ألوان الشّعر ومعانيه في عصرنا الحالي.
وفي انكلترا ازدادَ عمر تمسّكاً بإسلامهِ، وراحَ يخطبُ في جامع لندن بالمسلمين ويدبّجُ المقالات الإسلامية في الصّحف الإنكليزية، ثمّ ذهبَ إلى باريس ليعيشَ أجواء الأدب الفرنسي، ولكنّه سرعان ما عادَ إلى حلبَ في سنة (١٣٥١ هـ) التي توافق (١٩٣٢ م) ليشترك في الحركة الوطنية في سورية أيام الاحتلال الفرنسي.
وقد تولّى عمر عدّة مناصبَ سياسية في سورية وخارجها، فكان سفيراً لسورية في عددٍ من الدُّول من مثل: إسبانيا، والبرازيل، والهند، وقد أفادت شاعريته من رحلاته وسفراته الكثيرة، وله ديوان شعرٍ جميل، وكان شديد الإعجاب بشعر البحتري وأبي تمام من القدماء، وبشعر شوقي من المحدثين، ناهيك ببعض شعراء وأدباء الغرب من مثل: شكسبير، وشيل، وكيتس، وبودلير، وبو، وكان شديدَ الإعجاب بالأخيرين: بودلير، وبو. هذا وشعر عمر يجمع التراث والقدم والمعاصرة والمشاركة في أحداث وطنه العربي. وقضى عمر بقية حياته في السّعودية حيث وافاه الأجل في عاصمتها مدينة الرياض في (٢٢) ذي الحجة عام (١٤١٠ هـ) بعد معاناة من المرض، ثم نقل ودُفن في مسقط رأسه ـ رحمه الله ـ.
(٢) «السِّبْطُ»: خاصة الأولاد، وقيل: أولاد الأولاد؛ وقيل: أولاد البنات، وهو المتعارف عليه. (لسان العرب والقاموس المحيط).

وأبـــوك علـــيٌّ نـــور الـــدِّيْـ ـــنِ يبـدِّدُ فـي الـدَّرْبِ الظُّلُمـات
ودُعيْـــتِ وتـــاريخُـــك لبَّـــى يـــا مـــريـــم مَثْـواكِ الجَنَّـــاتْ[1]

* كما رثى مريم اليشرطية عددٌ منَ الأفاضلِ والأماثلِ، ومنهم الشّاعر الكبير: عبد الكريم الكرمي أبو سلمى.

مُـؤَلّفَاتُهَـا وآثَارُهَـا العِلْميّـةِ والصُّوفيّـةِ:

* إذا أردنا أنْ ندركَ مكانةَ فاطمة اليشرطيّة في عالَم المعرفةِ ودنيا العلْم، فما علينا إلا أنْ نشيرَ إلى مكانتها في عالَم التّأليف والتَّصنيف والإعداد.

* إنَّ نظرةً فاحصةً إلى كُتُبِ فاطمة تدلُّ على كونها كَنْزاً من كنوز العلْمِ في التّصوُّف والمعرفةِ في عالم نساء القرن العشرين.

* لقد اشتهرتْ نساءٌ كثيراتٌ معاصرات في دنيا العِلْم والأدبِ والمعرفةِ وفي مجالات أخرى مختلفة، وظهرت نابغات من النّساء في بلادٍ مختلفة ومنهن الكاتبة الشّهيرة وداد سكاكيني في كتابها الشّهير «أمّهات المؤمنين» وغيره من الكتب الأخرى النّافعة، وظهرت كذلك في مصرَ الدكتورة عائشة عبد الرحمن المشهورة بابنة الشّاطىء[2] وأطلتْ على العالَم الإسلاميّ

---

(١) قوله: (لبّى يا مريم مثواك الجنات) إذا حُسِبَتْ بحساب الجُمَّل كان مجموعها (١٣٩٥) والتأريخ بالشّعر فن يدل على عبقرية الشاعر ومعرفته بالحروف وما يقابلها من أرقام، وللمزيد من هذا العِلْم؛ راجع ذلك في حديثنا عن عائشة التّيمورية من هذا الكتاب، ففيه ما يروي الغلّة بإذن الله.

(٢) عائشة محمّد عبد الرحمن المشهورة ببنت الشّاطىء، ولدت في محافظة دمياط سنة (١٣٣١ هـ) التي توافق سنة (١٩١٣ م)، وتربَّتْ تربيةً إسلامية أصيلة، درست الآداب، ومن ثم حصلت على درجة الدكتوراه في الآداب من جامعة القاهرة، وشغلتْ منصب أستاذ كرسي اللغة العربية عام (١٩٦٣ م)، وهي كذلك أستاذة التّفسير والدراسات العُليا بكلية الشّريعة بجامعةِ القرويين في المغرب العربي. وتدرجت في عدةِ وظائف، وحاضرتْ في عديدٍ من جامعات الدول العربية.
وعائشة هي زوجةُ الأديب الكاتب أمين الخولي. وقد حصلت على جائزةِ الدّولة التقديرية للآداب في مصرَ عام (١٩٧٨ م)، ووسام الاستحقاق من الطّبقة الأولى، =

بكتابها الشّهير «تراجم سيّدات بيت النّبوّة» كما لها كتب كثيرة في مجال الأدبِ والدِّين. وظهر كذلك شواعرُ أخريات لهن نصيبٌ في عالَم الأدبِ والمعرفةِ، كما ظهر كثيراتٌ في مجال الأدبِ والتّصوّف والتّاريخ الإسلامي وغير ذلك من معارفَ وعلوم، ولا يسعُ المقامُ هنا لإيراد أسمائهن.

* ولكنَّ ضيفةَ الصَّفحات اليوم فاطمة اليشرطيّة ـ رحمها الله ـ كانت ذا باعٍ طويل في علوم الفقْه والتّصوّف، بل كانت في التّصوّف أكثر عمْقاً ومعرفةً؛ وقد خلَّفتْ أربعة كتُبٍ تشيدُ وتشهدُ بمقدرتها على ما ذكرنا؛ وهذه الكتب الأربعة قد تضمّنت بعض علوم التّصوّف[1]، وكذلك تضمَّنَت سيرةً ذاتية لوالدها الشيخ علي اليشرطي، وبعضَ التّرجمةِ الذّاتيةِ التي اختصّتْ بها نفسها.

* وتبدو فاطمة اليشرطية في مؤلفاتها ذات غَزَارةٍ في الاطلاع، وسَعَةِ المعرفة، نتيجةً لأسفارِها ورحلاتها في مختلفِ البلدان، وتلقيها شتّى المعارفَ عن أكابرِ العُلماء والمتصوّفة وبعض المستشرقين الذين التقتْهُم في ترحالها في القَاهرة، وهنا وهناك في بقاعٍ شتى.

* ومن خلالِ استقرائنا لحياة فاطمةَ، تبيَّنَ لنا أنَّها لم تبدأ الكتابة، إلا

= وشهادة تقدير من منظمة اليونسكو عام (١٩٨٠ م)، ووسام الكفاءة الفكرية في المغرب، وجائزة الأدب من الكويت عام (١٩٨٨ م) وأُطلق اسمها على العديد من المدارسِ وقاعات المحاضرات بالعديد من الدول العربية.
وقد فازت بجائزةِ الملك فيصل للأدب العربي مناصفة مع الدكتورة وداد القاضي عام (١٤١٥ هـ) عام (١٩٩٤ م) ومن أهم مؤلفاتها العلمية: التّفسير البياني للقرآن الكريم، الإعجاز البياني للقرآن، الإسرائيليات في الغزو الفكري، الحياةُ الإنسانية عند أبي العلاء المعري، رسالة الغفران، الخنّساء، سِرُّ الشّاطىء، تراجم سيّدات بيت النبوة، في الدّراسات الأدبيّة واللغوية وغيرها. ومن الجدير بالذكر أني التقيتُ أخاها محمد عبد الرحمن في الكويت في إحدى النّدوات سنة (١٩٨٩ م) وتجاذبنا أطرافَ الحديث حول أخته عائشة.

(١) انظر تعليقاتنا المفيدة على المتصوّفين في شخصيّة رابعة العدوية، وشخصية نفيسة بنت الحسن، ولا مجال هنا للتعليق.

بعد أنِ اكتملَ لها أمرُها منَ الحياة، ومن بعد أن اختزنت كثيراً منَ المعارف والملاحظات في ذاكرتها وفي عقلها، وإذ ذاك بدأتْ في العطاءِ، عطاء الزّاهدات المتصوّفات، فأخذت تصوغُ ما اكتنزتْه منَ المعرفةِ الكامنةِ في صدرها، كيما تقدّمه إلى النَّاس ـ المتصوّفة منهم خاصة وأتباع أبيها وأخيها ـ، ليكون وسيلةً لهم، كي يطلّع عليه الرَّاغبون ـ كما قالتْ هي ـ، فتعمّ الفائدة المرجوّة، فانكبتْ على التّأليف، وأخرجتْ أربعةَ كُتُبٍ في مجال التصوّف، زاد واحدها عن مئات الصَّفحات، وهي:

أ ـ **رحلةٌ إلى الحقِّ**: وفي هذا الكتاب أبحاثٌ عن التَّصوّف، وبيان الطّريقة الشّاذلية، وسردٌ كافٍ وافٍ عن الشَّيخ علي نور الدّين اليشرطي.

ب ـ **نفحاتُ الحقِّ**: ويحتوي هذا الكتاب بعضَ مواضعي التّصوف، وباقةً من أقوالِ أبيها، وشذرات من توجيهاتِهِ إلى التّصوف.

ج ـ **مواهبُ الحقِّ**: وفي هذا الكتاب دراسةٌ وافيةٌ عن الكراماتِ الصُّوفية عامّة، ثم إنَّها أوردت مجموعةً منَ الكراماتِ التي أظهرها اللهُ على يَدِ أبيها الشيخ علي اليشرطي!!!.

د ـ **مسيرتي في طريقِ الحقِّ**: وفيه أبحاثٌ تصوفيّة متعدّدة، وهو آخر كتبها، وقد ألَّفتْهُ في أواخرِ عمرها، وكانت قد تجاوزتِ التّسعين عاماً، وكان شعارها إذ ذاك قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤].

في سِجلِّ المُتَصوِّفَاتِ:

* رأينا في الصَّفحات الخاليات كيفَ عاشتْ فاطمةُ اليشرطية، وكيف كانت حياة التصوف هي الغالبة عليها، حيث عاشتْ للمعرفةِ الصُّوفية وللطريقة الشّاذلية، فكانت من خوالدِ نساءِ العصر الحالي، ومن كبرى الشَّهيرات في عالَم التّصوف.

* لقد عاشتْ فاطمةُ دون أنْ تتزوّج، وتعتبرُ من النِّساء المُعَمَّرات، فلقد بلغتِ التّسعين، وزادتْ قليلاً عنها؛ ولما كان عام (١٩٧٩ م)، وفي مطلعِ القرن الخامس عشر الهجري، أصابَ المرضُ فاطمةَ اليشرطيّة، وكانت قدَ

بلغتْ درجةً عاليةً من الشَّفافيةِ والإحساسِ الخاصّ نتيجة اجتهادها في ذاتِ الله.

* ثم ثقُلَ عليها المرضُ، وزادت عليها الآلامُ والأوجاع، وخصوصاً الآلام التي جثمتْ على صَدرِها، وسكنتْ حناياها، ثمّ الانحطاط في جسمها مما جعلَها تعاني وتعاني هذه الآلام، وجاءَ الأطبّاء والمتخصّصون لعلاجها، ولكنَّ يَدَ المنيّة سبقتهم إليها، وانتقلت إلى جوارِ ربِّها في دمشقَ، ثم نُقِلَتْ في يوم وفاتها إلى بيروتَ لتكونَ في مثواها الأخير في مقبرة الأوزاعي.

* وبعد ـ عزيزي القارىء الكريم ـ فهذه امرأةٌ من نساء العصرِ الحالي المعاصر، سجَّلَتْ آثاراً وضيئةً في دنيا النّسوة، وفي سماءِ المعرفةِ والتصوّف، وأرجو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن أكونَ قد وفّقت في رسْمِ معالم سيرتها ـ وإن كانت موجزة ـ كيما تكون ممن لهنَّ في تاريخِ نساء الإسلام نصيبٌ، وأعتقدُ أنَّه لم يترجمْ لهذه المرأة أحدٌ إلى هذا التّاريخ، على أنّني حاولتُ جَمْعَ المعلومات من محبّيها ومن معارفها في عددٍ من البلدانِ والعواصم.

* وإنّي أرجو اللهَ تعالى أنْ تكونَ أعمالنا جميعاً خالصةً لوجهه الكريم، وألاّ نبتغي بها إلا مرضاته، ورضوانه، ومغفرته، وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربّ العالمين.

* * *

٢١

ليلى بنت مهلهل

جَـوَانِبُ مِنْ أخْـلاقِ الجَاهِليّــة :

* امرأةٌ حالفَها الحظُّ منذ أنْ كانت جنيناً في أحشاءِ أمّها، فقد نَجَتْ من الوأْدِ[١] في الوقتِ الذي لم ينجُ فيه كثيرٌ من الوليداتِ في العصر الجاهلي.

* كان وأْدُ البنَاتِ في الجاهليّة عادةً انتشرتْ بين بعضِ القبائلِ العربيّة المتناثرة هنا وهناك على صعيدِ الصَّحراء الواسعةِ.

* وكان منَ هوانِ النَّفْس الإنسانيّة عَصْرَ ذاك انتشار تلك العادة، وذلك خوفَ العَار، أو خوف الفقر[٢] وحكى القُرآنُ الكريمُ عن هذهِ العادة ما يسجِّلُ هذه الشَّناعة على الجاهليةِ التي جاء الإسلامُ ليرفعَ أُمّةَ العرب من وهْدتها، ويرفعَ البشرية كُلّها، فقال: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨ و٥٩].

* كان الوأْدُ يتمُّ في صورةٍ قاسية، إذ كانتِ البنتُ تُدْفَنُ حيّة، وكانوا يفتنُّونَ في هذا بشتّى الطُّرق.

* فمنهم مَنْ كان إذا وُلدتْ له بنتُ تركَها حتى تكونَ في السَّادسة من عمرها، ثمّ يقولُ لأُمّها: طيِّبيها وزيّنيْها حتى أذهبَ بها إلى أحمائِها، وقد حفَرَ لها بئراً في الصَّحراء، فيبلغُ بها البئرَ، فيقول لها انظري فيها، ثمَّ يدفعُها دفعاً، ويهيلُ عليها التُّراب.

---

(١) «الوأْدُ»: دفْنُ البناتِ عند الولادة وهنّ أحياءٌ، يُقالُ: وأَدَ بِنْتَه يئدها: دفنها حيَّة، وهي: وئيدٌ، ووئيدة، وموؤدة، ويُقال: توأدت عليه الأرض: غيّبته وذهبتْ به. (القاموس المحيط ص٤١٣) مادة (وأد). وقيل: إنَّ أول مَنْ وأدَ البنات منَ العرب هو قيس بن عاصم التّميمي، وهو سيّدٌ من سادات قومه، وقد عاشَ طويلاً حتى أدركَ الإسلام، فسُئِلَ مرة عن ذلك فأجاب: كنتُ أخافُ سوءَ الأحدوثةِ والفضيحةِ في البنات فما وُلدتْ لي بنتٌ قط إلا وأدتُها.

(٢) أشارَ القرآن الكريم إلى الفقر والخوف منه، فقال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

وعند بعضهم كانتِ الوالدةُ إذا جاءها المخاضُ، جلستْ فوقَ حفرةٍ محفورة، فإذا كان المولودُ بنتاً، رمَتْ بها فيها وردمَتْها، وإن كان ابناً قامت به معها[1]، ومنه قول الرّاجز:

سَمَّيتُهـــا إذْ وُلـــدَتْ تَمُـــوتُ والقَبْـرُ صهْـرٌ ضَـامِـنٌ زمّيْـتُ[2]

وبعضُهم كانَ إذا نوى ألاّ يئد الوليدة، أمسكَها مهينةً إلى أنْ تقدرَ على الرّعي، فيلبسها جبّة منْ صوفٍ أو شعر، ويرسلها في الباديةِ ترعى له إبله.

قال قتادةُ ـ رحمه الله ـ: كانت مضرُ وخزاعةُ يدفنون البناتِ أحياءً، وأشدّهم في هذا تميم[3].

وقال القُرطبيُّ ـ رحمه الله ـ: كانوا يدفنون بناتِهم أحياء لخصلتَيْن:

إحداهما: كانوا يقولون: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، فألحقوا البنات به.

الثَّانية: إمّا مخافة الحاجةِ والإملاق، وإما خوفاً منَ السَّبي والاسترقاق[4].

ونُقِلَ عن قتادةَ أيضاً أنّه قال: كانتِ الجاهليةُ يقتل أحدهم ابنته، ويغذو كلْبَه، فعاتبهم اللهُ على ذلك وتوعّدهم بقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ [التّكوير: ٨].

قال المفسِّرُون: كان أحدُهم إذا ضربَ امرأته المخاض، توارى إلى أنْ يعلمَ ما يُولد له، فإنْ كان ذكَراً سُرَّ به، وإن كان أُنثى لم يظهرْ أياماً يدبّر كيف يصْنَعُ في أمْرِها[5].

ومَن الأسبابِ الدَّاعية للوأْدِ في عرفِ الجاهليين: حفاظُهم على الشَّرف

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٣) بتصرّف من قول عبد الله بن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) «الزّمّيت»: الوقور. (القاموس المحيط ص١٩٥) مادة (زَمُت).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٠/ ١١٧).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٢ و٢٣٣).

(٥) انظر: زاد المسير (٤/ ٤٥٨).

ـ كما زعموا ـ، وهذا السَّبب قد أيّده كثيرٌ من أخبارِ العرب، وكثيرٌ منْ أشعارهم وشعائرهم، وتدلُّ أخبار النّعمان بن المنذر أنَّه علَّلَ ظاهرة الوأْدِ أمامَ كسرى مَلِكِ الفرس عندما سأله عن أسباب الوأد[1]، فقال النُّعمان مُدافعاً عن العرب: وأمّا قولك أيّها الملك؛ يئدونَ أولادهم، فإنّما يفعله مَنْ يفعله منهم بالإناث أنفةً منَ العارِ، وغيرة من الأزواج.

* هذا؛ وقد كان الجاهليون يئدونَ الإناث دونَ الذّكور، كما أفصحَ القرآن الكريم عن ذلك: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التّكوير: ٨ و٩]؛ فكان العارُ ـ بزعمهم ـ لا يأتي غالباً إلا منَ النِّساءِ، كما أنّهم كانوا بحاجةٍ إلى الرِّجال لتوفيرِ الرّزق، وللحفاظ على الشّرف.

* ويمكننا أنْ نقولَ: إنَّ مِنْ أسباب الوأْدِ الغيرة على الشّرفِ والأعراضِ، ولعلّ ما يوضح مقولتنا ما رُوي عن امرىءِ القيس، أنّه كان شديدَ الغيرة، فإذا وُلدت له بنتٌ وأدها، فلمّا رأى ذلك نساؤه غيَّبن أولادهن في أحياءِ العرب، فبلغه ذلك، فتتبَّعَهُنَّ حتى قتَلهنَّ.

* هذه نظرةُ الجاهليةِ إلى المرأةِ في بعض الأحياء، حتى جاءَ الإسلامُ يشنِّعُ بهذه العادات ويقبّحها، وينهى عن الوأدِ، ويغلظِ فعْلَته، ويجعلها من موضوعاتِ الحساب يوم القيامة[2].

* ومن الجديرِ بالذِّكْر أنَّه كان ذوو الشَّرف منْ أهلِ الجاهلية، يمتنعون من الوأدِ ويمنعون منه، حتى افتخر به الفرزدق فقال:

ومنّا الذي مَنَعَ الوائِدات ... فأحْيَا الوئيدَ فَلَمْ يوأد[3]

---

(١) وأد الجاهليون أولادهم الذكور في أحوال نادرة منها: إذا ولد لأحدهم ولداً مشوّهاً، أو كان فقيراً كثير العيال، أو ما شابه ذلك.

(٢) قال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ: يوم القيامة تُسأل الموؤدة على أي ذنب قُتِلت، ليكون ذلك تهديداً لقاتلها، فإنّه إذا سُئِل المظلوم فما ظنّ الظالم إذاً؟! (تفسير ابن كثير ٤/ ٥٦٣) طبعة دار ابن كثير بدمشق.

(٣) يعني بذلك جدّه صعصعة بن ناجية، كان يشتريهن من آبائهن، فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موءودة.

* وكان الفرزدقُ يفتخر أيضاً بجدّه الذي كان يجيرُ البنات من الوأْدِ، وذلك في قصيدةٍ طويلةٍ مشهورة.

* ولعلّنا قد أطلْنَا قليلاً في هذه التّقديم، إلا أنَّ عُذْرنا في ذلك توضيح تلكم الصّورة ـ قَدْر الإمكان ـ كيما نتعرفَ الأحوالَ والظُّروفَ التي ساعدت ضيفة حلقتِنا لتنجوَ منَ الوأْدِ ومن موتٍ محقّق.

* ولا بدَّ لنا ـ ونحنُ في الحديث عن إحدى نساء الجاهليّة ـ من أن نلقيَ الأضواءَ على هُوّيتها كما أثبتَتْها كثيرٌ من المصادرِ الأدبية والتّاريخية وغير ذلك؛ على أنّي لم أجدْ ـ في حدود بحثي واطلاعي ـ أحداً قد أفردَها بالحديثِ، أو خصَّ شخصيّتها بدراسةٍ منفصلة مفصَّلة.

* ويطيبُ لي الآن أنْ أقدِّمَ هويةَ هذهِ المرأة، فهي إحدى نساء التَّاريخ اللواتي كُنَّ من ذوات الشَّأن والمكانة، فقد كانت صرختُها في يوم من الأيّام سبباً لمقتلِ أحد الملوك العظام، وجَعْلِهِ كأمسِ الدَّابر؛ إنّها ليلى بنتُ مهلهل بن وائل التَّغلبية[1]، ذات المكانة العُليا في نساءِ بني تغلب في العصر الجاهلي، بل في نساء العرب في الجزيرة العربيّة، تلك الأرض التي أنبتَتْ كثيراً منَ النِّساء اللواتي سجّلْن المكارمَ في ديوان العظائِم.

ليْلَى تَنْجو منَ الـوَأْدِ:

* كان المهلهلُ بنُ وائل التّغلبي فارسَ قومه، قد تزوَّجَ هند بنَ عُتيبة إحدى عاقلات نساء عَصْره، فولدتْ له بنتاً، فحار في أمْرِهِ وفكَّرَ في وأْدِها، وقال لزوجهِ هند: يابنة عُتيبة، اقتلي هذه الوليدة لئلا نفتضح بينَ العربِ، فأشارتْ هندٌ بأنّها ستفعل ذلك.

---

(١) انظر: الكامل لابن الأثير (١/ ٥٤٩)، والمفصل في تاريخ العرب (٢/ ٢٥٥ و٢٥٦)، والأغاني (١١/ ٥٩ و٦٠)، وبلوغ الأرب (٢/ ١٤١ و١٤٢)، والمحبّر (ص٢٠٣ و٢٠٤)، والنقائض (ص٨٨٤ و٨٨٧)، والأعلام (٦/ ١١٧ و١١٨) وسمط اللآلي للبكري (١/ ٢٧) و(٢/ ٦٣٦) وفيه أسماء بدلاً من ليلى. وانظر مصادر أخرى متنوعة.

* ولكنَّ هنداً قد تحرّكَتْ لواعجُ العطفِ والحبِّ والحنان في قلبِها، وأسَرَتْها صرخاتُ الوليدةِ التي لم يكن لها من ذَنْبٍ سوى أنّها بنْتٌ، هنالك دعَتْ خادماً[1] لها أميناً، وأمرتْهُ أن يغيِّبَ الوليدة عنها، ويبعدها عن أنظارِ مهلهل لكيلا يكون نصيبها الوأد.

* واطمأنَ مهلهل إلى أنَّ العارَ الذي لحقَه سيتلاشى، ويُدفن في رمال الصّحراء، وبين ثنايا التِّلال.

وفي مساءِ ذلك اليوم أوى مُهلهل إلى مضجعهِ، وركَنَ إلى الرّاحةِ واستسلم للنّوم، فلمّا استغرقَ هتفَ به هاتف[2] في ليلته تلك وهو ينشدُ ويقول:

كَمْ مِنْ فَتَى مؤمّلِ وسَيِّدٍ شَمَرْدَلِ[3]
وعدّةٍ لا تُجهَلِ في بَطْنِ بنْتِ مُهَلهلِ

* وانتبه مهلهلٌ من نومه، وكلماتُ ذلك الهاتف لا تبرحُ ذاكرته، ودلفَ إلى زوجه هند، وقال لها: يا هند، أينَ بنتي؟ قالت هند: وأدتُها كما أشرتَ آنفاً.

فقال مهلهلُ: كلا وإله ربيعة.

* ثم صمَت هنيهة وقال لها: يا هند، اصدقيني؛ أينَ الوليدة؟ وهنا لم تستطعْ هندُ أنْ تسيطرَ على عواطفها عندما رأتْ بوارقَ الخيرِ في وجه

---

(١) «خادم»: هذه الكلمة تُذكَّرُ وتؤنَّثُ يقال: هي خادم وخادمة.

(٢) هذهِ الأخبارُ وأشباهها كثيرة في الأَعْصرِ الخالية، منها ما وردَ أنَّ سودةَ بنتُ زهرة بن كلاب لما وُلِدتْ كانت مشوّهة، فأمر أبوها بوأدها، فأرسلها إلى الحجون لتدفن هناك، فلمّا حفر لها الحافر، وأرادَ دفنها، سمعَ هاتفاً يقول: لاتئدِ الصّبية؛ فالتفتَ، فلم يرَ شيئاً، فعاد لدفنها، فسمعَ الهاتف مرة أخرى، فرجع إلى أبيها فأخبره بما سمع فقال: إنَّ لها لشأناً، وتركها، فكانت كاهنة قريش. (بلوغ الأرب ٣/ ٤٣).

(٣) «شمردل»: الشّمردل: الفتيُّ السّريع من الإبل وغيره، والحسَنُ الخَلْق (القاموس المحيط ص١٣١٩).

مهلهل، ولمستْ مشاعر الرِّقة في نفسه، وقالت: لقد غيبتها عنك، ثمّ أخبرته قصّتها مع الخادم.

* فقال مهلهلُ: حَسَناً فعلتِ، أحسِني غذاءها، وأطلقي عليها اسمَ ليلى.

* وعادتِ الوليدةُ إلى أحضانِ أمّها، وأخذتِ هند في رعايتها، فنشأتْ ليلى في أعزّ بيوت تغلب، ونَجَتْ من الوأدِ، ومن الموتِ الأكيد المحقّق[1].

لَيْلى زَوْجُ فَارسٍ وأمُّ شَاعِر:

* عاشت ليلى بنتُ مهلهل في قومها عزيزةَ الجانبِ، فقد استَقَتْ رفعةَ الجانب، وعزّة النَّفس منْ أبيها مُهلهَل[2] الذي كان رئيس تغلبَ، والقائم بأمور الحرب، فقد عُرفَتْ تغلب بالمنعةِ والبأْسِ في الحربِ والقتال، حتى لقد قيل: لو أَبطأَ الإسلامُ لأكلتْ بنو تغلب النّاس[3].

* واستقتْ ليلى من أمِّها هند الهدوء، والتَّعقُّل، والنَّظر في الأمورِ، وحُسْنِ الأحدوثة، فنشأتْ تحتفظُ بأعزِ القيم، وأشرفِ الخصال، بل عُرِفتْ بأنّها واحدة من بليغاتِ نساء تغلب اللاتي لهنّ نصيبٌ وافرٌ في ميدان الفصَاحة والبيان.

* وبلغت ليلى مبلغَ النِّساء، فتزوّجها كلثومُ بنُ مالك، أحد فرسان تَغْلب وشجعانها، حيثُ عاشت في عزٍّ وسؤدد.

* وتمضي الأيّامُ، فإذا بليلى ترى في المنام ـ وقد حملت واقترب موعد ولادتها ـ مَنْ يقول لها:

يــا لَــكِ ليلــى مــنْ وَلَــد   يُقــدمُ إقــدامَ الأَسَــد

---

(١) انظر: بلوغ الأرب (٢/ ١٤١)، وسمط اللآلي للبكري (٢/ ٦٣٦) مع الجمع والتصرف.
(٢) انظر ترجمة مهلهل التغلبي في الشّعر والشّعراء (١/ ٢٩٧ ـ ٢٩٩).
(٣) انظر: خزانة الأدب (١/ ٥١٩).

مـــن جشـــمٍ فيـــه العَـــددِ أقـــولُ قيـــلاً لا فنَـــد[1]

* وقصَّتْ ليلى بنتُ مهلهل على زوجها كلثوم قصَّةَ رؤياها التي حُفِرت في وجدانها، وأنشدتْهُ ما جاءَها الهاتفُ في منامها، فظهر السّرور والبِشْر على وجْهِ كلثوم، ثم إنَّ ليلى وضعت حملها بعد مُدَيدة فكان غلاماً، فأسموه عَمْراً، وفرحتْ ليلى بعمرو فرحاً شديداً، وراحتْ تغذوه وتحنو عليه وترعاهُ أفْضَل رعاية.

* ولما بلغَ عمرو بنُ كُلثوم العام الأوّل من عمره، سمعتْ أمّه ليلى ذات يوم هاتفاً يرتجزُ قائلاً:

إنّــي زعيـــمٌ لَـــكِ أمَّ عَمْـــرو بمـاجِـدِ الجـدِّ كـريـمِ النَّجْـر[2]
أشجــع مــن ذي لُبَــدٍ هِــزَبْــرِ وقــاصٍّ آدابٍ شــديـــد الأســر
يسودُهم في خمسْةٍ وعَشْر

* واستبشرتْ ليلى بهذا الهاتفِ، ونظرتْ إلى ابنها عمرو نظرةَ حنانٍ وضمّته إلى صَدْرها، وأخذتْ تعتني بتربيته وتنشئتِه، وراحتْ تغذّيه بألوان الآداب والمعارف والبلاغات، حتى غدا فصيحاً بليغاً سيّداً من ساداتِ تغلب، بل ساد عشيرته أمْردَ في الخامسة عشرة ـ كما أخبرها الهاتف من قبل ـ، واجتمعتْ حوله قبيلة تغلب، ذلك أنَّ عمراً قد جمعَ أصول السِّيادة من أطرافها، فهو شاعرٌ، وفارسٌ مِقْدام، جريءُ القلب، معروفُ النّسب بين قبائل العرب، ويكفيه فخراً أنّ أمّه ليلى بنت مهلهل أعزّ نساء تغلب، ويُضْرَبُ المثَلُ بأنفتها وسؤددها.

كَلِمَــةٌ منْ ليـلـى تَقْتُـل مَلِكَ الحِيْـرة:

* لم تقتصرْ عزّةُ النَّفس على الرّجال دون النِّساء في العصر الجاهلي، بل كانت نساءُ الفرسان، وأمّهات الأبطال يشعرن بعزّة النّفسِ وإبائها، وكانت

(١) «الفنَد»: الخَرَفُ، وإنكار العقل لهرم أو مرض، والخطأ في القول والرأي، والكذب. (القاموس المحيط ص٣٩٢).
(٢) انظر: سمط اللآلي للبكري (٢/ ٣٣٦) و«النجر»: الأصل.

إحداهُن لا تقبل أنْ يُثْلم كبرياؤها، فحياة العِزّ هي المنى كلّ المنى.

* إنَّ النَّفسَ العزيزةَ لا تقبلُ الهوانَ، ولا تقبلُ إلا ذروةَ المكارم في كلّ مجالاتِ الحياة، ولقد تميّزتِ المرأةُ العربية في جاهليتها بإبائها وعلوّ همّتها، وكانت ليلى بنتُ مهلهل مثَلاً للمرأةِ العربية التي تؤثرُ الأحدوثةَ الجميلةَ، منَ الحياةِ التي تخالطها الدَّنية، بل لم تقبلْ كلمةً واحدةً تحطُّ من مكانتها، أو تمسّ أنَفَتها، إذ اعتبرتْ أنَّ ذلك ذلاً وعيباً.

* ومن المثيرِ حقّاً في شخصيّة هذه المرأةِ، أنّها صرخَتْ صرخةً بكلمةٍ واحدةٍ، فأودت بحياةِ ملك خطيرِ الشّأْن، وذلك حينما شعرت بأنَّ أصابعَ المهانةِ تمتدُّ إليها، وإشاراتُ الامتهان تكادُ تتوجه نحوها.

* وهذا ما حدثَ فعلاً ـ كما روتْ تلك المصادر المتعدّدة ـ فقد فَتَكَ ابنها عمرو بنُ كلثوم بعمرو بنِ هند ملكِ الحيرة في دار مُلْكِهِ، وهتَك سرادقه، وانتهبَ خزائنه، وانصرفَ ببني تغلب وهم موفورون لم يُصَبْ واحدٌ منهم، وكان معه أمّه ليلى وهي تركبُ مراكب العزّ والافتخارِ والفخار.

* وكان سببٌ ذلك أنَّ عمرو بنَ هند[1] ملك الحيرة قال ذات يوم لندمائه وجُلاسهِ وقد أخذتْهُ عِزّةُ الجاهليّة مأْخذاً بعيداً، ولعبتْ به أصابعُ الكِبْر: هل تعلمون أنَّ أحَداً منَ العربِ تأنفُ أمّه من خدمةِ أمّي؟

فقال النّدماء: نعم أيها الملك الخطير المُهاب.

قال عمرو في لهجةٍ شرسةٍ غضبى: ومَنْ تكونُ هذه التي تدّعون؟

---

(١) كان عمرو بنُ هند ظالماً مستبداً، سفّاكاً للدّماء، شديدَ البأس، وقد سُمّي المُحرِّق، ومُضرِّط الحجارة؛ قال أبو عبيدة ـ رحمه الله ـ: كان عمرو بن هند شريراً، وكان يُقال له: مُضرِّط الحجارة لشدّته، وكان يُعرف بأمّه هند بنت الحارث بن حُجْر آكل المرار الكندي.
هذا وقد كان مقتل عمرو بن هند سنة (٥٧٤ م). (سرح العيون ص٤٣١) بتصرف واختصار.

قالوا: لا نعلمها إلا ليلى أمّ عمرو بن كلثوم التّغلبي في أرضِ الحجاز.

قالت الملك: ولمَ ذلك؟

فقالوا: لأن أباها مهلهل بنَ ربيعة خال امرىء القيس، وعمّها: كُليب وائل أعزّ العرب.

* وبعلُها: كلثوم بن مالك بن عتّاب أفرسُ العرب وفارسُ تغلب، وابنها: عمرو بن كلثوم سيِّدُ قومِه، وليثُ كتيبتِهم.

* وأسرَّ عمرو بنُ هند هذا في نفسه، وشعرَ بأوحالِ مرارةِ الغضب تلوِّثُ قَلْبَه؛ وأخذَ الشّيطانُ يلعبُ بعطفهِ، ويلهو به ذاتَ اليمين وذات الشّمال، ويقرِّبُ له ويبعِّد، ويزيّنُ له الأمور ليركبَ سُبُلَ الغوايةِ وإذلال هذه المرأة التي خدشت كبرياءه على السَّماع.

* وبعد مدّة اهتدى عمرو بن هند إلى فكرةٍ خبيثةٍ، أحبَّ أن يذلَّ من خلالها ليلى بنتِ مهلهل، وظنَّ أنّه يقدر على أنْ يعبثَ بأنفتها وعزّتها، وذلك بأن يقيمها مقام العبيد في خدمةِ أمّه هند، وبذلك يكون قد سقَاها كأْسَ الذُّلِ والمهانة، وعرّفَها مكانتها في بيوته وخيامه.

* ولما اختمرت فكرةُ إذلال ليلى بذهنِ عمرو بن هند، دعا أحدَ خواصّه، وأرسله إلى عمرو بن كلثوم في الحجاز، وأمره بأنْ يطلبَ من عمرو بنِ كلثوم أنْ يزورَه في الحيرة، ويسأله أنْ يصحبَ أمّه ليلى بنت مهلهل كيما تزورَ هنداً أمّ ملك الحيرة، كما أوصاه بأنْ يصحبَ معه جماعة من فرسانِ بني تغلب وأبطالهم وشجعانهم.

* واستجابَ عمرو بن كلثوم لهذه الدّعوة، وانتخبَ جماعةً من خيرة رجال بني تغلب ممن عُرفوا بجودةِ الطّعان، ولقاءِ الأقران في حومةِ الميدان؛ وأقبل منَ الجزيرة إلى الحيرة، وأقبلتْ معه ليلى بنتُ مهلهل أيضاً في ظُعُنٍ[1] من بني تغلب قد اختارتهنَّ ليصحبنها في هذه الرّحلة الشّائقة،

---

(١) «ظُعُن»: جمع ظعينة، وهي الهودج، والمرأة ما دامت فيه.

لكي يشاهدْنَ الحيرةَ وهاتيك الأطلال والدّمن.

* واستعدَّ عمرو بنُ هند لهذا اللقاء الحافل، وأمرَ برواقِهِ فضُرِبَ فيما بين الحيرة والفُرات، وفَرَشَه بالنّمارق، وزيّنه بالتُّحَفِ، وأرسل إلى وجوهِ أهلِ مملكته فحضروا، وأتاه عمرو بن كلثوم في وجوهِ بني تغلب وهم يرفلُون في ثياب العزِّ والفخار.

* ودخل عمرو بنُ كلثوم على عمرو بنِ هند في رواقه، وأحسن ابن هند استقباله مع قومه، وفي قلبهِ نيرانٌ تتلظّى، وجمراتٌ تتوقّدُ مما رآه مِنْ أَنَفَةِ التّغلبيّين.

* ودخلت ليلى بنتُ مهلهل أمّ عمرو بن كلثوم على هند في قبّة في جانبِ الرّواق، وكان عمرو بنُ هند قد أمرها أنْ تنحّي الخدمَ وتبعدهم إذا دعَا بالطُّرَف[1]، وتَسْتَخِدم ليلى بنت مهلهل التّغلبية أمّ عمرو بن كلثوم، فإنّما استقدمها لذلك.

* ودعا عمرو بن هند بمائدةٍ فنصبها، فأكلوا، ثمَّ دعا بالطُّرفِ، فتناولوها، وكذلك أُدْخلتِ الطّرفُ خيمةَ أُمِّ الملك، وهنالك قالت هندٌ بشيء منَ الاستهتار لضيفتها: يا ليلى، ناوليني ذلك الطَّبق!

* فقالت ليلى بنتُ مهلهل في اتّزانٍ وهدوء دون أنْ تلتفتَ إليها: يا هذه لتقم صاحبة الحاجةِ إلى حاجتها.

* ويبدو أنَّ هنداً قد تجاهلتْ ما ألقَتْه من كلام إلى ليلى، فأعادتْ عليها، وأشارت أنْ ناوليني يابنة مُهلهل ذلك الطَّبق. فأَجابتها ليلى: قد قُلتُ لكِ: لتقمْ صاحبة الحاجةِ إلى حاجتها!.

* وأعادت هندٌ على ليلى وألحّتْ بطلبها ذاك، وعندها صاحت ليلى: واذلّاه! يالتَغْلِب!

---

(١) «الطرف»: جمع طرفة، ما تعطيه غيرك ما لم يعطِ أحدٌ قبلك، ويُرادُ به هنا ما يُتنقّل به بعد الطعام.

* وتساقطتْ كلمتها على سَمْع ابنها عمرو بنِ كلثوم، فانتفضَ كالعصفور بلّله القطْرُ، وثارَ الدمُ في وجههِ، واحتملته حميّة الجاهليّة، فهبَّ واقفاً وقال: لا ذُلَّ لتغلب بعدَ اليوم، ثمَّ نظرَ إلى عمرو بن هند فعرفَ الشّر في وجههِ، وفهمَ مقاصده، وأدرك ما تنطوي عليه نواياه، فوثبَ إلى سيفٍ لعمرو بن هند معلَّق بالرّواق وليس هناك سيفٌ غيره، فسَلَّهِ من غمده، وضربَ به رأْسَ الملك عمرو بن هند فقتَلَه، ونادى في بني تغلب، فانتهبُوا جميعَ ما في الرّواق، واستاقوا نجائب[1] الملك، وحَمَل أمّه ومَنْ معها، ثمّ ساروا نحو الجزيرة، وقام خطيباً[2] ينشِدُ قصيدته المشهورة في عالَم المعلّقات ومنها:

---

(١) «نجائب»: المرادُ هنا الإبل. يُقال: ناقةٌ نجيبٌ ونجيبة وجمعها نجائب. (القاموس المحيط ص١٧٤).

(٢) «الخِطَابةُ»: حَديثٌ أو شِعْر يُقصدُ به إثارة المشَاعر، وإلهابُ العواطف في الحالِ، والحياةُ في العصر الجاهلي جعلتِ الخطابةَ ضروريّة لهم في جميع أطوار حياتهم. وقد ثبتَ أنّهم كانوا يخطبون في مناسباتٍ شتى، فبالخطابةُ كانوا يحرِصون على القتال، استثارة للهمَم، وشحذاً للعزائم، وبالخطابة كانوا يدعون للسّلم حقناً للدماء، ومحافظة على أواصرِ القربى أو المودّة والصِّلة.
وبالخطابة كانوا يقومون بواجب الصّلح بينَ المتنافرين أو المتنازعين، ويؤدّون مهام السّفارات جَلْباً لمنفعة، أو دَرءاً لبلاءٍ، أو تهنئةً بنعمة، أو تعزية أو مواساة في مصيبةٍ، وكانت تُلقى الخطب أيضاً في المُصاهرات، وربطاً لأواصرِ الصّلة بين العشائر.
ومن أشهرِ الخطباء في الجاهلية: قسّ بن ساعدة الإيادي، وسحبان بن وائل الذي ضُرب المثلُ بفصاحته فقيل: «أخطبُ منْ سحبان»؛ وضمرة بنُ ضمرة، وأكثم بنُ صيفي، وعمرو بن الأهتم المنقري، وقيس بنُ عاصم.
قال أبو عثمان الجاحظ: وكانَ الخُطباء يحفلُون بخطبهم، ويتخيّرون لها أشْرفَ المعاني، وأقوى الألفاظ، وأشدّها وقعاً على القُلوب، ليكون تأثيرها أعظم، وكانوا يخطبون، وعليهم العمائم، وبأيديهم المخاصر، ويعتمدون على الأرض بالقسي، ويشيرون بالعُصي والقنا، راكبين، أو واقفين على مرتفع من الأرض. (البيان والتبيين ٣/ ٧).

أَيـا هِنْـدٍ[1] فـلا تَعْجَـلْ عَلينـا وأَنظِـرْنـا نُخَبِّـرْكَ اليَقيْنَـا

وفيها يقول:

بـأيِّ مَشْيئـةٍ عمـرو بـن هنـدٍ تُطيْـعُ بنـا الـوشـاةَ وتَـزْدَرينـا
تهـدّدْنـا وتـوعـدنـا رُويـداً متـى كُنَّـا لأُمِّـك مقْتَـوينـا[2]

* وفي هذا الموقفِ وعن تلكم الحادثةِ الخطيرةِ يتحدَّث «أُفْنُون التَّغلبي»[3] مصوِّراً عزّة ليلى ابنة مهلهل، وما حدثَ لهند أمّ عمرو بن هند، وكيف فتكَ[4] عمرو بن كلثوم بابن هند فقال:

لعَمْرُكَ مَا عمرو بن هندٍ إذا دعَا لتخـدمَ لَيلـى أُمَّـه بمـوفَّـقِ
فقامَ ابنُ كُلثومٍ إلى السَّيف مصْلتاً وأمْسـكَ مـنْ نـدمـانِـهِ بـالمخنَّـقِ
وجَلَّلَهُ عمروٌ على الرَّأْسِ ضربةً بذي شطب صافي الحديدة رونق[5]

* وهذا وقد سارتْ قصيدةُ عمرو بن كلثوم في بني تغلب مسيرةَ الماءِ في الوديان، وعدُّوها منْ مفاخِرهم وتراثِهم التّليد، وأصبحتْ سلوتهم في سائِر أحوالهم، وأمستْ أمَلَ دنياهم ودُنيا أملهم، ولهذا ردّدوها وتغنوا بها في كلّ

---

(١) «أبو هند»: عمرو بن هند الملك، وهو أبو المنذر، وإلى هند أمّ الملك عمرو هذا، يُنسب دير هند الكبرى من أديرة الحيرة، حيث بُنيَ في أيّام ابنها عمرو.

(٢) «المقتوون»: الخدم؛ الواحد: مقتوي.

(٣) «أُفْنُون التغلبي»: اسمه: صُرَيم بن مَعْشَر من بني تغلب، وسمي «أُفنون» ببيت شعر قاله وهو:

منيتنـا الـودَّ يـا مضنـون مضنـونـا أيـامنـا إنَّ للشَّبـاب أفنـونـا

(الاشتقاق لابن دريد ص٣٣٦).

(٤) يُقال في المثل: أفتكُ مِنْ عمرو بن كلثوم.
وقد كان عمرو بنُ كلثوم قد جَمع أصول السِّيادة، فهو شاعرٌ فارسٌ مِقْدام، وفاتكٌ جريءٌ القلب، ضُرِبَ بهِ المثلُ فقيل: فتكاتُ الجاهليّة ثلاثٌ: ويذكرون منها فتكه بعمرو بن هند ملك الحيرة، قتله في دارِ ملكه بين الحيرة والفُرات، وهتكَ سرادقه، وانتهبَ خزائنه، وانصرفَ بالتّغالبة موفورين لم يُصب واحد منهم. (ثمار القلوب ص١٢٩ و١٣٠).

(٥) انظر: الشعر والشعراء(١/ ٢٣٥)، والمحبّر(ص٢٠٤)، والكامل لابن الأثير(١/ ٥٤٩).

نادٍ ووادٍ، وأنشدَها الكهولُ والشُّيوخ والصِّبيان، وغدتْ شعارهم في المُفاخرة[1] والمُنَافرة[2]؛ ولشدّة شغفِ بني تغلب بهذه القصيدة، وكثرة روايتهم لها، قال بعضُ الشّعراء وقد أخذَ عليهم ذلك:

ألهى بني تَغْلب عنْ كُلِّ مكرمةٍ قصْيـدةٌ قـالَهـا عمـرو بـنُ كلثـومِ
يفـاخِـرون بهـا مُـذْ كـان أَوّلُهـم يـا للـرّجـال لشِعْـرِ غيـر مسـؤومِ
إنَّ القـديـمَ إذا مـا ضـاعَ آخـره كسـاعـدٍ فلَّـه الأيـام محطـومِ[3]

مُلْهِمَــةُ الأَبْطَـال وصَانِعَــةُ الرِّجَــال:

* تلكم هي ليلى بنتُ مهلهل التَّغلبية، التي غدتْ مضربَ المثلِ في الإباء[4] وعزّةِ النّفس، فقد كانت صرختها «واذلّاه» ذات صدىً واسعٍ في

---

(١) «المفاخرةُ»: محاورةٌ كلاميةٌ بين اثنين أو أكثر، وفيها يتباهى كلٌّ مِنَ المتفاخريْن بالأحسابِ والأنسابِ، ويشيد بماله من خصال، وما قامَ به منْ جلائل الأعمال، وكانتِ المفاخرةُ تحدث في بعضِ القبائلِ العربية. كربيعة ومُضَر، وبكْر وتغلب من ربيعة، وقيس وتميم من مُضَر، وغيرهم كثير.

(٢) «المنافرةُ»: وهي كالمفاخرةِ وأشدّ، وكان الرّجلان إذا تنازعا في الفخر، وادعى كلٌّ منهما أنّه متفوقٌ على صاحبه، نَفَرا إلى حاكم يرضيانه ليقضيَ بينهما، فمَنْ فضَّله على صاحبه كان له غنْم الحكَم، ولكنَّ الحكَمَ كثيراً ما كان يتحاشى الحكم لأحدهما على الآخر، ويعمد إلى الصّلح بين المتنافرين حسماً للنزاع، وتفادياً للشّر، ويلقي عليهما كلاماً بليغاً يدعوهما فيه إلى الصفاء، والسلام، والمودة، والمحبة.

(٣) انظر: البيان والتبيين (٤/ ٤١)، والكامل للمبرد (ص١٤٠)، والشّعر والشعراء (١/ ٢٣٦)، والأغاني (٩/ ١٧٦).

(٤) في رحلةِ إباءِ المرأةِ العربيةِ في العصر الجاهلي، استوقفتني صرخةُ امرأةٍ أخرى تغلبية، وهي الزّهراء أخت كليب وائل، وهي عمّة ليلى بنت مهلهل؛ فمما يروى في ذلك أنَّ لبيدَ بنَ عنبسة كان عاملاً لملوك كندة، تزوج الزهراء أخت كليب، فطغى على ربيعة، فأنكرتِ الزهراءُ عليه صنيعه، وقال لها مرة: وما بال أخيك ينتصر لمضرَ، ويتهدد الملوك كأنّه يعزّ بغيرهم؟ فقالت: ما أعرف أعزّ من كليب وهو كفءٌ لها، فغضبَ لبيد، ولطمها لطمة أعشت عينها، فخرجت باكية إلى كليب وهي تقول: =

عالم الجاهلية، فقد ملأتِ الدّنيا وشغلتِ النّاس، وتركت في الدنيا دويّاً ما يزالُ صَدَاه يملأُ الآذان إلى الآن، بل كانت صرختها إحدى الصَّرخات النِّسائية الخالدة في التَّاريخ، وهل ينسى النّاسُ صرخةَ تلك المرأة التي نادت: وامعتصماه؟!.

* لقد كانتِ المرأةُ في الجاهلية ذات مكانة راقيةٍ، ولا سيما إذا كانتْ من مثل ليلى بنتِ مهلهل، ولو قُورنت المرأة العربية في جاهليتها مع المرأةِ في الأمم الأخرى، لألفينا أنَّ المرأةَ العربية كانت ذا بال وأهميّة تفوقُ مكانة المرأةِ في أي أمّة أخرى، فلم تكنِ العربيّةُ الحرّةُ تُمْتَهَنُ كغيرها، بل احتفظتْ بأعزِّ خاصية النّساء: الشّرف والعفّة والإباء.

* ولذلك فقد امتازتِ المرأةُ العربية الحصينَةُ بأنَّها سيّدةٌ حافظتْ على إبائها، فاشتهرَ أنَّ الرجلَ هو الذي يسعى إليها، وينشدُ رضاها، لأنّها صانعةُ الرّجال، وملهمةُ الأبطال، وهي التي تغرسُ فرائدَ الحكمةِ في نفوسِ الرّجال.

* وقد عُرفتْ ليلى بنت مهلهل بحسنِ الأحدوثة، وجَودةِ الحكمة، وكمالِ الأدب، وكلّ هذه الفضائل قد غرسَتْها في نفسِ ابنها عمرو بن كلثوم، الذي غدا أحد حُكماء الشّعراء في العصر الجاهلي، فقد اقتبسَ شيئاً منَ البلاغةِ والفصاحة عن أمّه.

* وفي وصيّته لأبنائِه، تظهرُ آثار البلاغة في قوله، فقد ذُكِرَ أنَّهُ لما حضرتْه الوفاة، وقد أتتْ عليهِ مئة وخمسون سنة، جَمَعَ بنيه[1] . . .

=
ما كنتُ أحسبُ والحوادث جمةٌ ... أنّا عبيدُ الحيِ من قحطانِ
حتى أتتني من لبيدٍ لطمة ... فعشَتْ لها من وقعها العينانِ
لا يبرحوا الدهرَ الطويل أذلّة ... هدل الأعنة عند كلّ رهانِ

فلما سمعَ كليب قولها، ورأى ما بها من أثرِ اللطمة، ثارت حميته، وتوقدت في نفسه العزّة والإباء، فامتشق حسامه، وانقض على لبيد وفتكَ به قائلاً:

إنْ تلمني عجائز من نزار ... فأراني فيما فعلتُ مجيدا

(١) قال ابنُ قتيبة ـ رحمه الله ـ: لعمرو بن كلثوم عقب، منهم العتّابي الشّاعر المشهور،=

وأوصاهم قائلاً:

* يا بني! قد بلغتُ منَ العُمر ما لم يبلغه أحدٌ من آبائي، ولا بدّ أنْ ينزلَ بي ما نزلَ بهم منَ الموت، وإنّي واللهِ ما عيَّرْتُ أحداً بشيءٍ إلا عُيرتُ بمثله، إنْ حقّاً فحقّاً، وإنْ كان باطلاً فباطلاً.

* ومَنْ سَبَّ سُبَّ، فكفُّوا عن الشّتم، فإنّه أَسْلم لكم، وأحسِنُوا جواركم يحسن ثناؤكم، وامنعوا منْ ضيمِ الغريب، فربَّ رجلٌ خيرٌ من ألفِ رجل، ورد خيرٌ من خُلْف، وإذا حُدّثْتُم فعُوا، وإن حَدَّثْتُم فأوجزوا، فإنَّ مع الإكثار تكون الأهذار، وأشجع القوم العطوف بعد الكَرّ، كما أنَّ أكرمَ المنايا القتل، ولا خير فيمن لا رويّة له عند الغضب، ولا مَنْ إذا عوتب لم يُعْتِبْ، ومنَ النّاس مَنْ لا يُرجى خيره، ولا يُخاف شرّه، فَبَكْؤُه[1] خير من دَرّه، وعقوقه خير من بِرّه، ولا تتزوجوا في حيِّكم فإنّه يؤدي إلى قبيح البغض[2].

ذَكَاؤُهَا وَفِطْنَتُهَا:

* هذه ليلى ابنةُ مهلهل التَّغلبية إحدى نساءِ العرب في عَصْر الجاهلية، وإحدى النِّساء اللواتي صَنَعْنَ أمجاد أولادهن، وخلَّدن مآثر قومهن، وظلّتْ ليلى واحدة ممن وعَى التّاريخ طرفاً من أخبارهن، فقد أشارتِ الأخبارُ إلى ذكائها، وإلى فطنتها وفهمها للشّعر وخصوصاً أشعار والدها المهلهل؛ بل إنّها اكتشفت جريمة قَتْل أبيها من خلالِ استقرائها لبيتٍ من شعره، وكان هذا البيتُ سبباً في مَقْتَل اثنين.

* روت كتبُ الأدبِ أنَّ عبدَيْن من عبيد جسّاسٍ قد التقيا المُهلهل، فعزَما على قَتْله، فاستحلفهما المهلهل إنْ هما انتهيا من قَتْله أنْ يخبرا ذويه بهذا البيت:

= واسمه: كلثوم بن عمرو، ويكنى أبا عمرو، وكان كاتباً مجيداً في الرّسائل، وشاعراً مجيداً. (الشّعر والشّعراء ١/ ٢٣٦). أقول: مات العتّابي سنة (٢٢٠ هـ).

(١) «البكءُ»: قلة اللبن، أو انقطاعه، والمراد: فمنْعُه خيرٌ من عطائه.

(٢) انظر: الأغاني (١١/ ٥٩ و٦٠).

مَـنْ مبلـغِ الأقـوام أنَّ مُهلهـلا ... لله دَرُّكمـا ودرُّ أبيكمـا[١]

* فلم يريا أدنى غضاضة في إبلاغهِ لهم، لاعتقادهما أنْ ليس ثمّة معنىً ينمُّ عن فعلتهما، وما قاما به من قَتْلٍ، ثم إنَّ هذا البيتَ ليس فيه ما يبعث على الخوفِ أو الرّيبة.

* ولما قتلاه، أبلغَا ابنته بهذا البيتِ، فلطمتْ على خديها وقالت: واللهِ، لقد ودَّ والدي أنْ يقول:

مَـنْ مبلـغُ الأقْـوامِ أنَّ مُهَلهـلا ... أَمْسَـى قتيـلاً فـي الفَـلاة مجـدّلا

لله درّكمـا ودرّ أبيكمـا ... لا يبـرح العبـدان حتـى يقتـلا

* فقبضُوا على العَبْدَيْنِ، وأوسعوهما ضرباً، فاعترفا بما فعلا، فقتلوهما انتقاماً للمُهلْهَل[٢]؛ ورثته ليلى وأختها أبدع رثاء[٣].

---

(١) ورد في سرح العيون كلمة «الحيَيْن» بدلاً من «الأقوام» (سرح العيون ص٩٨).

(٢) انظر: سرح العيون في شرحِ رسالة ابن زيدون (ص٩٩)، وبلوغ الأرب (٢/١٥٧)، وسمْط اللآلي (١/٢٧) مع الجمع والتّصرف. ولعلَّ هذه القصَّة وأشباهها من القَصَصِ التي وُضعتْ للتّسليةِ، وقضاءِ الأوقاتِ بالحكايات السَّالفاتِ؛ وعلى أي حال فإن فيها إشارة إلى ذكاء المرأة الجاهلية.

(٣) يُروى أنَّ سُليمى ابنةَ مهلهل قد رثتْه ببضع قصائد حِسان منها قولُها من قصيدةٍ طويلة:

أَعَيني جُـودَا بـالـدّمـوعِ السَّـوافـحِ ... على فارسِ الفُرسان في كلّ صافحِ

ألا تبكيـانِ المـرتجـى عنـد مشهـدٍ ... يثيـرُ مـع الفُـرسـان نَقْـعَ الأبـاطـحِ

رمتْـهُ بنـاتُ الـدَّهْـر حتّى انتظمْنَـه ... بسَهْـمِ المنـايـا إنَّهـا شـرُّ رائـحِ

وقالت سُليمى في قصيدة أخرى نقتطفُ منها قولها:

مُنِـعَ الـرُّقـادُ لحـادثٍ أضنـانـي ... ونَـى العـزَاءُ فعـادَنـي أَحْـزانـي

لمـا سَمِعـتُ بنعـي فـارسِ تَغْلـبٍ ... أعنـي مهلهـلَ قـاتـل الأقـران

لَهفِـي عليـه إنْ تـوسَّـط مُعْضِـلٍ ... حصْـنُ العشيـرةِ ضَـاربٌ بِجِـرانِ

لهفـي عليـكَ إذا اليتيـمُ تخـاذلَـتْ ... عنْـه الأقـاربُ أيّمـا خـذلانِ

فاذهبْ إليك فقد حويتَ منَ العُلا ... يـابـنَ الأكـارمِ أرجـحَ الـرجحـانِ

(شاعرات العرب ص١٧٠ و١٧١).

* ويصمتُ التَّاريخ، فلم يَعُدْ يطالعنا بأخبارِ ليلى بنت مهلهل، ولئن سكتَ التَّاريخُ عن نهايتها، لقد أفصحَ عن مواقفها الحِسَان، وأبانَ ذكاءها، وحفظَ كلماتِها، واحتفظَ بندائها: واذلاّه!! أمامَ والدةِ عمرو بن هند، وكشفَ جلوةَ هذهِ الكلمة، لتظلَّ ليلى أبيّة النَّفس، لا ترضى الذّل، ولا تَقْبَلُ الهوان.

* وبعد؛ إنَّ أدبَ المرأةِ، وحياتَها، وآثارَها، وأخبارَها، كلّ هذا جديرٌ بأنْ تُسلَّط عليه أضواءٌ جديدةٌ كاشفةٌ لماضي المرأة في الجاهلية والإسلام.

* فقد كانَ في العصر الجاهلي للمرأةِ شأْنٌ رفيعٌ في معظمِ الأحايين، إذ أصبحتْ ملكةً في اليمن، وفي تدمر، وكانت تنشدُ الشعر أمامَ الفُصَحاء كالخنْساءِ وغيرها، ناهيك بأنَّ بعضَ النِّساء قد اشتهرنَ بالفطنةِ والدّهاءِ واللسن، وكانتِ المرأةُ تُجيرُ أحياناً وتقبلِ إجارتها، وكانت بعضُ الحروب تنشبُ بسببِ إهانةِ امرأةٍ أو ظلمها، كما أنَّ المرأة كانت تُظلمُ أحياناً، وتُوأَدُ عند بعضِ الأقوامِ، لكنَّ مكانتها على الأغلبِ كانت ساميةً باسقةً.

* وفي الصَّفحات الفائتة، حاولتُ إلقاءَ الأضواءِ على شخصية امرأةٍ لها نصيبٌ في تاريخ النّساء العربيّات في العصر الجاهلي، ممن أثْريْنَ تاريخَ المرأةِ العربيةِ بعزّة النَّفس، وحُسْن الأحدوثة، وأدبِ اللسان، وقوة الجنَانِ، ألا تستحقُّ ليلى ـ هذه ـ أن تكونَ من خَوالدِ النّساء؟!

* * *

٢٢

مُخَتَّر بنت الحارث

معَـلِّمَــةُ الزُّهَــادِ:

* لم تدرسْ هذه المرأةُ في جامعةٍ، ولم تكنْ ممن يُشارُ إليها بالبنان، لولا أنْ تخرَّجَ في مدرستِها أحدُ عباقرة الزُّهاد في دنيا الزُّهد.

* ولعلَّ القارىءَ الكريمَ لم يسمعْ بهذه المرأةِ بين قائمةِ شهيرات نساء التّاريخ، ولم يقرأْ شيئاً عنها؛ فهي وإنْ لم تكن منَ الشَّهيرات في عالم الشُّهرة، إلا أنَّه قد تخرَّجَ على يديها أشهر الأصفياء في أخرياتِ القرنِ الثّاني الهجري وأوائل القرن الثَّالث.

* ولقد راقَ لي البحثُ في غضونِ المصادر ـ على قلّتها وندرتها ـ عن أخبار هذه العالمة المعلّمة، الزّاهدة الورعة، حيث إنَّ للعلم جلالاً في القلوب؛ وللزّهد مكرمة في النّفوس، وللصَّلاح آثاراً في الوجوه:

وكَـم مِـنْ قَصيـرٍ فـي عُلـومٍ كثيـرةٍ ... لـه مَخْبـرٌ للصَّـالحـاتِ وَصُـولُ
فَمـا العِلْـمُ إلاّ خشيـة الله والتُّقـى ... فكـلُّ تقـيٍّ فـي العُيـون جليـلُ

* اختارتْ هذه المرأةُ العبادةَ طريقاً، والورعَ سُلوكاً، ومحبّة الله رفيقاً، ولازمتِ الطّاعاتِ والفرائضَ، وحافظتْ على مرضاةِ اللهِ ومراقبة النّفس، فقد كانت ترجو لقاءَ اللهِ على حالٍ صافية وقلبٍ سليم.

* قال بعضُ أهلِ البصائر في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]: لما علمَ اللهُ سبحانه شدّة شوقِ أوليائه إلى لقائِه، وأنَّ قلوبهم لا تهتدي دونَ لقائه، ضربَ لهم أجَلاً وموعداً للقائِه، تسكنُ نفوسهم به، وأطيبُ العيش وألذّه على الإطلاق عيشُ المحبّين المُشْتَاقين المستأنِسينَ، فحياتهم هي الحياة الطّيّبة في الحقيقةِ، ولا حياةَ للقلبِ أطيب ولا أنعم ولا أهنأَ منها، وهي الحياةُ الطّيبة في قولهِ تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، ليس المرادُ منها الحياة المشتركة بينَ المؤمنين والكفّار، والأبرار والفجّار، من طيبِ المأكلِ والمشربِ والمنكح، بل ربما زادَ أعداءُ اللهِ على أوليائه في ذلك أضعافاً مضاعفةً؛ وقد ضمن اللهُ سبحانه لكلّ مَنْ عَمِلَ صالحاً أن يحييه حياةً طيّبةً، وهو صادقُ الوعدِ الذي لا يخلف وعده، وأيّ

حياة أطيب مِنْ حياة مَن اجتمعتْ همومه كلّها، وصارت همّاً واحداً في مرضاةِ الله؟، ولم يتشعبْ قلبُه، بل أقبلَ على اللهِ، فإنْ سكَتَ سكَتَ باللهِ، وإن نطقَ نطق باللهِ، وإن سمعَ فَبِهِ يسمع، وإنْ بَصر فَبِهِ يبصرُ، وبه يحيا، وبه يموتُ، وبه يُبعث[1].

* وهذه المرأةُ كان همُّها ذلك، فهي تنظرُ إلى الأمورِ جميعها بمنظارِ مرضاةِ اللهِ ومحبّته، حتى غدت معلّمة الورعين والزّهاد.

* آنَ لنا أنْ نتعرَّفَ هذه الفاضلة العابدة الورعة، والتي أثنى عليها الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل، وحَمِدَ طريقتها وشهد بفضلها. وفاضلة هذه الصَّفحات اسمها: مُخَّةُ بنتُ الحارث المروزيّة ثمّ البغدادية[2]، الزّاهدة الصّالحة التّقية الورعة، أخت بشْر بن الحارث الموفّق في الورع والزّهد، المعروف ببشر الحافي.

* ولم تكن مخّة[3] أخت بشرٍ وحيدةً في الوَرَع، وإنّما كان له أخواتٌ غيرها قد بلغن السُّهَا في الزّهد والعِلْم والورع؛ قَال الخطيبُ البغدادي، وابن خلّكان ـ رحمها الله ـ: كان لبشر ثلاث أخوات وهُنّ: مُضْغَة، ومُخَّة، وزُبْدة، وكُنَّ زاهداتٍ، عابداتٍ، ورعاتٍ، وأكبرهُن مُضْغَة وزبدة تكنى أمّ علي، وكانت مضغةُ أكبر من بشر[4]. ولزبدة هذه أقوالٌ نفيسة منها: أثقلُ شيءٍ على العبد الذّنوب، وأخفُّه عليه التّوبة، فماله يدفعُ أثقل شيءٍ بأخفّ شيء[5].

---

(١) انظر الدّاء والدواء (ص٣١٤ و٣١٥) باختصار يسير جداً، طبعة دار ابن كثير بتحقيق: يوسف علي بديوي.

(٢) تاريخُ بغداد للخطيبِ البغدادي (١٤/ ٤٣٦ و٤٣٧)، وحليةُ الأولياء (٨/ ٣٥٣)، وصِفَـةُ الصَّفـوةِ (٢/ ٥٢٤ ـ ٥٢٧)، ووفيـاتُ الأعيـان (١/ ٢٧٦ و٢٧٧)، ومـرآةُ الجنَان لليافعي (٢/ ٩٣ و٩٤)، وأعلام النّساء (٥/ ٣١ و٣٢).

(٣) «مخة»: معناها نقي العظم، وخالص كلّ شيء. (القاموس المحيط ص٣٣٢).

(٤) انظر: تاريخ بغداد (١٤/ ٤٣٦)، ووفيات الأعيان (١/ ٢٧٦) مع الجمع بينهما.

(٥) انظر: صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٥٢٦).

* ويبدو أنَّ مخَّةَ ـ رحمها الله ـ كانَ لها كبيرَ الأثرِ في أخيها بشْر الحافي، الذي فاقَ أهل عصْرِهِ في الزُّهد والورع، وتفرّدَ بوفورِ العقلِ، وأنواعِ الفضل، وحسنِ الطّريقة، واستقامةِ المذهب، وعزوفِ النّفس، وكرمِ الشَّمائل، لذلك لم يملكْ ببغدادَ ملكاً قطّ، وكان لا يأكلُ إلا من مالٍ حلالٍ لشدّة ورعه وتحرّيه لمصدرِ المال.

* أمّا أختُه مضغة، وهي أكبرُ البنات الثّلاث، فقد كانت تنعمُ في حياةِ الأُنْس مع اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ وتسلكُ مَسْلَك الورعِ والزّهد والتّوكل على الحيّ الذي لا يموتُ، ولذا فقد كان بشر يجلُّها ويكْبِرها إلا أنَّ الأجَلَ قد وافَاها فماتتْ قبل موته، فحزنَ عليها حُزناً شديداً، وبكى بكاءً شديداً لفقدها، وداومَ على البكاءِ مدّة حتى قيلَ له في ذلك فقال: قرأتُ في بعض الكتب؛ أنَّ العبدَ إذا قصَّرَ في خدمةِ ربِّه سَلَبَه أنيسه، وهذه أختي مضغة كانت أنيسي في الدنيا[1].

مُخَّـةُ وأثرُهَـا فـي بِشْـرٍ:

* يبدو من أخبارِ مخّة بنت الحارث أنَّها كانت تعملُ في غَزْلِ القطن، فكانت تشتريه، ثمّ تغزله وتبيعه، وتنفقُ من عملِ يدها؛ وقد ورَّثَتْ أخاها بشْراً وعلّمَتْه هذه الصَّنْعَة، فكان يعملُ المغازل ويعيشُ منها حتى ماتَ.

* وكانت مخَّةُ ـ رحمها الله ـ على جانبٍ كبيرٍ منَ الصَّلاح والتَّقوى، والصَّلاة والقيام وصيام التّطوّع، فقد أخرجَ الخطيبُ البغدادي عن أبي عبد الله القحطبي قال: كان لبشرٍ أختٌ صوّامة قوّامة[2].

* وكانت مخَّةُ مع صيامِها وقيامِها وصلاتِها وعبادتِها عفيفةَ النَّفسِ، لا تقبلُ منْ أحدٍ شيئاً، بل كانِ مغزلها كالسَّيف في يَدِ المجاهد الذي يغنمُ، لذلك فقد نشأَ بشْرٌ على هذا المنوال، فكان لا يقبلُ من أحدٍ عطيّة أو هديّة،

---

(١) انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٢٧٦) بتصرف يسير، وانظر: تاريخ بغداد (١٤/ ٤٣٦)، وصفة الصفوة (٢/ ٣٢٧).

(٢) تاريخ بغداد (١٤/ ٤٣٧)، وانظر: صفوة الصفوة (٢/ ٥٢٤).

وكان يقولُ: لو علمتُ أنَّ أحداً يعطي للهِ لأخذتُ منه، ولكنْ يعطي بالليلِ، ويتحدَّثُ بالنَّهار؛ وقد وُفِّقَ الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ في وصفِ بشر بقوله: الإمامُ العالمُ المحدّثُ الزَّاهدُ الرَّباني القدوةُ، شيخ الإسلام، أبو نصر المروزي ثمَّ البغدادي المشهور بالحافي، ابن عمّ المحدث علي بن خشْرم[1]. وقال: كان رأْساً في الورعِ والإخلاص.

* ويُتَنَسَّم من أخبار مخَّة أنّها كانت تألفُ أخاها بشراً، وتُكْبرُ زهده الذي لا يطيقه إلا عظماء الزّهاد، كما كان بشرٌ نفسه يجدُ في أخته مخّة مَنْبَعَ الورعِ والزُّهد، ولذلك إذا ألمَّ بهِ شيءٌ كان مرجعه إليها، فقد كان شديدَ التّحريَ للحلال، كثيرَ الورع.

* قال الذَّهبيُّ في «السِّير» متحدّثاً عن هذا الورعِ: أقام بشر بن الحارث بعبّادان يشْربُ ماءَ البحر، ولا يشرب من حياضَ السُّلطان، حتى أضرَّ بجوفه، ورجعَ إلى أخته وجِعَاً، وكان يعملُ المغازل ويبيعها، فذاك كسْبه[2].

* ولم تكنْ هذه القصّة هي الوحيدةُ التي تركتْ أثراً في نفْسِ بشرٍ الحافي مع أخته، وإنّما هناك قصّةٌ نفيسةٌ تدلُّ على ذِروة الورعِ التي بلغها، وحرص على اقتعادِ سدّة الورع والزّهد بها.

* روى أبو عمران الوركاني طريقةَ زهد بشْر مع أختهِ مخّة بنت الحارث فقال: تخرّقَ إزارُ بشر الحافي، فقالت له أخته لما رأتْ حاله: يا أخي، إنَّ إزارَك قد تمزّقَ وتخرّقَ، وإنَّ هذا البردَ الشَّديد قد يؤذيك، فلو جئتني ببعضِ القطن، فأغزلُ لك مكانَ الخرق.

قال: فكان يجيءُ بالإستارَيْن[3] والثَّلاثة.

فقالت له: يا أخي إنَّ الغَزْلَ قد اجتمعَ عندي ويكفي لرقع الخرق، أفلا تسلمني إزارك كي أصلحه؟! فأعطاها الإزار، ثمّ أصلحَتْه، فقَال لها: هاتيه

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٦٩).
(٢) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٧١).
(٣) «الإستارَيْن»: «الإستار»: في الوزن: أربعة مثاقيل ونصف.

يا أُخَيّة، فأعطته إياه، فوزنه بشر، وأخرجَ ألواحه، وجعل يحسبُ الأساتير، فإذا به يجدُ أنَّ أخته قد زادتْ فيه، فقال لها: يا أختي، كما أفسدتِ الإزار فَخُذيه، ورفض أن يلبسه[1].

* وبهذه الأخلاق وهذا الورعُ بلغَ بشرٌ ذِرْوَة القناعة، فقد كان يرى أنَّ القناعة عزٌّ، وفي هذا أُثِرَ عنه قوله: لو لم يكن في القناعةِ شيءٌ إلا التَّمتّع بعزِّ الغنى لكان ذلك يجزيءُ. وكان ينشد:

أفَادَتْنِي القَنَاعَة أي عزٍّ	ولا عزٌّ أعزُّ منَ القَنَاعة
فخذْ منها لنفْسِك رأس مَالٍ	وصَيِّرْ بعدها التّقوى بضاعة
تَحُزْ حالَيْن تغنى عَنْ بخيلٍ	وتَسْعَد في الجنَان بصبرِ ساعة[2]

* وفي قصّةٍ أخرى شائقة تظهرُ معالمَ لطيفةٍ من آثارِ مخّةَ بنتِ الحارث في أخيها بشر الذي اقتادَ سُحبَ الزُّهد أمامَه، وحلّقَ فوقَ الغمام بورعِهِ، ولم يستجبْ لنوازع نفسهِ وشهواتها في أكْلةٍ واحدةٍ لمرّةٍ واحدةٍ في حياتِه، وإنّما كبحَ جماحَ نفسه وأخبرَ أختَه أنَّه يشتهي طعامها منذ أكثر من ربعِ قرن، ولكنْ لن يرجعَ في شيءٍ تركه لله ـ عزَّ وجل ـ ابتغاء الوصولِ لمرضاته ومغفرته.

* وعن هذه القصّةِ اللطيفةِ يحدّثُنا محمّد بنُ الهيثم من ذكرياتِه عن مخةَ فيقول: كنتُ أدخلُ على أختِ بشر بنِ الحارث في صِغَري، ففي ذاتِ يوم منَ الأيّام، أعطتني أخته كبّة من غَزْلٍ، وقالت لي: يا محمّد، خُذْ هذه الكبّة، واذهبْ بها إلى السُّوق وَبِعْها، ثمّ اشْترِ لنا بثمنها خبزاً وسَمكاً.

* قال محمُّد بنُ الهيثم: فذهبتُ إلى السُّوق وفعلتُ ما أمرتْنِي به، وأحضرتُ لها ما طلبَتْ؛ ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى جاء أخوها بشْر، فدخل فرأى الخبزَ والسَّمَك موضوعاً في البيتِ؛ فقال لها بشْرٌ متعجّباً: ما هذا الطّعام يا أختي؟ قالت له: يا أخي، لقد رأيتُ في المنام أمّي وأمّك، فقالت لي: يا بنتي، إذا أردتِ فرحي وإدخالكِ السّرورَ عليَّ، فبيعي من

(١) انظر: صفة الصفوة (٢/ ٣٢٨ و٣٢٩) بتصرف يسير.
(٢) شذرات الذهب (٣/ ١٢٥).

غزلك شيئاً، ثمّ اشتري خبزاً وسمكاً، فإنَّ أخاك بشْراً يشتهي ذلك منذ مدّة طويلة.

* قالت: فلمّا ذكرتُ له أمّي وأمّه، استعبرَ باكياً، ثمّ قال: رحمَ اللهُ أمّي، وأحْسَنَ نُزلَها، تغتمُّ من أجلي حيةً وميتةً. ثمَّ إنَّ بشراً قال لأخته والدُّموع لا تفارقُ عينيه: والله يا أختي، إنّي لأشْتَهيه منذ خمسٍ وعشرين سنة، ما كان الله ـ عزّ وجلّ ـ يراني أنْ أرجعَ في شيءٍ تركته لله.

* قال محمّد بنُ الهيثم: ثمَّ إنَّ بشراً ترك الطَّعَام، ولم يأكلْ منه[1].

* وكان لبشر ابن أخت يسمّى عمر، فكان يحضُّه على العمل ويقول له: يا بني، اعملْ فإنَّ أثرَه في الكفّين أحسنُ من أثرِ السَّجدة بينَ العينَيْن[2].

* وبلغَ بشرٌ مرتبةً عاليةً في الورع، وكانت أختُه مخّة معلّمةً له بذلك، لذا فإنَّه لم يشْغَلْ نفسه إلا بالعبادة، ولكنه عزَفَ وأعرضَ عن الزّواج[3]

---

(١) انظر: حلية الأولياء (٨/ ٣٥٥) بشيء من التصرف.

(٢) شذرات الذهب (٣/ ١٢٤).

(٣) يمكنني أنْ أقولَ: إنَّ عزوفَ وإعراضَ بشر الحافي ـ رحمه الله ـ عنِ الزَّواج خاصّ به، ولا يُقْتدى به في هذا المضمار، ولا بغيره مهمَا بلغَ من درجةٍ علمية، أو ارتقى ذروة الزّهد والورع؛ لأنَّ الزَّواج سُنَّةٌ من سُننِ الأنبياء والمرسلين، وبذلك جرتِ العادةُ في الخلْقِ أجمعين.

لذا فإنّه ينبغي أنْ يرغبَ كلُّ مسلمٍ ومسلمة في الزَّواج؛ لما يترتّبُ على ذلك من مصَالحِ الدِّين والدنيا، ولما في ذلك منَ التّعاونِ على الحياةِ الاجتماعيةِ، ولما في ذلك أيضاً منَ السُّرور والغبطة، وراحةِ النفس وطمأنينة القلب.

ثم إنَّ الزَّواج سببٌ من أسبابِ وجود الأولادِ الذين هم قرّة العُيون، كما أشار بذلك القُرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، ناهيك بأنَّ الزَّواجَ من سننِ الرسلِ والمرسلين، أليسَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ قد قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]؟؟!

وقد امتنَّ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ على عباده بالأزواج والبنين، وقال عزَّ شأنه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النَّحل: ٧٢]. =

تورّعاً وخوفاً من عدم القيام بحقّ الزّوجية، وكان يقول: لا يفْلحُ مَنْ أَلِفَ أفخاذَ النّساء[1].

* ذكر ابنُ العماد في «شذراته» إعراض بشْر عنِ الزَّواجِ فقال: ولم يتزوجْ بشرٌ قطّ، ولم يعرفِ النِّساء، قيل له: لِمَ لا تتزوّج؟

* قال: لو أظلّني زمانُ عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عليه ـ وأعطاني كنتُ أتزوّج.

* وقيل له: لو تزوجتَ تمَّ نُسْكُكَ.

* قال: أخافُ أنْ تقومَ الزَّوجةُ بحقّي، ولا أقومُ بحقّها؛ قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨][2].

* قال الإمامُ أحمد بنُ حنبل ـ رحمه الله ـ: لو تزوّجَ بشرٌ لتمَّ أمْرُه[3].

* إنَّ حقيقةَ زهد بشر قد تعلَّمها من أختِه مخّة، واقتفى بذلك أثرها، وكان يذكرُ ذلك دائماً بقوله: تعلّمتُ الزُّهدَ من أختي، فإنّها كانت تجتهدُ ألاّ تأكل ما لمخلوق فيه صُنع[4].

وَرَعُهـا وثَنـاءُ الإمامِ أَحْمَـد عَلَيْـهَـا:

* إذا كان الإمامُ أحمد بنُ حنبل ـ رحمه الله ورضي عنه ـ قد شهدَ لمخّةَ بالفَضْل، فإنّنا نضعُ هذه الشَّهادة في ذِرْوة الفَضْل، ونعتزُّ بها، ونكْبِرُ

= هذا؛ وإن كثيراً ممن عَزَفُوا عن الزّواج عَزَف الدَّهرُ عن تخليدهم، فكانوا كأمْسِ الدَّابر، وكانوا نسياً منْسياً، فالزّواجُ سنّة الرّسولِ ﷺ، وقد نهى النبيُّ ﷺ ثلةً من أصحابه عزموا على ترك الزّواج، والانقطاع إلى العبادة، فهداهم إلى صراطِ العزيز الحميد، وقال لهم: «لكنّي أصومُ وأفطر، وأصلّي وأنام، وأتزوّجُ النّساء، فمن رغبَ عن سنّتي فليس منّي» متّفقٌ عليه.

(١) انظر: سِيَر أَعْلام النُّبلاء (١٠/ ٤٧٢).

(٢) شذرات الذهب (٣/ ١٢٤).

(٣) تاريخ بغداد (٧/ ٣٣)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٧٢).

(٤) تاريخ بغداد (١٤/ ٤٣٧)، ووفيات الأعيان (١/ ٢٧٧).

صاحبتَها، فأكرمْ بهذه الشّهادة! وأكرمْ بهذه المرأة!

* والإمامُ أحمدُ ـ رحمه الله ـ لا يجامِلُ أحداً، ولا يثني على أحدٍ إلا إذا فاحَ عَرْفُ الفَضْل مِنه، فهو شيخُ الأمّة، وعالمُ أهلِ العصر، وإمامُ المحدّثين والفقهاء والورعين والزّهاد، وكان من خواص أصحاب الإمام الشّافعي ـ رحمه الله ـ، وكان الشّافعي يأتيه إلى منزلِه، فعُوتب في ذلك فأنْشَد:

قَالُوا يَزُورُكَ أَحْمد وتزورُه ... قُلتُ الفضائلُ لا تُفارقُ منزلَهْ
إنْ زارني فبِفَضْلِه أو زُرْتُه ... فَلِفَضْلِه فالفَضْلُ في الحالَيْنِ لَهْ

* هذا هو الإمامُ أحمدُ يشهد بالفَضْلِ لهذهِ الزّاهدة، كما ويشيدُ بورعها الذي لا يُلْحقُ شأْوُه، وخصوصاً عندما تُسأل عن الورع.

* حدَّثَ عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ بنِ حنبل(١) عن ورع مخّةَ بنت الحارث فقال: جاءت مخةُ أخت بشر بن الحارث الحافي إلى أبيَ، فقالت: السّلام عليكم وقالت له: يا أبا عبد الله، إنَّ رأس مالي الذي أملكه هو دانقان، وإنّني أذهبُ إلى السُّوق، فأشتري بهما قطناً، ثمَّ أعملُ في غَزْلِ ذلك القطن، وبعد ذلك أبيعه بنصفِ درهم؛ فأنفقُ دانقاً واحداً في أسبوع، وذلك من الجمعةِ إلى الجمعةِ وأتقوّتُ به، وقد اتّفق أن مرَّ ابنُ طاهر الطَّائف ليلةً، وكان معه مشعل وله ضوءٌ وشعاع، فوقفَ يكلِّمُ أصحابَ المصالح، وغزلتُ طاقاتٍ في ضوئه ثمَّ غاب عني، فعلمتُ أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ سيطالبُني في ذلك، وأنا

---

(١) كان للإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ ولدان عالمان هما: صالح، وعبد الله، فأمّا صالح فقدَ وُلد سنة (٢٠٣ هـ)، وتوفي في رمضانَ سنة (٢٦٦ هـ)، وكان قاضي أصبهان فمات بها.
وأمّا عبد الله فكنيته أبو عبد الرحمن، وبه كان يكنى الإمام أحمد، وكان عبدُ الله إماماً خبيراً بالحديث وعلله، مقدّماً فيه، وكان منْ أروى النّاس عن أبيه، وهو الذي رتّب مُسْنَد والده، وكان ثبتاً فهماً، ثقة. ولد عبد الله بن أحمد في جمادى الآخرة سنة (٢١٣ هـ)، وماتَ في جمادى الآخرة سنة (٢٩٠ هـ)، وعمره (٧٧ سنة)، وكان كأبيه رحمهما الله.

(أُخذَتْ هذه الترجمة عن بضعة مصادر).

أرجوك أنْ تخلّصني من هذا، خلَّصَك اللهُ تعالى مما تكره.

* فقال لها أبي: يا هذه، تخرجين الدّانقين، ثمّ تبقينَ بلا رأسِ مال حتى يعوّضك اللهُ خيراً من ذلك.

* قال عبدُ الله بنُ أحمد: فقلتُ لأبي: لو قلتَ لها: لو أخرجتِ الغزل الذي أدركتِ فيه الطّاقات في ضَوءِ المشعل لكان أصلح لحالها.

* فقال أبي: يا بني، إنَّ سؤالَ هذه المرأة الورعة الزّاهدة لا يحتمل التّأويل.

* ثم إنّ أبي قال لي: مَنْ هذه المرأة يا بني؟!

فقلت: يا أبتِ هي مخّة بنتُ الحارث المروزية أخت بشر الحافي.

فقال أبي: من ها هنا أتيتُ، ومن ها هنا أتى الورع[1].

* وفي روايةٍ أخرى تقول: إنَّ مخّةَ أخت بشْر الحافي أتتِ الإمامَ أحمد بنَ حنبل تستفتيه وقالت له: يا أبا عبد الله، إنَّ مشاعل الولاةِ والطَّائفين تمرُّ بنا، ونحنُ جلوس على سطوحنا، أفيحلُّ لنا أن نغزِلَ في شعاعها؟! أَفْتِنا بهذا يرحمك الله.

فقال الإمامُ أحمد: مَنْ أنتِ يا أمةَ الله يرحمك الله؟!

فقالت: أنا مخّة ابنة الحارث أخت بشر الحافي.

فقال الإمامُ أحمد ـ رحمه الله ـ قولاً فيه شهادة زاكية لها ولبيتها:

* صدقتِ من بيتكم يخرجُ الورعُ الصَّافي؛ أو قال: آه يا آل بشر لا عدمتكم، لا أزالُ أسمعُ الورعَ الصَّافي من قبلكم. ثمَّ إنَّه قال لها لما عَلِم أنّها تَنْشُدُ الورعَ وتتحرّاه: يابنة الحارث، لا تغزلي في شعاعها[2].

---

(١) انظر: تاريخ بغداد (١٤/ ٤٣٧)، وصفة الصفوة (٢/ ٣٢٥ و٣٢٦)، ومرآة الجنان (٢/ ٩٤) مع الجمع والتصرف بينها؛ وانظر: وفيات الأعيان (٨/ ٢٧٦ و٢٧٧)، وأعلام النساء (٥/ ٣١ و٣٢).

(٢) حلية الأولياء (٨/ ٣٥٣)، ومرآة الجنان (٢/ ٩٤) مع الجمع والتصرف اليسير.

قِصّــةٌ أُخْرى مَـعَ الإمَـامِ أَحْمَـدَ:

* يبدو أنَّ ضيفتنا مخّة ابنة الحارث كانت على جانبٍ كبيرٍ من العلْم، كما كانت على جانبٍ كبيرٍ منَ الورع، ومع ذلك كانت تستفتي الإمام أحمد بن حنبل في أمورٍ تدلُّ على فقهها وزهدها، فقد كان فؤادُها مُعَلَّقاً بالحقِّ، تخشى أن تذهبَ أعمالُها هباءً منثوراً، لذلك كانت تُقْبِل لتسألَ عن الحلالِ والحرام.

* قال عبدُ الله بنُ أحمد بنِ حنبل: كنتُ معَ أبي يوماً من الأيّام في المنزل، فدقَّ داقٌّ البابَ؛ فقال لي: اخرجْ فانظر مَنْ بالبابِ؛ فخرجتُ فإذا بامرأةٍ، فقالت لي: استأذن لي على أبي عبد الله. قال: فاستأذنتُه؛ فأَذِنَ لها وقال: أدْخِلْها.

* قال عبدُ الله بنُ أحمد: فدخلتْ، فسلمتْ عليهِ، وقالت له: يا أبا عبد الله، إنّي امرأة صَنَاع اليد، أغزلُ في الليلِ على ضوء سراج لنا، وربما طفىء السّراج، فأقوم بالغَزْل على ضوءِ القمر، فهل عليَّ أنْ أبيّن للناس غزل السّراج من غَزلِ القمر؟! فقال لها أبي: يا هذه، إن كان عندك فرقٌ بينهما، وتستطيعي أَنْ تعرفي الفرقَ، فعليك أنْ تبيِّني ذلك.

* ثمَّ إنَّ المرأةَ سألتْ أبي سُؤالاً يدلُّ على فِقْهها وعَقْلها فقالت له: يا أبا عبد الله، أنينُ المريضِ هل هو شكوى؟

* فقال لها أبي: إنّي أرجو ألا يكون شكوى؛ ولكنْ هو اشتكاء إلى الله تعالى. ثمّ إنَّ المرأة انصرفتْ.

* قال عبد الله: فقال لي أبي: واللهِ يا بني، ما سمعتُ إنساناً قطُّ يسأل عن مثلِ ماسألت هذه المرأة العالمة الفقيهة! اذهبْ فاتبعها.

* قال عبدُ الله: فتبعتُ تلك المرأة، إلى أنْ دخلت دارَ أبي نَصْرٍ بشْر الحافي، فعلمتُ حينذاك أنّها أختُ بشر. وعند ذلك رجعتُ إلى أبي فقلت له: إنَّ هذه المرأة هي أختُ بشر الحافي.

* فقال أبي متعجباً: هذا واللهِ هو الصَّحيح، مُحال أنْ تكونَ هذه المرأةُ

إلا أخت بشر الحافي، فالزّهد والورع من علامات سؤالها[1].

* قال ابنُ الجوزي ـ رحمه الله ـ: قرأتُ بخط أبي علي الرّاذاني قال: كانت مخّة من بينِ أخوات بشر، تقصدُ أحمد بن حنبل، وتسألُه عن الورعِ والتقشّف، وكان أحمدُ يعجبُ بمسائلها[2].

* هذه صفةُ أهل الزّهد، وأهل التّقشّف والورع، فكلّما أَذْهَبَ الأعمارَ طلوعُهم وغروبُهم، سالتْ منَ الأجفانِ غُروبهم[3]، وكلّما لاحتْ لهم في مرآةِ الفكْرِ ذنوبُهم، تجافتْ عن المضاجع خوفاً جنوبُهم، وكلّما نظروا فساءهم مكتوبهم ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]. شاهدوا الأخرى باليقين كرأي العين، وعلموا بمقتضى الدِّين أنَّ التُّقى دَيْن، قد قنعوا بكسرتَيْن وجرعتَيْن، هذا مأكولهم وهذا مشروبهم ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٥].

* وقد كانت مخّةُ ومَنْ شابَهها ممن عنَاهم الشَّاعر بقولهم:

إلى الزُّهادِ في الدُّنيا ... جِنَانُ الخُلْدِ تشْتَاقُ
عَبِيدٌ مِنْ خَطَايَاهُم ... إلى الرّحمنِ أُبَّاق[4]
حَدَتهمُ نَحْوهُ الرَّغْبَةُ والـ ... ـرّهبةُ فانْسَاقُوا
وراقَتْ لهمُ الدُّنيا ... وعاقَتْهم فما انْعَاقُوا
عَلَيْهِم حينَ تَلْقَاهُم ... سَكِيْنَاتٌ وَإِطْرَاقُ

---

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٢٧٦)، وتاريخ بغداد (١٤/ ٤٣٦ و٤٣٧)، ومرآة الزمان (٢/ ٩٣ و٩٤)، وصفة الصفوة (٢/ ٥٢٥) مع الجمع والتصرف بينها. وأعتقد أنَّ هذه القصة من القَصص المتكلفة لتزيين شخصية هؤلاء الزهاد نساءً ورجالاً، هذا؛ وإن سِمَةَ التكلّف تبدو من خلال القصة.

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٥٢٦).

(٣) «غروبهم»: «الغرب»: عِرْقٌ في العين يسقى ولا ينقطع، والدّمع، ومسيله، أو انهلاله من العين، والفيضة من الدَّمع. (القاموس المحيط ص١٥٣)، والمعنى هنا: سالت دموعُهم من خشيةِ الله تعالى.

(٤) «الأبّاق»: يُقال: أبق العبد: ذهب بلا خوف، أو استخفى ثم ذهب، والمعنى هنا: فروا إلى الله تعالى.

يَضجُّـــــــونَ إلـــــــى اللهِ ودَمْـــــعُ العَيْـــنِ مهْـــرَاقُ[1]

* وبعد - قارئي العزيز -، فهذه امرأةٌ قد غَفلِ عنها التّاريخ غفلةً، لكنْه لم ينْسَها، وإنّما رسمها في دائرته، وحفظها في سجلّه لتكونَ من ربّات الورع والعبادةِ في عالَم النّساء النّاسكات. وأرجو أنْ أكونَ قد عرَّفْتُ - القارِىءَ الكريم - سيرةَ امرأةٍ عابدةٍ عاشت في مرحلةِ شباب الدّولة العبّاسية، وفي العصرِ الذّهبي لكبارِ العلماء والزّهّاد في الدّنيا، وفي عاصمة الخلافةِ في نهايةِ القرن الهجري الثّاني وأوائلِ القرنِ الثّالث.

* ولا نعلمُ متى توفيتْ مخّة بنتُ الحارث، إلا أنَّ وفاتها كانت بعد وفاةِ أخيها بشر[2] في حدودِ سنة (٢٣٠ هـ) على أغلب الظَّنِّ، والله أعلم.

تلكم مخةُ ابنة الحارث معلِّمةُ الزُّهَّاد، ومرشدةُ الورعين، وسيّدة زاهداتِ آل الحارث، فرحمها الله، وجعلها من الصَّالحين، والحمد لله ربِّ العالمين.

* * *

(١) إنَّ هؤلاء الزّهاد الذين عرفوا الله - عزَّ وجلَّ - معرفةً حقيقيةً، قد اتصلت قُلوبهم بهِ على أساسٍ صحيحٍ، فإنَّ دموعَهم في الدجى ذوارف، لما بين أيديهم من المخاوف، يغسلون بالبكاء ذنوب الصَّحائف، إذا جنَّ الليلُ فالقدم واقف، والدمعُ مساعد والحزن مساعف، يفزعون إلى التذكر إذا مسّهم طائف، أحوالهم عجاب وأمورهم طرائف، ولله درُّ مَنْ وصف أحوالهم فقال:

أولئـك قـومٌ إنْ بَنَـوْا أحسنـوا البِنَـا   وإنْ عاهدوا أوْفُوا وإنْ عَقَدوا شَدُّوا
وإنْ كـانـت النَّعماءُ فيهـم جَزوا بهـا   وإنْ أنعمــوا لا كـدّروهــا ولا كـدُّوا
وحـدَّثتنـي يـا سعـد عنهـم فـزدتنـي   جنوناً فزدني من حديثك يا سعدُ

(٢) توفي بشر الحافي في شهرِ ربيع الآخر من سنة (٢٢٦ هـ)، وقيل سنة (٢٢٧ هـ) ودُفن ببغداد.

وهنالك إشارات تدل على أن مخّة قد توفيتْ قبلَ أخيها بشر، إلا أنَّ هذه الإشارات لا توحي بأنّها هي المتوفاة قبل أخيها، بل تدلُّ على أنَّ أختها مضغة هي التي توفيتْ قبله، وقد بكاها كثيراً، وأشارَ إلى مكانتها في نفسه؛ والله تعالى أعلم.



٢٣
نفيسة بنت الحسن

الأَصْلُ الطَّاهِرُ الثَّابِتُ:

* هذه امرأةٌ سليلةُ المكارمِ والطُّهر، وإحدى نساءِ البيتِ النّبوي الطَّاهر، ممن أذهبَ اللهُ عنه الرّجس وطهّره تطهيراً، إنّها نفيسةُ بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ، السَّيِّدةُ المكرّمةُ الصَّالحةُ، العلويّةُ الحسنيّةُ الحُسينيةُ، الكريمةُ النَّسِيبةُ، صاحبةُ المناقبِ الجسيمة[1].

* ونفسيةُ ذات أصلٍ ندي شَذي ثابت الأصول، متطاول الفروعِ في ذرا المكارم، يعرفُها الخاصّ والعام، كما يعرف كمالَ أهلِ البيت، دونَ علامة، إذْ سيماهم في وجوههم دليلٌ عليهم يشهد لهم، ولقد أصابَ ابنُ جابر الأندلسي حينما قال:

جعَلُوا لأَبنَاءِ الرَّسُول علامةً
إنَّ العلامةَ شأْنُ مَنْ لم يُشْهَرِ

نورُ النُّبوّةِ في كريمِ وجوهِهم
تغني الشّريفَ عنِ الطِّرازِ الأَخْضرِ

* وقال محمّدُ بنُ إبراهيم بن بركة الدّمشقي المزّين المتوفى سنة (٨١١ هـ):

أطْرافُ تيْجَانٍ أتَتْ منْ سُنْدسٍ
خُضْرٍ بأعلامٍ على الأشْرافِ

---

(١) وفياتُ الأعيان (٥/ ٤٢٣ و٤٢٤)، وفواتُ الوفيات (٢/ ٦٠٧)، والنّجوم الزّاهرة (٢/ ١٨٥ و١٨٦)، وسير أعلام النّبلاء (١٠/ ١٠٦ و١٠٧)، وحُسْن المُحاضرة (١/ ٢١٨)، وشذراتُ الذّهب (٣/ ٤٣)، وخطط علي مبارك (٧/ ٣٠٧ ـ ٣١٢)، والدرُّ المنثور في طبقات ربّات الخدور (ص٥٢١ ـ ٥٢٤)، والحقيقة والمجاز للنابلسي (ص١٨٩ و١٩٠)، ورحلة ابن بطوطة (ص٣٤ و٣٥)، ومرآة الجنان (٢/ ٤٣ و٤٤)، والبداية والنهاية (١٠/ ٢٧٤)، وأعلام النّساء (٥/ ١٨٧ ـ ١٩٠)، ونور الأبصار (ص٢٠٧ ـ ٢١٤)، وجامع كرامات الأولياء (٢/ ٥٠٩ ـ ٥١٣)، والروضة الفيحاء في تواريخ النساء (ص٢٥٩ و٢٦٠) وغيرها كثير جداً.

والأَشْـــرفُ السُّلْطـــانُ خصَّهُـــمُ بهـــا
شَـــرفـــاً ليفـــرقهـــم مـــن الأطـــرافِ[1]

* ولدت هذه المرأة الشّريفة الصّالحة الخيّرة في البلدِ الأمين، في أمِّ القُرى مكة المكرمة سنة (١٤٥ هـ)، وأمُّها أمُّ وَلَد، تزوّجها إسحاق بن جعفر الصّادق بن محمّد الباقر، فولدت له ولديْن هما: القاسم[2]، وأمّ كلثوم.

* وبعد زواجها من إسحاق، تزوّجها الحسنُ بنُ زيد بن الحسن، فولدت له بطلةَ ترجمتها نفيسة، ذات المزايا النّفيسة.

وفي ظلالِ هذا البيت الطّاهر، نشأت نفيسةُ بين أنفاس النّبوّة، وعبقِ الطّهارة، وأنداءِ المكارم، وعلى هذه الخلال الطّاهرة، درجت نفيسةُ حتى غدتْ من أشهرِ نساء عصرها دِيناً وصيانة، وبلغت حدّاً من الصَّلاح والزُّهد لا مزيدَ عليه.

* كان أبوها الحسنُ بنُ زيد بن الحسن «أبو محمّد» شيخَ بني هاشم في زمانه، ومنَ الأشرافِ النّابهين، وهو معدودٌ من التّابعين، وكان بنو هاشم يرجعونَ إليه في أمورهم، حيث حبَاهُ اللهُ معرفةً وعِلْماً وفَضْلاً وفَصْلَ خِطَاب، ناهيكَ بما ألبسَهُ اللهُ من تاجِ الهيبةِ والدِّيْن وزكاءِ الأصل.

* ففي خلافة أبي جعفر المنصور[3] الخليفـة العبـاسـي، استعمـل

---

(١) انظر: شذرات الذّهب (٨/ ٣٨٧) طبعة دار ابن كثير المحقّقة؛ وسبب هذه الأبيات والتي قبلها، أنّه في سنة (٧٧٣ هـ) أَمَرَ السُلطان الملك الأشرف الأشراف أن يمتازوا عن النّاس بعصائب خضر على العمائم، فَفُعِل ذلك بمصر والشّام وغيرها.

(٢) قال الإمامُ الذّهبي ـ رحمه الله ـ: وكان أخوها القاسمُ رجلاً صالحاً، زاهداً، خيّراً، سكن نيسابور، وله بها عقب، منهم السّيد العلوي الذي يروي عنه الحافظ البيهقي (سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٠٧).

(٣) أبو جعفر المنصور، عبدُ الله بن محمّد العباسي، المؤسّسُ الحقيقي لخلافة بني العبّاس، كانت خلافته (٢٢) سنة، وكان ذا حزم وعزم ودهاء ورأي وشجاعة وعقل؛ رُوي أنّه لما عزم على قَتْل أبي مسلم الخراساني فيما كتب إليه ابن عمّه =

المنصور الحسنَ بنَ زيد أميراً على المدينة المنوّرة خمسَ سنوات كوامل، كان خلالها من أفضلِ النّاس رياسةً وشهامةً وقَدْراً، وشهدتْ نفيسة أيّام عزّ أبيها، ورأتْ مكانته ورِفْعَتَه بينِ النّاس، فلم تزدَدْ إلا عبادةً وتقرّباً من العلي الكبير، وكانت لا تُفارق مسجدَ النّبي[1] ﷺ.

* وطارت شُهرة الحسنِ بن زيد في الدّنيا، مما جعل أبا جعفر المنصور يعزله عنِ المدينة، ثمّ أوجسَ المنصور خيفةً في نفسه منَ الحسن بن زيد هذا، فاستدعاهُ إلى بغداد، وأودعَه غياهب السِّجن، بعد أنْ أخذَ ماله، وما كان يملكه، ولم يزلِ الحسنُ في حَبْس المنصور، حتى مات المنصور ليلة السَّبت، في السَّادس من ذي الحجّة سنة (١٥٨ هـ)، وهو في طريقِهِ إلى الحجّ.

* وبُويع بالخلافةِ لابنه المهدي فأَتَتْه الخلافةُ منقادةً تجرّرُ أذيالها، وكان المهدي محمود السِّيرة والعهد، محبّباً إلى الرَّعية، حسن الخُلُق، جواداً يجلسُ للمظالم بنفسه، وأخباره كثيرة، ولم يَلِ الخلافة أحَدٌ أكرمَ منه[2].

* وكان المهديُّ ـ رحمه الله ـ يعلمُ عِلْمَ اليقين ما للحسن بنِ زيد من مكانةٍ في نفوس النّاس، وماله من محبّةٍ في القُلوبِ على اختلافِ المشارب والأهواء؛ هنالك دعا بالحسن وأخرجه منَ السّجن، وأحسن مثواه، وردَّ

= عيسى بن موسى:

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكُنْ ذا رويّةٍ ... فإنَّ فسادَ الرّأيِ أنْ تَتَعجّلا

فكتبَ إليه المنصور:

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكُنْ ذا عزيمةٍ ... فإنَّ فَسَادَ الرّأيِ أنْ تَتَردّدا

وُلِدَ المنصور سنة (٩٥ هـ) وتوفي في ذي الحجة سنة (١٥٨ هـ) في مكةَ وعمره (٦٣) سنة. (مرآة الجنان ١/ ٣٣٤ ـ ٣٣٩).

(١) ذكر «مؤمن الشّلبنجي» أنَّ أباها الحسن كان يأخذ بيدها إلى القبر النّبوي الشَّريف ويقول: يا رسول الله، إنّي راضٍ عن بنتي نفيسة، ويرجع، فما زال يفعل، حتى رأى النّبي ﷺ في المنام وهو يقول: أنا راضٍ عن ابنتك نفيسة برضاك عنها، والحقُّ سبحانه وتعالى راضٍ عنها برضايَ عنها. !!! (نور الأبصار ص٢١٤ و٢١٥).

(٢) مرآة الجنان لليافعي (١/ ٣٥٦).

عليه كلَّ ما كان أخذَهُ أبوه المنصور منه[1]، وبالغَ في إكرامه وإعظامه، وعَرَفَ له مكانَهُ من البيتِ النّبوي الطَّاهر، ومكانته من النّاس، ومن بني هاشم بشكلٍ خاص. لذلك قرّبه وأدناه منه، فلم يزلْ معه، وطلب منه أنْ يرافِقه في رحلته إلى البيت الحرام لأداءِ فريضة الحجّ، واستجابَ الحسنُ، فخرجَ مع المهدي في حَجِّهِ سنة (١٦٨ هـ)، ولما كان بالحاجر[2] وافَتْهُ المنية، وعمره (٨٥) سنة، ـ رحمه الله تعالى ـ، وصلّى عليه عليّ بن المهدي[3].

* وكان لوفاةِ الحسن كبير الأثر في نَفْس السَّيِّدة نفيسة التي عرفت حقيقة الدّنيا، فعزَفتْ عنها، وتفرَّغَتْ لأمورِ دِيْنها وآخرتها، لتسجِّل بذلك سجلاً فريداً وضيئاً في مرآة جبين الأيّام، ولتكون درّةَ العقْدِ الفريد في نساءِ الأنام، في تلكم الأيّام.

صُــوَرٌ منْ زُهْـدِهَــا وَعبَادَتِهَــا:

* بلغتْ نفيسةُ ابنةُ الحسن شَأْواً بعيداً في العبادةِ والفلاح، وكانت منَ الصَّلاح والزُّهد بمكانٍ لا ترتقي إليه امرأةٌ ممن عاصرنَها، فمنذ بداية نشأتها، تعلَّقتْ بحبِّ كتاب اللهِ تعالى، فكانت موصولةَ القلب بالعزيزِ الحميدِ، تقرأ كتابه حين تصبحُ، وحين تمسي، وحين تُظْهِر، وواظبت على قراءته مدّة حتى حفظته، وأجادتِ استظهارَه كاملاً.

* ثم إنَّ نفسَها تاقتْ لمعرفةِ عُلوم القرآن، فراحتْ تتابعُ علومَ التَّفسير حتى رسخت في هذا الفنّ، وتمَّ لها ما أرادتْ، وغدتْ متفرّدة في معرفةِ تفسيرِ القُرآن العظيم، والوقوف على أسرارِ معانيه، والتَّبحُر في آفاقِ مثانيه،

---

(١) انظر: النجوم الزاهرة (٢/ ١٨٥ و١٨٦).

(٢) «الحاجر»: قرية مشهورة على خمسة أميال من المدينة المنورة. قال اللغويون عن معنى الحاجر: الحاجر الأرض المرتفعة التي وسطها منخفض. والحاجر أيضاً: ما يمسك الماء من شقة الوادي.

(٣) انظر: وفيات الأعيان (٥/ ٤٢٣ و٤٢٤) بشيءٍ من التصرّف اليسير.

فامتلأت نفسُها نوراً، وقلبها علماً وحكمةً من معرفتها إتقان علوم القرآن وحفظه وتفسيره[1].

* ولما اكتملتْ لها هذه الأمور النّفيسة، حرصتْ أشدَّ الحرص على الطَّاعات، وأداءِ الفروض، فكانت وهي في المدينةِ، ثمّ في بغداد تكثرُ من أداءِ فريضةِ الحجّ إلى البلدِ الأمين، وهنالك تتزاحمُ ذكرياتُ البلد الأمين والبيت العتيق في مخيلتها، فإذا بها تتعلَّقُ بأستارِ الكعبةِ الشَّريفة، وتناجي مولاها، وهي تذرفُ دموعَ الخشيةِ وتقول: إلهي وسيّدي ومولاي، متّعني وفرّحني برضاك عنّي.

* ولشدّة شغفها بفريضةِ الحجّ، ومتعتها في أداءِ هذه الفريضة، حجَّتْ ثلاثينَ حجّة في حياتها، وهذا شيءٌ عجيبٌ في حياة نساءِ ذلكَ العصر، لما كان من مشقَّةٍ في أداءِ هذه الفريضة العظيمة.

* ويبدو أنَّ نفيسة ـ رحمها الله ـ قد وجدت لذّةً عظيمةً في العبادةِ، ومناجاةِ اللهِ تعالى، فكانتْ كثيرةَ البكاءِ والخُضُوع بين يدي الله، تديمُ قيامَ الليل، والدُّعاء في الأسحارِ، ثمّ تصومُ النَّهار، بل كانت ممن سردْنَ الصِّيام أكثر من ثلث قرن من الزّمان، ووردَ أنّها كانت تقلِّلُ من تناولِ الطَّعام، فلا تأكل إلا مرّةً واحدةً في كلّ ثلاث ليال، وكانت في ذلك شديدةَ الورع، فلا تأكل من غيرِ مال زوجها شيئاً، خيفة أن يكونَ مال غيره مشوباً بشيءٍ من الحرام.

* إنَّ هذه العبادة المباركة التي اقتربت من نصفِ قرن، قد لفتت نظرَ زينب بنت يحيى المتوج ـ ابنة أخيها ـ، فوصفت صورة عبادتها، ولزومها الطّاعات فقالت: خدمتُ عمّتي نفيسة أربعين سنة، فما رأيتُها نامتِ الليل، ولا أفطرت بنهار، فقلتُ لها: أَمَا ترفقين بنفسك يا عمتاه؟

* فقالت: يابنة أخي، وكيف أرفقُ بنفسي، وقدّامي عقبات لا يقطعُها إلاّ الفائزون[2]؟!!

---

(١) انظر: الخطط التّوفيقية (٧/ ٣٠٧) بتصرف.

(٢) أعلام النّساء (٥/ ١٨٧) بتصرف يسير جداً.

* وكانت نفيسةُ مع هذا كلِّه ذات مال وغنى، فكانت تنفقُ أموالَها في الإحسان إلى الفُقَراء، والزّمنى، والمرضى، وعموم النّاس تبتغي بذلك وجْهَ الله ومرضاته[1].

زَوَاجُهَـا واستقرارُهَـا فـي مِصْـرَ:

* لما بلغتْ نفيسةُ مبلغَ النِّساء تزوَّجها ابن عمّها إسحاق بن جعفر المشهور بلقب «المؤتمن»، وأنجبتْ له ولداً اسمه القاسم، وبنتاً اسمها أمّ كلثوم.

* ومكثت نفيسةُ مدّةً في المدينةِ المنوّرةِ، ثمّ انتقلتْ إلى مصرَ مع زوجها، ولقدوم نفيسة مصر سبَبٌ لطيف، وذلك أنّها حجَّتْ ثلاثين حجّةً راكبةً في بعضها، وماشيةً في بعضها، وكانت تقرأُ القُرآن الكريم وتفسيره وتقول: إلهي عليّ زيارة قَبْر خليلك إبراهيم ـ عليه السّلام ـ، فحجّتْ سنة، وقَضَت حجتها، وتوجّهت مع زوجها إلى بيت المقدس، فزارت قَبْر الخليل، وأتتْ مع زوجها إلى مصرَ في رمضان، وذلك في سنة (١٩٣ هـ) وعمرها إذ ذاك (٤٨ سنة).

* كان لقدوم نفيسة إلى مصرَ أمْرٌ عظيم، فتلقّاها الرِّجال والنِّساء بالهوادج منَ العريش، ونزلتْ أوّلَ الأمْرِ عند كبيرِ التّجّار بمصر ويدعى: جمالُ الدِّين عبدُ الله بنُ الجصَّاص؛ وكان من أصحابِ المعروف والبِرّ، فأقامتْ عنده شهوراً يأتي إليها النّاسُ من سائرِ الآفاق للتبرّك، ثمّ إنّها تركت منزلَ ابن الجصّاص، وانتقلت إلى مكانِها المدفونة به الآن، وقد وهبَ لها هذا المكان السَّري بن الحكم أميرُ مصرَ آنذاك.

* ولِهبَةِ أمير مصر السّري بن الحكم بيت نفيسة قصّة عجيبة، وذلك أنّ بنتاً من بناتِ اليهود كانت مريضةً مرضَاً مزمناً، ولا يتوقّع أحدٌ شفاءها لملازمةِ المرض إياها منذ أمدٍ طويل، فجاءت أمُّ هذه البنت الزّمنة إلى

---

(١) الخطط التّوفيقية (٧/ ٣٠٨) بتصرف يسير.

نفيسة، وتركتها عندها، وذهبتْ إلى الحمّام، فشفَاها اللهُ ببركةِ السَّيّدة نفيسة - رضي الله عنها -.

* ولما كُتِبَ الشّفاء المفاجىءُ لهذه الفتاة اليهودية، أعلنت إسلامها على يَدِ نفيسة، وجاءت أمّها فرأت ابنتها معافاةً سليمةً، هنالك أسلمتِ الأمُّ أيضاً، ثمَّ امتدَّ ظلالَ الإسلامِ ليشملَ أبا الفتاة، وشملتْ تلكم النَّفحات أيضاً جماعةً من الجيران، حتى قيل: إنَّ عددَ مَنْ أسلمَ في هذه الحادثة سبعون نَفَراً ودَاراً في ذلك النّهار، أو تلك الليلة[1].

* وشاعتْ هذه القصّة في مصرَ، وفاح أريجُها في القاهرة، ولما علمَ النّاسُ ذلك، لم يبقَ أحدٌ إلا جاءَ يقصدُ زيارتها، ويتبرّك بها، وكثر النّاس عليها حتى اتخذوا إلى بابها طُرُقاً، هنالك طلبتِ الرّحيلِ إلى بلاد الحجازِ، وإلى موطنها الأصلي، فشقَّ ذلك على المصريين، وصَعُب عليهم فراقها، فسألوها الإقامة، ورجوها ألاّ ترحل، ولكنّها أَبَتْ ذلك، هنالك ركبَ إليها السّري بن الحكم، وسألها الإقامة في الدّيارِ المصرية، فقالت له: أيّها الأمير، إنّي امرأةٌ ضعيفة، وقد شغَلني أهلُ مصْرَ عن جَمْعِ زادي لمعادي، ثمّ إنَّ مكاني هذا قد ضاقَ بالجموعِ الكثيفة الغادية والرّائحة.

* فقال لها السّري: يابنة الكرام، وسليلة الأطهار الأخيار؛ أمّا ما تجدينَه من ضيق المكان، فإنَّ لي داراً واسعة في دربِ السِّباع، وإنّي أشهدُ اللهَ تعالى أنَّي قد وهبتُها لك، وأسألك أنْ تقبليها منّي؛ وأمّا الجموعُ الوافدة، فَلَكِ أن تقرري معهم موعداً، وذلك أن يكون في يومين في الجمعة إذا رغبتِ، واجعلي باقي أيّامك في خدمةِ العزيز الجليل.

* هنالك قبلتْ نفيسة هذه الشّروط، وجعلتْ للنّاس يومَ السَّبت، ويومَ الأربعاء، إلى أنْ لقيتْ وجْه ربِّها في هذا المكان[2].

---

(١) الخطط التوفيقية (٧/ ٣٠٩) بتصرف يسير.

(٢) الخطط التوفيقية (٧/ ٣٠٩) بتصرف يسير، وانظر الدر المنثور (ص٥٢٢)، والنجوم الزاهرة (٢/ ١٨٦)، ونور الأبصار (ص٢٠٨ و٢٠٩).

* ولما وردَ الإمامُ الشَّافعي ـ رحمه الله ـ مصر، كانت نفيسةُ تحسنُ إليه، وربّما صلَّى بها التَّراويح في شَهْرِ رمضان[1]؛ ويروى أنَّ الشَّافعيَ لما دخلَ مصر سنة (١٩٩ هـ) حضرَ إليها، وسمعَ عليها الحديث[2]، وكانت نفيسةُ تكرمه وترى له الفَضْل والمنزلة والمكانة العليا، وقد ورد أنَّ الشَّافعي قد زارَ نفيسة وهي من وراءِ حجاب وكان بصحبته عبد الله بن الحكم، وقال لها: يا نفيسة، ادعي لي[3]؛ ولما توفي الشّافعي، أُدخِلَتْ جنازته إليها، فصلَّتْ عليه في دارها.

نَفِيْسَــةُ وَعَالَــمٌ مِـنَ الكَرَامَــاتِ:

* قال صاحب «النّجوم الزّاهرة» عن نفيسة في ختام ترجمته لها: وهي صاحبةُ الكراماتِ والبُرهان، وقد شاع ذِكْرها شرقاً وغرباً[4].

* وقال علي مبارك ـ رحمه الله ـ في خُططه: وللمصريين فيها اعتقادٌ عظيمٌ، وهو باقٍ إلى الآن كما كان باق[5].

* وقال أيضاً: لما وردت مصرَ صار لها الشّهرة التّامة، وصار لها القبول التّام بين الخاص والعام[6]. وقال: وكراماتُها ومناقبُها جليلة، وقد أقبلَ على زيارتها في الحياةِ وبعد الممات خلْقٌ لا يحصَون منَ العُلماء والخلفاء والأولياء وغيرهم[7]. وقد أخذ أربابُ الدَّولة في العمارة بجوار ضريح السَّيدة نفيسة للتّبرّك بها قديماً وحديثاً، فمنهم صاحبة السِّتْر الرَّفيع، والحجاب المنيع، أمّ السّلطان الملك العادل سيف الدِّين أبي بكر بن أيوب،

---

(١) الحقيقة والمجاز (ص١٨٩).

(٢) وفيات الأعيان (٤/ ٤٢٤).

(٣) أعلام النّساء (٥/ ١٨٨) بتصرف يسير جداً. وانظر: الخطط التوفيقية (٧/ ٣٠٧).

(٤) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (٢/ ١٨٦).

(٥) الخطط التّوفيقية (٧/ ٣٠٨).

(٦) المصدر السابق (٧/ ٣٠٨).

(٧) المصدر السابق (٧/ ٣٠٩).

أنشأتْ رباطاً بجوارها، والملك النّاصر محمّد بن قلاوون أمر بإنشاءِ جامِعٍ بخُطْبَةٍ وشيّد بناءه.

* ولما مات أحمد بنُ العبّاس[1] المعروف بالأسمر سنة (٧٠١ هـ)، أمرَ السُّلطان محمّد بن قلاوون أنْ يُدفَنَ بالمشهد النّفيسي، فدُفِنَ هنالك، وبُنيتْ له قبّةٌ، وهو أَوَّلُ خليفة دُفنَ بمصر منَ العبّاسيين، وبجوار المشهد قبور جماعة من العبّاسيين[2].

* ومما لا ريب فيه أنَّ السَّيِّدة نفيسة ـ رحمها الله ـ كانت من الصَّالحات من النِّساء العوابد، وممن أثرت عنهنّ العبادة والتّقوى وخوف الله، إلا أنّنا من خلالِ قراءة أخبارها؛ أنه قد ورد عنها بعض الكرامات التي لا ترضاها هيَ في حياتها أو بعد مماتها، ولعلَّ سوادَ النَّاس هم الذين بالغوا في أخبارها، وألحقوا بها منَ الكرامات أشياء توصلُ بهم إلى الشِّرك ـ والعياذ بالله تبارك وتعالى ـ وخصوصاً بعد وفاتها، وإلى أيّام قريبة من أيامنا هذه.

* وللإمام الذَّهبيّ ـ رحمه الله ـ قولٌ نفيس عن نفيسة، يصلحُ أنْ نوردَه حيث قال: لم يبلغنا كبير شيءٍ من أخبارها[3].

* ومما يثلجُ الصُّدور، ويدفىءُ المقرور، ويقرُّ العيون المبصرة، ما أوردهُ الإمامُ الذَّهبيُّ عن المغالاة في حقّ السَّيِّدة نفيسة حيث قال: ولجهلةِ المصريّين فيها اعتقادٌ يتجاوزُ الوصف، ولا يجوز مما فيه منَ الشّرك،

---

(١) قال اليافعي: وفي سنة (٧٠١ هـ) توفي أميرُ المؤمنين أبو العبّاس أحمد العباسي، ودُفنَ عند السّيدة نفيسة ـ رضي الله عنها ـ، وكانت خلافته أربعين سنة وأشهر. (مرآة الجنان ٤/ ٢٣٥).

(٢) قال ابنُ العماد الحنبلي ـ رحمه الله ـ: توفي أبو العبّاس أحمد العباسي ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى سنة (٧٠١ هـ)، وصُلِّي عليه العصر بسوق الخيل تحت القلعة، وحضر جنازته رجال الدّولة والأعيان كلّهم مشاة، ودُفن بقرب السّيّدة نفيسة، وهو أوّل مَنْ دُفِنَ منهم هناك، واستمرّ مدفنهم إلى الآن، قاله السّيوطي (شذرات الذهب ٨/ ٦و٧) طبعة دار ابن كثير المحققة.

(٣) سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٠٦).

ويسجدون لها، ويلتمسون منها المغفرة.

* وللحافظِ ابن كثير ـ رحمه الله ـ قولٌ يتوافق مع ما قاله الذّهبي في المبالغة بكرامات السَّيدة نفيسة فيقول: وإلى الآن ـ أي: عصر ابن كثير وهو القرن الثّامن الهجري ـ قد بالغَ العامّة في اعتقادهم فيها، وفي غيرها كثير أَجدّاً، ولا سيما عوام مِصْر، فإنّهم يُطلقون فيها عباراتٍ بشعة مجازفة تؤدّي إلى الكُفْر والشِّرك؛ وألفاظاً كثيرة ينبغي أن يعرفوا أنَّها لا تجوز، وربما نَسَبَها بعضُهم إلى زينِ العابدين، وليستْ من سلالتِه، والذي ينبغي أنْ يُعْتَقد فيها ما يليقُ بمثلها منَ النِّساء الصَّالحات، وأصل عبادة الأصنام منَ المغالاة في القبور وأصحابها، وقد أمرَ النَّبيُّ ﷺ بتسويةِ القبور وطمسها، والمغالاة في البشر حرام، ومَنْ زعمَ أنَّها تفكُّ منَ الخشب أو أنَّها تنفعُ أو تضرُّ بغير مشيئةِ الله، فهو مشْرِك[1].

مِـنْ قَصَـصِ الكَرامَـاتِ المزْعُـومَـةِ:

* أمامي عددٌ هائلٌ منَ القَصَصِ والكراماتِ التي نُسِبتْ إلى السَّيِّدة نفيسة، لا يمكن قبولها بسهولةٍ وبساطة، أو وزنها في ميزانِ الشَّريعة السَّليم؛ حيث إنَّ بعضها يدعو إلى الضَّحكِ أحياناً، وإلى المغالطات التّاريخية التي لا يقبلها مَنْ له أدنى اطلاع على تواريخِ وفيات الأعيان في تاريخنا الوضيء الزّاهر.

* وها نحنُ أولاء نوردُ بعض تلكم القَصَص وهاتيكم الكرامات، ونُعلِّق على بعضها، ونتركُ بعضها لذوقِ القارىء الكريم، كيما يعالج ويناقش ويحاكم هذه الخُرافات التي تفسدُ المزاج، ناهيك بأنّها تشوّه الصُّورة الحقيقية للسَّيّدة نفيسة، وتفسد صفاء نفسها التي عرفتْ بها في حياتها.

---

(١) انظر: البداية والنّهاية لابن كثير (١٠/ ٢٧٤)؛ والحقيقة فهذا كلام نفيس من ابن كثير.

* فمن هذه القَصَص ما ادّعاه قوم بأنَّ السَّيِّدة نفيسة قد التقت رابعةَ العدوية، وكانتا متعاصرتين[1].

* وقريبٌ من هذا، بل ممّا يضحك ويبكي في آنٍ واحد هذه القصّة التي تجاوزتِ التَّاريخ لتؤكّد كرامةَ السَّيِّدة نفيسة، تقول القصّة:

* لما ظَلَمَ أحمد بن طولون قبل أنْ يعدلَ، استغاثَ النَّاسُ من ظلمه، وتوجَّهوا إلى نفيسة يشكونه إليها. فقالت لهم: متى يركب؟ قالوا: في غَد. فكتبتْ رقعةً، ووقفتْ بها في طريقه، وقالت: يا أحمد بن طولون؛ فلمّا رآها عرفها، فترجّل عن فرسه، وأخذَ منها الرقعة وقرأها، فإذا فيها: ملكتُم فأسرتُم، وقدرتُم فقهرتُم، وخولتم فعسفتُم، وردّت إليكم الأرزاق فقطعتم، هذا وقد علمتم أنَّ سهامَ الأسحار نافذةٌ غير مخطئة لا سيما من قلوبٍ أوجعتموها، وأكبادٍ جوّعتموها، وأجسادٍ عريتموها، فمحال أن يموتَ المظلوم ويبقى الظّالم، اعملوا ما شئتم فإنّا صابرون، وجوروا فإنّا بالله مستجيرون، واظلموا فإنّا إلى الله متظلّمون، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]؛ فَعَدَلَ لوقته[2].

* وسأوردُ بضْعَ قَصَصٍ أتركُ الحكم عليها للقارىء الكريم، لكي يدركَ

(١) هذا الادعاء باطل، حيث إن نفيسة ولدت سنة (١٤٥ هـ) بينما كان موت رابعة العدوية سنة (١٣٥ هـ) ـ على رأي بعضهم ـ فكان بين مولد نفيسة وموت رابعة عشر سنين.

(٢) انظر القصة في أعلام النساء (٥/ ١٨٨). وهذه القصّة المُخترعة تنافي التّاريخ، حيث إنَّ أحمدَ بنَ طولون المذكور قد وُلدَ في سامراء في (٢٣) رمضان سنة (٢٢٠ هـ)، ودخل مصر سنة (٢٥٤ هـ)، ومات سنة (٢٧٠ هـ) بمصر، ونفيسة ماتتْ سنة (٢٠٨ هـ)، وبين مولده ووفاتها (١٢) سنة فمتى التقيا وكيف؟!!
ثم إنَّ نفيسةَ كانت تقرأُ القرآن فقط، ولا تحسنُ الكتابة، فمتى كتبتْ هذه الرسالة التي يعجزُ فحولُ البلغاءِ عن صياغتها؟! ناهيك بأنَّ أسلوبَ هذه الرسالة يقتربُ من القرن الرابع الهجري عصر النثر الفني، ولكن هكذا طابَ لواضعِ القصّة أن يتخطى الزّمان، ويجمعَ بين الأشخاص!!

مدى السُّخرية والسُّخف فيما نُسِبَ إلى نفيسة، فمن ذلك ما أوردهُ مؤمن الشَّبْلَنْجِي في كتابه «نور الأبصار» عن كراماتِها حيث أوردَ عن سعيد بنِ الحسن قال: توقَّفَ النّيلُ في زمنِ نفيسة ـ لاحِظْ توقّف النّيْل ـ، فجاءَ النَّاسُ إليها، وسألوها الدُّعاء، فأعطتْهُم قناعهَا، فجاؤوا به إلى البَحْر ـ أي: النّيل ـ وطرحوه فيه، فما رجعوا حتى أوفى البحر، وزادَ زيادةً عظيمةً[1].

* وذكرَ الشَّبْلَنْجِي أيضاً في كتابه أنَّ «جوهرة» جارية السَّيِّدة نفيسة أخذتْ إبريقَ السَّيِّدة تملؤهُ، فوضعَتْهُ، فجاءَ ثعبانٌ يتمسَّحُ برأسهِ كأنَّه يتبرَّك به[2]. ـ لاحظ تبرّك الزَّواحف بالإبريق ـ.

* ومع فيضِ الكرامات المزعومة، يُروى أنَّه استجارَ بالسَّيِّدة نفيسة رجلٌ ثري مشهورٌ من ظلْمِ بعض الولاة، وتَعَدِّيهِمْ عليه، وأخْذِهم لماله، حتى غدا فقيراً لا يملكُ شيئاً، فدعت له، فلم يلبثْ أنْ عادَ معزّزاً مكرّماً، فأرسلَ إليها بمالٍ عظيم شُكراً لها؛ فوزّعَتْه على الفقراء كلّه، وكانت في ذلك اليوم لا تملكُ قوتَ يومها.

* واقرأ هذه الكرامة التي يعتقدُها كثيرٌ ممن أكلتِ الخرافات عقولَهم؛ تقولُ الكرامةُ العَجْفَاء: قيل لزينب بنت أخي السَّيِّدة نفيسة: ما كان قوتُ السَّيِّدة نفيسة؟

* قالت: كانت تأكلُ في كلّ ثلاثةِ أيّام أكلةً، وكانت لها سَلَّةٌ معلّقة أمامَ مصلاها، فكانت كلّما اشتهتْ شيئاً وجدته في السَّلْة، وكنتُ أجدُ عندها مالا يخطرُ بخاطري، ولا أعلم مَنْ يأتي به!! فتعجَّبْتُ منْ ذلك!! فقالت لي: يا زينب مَنِ استقامَ لله تعالى كان الكونُ بيده وفي طاعته[3].

---

(١) نور الأبصار (ص٢١٠).

(٢) انظر: نور الأبصار لمؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجي (ص٢٠٧ ـ ٢١٤) حيث تجد فيه مثل هذه القصص التي لا تسمنُ ولا تغني من جوع، ناهيك بركاكتها، وهلهلتها!!

(٣) انظر: نور الأبصار (ص٢٠٧).

* ومن كراماتها: ما رُوي أيضاً أنَّ فتاةً يهودية قد أصابها مرضٌ أقعدها عنِ المشي سنواتٍ طويلة حتى يئستْ ويئسَ أهلُها من شفائها، ولكنَّها لجأت إلى السَّيّدة نفيسة فشُفيت، فكيف كان ذلك؟! وكيف لحقَ الشِّفاءُ هذه المسكينة المُقْعَدة؟!

* تقولُ القصّة المزعومة: كان في جوارِ نفيسة حينما قدمت إلى مصر - ونزلت في دار جمال الدِّين عبد الله بن الجصّاص فأقامت بها مدّة شهور - يهود من جملتهم امرأة يهودية لها ابنة زَمِنَة لا تقدرُ على الحركة، فأرادتِ الأمُّ أنْ تذهبَ إلى الحمّام، فسألت ابنتها الزّمنة أنْ تُحملَ إلى الحمام، فامتنعتِ البنتُ من ذلك، فقالت لها أمّها: تقيمين في الدّار وحدك؟!!

* فقالت لها: أشتهي أنْ أكونَ عند جارتنا الشَّريفة حتى تعودي.

* فجاءتِ الأمُّ إلى السَّيّدة نفيسة، واستأذنتها في ذلك، فأذنتْ لها، فحملتْها ووضعتْها في زاويةٍ من البيت وذهبت، ثمَّ إنَّ السَّيِّدة نفيسة توضأت، فجرى ماء وضوئها إلى البنتِ اليهودية، فألهمها اللهُ سبحانه وتعالى أن أخذتْ من ماءِ الوضوء شيئاً قليلاً بيدها ومسحتْ به على رجليها، فوقفتْ في الوقتِ بإذنِ الله تعالى، وقامت تمشي على قدميها كأنْ لم يكنْ بها مرضٌ قطّ؛ هذا والسَّيِّدةُ نفيسةُ مشغولة بصلاتها، لم تعلمْ ما جرى، ثمَّ إنَّ البنتَ لما سمعتْ بمجيء أمّها من الحمّام، خرجتْ من دارِ السَّيِّدة حتى أتَتْ إلى دار أمّها، وطرقتِ الباب، فخرجتِ الأمُّ تنظرُ مَنْ يطرقُ الباب، فبادرتِ البنتُ، واعتنقتْ أمّها، فلم تعرفها، وقالت لها: مَنْ أنت؟!

فقالت لها: أنا بنْتُك.

قالت لها: وكيف قضيتُك؟!

* فأخبرتها بما فعلت؛ فبكتِ الأمُّ بكاءً شديداً وقالت: هذا واللهِ الدِّين الصَّحيح، وما نحن عليه من الدِّين قبيح.

* ثم دخلتْ فأقبلتْ تقبِّل قدم السَّيِّدة نفيسة وقالت لها: امددي يدك، أنا أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأنَّ جدَّكِ محمّداً رسول الله؛ فشكرتِ السَّيدة نفيسة

ربَّها ـ عزَّ وجلَّ ـ وحمدته على هداها، وإنقاذها من الضّلال، ثمَّ مضتِ المرأةِ إلى منزلها، فلما حضرَ أبو البنت، وكان اسمه أيّوب، ولقبه أبو السّرايا، وكان من أعيانِ قومه؛ ورأى البنت على تلك الحالة ذُهِلَ، وطاش عقلهُ منَ الفرح، وقال لامرأته: كيف كان خبرها؟! فأخبرته بقصّتها مع السَّيِّدة نفيسة، فرفعَ اليهودي رأْسَه إلى السَّماء وقال: سبحانك هَدَيْتَ مَنْ تشاء، وأضللتَ مَنْ تشاء؛ واللهِ هذا هو الدِّين الصَّحيح، ولا دِيْنَ إلا دِين الإسلام.

* ثمَّ أتى إلى بابِ السَّيِّدة نفيسة، فمرَّغَ خدَّيهِ على عَتَبَةِ بابها وأسلم وقال: أنا أشهد أنَّ لا إله إلا الله، وأنَّ جدَّك محمّداً رسول الله.

* ثمَّ شاع خبر البنت وإسلامها، وإسلام أبيها وأمّها، وجماعة من الجيران اليهود[1].

* ومن القَصَص المزعومة التي تمتزجُ فيها أهواء شتى، ما ذكره يوسُف النّبهاني قال: ومن كراماتها رضي الله عنها: أنَّ رجلاً تزوَّج بامرأة ذمّيّة، فرُزِقَ ولداً، وكبرَ الولدُ، ثمَّ سافر، فأُسِرَ في بلاد العدو، فجعلت أمّه تدخُلُ البِيَعَ، وتتضرّع وولدها لا يأتي، فقالت لبعلها: بلغني أنَّ بين أظهركم امرأة يقال لها: نفيسة بنت الحسن الأنور؛ اذهبْ إليها لعلَّها تدعو لولدي أنْ يأتي، فإنْ نجا آمنتُ على يديها، فخرجَ الرجل فأتى معبدها ـ لاحظْ معبدها ـ فقصَّ عليها القصّة، فدعَتْ له، فعادَ إلى زوجته فأخبرها، فلمّا كانَ الليلُ إذا الباب يُطرق، فقامتِ المرأةُ ففتحتِ الباب، فإذا بولدها قد جاء، فقالت له: كيف كان أمْرك؟

* قال: لم أشعرْ إلا ويدٌ وقعتْ على القيد، وسمعتُ قائلاً يقول: أطلقوه

---

(١) انظر: جامع كرامات الأولياء (٢/ ٥٠٩ و٥١٠)؛ والقصّة ـ كما ترى ـ ركيكة المعاني، نسجها الخرافة، وسداها التّلفيق، ولحمتها الاستخفاف بالعقول. والقارىء الفطن يدرك ذلك.

فقد شفعَتْ فيه نفيسةُ بنتُ الحسن، فما شعرتُ حتى وقفتُ على هذا الباب، فأسلمتِ المرأةُ وحَسُن إسلامها[1].

* ومن القَصَص المُتداولة في الكتب؛ زيارة أقطاب الزّهد لنفيسة، وزيارتها لهم، من ذلك ما روي أنَّ بشر بنَ الحارث الحافي[2] كان يزورُ السَّيِّدة نفيسة، فمرض بشْرٌ مرّة فعادته نفيسة، فبينا هي عنده، إذ دخَل الإمام أحمد بن حنبل يعوده، فنظر إلى نفيسة، فقال لبشر: مَنْ هذه؟

فقال له بشْرٌ: هذه نفيسة بلغَها مرضي فجاءت تعودني.

فقال الإمامُ أحمد لبشر: فاسألها تدعو لنا.

فقال لها بشر: ادعي اللهَ لنا.

فقالت: اللهم إنَّ بشر بنَ الحارث وأحمد بن حنبل يستجيران بك من النَّار فأجرهما يا أرحم الرّاحمين[3].

* ومن قَصَصِ الكرامات ـ المزعومة ـ ما رُوي أنَّ جاريتها «جوهرة» قد

---

(1) المصدر السابق (٢/ ٥١٠ و٥١١)، وهذه القصة لا تصلح حتى «لفيلم فاشل» لركاكتها من جميع الجوانب، ولما فيها من السَّذاجة الممجوجة، وقد أورد ياقوت الحموي هذه القصة عن بقي بن مخلد. انظر (معجم الأدباء ٧/ ٨٤ و٨٥) بأسلوب مقارب.

(2) بشر بن الحارث بن عبد الرحمن أبو نصر المروزي المعروف بالحافي، ولد بشر في سنة (١٥٠ هـ) بمرو، وهو من كبار الصالحين، وأعيان الأتقياء المتورعين، والرّباني القدوة، وله في الزهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث؛ ولم يتزوج قط، فقيل له: لِمَ لا تتزوج! قال: لو أظلني زمان عمر بن الخطاب، وأعطاني كنت أتزوج. سكن بشر بغداد، وتوفي بها سنة (٢٢٧ هـ) ـ رحمه الله ـ.
(وفيات الأعيان ١/ ٢٧٤ ـ ٢٧٧) و(شذرات الذهب ٣/ ١٢٢ ـ ١٢٦).

(3) انظر: أعلام النساء (٥/ ١٨٧ و١٨٨)؛ وهذه القصّة المزعومة لا تجوز في حقّ هؤلاء الأعلام الثلاثة الذين ملؤوا الدّنيا علماً وزهداً، وذلك لما فيها من مخالفات شرعية واضحة.

خرجت ليلةً ذات مطر شديد لتأتيها بماءٍ للوضوء، فخاضَتْ ماءَ المطرِ، ولم يبتلَّ قدمها[1]!!!

قِصَّةُ التَّيْسِ المزْعُوم في المشْهَدِ النَّفِيْسِي:

* من مهازلِ الكرامات، ونوادرِ الحكايات والخرافات التي تدلُّ على الاستخفافِ ببعض العقول، تلك النّادرة التي حصلت في مشهدِ السَّيِّدة نِفيسة، والتي ذكرها عبدُ الرحمن الجبرتي في تاريخه حيثُ قال في حوادث سنة (١١٧٣ هـ) ما مُفاده:

* إنَّ خدّامَ المشهدِ النَّفيسي أظهروا عنزاً صغيراً مُدَّرباً، وكان كبيرهم إذ ذاك الشَّيخ عبد اللطيف، وزعموا أنَّ جماعةَ أسرى ببلاد النَّصارى، توسّلوا بالسَّيِّدة نفيسة، وأحضروا ذلك العنز لذبحهِ في ليلة يجتمعون فيها للذّكْرِ والدّعاء، ويتوسلون في خلاصهم من الأَسْر، فاطلع عليهم الكافرُ، فزجرهم وسبّهم ومنعهم من ذبح العنز، فرأى في المنَام رؤيا[2] أهالته، فأعتقهم وأعطاهم دراهم، وصرفهم مكرمين. فحضروا إلى مصرَ ومعهم العنز، وذهبوا بها إلى المشهد النّفيسي، وكثرتْ فيه الخرافات...

فمن قائل: إنّهم أصبحوا فوجدوها عند المقام.

ومن قائل: فوق المنارة.

ومن قائل: سمعناها تتكلّم.

ومنهم من يقول: السَّيّدة نفيسة أوصتْ عليها، وأنَّ الشَّيخ سمع كلامها

---

(١) انظر: إسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار (ص٢٣٣)، وجامع كرامات الأولياء (٢/ ٥١٢)، وإنّنا نتركُ للقارىء الكريم تصوُّر هذه الحادثة، إذ ضاق تصورنا عن ذلك.
ولو أردنا أن نجمع ما نُسب إلى نفيسة من كرامات وأشعار وأوراد وما شابه ذلك لحصلنا على كتاب كبير.

(٢) لاحظْ ـ عزيزي القارىء ـ هذه الرؤيا الفريدة من ذلك الرجل الفريد.

من القبر!! ثمَّ إنَّه أبرزَها للنّاس وجعلها بجانبه، وجعلَ يقولُ ما يقولُ منَ الخرافاتِ التي يستجلبُ بها الدّنيا.

* وتسامعَ النَّاسُ بذلك، وأقبلوا من كل فجٍّ رجالاً ونساء لزيارتها، وأتوا للشيخ بالنّذور والهدايا؛ وعرّفهم الشَّيخ عبد اللطيف هذا أنَّ العنزَ لا تأكل إلا قلب اللوز والفستق، ولا تشرب إلا ماء الورد والسُّكَّر المكرر[1].

* وأتى المريدون من ذلك اللوز والسّكّر بالقناطير المقنطرة، وعملَ النَّاسُ لذلك العنز ـ المبارك صاحب الكرامات ـ قلائدَ الذّهب، وأطواقَ الذَّهب والفضة، وافتتنوا بها.

* وشاعَ خبرُ العنز المحظوظ المبارك عند الأُمَراء وأكابر النِّساء، فجعلنَ يرسلْنَ كلٌّ على قَدْرِ مقامه منَ النُّذور، وازدحمن على زيارتها[2].

* ولما افتتن النَّاسُ به، أرسلَ الأميرُ عبدُ الرحمن كتخدا إلى الشَّيخ عبد اللطيف، يلتمسُ منه حضوره إليه بالعنز المبارك، ليتبرّكَ هو وحريمه بها، كيما تحصلَ لهم الكرامات والإشراقات.

* وركبَ الشَّيخُ عبد اللطيف بغلته، والعنزُ في حجره، ـ ولكي تكتملَ أصولُ الكرامة ـ صَحِبَتْهُ الطُّبولُ والبيارقُ، وجَمٌّ غفيرٌ منَ النَّاس حتى دخلَ بيت الأمير عبد الرحمن كتخدا على تلك الحالة، وتلك الهالة المزعومة.

---

(١) لاحظْ هذه المأكولات التي لا يحظى بها سلاطين أولئك الزّمان، ويبدو أنَّ هذا الشَّيخ قد اشتهى المأكولات، واتّهم العنز المحظوظ!! إنَّ هذا لشيء عجيب!!

(٢) يبدو أنَّ العنز له حظٌّ في كلّ مكانٍ وزمان، فمنذ بضعة أعوام ظهرَعنزٌ ـ تيس ذكَرٌ هذه المرّة ـ في شمالِ الشّام بإحدى قُرى الجزيرة، وزعم صاحبه أنّه يحلبُ، وأنَّ حليبه نافعٌ للعواقر ولمن لا تحملُ من النّساء، هنالك تسابقَ الرجالُ والنساءُ زرافاتٍ ووحداناً، ووقفوا في صفوف أمامَ بيت صاحب التّيس الذي اشتهر شهرةً عظيمة، وأصبح حديث السّاعة على كلّ لسان، وفي كلّ مكان، بل أصبح سَمَر المجالس، وألصقوا فيه من الكرامات ما ليس له حدّ، وقيل: إنَّ فلانة قد حملت ببركةِ التّيس بعد أن أخبرها الأطباء ألا سبيل إلى حملها، ولكنَّ التيس له كرامات!! بل ربما هذا التيس من ذرية العنز المبارك في المشهد النّفيسي!!! وما أشبه اليوم بالبارحة!!!

* ثمّ إنَّ الشَّيخ عبد اللطيف صَعِدَ بالعنز إلى مجلسِ الأمير عبد الرحمن وعنده كثيرٌ منَ الأمراء، فتلمّس بها الأمير ومَن معه، ثم أمرَ بإدخالها إلى الحريم كي يتبركْنَ بها، ويلتمسْنَ منها البركة والكرامات، وكان الأميرُ عبد الرحمن قد أوصى جماعته سِرّاً بذبحها وطبخها ـ لإنهاء هذه الرّواية وتلكم المشاهد ـ.

* فلمّا أخذوها ذبحوها، وطبخوها، وأخرجوها مع الغَداء، فأكلوا منها، وصار الشَّيخُ عبد اللطيف ـ قيّم العنز ـ يأكلُ بشهيّة، والأميرُ عبد الرحمن يقولُ له سَاخراً: كُلْ يا شيخ عبد اللطيف من هذا التّيس السَّمين؛ فيقول الشّيخ عبد اللطيف ببلاهةٍ: والله يا أمير إنّه طيِّبٌ ونفيسٌ، وهو لا يَعْلَمُ أنَّها عنزه المبارك صاحب الكرامات، وكان الأميرُ وصحبه يتغامزون ويتضاحكون ويضحكون من شراهَةِ الشَّيخ الذي أكبَّ على الخوان وكان خِفّاً، فلمّا قامَ أثقله القيامُ لكثرةِ ما ازدرد منَ الطَّعَام الطِّيِّب النَّفيس.

* ولما أكلُوا وشربوا القهوة، طلب الشّيخ عبد اللطيف العنز، فعرّفَه الأميرُ جلية الأمْر، وأخبره أنَّ العنزَ قد صارت في جوفهِ، وأنَّها التي كانت بين يديه في الصَّحن قُبيل لحظات، وأكلَ منها، فَبُهِتَ الشَّيخُ عند ذلك، وأخذته رِعْدَةٌ، وعلاه الاصفرار، وغلّفَه الحزن، وساورتْه الهمومُ.

* ولكنَّ الأميرَ عبد الرحمن قطعَ عليه تلك الدَّهْشَة، ثمَّ بكَّتَه ووبَّخَه على هذا الصَّنيع والاستخفاف بالنّاس، وأكْله أموالَهم بغير حقّ، واستهزائِهِ بعقولهم وأحوالهم، ثمّ إنَّ الأميرَ أمرَ أنْ يوضعَ جِلْد العنز على عمامته، وأنْ يذهبَ به كما جاءَ بموكبه، وبين يديه الطُّبول والبيارق والأشاير، ووكَّلَ به مَنْ أوصله إلى محلّه على تلك الصُّورة لكي يَحْذَرَهُ النّاس؛ وفي ذلك يقولُ الأديبُ والشَّاعر والنَّاثر عبد الله بن سلامة الإدكاوي مصوراً تلك القِصّة بِشِعْرٍ لطيف خفيف ظريف:

بِنْتِ رسولِ اللهِ طيّبة السَّنَا
نفيْسَةُ لُذْ تَظْفَرْ بما شِئتَ مِنْ عزٍّ

وَرَمْ مِـنْ جـدَاهـا كـلّ خيـرٍ فـإنّهـا
لطـلا بهـا يـا صَـاحِ أَنْفـع مـنْ كَنْـزِ
ومـنْ أَعْجَـبِ الأَشْيَـاءِ تَيْـسٌ[1] أَرادَ أنْ
يَضِـلَّ الـورى فـي حُبِّهـا منـه بـالعَنْـزِ
فَعــاجَلَهـا مَـنْ نـوَّرَ اللهُ قَلْبَـهُ
بذبحٍ وأضْحى الشَّيخُ من أَجْلِها مخزِي

كَرَامَـاتٌ أُخْـرى وَأَوْرَادٌ وَأَشْعَـارٌ:

* ألصِقَتْ بسيرةِ نفيسة كراماتٌ كثيرة لا يمكن أنْ تُعقل، وممّا ألصق فيها من كرامات ـ وهي منها براء كبراءة الذّئب من دم يوسف ـ أنَّ بعضَ الأولياء زعم أنّها قد خاطبته من قبرها، وحكى بعضُ الأولياء للشَّيخ عبد الغني النّابلسي أنّها قد خاطبتْه من موضعها في قَبرِها[2].

* ووصفَ اليافعيُ ـ وهو منْ أعيانِ القرنِ الثَّامن الهجري والمتوفّى سنة (٧٦٨ هـ) ـ ماراَه في مشهدِ السَّيِّدة نفيسة من أخلاطِ النّاس الذين أتوا لالتماسِ البركة فيقول: قد قصدتُ زيارة مشهدها، فوجدت عنده عالَماً منَ الرِّجال والنّسوان والصّحاح والعميان، ووجدتِ النّاظر جالساً على الكرسي، فقام لي وأنا لا أعرفه، فمضيتُ للزّيارة ولم ألتفتْ إليه[3].

* ووصف الشَّيخُ عبد الغني النّابلسي المشهدَ النَّفيسي، وازدحامَ النَّاس هناك، فقال: فدخلنا نحنُ والجماعة الذين كانوا معنا إلى مزارها المعمور؛ فإذا هو ملآن منَ النَّاس حولَه مع كمالِ الخشوع والحضور، والنّساء هناك وحدهن تقرأُ لهنَّ القُرآنِ امرأةٌ حافظةٌ بالصوت العالي، وكوكب الهيبة والجلال في سماء تلك الحضرة متلالي، فوقفنا وقرأنا الفاتحة مع النَّاس،

---

(١) المقصود بالتّيس هنا: الشّيخ المُضِل.
(٢) رحلة الحقيقة والمجاز للنابلسي (ص١٨٩).
(٣) مرآة الجنان (٢/ ٤٤).

ودعونا الله تعالى الكريم المتعال، ثمَّ دخلنا إلى معبدها هناك، وصلّينا فيه ركعتَيْن بقصد حُصُول البركة[1]!!!

* وقد بلغَ ببعضِ محبّيها منَ النّاس، أنْ ألّفُوا في زيارتها جملةً منَ الأوراد والآداب، وكتبوا بعضَ الأدعية عند زيارة مشهدها[2]؛ وتطور هذا إلى المديح، فإلى المبالغة والغلو، فقد نظَم أحدُ مريديها قصيدةً طويلة يمتدحها، ويضفي عليها بعض الكرامات، نقتطفُ منها هذه الأبيات الكاشفة:

نفيْسَةُ والمُصْطَفى جدُّها ... أَسْرارُها بينَ الورى ظاهره
كَمْ منْ كراماتٍ لها قد بَدَتْ ... وكم مقَاماتٍ لها فَاخِره
يا حبّذَا سيّدةٌ شَرفَتْ ... بها أرضُ مصرَ والقَاهِره
عابدةٌ زاهدةٌ جامعةٌ ... للخيرِ في الدّنيا وفي الآخِره
سبحانَ مَنْ أعلى قَدْرها ... لأنّها بين الورى نادِره

ومن هذه القصيدة:

تتلو كتابَ اللهِ في لحدها ... وهي لمن قَدْ زارهَا ناظره!!
حجّتْ ثلاثينَ على رِجْلِها ... صائمةً عنْ أكلِها قاصره
كانت تصلّي وتقوم الدّجى ... دوماً على أقدامها سَاهِره[3]

وكان بعضُ زائريها يقول عند مشهدها:

يا ربّ إنّي مؤمنٌ بمحمّد ... وبآلِ بيت محمّد بِتَوالِ
فبحقّهم كُنْ شَافِعاً لي مُنْقِذاً ... منْ فِتْنَة الدّنيا وشرّ مآلِ

وكان بعضُهم يشدو أيضاً:

يا بني الزَّهْراءِ والنّور الذي ... ظَنَّ موسى أنّه نَارٌ قَبَس

---

(١) رحلة الحقيقة والمجاز (ص١٨٩ و١٩٠).

(٢) انظر إن شئت: الدر المنثور (ص٥٢٢ و٥٢٣)، والخطط التوفيقية (٧/ ٣٠٩ و٣١٠)، ونور الأبصار (ص٣١٢ و٣١٣)، وغير ذلك كثير.

(٣) نور الأبصار (ص٢١٣)، وتوجد بعد هذه القصيدة قصيدة أخرى، هي أقرب إلى الشرك لما فيها من مخالفات ظاهرة.

لا أُوَالـي قــطّ مَــنْ عــاداكمــو إنّهـم آخـرُ سَطْـر فـي عَبَـس[1]

* وللشَّيخ عبد الغني النّابلسي قصيدتان في امتداحِ نفيسة، الأولى: نظمها بعد أنْ زَارها وقرأَ عندها الفاتحة مرتيْن؛ يقولُ النّابلسي: وقرأنا الفاتحة ثانياً، ودعونا اللهَ تعالى، وخرجنا بأدبٍ وحُضُورٍ، وفرحٍ بكمالِ المسرَّة والأجور، وقُلنا في ذلك من النِّظام[2]، على حَسَبِ ما اقتضاه المقام:

نُـورُ قلـبِ المـوحّـديـنَ نفيسـة تتجلّـى بهـا الأمـورُ النَّفيسـه
وبهـا تُكْشَـفُ الكـروبُ وينجـو قاصدوها منَ الهموم الخسيْسَه
درّةٌ صـانَهـا المهيمـنُ قِـدْمـاً فـي بحـارِكـم قُـدِّسَـتْ تقـديسـه
فـي سَـراةِ مـنْ آلِ بيـتٍ شـريـف أحكـمَ اللهُ فـي الصَّـلا تـأسيسَـه
فهي ذاتِ الفخار والمجدِ طالتْ يدُها في الوغى فأحْمَتْ وطيسه
نسبــةٌ هــاشميّـة هــي فيهـا لـم تـزلْ غضّـة الكمـالِ رئيسـه
ومـن الكـونِ أبطلـتْ شيطـانـاً كـان فيـه وعطّلـتْ إبليسـه
حضـرة تمـلأُ القُلـوب حضـوراً وعـن العقـلِ قـد نَفَـتْ تـدليسـه
كـلُّ مَـنْ جـاءَهـا رأى تطهيـراً عنـه ينفـي مـن ذنْبـه تنجيْسَـه
يـابنـة الطّـاهـريـن مـن آلِ طـه سِـرُّك المحضّ لا يضيـم جليسـه
آل بيـتِ النّبـي أنتـمْ كـرامٌ كـم هِـزَبْـر منكـم يطـارح خيسـه
جئتُ هـذا المقام بـالـذّل أشكـي زمَنـاً منـه لـم أجِـد تنفيسـه
وأرومُ الـذي أروم عسـى أنْ يَجِـدَ القلـبُ بـالأمـانـي أنيسـه
كـلُّ حيـن مـا قـال عبـد غنـي نُـورُ قلـبِ المـوحّـديـن نفيسـه

* وهي قصيدة ـ كما قرأتَ ورأيتَ ـ فيها ما فيها منَ المبالغاتِ التي شبَّتْ عن طوقِ المعقول، ودخلتْ في عَالَمٍ غير عالَم أهْلِ العِلْم الذين لا يقبلون إلا ما جاء صحيحاً عن الحبيبِ المصطفى محمّد ﷺ.

---

(١) الخطط التوفيقية (٧/ ٣١٠)، والدر المنثور (ص٥٢٢ و٥٢٣)، والمقصود بآخر سطر من عبس، قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٢].

(٢) الحقيقة والمجاز (ص١٩٠)، والقصيدة تبلغ (٢٧ بيتاً) اقتطفنا منها تلكم الأبيات.

* ولعبد الغني النّابلسي أيضاً وِقْفةٌ أخرى، وقصيدة أخرى مع نفيسة، ولكنْ هذه المرة، نجدُ أنَّ نَفَس الكرامات أقلّ حرارة من سَابقِهِ في الشِّعر، بَيْدَ أنّنا نسمعُ من النّابلسي أنّه رأى في منامه السَّيِّدة نفيسة بعد أنْ أرَّقَتْهُ الهموم وساورتْه الأحزان، يقولُ النّابلسي في ذلك: رأينا في واقعةِ المنام السَّيِّدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم ـ وهي مُتَلَفِّفَةٌ بثيابٍ بيض، وجاءتْ حتى جلستْ عند رأسي، وأنا مستلقٍ على قفاي، ثمّ استيقظتُ وأنا مسرورٌ بحصولِ الفرج، متحقّق بزوال الهمّ والحرج، وكان ذلك على يَدِ آلِ البيت يقظةً ومناماً، خصوصاً وهي حَسنيّة، وبمجرّدِ استيقاظي منَ المنام، كنتُ أنشدُ هذا المصراع الجاري على لساني من النّظام بطريقِ الإلهام: «نَفَّسَ اللهُ كَرْبَنَا بنفيسة»[1] .

* وقد أنشأَ النّابلسي على هذا المصراع قصيدة قوامها (٢٤ بيتاً) نقتطف منها بضعة أبيات كاشفات، يقولُ في أوّلها:

نَفَّـــسَ اللهُ كَـــرْبَنَـــا بنفيســـة   بِنْت فَضْلٍ ذات الصِّفات النفيسه

* ثم إنَّه من خلالِ هذه القصيدة يمدحُ النّبي ﷺ فيقول:

كـــلُّ هـــذا بســـرِّ قَصْـــد نبـــيٍّ   قـــد أتَيْنَـــاهُ نَقْتَفِـــي تـــأْسِيسَـــه

فـــوقفنـــا بـــذلّـــةٍ وخضـــوعٍ   وفـؤاد المشـوقِ أبـدى رسيسَـه

ودخلنـــا عليـــه بـــابَ سَـــلامٍ   بســـلامٍ لـــه النُّفـــوس فـــريسَـــه

يـــا رســـولَ اللهِ يـــا خيـــرَ مـــولـــى   منـه صُبْـحُ الهـدى محـا تفليسَـه

وأُزِيْلَـــتْ بشمســـهِ ظلمـــاتٌ   عـن مشـوقٍ إليـه يشكـو مسيسَـه

وعلـى الأنبيـاءِ والـرّسـل طـرّاً   فضَّـــل اللهُ فـــي الأنـــام رئيسَـــه

* وبعد ذلك يعودُ إلى ذِكْرِ نفيسة في نهايةِ القصيدة فيقول:

وَصَـــلاةٌ تكـــرّرتْ وســـلامٌ   ضَـــارِبٌ تخميسَـــه تســـديسَـــه

أمـدَ الـدَّهـر مـا أتتـكَ نيـاقٌ   وللقيـــاك حـــثَّ مثلـــي عِيْسَـــه

---

(١) رحلة الحقيقة والمجاز (ص٣٢٧).

أو أتـــى قَـــائِـــلاً عُبيــد غنـــي نَفَّـــسَ اللهُ كـــربنـــا بنفيسَـــه[1]

* إنَّ الأمثلةَ كثيرةٌ في هذا المجالِ، والتّوسلات والقصائد والمقطوعات التي قيْلَتْ في السَّيِّدة نفيسة أكثر منْ أنْ تُحصى:

وَكَـــم هَتَفُـــوا عنْـــد الشَّـــدائـــدِ بـــاسْمِهـــا

كمـــا يَهْتِـــفُ المُضْطَـــرُّ بـــالصَّمَـــدِ الفَـــرْدِ

* لقد لعبتِ المحبَّةُ المضطربة بالنَّاس، وفرقَتْهم وتفرّقت بهم الأهواءُ ذات اليمين وذات الشّمال، فاضطربتِ الموازينُ الصّحيحة، وأضحى الغلو شائعاً في الصَّالحين إلى حَدِّ الإغراقِ مما صرفهم عن العبادةِ الصَّحيحة التي خُلقوا لها، ولله دَرُّ ابن قيّم الجوزية حينما قال:

هَـــربُـــوا مِـــنَ الـــرّقِ الـــذي خُلقـــوا لـــه

فبُلُـــــوا بـــــرقِّ النَّفْـــــسِ والشَّيطـــــان

* ولنا في الفِقْرة التَّالية وقفةٌ وضيئةٌ مع الغلو غيرِ المحمود في الأولياءِ والصَّالحين.

الغُـلو في الصَّـالِحِيْنَ:

* نحن نحبُّ الصَّالحين والأولياء حبّاً ما عليه من مزيد، ولكنّا نكرهُ لهم تلكم الأشياءَ الغريبة التي أُلْصِقَتْ بهم، ولا تليقُ بمقامهم؛ فالمرادُ بالغلوِ في محبّة الصّالحين والأولياء والأصفياء رفعهم فوقَ منزلتهم التي أنزلهم اللهُ إياها، كالطَّوافِ بقبورهم، والتّبرّكِ بتربتهم، وذبحِ القرابين لأضرحتهم، ووفاء النّذور عند قبورهم، وطلب المدد منهم.

* وكما نعلم بأنَّ الشَّيطان يجدُ سوقاً رائجة عند عامة النّاس، إذ يزيّن لهم الغلو في تعظيم الصَّالحين ومحبّتهم، والعكوف على قُبورهم، وسؤالهم الشَّفاعة من دونِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وما يزال الشَّيطان بالنّاس حتى يوردهم مواردَ البوارِ والهلاك.

---

(١) انظر: رحلة الحقيقة والمجاز (ص٣٢٧) باختصار.

* إنَّ محبَّةَ الأولياء والصَّالحين تكونُ على وفقِ ما جاء في القُرآن العظيم، والسُّنَّة المطهّرة، وذلك بمعرفةِ فَضْلهم وعلْمِهم وعَمَلِهم، والاقتداء بهم في الأعمال الصَّالحة من غير إفراط ولا تفريط.

* كما أنَّه يجبُ الحذرُ ممن يرغبُ في الأشياء التي لا أصل لها، كالذي نُسِبَ إلى النّبيِّ ﷺ من أنَّه قال: «مَنْ أخلصَ العبادةَ للهِ تعالى أربعينَ يوماً ظهرتْ ينابيعُ الحكمةِ من قلبهِ على لسانه»[1].

* لذلك تجبُ المبادرة إلى الأعمال الصَّالحة، والامتناع عما نهى الله، والتّضرّع إلى اللهِ تعالى وحده، وطلب العِلْم النّافع، ليحظى بكنوز البِرِّ ومرضاة الله.

ثَـنَاءُ العُلَماءِ والأَفَاضِلِ عَليها:

* حظيتِ السَّيّدةُ نفيسة ـ رحمها الله ـ على ثناءِ العلماءِ والأفاضلِ على مرِّ العصورِ، فلقد اشتهرتْ بالصَّلاحِ والعبادةِ ومكارمِ الأخلاقِ، ناهيك بنسبِها الذي يطاولُ الجوزاء.

---

(١) انظر: اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسّيوطي (٢/ ٣٢٧)، وتنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الموضوعة لابن عراق (٢/ ٣٠٥)، وحلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ١٨٩)، والشذرة في الأحاديث المشتهرة (ص٩٠٣)، والغماز على اللماز (ص٢٦٥)، ومختصر المقاصد (ص٩٦٨)، وكشف الخفاء رقم (٢٣٦١) وغيرها. وهذا الحديث قد أورده أبو الفرج ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ في كتابه النّفيس «الموضوعات» (٣/ ١٤٥ و١٤٦)، وقال عنه:
هذا حديثٌ لا يصحُّ عنْ رسولِ الله ﷺ؛ فيه سوارُ بنُ مصعب، متروك الحديث.
وقال يحيى بن معين: ليس بثقة، ولا يُكتب حديثه.
وقال ابنُ الجوزي: وقد عمل جماعةٌ منَ المتصوّفة والمتزهّدين على هذا الحديث الذي لا يثبتُ، وانفردوا في بيت الخلوة أربعين يوماً، وامتنعوا عنْ أكلِ الخبز، وكان بعضُهم يأكلُ الفواكه، ويتناول الأشياء التي تتضاعف قيمتها على قيمةِ الخبز، ثم يخرجُ بعدَ الأربعين، فيهذي ويتخيل إليه أنّه يتكلم بالحكمة، ولو كان الحديث صحيحاً، فإنَّ الحديث يتعلق بقصد القلب لا بفعل البدن، والله أعلم.

* فقد افتتحَ الإمامُ الذَّهبي ترجمتَه لنفيسة بالثَّناء عليها فقال: نفيسةُ، السَّيِّدةُ المكرّمةُ الصَّالحةُ، ابنةُ أمير المؤمنين الحسنِ بنِ زيد بن السَّيد سِبْط النّبيّ ﷺ الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ العلويّةُ الحسنيّةُ صاحبةُ المشهدِ الكبير المعمول بين مصر والقاهرة[1]. وقال أيضاً: كانت منَ الصَّالحات العَوابد[2].

* وأثنى ابن جُبير في رحلته على نفيسة فقال: السَّيِّدة نفيسة بنت الحسن، كانت مجابةَ الدَّعوة، مجتهدةً في العبادة[3].

* ونقلَ عليّ مبارك عن المقريزي قوله: كانت نفيسة من الصَّلاح والزَّهد على الحدِّ الذي لا مزيد عليه[4].

* وعندما تعرَّضَ ابنُ تغري بردي لترجمتها، افتتح ذلك بذكر نسبها قائلاً: السَّيّدة نفيسة، ابنة الأمين الحسن بن زيد بن السَّيِّد الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشميّة، الحسنيّة الحسينيّة النّفيسة صاحبة المشهد بين مصر والقاهرة. ثمَّ اختتم ترجمتها بذكر كراماتها فقال: وهي صاحبةُ الكراماتِ والبرهانِ، وقد شاع ذِكْرها شرقاً وغرباً[5].

* وقال ابنُ خلكان: كانت نفيسةُ من النِّساء الصَّالحات التَّقيّات[6].

* وفي «مرآته» قال اليافعي ذاكراً نسبها، ومادحاً فضلها، وكذلك ابنُ العماد في «شذراته» قالا: السَّيّدة الكريمة، صاحبةُ المناقب الجسيمة،

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٠٦ و١٠٧).
(٢) سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٠٦ و١٠٧).
(٣) رحلة ابن جبير (ص٣٥) طبعة دار الفكر، بيروت (١٣٨٨ هـ).
(٤) الخطط التوفيقية (٧/ ٣٠٧).
(٥) النجوم الزاهرة (٢/ ١٨٥ و١٨٦).
(٦) وفيات الأعيان (٥/ ٤٢٤).

نفيسة بنتُ الحسن، صاحبة المشهد الكبير المفخم، الشَّهير بمصر، وكانت من النِّساء الصَّالحات[1].

* وقال ياسين العمري في «روضته»: كانت من العابدات، الصَّالحات، القانتات، ولها كراماتٌ واضحة، وأسرارٌ لائحة[2].

* وأثنى عليها الشَّيخ عبد الغني النّابلسي فقال: نفيسةُ بنتُ الحسن، نشأَتْ في العبادةِ بالمدينة، فكانت تصومُ النَّهار وتقومُ الليل[3].

* وقال عمر رضا كحالة في مطلع ترجمته لها: نفيسة بنت الحسن من ربّاتِ العبادةِ والصَّلاحِ والزُّهدِ والورع[4].

* هذا؛ وقد أجمع كلُّ مَنْ عاصر نفيسة، وكلُّ مَنْ ترجمَ لها على صلاحها وفضْلها، وبرّها وإحسانها، وتفرّدها في العبادة والزّهد، وحبّها للقُرآن العظيم، وشغفها بالتّفسير.

نَـفَـائسُ مِنْ أَقْـوالِ نَفِيْسَـة:

* أثِرتْ عن السَّيّدة نفيسة كلماتٌ لطيفاتٌ تشيرُ إلى فَضْلها، وإلى مدى رسوخها في العِلْم، وإلى مكانتها في عالَم الفَهم.

* ففي مجالِ العبادة حُفِظَتْ عنها أقوالٌ مهمّةٌ وضيئةٌ ومنها قولها: نحنُ بيتُ النُّبوَّة أحقّ بالعبادةِ من غيرنا؛ لأنَّ القُرآنَ نزلَ على جَدّنا محمّدٍ ﷺ.

* ومن بدائعِ أقوالها في الطَّاعة والعبادةِ والأخلاقِ قولها: الطَّاعةُ قَلْبُ الإيمان، والعبادةُ جسده، والزُّهدُ رداؤه، والصِّدقُ حجّتُه، والإخلاصُ بهجَتُه، والعفوُ عمن أساءَ أجمل وأحسن بالمؤمنِ لقوله تعالى: ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

---

(١) مرآة الجنان (٢/ ٤٣)، وشذرات الذهب (٣/ ٤٣).
(٢) الرَّوضة الفيحاء (ص٢٥٩).
(٣) رحلة الحقيقة والمجاز (ص١٨٩).
(٤) أعلام النساء (٥/ ١٨٧).

* وفي التّحذيرِ من المعصيةِ كانت تقولُ: ويلٌ لمن عصى ربّه، وخالفَ أمْرَه، وأعرضَ عن ذِكْره، واتَّبعَ هوى نفسه.

* ومن نفائسِ كلامها قولُها: العبدُ الطَّائعُ حجّةٌ على العباد العُصاة.

* وللسّيّدة نفيسةُ أدعيةٌ لطيفة ومنها: اللهم إنّي أعوذُ بك من كلامِ السُّوء وفعل السُّوء، ومرام السُّوء، وجار السُّوء، اللهم لا تكِلْني إلى نفسي فأعجز، ولا إلى أحدٍ من خلقك فأضيع؛ اللهمّ ألهمني رشدي، وأحسنْ رفدي، واغفرْ زلتي، وقني شرَّ وساوس الشَّيطان، وأجرني منه يا رحمنُ حتى لا يكون عليَّ سُلطان[1].

* ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾:

* أقامت نفيسةُ مدّةً في مصرَ، حظيتْ فيها بشهرةٍ عظيمة طبَّقتِ الآفاق. وفي سَنِة (٢٠٨ هـ) بدأتِ الأمراضُ توهنُ جسمها، وكان زوجُها إسحاق المؤتمن غائباً في المدينةِ المنوّرة في بعض أعماله، فأرسلتْ تُعْلِمه بمرضها.

* وكانتْ نفيسة ـ قبل أنْ تلمَّ بها الأمراضُ تتفكّر في الموتِ، وتعدُّ العدّة والزّاد إلى لقاءِ الله تعالى ـ قد حفرتْ قبرها بيدها في زاويةٍ من زوايا بيتها، فكانت تنزلُ فيه، وتصلّي كثيراً، وتذكرُ اللهَ، حتى قيل: إنّها قرأتِ القُرآن الكريم كاملاً في هذا القَبْر (١٩٠ مرة)[2].

* وظلّتِ السّيدةُ نفيسة على مداومةِ الذّكر في القبرِ وتلاوة القُرآن، والبكاءِ بين يدي الله حتى احتضرتْ في شهر رمضان من سنةِ (٢٠٨ هـ)، وكانت عند احتضارها صائمة، فأشارَ عليها أهلوها، وألزموها بالفطر، وألحّوا وأبرموا وهي لا تريمُ عن موقفها وتمسكها بالصَّوم؛ ولما أكثروا الإلحاحَ عليها قالتِ لهم: واعجباً، منذ ثلاثينَ سنة أسألُ الله تعالى أن ألقاه

---

(١) الروضة الفيحاء (ص٥٩ و٢٦٠).

(٢) ذكر الشيخ عبد الغني النابلسي أنها قرأت فيه (٦٠٠٠ ختمة). (رحلة الحقيقة والمجاز ص١٨٩).

وأنا صائمة، أأفطر الآن؟! هذا لا يكون!!

* ثمَّ إنَّ السَّيِّدة نفيسة شرعتْ تقرأُ القُرآن الكريم، وكان الليلُ قد أرخى سدوله، وهدأتِ الحركةُ، وخفّتِ الأصواتُ، وأخذتْ عندها تقرأُ سورةَ الأنعام، فلمّا وصلتْ إلى قوله تعالى: ﴿ ۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ [الأنعام: ١٢٧][1] غُشيَ عليها، ثمّ إنّها شهدتْ شهادة الحقّ، ونطقتْ بالتّوحيد، وقبضتْ إلى رحمة الله، وصعدتْ روحها إلى بارئها راضيةً مرضية[2].

* ولما ماتت اجتمعَ النّاسُ من القاهرةِ ومن القُرى والبلدان، وأوقدوا الشّموع تلك الليلة، وسُمِعَ البكاءُ من كلِّ مكان بمصر، وعظمَ الأسف عليها، وكثر الحزنُ لفقدها؛ وفي تلك السَّاعات الحرجةِ وصلَ زوجها المؤتمن مصرَ قادماً من المدينة المنوّرة، فأراد أنْ ينقلَها إلى المدينة، ويدفنها في البقيع، فسأله أهل مصر أن يتركَها عندهم، فأبى ذلك، واجتمعَ أهلُ مصر إلى الوَالي، واستجاروا به لكي يردَّ إسحاق المؤتمن عمّا عزم عليه، فأبى المؤتمن أيضاً، فباتوا منه في أمرٍ عظيم؛ فلمّا أصبحوا اجتمعوا إليه ثانيةً، فوافقَ على دفْنِها بمصر[3].

---

(١) ﴿دار السلام﴾: الجنّة؛ قال أبو الليث السّمرقندي ـ رحمه الله ـ: طُوبى لمن رزقه الله الفهم، وأيقظه من سنّة الغفلة، ووفّقه للتفكّر في أمر خاتمته، فنسأل الله تعالى أن يجعل خاتمتنا في خير، ويجعل خاتمتنا مع البشارة، فإنَّ المؤمنَ له بشارة من الله تعالى عند موته، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

(تنبيه الغافلين ص٤٢) طبعة دار ابن كثير بتحقيق يوسف بديوي.

(٢) وقيل: إنَّ نفيسةَ لما احتضرت خرجتْ منَ الدّنيا، وقد انتهتْ في حزبها إلى قوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ ﴾ [الأنعام: ١٢] (الخطط التوفيقية ٧/ ٣٠٧).

(٣) هناك أقوالٌ وقصَصٌ عديدة في هذا الشّأن منها ما يقول: إنَّ أهل مصر جمعوا له =

* ثمَّ إنَّه صُلِّي على السَّيِّدة نفيسة في موضعها، وذلك في مشهدٍ حافل لم يُرَ مثله، بحيث امتلأتِ الفلواتُ والقيعان، وكان يوم وفاتها مشهوداً من أيام مصر، ثم دُفنتْ في منزلها الذي كانت تسكنُه في محلّة كانت تُعرف قديماً باسم «درب السِّباع»، وكانت وفاتُها بعد وفاة الشَّافعي بأربعةِ أعوام وعمرها (٦٣ سنة) ـ رحمها الله ـ.

* هذا؛ وقد عَمِلَ لها المحبُّون مشهداً كبيراً، قالَ النّابلسي: وقبرُ نفيسة عليه مهابة ونور، مقصود للزّيارة من كلِّ جهة[١].

ومن الجدير بالذّكرِ أنَّ أهلَ مصر يعنون عناية فائقة بالمدافنِ والقبور مما لفتَ نَظَر الرّحالة ابن بطوطة، وكذلك ابن جبير، فقد تحدَّث ابنُ بطوطة عن قرافة مصرَ فقال: ولمصر القرافة[٢] العظيمة الشَّأْن في التَّبرّك بها، وقد جاء في فضْلِها أثر أخرجه القرطبي.

* وقال أيضاً: وهم يبنون بالقرافة القباب الحسَنة، ويجعلون عليها الحيطان، فتكون كالدُّور، ويبنون بها البيوت، ويرتّبون القُراء يقرؤون ليلاً ونهاراً بالأصواتِ الحسان، ومنهم مَنْ يبني الزَّاوية، والمدرسة إلى جانبِ التّربة، ويخرجون كلَّ ليلةِ جُمعة إلى المبيت بها وبأولادهم ونسائهم، ويطوفون على الأسواق بصنوفِ المآكل.

* ثم يصفُ المزارات، ومنها: مزار الحُسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ وبعدها يذكر مشهد السَّيِّدة نفيسة فيقول: ومنها تربة السَّيِّدة نفيسة بنت

= مالاً عظيماً حتى وسق بعيره الذي أتى عليه وسألوه دفنها عندهم. ومنها ما يقول: إنَّ أهلَ مصر قالوا له متعجبين: إنَّ لكَ شأناً عظيماً في موافقتك دفنها عندنا!
فقال لهم: نعم، رأيتُ رسولَ الله ﷺ في المنام وهو يقول لي: ردَّ عليهم أموالهم وادفنها عندهم، ولا تعارضْ أهلها في نفيسة فإنَّ الرحمةَ تنزلُ عليهم ببركتها!!
وهناك أقوال كثيرة لا تخرج عن هذا المضمار فتأمل!!

(١) رحلة الحقيقة والمجاز (ص١٨٩) باختصار.

(٢) «القرافة»: التّربة أو الجبانة، وهي المدافن، وكانت المدافن في ضواحي القاهرة من ناحية الغرب.

الحسن، وكانت مجابةَ الدَّعوة، مجتهدة في العبادة، وهذه التّربة أنيقة البناء، مشرقة الضّياء، عليها رباط مقصود[1].

* وقد أكثر الكتّابُ والرّحالةُ والمصنّفون من الحديث عن التُّرَب، وعن القبورِ، وعن العناية بها، والاهتمامِ بشأنها.

* قال ابنُ خلّكان: كانت نفيسةُ منَ النِّساء الصَّالحات، وقبرها معروفٌ بإجابةِ الدّعاء عنده، وهو مجرّب!! ـ رضي الله عنهما ـ[2].

* وذكر الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ في كتابه القيّم النّفيس «سير أعلام النُّبلاء»[3] في ترجمة السَّيدة نفيسة ما نصّه: كانت من الصَّالحات العَوابد، والدُّعاء مُستجاب عند قبرِها، بل وعند قبور الأنبياء والصَّالحين[4]، وفي المساجِدِ، وعَرَفة، ومزدلفة، وفي السَّفَر المباح، وفي الصَّلاة، وفي السَّحَر، ومن الأبوين، ومن الغائب لأخيه، ومن المضطر، وفي كلّ وقتٍ وحين، لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ولا يُنهى الدّاعي عن الدّعاء، وفي وقت إلا وقت الحاجة، ويتأكد الدّعاء في

---

(١) رحلة ابن بطوطة (ص٣٤ و٣٥).

(٢) وفيات الأعيان (٥/ ٤٢٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٠٧).

(٤) لعلّه من المفيد هنا أنْ نشيرَ إلى التّعليق النّفيس الذي أفاده محقّق الجزء العاشر من كتاب الذهبي «سير أعلام النبلاء» فإنَّ في إشارته فائدة كبرى حيث قال:
لم يثبتْ عن النّبيّ ﷺ في كون الدّعاء مستجاباً عند قبور الأنبياء والصَّالحين، والسَّلف الصَّالح لا يُعرف عنهم أنّهم كانوا يقصدون قبور الأنبياء والصّالحين للدّعاء عندهم؛ ويرى ابن الجزري في «الحصن الحصين»: أنَّ استجابة الدعاء عند قبور الأنبياء والصّالحين ثبتَ بالتجربةِ، وأقرّه عليه الشّوكاني في «تحفة الذّاكرين ص٤٦» لكنْ قيّده بشرط: ألا تنشأ عن ذلك مفسدة، وهي أنْ يُعْتَقَد في ذلك الميت ما لا يجوز اعتقاده، كما يقعُ لكثير من المعتقدين في القبور، فإنّهم قد يبلغون الغلو بأهلها إلى ما هو شركٌ بالله ـ عز وجل ـ فينادونهم مع الله، ويطلبون منهم ما لا يُطلب إلا من اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ وهذا معلومٌ من أحوال كثير من العاكفين على القبور، خصوصاً العامّة الذين لا يفطنون لدقائق الشّرك. (سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٠٧) الهامش.

جوف الليل، ودُبْرَ المكتوبات، وبعد الأذان.

* هذه هي نفيسةُ بنتُ الحسن، أرجو أن أكونَ قد وُفِّقتُ في الحديث عنها، وإبراز صورتها بشكلٍ صحيح. ومع وداعِ السَّيِّدة نفيسة التي قضينا معها أوقاتاً نفيسة، تعالوا نردِّدُ معها دعاءها الذي كانت تقوله دائماً: إلهي، وسيدي، ومولاي، متّعني، وفرحني برضاك عنّي.

* رحم اللهُ نفيسة، وأسكنها منَ الجنَان فراديسه.

والحمد لله رب العالمين.. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

* * *

المصادر والمراجع[1]

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ الآداب الشرعية: لابن مفلح. طبعة دار الرسالة المحققة وطبعة مصر.
٣ ـ إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين: للزبيدي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٩ م.
٤ ـ الإتقان في علوم القرآن: للسيوطي ـ تقديم وتعليق د. مصطفى ديب البغا ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط١ ـ ١٩٨٩ م.
٥ ـ أحكام القرآن: لابن العربي ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار المعرفة ـ بيروت.
٦ ـ الأخبار الطوال: للدينوري ـ تحقيق عبد المنعم عامر ـ مراجعة د. جمال الدين الشيال ـ مصر ـ ١٩٥٩ م.
٧ ـ أخبار القضاة: لوكيع محمد بن خلف بن حيان ـ عالم الكتب ـ بيروت.
٨ ـ أخبار مكة: للأزرقي ـ تحقيق رشدي الصالح ملحس ـ دار الأندلس ـ بيروت ط٤ ـ ١٩٨٣ م. وطبعة مكتبة الباز ـ السعودية.

(١) عدنا إلى مئات المصادر ـ كما سيلاحظ القارىء ذلك ـ من خلال القراءة، كما أنني قمت برحلات متنوعة إلى بعض العواصم والمدن العربية لاستكمال هذا البحث، والله وحده يعلم كم لاقيت من المصاعب، ولكن ذلك كان يهون عندما أجد المعلومات التي أبحث عنها. والله من وراء القصد.

٩ ـ الأخبار الموفقيات: للزبير بن بكار ـ تحقيق د. سامي مكي العاني ـ مطبعة العاني ـ بغداد ـ ١٩٧٢ م.
١٠ ـ أخبار النساء: لابن قيم الجوزية ـ مصر ـ ١٣٠٧ هـ ـ وطبعة دار مكتبة الحياة ببيروت.
١١ ـ أدب الدنيا والدين: للماوردي ـ تحقيق ياسين السواس ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط١ ـ ١٩٩٢ م.
١٢ ـ الأزمنة والأمكنة: للمرزوقي ـ حيدر أباد الدكن ـ ١٣٣٢ هـ.
١٣ ـ أساس البلاغة: للزمخشري ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٤١٥ هـ.
١٤ـ أسد الغابة: لابن الأثير ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٨٩ م.
١٥ ـ الاشتقاق: لابن دريد ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ م.
١٦ ـ الإصابة في تمييز الصحابة: لابن حجر العسقلاني ـ تحقيق د. طه محمد الزيني ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ط١ ـ ١٤١١ هـ.
١٧ ـ الأصمعيات: للأصمعي ـ تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٥٥ م.
١٨ ـ الأعلام: للزركلي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ط٨ ـ ١٩٨٤ م، وطبعة مصورة في عشرة أجزاء.
١٩ ـ إعلام الناس: للأتليدي ـ دار صادر ـ بيروت.
٢٠ ـ أعلام النساء: لعمر رضا كحالة ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط٩ ـ ١٩٨٩ م.
٢١ ـ الأغاني: لأبي الفرج الأصبهاني ـ طبعة مصورة عن دار الكتب المصرية ـ وطبعة دار الفكر ببيروت.
٢٢ ـ الإكمال في رفع الارتياب في المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب: لأبي نصر بن ماكولا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ـ ١٤١١ هـ.
٢٣ ـ الأمالي: للقالي ـ مصر ط٣ ـ ١٩٥٣. وطبعة مؤسسة الرسالة.
٢٤ ـ أمالي المرتضى: للشريف المرتضى ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ١٩٥٤ م.

٢٥ ـ إنباء الغمر: لابن حجر ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٢٦ ـ أنساب الأشراف: للبلاذري ـ تحقيق محمد حميد الله ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٥٩ م.
٢٧ ـ الأوائل: لأبي هلال العسكري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ـ ١٤٠٧ هـ.
٢٨ ـ البداية والنهاية: لابن كثير ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٧٨ م.
٢٩ ـ بديعيات الآثاري: لشعبان بن محمد القرشي الآثاري ـ تحقيق وتقديم هلال ناجي ـ بغداد ـ ١٩٧٧ م.
٣٠ ـ البرصان والعرجان: للجاحظ ـ تحقيق محمد مرسي الخولي ـ القاهرة ـ ١٩٧٢ م.
٣١ ـ البصائر والذخائر: لأبي حيان التوحيدي ـ تحقيق د. وداد القاضي ـ دار صادر ـ بيروت ط١ ـ ١٤٠٨ هـ.
٣٢ ـ بغية الوعاة: للسيوطي ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ م.
٣٣ ـ بلوغ الأرب: للآلوسي ـ تحقيق محمد بهجة الأثري ـ ط٢ ـ ١٩٢٤ م.
٣٤ ـ بهجة المحافل وبغية الأماثل: لأبي بكر العامري ـ طبعة مصورة ـ دار صادر ـ بيروت.
٣٥ ـ بهجة المجَالس وأُنْس المُجالس: لابن عبد البر ـ تحقيق محمد مرسي الخولي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٣٦ ـ البيان والتبيين: للجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ القاهرة ـ ١٩٦١ م.
٣٧ ـ تاج العروس: للزبيدي ـ المطبعة الخيرية ـ مصر ـ ١٣٠٦ هـ.
٣٨ ـ تاريخ الأدب العربي: لعمر فروخ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ط٤ ـ ١٩٨١ م.
٣٩ ـ تاريخ الإسلام: لحسن إبراهيم حسن ـ دار الجيل ـ بيروت.
٤٠ ـ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: للذهبي ـ تحقيق د. عمر تدمري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ط١ ١٩٨٧ م.

٤١ ـ تاريخ الأمم والملوك: للطبري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٨٨ م.
٤٢ ـ تاريخ بغداد «أو مدينة السلام»: للخطيب البغدادي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان.
٤٣ ـ تاريخ ابن العمراني: لابن العمراني ـ تحقيق د. إبراهيم السامرائي ـ ليدن ـ ١٩٧٣ م.
٤٤ ـ تاريخ القضاعي: للقضاعي ـ طبعة جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة ـ ١٤١٥ هـ.
٤٥ ـ تاريخ مدينة دمشق: لابن عساكر (تراجم النساء) ـ تحقيق سكينة الشهابي ـ دار الفكر ـ دمشق.
٤٦ ـ تاريخ المدينة المنورة: لابن شبة ـ تحقيق فهيم محمد شلتوت ـ دار التراث ـ بيروت ط١ ـ ١٩٩٠ م.
٤٧ ـ تاريخ مكة: للأزرقي ـ المكتبة التجارية ـ مكة المكرمة ط١ ـ ١٤١٦ هـ.
٤٨ ـ تاريخ اليعقوبي: لليعقوبي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٠ م.
٤٩ ـ تثقيف اللسان: لابن مكي الصقلي ـ تحقيق د. عبد العزيز مطر ـ القاهرة ـ ١٩٦٦ م.
٥٠ ـ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: للمباركفوري ـ صححه عبد الوهاب عبد اللطيف ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ط٣ ـ ١٩٧٨ م.
٥١ ـ الترغيب والترهيب: للمنذري ـ بعناية مصطفى محمد عمارة ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ط٣ ـ ١٩٦٨م.
٥٢ ـ تزيين الأسواق: لداود الأنطاكي ـ القاهرة ـ ١٢٩١ م ـ وطبعة بيروت.
٥٣ ـ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق: د. زكي مبارك ـ دار الكتاب العربي ـ القاهرة ـ ١٩٥٤ م، وطبعة بيروت.
٥٤ ـ التعازي والمراثي: للمبرد ـ تحقيق محمد الديباجي ـ مجمع اللغة العربية ـ دمشق ـ ١٩٧٦ م.

٥٥ ـ تفسير البحر المحيط: لأبي حيان الأندلسي ـ دار الفكر ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٨٣ م.
٥٦ ـ تفسير الخازن وبهامشه البغوي: للخازن والبغوي ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ط٢ ـ ١٩٥٥ م.
٥٧ ـ تفسير القرآن العظيم: لابن كثير ـ مكتبة المنار ـ الأردن ط١ ـ ١٩٩٠ م، وطبعة دار ابن كثير بدمشق.
٥٨ ـ التفسير الكبير «أو مفاتيح الغيب»: للفخر الرازي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ـ ١٩٩٠ م.
٥٩ ـ تلبيس إبليس: لابن الجوزي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ط٦ ـ ١٤١٣ هـ.
٦٠ ـ تلقيح فهوم الأثر: لابن الجوزي ـ مكتبة الآداب ـ مصر. وطبعة الهند.
٦١ ـ تنبيه الغافلين: للسمرقندي ـ تحقيق يوسف بديوي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط١ ـ ١٩٩٣ م.
٦٢ ـ تهذيب الأسماء واللغات: للنووي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ وطبعة دار الفكر ـ بيروت.
٦٣ ـ تهذيب تاريخ دمشق الكبير: صنعة الشيخ عبد القادر بدران ـ دار المسيرة ـ بيروت ١٣٩٩ هـ.
٦٤ ـ تهذيب التهذيب: لابن حجر العسقلاني ـ دار الكتاب الإسلامي ـ القاهرة ـ طبعة مصورة. وطبعة دار الفكر.
٦٥ ـ ثمار القلوب: للثعالبي ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار نهضة مصر ـ ١٩٦٥ م.
٦٦ ـ ثمرات الأوراق بهامش المستطرف: للحموي ـ طبعة دار الفكر المصورة.
٦٧ ـ جامع البيان في تفسير القرآن: للطبري ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ١٩٨٤ م.
٦٨ ـ جامع كرامات الأولياء: للنبهاني ـ مصر.
٦٩ ـ الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٧٠ ـ الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي: د. زهير الخواجا ـ دار الناصر ـ الرياض ط١ ـ ١٤٠٤ هـ.
٧١ ـ جمهرة الأمثال: لأبي هلال العسكري ـ ضبطه د. أحمد عبد السلام، خرّج أحاديثه محمد سعيد زغلول ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ـ ١٤٠٨ هـ.
٧٢ ـ جمهرة أنساب العرب: لابن حزم الأندلسي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٣ م.
٧٣ ـ الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر: للسخاوي ـ القاهرة.
٧٤ ـ حادي الأرواح: لابن قيم الجوزية ـ تحقيق يوسف بديوي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط٢ ـ ١٩٨٦ م.
٧٥ ـ حجة الله على العالمين: للنبهاني ـ تحقيق محمد مصطفى أبو العلا ـ مكتبة الجندي ـ مصر ـ ١٩٧١ م.
٧٦ ـ حسن المحاضرة: للسيوطي ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار إحياء الكتب العربية ـ مصر.
٧٧ ـ الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز: للنابلسي ـ تقديم وإعداد د. أحمد عبد المجيد هريدي ـ الهيئة المصرية العامة للكتب ـ ١٩٨٦ م.
٧٨ ـ حلية الطراز «ديوان عائشة التيمورية» مع القصائد التي لم يسبق نشرها: لعائشة التيمورية ـ نشرتها لجنة المؤلفات التيمورية ـ مطبعة الكتاب العربي.
٧٩ ـ الحيوان: للجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ القاهرة ـ ١٩٤٥ م.
٨٠ ـ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: للبغدادي ـ دار صادر ـ بيروت.
٨١ ـ الخصائص الكبرى: للسيوطي ـ طبعة مصورة ـ دار الكتب العلمية.
٨٢ ـ الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة: لعلي مبارك ـ طبعة مصورة عن الطبعة الثانية بالقاهرة ـ ١٩٦٩ م.

٨٣ ـ خطط الشام: لمحمد كرد علي ـ بيروت ـ ١٩٦٩ م.
٨٤ ـ الداء والدواء: لابن قيم الجوزية ـ تحقيق يوسف علي بديوي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط٢ ـ ١٩٨٩ م.
٨٥ ـ دائرة المعارف الإسلامية: الترجمة العربية ـ إعداد د. عبد الحميد يونس.
٨٦ ـ الدارس في تاريخ المدارس: للنعيمي ـ تحقيق جعفر الحسيني ـ مجمع اللغة العربية ـ دمشق ـ ١٣٧٠ هـ.
٨٧ ـ الدر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: لابن حجر ـ دار الجيل ـ بيروت.
٨٨ ـ الدر المنثور في التفسير المأثور: للسيوطي ـ دار الفكر ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٣ م.
٨٩ ـ الدر المنثور في طبقات ربات الخدور: لزينب فواز العاملية ـ مصر ـ ١٣١٢ هـ.
٩٠ ـ دلائل النبوة: لأبي نعيم الأصبهاني ـ تحقيق د. عبد المعطي قلعجي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٥ م.
٩١ ـ الديارات: للشابشتي ـ تحقيق كوركيس عواد ـ مكتبة المثنى ـ بغداد ط٢ ـ ١٩٦٦ م.
٩٢ ـ ديوان أبي الأسود الدؤلي: تحقيق محمد حسن آل ياسين ـ بيروت ـ ١٩٧٥ م.
٩٣ ـ ديوان أبي تمام: بشرح الخطيب التبريزي ـ تحقيق محمد عبده عزام ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٦٤ م.
٩٤ ـ ديوان أبي العتاهية: تحقيق د. شكري فيصل ـ دار الملاح ـ دمشق ـ ١٩٦٥ م.
٩٥ ـ ديوان ابن الرومي: تحقيق د. حسين نصار ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٧٣ م.
٩٦ ـ ديوان ابن الفارض: دار بيروت ـ ١٣٨٢ م.
٩٧ ـ ديوان أمية بن أبي الصلت: جمع وتحقيق ودراسة د. عبد الحفيظ السطلي ـ المطبعة التعاونية ـ دمشق ـ ١٩٧٤ م.

٩٨ ـ ديوان البارودي: للبارودي ـ حققه وصححه وضبطه وشرحه علي الجارم ومحمد شفيق معروف ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٣٩١ هـ.
٩٩ ـ ديوان البحتري: دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ـ ١٤٠٧ هـ.
١٠٠ ـ ديوان البوصيري: تحقيق محمد سعيد كيلاني ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٧٤ هـ.
١٠١ ـ ديوان حسان بن ثابت: تحقيق د. سيد حنفي حسين ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٧٤ م.
١٠٢ ـ ديوان الحطيئة: تحقيق نعمان أمين طه ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ط١ ـ ١٩٨٥ م.
١٠٣ ـ ديوان زهير بن أبي سلمى: دار الكتب المصرية ـ ١٩٤٤ م. وطبعة بيروت.
١٠٤ ـ ديوان صفي الدين الحلي: دار صادر ـ بيروت.
١٠٥ ـ ديوان طرفة بن العبد: تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال ـ مجمع اللغة العربية ـ دمشق ـ ١٩٧٥ م.
١٠٦ ـ ديوان الطرماح: تحقيق عزة حسن ـ دمشق ـ ١٩٧٠ م.
١٠٧ ـ ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: تحقيق د. محمد يوسف نجم ـ بيروت ـ ١٩٥٨ م.
١٠٨ ـ ديوان علقمة الفحل: حققه لطفي الصقال ودرية الخطيب ـ دار الكتاب العربي ـ حلب ط١ ـ ١٩٦٩ م.
١٠٩ ـ ديوان علي بن الجهم: تحقيق خليل مردم بك ـ دمشق ـ ١٩٤٩ م.
١١٠ ـ ديوان عمر بن أبي ربيعة: بيروت ـ ١٩٦١ م.
١١١ ـ ديوان عنترة: تحقيق محمد سعيد مولوي ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ ١٩٦٥ م. وطبعة بيروت.
١١٢ ـ ديوان كثير عزة: جمع وشرح د. إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت ١٩٧١ م.
١١٣ ـ ديوان مجد الإسلام: لأحمد محرم ـ حققه وراجعه محمود أحمد محرم ـ مكتبة الفلاح ـ الكويت ط١ ـ ١٤١٢ هـ.

١١٤ ـ ديوان المعاني: لأبي هلال العسكري ـ القاهرة ـ ١٣٥٢ هـ.
١١٥ ـ ذمُّ الهوى: لابن الجوزي ـ تحقيق مصطفى عبد الواحد ـ مصر ١٣٨١ هـ.
١١٦ ـ ربيع الأبرار ونصوص الأخبار: للزمخشري ـ تحقيق د. سليم النعيمي ـ دار الذخائر للمطبوعات ـ إيران.
١١٧ ـ رجال مبشرون بالجنة: لأحمد خليل جمعة ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط٣ ـ ١٩٩٦ م.
١١٨ ـ الرحلة الأنسية في الرحلة القدسية: للنابلسي ـ تحقيق أكرم حسن العلبي ـ دار المصادر ـ بيروت ط١ ـ ١٩٩٠ م.
١١٩ ـ رحلة ابن جبير: لمحمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي ـ دار المعارف ـ بيروت ـ ١٤٠٠ هـ.
١٢٠ ـ رحلة إلى الحق: لفاطمة اليشرطية ـ دمشق.
١٢١ ـ الرسالة القشيرية: للقشيري ـ تحقيق د. عبد الحليم محمود، ود. محمود بن الشريف ـ دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ـ ١٩٧٢ م. وطبعة بيروت.
١٢٢ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للآلوسي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ وطبعة دار الفكر بدمشق.
١٢٣ ـ الروض الأنف ـ بهامش السيرة النبوية ـ: للسهيلي ـ تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ مصر ـ ١٩٧١ م.
١٢٤ ـ روض الرياحين: لليافعي ـ مؤسسة عماد الدين ـ قبرص ـ وطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٥٥ م.
١٢٥ ـ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء: لابن حبان البستي ـ مكتبة نزار الباز ـ مكة المكرمة ط١ ـ ١٤١٧ هـ.
١٢٦ ـ الروض الفائق في المواعظ والرقائق: للحريفيش ـ المطبعة الميمنية ـ القاهرة ـ ١٣٠٤ هـ.
١٢٧ ـ الروضة الفيحاء في تواريخ النساء: لياسين العمري ـ تحقيق د. رجاء السامرائي ـ الدار العربية للموسوعات ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٧ م.

١٢٨ ـ روضة المحبين: لابن قيم الجوزية ـ بيروت ـ ١٩٦٧ م. وطبعة حلب.
١٢٩ ـ زاد المسير في علم التفسير: لابن الجوزي ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ ١٩٦٤ م.
١٣٠ ـ زاد المعاد: لابن قيم الجوزية ـ تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط٦ ـ ١٩٨٤ م.
١٣١ ـ الزهد: لأحمد بن حنبل ـ مطبعة أم القرى ـ مكة ـ ١٣٥٧ هـ. وطبعة بيروت.
١٣٢ ـ زهر الآداب وثمر الألباب: للحصري القيرواني ـ حققه وضبطه وشرحه علي محمد البجاوي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ط٢ ـ ١٩٧٠ م.
١٣٣ ـ سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون: لجمال الدين بن نباتة المصري ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ منشورات المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ـ ١٤٠٦ هـ.
١٣٤ ـ سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر: للمرادي ـ دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ط٣ ـ ١٤٠٨ هـ.
١٣٥ ـ سمط اللآلي في شرح أمالي القالي: للبكري ـ تحقيق عبد العزيز الميمني ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ مصر ـ ١٣٥٤ هـ.
١٣٦ ـ سنن ابن ماجه: تحقيق فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ١٩٧٥ م.
١٣٧ ـ سنن أبي داود: إعداد وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
١٣٨ ـ سنن الترمذي: إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس ـ حمص ط١ ـ ١٩٦٦ م.
١٣٩ ـ سنن النسائي: بشرح السيوطي وحاشية السندي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
١٤٠ ـ سير أعلام النبلاء: للذهبي ـ تحقيق جماعة من العلماء والأفاضل ـ

مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط٣ ـ ١٩٨٥ م.
١٤١ ـ السيرة الحلبية: لعلي بن برهان الدين الحلبي ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ط١ ـ ١٩٦٤ م.
١٤٢ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز: لابن الجوزي ـ مصر ـ ١٣٣١ هـ، وطبعة بيروت.
١٤٣ ـ السيرة النبوية: لأحمد زيني دحلان ـ الأهلية للنشر والتوزيع ـ بيروت ـ ١٩٨٣ م.
١٤٤ ـ السيرة النبوية: لابن هشام ـ تحقيق السقا ورفاقه ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ط٢ ـ ١٩٥٥ م.
١٤٥ ـ السيرة النبوية: لابن هشام ـ تحقيق د. عمر تدمري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٨٩ م.
١٤٦ ـ السيرة النبوية: لابن هشام ـ مع شرح أبي ذر الخشني ـ تحقيق د. همام سعيد ورفيقه ـ مكتبة المنار ـ الأردن ط١ ـ ١٩٨٨م.
١٤٧ ـ شاعرات العرب: جمع وتحقيق عبد البديع صقر ـ المكتب الإسلامي ـ ط١ ١٩٦٧ م.
١٤٨ ـ شذرات الذهب: لابن العماد الحنبلي ـ تحقيق محمود الأرناؤوط ومراجعة وإشراف عبد القادر الأرناؤوط ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط١ ١٩٨٦ م.
١٤٩ ـ شرح ديوان المتنبي: للعكبري ـ تحقيق السقا والأبياري وشلبي ـ القاهرة ١٩٣٦ م. وطبعة عبد الرحمن البرقوقي.
١٥٠ ـ شرح شواهد المغني: للسيوطي ـ القاهرة ـ ١٣٢٢ هـ. وطبعة بيروت.
١٥١ ـ شرح مقامات الحريري: لأبي العباس الشريشي ـ مصورة دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ ط١ ١٣٩٩ هـ.
١٥٢ ـ شرح نقائض جرير والفرزدق: ليدن ـ ١٩٠٥ م.
١٥٣ ـ الشعر والشعراء: لابن قتيبة ـ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٦ م، وطبعة بيروت.

١٥٤ ـ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام: للفاسي ـ تحقيق د. عمر تدمري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٥ م.
١٥٥ ـ شهيدة العشق الإلهي: لعبد الرحمن بدوي ـ مطبعة النهضة ـ القاهرة.
١٥٦ ـ الشوقيات: لأحمد شوقي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ط١١ ـ ١٤٠٦ هـ.
١٥٧ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا: للقلقشندي ـ مصورة عن طبعة القاهرة ـ ١٩٦٣ م.
١٥٨ ـ صحيح ابن حبان: بعناية كمال الحوت ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٧ م.
١٥٩ ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته: للألباني ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ط٢ ـ ١٤٠٦ هـ.
١٦٠ ـ صحيح مسلم: تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
١٦١ ـ صفة جزيرة العرب: للحسن بن أحمد الهمداني ـ تحقيق محمد علي الأكوع ـ منشورات دار اليمامة ـ الرياض ـ السعودية ـ ١٣٩٤ هـ.
١٦٢ ـ صفة الصفوة: لابن الجوزي ـ تحقيق محمود فاخوري ود. محمد رواس قلعجي ـ دار المعرفة ـ بيروت ط٢ ـ ١٣٩٩ هـ.
١٦٣ ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: للسخاوي ـ مكتبة القدسي ـ القاهرة ـ ١٣٥٣ هـ.
١٦٤ ـ الطب النبوي: لعبد اللطيف البغدادي ـ تحقيق يوسف بديوي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط١. ١٩٩٠ م.
١٦٥ ـ طبقات الأولياء: لابن الملقن ـ تحقيق نور الدين شريبة ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ١٣٩٣ هـ.
١٦٦ ـ طبقات الحفاظ: للسيوطي ـ تحقيق علي محمد عمر ـ مكتبة وهبة ـ مصر ط١ ـ ١٩٧٣ م. وطبعة بيروت.
١٦٧ ـ طبقات الصوفية: للسلمي ـ تحقيق نور الدين شريبة ـ القاهرة ـ ١٩٥٣ م.

١٦٨ ـ طبقات فحول الشعراء: لابن سلام ـ قرأه وشرحه محمود محمد شاكر ـ مطبعة المدني ـ القاهرة.
١٦٩ ـ الطبقات الكبرى: لابن سعد ـ تحقيق إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت.
١٧٠ ـ الطبقات الكبرى: للشعراني ـ القاهرة ـ ١٢٩٩ هـ.
١٧١ ـ الطبقات الكبرى: للمناوي ـ مخطوطة دار الكتب المصرية.
١٧٢ ـ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين: للفاسي ـ تحقيق فؤاد سيد ـ القاهرة ١٣٥٨ هـ.
١٧٣ ـ العقد الفريد: لابن عبد ربه ـ تحقيق أحمد أمين ورفاقه ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ط٢ ـ ١٩٦٢ م ـ وطبعة محمد سعيد العريان.
١٧٤ ـ عمدة القاري شرح صحيح البخاري ـ لبدر الدين العيني ـ طبعة مصورة عن المطبعة الميمنية ـ بيروت.
١٧٥ ـ عوارف المعارف: للسهروردي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٤٠٣ هـ.
١٧٦ ـ عون المعبود شرح سنن أبي داود: لأبي الطيب الآبادي ـ تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ط٣ ـ ١٩٨٧ م.
١٧٧ ـ عيون الأثر في فنون المغازي والسير: لابن سيد الناس ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ط٣ ـ ١٩٨٢ م ـ وطبعة دار الكلم الطيب بدمشق.
١٧٨ ـ عيون الأخبار: لابن قتيبة ـ مصورة عن دار الكتب ـ مصر ـ ١٩٦٣ م.
١٧٩ ـ غوطة دمشق: لمحمد كرد علي ـ دار الفكر ـ دمشق ط٣ ـ ١٩٨٤ م.
١٨٠ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري: لابن حجر العسقلاني ـ حققه محب الدين الخطيب ـ رقمه وبوبه محمد فؤاد عبد الباقي ـ أشرف على التصحيح قصي محب الدين الخطيب ـ المكتبة السلفية ـ القاهرة ط٤ ـ ١٤٠٨ هـ.
١٨١ ـ الفرج بعد الشدة: للتنوخي ـ تحقيق عبود الشالجي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٨٧ م.

١٨٢ ـ الفصول في سيرة الرسول: لابن كثير ـ تحقيق محمد العيد الخطراوي ومحيي الدين مستو ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط٤ ـ ١٩٨٥ م.
١٨٣ ـ الفهرست: لابن النديم ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ـ ١٤١٦ هـ.
١٨٤ ـ فوات الوفيات: لابن شاكر الكتبي ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٣ م. وطبعة مصر المحققة أيضاً.
١٨٥ ـ الفوائد المجموعة: للشوكاني ـ تحقيق عبد الرحمن اليماني ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٣٧٩ هـ.
١٨٦ ـ القاموس المحيط: للفيروز أبادي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٨٧ م.
١٨٧ ـ قصص العرب: لمحمد أحمد جاد المولى ورفاقه ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ م.
١٨٨ ـ الكامل في التاريخ: لابن الأثير ـ دار صادر ـ بيروت.
١٨٩ ـ الكامل في اللغة والأدب: للمبرد ـ عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ وطبعة مؤسسة الرسالة في بيروت.
١٩٠ ـ كتاب ألف باء: للبلوي ـ مصورة عالم الكتب ـ بيروت.
١٩١ ـ كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة: لأبي إسحاق الحربي ـ تحقيق حمد الجاسر ـ دار اليمامة ـ الرياض ـ ١٣٨٩ م.
١٩٢ ـ كتاب منتخبات التواريخ لدمشق: لمحمد أديب تقي الدين الحصني ـ منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ط١ ـ ١٣٩٩ هـ.
١٩٣ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس: للعجلوني ـ بعناية أحمد القلاش. دار التراث ـ القاهرة.
١٩٤ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: لحاجي خليفة ـ دار الفكر ـ بيروت ط١ ـ ١٤١٤ هـ.
١٩٥ ـ كنز العمال: لعلاء الدين علي المتقي الهندي ـ بعناية حياني والسقا ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط٥ ـ ١٩٨٥ م.

١٩٦ ـ الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة: للغزي ـ حققه وضبط نصه جبرائيل سليمان جبور ـ دار الفكر ـ بيروت.
١٩٧ ـ لسان العرب: لابن منظور ـ طبعة دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٥٥ م.
١٩٩ ـ لسان الميزان: لابن حجر ـ حيدر آباد الدكن ـ ١٣٣١ هـ.
٢٠٠ ـ لطائف الأخبار ـ للتنوخي ـ دار عالم الكتب ـ الرياض ـ ١٤١٤ هـ.
٢٠١ ـ اللطائف والظرائف: للثعالبي ـ مصر ـ ١٣١٠ هـ.
٢٠٢ ـ اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة: للسيوطي ـ القاهرة ـ ١٣٥٢ هـ. وطبعة دار المعرفة ببيروت ـ ١٤٠٣ هـ.
٢٠٣ ـ ماذا عن المرأة: د. نور الدين العتر ـ دار الفكر ـ دمشق ط٣ ـ ١٣٩٩ هـ.
٢٠٤ ـ مجمع الأمثال: للميداني ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة ـ ١٩٥٥ ـ وطبعة بيروت.
٢٠٥ ـ مجمع الزوائد: للهيثمي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.
٢٠٦ ـ المحاسن والمساوىء: للجاحظ ـ تحقيق محمد سويد ـ دار إحياء العلوم ـ بيروت.
٢٠٧ ـ المحاسن والمساوىء: للبيهقي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٠ م.
٢٠٨ ـ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: للراغب الأصفهاني ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت.
٢٠٩ ـ المحبر: لابن حبيب ـ رواية السكري ـ صححه الدكتورة إيلزة ليختن شتيتر ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.
٢١٠ ـ مختصر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: لابن منظور ـ تحقيق عدد من الأفاضل ـ دار الفكر ـ دمشق ط١ ـ ١٩٩٠ م.
٢١١ ـ مدارج السالكين: لابن قيم الجوزية ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٢١٢ ـ مرآة الجنان: لليافعي ـ حيدر آباد ـ ١٣٣٨ هـ.
٢١٣ ـ المرأة في الشعر الجاهلي: لأحمد الحوفي ـ دار نهضة مصر ـ القاهرة ـ ١٩٨٠ م.

٢١٤ ـ المرأة في عالمي العرب والإسلام: لعمر رضا كحالة ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط١ ـ ١٩٧٨ م.
٢١٥ ـ المرأة في القديم والحديث: لعمر رضا كحالة ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط١ ـ ١٩٧٨ م.
٢١٦ ـ مروج الذهب: للمسعودي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار المعرفة ـ بيروت.
٢١٧ ـ المستجاد من فعلات الأجواد: للتنوخي ـ تحقيق محمد كرد علي ـ دمشق ـ ١٩٤٦ م.
٢١٨ ـ المستدرك على الصحيحين: للحاكم النيسابوري ـ مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب.
٢١٩ ـ المستطرف في كل فن مستظرف: للأبشيهي ـ مصر ـ ١٢٧٧ هـ.
٢٢٠ ـ المسند: للإمام أحمد ـ دار الفكر ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٧٨ م.
٢٢١ ـ مسيرتي في طريق الحق: لفاطمة اليشرطية ـ دمشق.
٢٢٢ ـ مصارع العشاق: للسراج القارىء ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٥٨ م.
٢٢٣ ـ المعارضات في الشعر العربي: د. محمد سعد حسين ـ مطابع الفرزدق التجارية ـ الرياض ـ ١٤٠٠ هـ.
٢٢٤ ـ المعارف: لابن قتيبة ـ تحقيق د. ثروت عكاشة ـ دار المعارف ـ مصر ط٢ ـ ١٩٧٧ م.
٢٢٥ ـ معجم الأدباء: لياقوت الحموي ـ دار المأمون ـ القاهرة ـ ١٩٣٦ م.
٢٢٦ ـ معجم البلدان: لياقوت الحموي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٢٢٧ ـ المعرفة والتاريخ: للبسوي ـ تحقيق د. أكرم ضياء العمري ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٨١ م.
٢٢٨ ـ معلقة عمرو بن كلثوم بشرح أبي الحسن بن كيسان: دراسة وتحقيق د. محمد إبراهيم البنا ـ دار الاعتصام ـ القاهرة ط١ ـ ١٤٠٠ هـ.
٢٢٩ ـ المغانم المطابة في معالم طابة (قسم المواضع): للفيروز أبادي ـ تحقيق حمد الجاسر ـ منشورات دار اليمامة ـ الرياض ط١ ـ ١٩٦٩ م.

٢٣٠ ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ لجواد علي ـ مصر ط٢ ـ ١٤١٣ هـ.
٢٣١ ـ المفضليات: للمفضل الضبي ـ تحقيق عبد السلام هارون وأحمد شاكر ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٣ م.
٢٣٢ ـ مقاتل الطالبيين: لأبي الفرج الأصفهاني ـ تحقيق السيد أحمد صقر ـ مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٨٧ م.
٢٣٣ ـ المكافأة: لأحمد بن يوسف الكاتب ـ بيروت.
٢٣٤ ـ المواهب اللدنية: للقسطلاني ـ تحقيق صالح الشامي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ط١ ـ ١٩٩١ م.
٢٣٥ ـ الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء: للمرزباني ـ تحقيق وتقديم محمد حسين شمس الدين ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ـ ١٤١٥ هـ.
٢٣٦ ـ الموطأ: للإمام مالك ـ صححه ورقمه محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة.
٢٣٧ ـ الموضوعات: لابن الجوزي ـ تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ـ المدينة المنورة ـ ١٩٦٦ م.
٢٣٨ ـ النثر الفني في القرن الرابع الهجري: لزكي مبارك ـ بيروت.
٢٣٩ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: لابن تغري بردي ـ طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.
٢٤٠ ـ نزهة الجلساء في أشعار النساء: للسيوطي ـ تحقيق د. صلاح الدين المنجد ـ بيروت ـ ١٩٥٨م، وطبعة مصر.
٢٤١ ـ نساء من عصر التابعين: لأحمد خليل جمعة ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط٢ ـ ١٩٩٢ م.
٢٤٢ ـ نساء من عصر النبوة: لأحمد خليل جمعة ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط٢ ـ ١٩٩٢ م.
٢٤٣ ـ نسب قريش: لمصعب الزبيري ـ تحقيق ليفي بروفنسال ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٥٣ م.

٢٤٤ ـ نظم العقيان في أعيان الأعيان: للسيوطي ـ المكتبة العلمية ـ بيروت.
٢٤٥ ـ نفحات الأزهار على نسمات الأسحار: للنابلسي ـ عالم الكتب ـ بيروت.
٢٤٦ ـ نكت الهميان في نكت العميان: للصفدي ـ بعناية أحمد زكي بك ـ المطبعة الجمالية ـ مصر ـ ١٩١١ م.
٢٤٧ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب: للنويري ـ طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ـ مصر.
٢٤٨ ـ نوادر المخطوطات: تحقيق عبد السلام هارون ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ط٢ ـ ١٩٧٢م.
٢٤٩ ـ نور الأبصار: لمؤمن الشبلنجي ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ـ الطبعة الأخيرة ـ ١٩٤٨ م.
٢٥٠ ـ الهفوات النادرة: لأبي الحسن الصابي ـ تحقيق د. صالح الأشتر ـ دمشق ـ ١٩٦٧ م.
٢٥١ ـ الوافي بالوفيات: للصفدي ـ جمعية المستشرقين الألمانيين ـ مطابع مختلفة ـ ١٩٣١ ـ ١٩٨٤ م.
٢٥٢ ـ الوزراء والكتاب: للجهشياري ـ تحقيق مصطفى السقا ورفاقه ـ القاهرة ـ ١٩٣٨ م.
٢٥٣ ـ الوفا بأحوال المصطفى: لابن الجوزي ـ تحقيق مصطفى عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ـ ١٤٠٨ هـ.
٢٥٤ ـ وفاء الوفا: للسمهودي ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـ دار إحياء التراث العربي ط٤ ـ ١٩٨٤ م.
٢٥٥ ـ وفيات الأعيان: لابن خلكان تحقيق د. إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٨ م.

* * *



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

صدر للمؤلف

١ ـ رجال مبشرون بالجنة ـ جزءان ـ دار ابن كثير .
٢ ـ نساء مبشرات بالجنة ـ جزءان ـ دار ابن كثير .
٣ ـ نساء من عصر النبوة ـ جزءان ـ دار ابن كثير .
٤ ـ نساء من عصر التابعين ـ جزءان ـ دار ابن كثير .
٥ ـ المبشرون بالنار ـ جزءان ـ دار ابن كثير .
٦ ـ نساء الأنبياء في ضوء القرآن والسنة ـ جزء واحد ـ دار ابن كثير .
٧ ـ فرسان حول الرسول ـ جزءان ـ دار الكلم الطيب ـ ودار البشير .
٨ـ الصبر والصابرون ـ جزء واحد ـ دار الكلم الطيب .
٩ـ الصدق والصادقون ـ جزءان ـ دار الكلم الطيب .
١٠ـ التوبة ـ جزءان ـ دار الكلم الطيب .
١١ـ المناجاة ـ جزءان ـ دار الكلم الطيب .
١٢ ـ القرآن وأصحاب رسول الله ـ جزءان ـ دار الكلم الطيب .
١٣ ـ التوكل في القرآن والسنة ـ جزءان ـ دار الكلم الطيب .
١٤ ـ الطاعة في ضوء القرآن والسنة ـ جزءان ـ دار الكلم الطيب .
١٥ ـ نساء من الإسلام ٣ أجزاء ـ دار الهجرة
١٦ ـ رجال من الإسلام ٣ أجزاء ـ دار الهجرة

وصدر للمؤلف عن دار اليمــامة بدمشق

١ ـ نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث مجلد واحد ـ دار اليمامة
٢ ـ نساء من التاريخ مجلد واحد ـ دار اليمامة
٣ ـ التقوى في القرآن والسنةجزء واحد ـ دار اليمامة
٤ ـ الإحسان جزء واحد ـ دار اليمامة
٥ ـ البشرى جزء واحد ـ دار اليمامة
٦ ـ النجاة جزء واحد ـ دار اليمامة
٧ ـ الفلاح جزء واحد ـ دار اليمامة

وسيصدر للمؤلف قريباً بعون الله...

- المرأة في حياة الأنبياء مجلد.
- علماء الصحابة مجلد.
- نساء في قصور الأمراء مجلد.
- رجال أهل البيت مجلد.
- رجال من عصر النبوة مجلدان.
- رجال من عصر التابعين مجلد.
- نفحات أنسية من الأحاديث القدسية مجلد.
- الطفل في ضوء القرآن والسنة مجلد.
- الطب في ضوء القرآن والسنة مجلد.



نساء في قصور الأمراء

(قصص مستوحاة من التراث)

للأستاذ

أحمد خليل جمعة

اليمامة

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - بيروت

التنضيد الضوئي والإخراج الفني بدار اليمامة
دمشق - برامكة - جانب الهجرة والجوازات
ص.ب ٣٧٧ هاتف ٢١٢٢٠٥٩ فاكس ٢١٢٣٢٤٥



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com